المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
قسم الدراسات العليا
"شعبة العقيدة"

مباحث العقيدة في سورة الزمر

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية الماجستير

إعداد الطالب
ناصر بن علي عايض حسن الشيخ

إشراف فضيلة الشيخ
عبد المحسن بن حمد العباد

المجلد الأول

١٤٠٥ - ١٤٠٦هـ

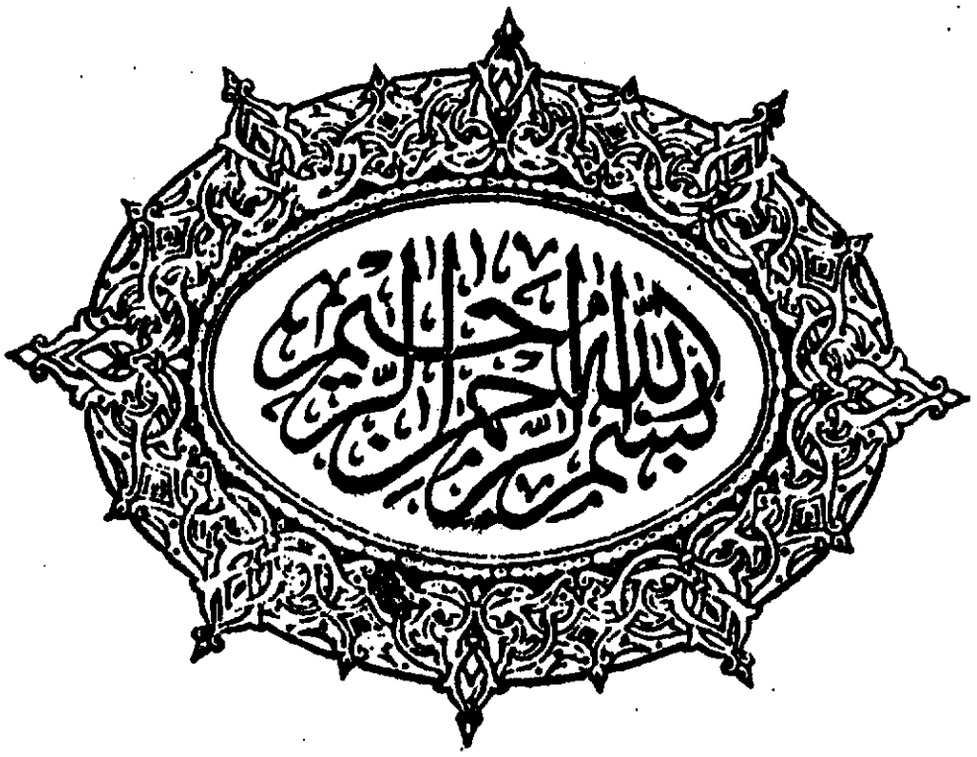
بسم الله الرحمن الرحيم

شکر و تقدیر

"(بسم الله الرحمن الرحيم)

شكر وتقدير

أحمدك اللهم كما ينبغي لكريم وجهك وعز جلالك ، وأستعينك استعانة من لا حول ولا قوة له إلا بك ، وأشكرك الشكر الجزيل على ما أوليتنيه من نعمائك وإحسانك .لا إله غيرك ولا رب سواك أنت أهل الفضل والثناء - سبحانك لا نحصي ثناء عليك وبعد : :

فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من صنع إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه" (١) فمن الإعتراف بالفضل لأهله ، والفعل الحسن لذويه يسرني أن أتقدم بخالص شكري وتقديري لفضيلة شيخي / عبد المحسن بن حمد العباد . الذي تولى الإشراف على هذه الرسالة فكان لحسن إشرافه ودقة متابعته أكبر الأثر في إنجاز هذه الرسالة وإخراجها إلى حيز الوجود ، فقد فتح لي صدره الرحب وجاد علي بتوجيهاته السديدة ، وأعطاني من وقته الكثير إذ لم يكن يقتصر - حفظه الله - على ساعات الإشراف الرسمية بل كان يستقبلني في منزله بوجه مشرق ونفس راضية وسرور بالغ فله مني خالص الشكر والثناء ومن الله المثوبة والجزاء فجزاه الله عني أحسن الجزاء وجعل سعيه مشكورا وأكره في الآخرة والأولى .

وكذلك أشكر فضيلة الشيخ محمد أمان بن علي الجامي ،الذي أشرف على هذه الرسالة في بداية نموها عاما كاملا وأفادني بتوجيهاته وإرشاداته القيمة فقد لمست منه خلال ذلك العام مشرفا مخلصا ، وموجها متقنا فجزاه الله خير جزاء ووفقه لما يحب ويرضى .

---

١) سنن أبي داود ١/ ٣٨٩ ،النسائي ٥/ ٨٢ ،المسند ٢/ ٦٨ .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أقدم شكري لكل من أفادني من أساتذتي وزملائي بكتاب أو إرشاد ،أو أي نوع من المساعدة .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للجامعة الإسلامية ممثلة في القائمين عليها الذين قاموا بما يجب عليهم نحو طلابهم خير قيام وحرصوا على تقديم كل ما يعينهم على أداء مهمتهم وفّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه وجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم ومنّ علينا بالتوفيق والسداد إنه جواد كريم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المقدّمة

((بسم الله الرحمن الرحيم))

- المقدمـــــة -

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتدى ، ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله ،واهتدى بهداه وسلم تسليما كثيرا . أما بعد :

فإن أحق ما يشتغل به الباحثون ، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون ، وأجل ما يتنافس فيه المتنافسون هو دراسة كتاب الله تعالى ، ومواصلة البحث فيه ، والتعمق في الكشف عن علومه وحقائقه ، وإظهار إعجازه ،وتجلية محاسنه والدفاع عنه بنفي الشكوك ، والريب فيه .

فالقرآن الكريم بحر لا يدرك غوره ،ولا تنفد دُرره ولا تنقضي عجائبه فما أحق الأعمار أن تفنى فيه ، والأزمان أن تشغل به ، وكل ساعة يقضيها الباحث في النظر في كتاب الله ، والتأمل فيه ، أو في البحث فيما يتصل به فهو في سبيل الله ونصرة لدينه .

والقرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه نقل إلينا بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، أحكمه فأتقن إحكامه ، وفصله ،فأحسن تفصيله كما قال تعالى : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)(١) لا يتطرق إليه نقض ولا باطل قال تعالى : (وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(٢) .

والقرآن العظيم هو المعجزة العظمى التي أيدها نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو الحجة البالغة الباقية على مر الدهور والعصور تحدى الإنس

---

(١) سورة هود آية / ١ (٢) سورة فصلت آية ٤١-٤٢ .

والجن أن يأتوا بمثله ، أو ببعضه فباءوا بالعجز .

والقرآن الكريم هو هداية الله لخلقه ،وشريعته في أرضه . وهو الكتاب الذي اشتمل على كل ما يحتاج اليه البشر في أمور دينهم ودنياهم في العقائد والأخلاق ، وفي العبادات والمعاملات وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة لا يعتريه خلل ولا اختلاف ، ولا تناقض قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[١] .

فلا عجب إذن أن كانت السعادة الحقة لا تنال إلا بالإهتداء بهديه والإلتزام بما جاء به ،ولا عجب أن كان مصدرا لشفاء الأمراض التي تعتري النفوس والمجتمعات ، فاهتدت به القلوب بعد ضلال وأبصرت به العيون بعد عمى ،واستنارت به العقول بعد جهالة ، واستضاءت به الدنيا بعد ظلمات (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما)[٢] (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا)[٣] .

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[٤] .

والقرآن الكريم هو الكتاب الذي بين الله فيه وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم للناس ، ما يجب له على عباده من إفراده بجميع أنواع العبادة ، وإخلاص الدين له وحده لا شريك له أنزله الله ليتمسك العباد بما فيه من أوامر ويجتنبوا الأمور التي نهى عنها ، فيجب عليهم الإلتزام بما فيه عقيدة وسلوكا قولا وعملا ، ظاهرا وباطنا .

---

(١) سورة النساء آية /٨٢ (٢) سورة الاسراء آية ٩-١٠

(٣) سورة الاسراء آية /٨٢ (٤) سورة المائدة آية ١٥-١٦

ولم يتعرض مع ذلك احد منهم إلى تاويل شيء من هذا ، وراوا باجمعهم

إجراء الصفات ، كما وردت ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانيه الله تعالى ، وعلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفه فمضى عصر الصحابه رضي الله عنهم على هذا (١).

ونتيجة لتلقي الصحابه العقيدة الصافيه النقيه من مصدريها الكتاب والسنة ، وتمسكهم بها كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وكانوا مضرب الأمثال في الايمان والإخاء والعدل والوفاء ، والوفاق والوئام ، وصاروا علماء حكماء رحماء ، وسادة قادة في الحكم والحرب والسيادة لم يوجد لهم من بعدهم مثيل كما أنه لم يوجد قبلهم بعد الأنبياء والمرسلين من يماثلهم ، فقد نعم العالم في زمنهم برغد العيش والأمن والسلام حقبا من الزمان في ظل العقيدة الإسلامية ، وكانت دولة الإسلام في عهدهم دولة مرهوبة الجانب ذللها كل عدو للاسلام والمسلمين ، وكانت تلك الدولة الاسلامية تستمد قوتها من تمسكها بعقيدة التوحيد النقية التي لم تدنس بالفلسفة اليونانية ، والطرق الكلاميه فكانت عقيدتهم صافية نقية كما أخذوها من الكتاب المبين .

ومن السنه النبويه الصحيحة التي أوحاها الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فقويت شوكة الإسلام وسيطر سلطان العقيدة على أرجاء المعموره .

ولما حدثت الطرق الكلامية ، والمذاهب الفلسفية تمزقت الأمة ، وانقسمت فرقا وأحزابا (٢) ، فأخذ الضعف ينخر في أمة الاسلام شيئا فشيئا حتى تدهورت العقيده من نفوس المسلمين ، واهتز الإيمان في قلوبهم ، وكان لضعف العقيدة

---

(١) الخطط للمقريزي ٢ / ٣٥٦ ، وانظر " تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ٨٥ " .

(٢) انظر الخطط للمقريزي ٢ / ٣٤٤ - ٣٥٥ .

عند المسلمين الأثر السيء في جميع نواحي الحياة ، ولقد فهم أعداء المسلمين أن مصدر قوه المسلمين إنما هو في تمسكهم بعقيدتهم ، والتزامهم بما في كتاب ربهم فأخذوا يبعدونهم عما في هذا الكتاب من الخير الدنيوى والأخروى بالدعوة إلى عدم تحكيمه واستبداله بقوانين البشر الطاغوتيه فكانت حالة المسلمين على ماترى !! ضعفوا عن الوصول إلى غاياتهم من قيادة الأمم ، وهداية الشعوب ، يتنازعهم أعداؤهم من جميع الجهات ، ويسعون جاهدين لإضعافهم وإذلالهم نتيجة لتخليهم عن هذا الكتاب الذي هو مصدر قوة عقيدتهم ، وعزهم ، ورفع رايتهم وجمع كلمتهم ، فأصبحوا فريسة لأعدائهم ضعفاء مهزومين متذللين لهم ينظرون إليهم بعين الاكبار والإجلال وهذه الهوة وقع فيها أكثر المسلمين إلا من رحم الله تعالى ولا يمكن أن يعود للمسلمين عزهم ومجدهم إلا بالعودة للتمسك بعقيدتهم المستمدة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة إذ لا تصفو عقيدة المسلمين بما طرأ عليها من شوائب الشرك والبدع إلا بالرجوع إلى هذين المصدرين اللذين صلحت بهما الدنيا ، وحينئذ يعود للمسلمين شأنهم و كما كان للسلف الصالحين الذين حملوا راية الإسلام ؛ وسعوا جاهدين في نشر العقيدة الإسلامية الصافية النقية حتى عمت معظم الكرة الأرضية فنعم الناس في ظلها بالأمن والرخاء والسعادة .

فالكتاب العزيز اشتمل على بيان العقيدة الصحيحة وتجليتها ، والناظر فيه يجد أن معانيه " دائرة على التوحيد وبراهينه والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال ، وما ينزه عنه من سمات النقص ، وعلى الإيمان بالرسل ، وذكر براهين صدقهم ، وأدلة صحة نبوتهم ، والتعريف بحقوقهم ، وحقوق مرسلهم ، وعلى الإيمان بملائكته ، وهم رسله في خلقه وأمره ، وتدبيرهم الأمور بإذنه

وشريعته ، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي ، وما يختص بالنوع الإنساني منهم من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ، ويقدم عليه ، وعلى الإيمان باليوم الآخر ، وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص ، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل التي لا يخالطها سرور ، ولا رخاء ، ولا راحة ، ولا فرح وفصّل ذلك أتم تفصيل وأبينه ، كما اشتمل على تفاصيل الأمر والنهي والشرع والقدر ، والحلال والحرام ، والمواعظ والعبر ، والقصص والأمثال ، والأسباب والحكم ، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره (١) .

وهكذا اشتمل القرآن العظيم على بيان وحدانية الخالق وتفرده بصفات الكمال والجلال ، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل الكرام ، وحث الناس على الإيمان بالبعث والمعاد .

ووجه العقول والأبصار إلى النظر في الأنفس وما فيها من عجائب وأسرار (وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٢)) كما وجههما إلى النظر في الآفاق والآيات الكونية علويها وسفليها ، ظاهرها وخفيها وعما ينطوي عليه من حكم ، وما أودع الله فيها من خواص وسنن وأفاض في ذلك في غير ما آية وسورة (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (٣)) إن في خلق السموات والأرض لآيات لأولي الألباب (٤) (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان (٥) يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥٢ (٢) سورة الذاريات آية / ٢١ .
(٣) سورة البقرة آية / ١٩٤ (٤) سورة آل عمران آية / ١٩٠ .
(٥) جمع صنو أي : نخلات أصلها واحد ونخلات ليست كذلك .

إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١) إلى غير ذلك من الآيات التي لا يحصيها العد .

وبالجملة فكتاب الله قد اشتمل على كل ما يسعد الإنسان ويحتاج إليه في أمر دينه ودنياه ، وما من مشكلة تعرض للأمة الإسلامية إلا وقد وضع لها حلا وعلاجا يتناسب معها ولكن المسلمين لما أعرضوا عنه وجعلوه وراء ظهورهم ،وقفوا أمام مشكلاتهم حائرين مع أن هذا الكتاب المبين قد أبان لهم كل خير ،ووضح لهم جميع أسباب النجاة وأعظم سبب يكفل لهم سعادتهم في الدنيا والآخرة هو تمسكهم بالعقيدة السلفية الصحيحة وإخلاصهم العبادة له - وحده لا شريك له - إذ هي الغاية التي خلق الله الخليقة من أجلها (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٢) ومن أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، فالرسل عليهم الصلاة والسلام جميعهم من لدن نوح إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم دعوا أقوامهم إلى توحيد الله - عز وجل - (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون) (٣) .

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (٤) فالتوحيد هو العماد الأول في حياة الإنسان ،ولذلك زخر القرآن بآياته وسوره بالدعوة إلى عقيدة التوحيد وإخلاصها لله - وحده لا شريك له - فلا نجاة ولا سعادة ،ولا فوز ولا فلاح لأحد من العباد إلا بتحقيق عقيدة التوحيد طبقا لما في الكتاب المبين وسنة نبيه الأمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة الرعد آية / ٤ .
(٢) سورة الذاريات آية / ٥٦ .
(٣) سورة الأنبياء آية / ٢٥ .
(٤) سورة النحل آية / ٣٦ .

وقد اخترت أن يكون موضوع رسالتي لنيل درجة " العالمية الماجستير " مباحث العقيدة في سورة " الزمر " .

سبب اختياري لهذا الموضوع :-

إن سبب اختياري لسورة " الزمر " لتكون موضوع رسالتي هذه ذلك لأنها من أكثر سور القرآن شمولا لكثير من مباحث العقيدة الإسلامية وهي من السور المكية (١) التي عالجت قضايا العقيدة على سبيل التفصيل ، فقد تناولت الحديث عن التوحيد بأنواعه الثلاثة : توحيد الأسماء والصفات وذلك بذكر الكثير من صفات الله - تعالى - وإثباتها له كما يليق بجلاله ، وتوحيد الألوهية : وذلك بذكر الكثير من أنواع العبادة التي لا يستحقها إلا الله - تعالى - وتوحيد الربوبية : وذلك بذكر الكثير من دلائله المحسوسة التي يلمسها العباد ويشاهدونها في حياتهم ، واشتملت أيضا : على بيان ما ينافي التوحيد وينافيه وهو الشرك بالله العظيم ، وذلك بذكر الفرق بين الشرك والموحد وأصل الشرك في بني الإنسان ، وذم الإنسان الذي يجعل لله أندادا ، وبيان أن الشرك محبط للعمل وأن صاحبه من الخاسرين .

ثم انتقل الحديث فيها إلى وجوب الإيمان بالملائكة ، والكتب والأنبياء والرسل ، كما تناولت الحديث عن الايمان بالقدر بذكر مراتبه الأربع ، ثم ختم الحديث فيها عن وجوب الإيمان باليوم الآخر الذي يكون فيه المصير النهائي للمؤمنين والكافرين حيث بين الله في خاتمتها أن الجنة دار المتقين ،

---

(١) اللهم إلا ماروى عن ابن عباس أن " وحشيا قاتل حمزة رضي الله عنه نزل فيه بضع آيات منها : (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . .) إلى آخر ثلاثا آيات ، وقيل : إلى آخر سبع آيات " .

أنظر : " الدر المنثور ٧/ ٢١٠ ، زاد المسير ٧/ ١٦٠ ، فتح القدير للشوكاني ٤/ ٤٤٧ ، " وانظر " أسباب النزول للواحدي ص٢٤٩ لباب النقول للسيوطي ص ١٨٥ ، روح المعاني ٢٣/ ٢٣٢ " .

وأن النار دار الكافرين الذين عبدوا غير الله وأشركوا معه غيره في العبادة فهي دارهم وبئس المصير ، .

ومن هذا يعلم أن السورة تكاد تكون مقصورة من أولها إلى آخرها على الإهتمام بالإيمان بالله تعالى وأنه المعبود بحق دون سواه ، وأنه المتفرد بصفات الكمال والجلال ، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل عليهم الصلاة والسلام ، والايمان بالقدر والبعث والمعاد ، وأن هناك حياة أخرى خيرا من هذه الحياة فإذا ما آمن العباد بهذه العقائد سهل عليهم بعد تلقي تعاليم الشريعة الغراء والإلتزام بها علما وعملا وسلوكا فمن أجل هذه المباحث العقدية التي عرضت لها سورة " الزُّمَرُ " أحببت أن تكون موضوعا لرسالتي هذه ، ولأن من أجل الأعمال وأفضلها الإشتغال بدراسة كتاب الله تعالى وفهم معانيه وتدبر آياته ، وذلك من أحب الأعمال إلى الرب جل وعلا - وأعظمها أجرا لأنه كلام الله ، وكل عمل يتصل بهذا الكتاب من أجل خدمته وتبيينه للناس ليعملوا به فهو قربة يتقرب به إلى الله تعالى ، فإنه ليس شيء أنفع للعباد في معاشهم ومعادهم وأقرب إلى نجاتهم من الإلتزام بما في هذا الكتاب المبين عقيدة وعملا .

منهج البحث :-

إن المنهج الذي اتبعته في إعداد رسالتي هذه هو كالآتي :-

أولاً :-

حصرت مباحث العقيدة التي اشتملت عليها سورة " الزُّمَرُ " وجمعت الآيات التي تتعلق بكل مبحث على حدة ، وجعلت لها عنوانا يتناسب مع ماتدل عليه ، ثم بينت وجه دلالتها على المسألة الإعتقادية مستعينا في ذلك

بأقوال أهل العلم الذين لهم جهود في توضيح العقيدة الاسلامية من علماء التوحيد من سلفنا الصالح كما استعنت بأقوال بعض المفسرين المتقدمين والمتأخرين وشراح الحديث .

ثانيا :-

أحيانا أكرر الآية الواحدة من سورة " الزُّمَر " تحت أكثر من عنوان وذلك لاشتمالها على أكثر من مسألة من مسائل العقيدة فأضطر إلى اعادتها ، وتكرارها في مباحث كثيرة من مباحث الرسالة .

ثالثا :-

أذكر القول الحق في المسألة الإعتقادية وأذكر ما يخالفه غالبا مع بيان الرد عليه .

رابعا :-

رتبت الموضوعات التي وردت في هذه الرسالة على حسب ترتيب أركان الإيمان الستة الواردة في حديث عمر بن الخطاب والمشهور بحديث جبريل الطويل(١) ولم أرتبها على حسب ورودها في السورة غير أنني قدمت موضوع الايمان بالقدر على الإيمان باليوم الآخر لأن من المناسب موضوعيا أن يكون اليوم الآخر هو نهاية المطاف في هذه الرسالة .

خامسا :-

التزمت عند النقل من أي مرجع ، أو الإستفادة منه الإشارة إلى رقم جزئه وصفحته بالإضافة إلى ذكر طبعات المراجع في الفهرست .

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٦ - ٣٧ .

سادسا :-

بينت مواضع الآيات التي وردت في الرساله من غير " سورة الزُّمَر" بذكر اسم السورة ورقمها في الهامش أما آيات سورة " الزمر " فلم أذكر رقمها ، وإنما أذكر عقب الآيات الواردة في كل مبحث أنها من سورة "الزمر".

سابعا :-

عزوت الأحاديث التي أوردتها في الرسالة إلى مصادرها الأصلية من كتب السنة المعتمدة بذكر الجزء والصفحة في الهامش مع بيان درجة الحديث من خلال أقوال المحدثين إن كان الحديث من غير الصحيحين .

ثامنا :-

ترجمت للأعلام الذين جرى نقل شيء من كلامهم في الرسالة .

تاسعا :-

شرحت المفردات الغريبة التي وردت في بعض الأحاديث مستعينا في ذلك بكتب غريب الحديث ، ومعاجم اللغه ، وشروح الحديث ثم ختمت الرسالة بالفهارس الآتيه :-

فهرس الأعلام المترجم لهم مرتبة ترتيبا هجائيا .

فهرس المصادر والمراجع مرتبة كذلك .

فهرس الموضوعات .

(خطة البحث)

لقد قسمت البحث إلى مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة ، وتشتمل المقدمة على بيان اشتمال القرآن على كل ما يسعد الإنسان في دنيـــاه وأخراه ، وعلى بيان اهتمام القرآن بالتوحيد والعقيدة الإسلامية كما تشتمل على سبب اختياري لهذا الموضوع ، والمنهج الذي سرت عليه في البحـــث وهذه الخطة التي بني عليها هذا البحث .

- الباب الأول -

دلالة السورة على الإيمان بالله تعالى

وفيه أربعة فصول :-

الفصل الأول : دلالة السورة على توحيد الأسماء والصفات ويشتمل على المباحث الآتية :-

المبحث الأول : تعريف توحيد الأسماء والصفات .

المبحث الثاني : إثبات صفة العلو والفوقية .

المبحث الثالث : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق .

المبحث الرابع : إثبات صفة العزة .

المبحث الخامس : إثبات صفة الحكمة .

المبحث السادس : تنزيه الله تعالى من نسبة الولد إليه .

المبحث السابع : إثبات صفتي الوحدانية والقهر .

المبحث الثامن : إثبات صفتي الرحمة والمغفرة .

المبحث التاسع : إثبات صفة الغنى لله تعالـــى .

المبحث العاشر : إثبات صفة الرضا .

المبحث الحادى عشر : إثبات صفة العلم .

المبحث الثانى عشر : بيان معنى أسمه تعالى " الوكيل " .

المبحث الثالث عشر : إثبات صفة اليدين .

الفصل الثانى : دلالة السورة على توحيد العبادة ؛

ويشتمل على المباحث الآتيه :-

المبحث الأول : تعريف توحيد العبادة .

المبحث الثاني : وجوب إفراد الله تعالى بتوحيد العبادة .

المبحث الثالث : أهمية الإخلاص في توحيد العبادة

المبحث الرابع : عبودية الدعاء .

المبحث الخامس : عبودية الخوف .

المبحث السادس : عبودية الرجاء .

المبحث السابع : انقسام العبودية إلى عامة ، وخاصه .

المبحث الثامن : الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل .

المبحث التاسع : بيان الطاغوت الذي أوجب الله على عباده أن يجتنبوه .

المبحث العاشر : عبودية الإنابه .

المبحث الحادي عشر : عبودية التوكل .

المبحث الثانى عشر : الشفاعة نوعان منفيه ، ومثبته .

المبحث الثالث عشر : الرسل بعثوا للدعوة إلى توحيد الله بتوحيد العبادة .

الفصل الثالث : دلالة السورة على توحيد الربوبية :-

ويشتمل على المباحث الآتيه :-

المبحث الأول : تعريف توحيد الربوبية .

المبحث الثانى : دلائل توحيد الربوبية من السورة .

المبحث الثالث : إقرار المشركين الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم بوجود الله تعالى .

المبحث الرابع : الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية .

الفصل الرابع : ماجاء في السورة بشأن الشرك ويشتمل على المباحث الآتية :-

المبحث الأول : تعريف الشرك .

المبحث الثاني : أنواع الشرك .

المبحث الثالث : أصل الشرك في بني الإنسان .

المبحث الرابع : ذم الإنسان على جعله أندادا لله تعالى .

المبحث الخامس : الفرق بين الشرك والتوحيد .

المبحث السادس : التحذير من الشرك وبيان أنه محبط للعمل .

- الباب الثاني -
دلالة السورة على الإيمان بالملائكة والكتب ، والرسل ، والقدر

وفيه أربعة فصول :-

الفصل الأول : دلالة السورة على الإيمان بالملائكة وفيه مبحثان :-

المبحث الأول : تعريف الملائكة ، ومن أي شيء خلقوا ؟ .

المبحث الثاني : ذكر بعض أعمال الملائكة

الفصل الثاني : دلالة السورة على الإيمان بالكتب وفيه مبحثان :-

المبحث الأول : كيفية الإيمان بالكتب السابقة .

المبحث الثاني : كيفية الإيمان بالقرآن .

الفصل الثالث : دلالة السورة على الإيمان بالأنبياء والرسل وفيه خمسة مباحث :-

المبحث الأول : تعريف النبي والرسول والفرق بينهما .

المبحث الثاني : كيفية الإيمان بالأنبياء السابقين .

المبحث الثالث : كيفية الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

المبحث الرابع : ما يجب للرسل ، وما يجوز عليهم .

المبحث الخامس : موضوع الرسالات السماوية .

الفصل الرابع : دلالة السورة على الإيمان بالقدر ويشتمل على المباحث الآتية :-

المبحث الأول : تعريف القضاء والقدر ، ومعنى الإيمان به .

المبحث الثاني : بيان المبتدعة الذين نازعوا في القدر والرد عليهم.

المبحث الثالث : مراتب القدر .

المبحث الرابع : ما يتعلق بالهداية والضلال .

- الباب الثالث -

دلالة السورة على الإيمان باليوم الآخر

وفيه ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : مباحث في اليوم الآخر قبل دخول الجنة ،أو النار وهي :-

المبحث الأول : النفخ في الصور .

المبحث الثاني : بعث الموتى من قبورهم .

المبحث الثالث : عناية القرآن بإثبات البعث .

المبحث الرابع : أرض المحشر .

المبحث الخامس : كتاب الأعمال .

المبحث السادس : جزاء الأعمال يوم القيامة .

الفصل الثاني : النار دار الكافرين ويشتمل على المباحث الآتية :-

المبحث الأول : كيفية دخول أهل النار النار .

المبحث الثاني : أبواب جهنم .

المبحث الثالث : خزنة جهنم .

المبحث الرابع : إحاطة النار بأهلها وشدة عذابها .

المبحث الخامس : صفات أهل النار .

المبحث السادس : أبدية النار ودوام عذابها .

الفصل الثالث : الجنة دار المتقين ويشتمل على المباحث الآتيه :-

المبحث الأول : كيفية دخول أهل الجنة الجنة .

المبحث الثاني : أبواب الجنة .

المبحث الثالث : خزنة الجنة .

المبحث الرابع : أرض الجنة .

المبحث الخامس : صفات أهل الجنه .

المبحث السادس : غرف الجنه ،وقصورها ، وأنهارها .

المبحث السابع : أبدية الجنه ودوام نعيمها .

المبحث الثامن : وجوب الإيمان بالعرش وهو سقف الجنة .

وأما الخاتمه : فقد ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها في الرسالة .

البَابُ الأول

- الباب الأول -

دلالة السورة على الايمان بالله تعالى

وفيه أربعة فصول :-

الفصل الأول : دلالة السورة على توحيد الأسماء والصفات .

الفصل الثاني : دلالة السورة على توحيد العبادة .

الفصل الثالث : دلالة السورة على توحيد الربوبية .

الفصل الرابع : ماجاء في السورة بشأن الشرك .

الفصل الأول

- الفصـــل الأول -

دلالـة السورة على توحيد الأسماء والصفات

ويشتمل على المباحث الآتيه :-

المبحث الأول : تعريف توحيد الأسماء والصفات .

المبحث الثانى : إثبات صفة العلو والفوقيـــــه .

المبحث الثالـــث : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق .

المبحث الرابـــع : إثبات صفة العزة .

المبحث الخامـــس : إثبات صفة الحكمة .

المبحث السـادس : تنزيه الله تعالى من نسبة الولد إليه .

المبحث السابـــع : إثبات صفتي الوحدانيه والقهـــر .

المبحث الثامـــن : إثبات صفتي الرحمة والمغفـــرة .

المبحث التاســـع : إثبات صفه الغنى للـه تعالـى .

المبحث العاشـــر : إثبات صفه الرضا .

المبحث الحادى عشـر : إثبات صفة العلم .

المبحث الثانى عشـر : بيان معنى اسمه تعالى " الوكيل " .

المبحث الثالث عشـر : إثبات صفة اليد يـــــــــــن .

ـ المبحث الأول ـ

تعريف توحيد الأسماء والصفات

هو : أن يعتقد العبد اعتقادا جازما أن ما أخبر الله في كتابه من أوصافه العليا ، وأسمائه الحسنى ، وكذا ماجاءت به الأحاديث الصحيحة من أسمائه وصفاته هي على ما يليق بجلاله وعظمته وكبريائه .

جاء في لوامع الأنوار : " وتوحيد الصفات أن يوصف الله ـ تعالى ـ بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم نفيا ، وإثباتا فيثبت له ما أثبته لنفسه وينفي عنه مانفاه عن نفسه ، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ماأثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه مانفاه عن نفسه ويثبتون له ماأثبته من الصفات من غير إلحاد في الأسماء ولا في الآيات ، فإنه تعالى ذم الملحدين في أسمائه وآياته " أ . هـ (١) .

ولا يعرف الإنسان ربه إلا بمعرفته بصفاته وأسمائه ، فإذا ماتم له معرفة ذلك عرف ـ ربه جل وعلا ـ وحينئذ يسأل ربه ويدعوه بأسمائه الحسنى كما أمر الله بذلك في محكم كتابه حيث قال ـ عز شأنه ـ : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) (٢) .

وقال تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٣) وقال تعالى : (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) (٤) .

---

(١) لوامع الأنوار البهية ١/ ١٢٩ ، وانظر تيسير العزيز الحميد ص ١٩ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٨٠ (٣) سورة الاسراء آية ١١٠ .
(٤) سورة " طه " آية ٨ .

وقد عرف السلف ربهم ومعبودهم عن طريق معرفة أفعاله الحسنى وصفاته العلى التي أثبتها لنفسه في كتابه ـ العزيز ـ وأثبتها لـــه رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته الشريفه .

قال الصابوني (١) : مبينا عقيدة السلف في أسماء الله ـ تعالى ـ وصفاتـــه " أصحاب الحديث حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم يشهدون لله ـ تعالى ـ بالوحدانية وللرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة والنبوّة ويعرفون ربّهم ـ عز وجل ـ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله ، أو شهد له بها رسولـــه صلى الله عليه وسلم على ماوردت الأخبار الصحاح به ، ونقلته العدول الثقات عنه ، ويثبتون له ـ جل وعلا ـ ما أثبت لنفسه في كتابه وعلى لسان رسولـــه صلى الله عليه وسلم ، ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه فيقولـــون : إنه خلق آدم بيده كما نس ـ سبحانه ـ وتعالى عليه في قوله عز من قائـل : (قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي (٢)) ولا يحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليد بن على النعمتين ، أو القوّتين ولا يكيفونهما بكيف أو تشبيههما بأيدي المخلوقين ، وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريـــف والتكييف ، ومنّ عليهم بالتعريف ، والتفهيم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه واتبعوا قول الله ـ عز وجل ـ (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (٣)) .

---

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل ، أبو عثمـــان الصابوني مقدم أهل الحديث في بلاد خراسان ، لقبه أهل السنة فيها بشيخ الإسلام فلا يعنون ـ عند إطلاقهم هذه اللفظه ـ غيره .
ولد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وتوفي سنة تسع وأربعين وأربعمائـــه هجريه .
أنظر ترجمته في : " معجم الأدباء ٧/ ١٦ ، وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٣٠-٣٦ ، الأعلام ١/ ٣١٤ " .

(٢) سورة " ص " آيه / ٧٥ . (٣) سورة الشورى آيه / ١١ .

وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح ، من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعزة والعظمة والإرادة والمشيئة ، والقول والكلام والرضا والسخط والحياة واليقظة والفرح والضحك وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين ، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله - تعالى - وقاله رسوله صلى الله عليه وسلم فيزيادة عليه ولا إضافة إليه ولا تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل " أ . هـ . (١)

ومن قبل الصابوني قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي (٢) مقررا عقيدة السلف الصالح في صفات الله - تعالى - :

" الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى " .

(عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) (٣) .

يعلم سر خلقه وجهرهم ويعلم ما يكسبون ، نحمده بجميع محامده ، ونصفه بما وصف به نفسه ووصف به الرسول فهو الله ، الرحمن الرحيم قريب مجيب (فعال لما يريد) (٤) الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل

---

(١) مجموعة الرسائل المنيرية ١ / ١٠٦-١٠٧ .

(٢) هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي الشافعي السجستاني الهروي .

ولد سنة مائتين وتوفي سنة ثمانين ومائتين هجريه وهو أحد الأعلام الثقات من أئمة الحديث والفقه ، وكان شديد الرد على المحرفين للعقيدة الإسلامية .

أنظر ترجمته في : " تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٢١ ، الأعلام ٤ / ٢٠٥ " .

(٣) سورة سبأ آية / ٣ .

(٤) سورة البروج آية ١٦ .

شيء له الأمر من قبل ومن بعد و(له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)[١] و(له الأسماء الحسنى)[٢]. يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، يقبض ويبسط ويتكلم ويرضى ، ويسخط ويغضب ، ويحب ويبغض ، ويكره ويضحك ويأمر وينهي ، ذو الوجه الكريم ، والسمع السميع ، والبصر البصير ، والكلام المبين ، واليدين والقبضتين ، والقدرة والسلطان والعظمة والعلم الأزلي ، لم يزل كذلك ولا يزال ، استوى على عرشه فبان من خلقه لا تخفى عليه منهم خافية علمه بهم محيط وبصره بهم نافذ (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٣].

فبهذا الرب نؤمن وإياه نعبد وله نصلي ونسجد فمن قصد بعبادته إلى إلـه بخلاف هذه الصفات فإنما يعبد غير الله وليس معبوده بإلـه كفرانه لا غفرانه " أ . هـ "[٤].

هذا هو منهج السلف في تعرفهم على ربهم وهو معرفتهم له عن طريق معرفة أسمائه وصفاته التي اتصف بها كما نطق بها كتابه الكريم ونطقت بها سنة رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، يدعونه - تعالى - بها ويتعبدونه بذكرها .

وهناك أمور ينبغي أن تعلم نحو أسمائه - تبارك وتعالى - :

الأمر الأول :-

أن أسماءه - تعالى - لا تدخل تحت حصر ولا يحويها عدد لحديث[٥]

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٤ .
(٢) سورة " طه " آية ٨ .
(٣) سورة الشورى آية / ١١
(٤) الرد على الجهمية ص ٣-٤ .
(٥) بدائع الفوائد ١/١٦٦ .

عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي إلا أذهب الله حزنه وأبدله مكانه فرجا "(١).

وأما ما ورد في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة"(٢) فليس المراد منه حصر الأسماء ، وإنما المراد الإخبار بأن من أحصى هذه الأسماء دخل الجنة ، وقد اختلف العلماء في معنى الاحصاء ، وأقرب الأقوال إلى الصواب أن المراد بالإحصاء حفظها مع اعتقاد ما دلت عليه والعمل بذلك(٣).

الأمر الثاني :-

أن من أسماء الله -تعالى- ما لا يطلق على الرب -سبحانه- إلا مقترنا بمقابله ، إذ لو أطلق عليه وحده أو هم نقصا -تعالى الله عن ذلك- فمن تلك الأسماء المانع يذكر مع المعطي ، والضار يذكر مع النافع ، والقابض يذكر مع

---

(١) رواه أحمد من حديث ابن مسعود المسند مع الفتح الرباني ١٤/ ٢٦٢-٢٦٣ ، قال الهيثمي رواه أبو يعلى ورجال الحديث رجال الصحيح غير أبي سلمه الجهني وقد وثقه ابن حبان . مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٦ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ١٣/ ٢٧٧ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ٥ .

(٣) فتح الباري ١٣/ ٢٧٨ .

الباسط ،والمذل يذكر مع المعز ، والخافض يذكر مع الرافع ،فمثل هذه الأسماء تطلق على الله مع ذكر مقابلها (١).

الأمر الثالث :-

هناك معنى الأفعال أطلقها -الباري سبحانه - على نفسه وهي تدل على صفات لله تعالى تليق به ،ولا يجوز أن يشتق له أسماء من تلك الصفات .

مثل قوله تعالى : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم (٢)) ومثل قوله تعالى (ومكروا ومكر الله (٣)) ومثل قوله تعالى (وإذا خلو إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ألله يستهزئ بهم (٤)) .

ونحو ذلك من الآيات فهذه الصفات تتضمن مدحا وكمالا - للباري سبحانه - لكن لا يجوز أن يقال : ألله مخادع ،ماكر ،مستهزئ ،ولا يقال : الله يستهزئ ،ويخادع ،ويمكر على سبيل الإطلاق دون ذكر الإستهزاء والمخادعة ،والمكر بأعدائه (٥).

٤ - أن دلالة أسمائه -تعالى -حق على حقيقتها مطابقة ،وتضمنا والتزاما ، فدلالة اسمه "الرحمن" على ذاته -عز وجل - مطابقة وعلى صفة الرحمة تضمنا ،وعلى الحياة وغيرها التزاما وهكذا سائر أسمائه -تعالى - فإن الله -تبارك وتعالى - هو الإله وما سواه عبيد وهو الرب

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٦٧ .
(٢) سورة النساء آية ١٤٢ (٣) سورة آل عمران آية ٥٤ .
(٤) سورة البقرة آية ١٤-١٥ (٥) أنظر لبدائع الفوائد ١/ ١٦٢.

وما سواه مربوب ، وهو الخالق وما سواه مخلوق فلو كانت أسماء الله - تعالى - غيره ، كما زعم ذلك أهل الأهواء لكانت مخلوقة مربوبة محدثة معرضة للفناء ، إذ كل ماسواه - سبحانه - فان " ،

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : في معرض بيان بطلان قول القائلين بأن صفات الله - تعالى - غيره " لأن مسمى اسم " الله " يدخل فيه صفاته بخلاف مسمى الذات فإنه لا يدخل فيه الصفات .

ولهذا لا يقال : " صفات الله زائدة عليه - سبحانه وتعالى - ، وإن قيل : الصفات زائدة على الذات لأن المراد زائدة على ما أثبته المثبتون من الذات المجردة ، والله هو الذات الموصوفة بصفاته اللازمة فليس " اسم الله " متناولا لذات مجردة عن الصفات أصلا ، ولا يمكن وجود ذلك ، ولهذا قال أحمد (١) رحمه الله في

---

(١) هو : الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي ثم البغدادي .
الفقيه ، الحافظ .
ولد سنة أربع وستين ومائة .
توفي سنة احدى وأربعين ومائتين هجرية .

أنظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ ٢ / ٤٣١ ، طبقات الحنابلة ١ / ٤ ، صفة الصفوة ٢ / ٣٣٦ ، تهذيب الكمال ١ / ٤٣٧ .

مناظرة الجهمية[1] : لا نقول : ألله وعلمه ، والله وقدرته والله ونوره ، ولكن نقول : ألله بعلمه وقدرته ونوره هو إله واحد[2] !

---

(١) هي : إحدى الطوائف المنحرفة تتبع الجهم بن صفوان الذي قال : بالإجبار والإضطرار إلى الأعمال ، وأنكر الإستطاعات كلها وزعم أن الجنه والنار تبيدان وتفنيان وزعم أيضا : أن الإيمان هو المعرفة بالله ـ تعالى ـ فقط ، وأن الكفر هو الجهل به فقط وقال : لا فعل ولا عمل لأحد غير الله ـ تعالى ـ وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز ، ونفى أسماء الله ـ تعالى ـ وصفاته كلية " .

أنظر " الفرق بين الفرق " ص ٢١١ ، الملل والنحل ٨٦/١ ، إعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٦٨ .

(٢) إقتضاء الصراط المستقيم ص ٤٢١ .

ـ المبحث الثاني ـ

إثبات صفة العلو والفوقيـــة

إن أول ما افتتحته " سورة الزمر " هو إثبات صفة العلو والفوقية ـ للباري جل وعلا ـ وذلك في خمس آيات منها :

قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين) ؛

وقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) .

وقال تعالى : (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل) .

وقال تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) .

ففي هذه الآيات الخمس دلالة واضحة على إثبات علو الله ـ تعالى ـ وأنه فوق المخلوقات جميعها لأن نزول الشيء يكون من أعلا إلى أسفل .

فالآية الأولى : من تلك الآيات المتقدمة هي قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) فيها إخبار منه ـ تعالى ـ بأن مبدأ تنزيل القرآن كائن منه ـ جل وعلا ـ ومن عنده ـ تبارك وتعالى ـ .

أنظر ترجمته في : "تذكرة الحفاظ" ١/١٢٢ ومابعدها ، اللباب في تهذيب الأنساب" ٢/١٠٨ ، التهذيب ٨/٣٥١ .

(٢) جامع البيان ٢٣/٢١٠ .

دلت على علوه ـ تعالى ـ كما دلت أيضا : أنه ـ تعالى ـ أنزل هذا الكتاب لجميع الخلق من الجن والإنس لينذرهم به ، وأن من اهتدى منهم فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ، ومن ضل فإنما يعود وبال ضلاله عليه ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بموكل على هدايتهم ، وإنما هو نذير عليه البلاغ ، وعلى الله الحساب .

وأما الآية الخامسة : وهي قوله تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم . . .) الآيه .

فقد تضمنت أمرا من الله ـ جل وعلا ـ لجميع عباده بأن يتبعوا ما أمرهم به ـ تعالى ـ في كتابه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك دليل على علوه ـ سبحانه ـ .

قال العلامة ابن جرير[1] : " فان قال قائل : ومن القرآن شيء أحسن من شيء قيل له : القرآن كله حسن وليس معنى ذلك ماتوهمت ، وإنما معناه واتبعوا مما أنزل إليكم ربكم من الأمر والنهي والخبر والمثل والقصص والجدل والوعد والوعيد أحسنه ، وأحسنه أن تأتمروا لأمره وتنتهوا عما نهى عنه لأن النهي مما أنزل في الكتاب، فلو عطوا بما نهوا عنه كانوا عاطين بأقبحه ـ أي العمل ـ فذلك وجهه "أ . هـ .[2]

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري ،أبوجعفر ،المؤرخ المفسر الامام ولد في آمل طبرستان ،واستوطن بغداد وتوفي بها .
ولد سنة أربع وعشرين ومائتين وتوفي سنة عشر وثلاثمائة .
أنظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ ٢ / ٧١٠ ،وفيات الأعيان ١ / ٤٥٦ البداية والنهاية ١١ / ١٦٣-١٦٥ وانظر الأعلام ٦ / ٢٩٤ .

(٢) جامع البيان ٢٤ / ١٧-١٨ .

فهذه الآيات الخمس من الآيات المحكمة التي أثبتت علو ـ الباري سبحانه ـ على جميع خلقه وأنه ـ جل جلاله ـ في السماء أي : "العلو" لا كما يزعمه أهل الباطل من الجهمية المعطلة من أنه ـ تعالى ـ في أسفل الأرضين ، بل هو ـ تعالى ـ في السماء كما أخبر بذلك عن نفسه في مواضع كثيره من كتابه ، وأكد ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته المطهرة .

قال ابن خزيمة (١) رحمه الله تعالى : " إن الرب ـ جل وعلا ـ في السماء لا كما قالت الجهميه المعطلة أنه في أسفل الأرضين فهو في السماء " أ . هـ (٢) .

وقد وردت آيات كثيره في الكتاب العزيز كلها تدل دلالة قطعية على إثبات علوه ـ تعالى ـ على خلقه وأنه ليس تحت الأرض ولا في كل مكان كما يزعم ذلك أهل الزيغ والباطل ومن تلك الآيات ما يلي :ـ

أحدها :ـ

أنه ـ سبحانه وتعالى صرّح بفوقيته المقترنة بأداة " من " المعينة للفوقيه بالذات . قال تعالى (ولله يسجد مافي السموات ومافي الأرض من دابة والملائكه وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) (٣) .

---

(١) هو : محمد بن إسحاق بن خزيمه السلمي أبوبكر ، إمام نيسابور في زمنه .
كان فقيها مجتهدا عالما بالحديث .
ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين وتوفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة هجريه له مؤلفات كثيره ، لقب بإمام الأئمة .

أنظر ترجمته في : "تذكرة الحفاظ" ٢ / ٧٢٠ ومابعدها ، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣١٣ ـ ٣١٤ ، البداية والنهاية ١١ / ١٦٧ .

(٢) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ص ١١٠ .
(٣) سورة النحل آيه ٤٩ ـ ٥٠ .

ففي الآيه الثانيه إعلام من الله ـ تعالى ـ بأنه فوق ملائكته وفوق مافي السموات ومافي الأرض من دابه ، وأخبرنا بأن ملائكته يخافون ربهم الذي فوقهم والمعطلة يزعمون أن المعبود ـ سبحانه ـ تحت الملائكة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ثانيا :ـ

ذكره تعالى الفوقيه مجردة عن الأداة :ـ

قال تعالى (وهو القاهر فوق عباده)(١) وهذه الآية فيها الإخبار منه ـ تعالى ـ بأنه فوق جميع عباده من الجن والإنس والملائكة الذين هم سكان السموات .

ثالثا :ـ

إخباره تعالى بعروج الملائكة والروح إليه .

قال تعالى : (تعرج الملائكة والروح إليه)(٢) فقد أخبرنا ـ تعالى ـ في هذه الآية بأن الملائكة تعرج إليه ، والعروج يكون من الأسفل الى الأعلى .

رابعا :ـ

التصريح منه ـ تعالى ـ بالصعود إليه :ـ

قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)(٣) .

والمفهوم من هذه الآية أن الرب ـ جل جلاله ـ فوق من يتكلم بالكلمة الطيبة فتصعد إلى الله كلمته ، لا كما تزعمه المعطلة الجهمية أنه تهبط إليه

---

(١) سورة الأنعام آية / ١٨ . (٢) سورة المعارج آيه ٤ .

(٣) سورة فاطر آيه / ١٠ .

الكلمة الطيبة كما تصعد إليه وتأويلهم هذا يدل على تردي عقولهم وسوء فهمها لكتاب الله ـ تعالى ـ .

خامسا :ـ

تصريحه تعالى برفع بعض المخلوقات إليه كرفعه لعيس عليه الصلاة والسلام .

قال تعالى : (بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما)(١) فمن المستحيل أن يهبط الإنسان من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو إلى أي مكان أخفض وأنزل فيقال : رفعه الله إليه ، لأن الرفع في لغة العرب الذين بلغتهم خاطبنا الله لا يكون إلا من أسفل إلى أعلا وفوق .

سادسا :ـ

تصريحه ـ تعالى ـ بعلوه المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا ، وقدرا ، وقهرا قال تعالى (وهو العلي العظيم)(٢) .

وقوله تعالى : (وهو العلي الكبير)(٣) .

وقوله ـ عز شأنه ـ (سبح اسم ربك الاعلى)(٤) .

فالعلي : هو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه .

علو الذات : كونه فوق جميع المخلوقات .

علو القدر : له من كل صفات الكمال أعلاها .

علو القهر : فهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير(٥) .

---

(١) سورة النساء آية / ١٥٨ .
(٢) سورة البقرة آية / ٢٥٥ .
(٣) سورة سبأ آية / ٢٣ .
(٤) سورة الأعلى آية / ١ .
(٥) مدارج السالكين ١ / ٣١ .

" وإذا كانت صفة العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيها ولا تستلزم نقصا ولا توجب محذورا ولا تخالف كتابا ولا سنة ولا إجماعا فنفي حقيقتها يكون عين الباطل ، والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلا فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة والفطرة المستقيمة ، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة الدالة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده "(١) .

سابعا :-

تخصيصه بعض المخلوقات بأنها عنده وأن بعضها أقرب إليه من بعض .

قال تعالى : (إن الذين عند ربك يسبحون له وله يسجدون)(٢) .

وقال تعالى : (وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون)(٣) ففرق - سبحانه - في هاتين الآيتين بين من له عموما وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصا .

ثامنا :-

تصريحه تعالى بأنه في السماء :

قال تعالى (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير)(٤) .

---

(١) شرح الطحاوية ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) سورة الاعراف آية ٢٠٦ (٣) سورة الأنبياء آية ١٩ .

(٤) سورة الملك آية ١٦ ، ١٧ .

فهاتان الآيتان : صريحتان في أن الله ـ تعالى ـ في السمـــاء فلا تقبلان جدلا ولا تأويلا لأن " من " فيهما لا يمكن أن يراد بهمـا سوى ـ الرب جل شأنه ـ لا ملكه ولا أمره كما يزعم ذلك المعطلة النفاة.

و (في) في الآيتين إما أن تكون بمعنى الظرفية ، ويكون المراد بالسماء العلو .

وإما أن يراد بها معنى "على" ويكون المراد بالسماء المبنية .

وليس في هذا خلاف عند أهل الحق من أهل السنه والجماعـة ، ولا يجوز الحمل على غير ذلك .

تاسعا :ـ

تصريحه تعالى بأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه . قال تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه)(١) .

واللغة العربيه التي خاطبنا الله بها وفهمها العرب الفصحاء تبين بأن تدبير أمر السماء إلى الأرض إنما يدبره المدبر وهو في السماء لا في الأرض والمعروف عند العرب أن المعارج هي المصاعد .

عاشرا :ـ

إخباره ـ تعالى ـ عن فرعون أنه حاول الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبره به من أنه ـ سبحانه ـ فوق السموات قال تعالى حكاية عن فرعون (ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب. أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا)(٢) .

---

(١) سوره السجدة آيه ٨ . (٢) سورة غافر آيه ٣٦ .

فالذي ينفي العلو من الجهمية فهو فرعوني ، والذي أثبته فهو موسوي محمدي .

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي :-

" ففي هذه الآية بيان بين ،ودلالة ظاهرة أن موسى كان يدعو فرعون إلى معرفة الله بأنه فوق السماء فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح ورام الإطلاع وكذلك نمرود فرعون إبراهيم ،اتخذ التابوت والنسور ورام الإطلاع إلى الله لما كان يدعو إبراهيم إلى معرفته في السماء "(١) .

الحادي عشر :-

من الأدلة الدالة على علوة تعالى إخباره -تعالى - بأنه استوى على عرشه الذي هو أعلا مخلوقاته وقد ذكر هذه الصفة في كتابه في مواضع سبعة من كتابه ، ومن العجيب أن الله -تعالى - ما يذكر هذه الصفة إلا وهي مقرونة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله فهي صفة من صفات المدح التي مدح الله بها نفسه - سبحانه - وإليك المواضع التي ذكرت فيها صفه الاستواء الدالة على علوه -تعالى - .

١) قال تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)(٢) .

---

(١) الرد على الجهمية ص ٢١ . (٢) سورة الأعراف آيه / ٥٤ .

فهل لأحد أن يتجرأ وينفي هذه الصفة التي دلت على الجلال والكمال أللهم إلا من كان من أهل الزيغ والضلال .

٢) قوله تعالى : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه)[١] .

٣) قال تعالى : (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى)[٢] .

٤) قال تعالى : (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى)[٣] .

٥) قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ، الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا)[٤] .

٦) وقال تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون)[٥] .

٧) وقال تعالى هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير)[٦] .

---

(١) سورة يونس آيه ٣ (٢) سورة الرعد آيه ٢ .
(٣) سورة طه آيه ١-٥ . (٤) سورة الفرقان آيه ٥٨-٥٩ .
(٥) سورة السجدة آيه ٣-٤ (٦) سورة الحديد آيه ٣-٤ .

فهذه سبعة مواضع في كتاب الله تعالى ـ أثبت الله ـ تعالى ـ لنفسه فيها صفة الإستواء ، وهي تدل دلالة واضحة وصريحة على علوه تعالى فوق جميع مخلوقاته ، كما تدل على أنه ـ تعالى ـ مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تكييف ، ولا تمثيل ، ولا تحريف ولا تعطيل .

قال العلامة ابن القيم (١) رحمه الله تعالى : " واستواءه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجا إلى ما يحمله ، أو يستوي عليه ، بل العرش محتاج إليه ، وحملته محتاجون إليه فهو الغني عن العرش ، وعن حملته وعن كل ما سواه ، فهو استواء وعلوا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة شيء به ـ سبحانه ـ وتعالى ، بل كان ـ سبحانه ـ ولا عرش ، ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد بان استواءه على عرشه واستيلاءه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما " (٢) . ا . هـ .

وقال عثمان بن سعيد الدارمي : بعد أن ساق كثيرا من الآيات الدالة على علو الله ـ تعالى ـ رادا على الجهمية ومبينا بطلان مذهبهم

---

(١) هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين من أركان الإصلاح الإسلامي وأحد كبار علماء الدين ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة وتوفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة هجرية .
له مؤلفات عديدة في مختلف العلوم والفنون .

أنظر ترجمته في : الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٠ ، البداية والنهاية ١٤/ ٢٠٢ - ٢٠٤ ط. المتوسط ـ بيروت ـ لبنان ، بدون تاريخ .

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ١٣٦ .

في إنكار صفة العلو " أقرت هذه العصابة يعني ـ الجهمية ـ بهذه الآيات بألسنتها وادعوا الإيمان بها ، ثم نقضوا دعواهم بدعوى غيرهم ، فقالوا : " الله في كل مكان لا يخلو منه مكان قلنا قد نقضتم دعواكم بالإيمان باستواء الرب على عرشه إذا ادعيتم أنه في كل مكان فقالوا : تفسيره عندنا أنه ـ استولى عليه وعلاه ـ قلنا : فهل من مكان لم يستول عليه ولم يعله حتى خص العرش من بين الأمكنة بالإستواء عليه ؟ .

وكرر ذكره في مواضع كثيرة من كتابه فأي معنى إذاً لخصوص العرش إذا كان عندكم مستويا على جميع الأشياء وكاستوائه على العرش ـ تبارك وتعالى ـ هذا محال وباطل في الكلام(١) اهـ.

فلو كان ـ البار سبحانه وتعالى ـ في كل مكان على حسب زعم الجهمية لجعل كل شيء دكا فانه حين سأله كليمه موسى عليه السلام أن يريه ينظر إليه قال له : (لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)(٢) .

قال ابن خزيمة حول هذه الآية : " أظليس العلم محيطاً بأن ذوي الألباب أن الله ـ عز وجل ـ لو كان في كل موضع ومع كل بشر وخلق كما زعمت ـ الجهمية ـ المعطلة لكان متجليا لجميع أرضه سهلها ووعرها وجبالها وبراريها ومفاوزها ومدنها وقراها وعمارتها وخرابها وجميع مافيها من نبات وبناء لجعلها دكا كما جعل الله الجبل الذي تجلى له دكا " اهـ.(٣)

---

(١) الرد على الجهمية ص ١٨ . (٢) سورة الأعراف آية / ١٤٣ .
(٣) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ص ١١٢ .

وبالجملة فظاهر القرآن يدل على إثبات علو الله -تبارك وتعالى- وأنه على عرشه الذي هو أعلى المخلوقات وهو -سبحانه- بائن من خلقه ويظهر لنا في ذلك التنزيلي ولا حاجة لنا إلى تأويل المكذبين به في أنفسهم ويتسترون عن ذلك باسم التأويل وليس هو تأويلا ، وانما هو تحريف وتعطيل وتبديل .

والقارئ للكتب التي ألفت في أسباب نزول آيات القرآن يجد أن الصحابة الذين فسروا كتاب الله -تعالى- وبينوا أحكامه ، وفرائضه وحدوده ، يقولون : نزلت آية كذا في كذا ، ونزلت سورة كذا في مكان كذا ولم ينقل عن أحد منهم أنه قال : طلعت من تحت الأرض ، ولا جاءت من امام ، ولا من خلف بل كل الآيات والسور يذكرون أنها نزلت من فوق لا من تحت الأرض ، ولا خرجت منها .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة أن الله -تعالى- متصف بصفة العلو والفوقية ومن تلك الأحاديث ما يلي :-

(١) حديث معاوية بن الحكم السلمي قال : كانت لي غنم بين أحد والجوانية(١) فيها جارية لي ، فأطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة - وأنا رجل من بني آدم - فصككتها ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فعظّم ذلك علي فقلت يارسول الله أفلا أعتقها ؟ قال : ادعها فدعوتها فقال لها أين الله ؟ قالت في السماء قال من أنا ؟ قالت رسول الله قال : إعتقها فانها مؤمنة(٢) .

---

(١) الجوانية : موضع شمالي المدينة بقرب أحد " شرح النووي على مسلم ٥/٢٣ .

(٢) صحيح مسلم ١/٣٨٢ ، وانظر الرد على الجهمية للدارمي ص ٢٢ ، كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ١٢١ .

فهذا الحديث من أنصع الأدلة وضوحًا على إبطال مذهب الجهمية وهو صفعة قويه لأهل التعطيل على رؤوسهم حيث شهد الرسول صلى الله عليه وسلم للجارية بالإيمان حين وجّه لها سؤالين اختبر بهما إيمانها ، ولما نجحت في الإجابة عليهما ، وبالأخص السؤال الأول حيث أجابت بأن الله - تعالى - في السماء فرضي عليه الصلاة والسلام اجابتها وأقرها عليها وشهد لها بالإيمان ، وفي الحقيقة أن إجابة تلك الجارية لا يستطيع أن يجيب بها جهمي ؛ ومن يدور في ركابه لما حل في قلبه من الإعتقاد الفاسد لأنه يعتقد أن الله - جل وعلا - في كل مكان ولو سألت معطلا وقلت له أين الله ؟ لقال ؛ لا يسأل عن الله بأين . قال عثمان بن سعيد الدارمي : بعد سياقه لحديث معاوية بن الحكم السلمي " ففي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا دليل على أن الرجل إذا لم يعلم أن الله في السماء دون الأرض فليس بمؤمن ولو كان عبدا فأعتق لم يجز في رقبة مؤمنة إذ لا يعلم أن الله في السماء[1] أ. هـ .

ولو كان الله في الأرض كما يدعيه ضلال الجهمية لأنكر عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وعلّمها ، ولكنها علمته فصدقها وشهد لها بالإيمان ، ولو كان الله في الأرض لم يتم لها إيمان حتى تعرفه في الأرض كما عرفته في السماء .

٢ - ماروواه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء زيد بن حارثه يشكو فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إتق الله وأمسك عليك زوجك قال أنس : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما

---

(١) الرد على الجهمية ص ٢٢ .

شيئا لكنم هذه قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات "(١).

وهذا دليل واضح وصريح في أن الله - تعالى - عالٍ فوق سمواته وعلى جميع مخلوقاته وعلى هذا تلقت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها عقيدتها من النبي صلى الله عليه وسلم .

٣ - ماروا مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة الذهب الذي بعث به علي ابن أبي طالب من اليمن قال النبي صلى الله عليه وسلم " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني الوحي صباحا ومساءا"(٢)

فقد بين صلى الله عليه وسلم بأنه أمين من في السماء والذي في السماء والمشار إليه إنما هو الله - تعالى - لو كان الجهمية يعلمون ، ولربهم ينزهون ، ولقد تتلمذ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على رسول الهدى صلى الله عليه وسلم في دينهم وعقيدتهم ، ونطقوا بما نطق به الكتاب والسنة من أن الله تعالى في السماء وأقوالهم في أن الله تعالى - في السماء كثيرة جدا(٣) ، واعتقادهم في أنه - تعالى - في السماء إنما تلقوا ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم وبلّغوه إلى من وراءهم من التابعين لهم بإحسان فقد كان القول بأن الله - تعالى - في السماء متداولا بينهم موقنين به .

---

(١) ٤/ ٢٨١ .
(٢) ١/ ١٦١-١٦٢ .
(٣) أنظر أقوال الصحابة في كتاب (العلو للذهبي) ص٦٢ وما بعدها .

قال الحافظ[1] وأخرج البيهقي بسند جيد عن الأوزاعي[2] قال : كنا والتابعون متوافرون نقول : إن الله -عز وجل- فوق عرشه ونؤمن بما ورد به السنة من صفاته[3].

فالصحابة والتابعون أجمعوا على أن الله -تعالى- عالٍ على عرشه فوق سمواته وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[4] -رحمه الله تعالى- : قال أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله تعالى في التمهيد :

---

(١) هو : أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر من أئمة العلم والتاريخ أصله من عسقلان .
له مؤلفات عديدة في مختلف الفنون والعلوم .
ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائه ، وتوفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائه هجريه .
أنظر ترجمته في : "البدر الطالع للشوكاني ١/ ٨٧ ، الأعلام ١/ ١٧٣ .

(٢) هو : عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي ، أبو عمرو عالم أهل الشام في زمانه .
ولد سنة ثمان وثمانين وتوفي في سنة سبع وخمسين ومائه هجريه .
أنظر ترجمته في : "وفيات الأعيان ١/ ٢٧٥ ، حلية الأولياء ٦/ ١٣٥-١٤٩ الأعلام ٤/ ٩٤ " .

(٣) ١٣/ ٤٠٦ ، الأسماء والصفات للبيهقي ص ٤٠٨ ، الذهبي في العلو ١٠٢ ، الحموية ص ٢٣ .

(٤) هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين ابن تيمية الامام ، شيخ الإسلام كان آية في التفسير والأصول ، فصيح اللسان برز في جميع الفنون جاهد المنحرفين عن الدين بنظمه ، ولسانه ، وسيفه .
ولد سنة إحدى وستين وستمائه وتوفي سنه ثمان وعشرين وسبعمائه هجريه .
أنظر ترجمته في : "الدرر الكامنه ١/ ١٤٤ ، البداية والنهاية ١٤/ ١٢٥ ، النجوم الزاهره ٩/ ٢٧١ ، فوات الوفيات ١/ ٧٤-٨٠ ، الأعلام ١/ ١٤٠ " .

" وعلماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا : في تأويل قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم)[1] هو على العرش وعلمه في كل مكان وما خالفهم في ذلك من يحتج به " أ . هـ .[2]

فابن عبد البر ينقل إجماع الصحابة والتابعين على أنه ـ سبحانه وتعالى ـ عال على جميع خلقه ولم يحدث القول بأن الله في كل مكان إلا الجهمية وقولهم لا قيمة له لأنه لا عبرة بخلافهم ولا يحتج بقولهم لأنهم ضلال مارقون .

ولذلك كفرهم الأئمة الأربعة وضللوهم ، وبدّعوهم ، وحكموا عليهم بالكفر إن لم يرجعوا عن دعواهم بأن الله ـ تعالى ـ ليس في السماء .

فقد جاء عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي قال : سألت أبا حنيفة[3] عمن يقول : لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض فقال : قد كفر لأن الله ـ تعالى ـ يقول (الرحمن على العرش استوى)[4] وعرشه فوق سمواته فقلت : إنه يقول : أقول على العرش استوى ولكن لا يدري العرش في السماء أو في الأرض قال : إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر[5] .

---

(١) سورة المجادلة آية / ٧ .
(٢) العقيدة الحموية الكبرى ص ٥١ .
(٣) هو : النعمان بن ثابت التيمي بالولاء الكوفي ، أبو حنيفة إمام الحنفية ، الفقيه ، المجتهد ، المحقق أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة .
ولد سنة ثمانين وتوفي سنة خمسين ومائة هجر به .
أنظر ترجمته في : " تاريخ بغداد ١٣/ ٣٢٣-٤٥٤ ، وفيات الأعيان ٢/ ١٦٣ ، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢ ، البداية ١٠/ ١٠٧ .
(٤) سورة " طه " آية / ٥ .
(٥) ذكره عنه الذهبي في " العلو للعلي الغفار " ص ١٠١ .

وقال الإمام مالك بن أنس " الله في السماء وعلمه في كل مكان "[1].

وروى اللالكائي[2] في " كتاب السنة " عن جعفر بن عبد الله قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس[3] فقال : يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى)[4].

كيف استوى؟ قال : فما رأيت مالكا وجد من شيء كموجدته من مقالته وعلاه الرحضاء[5] قال : وأطرق القوم وجعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه قال : فسري عن مالك فقال : الكيف غير معقول والإستواء غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالا وأمر به فأخرج[6].

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٣ .

(٢) هو : هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي أبو القاسم اللالكائي .
حافظ ، للحديث ، من فقهاء الشافعية من أهل طبرستان . توفي سنة ثماني عشرة وأربعمائة هجريه .
أنظر ترجمته في " الكامل لابن الأثير ٩ / ٣٦٤ ، شذرات الذهب ٣/٢١١ تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٨٣ ، ومابعدها الأعلام ٩ / ٥٧ .

(٣) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبد الله إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية . كان صلبا في دينه ، بعيدا عن الأمراء والملوك .
ولد سنة ثلاث وتسعين وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة هجريه .
انظر ترجمته في : " الديباج المذهب ص ١٧-٣٠ ، وفيات الأعيان ١ / ٤٣٩ ، تهذيب التهذيب ١٠ / ٥ ، صفوة الصفوة ٢ / ٩٩ " .

(٤) سورة طه آية / ٥ .

(٥) الرحضاء : العرق .

(٦) ٣ / ٣٩٨ ، وانظر " كتاب العلو " للذهبي ص ١٠٣ ، فتح الباري ١٣ / ٤٠٧ .

وأما الامام الشافعي[1] فقد أثر عنه أنه قال : "السنة التي أنا عليها ورأيتعليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما إقرار بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء"[2] .

وأما الإمام أحمد بن حنبل فقد قال عنه يوسف بن موسى القطان شيخ أبي بكر الخلال قال : قيل لأبي عبد الله ألله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه ، وقدرته وعلمه بكل مكان ؟ قال : نعم هو على عرشه لا يخلو شيء من علمه"[3] ، وكلام الأئمة وغيرهم في إثبات صفة العلو للباري - جل وعلا - كثير ، وكلهم مجمعون على القول بعلو الله وفوقيته على جميع خلقه اتباعا لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة والتابعين .

وكما تقرر إثبات علو الله تعالى وفوقيته على خلقه بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، كذلك دلت الفطرة والعقل على علوه - تعالى - وفوقيته .

---

(١) هو : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب الشافعية .

ولد سنة خمسين ومائة وتوفي سنة أربع ومائتين هجرية .

أنظر ترجمته في : "تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦١ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٢٥ ، وفيات الأعيان ١/ ٤٤٧ ، صفوة الصفوة ٢/ ١٤٠ ، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦ ".

(٢) العلو للذهبي ص ١٢٠ ، عون المعبود ١٣/ ٤١ ، الفتوى الحموية الكبرى ص ٢٤ .

(٣) ذكره الذهبي في كتابه "العلو" ص ١٣٠ .

أما الفطرة فإنه قد تقرر في فطر بني آدم طبائعهم وجبالهم ، أحرارهم ومماليكهم ذكورهم وإناثهم ، بالغيهم وأطفالهم ، وحتى الكفار منهم يعلمون يقينا بأنه - تعالى - عال على جميع المخلوقات إذ كل من دعا الله منهم فانما يرفع رأسه إلى السماء ويمد يديه إلى العلي الأعلى لا إلى أسفل (١).

وكم من إنسان إذا أراد جلب ما ينفعه ، أو كشف ما يضره شخص ببصره إلى السماء إضافة إلى رفع يديه الى جهة العلو إلى من يعلم السر وأخفى ، فيتوجه إليه بقلبه لعلمه أن المعبود - سبحانه - فوقه ، وأنه إنما يدعى من أعلا لا من أسفل ، وليس الإنسان وحده فحسب هو الذي عرف أن الله يدعى من أعلا لا من أسفل بل الحيوانات قد عرفت أن الله - تعالى - في السماء - أي - جهة العلو - ولذلك فإنها ترفع رأسها عند الجدب والقحط تستمطر ربها وفي هذا إبطال لقول الجهمية أن الله في كل مكان فقد أخرج الحاكم بإسناده إلى أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " خرج نبي من الأنبياء يستسقي فاذا هو بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل شأن النملة " ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) وأقره الذهبي (٣) وفي " كتاب الزهد " للامام أحمد

(١) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ١١ ، الفتوى الحموية الكبرى ص ٢٩ ، شرح الطحاوية ص ٣٢٥ .

(٢) المستدرك ١/ ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٣) هو : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله .
حافظ ، مؤرخ ، علامة ، محقق .
ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائه ، وتوفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائه
أنظر ترجمته في " شذرات الذهب ٦/ ١٥٣ ، الدرر الكامنه ٣/ ٣٣٦ ، النجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٢ " .

" خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقياك فقال : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم "(١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : " وأحرى بهذه النملة وأخواتها من النمل أن يكونوا أعرف بالله من الجهمية "(٢).

وفي هذا بيان واضح أن الحيوانات تعرف أن الله -عز وجل- إنما يدعى من أعلا كما يعرف ذلك المؤمنون ، وهذا ما فطر الله عليه خلقه أجمعين وهذه ضرورة يحس بها الإنسان والحيوان .

ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول : كان الله ولا عرش ، وهو الآن على ما كان إ فقال الشيخ أبوجعفر :

أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي تجدها في قلوبنا ؟ فانه ما قال عارف قط : يا ألله إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو لا يلتفت يمنة ، ولا يسرة فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا قال : فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل ! وأظنه قال : وبكى وقال : حيّرني الهمداني حيرني ! أراد الشيخ أن هذا أمر فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المرسلين يجدون في قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو "(٣).

---

(١) كتاب الزهد ص ٨٧ إلا أن في إسناد أحمد زيد العمي وهو ضعيف . انظر " ميزان الإعتدال ٢/ ١٠٢ ، وانظر التقريب ١/ ٢٧٤ " .

(٢) اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص ١٣٣ .

(٣) منهاج السنة النبوية ١/ ٢٦٣ ، شرح الطحاوية ص ٣٢٥-٣٢٦ .

وَ قال أبو الحسن الأشعري[1] : بعد أن ساق كلاما كثيرا يريد منه إثبات أن الله ـ تعالى ـ مستو على عرشه فوق سماواته قال رحمه الله : " ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء لأن الله ـ عز وجل ـ مستو على العرش الذي هو فوق السموات فلولا أن الله ـ عز وجل ـ على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض[2] ".

وأما دلالة العقل على ذلك فنقول : إن العقل قد دل على أن الله عالٍ على جميع خلقه من وجوه :

أحدها :-

العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين ، إما أن يكون أحدهما ساريا في الآخر قائما به كالصفات ، وإما أن يكون قائما بنفسه بائنا من الآخر.

الثاني :-

أنه ـ تعالى ـ لما خلق العالم فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجا عن ذاته والأول باطل .

---

(١) هو أبو الحسن الأشعري علي بن اسماعيل بن إسحاق من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري . كان من الأئمة المجتهدين .
ولد في البصرة سنة ستين ومائتين وتوفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة هجرية .
أنظر ترجمته في : " طبقات الشافعية ٣/٣٤٧ ، البداية والنهاية ١١/٢١٠ ، اللباب ١/٦٤ ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٧٩ " .

(٢) الإبانة في أصول الديانة ص ٣٠-٣١ .

أما أولاً : فبالإتفاق ،وأما ثانيا : فلأنه يلزم أن يكون محلا للنجاسات، والقاذورات - تعالى الله - عن ذلك علوا كبيرا .

والثاني : يقتضي كون العالم واقعا خارج ذاته ؛ فيكون منفصلا فتعينت المباينة لأن القول بأنه غير متصل بالعالم ؛ وغير منفصل عنه غير معقول .

الثالث :-

أن كونه -تعالى -لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية لأنه غير معقول فيكون موجودا ، إما داخله ،وإما خارجه ،والأول باطل ،فتعين الثاني فلزمت المباينة (١) .

وللجهمية في إنكارهم صفات الله -عز وجل - وقولهم أن الله - عز وجل - في كل مكان شبه أجاب عنها أهل السنة ووضحوا بطلانها ومن ذلك استدلالهم بقوله تعالى (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (٢)) . على أنه -تعالى - في كل مكان ولا يخلو منه مكان فهو استدلال باطل وتفسير لكتاب الله -تعالى -بغير المراد منه فالآية : معناها إله من في السموات ،وإله من في الأرض وهو على عرشه ، وعلمه محيط بالعرش وما دون العرش ، ولا يخلو مكان من علم الله - سبحانه وتعالى - ولا يمكن أن يكون علمه في مكان دون مكان بل إنه - تعالى -قد أحاط بكل شيء علما فهذا هو المعنى الصحيح للآية .

قال الامام أحمد رحمه الله تعالى مبينا بطلان استدلالهم بالآية السابقة على أن الله في كل مكان .

---

(١) شرح الطحاوية ص ٣٢٥ . (٢) سورة الأنعام آية / ٣ .

" فظننا لما أنكرتم أن يكون الله على العرش وقد قال تعالى (الرحمن على العرش استوى)[١] فقالوا : هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش فهو على العرش ،وفي السموات،وفي الأرض ، وفي كل مكان ، ولا يخلو منه مكان ،وتلوا آية من القرآن (وهو الله في السموات وفي الأرض) فظننا : قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة ـ الرب ـ شيء فقالوا : أي مكان ؟ فظننا : أجسامكم وأجوافكم ،وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة ـ الرب ـ شيء وقد أخبرنا أنه في السماء . . . الى أن قال رحمه الله تعالى : أليس تقولون أن إبليس مكانه والشياطين مكانهم فلم يكن الله ليجتمع هو وابليس في مكان واحد ، وإنما معنى قول الله ـ جل ثناؤه ـ (وهو الله في السموات وفي الأرض)[٢] يقول : هو إله من في السموات وإله من في الأرض وهو على العرش ، وقد أحاط علمه بما دون العرش ، ولا يخلو من علم الله مكان ، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان فذلك قوله (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما)[٣] .

وقال ابن كثير[٤] حول الآية : (وهو الله في السموات وفي الأرض) اختلف مفسروا هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على انكار قول الجهمية . .

---

(١) سورة " طه " آية / ٥ .
(٢) سورة الأنعام آية / ٣ .
(٣) الرد على الجهمية والزنادقة ص١٣٥-١٣٦ والآية رقم٢ من سورة الطلاق .
(٤) هو : اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن درع القرشي البصروى ثم الدمشقي أبو الفداء عماد الدين .

حافظ ، مؤرخ ، فقيه .

ولد سنة واحد وسبعمائة وتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة هجرية .
أنظر ترجمته في " طبقات المفسرين ١/ ١١١-١١٣ ،الدرر الكامنة ١/ ٣٧٣ ، شذرات الذهب ٦/ ٢٣١ ، البدر الطالع ١/ ١٥٣ .

القائلين - تعالى - عن قولهم علوا كبيرا بأنه في كل مكان حيث حطوا الآيه على ذلك فالأصح من الأقوال أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض، أى يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ويسمونه الله ،ويدعونه رغبا ورهبا إلا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله)(١).

ومن الآيات التي احتج بها الجهمية على أن الله في كل مكان قوله تعالى : (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم)(٢).

ويقال لهم : إن معنى الآية ليس كما فهمتم منها بل معناها المراد منها أنه - تعالى - حاضر كل نجوى ، ومع كل أحد من فوق عرشه بعلمه لأن علمه - سبحانه - محيط بجميع خلقه ، وبصره نافذ فيهم لا يحجب علمه وبصره شيء ولا يستطيعون التوارى منه بشيء وهو عال على عرشه بائن من خلقه (يعلم السر وأخفى)(٣) لأنه - سبحانه - لا يبعد عليه شيء ولا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض فهو - سبحانه - رابعهم وخامسهم وسادسهم بعلمه المحيط بكل شيء كما بينت الآية ذلك بفاتحتها وخاتمتها(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٧ والآيه رقم(٨٤) من سورة الزخرف ، وانظر أضواء البيان ٢ / ١٦٢ .
(٢) سورة المجادلة آيه / ٧ . (٣) سورة " طه " آيه / ٧ .
(٤) الرد على الجهمية للدارمي ص ١٩ مع التصرف في بعض الفاظه .

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : " اذ أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله حين زعم أن الله في كل مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان فقل : أليس الله كان ولا شيء ؟ فيقول : نعم فقل له : حين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجًا من نفسه فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال لا بد له من واحد منها :

١) إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه كفر حين زعم أن الجن والإنس والشياطين في نفسه .

٢) وإن قال : خلقهم خارجا من نفسه ثم دخل فيهم كان هذا كفرا أيضا حين زعم أنه دخل في مكان وحش قذر رديء .

٣) وإن قال : خلقهم خارجا من نفسه ، ثم لم يدخل فيهم رجع عن قوله أجمع وهو قول أهل السنة اهـ . (١)

كذلك استدلوا على أنه ـ تعالى ـ في كل مكان :ـ

بما رواه الترمذي (٢) في سننه من حديث الحسن (٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما نبي الله جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص ١٣٩ .

(٢) هو : محمد بن عيسى بن سورة السلمي البوغي الترمذي أبو عيسى من أئمة علماء الحديث وحفاظه من أهل ترمذ كان يضرب به المثل في حفظ الحديث . ولد سنة تسع ومائتين وتوفي سنة تسع وسبعين ومائتين هجرية . انظر ترجمته في : " التهذيب " ٩ / ٣٨٧ ، والتذكرة ٢ / ٦٣٣-٦٣٥ ، وفيات الأعيان ١ / ٤٨٤ ، الأعلام ٧ / ٢١٣ .

(٣) هو : الحسن بن يسار البصري أبو سعيد تابعي ، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك .

ولد سنة إحدى وعشرين ، وتوفي سنة عشر ومائة هجرية .
أنظر ترجمته في : " تهذيب التهذيب " ٢ / ٢٦٣ ، حلية الأولياء ٢ / ١٣١-١٦١ ، الأعلام ٢ / ٢٤٢ .

نبي الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون ما هذا قالوا : " الله ورسوله أعلم قال هذا العنان[1] هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه والحديث طويل " وفيه : لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبطتم على الله ثم قرأ (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)[2].

قال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة[3].

هذا الحديث أفاض البحث حوله العلامة ابن القيم وبين أن العلماء انقسموا فيه إلى طائفتين .

طائفة : قبلت الحديث على اعتبار أن سنده ثابت إلى الحسن .

وطائفة ثانية : رفضت الحديث بالكلية على اعتبار أن الحديث منقطع وأن الحسن لم ير أبا هريرة فضلا عن أن يسمع منه ، واكتشفوا فيه علة أخرى وهو أن عبد الرزاق بن همام الصنعاني رواه عن معمر عن قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم فكان الحديث على هذا مرسلا ، والذين قبلوا الحديث اختلفوا في معناه على قولين :-

قيل : إن المعنى يهبط على علم الله وقدرته وسلطانه إلى ما تحت الثرى فلا يعزب عنه شيء وهذا القول حكاه الترمذي عن بعض أهل العلم[4].

وقالت طائفة أخرى : بل هذا المعنى اسمه - تعالى - المحيط ، واسمه الباطن فإنه - سبحانه - محيط بالعالم كله ، وأن العالم العلوي والسفلي

---

(١) العنان : السحاب النهاية ٣/٣١٣ .
(٢) سورة الحديد آية ٣ . (٣) سنن الترمذي ٥/٧٧-٧٨ .
(٤) المصدر السابق .

في قبضته كما قال تعالى (والله من ورائهم محيط)[1] ، وإحاطته -تعالى- تقتضي علوه وفوقيته على جميع خلقه بالذات فلو دلي بحبل لسقط في قبضته وهو فوق عرشه والحديث لم ينص على أنه يهبط على جميع ذاته فهذا لم يقله أحد البته .

والتأويل الأول : الذي ذكره الترمذي بين ابن القيم أنه من تصرفات الجهمية .

قال رحمه الله : قال شيخنا[2] : هو ظاهر الفساد من جنس تأويلات الجهمية ، بل بتقدير ثبوته ، فإنما يدل على الإحاطة ، والإحاطة ثابتة عقلا ونقلا وفطرة[3] .

فالجهمية لا دليل لهم على دعواهم التي مضمونها التنقيص لله -جلا وعلا- لا من الكتاب ولا من السنة .

وان استدلوا بآيات من القرآن فإنهم يفسرونها بغير المراد منها ، وإن أتوا بأحاديث تكون غير صحيحة ، وأحيانا تكون لا وجود لها في كتب الحديث المعتمدة بالكلية ، وحاصل ماتقدم أن علو الله -تعالى- على خلقه ثابت بنص الكتاب العزيز والسنة الوطهرة ، بل نطقت بذلك جميع الكتب السماوية المنزلة على رسله ، وجميع أهل السموات ومؤمنوا أهل الأرض من الجن والإنس ، أتباع الرسل ، وشهدت بذلك الفطر السليمة والقلوب المستقيمة التي لم تجتلها الشياطين عن دينها ، كما فعلت

---

(١) سورة البروج آية / ٢٠ .
(٢) هو : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .
(٣) مختصر الصواعق المرسلة ٢/٢٧٢-٢٧٥ ، وانظر " مجموعة الرسائل والمسائل " ٤/١٤٢ .

بطائفة الجهمية الذين اتبعوا غير سبيل المؤمنين ، فأطاعوا الشيطان وابتعدوا عما يريده الرحمن ، فجميع الخلق إلا من خذله الله يشهدون بأن خالقهم وفاطرهم ، ومعبودهم الذي يألهونه ، ويفزعون إليه ، ويدعونه رغبا ورهبا هو فوق كل شيء عالٍ على جميع خلقه ، مستو على عرشه ، بائن من خلقه ، وهو يعلم أحوالهم ، ويسمع أقوالهم ، ويرى حركاتهم وسكناتهم وجميع تقلباتهم ، وما هم عليه لا يخفى منهم خافية ، ومن لم يعتقد ذلك فهو ضال عن سواء السبيل .

ـ المبحث الثالث ـ

القرآن كلام الله منـزل غير مخلوق

لقد دلت السورة على أن القرآن منزل من الله غير مخلوق ، وأنه صفة من صفاته تعالى ـ ، وصفاته ـ تعالى ـ كما هو معلوم ليست مخلوقة في عدة آيات :

قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . انا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين) .

وقال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) .

وقال تعالى (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل) .

وقال تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) .

وقال تعالى (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) .

هذه سبع آيات من السورة ، الخمس الآيات الأولى منها دلت أن القرآن منزل من الله ـ تعالى ـ غير مخلوق كما تضمنت الرد على القائلين بخلق القرآن ، وهم المعتزلة وترد قول القائلين أن المراد من النزول نزول الملك

الذي بلّغه الى الرسول ، وليس المراد به القرآن الذي هو صفة من صفات الله ـ تعالى ـ كما قال ذلك الرازي[١] .

ووجه الرد عليهم بالآيات الخمس الأولى : أنها صرحت بتنزيل وإنزال الكتاب الذي هو القرآن بواسطة الرسول الملكي فهو منزل من الله وهو كلامه حقيقة .

وأما الآية السادسة : وهي قوله تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) .

بين الله ـ تعالى ـ فيها أنه مثّل للمشركين من كل مثل من أمثال الأمم الخالية في هذا القرآن تخويفا منه ، وتحذيرا ليتعظوا ويتذكروا علّهم ينزجرون عما هم عليه من التكذيب بالرسول والكفر بالله تعالى .

وأما الآية السابعة : وهي قوله تعالى (قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) .

قال السيوطي[٢] حول هذه الآية : " فيها الرد على من قال بخلق القرآن[٣] .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦ / ٢٣٨ .

(٢) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي ، جلال الدين إمام حافظ مؤرخ أديب له .
له مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم والفنون .
ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة وتوفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة هجرية .
أنظر ترجمته في : " الكواكب السائرة ١ / ٢٢٦ ، شذرات الذهب ٨ / ٥١ ، الضوء اللامع ٤ / ٦٥ ، حسن المحاضرة ١ / ٣٣٤ .

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٢٢٤ .

وروى اللالكائي والآجري[1] بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما (قرآنا عربيا غير ذي عوج) قال غير مخلوق[2].

فتلك الآيات من السورة دلت على أن القرآن منزل غير مخلوق وكما هو معلوم أن الإيمان بالكتب ركن من أركان الإيمان الستة ، ومن الإيمان بالكتب الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدا وإليه يعود وأن الله تكلم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة ، لا كلام غيره ، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله ، أو عبارة ، بل إذا قرأه الناس ، أو كتبوه بذلك في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله - تعالى - حقيقة فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قال مبتدئا لا إلى من قاله مبلغا مؤديا ، وهو كلام الله حروفه ومعانيه ليس كلام الله الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف[3].

وهذا ما يجب اعتقاده في القرآن ولا يجوز العدول عنه بحال .

قال الصابوني : " ويشهد أصحاب الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله ، وكتابه ووحيه وتنزيله غير مخلوق ، ومن قال بخلقه فهو كافر عندهم ، والقرآن الذي هو كلام الله ووحيه هو الذي ينزل به جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم (قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا)[4]

---

(١) هو محمد بن الحسين بن عبد الله أبوبكر الآجري ، .
فقيه ، شافعي ، محدث .
توفي سنه ستين وثلاثمائة هجرية .
أنظر ترجمته في تاريخ بغداد ٢ / ٢٤٣ .

(٢) السنة للالكائي ٢ / ٢١٧ ، كتاب الشريعة للآجري ص ٧٧ ، الأسماء والصفات للبيهقي ص ٣١١ .

(٣) مجموع الفتاوى ٣ / ١٤٤ .

(٤) سورة فصلت آية : ٣-٤

كما قال - عز من قائل - (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين)[١] .

وهو الذي بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم أمته ... إلى أن قال : سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول سمعت أبا الوليد حسان بن محمد يقول : سمعت الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق فمن قال : إن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم لا تقبل شهادته ولا يعاد إن مرض ولا يصلى عليه إن مات ولا يدفن في مقابر المسلمين ويستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه[٢] .

هذا الذي ذكره الصابوني رحمه الله - تعالى - معتقد أهل السنة والجماعة في كتاب الله - تعالى - وهو ما كان عليه السلف الصالح حيث كانوا على عقيدة واحدة في كتابه - تعالى - وهو القول بأنه كلام الله حقيقة منزل غير مخلوق .

قال العلامة ابن القيم : " وقد تنازع الصحابة رضي الله عنهم في كثير من مسائل الأحكام - وهم سادات المؤمنين ، وأكمل الأمة إيمانا ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة[٣] .

هذا هو واقع الصحابة فقد كان مجتمعهم مجتمعا سليما من الشوائب والانحرافات المشئومة ، ولم يحدث القول بخلق القرآن إلا الجهمية من المعتزلة ، وهو من أعظم الفتن التي مرت بها الأمة الإسلامية في تاريخها ،

---

(١) سورة الشعراء آية ١٩٢ - ١٩٥ .

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١/ ١٠٧-١٠٨ .

(٣) اعلام الموقعين ١/ ٤٩ .

وكان أول من أحدث القول بخلق القرآن هو "الجعد بن درهم"[1] سنة أربع وعشرين ومائة هجريه ، ولما هلك أخذ الراية من بعده "الجهم بن صفوان" سنه ثمان وعشرين ومائة هجريه :

ولما بدأ القرن الثالث الهجرى تولى نشر هذه البدعة "بشر بن غياث المريسي" سنة ثماني عشره ومائتين هجريه ، ثم تلقاها أحمد بن أبي دؤاد سنة أربعين ومائتين هجريه وزينها للمأمون حتى اعتنقها ، وحمل الناس عليها وأكرههم على اعتقادها ، وحذى حذوه من بعده أخوه المعتصم والواثق .

وفى زمن هؤلاء الثلاثة الخلفاء العباسيين نزلت المحنة والبلاء بعلماء أهل السنه والجماعة الذين ثبتوا فى اعتقادهم على منهج السلف وردوا كيد المعتزلة في نحورهم ببيان الحق في كلام الله ـ تعالى ـ حتى أن الامام أحمد رحمه الله ـ تعالى ـ ضرب في هذه المحنة كي يحصلوا منه على أدنى كلمة توافق مذهب الإعتزال فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلا ، فثبت رحمه الله ـ تعالى ـ على التمسك بعقيدة السلف الصالح حتي كان سببا في حفظ العقيدة السلفيه الصحيحة التي حماها الله من التلوث ببراثن الجهمية المعتزله ، وبين رحمه الله بموقفه ذلك بطلان ماد بره الجهمية والمعتزلة من

---

(١) هو الجعد بن درهم مولى سويد بن غفلة أصله من خراسان . سكن دمشق فلما أظهر القول بخلق القرآن أخذ الأمويون في البحث عنه فهرب إلى الكوفة فلقي الجهم بن صفوان ولقنه مذهبه ذلك فقبض عليه أمير الكوفة " خالد بن عبد الله القسري " وضحى به حيث قال وهو على المنبر " أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ـ تعالى الله ـ عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه " .

البدايه ٩/ ٣٥٠ ، الميزان ١/ ٣٩٩ ، خلق أفعال العباد ص ٧ ، الرد على الجهمية للدارمي ص ١١٣ .

الكيد للإسلام ، فبلّغ الأمة فساد قولهم بأن القرآن مخلوق ، ولم ترتفع تلك الفتنة وهي فتنة القول بخلق القرآن إلا في زمن المتوكل سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (١) ، وبسبب تلك المحنة التي امتحن فيها أئمة الإسلام ، وثبت فيها إمام أهل السنة أحمد بن حنبل تنازع الناس في القرآن نزاعا كبيرا ، فانقسموا إلى طوائف مختلفه في صفة الكلام حتى قيل إن علم الكلام إنما سمي بهذا الاسم أخذا من الكلام في هذه المسألة وسأذكر هنا الأقوال المذكورة عن الفرق في صفة الكلام بطريقة مختصرة :

مذهب السلف :-

قالوا : إن الكلام صفة لله كسائر الصفات الأخرى ، وهي صفة ذات وفعل ، يتكلم متى شاء وكيف شاء ، وهو حروف وأصوات يسمعها من يشاء من مخلوقاته ، وإن كلامه وصوته ليس كصوت المخلوقين وكلامهم فهو قديم النوع حادث الأفراد .

كما أنهم أجمعوا على أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من الله تعالى لا من الشجر أو الحجر ، أو من غير ذلك كما زعمت الجهمية والمعتزله لأنه لو سمع من غير الله -تعالى- لكان بنو إسرائيل أفضل من ذلك منه ، فإنهم سمعوا من أفضل ممن سمع منه موسى لكونهم سمعوا من موسى عليه السلام وهو على زعمهم إنما سمع من الشجرة ، وهو غير معقول .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٨/ ٦٣١ - ٦٤٦ ، البداية والنهاية ١٠/ ٣٠٨-٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٥٨ ، مطبعة السعاده وانظر تاريخ الجهميه والمعتزله ص ٦٠-٧٠ .

وكذلك لم يجز أن يكون الكلام الذي سمعه إلا صوتا وحرفا ، وليس معنى في النفس ، فإنه لو كان معنى في النفس كما زعمت الكلابية والأشاعرة والماتريدية لم يكن ذلك تكليما لموسى عليه السلام ولا هو شيء يسمع (١) .

فالقرآن عند أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا كلام الله ـ تعالى ـ ووحيه ، وتنزيله فيه معاني توحيده ، ومعرفة آياته ، وأنه غير مخلوق بحروفه ومعانيه فهو كلام الله ـ تعالى ـ حقيقة ويضاف الكلام إلى من قاله مبتدئا لا إلى من قاله مبلغا ، ومؤديا ، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله ، أو عباره عنه ، كما يزعم ذلك الكلابية ، والأشاعرة .

مذهب الفلاسفة :ـ

قالوا : إن كلام الله هو عبارة عما يفيض من العقل الفعال أو من غيره على النفوس الفاضلة الذكية ، بحسب استعدادها ، فأوجب لهذا ذلك الفيض تصورات ، وتصديقات بحسب ما قبلته منه ، ولهذه النفوس عندهم ثلاث قوى ، قوة التصور ، قوة التخيل ، قوة التعبير ، فتدرك بقوة تصورها من المعاني ما يعجز عنه غيرها ، وتدرك بقوة تخيلها شكل المعقول في صوره المحسوس ، فتتصور المعقول صورا نورانية تخاطبها وتكلمها بكلام تسمعه الآذان ، وهو عندهم كلام الله ولا حقيقة له في الخارج وإنما ذلك كله من القوة الخيالية الوهمية (٢) .

(١) أنظر مجموع الفتاوى ١٢ / ٣٩ـ٤٠ ، مختصر الصواعق المرسلة ٢ / ٢٩٦ـ ٢٩٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٩ ، لوامع الأنوار البهية ١ / ١٤٠ .

(٢) رسائل إخوان الصفا ٤ / ٢٠٩ ، نقض المنطق ص ٣٢ ، مجموعة الرسائل والمسائل ٣ / ٤٢٨ ، منهاج السنة النبوية ١ / ٢٢١ ، مختصر الصواعق ٢ / ٢٨٨ ، إغاثة اللهفان ٢ / ٢٦٢ ، شرح الطحاوية ص ١٧٩ .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية " فيقولون هذا القرآن كلام الله وهذا الذى جاءت به الرسل كلام الله ، ولكن المعنى أنه فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال ، وربما قالوا : إن العقل هو جبريل الذي ليس على الغيب بضنين أي : بخيل لأنه فياض . ويقولون : إن الله كلم موسى من سماء عقله ، وأن أهل الرياضة والصفا يصلون إلى أن يسمعوا كما سمعه موسى " اهـ (١) .

وهذا المذهب : من أبعد المذاهب عن الحق والصواب إذ مضمونه أن كلام الله - تعالى - من الوهم والخيال ليس له وجود في الخارج إذ أنهم يزعمون : أن موسى سمع كلام الله من سماء عقله أي : بكلام لم يسمعه من خارج . وهذا مناقض للكتاب والسنة وإنكار لربوبية الخالق - سبحانه وتعالى - والكتاب والسنة دلا بوضوح على أن الله - تعالى - أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى اخوانه من الأنبياء والمرسلين ، والوحي كان إما بتكليم الله لهم بلا واسطة ، أو يوحي إليهم بواسطة الملك الذي يأمره الله بتبليغ الوحي إلى النبي الذي اصطفاه الله لتبليغ رسالته الى عباده من الجن والإنس .

قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء إنه علي حكيم) (٢) .

فهذه الآية دلت على أن الوحي إلى الرسل كان حقيقة ولم يكن تخيلا بتخيله الرسول كما زعم ذلك الفلاسفة المارقون ومن جرى في ركابهم من المتكلمين فدعواهم ذلك من أبطل الباطل .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢ / ٢٣

(٢) سورة الشورى آيه / ٥١ .

(والأصل الذى قادهم إلى هذا عدم الإقرار بالرب الذى عرّفت به الرسل ودعت إليه وهو القائم بنفسه المباين لخلقه العالي فوق سمواته ، فوق عرشه الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته العالم بجميع المعلومات القادر على كل شيء فهم أنكروا ذلك كله)[١].

مذهب الجهمية :-

أما مذهب الجهمية في صفة الكلام فإنهم قالوا : إن كلامه - سبحانه - مخلوق ، ومن بعض مخلوقاته ليس قائما بذاته - سبحانه - فالكلام بدأ من هذه المخلوقات وليس من الله ولا يقوم بالله كلام ولا إرادة وأنه - سبحانه - كلّم موسى بكلام خلقه في الشجرة ، وكلّم جبريل بكلام خلقه في الهواء[٢].

قال أبو الحسن الأشعرى : " وزعمت الجهمية كما زعمت النصارى لأن النصارى زعمت أن كلمة الله حواها بطن مريم ، وزادت الجهمية عليهم فزعمت أن كلام الله مخلوق حل في شجرة وكانت الشجرة حاوية له فلزمهم أن تكون الشجرة بذلك الكلام متكلمة ، ووجب عليهم أن مخلوقا من المخلوقين كلم موسى ، وأن الشجرة قالت : (إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني)[٣].

وقال البغدادي وهو يذكر بعض الأمور التي اتفقت عليها الجهمية فقال : " وقال : أي - جهم - بحدوث كلام الله - تعالى - كما قالت القدرية ولم يسم الله - تعالى - متكلما به " أ.هـ.[٤]

---

(١) مختصر الصواعق المرسله ٢ / ٢٨٨ .
(٢) الظل والنحل ١ / ٨٩ ، أصول الدين للبزدوي ص٥٣ ، مختصر الصواعق ٢ / ٢٨٨ .
(٣) الإبانة ص٢٠ والآية رقم(١٤) من سورة " طه " .
(٤) الفرق بين الفرق ص ٢١٢ .

وقال البخاري رحمه الله تعالى : " وقال بعض أهل العلم : إن الجهمية هم المشبهة لأنهم شبهوا ربهم بالصنم والأصم ، والأبكم الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ، ولا يخلق ، وقالت الجهمية : هو كذلك لا يتكلم ولا يبصر نفسه "أ.هـ.(١)

ولقد ذكر ابن قتيبة رحمه الله ـ تعالى ـ : مذهب الجهمية في صفة الكلام فقال : " وقالوا : في كلام الله إنه مخلوق"(٢).

وقال الامام عثمان بن سعيد الدارمي "باب الإحتجاج للقرآن أنه غير مخلوق ثم ذكر حشدًا كبيرا من الأدلة على عدم خلق القرآن ثم قال : " ففي هذا بيان بين أن القرآن خرج من الخالق لا من المخلوقين ، وأنه كلام الخالق لا كلام المخلوقين "أ.هـ.(٣)

فهذا هو مذهب الجهمية الزنادقة في كلام الله ـ تعالى ـ حيث يزعمون أن القرآن كلام الله على سبيل المجاز وهو مخلوق ، وقولهم هذا ظاهر البطلان لمخالفته الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها .

مذهب المعتزلة :ـ

أما المعتزلة أفراخ الجهمية فقد قالوا : إن كلام الله ـ تعالى ـ مخلوق ، خلقه الله منفصلا عنه ، وهو حرف وصوت وأن موسى سمع كلاما أحدثه الله في الشجرة ، ولم يسمع كلام الله حقيقة"(٤).

---

(١) خلق أفعال العباد ص ١٥ .
(٢) الإختلاف في اللفظ ص ٢٣٣ ضمن عقائد السلف .
(٣) الرد على الجهمية ص ٩٨-٩٩ .
(٤) أنظر المقالات لأبي الحسن الأشعري ١/ ٢٦٧ ، وما بعدها ، أصول الدين للبزدوي ص ٥٣ ، الملل والنحل ١/ ٤٥ .

قال عبد الجبار بن أحمد مبينا مذهبه ومذهب اخوانه من أهل الاعتزال في القرآن : " وأما مذهبنا في ذلك فهو أن القرآن كلام الله - تعالى - ووحيه ، وهو مخلوق محدث أنزله الله على نبيه ليكون علما ودالا على نبوته ، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام " أ.هـ.(١)

وقال في كتابه "المغني" : "اختلف الناس في ذلك "الكلام" والذي يذهب إليه شيوخنا ، أن كلام الله - عز وجل - من جنس الكلام المعقول في الشاهد ، وهو حروف منظومة ، وأصوات مقطعة ، وهو عرض يخلقه الله - سبحانه - في الأجسام على وجه يسمع ويفهم معناه ويؤدي الملك ذلك إلى الأنبياء عليهم السلام بحسب ما يأمر به - عز وجل - ويعلمه صلاحها ويشتمل على الأمر والنهي وسائر الأقسام ككلام العباد" .

وقال أيضا : "ولا خلاف بين أهل العدل في أن القرآن مخلوق محدث مفعول لم يكن ، ثم كان وأنه غير الله - عز وجل - وأنه أحدثه بحسب مصالح العباد ، وهو قادر على أمثاله وأنه يوصف بأنه مخبر به ، وقائل ، وآمر ، وناه من حيث فعله وكلهم أنه - عز وجل - متكلم به " أ.هـ.(٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا وجه تقارب مذهب المعتزلة والجهمية ووجه افتراقهما " فمذهبهم - أي المعتزلة - ومذهب الجهمية في المعنى سواء ، لكن هؤلاء يقولون : هو متكلم حقيقة وأولئك ينفون أن يكون متكلما حقيقة ، وحقيقة قول الطائفتين أنه غير متكلم ، فانه لا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام ولا مريد إلا من قامت به الإرادة ، ولكن معنى كونه - سبحانه -

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٥٢٨ .

(٢) ٣/٧ وانظر الفرق بين الفرق ص ١١٤ .

وروى اللالكائي بإسناده إلى وكيع بن الجراح أنه قال : من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن شيئاً من الله مخلوق فقيل له : يا أبا سفيان من أين قلت هذا ؟ قال : لأن الله تبارك وتعالى - يقول : (ولكن حق القول مني) ولا يكون من الله شيء مخلوق (١) .

وقال تعالى : (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) (٢) .

وجه الدلالة من هذه الآية :-

أن المخلوقات كلها نافدة وفانية ، أما كلمات الله - تعالى - فلا تنفد ولا تفنى ولذلك يقول البارئ - سبحانه - عندما تفنى الخلائق كلها لمن الملك اليوم ؟ فيجيب نفسه (لله الواحد القهار) (٣) .

روى ابن جرير الطبري بإسناده إلى الحسن البصري في الآية : (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) قال : لو جعل شجر الأرض أقلاما ، وجعل البحور مدادا وقال : إن من أمري كذا ومن أمري كذا لنفد ماء البحور وتكسرت الأقلام (٤) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك فأين ملوك الأرض . . . " الحديث (٥)

فهذا الحديث والآيات قبله فيها الرد الواضح الصريح على المعتزلة القائلين بأن كلام الله مخلوق لأن كلام الله صفة من صفاته ، وصفاته كذاته

---

(١) شرح أصول السنة للالكائي ٢ / ٢١٩ .
(٢) سورة لقمان آية / ٢٧ (٣) سورة غافر آية / ١٦ .
(٤) تفسير ابن جرير ٢١ / ٨١ .
(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة . صحيح البخاري مع الفتح ١١ / ٣٧٣ ، صحيح مسلم ٤ / ٢١٤٨ .

ليس شيء من ذلك مخلوق والذي حمل المعتزلة على القول بأن القرآن مخلوق منفصل عن الله - تعالى - خلقه في غيره !

قالوا : إنما قلنا ذلك لأنا إنما استدللنا على حدوث العالم بحدوث الأجسام ، وإنما استدللنا على حدوثها بقيام الحوادث بها وأن مالا ينفك عن الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها فلو قلنا إنه تقوم به الصفات والكلام لزم قيام الحوادث به لأن هذه الأعراض حادثة " .

وهذا الكلام المحدث المبتدع جعلوه أصلا لهم في نفي صفات الله - تعالى - ، وظنوا أنهم ينصرون به الإسلام ، ويضرون به أعداءه ، ولكن لا الإسلام نصروا ولا أعداءه كسروا وإنما النتيجة التي حصلت لهم من وراء هذا الأصل الباطل أن سلطوا على أنفسهم علماء الشرع والعقل ، فعلماء الشرع قالوا لهم : إنكم خالفتم بقولكم هذا كتاب الله وسنة رسول صلى الله عليه وسلم ، وعلماء الفلسفة قالوا لهم : إنكم خالفتم بقولكم هذا المعقول رغم أن المعتزلة أعرف من الفلاسفة بعلوم الدين وأولئك أجهل منهم بالشرع والعقل في الإلهيات ، ففتحوا على أنفسهم مدخلا دخلوا عليهم منه ، ونقضوا عليهم بسبب مخالفتهم للعقل "(١) .

وأما استدلال المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى : (الله خالق كل شيء)(٢) .

ويقولون : ان القرآن داخل في عموم " كل " لأنه شيء فيكون مخلوقا فهذا مما يعجب له العقلاء ، إذ أنهم يزعمون أن أفعال العباد غير مخلوقة لله - جل وعلا - وإنما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم " كل " ، وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفات الله

---

(١) منهاج السنة ٢ / ٨٠ بتصرف يسير .
(٢) سورة الرعد آية / ١٨ .

ـ تعالى ـ به تكون الأشياء المخلوقة اذ المخلوقات تكون بأمـــره ـ سبحانه ـ كما تقدم ذلك ، ومن قال : بأن صفات الله ـ تعالى ـ مخلوقـــة كالعلم والقدرة ، وغيرهما فهذا من الكفر الصريح لأن علمه ـ تعالـــى ـ شيء وحياته شيء ، وقدرته شيء ، فيدخل في العموم الذى تتضمنـــه "كل" فيكون مخلوقا بعد أن لم يكن ـ تعالى الله ـ عما يقولون علوا كبيرا(١) .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ تعالى : " احتج المعتزلة على مخلوقيـة القرآن بقوله ـ تعالى ـ (اللـــه خالق كل شيء " ونحو ذلك مـــــن الآيات ، فأجاب الأكثرون بأنه عام مخصوص ، يخص محل النزاع كسائـــر الصفات من العلم ونحوه .

قال ابن عقيل(٢) : في الإرشاد ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله قال : لأن به حصل عقد الإعلام بكونه خالقا لكل شـــــيء وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلا تحت الخبر قال : ولو أن شخصا قال : لا أتكلم اليوم كلاما إلا كان كذبا لم يدخل إخباره بذلـــك تحت ما أخبر به قلت : ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورا في قوله تعالـــى في قصة مريم (فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا)(٣) .

---

(١) أنظر شفاء العليل ص ٥٣ ، شرح الطحاوية ص ١٨٣ .

(٢) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادى الظفرى ، أبو الوفـــاء ، ويعرف بابن عقيل ، .
عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته .
كان قوى الحجة ولد سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ، وتوفى ســـنة ثلاث عشرة وخمسمائة .
أنظر ترجمته في : شذرات الذهب ٤/ ٣٥ ، ميزان الإعتدال ٣/ ١٤٦ جلاء العينين ص ١٦٠ .

(٣) سورة مريم آيه / ٢٦ .

وانما أمرت بذلك لئلا تسئل عن ولدها فقولها (ظن أكلم اليوم إنسيا) به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس ، ولم يكن ما أخبرت به داخلا تحت الخبر وإلا كان قولها هذا مخالفا لنذرها " .أ.هـ.(١)

فقوله تعالى (خالق كل شيء) التي استدل بها المعتزلة على خلق القرآن آيه عامة في جميع الخلق لا يخرج عنها شيء من هذا الوجود أعيانه وأفعاله ،وحركاته وسكناته ، ولا يخصص بذات الله ـ تعالى ـ وصفاته إذ البارئ ـ سبحانه ـ خالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له ـ تعالى ـ ونفس اللفظ في الآية قد فرّق بين الخالق ـ سبحانه ـ وبين المخلوق ، وصفاته ـ تعالى ـ داخلة في مسمى اسمه ـ تعالى ـ فان لفظ الجلالة" الله " اسم للإله ـ تعالى ـ الموصوف بكل صفة كمال المنزه عن كل صفه عيب ونقص ومثال ، والخلق قسمان : أعيان وأفعال وهو ـ سبحانه ـ الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال(٢) .

ويقال للمعتزله أيضا : إن عموم " كل " في كل مقام بحسبه ويتبين ذلك بالقرائن ، وبرهان ذلك قوله ـ تعالى ـ (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم)(٣) ومساكن قوم عاد شيء ،ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح وذلك لأن المراد تدمر كل شيء قابل للتدمير بواسطة الريح .

وقال تعالى (وأوتيت من كل شيء)(٤) والمراد من كل شيء تحتاجه الملوك ،ومثل هذا يفهم من قرائن الكلام ، فمراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك غير محتاجة إلى ما يكمل به أمر ملكها ولهذا نظائر كثيرة والمراد

---

(١) بدائع الفوائد ٤/٢١٨ .
(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر ص ٥٣ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأحقاف آيه / ٢٥ .
(٤) سورة النمل آية : ٢٣

من قوله تعالى (خالق كل شيء) أي كل شيء مخلوق وكل موجود سوى ـ البارئ ـ فهو مخلوق فيدخل في هذا العموم أفعال العباد قطعا ولم يدخل في هذا العموم الخالق ـ تعالى ـ وصفاته ـ تعالى ـ ليست غيره لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الموصوف بصفات الكمال ، وصفاته ـ تعالى ـ ملازمة لذاته المقدسة ، ولا يتصور انفصال صفاته ـ تعالى ـ عنه بحال[١].

كما يقال لهم أيضا : كيف يصح أن يتكلم الله بكلام قائم بغيره ولو جاز ذلك للزم أن يكون كل كلام أحدثه في الجمادات كلامه ! وكذلك الكلام الذي خلقه في الحيوانات يكون كلامه ، ولا يكون هناك فرق بين نطق وأنطق ، وإنما قالت الجلود (أنطقنا الله[٢]) ولم تقل : نطق الله بل يلزم أن يكون متكلما بكل كلام خلقه في غيره زوراً ،أو كذبا ، أو كفرا ، أو هذيانا ـ تعالى الله ـ عما يقوله المعتزلة والجهمية علوا كبيرا ، وهذا ما قاله الإتحادية فقد قال ابن عربي :

وكل كلام في الوجود كلامه ∴ سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح هذا لكان قول فرعون (أنا ربكم الأعلى[٣]) من كلام الله كما أن الكلام المخلوق في الشجرة على زعمهم كلام الله وهذا من باطل القول وزوره إذ الرسل عليهم الصلاة والسلام أخبروا الناس وأفهموهم أن الله نفسه هو الذي تكلم والكلام قائم به لا بغيره ولذلك عاب الله على من يعبد إلها لا يتكلم قال تعالى : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا[٤]) ، ولا يحمد شيء بأنه متكلم ويذم بأنه غير متكلم إلا إذا كان الكلام قائما به " أ.هـ[٥].

---

(١) شرح الطحاوية ص ١٨٥ ، وما بعدها .
(٢) سورة فصلت آية / ٢١ . (٣) سورة النازعات آية / ٢٤ .
(٤) سورة الأعراف آية / ١٤٨ .
(٥) منهاج السنة ١/٢٢٢-٢٢٣ ، شرح الطحاوية ص ١٨٤ .

وأما استدلالهم ـ المعتزلة ـ بقوله تعالى (إنا جعلناه قرآنا عربيا)[١] على خلق القرآن فهو استدلال ظاهر الفساد فان الفعل "جعل" إذا كان بمعنى "خلق" فانه يتعدى إلى مفعول واحد كقوله ـ سبحانه ـ (وجعل الظلمات والنور)[٢] واذا كان يتعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى : (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا)[٣] .

ومثل هذا قوله تعالى : (إنا جعلناه قرآنا عربيا)[٤] .

وللمعتزلة أدلة أخرى غير هذه الأدلة ولكن بحمد الله ـ تعالى ـ لقد بين علماء السلف عدم وجهة استدلالهم بها وأن تعلقهم بها لا يساعد على دعواهم في القول بخلق القرآن .

مذهب الكلابية :ـ

لقد ذهب عبد الله بن سعيد بن كلاب وأتباعه الى أن القرآن عبارة عن حكايه معنى قائم بنفسه لا يتعلق بقدرته ـ تعالى ـ ومشيئته وأنه لازم لذاته ـ جل وعلا ـ كلزوم الحياة والقدرة والعلم وأنه لا يسمع على الحقيقة ، وليس له حرف ولا صوت ، وهو أربعة معاني في نفسه: الأمر ، والنهى ، والخبر والاستخبار ، فهي أنواع لذلك المعنى القديم الذى لا يسمع وذلك المعنى هو المتلو المقروء ، وهو غير مخلوق والأصوات والحروف هي تلاوة العباد وهي مخلوقة ، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يتكلم بمشيئته وقدرته وأنه ليس فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته لامتناع قيام الأمور الاختيارية به عندهم

---

(١) منهاج السنة ١/٢٢٢-٢٢٣ ، شرح الطحاوية ص ١٨٤ .
(٢) سورة الانعام آيه / ١ . (٣) سورة النحل آيه / ٩١ .
(٤) شرح الطحاوية ص ١٨٦ ، وانظر الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ضمن مجموعة عقائد السلف .

لأنها حادثة ، والله لا يقوم به حادث عندهم وقالوا : إذ لو قلنا أنه بقدرته ومشيئته لزم أن يكون حادثا فيلزم أن يكون مخلوقا ، أو قائما بذات ـ الرب ـ فيلزم قيام الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث ؛ لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وتسلسل الحوادث ممتنع ، إذا التفريع على هذا الأصل (١) .

فمذهب الكلابية أن القرآن العربي ليس عندهم كلام الله وانما كلامه المعنى الذى قام بذاته ، والقرآن العربى خلق ليدل على ذلك المعنى ، ثم إما أن يكون خلق فى بعض الأجسام الهواء أو غيره ، أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي ، أو ألهمه ـ محمداً ـ فعبر عنه بالقرآن العربي وكما هو معلوم مذهب ظاهر البطلان .

مذهب الأشاعرة :ـ

أما مذهب الأشاعرة فقد قالوا : الكلام عبارة عن معنى واحد قائم بنفسه وهو صفة أزلية قديمة ، ليس بصوت ولا حرف ، وهو عين الأمر ، وعين النهي ، وعين الخبر ، وعين الإستخبار ، الكل من أمر واحد ليس له أنواع ولا أجزاء فإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا وإن عبر عنه بالعربية فهو القرآن .

وقالوا : تسمى هذه العبارات كلام الله مجازا ، وأن موسى عليه السلام لم يسمع كلام الله حقيقة بل سمع ما يدل عليه (٢) .

---

(١) مقالات الاسلاميين ٢ / ٢٥٧ ، وما بعدها ، مجموع الفتاوى ١٢ / ١٢١ ، ٩٤ ، وانظر مجموعة الرسائل والمسائل ٣ / ٣٧٨ ، ومنهاج السنة النبوية ١ / ٢٢١ ، مختصر الصواعق المرسلة ٢ / ٢٩٠-٢٩١ ، وانظر لوامع الأنوار البهية ١ / ١٦٤ ، وانظر شرح الأصول الخمسة ص ٥٢٧ .

(٢) أنظر تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ٧١ ، شرح العقائد النسفية ص ٩٤ ، شرح الفقه الأكبر ص ٤٠-٤١ .

قال البغدادي : كلام الله عندنا أمر ونهي وخبر ووعد ومن فوائد وجوهه العموم ،والخصوص ، والمجمل ، والمفسر ، وفي أحكام ناسخ ومنسوخ ،ولا ينسخ كلامه ،لأنه لا يجوز عدمه ورفعه وقراءة كلامه بالعربية قرآن ،وقراءته بالعبرانية توراة وبالسريانية إنجيل والقراءة غير المقروء لأن المقروء كلام الله وليست القراءة كلامه "(١).

فالقرآن عند الأشاعرة كلام نفسي لأن الكلام ينقسم إلى قسمين :- كلام نفسي وهو كلام الله فذلك قديم ، وكلام لفظي وهو حادث مخلوق .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -تعالى- في رده على مذهبهم هذا " فالكلام القديم النفساني الذي أثبتموه لم تثبتوا ماهو ؟ . بل ولا تصورتموه وإثبات الشيء فرع عن تصوره فمن لم يتصور ما يثبته كيف يجوز أن يثبته ولهذا كان أبو سعيد بن كلاب رأس هذه الطائفة وإمامها في هذه المسألة لا يذكر في بيانها شيئا يعقل بل يقول : هو معنى يناقض السكوت والخرس . . . "أ.هـ(٢).

وقال أيضا : رحمه الله تعالى :

" وأما قول الأشاعرة إن الكلام عبارة عن معنى واحد فهو باطل لأنه يقال لهم : " هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى ، أو بعضه فإن قالوا : سمعه كله فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله ، وفساد هذا ظاهر .

وإن قال : بعضه فقد قال : يتبعض وكذلك كل من كلمه الله ، أو أنزل إليه شيئا من كلامه ، ولما قال الله تعالى للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة)(٣) أو قال لهم (اسجدوا لآدم) وأمثال ذلك فهل هذا جميع كلامه ،أو بعضه ؟

---

(١) أصول الدين ص ١٠٧-١٠٨ .
(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦ .
(٣) سورة البقرة آية / ٣٠ .

فان قال : انه جميعه فهذا مكابسرة وإن قال : بعضه فقد اعترف بتعدده وكذلك أن معنى آية الكرسي ليس معنى (قل هو الله أحد)[١] ولا معنى (ولا تقربوا الزنى)[٢] معنى (تبت يدا أبي لهب)[٣].

وبهذا المذهب الأشعرى قال الماتريدية في صفة الكلام[٤].

ثم ان مذهب الأشاعرة والماتريدية في صفة الكلام بعيد كل البعد عن مذهب السلف ، وقريب كل القرب من مذهب الجهمية والمعتزلة كما صرح الأيجي بذلك حيث قال :

" قالت المعتزلة أصوات ،وحروف يخلقها الله في غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل ، أو النبي ،وهو حادث ، وهذا لا ننكره ،لكنا نثبت أمرا وراء ذلك وهو المعنى القائم بالنفس[٥] فلقد صدق العلماء في تسميتهم أفراخ المعتزلة " .

مذهب الكرامية :-

أما الكرامية فقد قالوا : إن كلام - الباري سبحانه - حروف وأصوات وأنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات - الرب تعالى - تكلم به بعد أن لم يكن متكلما وأنه لا مانع أن توجد الحوادث للصانع - جل وعلا - بعد ان تكلم ،فوجود الكلام عندهم في الأزل ممتنع كوجود الأفعال ، وكذلك ان الكلام ممتنع أن يكون مخلوقا في غيره والله - تعالى - متكلم بمشيئته وقدرته ، فيكون كلامه حادثا ،كان بعد أن لم يكن[٦].

---

(١) سورة الصمد آية / ١ (٢) سورة الاسراء آية / ٣٢ .
(٣) مجموعة الرسائل والمسائل ٣ / ١٥٤ ط دار الكتب العلمية وانظر شرح الطحاوية ص ١٩٧
(٤) انظر التوحيد للماتريدى ص ٥٨-٥٩ ، أصول الدين للبزدوى ص ٥٥ ، شرح العقائد النسفية ص ٨٩ .
(٥) المواقف ص ٢٩٤ .
(٦) مجموعة الرسائل والمسائل ٣ / ٤٥٥ ، منهاج السنة النبوية ١ / ٢٢١ ، لوامع الأنوار البهية ١ / ١٣٧ ، شرح الطحاوية ص ١٨٠ ، أصول الدين للبزدوى ص ٥٦ .

وذكر البزدوي مذهب الكرامية فقال : " وعند الكرامية الله ـ تعالى ـ متكلم على الحقيقة بكلام حادث قائم به ، وأنهم يجوزون حدوث الأشياء بالله ـ تعالى ـ "(١) .

وقول هؤلاء الكرامية مشتمل على حق وباطل ، فإثباتهم كلاما وفعلا حقيقة قائمين بذات المتكلم الفاعل هذا حق ، وأما زعمهم أن ـ البارى جل وعلا ـ تكلم بعد أن لم يكن متكلما فهذا عين الباطل لأن الكلام من صفات الكمال ، وهو ـ سبحانه ـ متصف بصفات الكمال أزلا وأبدا .

مذهب السالمية :ـ

أما السالمية فقد قالوا : بأن صفة الكلام من الصفات القديمة القائمة بذات ـ الرب جل وعلا ـ لم يزل ولا يزال ، لا يتعلق بقدرته ومشيئته ، ومع ذلك يقولون : بأنه حروف وأصوات وسور وآيات ، سمعه جبريل منه ، وسمعه موسى بلا واسطة ويسمعه ـ سبحانه ـ من يشاء ، وإسماعه نوعان بواسطة ، وبغير واسطه ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضها بعضا ، بل هي مقترنة الباء مع السين مع الميم في آن واحد ، لم تكن معدومة ، في وقت من الأوقات ، ولا تعدم بل لم تزل قائمة بذاته ـ سبحانه ـ قيام صفة الحياة والسمع والبصر "(٢) .

ثم إنهم اختلفوا في الأصوات المسموعة هل هي من القارئ أم لا ؟ .

فذهب جمهورهم إلى أن تلك الأصوات المسموعة من القارئين .

وقال قوم : بأن الصوت يسمع من القارئ ثم قد يقولون : تارة إن القديم نفس الصوت المسموع من القارئ .

---

(١) أصول الدين ص ٥٦

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ٣/٣٣ ، مختصر الصواعق المرسلة ٢/٢٩٣ ، مجموع الفتاوى ١٢/١٦٦ .

وبعضهم يقولون : إنه يسمع من القارئ صوت قديم ، ومحدث " أ.هـ.(١)

مذهب الإتحادية والحلولية :-

أما الإتحادية والحلوليه فقد زعموا : بأن كل كلام في الوجود كلام الله نظمه ، ونثره ، حقه وباطله ، سحره وكفره ، خيره ، وشره فكل ذلك عين كلام الله - تعالى - القائم به ، وهذا المذهب بنوه على أصلهم الذي أصلوه ، وهو اتحاد الخالق بالخلق ، وأن الله - سبحانه - هو عين الوجود ، فصفاته هي صفات الله ، وكلامه هو كلام الله وأصل هذا المذهب ، انكار مباينة الله لخلقه وعلوه واستوائه على عرشه ، ولما أصلوا لأنفسهم القول بأن الله في كل مكان ، وأنه - سبحانه - غير مباين لهذا العالم بل هو عين هذا العالم ، فلله حينئذ كل اسم حسن وقبيح وكل صفة كمال ونقص ، وكل كلام حق وباطل نعوذ بالله من ذلك " .

وهذا قول ابن عربي ، وابن الفارض وابن سبعين والتلمساني ومن جرى في ركابهم(٢) .

تلك هي أقوال الناس ومذاهبهم في صفة الكلام ، وهي الأقوال التي قيلت في القرآن الكريم ، ومما لا شك فيه أن القول الذي يجب على المسلم أن يدين الله به هو ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة من أن القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه ليس شيء من ذلك كلاما لغيره ، ولكن أنزله على رسوله . . . وأنه - تعالى - يتكلم بصوت كما ورد بذلك الأحاديث الصحاح ، وليس ذلك كأصوات العباد ، لا صوت

(١) مجموع الفتاوى ١٢ / ١٦٦ - ١٦٧ .
(٢) مجموع الفتاوى ١٢ / ١٧٤ ، منهاج السنة ٢ / ٢٢١ ، مختصر الصواعق المرسلة ٢ / ٢٨٦ - ٢٨٨ ، شرح الطحاوية ص ١٨٤ .

لا صوت القارى ، ولا غيره وأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله فكما لا يشبه علمه وقدرته ، وحياته ، علم المخلوق وقدرته ، وحياته فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق ، ولا معانيه تشبه معانيه ولا حروفه تشبه معانيه ، ولا حروفه تشبه حروفه ولا صوت الرب - يشبه صوت العبد (١) .

فهذا المذهب هو المذهب الحق لموافقته الوحي الإلهي الذي هو الفيصل الحاسم عند التنازع والاختلاف .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(المبحث الرابـــــع)

(إثبات صفـــــة العـــــــزة)

لقد أثبتت السورة صفة العزة ـ للبارى سبحانه ـ فى ثلاث آيات :ـ

قال تعـــالى :تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيـــــم) ؛

وقال تعالـــى : (ألا هو العزيـــز الغفـــــــار) .

وقال تعـــالى : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَـــــامٍ) .

فاسمه ـ تعالى ـ " العزيز" الوارد فى هذه الآيات الثلاث يشتق منه صفة العزة" ، وهى من الصفات الذاتية التى لا تنفك عن الله ـ تعالى ـ فالعزيز اسم من أسماء الله ـ تعالـــى ـ وقد جاء في اشتقاقه وجوه :ـ

الأول : أن يكون بمعنى لا مثيل له ولا نظير من " عز" الشيء بكسر العين فى المضـــارع ومنه يقال : عز الطعام فى البلد اذا تعذر وجوده عند الطلب ، واذا سمى الشيء الذى يعسر وجود مثله " بالعزيز" فبأن يسمى الشيء الذى يمتنع عقلا أن يكون له نظـير " بالعزيز" من باب أولى .

لثانى : أن يكون بمعنى الغالب الذى لا يغلب من " عز يعز" بضم العين فى المضـــارع أى : غلب يغلب ومنه قوله ـ تعالى ـ (وعزنى في الخطاب) (١) أى غلبنى وتقول العرب: " من عز بز" أى ، من غلب سلب فاذا قيل : لمن غلب مع جواز أن يصير مغلوبا أنه " عزيز" فالغالب الذي يمتنع أن يصير مغلوبا ، والقاهر الذى يستحيل أن يصير مقهورا أولى أن يسمى " بالعزيز" .

الثالث: أن يكون بمعنى الشديد "" القوي" يقال : عز يعز ، بفتح العين فى المضارع إذا اشتد وقوى ومنه قوله تعالى (فعززنا بثالث) (٢) أى أشددنا وقوينا واذا سمى " القوى " الذي قد يضعف ، والقادر الذي قد يعجز " بالعزيز" فلأن يسمى "القادر" الذى يستحيل فى حقه العجز " عزيزا" من باب أولى .

---

١) سورة (ص) آية :٨ . (٢) سورة (يس) آية : ١٤ .

الرابـــع:أن يكون بمعنى "المعز" على وزن "فعيل" بمعنى "مفعل" كالأليم بمعنى المؤلم وعلى كل فعلى المعنى الأول يرجع إلى التنزيه، وعلى المعنى الثانى والثالـــث يعود إلى صفة الذات، وهى القدرة .

وعلى المعنى الرابع يرجع إلى صفة الفعل" (١) .

وقد ورد هذا الإسم الشريف في مواضع كثيرة من كتاب الله - تعالى - وكثرة تكراره دليل ناصع على إثبات صفة "العزة" لله تعالى ثبوتا قطعيا يليق بجلاله - سبحانه - من غير تمثيل، ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تحريف، ولا عبرة بمن نفى الصفة وأثبت الإسم كما هو مذهب المعتزله (٢) ولا قيمة لمن نفى الأسماء والصفات كما هـــو مذهب الجهمية (٣) النفاة، ومذهبهم فى الحقيقة يؤدى إلى القول بالعدم المحض وهو من أفسد المذاهب .

فصفة العزة ثابتة بنص كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رغمت أنوف الجهمية والمعتزلة، وإليك بعض الآيات فى ذلك : قال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٤) فكل من له نوع بصيرة يعلم أن القوة والغلبة في الحقيقة - للبارى - سبحانه وتعالى - وحده ثم لمن أفاضها عليه من رسله، والصالحين من عباده - وعزته تعالى - غلبته وقهره لأعدائه، وعزة رسوله صلى الله عليه وسلم إظهار دينه على كل الأديان، وعزة عباده المؤمنين، نصره لهم على أعدائهم فالمؤمنون لهم من العـــزة بقدر ما معهم من الإيمان وحقائقه فإذا حصل لهم نقص من العلو والعزة فسببـــه ما فاتهم من حقائق الإيمان علما وعملا، ونصرهم وتأييدهم موقوف على قيامهم بتكميل مراتب الإيمان وواجباته .

---

١) تفسير أسماء الله الحسنى للرازى ص ١٩٤-١٩٥ .

٢) يطلق اسم المعتزلة على الذين يجمعون القول بالأصول الخمسة "التوحيد، والعدل والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ويقولون بإثبات الأسماء ونفى الصفات، أنظر آراءهم، وأقوالهم فى "مقالات الاسلاميين" ١/٢٣٥ وما بعدها "الملل والنحل للشهرستانى ١/٤٣ وما بعدها، الفرق بين الفرق ص١١٤ التبصير في الدين لأبى المظفر الإسفراييني ص ٦٣ .

٣) أنظر مقالات الإسلاميين ١/٣٣٨، الملل والنحل للشهرستانى ١/٨٦ وما بعدها الفرق بين الفرق ص ٢١١-٢١٢، التبصير فى الدين ص١٠٧-١٠٨، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى ص ٦٨ .

(٤) سورة المنافقون آية : ٨ .

وقال تعالى : (إنك أنت العزيز الحكيم) (١) وقوله - سبحانه - (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) (٢) وقال - جل شأنه - (والله عزيز حكيم) (٣) وقال سبحانه - (إن ربك هو القوي العزيز) (٤) وقال (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) (٥) وقد قرن - سبحانه بين وصف العزة والحكمة بقوله (وكان الله عزيزا حكيما) (٦) .

ومعنى - العزيز - الغالب كل شيء والذي ذل - لعزته - كل كل عزيز والممتنع فلا يغلبه شيء وهو - سبحانه - رب العزة وبيده وحده " العزة يعز بها من يشاء ، ومن يريد العزة فلا مصدر لها سوى " العزيز " - سبحانه - قال تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) (٧) وقد توعد الله المنافقين الذين يلتمسون " العزة" عند الكافرين الذين اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين بالعذاب الأليم فقال تعالى : (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا) (٨) .

ولقد جاء اسمه - تعالى - " العزيز " مقترنا بأسماء أخرى من أسمائه - تبارك وتعالى - ولاقترانه ذلك أسرار دقيقة ، ومعانى بديعة فقد اقترن باسمه - تعالى - " الحكيم" في عدة مواضع ذكرنا بعضها قريبا قال تعالى : (إن الله كان عزيزا حكيما) (٩) فاقترانه بهذا الإسم يفيد أنه الغالب الذى لا يعجزه شيء - سبحانه - وهو الحكيم فى أقواله وأفعاله جميعا يضع الأشياء في مجالها التي تناسبها مناسبة تامة .

كما اقترن باسمه - تعالى - " ذو انتقام " عدة مرات مثل قوله - تعالى - (والله عزيز ذو انتقام)(١٠) واقترانه به يفيد أنه الغالب الذي يقدر على أن ينتقم ممن يستحق الإنتقام منه بمنتهى العدل منه - سبحانه - .

---

١) سورة البقرة آية: ١٢٩ (٢) سورة آل عمران آية: ١٨ .
٣) سورة ابراهيم آية : ٤٧ (٤) سورة هود آية : ٦٦
٥) سورة الشعراء آية : ٩ (٦) سورة الفتح آية : ٧ .
٧) سورة فاطر آية : ١٠ (٨) سورة النساء آية : ١٣٨-١٣٩ .
٩) سورة النساء آية : ٥٦ . (١٠) سورة آل عمران آية : ٤ .

واقترن باسم القوي في أكثر من موضع في كتاب الله - تعالى - مثل قوله - سبحانه - (وكان الله قويا عزيزا) (١) واقترانه بهذا الإسم يفيد أنه - سبحانه - ذو القوة التي لا تغلب فبقوته - سبحانه - وعزته يوقع بمن يشاء من عقوبته ولا معقب لما يريده - جل وعلا -

وجاء مقترنا باسمه - تعالى - : " الحميد " في عدة مواضع مثل قوله - تعالى - (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) (٢) .

واقترانه به يفيد أنه - تبارك وتعالى - العزيز الغالب الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع " المحمود في جميع أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، وأمره ونهيه ، الصادق في خبره "(٣) وهو المحمود على كل حال .

واقترن باسمه - تعالى - " الرحيم " أكثر من عشر مرات واقترانه به يفيد أنه مع عزته وغلبته وقوته - سبحانه - رحيم بخلقه ومعنى ذلك أنه لا يعجل العقوبة على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

وقد جاء أيضا مقرونا باسمه - تعالى - " العليم " واقترانه به يفيد أنه العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف - العليم - بكل شيء فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وكثيرا ما إذا ذكر الله الليل والنهار ، والشمس ، والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم .

قال تعالى (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) (٤) فهو سبحانه - العزيز الذي من عزته انقادت له كل هذه المخلوقات العظيمة فجرت مذللة بأمره حيث لا تتعدى ما حده الله لها ، ولا تتقدم عنه ، ولا تتأخر العليم ، الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر ، كما أنه - العزيز - الذي قهر الخلائق فأذعنوا له ، والعليم بجميع الأشياء ، والعليم بأقوال المختلفين وعما ذا صدرت ، وعن غاياتها وسيجازي كلا بما علمه فيه " (٥) .

وقد جاء اسمه - تعالى - " العزيز " مقترنا باسمه - تعالى - " الغفور " قال تعالى (وهو العزيز الغفور) (٦) وباسمه - تعالى - " الغفار " قال تعالى حكاية عن كليمه موسى عليه السلام (وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) (٧) واقترانه بهما يفيد أنه مع عزته وغلبته لكل

---

١) سورة الأحزاب آية : ٢٥ سورة ابراهيم آية : ١ .
٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٠٨ (٤) سورة فصلت آية : ١٢
٥) تيسير الكريم الرحمن : ٥ / ٢٨٧ . (٦) سورة الملك آية : ٢ .
٧) سورة غافر آية : ٤٢ .

خلقه فإنه - سبحانه - يغفر جميع الذنوب صغيرها وكبيرها لمن تاب إليه وأقلع عن ذنوبه ويلاحظ هنا أن اسم - العزيز - اقترن باسم " الغفور" و" الغفار" وكل منهما صفة مبالغة على وزن " فعول" و"فعال" مما يدل على كثرة غفره - سبحانه - للتائبين المنيبين إليه وورد مقرونا باسمه - تعالى - " المقتدر" مرة واحدة في كتاب الله - تعالى - وذلك في قوله - عزشأنه - (كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) (١) واقترانه بهذا الإسم يفيد أنه أخذ منها - العزيز - الغالب الذي إذ أخذ المكذبين أخذهم أخذ غالب في انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه شيء - سبحانه وتعالى - (٢) وورد مقترنا باسمه - تعالى - " الوهاب" مرة واحدة في القرآن ومعناه : أنه - سبحانه - العزيز الغالب القاهر الذي لا يرام جنابه يعطي بغير حساب ، ويعطي ما يريد لمن يريد عطاءً منه وتفضلا من خزائن رحمته التي لا تنفدُ قال تعالى : (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) (٣) كما اقترن مرة واحدة باسمه - تعالى - " الجبار" قال تعالى : (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار) (٤) .

واقترانه بهذا الإسم يفيد أنه - سبحانه - وتعالى " العزيز " القاهر الغالب الذي لا يوجد له نظير هو العظيم صاحب العظمة والجبروت ويجوز أن يكون من - جبر - إذا أغنى الفقير وجبر الكسير (٥) وقيل الجبار الذي لا تطاق سطوته ".

فجميع الآيات التي قدمنا ذكرها أدلة قطعية واضحة على إثبات صفة - العزة - التي هي من صفات ذاته - سبحانه - التي لا تنفك عنه .

وصفة العزة لها ثلاث معان :-

١) عزة القوة الدال عليها من الأسماء " القوى المتين) .

٢) عزة الإمتناع فانه الغني فلا يحتاج إلى أحد ولن يبلغ العباد ضره فيضروه ، ولا نفعه فينفعوه .

---

١) سورة القمر آية : ٤٢ .
٢) أنظر فتح القدير : ٥/١٢٨ .
٣) سورة ص آية : ٩ .
٤) سورة الحشر آية : ٢٤ .
٥) أنظر فتح القدير : ٥/٢٠٨ .

٣) عزة القهر والغلبة لكل الكائنات ، وقد ذكر هذه المعاني الثلاثة العلامة ابن القيم رحمة الله عليه حيث قال :-

وهو العزيز فلن يرام جنابه أنى يرام جناب ذو السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب له يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه فالعز حينئذ ثلاث معان (١)

أما من حيث إضافتها إلى الله - جل وعلا - فإنها تنقسم إلى قسمين :-

القسم الأول :

من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كما في قوله - تعالى - حكاية عن إبليس (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين) (٢) فالآية أوضحت أن إبليس عرف صفة العزة وأثبتها لله - تعالى - وأنكرها أهل التعطيل من جهمية ومعتزلة مكابرة وعنادا كما أن الآية دلت على جواز الحلف بصفة - العزة - وغيرها من الصفات مثلها كما دلت على أن صفاته - تعالى - ليست مخلوقة لأن الحلف بالمخلوق شرك بالله العظيم وكذلك الإستعاذة به .

القسم الثاني :

إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه وهي : العزة المخلوقة التي يعز بها أنبياءه وعباده الصالحين وهي ما يحصل لهم من النصر والتأييد وغلبة الأعداء ، وقد مثلنا ما يدل على ذلك من القرآن " (٣) .

وحيث قلنا: إن القرآن دل على إثبات صفة - العزة - في كثير من آياته كذلك السنة دلت على ما دل عليها القرآن فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال بينا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ولكن لا غنى لي عن بركتك " (٤) .

---

١) أنظر القصيدة النونية مع شرحها " توضيح المقاصد وتصحيح القواعد " ٢ / ٢١٨ .
٢) سورة ص آية : ٨٢ . (٣) بدائع الفوائد لابن القيم : ٢ / ١٨٥ .
٤) صحيح البخاري ١ / ٦١ وسنن النسائي ١ / ٢٠١ المسند ٢ / ٢٤٣ .

وروى أيضا : من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم :"قال إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل يخالف الله وجهه عن النار قبل الجنة ، ومثل له شجرة ذات ظل فقال : أى رب قدمني إلى هذه الشجرة أكون في ظلها قال الله -عز وجل- له هل عسيت إن فعلت أن تسأل غيره ؟ فقال لا وعزتك فيقدمه الله -تعالى- إليها ، ومثل له ذات ظل وثمر فقال : أي رب قدمنى إلى هذه الشجرة أكون في ظلها وآكل من ثمرها قال الله هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيره ؟ قال لا . وعزتك فيقدمه الله إليها فيمثل له شجرة أخرى ذات ظل وثمر وماء فيقول : أى رب قدمني إلى هذه الشجرة أكون في ظلها وآكل من ثمرها وأشرب من مائها فيقول الله -عز وجل- هل عسيت إن فعلت أن تسألنى غيره ؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألنك غيره فيقدمه الله -تعالى- إليها . . . . . الحديث (١) .

وروى أبو داود (٢) في سننه من حديث عثمان بن أبى العاص الثقفى قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبى وجع قد كاد أن يبطلنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إجعل يدك اليمنى عليه ثم قل : بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد سبع مرات ففعلت فشفانى الله -عز وجل-" (٣) .

وروى البخارى : باسناده الى ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :" اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون " (٤) .

---

١) صحيح البخارى ٤/٢٨٤ ، وأحمد فى المسند ١/٣٩٤ .

٢) هو: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني أبو داود إمام أهل الحديث في زمنه وهو أحد أئمة الحديث الستة ولد سنة اثنتين ومائتين وتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين هجرية .أنظر ترجمته في " تذكرة الحفاظ للذهبى ٢/٥٩١ -٥٩٣ ، تاريخ بغداد ٩/٥٥-٥٩ ، وفيات الأعيان ١/٢١٤ .

٣) ٢/٣٣٨ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ص ١٦٥ .

٤) صحيح البخارى مع الفتح ١٣/٣٦٨ .

وروى البخارى أيضا : من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم " تقول جهنم قط ، قط (١) وعزتك " (٢) .

فهذا الحديث بين فيه النبى صلى الله عليه وسلم أن جهنم تحلف بعزة الله - جل وعلا - وهو دليل واضح على إثبات هذه الصفة ، كما أنه دليل على جواز الحلف بعزة الله ، وغيرها من الصفات مثلها . يجوز الحلف بها .

والذي نخلص إليه مما تقدم من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية صحيحة يتبين لنا أن الله - تعالى - أثبت لنفسه صفة العزة كما أثبتها له أنبياؤه ورسله وملائكته كما قال جبريل عليه السلام حين (رأى الجنة وما أعد الله فيها لأهلها" وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها .... الحديث (٣) كما أثبتها له عباده المؤمنون الموحدون ولم ينكرها إلا من أشرب قلبه بمذهب التعطيل من الجهمية والمعتزلة ، فصفة العزة ثابتة لله - تعالى - بالأدلة القطعية التي لا تقبل المراء ولا الجدال فلا يمكن أن يكون أحد من الخلق معتزا إلا به - تبارك وتعالى - .

ولا عزة لأحد إلا هو مالكها - جل وعلا - ومن يريد العزة فليطلبها من الله ، ولا يمكن أن ينالها أحد إلا بطاعته - ربه سبحانه وتعالى - ولذلك أثبتها الله لرسوله ولعباده وأوليائه المؤمنين الذين أخلصوا له العبادة وأطاعوه حق الطاعة طمعا في ثوابه وفرارا من عقابه والتزموا نهج الكتاب والسنة ، واتبعوا ما عليه سلف الأمة في إثبات صفات الله - تعالى - التي نطق بها الكتاب ونطقت بها السنة وأذاعها السلف في جميع الأمة ، وبعد هذه الأدلة القاطعة المقنعة لا يبقى أي مدخل لمن يقول : إن الله - عزيز - بلا عزة - قدير - بلا قدرة لأن هذه الأدلة الجمة تبطل زعمهم ، وترد مقالتهم الباطلة ، كما ترد مذهب الجهمية الذين ينكرون الأسماء والصفات ، كما تبين فساد قول القائلين بتأويل صفاته - تعالى - بمعان غير واردة ، أو فرق بينها بأن أثبت بعضها على ما يليق بالله - تعالى - وادعى وجوب تأويل البعض الآخر كما فعل

---

١) قال في النهاية : قط ، قط : بمعنى : حسب وتكرارها للتأكيد ٤/٧٨ .
٢) صحيح البخارى مع الفتح ١٣/٣٦٨ .
٣) رواه أحمد في المسند من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ٢/٣٣٣ .

ذلك بعض الطوائف[1] وهو تصرف خاطئ ، ولا شك أن أدلة الكتاب والسنة وإجماع المؤمنين من هذه الأمة كل ذلك صفعة لهم على رؤوسهم وإبطال لكل انتحالاتهم فعلى كل الفرق التي ضلت في صفات الله - تعالى - تبعا للهوى والرأى الفاسد أن ترجع إلى الصواب ، وتؤمن بما جاء في الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة ، من الإيمان بالأسماء والصفات وتبتعد عن التمثيل ، والتعطيل ، ومن التحريف ، والتكييف ومن ثم لا يترتب على ذلك أي محذور يتصورونه بأفكارهم الضيقة لأنه - تعالى - (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٢) .

---

١) مثل الأشعرية الكلابية ، أنظر مقالات الإسلاميين " ١ / ٢٤٩ وما بعدها .

٢) سورة الشورى آية : ١١ .

(المبحث الخامس)

اثبات صفة الحكمـــــة

لقد دلت السورة على إثبات صفة الحكمة ـ للبارى جل وعلا ـ في أول آية منها :

قال تعالى (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) فاسمه ـ تعالى ـ " الحكيم " دل على صفة الحكمة ـ للرب جل جلاله ـ ، واسمه ـ تعالى ـ " الحكيم " مأخوذ من الحكمـــة وله معنيان :

أحدهما : بمعنى القاضى العدل الحاكم بين خلقه بأمره الدينى الشرعى وأمره الكونى القدري وله الحكم في الدنيا والآخرة .

الثانـــى : أنه المحكم للأمر كى لا يتطرق إليه الفساد . (١)

قال ابن القيم رحمة الله عليه :

" الحكمة حكمتان : علمية ، وعملية ، فالعلمية الإطلاع على بواطن الأشياء ومعرفـــة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقا وأمرا وقدرا ، وشرعا .

والعملية : وضع الشيء في موضعه " (٢) .

قال الزجاج (٣) الحاكم ، والحكم واحد كالواسط ، والوسط وأصل الحكم المنع ، ومنه الحكمة لأنها تمنع النفوس من التمرد ، وكذا الحكمة تمنع الرجل من السفاهة ، ومنه الحكم لأنه يمنع الخصمين عن التعدى ومنه قولهم " فحبيتة يؤتى الحكم " (٤) .

فاسمه ـ تعالى ـ الحكيم ـ من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعالـــه وضعه الأشياء في مواضعها ، وإيقاعها على أحسن الوجوه فإنكار ذلك إنكار لهذا الإسم

---

١) النهاية لابن الأثير ١ / ٤١٨-٤١٩ .

٢) مدارج السالكين ٢ / ٤٧٨ - ٤٧٩ .

٣) هو : أبو إسحاق إبراهيم بن السرى بن سهل الزجاج النحوى كان من أهل العلم بالأدب ، والدين كان يخرط الزجاج في بغداد وإليه نسبته ولد سنة إحدى وأربعين ومائتين وتوفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة للهجرة أنظر ترجمته في " وفيات الأعيـــان ١ / ١١ وله ترجمة في أول كتابه " أسماء الله الحسنى " تحقيق أحمد يوسف الدقاق .

٤) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٤٣ .

ولوازمه ، وكذلك سائر أسمائه الحسنى" (١) .

" فأسماء الرب - تبارك وتعالى - دالة على صفات كماله فهي مشتقة من الصفات فهي أسماء ، وهي أوصاف ، وبذلك كانت حسنى إذ لو كانت ألفاظا لا معاني فيها لم تكن حسنى ولا كانت دالة على مدح ولا كمال ، ولساغ وقوع أسماء الإنتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس فيقال : "اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم اللهم أعطني فانك أنت الضار النافع ونحو ذلك " (٢) .

فصفة الحكمة من صفاته - تعالى - القائمة به كسائر صفاته الأخرى من السمع ، والبصر والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة والكلام وهذه الحكمة هي التي أمر لأجلها وخلق لأجلها ، وقدر لأجلها - سبحانه وتعالى - .

والحكمة نوعان :

أحدهما : حكمة في خلقه وهي نوعان :

الأول : إحكام هذا الخلق وإيجاده في غاية الإحكام والإتقان .

الثاني : صدوره لأجل غاية محمودة مطلوبة له - جل وعلا - وهي التي أمر لأجلها ، وخلق لأجلها .

النوع الثاني : الحكمة في شرعه وهي تنقسم إلى قسمين أيضا :

الأول : كونها في غاية الإحسان والإتقان .

الثاني : صدورها لغاية مطلوبة وحكمة عظيمة يستحق عليها الحمد .

وقد أشار إلى هذه الأنواع العلامة ابن القيم حيث قال :

والحكمة العليا على نوعين أيضا ... حصلا بقواطع البرهان

إحداهما في خلقه سبحانه ... نوعان أيضا ليس يفترقان

إحكام هذا الخلق إذ إيجاده ... في غاية الإحكام والإتقان

وصدوره من أجل غايات له ... وله عليها حمد كل لسان

---

١) مدارج السالكين ١/ ٣١ .

٢) المصدر السابق ١/ ٢٨ .

والحكمة الأخرى فحكمة شرعـــــه أيضا وفيها ذلك الوصفـــــــان

غاياتها اللاتي حمدن وكونهـــــا في غاية الإتقان والإحســـــان (١)

وأوجد كل شيء على أدق نظام، وأحكم إتقان ، خلق فسوى وقدر فهدى ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ، وخلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلقه من تفاوت ولا فطور زين السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلها رجوما للشياطين ، وأنبت من الأرض نباتا يسقى بماء واحد ، ويحيط به جو واحد ، وتحتضنه تربة واحدة ، ولكن منه الحلو اللذيذ السائغ والمر الكريه الذي تتقزز منه النفوس ، خلق من الماء كل شيء حي . ونوع الأحياء المتفقة في أصلها أنواعا لا يدركها حصرولا يحصيها عد ، وفي كل شيء في السماء والأرض آية بينة شاهدة على إتقانه - سبحانه - لما صنع ويكفينا آية أنه خلق هذا الإنسان الذي ألهمه اختراع الكثير من الآلات والأجهزة الدقيقة ، وغير ذلك من الأمور المخترعة - فسبحان ربنا - إنه هو الحكيم العليم .

وإذا نظرنا إلى تفسير اسمه - تعالى - " الحكيم " بمعنى ذي الحكمة الذي بعلمه وحكمته يضع الأشياء في مواضعها فقد وضع - الحكيم العليم سبحانه - كل شيء في الموضع الذي لا يصلح إلا له ولا يليق إلا به ، ولو اجتمع علماء الدنيا بأسرها على اختلاف تخصصهم في العلوم على أن يضعوا شيئا ما وضعه أحكم الحاكمين في مكان خير من مكانه لضل سعيهم وباءوا بالخسران في مسعاهم ، فليفكر الإنسان في كل أعضائه فهل يجد لعضو من أعضائه مكانا خيرا من المكان الذي وضعه فيه أحسن الخالقين ؟ .

كما عليه أن يفكر في أن الله وضع للحيوان الذي يعيش في البحر أعضاء تواءم حياته في الماء ووضع لحيوان البر ما يناسبه ، ولطير الهواء ما يلزمه ، ولحشرات الأرض ما به تتم حياتها وليس المقصود هنا حصر مظاهر حكمة الله فيما خلق من المخلوقات وإنما نقصد بهذا أن نلفت نظر القائلين بأن الله لم يخلق الخلق لحكمة - تعالى الله - عن ذلك علوا كبيرا ، ومن أراد الإطلاع بتوسع على مظاهر حكمة الله في خلقه " فليقلب " كتاب مفتاح دار السعادة " لابن القيم فانه جمع فيه من مظاهر حكمة الله في خلقه ما لا يتسع له هذا المقام وإذا نظرنا إلى تفسير اسمه - تعالى - " الحكيم " من حكم على الشيء بأنه

١) القصيدة النونية مع شرحها توضيح المقاصد وتصحيح القواعد ٢/٢٢٦ .

كذا ،أو ليس كذا ،فانه لا يستطيع أحد أن يحكم على الأشياء بخواصها ومميزاتها ، ومنافعها ، ومضارها إلا الله - تعالى - لأنه - وحده العليم - بظواهر الأشياء وبواطنها ومزاياها ومثالبها لأنه خالقها ، والعليم بأسرارها ،الخبير بخفاياها فحكمه - تعالى - عليها أصدق الحكم قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (١) .

فصفة الحكمة أثبتها الله - تعالى - لنفسه في أكثر من ثمانين موضعا في كتابه الدال عليها اسمه - تعالى - الحكيم - وهي كما قدمنا قريبا صفة قائمة به - سبحانه وتعالى - كسائر صفاته الأخرى وهذا ما يجب اعتقاده في هذه الصفة ،

قال تعالى :" قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) (٢) .

قال العلامة ابن كثير: أي :" العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك ، وفي تعليمك ما تشاء ، ومنعك ما تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام" (٣) .

وقال تعالى : مثبتا لنفسه صفة الحكمة المقرونة بصفة العزة (فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم) (٤) .

وقال تعالى : هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم) (٥)

وقال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) (٦) .

ففى هذه الآية شهد - تعالى - لنفسه بالألوهية والوحدانية ،ثم بين بأنه موصوف بالعزة والحكمة .

وقال تعالى (ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم) (٧) .

وقال تعالى : (نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) (٨) .

وفى هاتين الآيتين أخبر - تعالى عن نفسه بأنه موصوف بصفة الحكمة والعلم.

---

١) سورة الملك آية : ١٤ .
٢) سورة البقرة آية : ٣٢ .
٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٢٨ .
٤) سورة البقرة آية: ٢٠٩ .
٥) سورة آل عمران آية: ٦ .
٦) سورة الممتحنة آية : ١٠ .
٧) سورة الأنعام آية : ٨٣ .

وقال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء إنه علي حكيم) (١) . وفي هذه الآية الكريمة وصف الله نفسه بأنه العلي على جميع خلقه الحكيم في خلقه وتدبيره وأمره ونهيه .

والآيات الواردة في إثبات صفة الحكمة كثيرة فهو - سبحانه - حكيم في خلقه وتدبيره وأمره ونهيه وشرعه ، وقدره وأهل السنة مجمعون على أنه - تعالى - موصوف بالحكمة ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :-

" أجمع المسلمون على أن الله - تعالى - موصوف بالحكمة ، ولكن تنازعوا في تفسير ذلك فقالت طائفة : الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة .

وقال الجمهور : من أهل السنة وغيرهم بل هو حكيم في خلقه وأمره والحكمة ليست مطلق المشيئة إذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيما ، ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى محمودة ومذمومة بل تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة والقول بإثبات هذه الحكمة ليس هو قول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة (٢) فقط بل هو قول جماهير طوائف المسلمين من أهل التفسير والفقه والحديث والتصوف والكلام وغيرهم فأئمة الفقهاء متفقون على إثبات الحكمة والمصالح في أحكامه الشرعية وإنما تنازع في ذلك طائفة من نفاة القدر وغير نفاته ، وكذلك ما في خلقه من المنافع والحكم والمصالح لعباده ومعلوم " أ.هـ (٣) .

---

١) سورة الشورى آية : ٥١ .

٢) الشيعة : هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية ، إما جليا ، وإما خفيا ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده ، وقالوا : ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم بل هي قضية أصولية . . . وهم فرق متعددة بعضهم يميل في الاصول إلى الإعتزال ، وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه انظر " الملل والنحل " ١٤٦/١ . وانظر " مقالات الإسلاميين " ٦٥/١ وما بعدها

٣) منهاج السنة النبوية ٣٤/١ - ٣٥ ، وانظر الرسالة الثامنة " الإرادة والأمر " ضمن مجموعة الرسائل الكبرى " ٣٣١/١ - ٣٣٢ .

وقد أنكر - سبحانه - على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين فقال - تعالى - (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) (١) .

وقال تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) (٢) هاتان الآيتان : دلتا على أن التسوية بين المختلفين حكم سيء ينزه - الباري جل وعلا - عنه ولم ينكره - تعالى - من جهة أنه لا يكون ، وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه ، وأنه حكم سيء يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ، ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة ، فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر ، ولا المحسن كالمسيء ، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض فدل على أن هذا قبيح في نفسه - تعالى الله - عن فعله ، ومن هذا أيضا : إنكاره - سبحانه - على من جوز أن يترك عباده سدى فلا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ، ولا يعاقبهم ، وإن هذا الحسبان باطل ، والله متعال عنه لمنافاته لحكمته ، وكماله كما قال تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) (٣)

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : أي مهملا لا يؤمر ولا ينهى " (٤) .

وقال غيره : لا يثاب ولا يعاقب ، والقولان واحد لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي فهو - سبحانه - خلقهم للأمر والنهي في الدنيا والثواب في الآخرة .

فأنكر - سبحانه - على من زعم أنه يترك سدى إنكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه وأنه لا يليق أن ينسب ذلك الى أحكم الحاكمين ، ومثله قوله - تعالى - (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) (٥) .

---

١) سورة (ص) آية : ٢٨ .
٢) سورة الجاثية آية : ٢١ .
٣) سورة القيامة آية : ٣٦ .
٤) الأم للشافعي : ٧/٢٧١ .
٥) سورة المؤمنون آية : ١١٥-١١٦ .

فنزه نفسه ـ سبحانه ـ وباعدها عن هذا الحسبان ، وأنه يتعالى عنه ولا يليق به لقبحه ولمنافاته لحكمته وملكه وإلهيته " أ.هـ (١) .

فالله تعالى ـ لا يخلق شيئا إلا لحكمة بالغة قد تغيب عن فهم الإنسان وقد يعيبه إدراكها :ـ

قال تعالى : (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) (٢) .

وقال تعالى (وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) (٣) .

وللناس في صفة الحكمة آراء ثلاثة :

١) زعم الأشاعرة (٤) والفلاسفة أن الله ـ تعالى ـ لا يفعل شيئا لغرض وليس له غاية يقصدها تكون باعثة له على فعله بل كل ما يصدر عنه ـ تعالى ـ انما بارادة قديمة اقتضت وقوع هذا العالم على هذا النحو دون غيره وهذا قول الأشاعرة.

إما أن يكون بتمثل النظام الكلي في علمه ـ تعالى ـ السابق مع وقته الواجب اللائق عند الفلاسفة (٥) .

والفرق بين قول الأشاعرة والفلاسفة واضح وهو أن الفلاسفة ينفون عن الله ـ تعالى ـ

---

١) مفتاح دار السعادة : ٢/١١-١٢ . (٢) سورة الدخان آية : ٣٨-٣٩ .
٣) سورة "ص" آية : ٢٧ .
٤) هم المنتسبون إلى أبي الحسن الأشعري ، وأبو الحسن هذا مر بأطوار ثلاثة حيث نشأ في أول أمره على الإعتزال ، وقد تتلمذ فعلمه على "أبي علي الجبائي" ثم أيقظ الله بصيرته ، وهو منتصف عمره تقريبا وبداية نضجه ، فأعلن رجوعه عن طريقة الإعتزال ، ثم سلك طريقا وسطا بين طريقة الجدل والتأويل ، وطريقة السلف ، ثم محض طريقته وأخلصها لله بالرجوع الكامل إلى طريقة السلف ومن الإنصاف أن لا ينسب إليها الأشعرية ، وإنما ينسبون إليه على اعتبار طوره الثاني إذن فالأشعرية غير الأشعري أنظر في شأن الأشعرية "الملل والنحل" ١/٩٤ وما بعدها .
٥) أنظر الإشارات لابن سينا ٣/١٣١ .

القصد إلى الفعل ، ويقولون بأن كل فاعل بالقصد مستكمل به وله غرض في فعله .

وأما الأشاعرة : فيقولون : بالقصد ولا يقولون بأنه مستلزم للغرض لأنهم يجوزون ترجيح القادر المختار لأحد مقدوريه بدون مرجح أصلا" (١) .

وحجة الفريقين : الفلاسفة والأشاعرة على نفي الغرض في أفعاله - سبحانه وتعالى - بأنه لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصا بدونها مستكملا بها ، فانه إما أن يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة إليه سواء ، أو يكون وجودها أولى به .

فإن كان الأول امتنع أن يفعل لأجلها ، وإن كان الثاني ثبت أن وجودها أولى به فيكون مستكملا بها فيكون قبلها ناقصا" (٢) .

قال ابن سينا" : (٣) .

" تنبيه - إعلم أن الشيء الذي إنما يحسن به أن يكون عنه شيء آخر ، ويكون ذلك أولى به ، وأليق من أن لا يكون فانه إذا لم يكن ما هو أولى وأحسن به مطلقا وأيضا لم يكن ما هو أولى وأحسن به مضافا فهو مسلوب كمال ما يفتقر فيه إلى كسب" اهـ (٤)

وهذه الحجة التي ردها الفلاسفة والأشاعرة قام بتفنيدها شيخ الإسلام ابن تيمية وبين بطلانها ونقضها من وجوه عدة :-

الوجه الأول : أن قولهم لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصا بدونها مستكملا بها منقوض بنفس ما يفعله من المفعولات ، فانه يمكن أن يقال : فيها أيضا إما أن يكون وجودها وعدمه بالنسبة إليه سواء ، أو لا يكون ، فان كان الأول امتنع صدورها عنه ، وإن كان الثاني كان مستكملا بها فما كان جوابا في المفعولات كان جوابا عن هذا ونحن لا نعقل في الشاهد فاعلا إلا مستكملا بفعله .

الوجه الثاني : أن مقتضى الكمال أن يكون - الباري - لا يزال قادرا على الفعل بحكمة

---

١) غاية المرام للآمدي ص ٢٢٤ ، وانظر شرح حديث النزول ص ١٧٤ .
٢) المحصل للرازي ص ١٤٩ ، وانظر " مجموعة الرسائل الكبرى " الرسالة الثامنة الإرادة والأمر" ١/٣٢٧ .
٣) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا" المتوفى في سنة ٤٢٧ هـ .
٤) الإشارات : ٣/١٢٢ .

فلو قدر كونه غير قادر على ذلك لكان ناقصا .

الوجه الثالث: قول القائل إنه مستكمل بغيره باطل فان ذلك إنما حصل بقدرته ومشيئته لا شريك له في ذلك فلم يكن في ذلك محتاجا إلى غيره ، وإذا قيل كمل بفعله الذي لا يحتاج فيه إلى غيره كان كما لو قيل : كمل بذاته ،أو صفاته فهو مثلا إذا فرح بتوبة عبده التائب وأحب من تقرب إليه بالنوافل ورضي عن السابقين الأولين ، ونحو ذلك لم يجز أن يقال : إنه مفتقر في ذلك إلى غيره ،أو مستكمل بسواه ،فإنه هو الذي خلق هؤلاء وهداهم وأقدرهم حتى فعلوا ما يحبه ويرضاه ويفرح به .

الوجه الرابع: قول القائل كان قبل ذلك ناقصا إن أراد به عدم ما تجدد ،فلا نسلم أن عدمه قبل ذلك الوقت تالذي اقتضت الحكمة وجوده فيه ،يكون نقصا ، وإن أراد بكونه ناقصا معنى غير ذلك فهو ممنوع بل يقال عدم الشيء في الوقت الذي لم تقتض الحكمة وجوده فيه كمال أيضا ،فليس عدم كل شيء نقصا ،بل عدم ما لا يصلح وجوده وهو النقص كما أن وجود ما لا يصلح وجوده نقص ،فتبين أن وجود هذه الأمور حين اقتضت الحكمة عدمها هو النقص لان أن عدمها هو النقص" (١) فهذه حجة الفلاسفة والأشعرية قد نقضها شيخ الاسلام ابن تيمية وهي حجة فلسفية بحتة سرعان ما انهارت أمام مناقشتها بما أورد عليها من الوجوه القوية التي تبين أن الله -تعالى- موصوف بالحكمة .

٢) المذهب الثاني : مذهب المعتزلة : وهم يثبتون لله -تعالى- الحكمة في خلقه وفي أمره غير أنهم لا يقولون إنها صفة قائمة بذاته -تعالى- بل يقولون : إنها مخلوقة منفصلة عنه ،فيزعمون مثلا أن الحكمة في وجود الخلق هو الإحسان إليهم والحكمة في تكليفهم هو أنهم يعرضون للثواب ويقولون : إن الإحسان إلى الغير حسن محمود في العقل فخلق الله الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود عليه هو من ذلك مصلحة (٢) وهذا المذهب المعتزلي : بين شيخ الاسلام بأنه متناقض لأن الإحسان إلى الغير إنما كان محمودا لكونه يعود منه إلى فاعله حكم يحمد

---

١) مجموعة الرسائل والمسائل : ٥/١٦٢-١٦٣ .
٢) " " " ٥/٢٩١ ط: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - المحصل للرازي ص ٢٠٥ -٢٠٦ .

لأجله إما لتكميل نفسه بذلك ، وإما لرقة وألم يجده في نفسه يدفع بذلك الإحسان الألم ، وإما لا التذاذه وسروره وفرحه بالإحسان فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذي يحصل منها إلى غيرها ، فالإحسان إلى الغير محمود لكون المحسن يعود إليه من فعله هذه الأمور تحكم بحمد لأجله .

أما إذا قدر أن وجود الاحسان وعدمه بالنسبة إلى الفاعل سواء لم يعلم أن هذا الفعل يحسن منه ، بل مثل هذا يعد عبثا في عقول العقلاء وكل من فعل فعلا ليس لنفسه لذة ولا مصلحة ولا منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة ولا آجلة كان عبثا ، ولم يكن محمودا على هذا ، ولذلك لم يأمر الله - تعالى - ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من العقلاء أحدا بالإحسان إلى غيره ونفعه إلا لما في ذلك من المنفعة والمصلحة وإلا فأمر الفاعل بفعل لا يعود إليه منه لذة ولا سرور ، ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لا في العاجل ولا في الآجل لا يستحسن من الآمر (١) .

٣) المذهب الثالث: مذهب عبد الله بن كلاب (٢) وأتباعه :

فهذا الرجل وأتباعه يثبتون حكمة وغاية قائمة بذاته - تعالى - ولكنهم يقولون : بأنها قديمة غير ملازمة للمفعول ، ويزعمون أن إرادة الله وحبه ورضاه وغضبه وسخطه ورحمته وكرهه وغير ذلك قديم فهو - سبحانه - لم يزل راضيا عمن علم أنه يموت مؤمنا ، ولم يزل ساخطا على من مات كافرا .

وهذا القول باطل : لأن الله - تعالى - إذا كان راضيا في أزله ومحبا وفرحا بما يحدثه قبل أن يحدثه ، فإذا أحدثه هل حصل له بإحداثه حكمة يحبها ويرضاها ويفرح بها ، أو لم يحصل إلا ما كان في الأزل فإن قالوا : إنه لم يحصل إلا ما كان

---

١) مجموعة الرسائل الكبرى " الرسالة الثامنة الإرادة والأمر) ١/٣٣٢ .

٢) هو: عبد الله بن سعيد التميمي البصري رأس الطائفة الكلابية توفي سنة أربعين ومائتين هجرية . انظر ترجمته في " طبقات الشافعية الكبرى " لابن السبكي ٢٩٩/٢

في الأزل ، قبل ذلك كان حاصلا بدون ما أحدثه من المفعولات فامتنع أن تكون المفعولات قد فعلت لكي يحصل ذلك فقولهم : هذا يتضمن أن المفعولات تحدث بلا سبب يحدثه الله، كذلك يتضمن أن الله يفعلها بلا حكمة يحبها ويرضاها" (١) .

فهذه المذاهب الثلاثة كما رأينا ليس عند أصحابها أدلة قوية تثبت أقوالهم في صفة الحكمة ، بل كلها انتحالات فلسفية مبنية على شفا جرف هار كلها انهارت بما أورد عليها من مناقشات صارمة فلم يبق إذن إلا المذهب الحق الصحيح وهو ما عليه أهل السنة الذي شهدت له النصوص الكثيرة من أن لله - تعالى - حكمة تتعلق به يحبها ويرضاها ويفعل لأجلها فهو - سبحانه - وتعالى يفعل ما يفعل لحكمة يعلمها وهو يعلّم العباد أو بعضهم من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك والأمور العامة التي يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة كإرساله محمدا صلى الله عليه وسلم فانه كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (٢) ولو قال إنسان : إن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم تضررت منها طوائف كثيرة من الناس كالذين كذبوه من أهل الكتاب والمشركين فالرد على هذا أنهم انتفعوا بحسب الإمكان حيث أضعف شرهم الذي كانوا يعملونه ولولا الرسالة بإظهار الحجج القاطعة ، والآيات البينة التي زلزلت ما في قلوبهم ، وبالجهاد والجزية صاروا أذلاء صاغرين لكان شرهم أشد وأعظم ، والضرر الذي حصل لهم شيء يسير بجانب ما حصل لهم من النفع الكثير ، ومثل ذلك كنزول المطر الذي يعم نفعه البلاد والعباد ، ويحصل منه خراب بعض البيوت ، أو حبس بعض المسافرين ، والمكتسبين فما كان نفعه ومصلحته عامة كان خيرا مقصودا ورحمة محبوبة ولو تضرر به بعض الناس فكل ما حدث في الوجود من الضرر لا بد أن يكون فيه حكمة كما قال - سبحانه - (صنع الله الذي أتقن كل شيء) (٣) ، وكما قال - سبحانه - (الذي أحسن كل شيء خلقه) (٤) والضرر الذي تحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقا ، وإن كان شرا بالنسبة إلى من تضرر به ، ولهذا لا يأتي في كلام الله وكلام رسوله إضافة الشرة وحده إلى الله وإنما يذكر على أحد وجوه ثلاثة :

---

١) مجموعة الرسائل والمسائل ٥ / ١٦٤ .
٢) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .
٣) سورة النمل آية : ٨٨ .
٤) سورة السجدة آية : ٧ .

الوجه الأول : أن يكون داخلا في عموم المخلوقات فإذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم وذلك مثل قول الله -تعالى- (الله خالق كل شيء) (١) .

الوجه الثاني : أن يكون مضافا إلى السبب كقوله تعالى (من شر ما خلق) (٢) وقوله تعالى : (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) (٣) .

الوجه الثالث: أن يحذف فاعله ومثال ذلك قول الجن (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) (٤) .

ولم ينكر صفة الحكمة بالكلية إلا الجهمية فإنهم أصروا على قولهم بأنه -تعالى- خلق المخلوقات بالأمور لا لعلة ولا لداع ولا لباعث بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الإرادة ، قال العلامة ابن القيم مبينا مذهبهم الفاسد .

وكذلك قالوا ما له من حكمة ** هي غاية للأمر والإتقان

ما ثم غير مشيئة قد رجحت ** مثلا على مثل بلا رجحان (٥)

والنافون للحكمة والتعليل ليس معهم دليل من كتاب أو سنة ، أو إجماع فنفيهم صفة الحكمة مخالف للكتاب والسنة والإجماع والعقل الصحيح والفطرة المستقيمة .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وجمهور الأمة يثبت حكمته -سبحانه- والغايات المحمودة في أفعاله فليس مع النفاة سمع ولا عقل ولا إجماع بل السمع والعقل والإجماع والفطرة تشهد ببطلان قولهم والله الموفق للصواب وجماع ذلك أن كمال الرب -وجلاله وحكمته وعدله ورحمته وقدرته وإحسانه وحمده ومجده وحقائق أسمائه الحسنى تنفي

---

١) سورة الرعد آية : ١٦ .
٢) سورة الفلق آية : ٢
٣) سورة آل عمران آية : ١٦٥ .
٤) مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٣٣٥ - ٣٣٧ والآية رقم (١٠) من سورة الجن .
٥) القصيدة النونية مع شرحها توضيح المقاصد وتصحيح القواعد" ١/ ٦٤-٦٥ .

ذلك وتشهد ببطلانه " (١) .

والذي نخلص إليه مما تقدم أن الله - تعالى - موصوف بالحكمة وأن كل شيء خلقه أو أمر به فيه حكمة عظيمة ، وحتى مما ينزل بالمخلوق من الشر لا يخلو من حكمة الله التي تبهر العقول وتزيد المؤمن إيمانا كما تبين صدق ما أخبر به الله - تعالى - (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) (٢) .

---

١) شفاء العليل ص ٢٠٤ .

٢) سورة فصلت آية : ٥٣ .

(المبحث السادس)

تنزيه الله تعالى من نسبة الولد اليه

إن نسبة الولد إلى الله - تعالى - فرية مكذوبة اشترك في القول بها اليهود والنصارى ومشركوا العرب ، وكذلك قول الفلاسفة الصابئة في العقول العشرة ، والنفوس الفلكية التسعة شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم الذين جعلوا له بنين وبنات بغير علم "(١) فاليهود عليهم لعائن الله : زعموا أن عزيرا ابن الله .

والنصارى الضالون قالوا : المسيح ابن الله .

والجهلة من مشركي العرب قالوا : الملائكة بنات الله تعالى الله عن قول هؤلاء جميعا علوا كبيرا .

ولقد حكى القرآن الكريم زعم اليهود والنصارى ومشركي العرب ورد عليهم ردا مفحما وبين بطلان هذا الزعم حتى أسكتهم ، ولنبتدأ بما ورد في السورة من إبطال تلك الفرية .

قال تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) .

هذه الآية من السورة تبين أنه - سبحانه - لا ولد له كما تفوه بذلك الجهلة من المشركين ونطق بذلك المعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى .

فالله تعالى - نزه نفسه عن أن يكون له ولد لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد . - سبحانه - الغني عن كل ما سواه قهر الأشياء كلها فدانت له وذلت وخضعت - (سبحانه هو الله الواحد القهار) .

وعلى الفرض الجدلي الذي يقبله العقل - الضعيف - أن الرب ×- جل وعلا - لو أراد أن يتخذ ولدا لاصطفاه - سبحانه - من بين خلقه لأن إرادته مطلقة والأمر ليس بحاجة إلى إقرار أو اقتراح من البشر ولكن مشيئته - تعالى - لم تتجه إلى هذا الإصطفاء لأنه

---

١) درء تعارض العقل والنقل ١ / ٣٦ .

الواحد القهار فهو الذي أبدع هذا الكون من العدم فما حاجته الى الولد ؟ والولد انما هو امتداد لمن كتب الله عليه الفناء ، والمحتاج إلى المعين والنصير ، وقد اقتضت حكمة القادر العليم أن التكاثر في النوع الإنساني وغيره من المخلوقات لا بد له من صاحبة من جنسه ، فكيف يكون لله ولد ولم تكن له صاحبة ، فقد تفرد - سبحانه - بالألوهية (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١) .

قال : العلامة ابن جرير رحمه الله - تعالى -:

(لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) يقول تعالى ذكره : لو شاء الله اتخاذ ولد ولا ينبغي له ذلك ، لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، يقول : لاختار من خلقه ما يشاء وقوله (سبحانه هو الله الواحد القهار) يقول : تنزيها لله عن أن يكون له ولد ، وعما أضاف إليه المشركون به من شركهم (هو الله) يقول : هو الذي يعبده كل شيء ولو كان له ولد لم يكن له عبدا يقول : فالأشياء كلها له ملك فأنى يكون له ولد ، وهو الواحد الذي لا شريك له في ملكه - وسلطانه ، والقهار لخلقه بقدرته فكل شيء متذلل ، ومن سطوته خاشع " أ.هـ (٢) .

وقال ابن كثير : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عز وجل (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) (٣) (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) (٤) كل هذا من باب الشرط ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم " أ.هـ (٥) .

وهكذا نرى أن الآية الواردة في السورة تنفي مزاعم القائلين بأن لله ولدا ، ولو أراد

---

١) سورة الشورى آية : ١١ .
٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٣ / ١٩٢ .
٣) سورة الأنبياء آية : ١٧ .
٤) سورة الزخرف آية : ٨١ .
٥) تفسير القرآن العظيم : ٦ / ٧٩ .

ـ سبحانه ـ تسمية أحد من خلقه بذلك ما جعله عز وجل ـ إلى أحد من خلقه ـ تعالى الله ـ عن ذلك علوا كبيرا لأنه صاحب الكمال المطلق المستغني عن الصاحبة والولد ومن هذا شأنه من حقه أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له .

فقد نزه نفسه وبرأها عن قول السفهاء من الخق كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية أثناء حديثه عن تنزيه الله ـ عز وجل ـ عن الشركاء (وكذلك ما استعمله ـ سبحانه ـ في تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة سواء سموها حسية ، أو عقلية كما تزعمه النصارى من تولد الكلمة التي جعلوها جوهرا لابن منه ، وكما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة ، والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها هل هي جواهر أو أعراض ؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة وعلمهم بالنفوس أظهر لوجود الحركة الدورية الدالة على الحركة الإرادية الدالة على النفس المحركة لكن أكثرهم يجعلون النفوس الفلكية عرضا لا جوهرا قائما بنفسه ، وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم الذين جعلوا له بنين وبنات .

قال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يشركون) (١) وكانوا يقولون الملائكة بنات الله كما يزعم هؤلاء أن العقول أو العقول والنفوس هي الملائكة وهي متولدة عن الله قال تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) . أ.هـ. (٢) .

---

١) سورة الأنعام آية : ١٠٠ .

٢) درء تعارض العقل والنقل : ١ / ٣٥-٣٦ .

قول بعض مشركى العرب أن الملائكة بنات الله وابطاله :

مما ينبغى الستنبيه عليه أن القائلين بأن الملائكة بنات الله هم بعض قبائل العرب كجهينة وخزاعة وبنى مليح وبنى سلمة وعبد الدار فقد زعموا أن الملائكة بنات الله كما ذكره القرطبى "(١) .

ونقل الواحدى (٢) عن المفسرين أنهم قالوا : أن قريشا وأجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح قالوا : الملائكة بنات الله" (٣) .

ولقد قال هؤلاء المشركون فى الملائكة الكرام ثلاثة أقوال كل واحد منها أشد كفرا وأعظم كذبا .

أولا بجعلوهم بنات الله فجعلوا الله ولدا - تعالى الله - عن ذلك علوا كبيرا

ثانيا : جعلوهم اناثا فحطوا من مكانة الملائكة ونسبوا لله الولد الناقص ولأنفسهم الولد الأكمل .

ثالثا : أنهم بعد كل هذه الافتراءات السخيفة عبدوا الملائكة من دون الله ولقد دحض القرآن هذه الدعوى الباطلة وبين أنها افتراء وناقشهم مناقشة ضيقت عليهم منافذ الباطل وحاجهم حتى عجزوا عن الدفاع عما قالوه من الباطل وحاجهم القرآن محاجة تبين معها كذبهم حيث صور دعواهم أن الملائكة بنات الله ، واستجوبهم فى ذلك على هذا النحو التالى :

أيكون لله البنات ولكم البنون ؟ .

هل يتفق قولكم هذا مع منطق العقل والعدل والحق ؟ .

أن هذا القول باطل لأنكم معشر العرب تستنكفون من البنت والشىء الذى تستنكفون منه كيف تثبتونه للخالق وهذا ما عناه الله - تعالى - بقوله (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) (٤) .

---

١) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ١٣٣ .

٢) هو على بن أحمد بن محمد بن على بن متويه ، أبو الحسن الواحدى مفسر عالم بالأدب توفى سنة ثمان وستين وأربعمائة هجرية . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ / ٣٣٣ ، الأعلام ٥ / ٥٩ .

٣) ذكره عنه الرازى فى التفسير الكبير ٢٦ / ١٦٧ .

٤) سورة النحل آية : ٥٧-٥٩ .

ثم إن القرآن لم يكتف بمجادلة المشركين في موضع واحد منه بل حاجهم في مواضع عدة وألزمهم بالحجة وبين بطلان سخافاتهم الوثنية كقوله تعالى : (وجعلوا من عبادة جزءًا إن الانسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين . وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون) (١) .

إن الناظر في هذه الآيات يلمس الوحدة الموضوعية بينها وبين الآيات السابقة قبلها إذ كل آية منها عالجت مفتريات المشركين في ملائكة الرحمن بالأدلة العقلية وناقشت أولئك المشركين بمنطق الحجة والبيان ، فلم يستطيعوا المعارضة ، وهم أرباب الفصاحة وقادة البلاغة والبيان ، ثم إن الآيات تحمل في طياتها الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لأولئك المشركين لسناعة قولهم ، ومخالفته للحس والعقل والفطرة وهذه الآيات ناقشت المشركين في عدة نقاط هي :-

١) جعلهم لله من عباده جزءا ، أي : عدلا ، أو بعضا لأن الولد بضعة من والده وجزؤه ، فإذا كانوا جميعا عبيد الله فهل يصح أن يكون أحد منهم شريكا لله أو بعضا منه .

٢) ناقشتهم عن السر في اختيارهم البنين لأنفسهم ، وجعلهم البنات لله - تعالى - علما بأنه قد تقرر لدى هؤلاء المشركين تفضيلهم البنين على البنات ، فلو كان مرجع القسمة إلى العقل لكان الله أولى بالبنين من البنات ، ولو كان مرجع ذلك إلى العدل بصرف النظر عن استحالة ذلك ، أو إمكانه لكان العدل يقتضي على أسوء تقدير التسوية في القسمة ، ولكنهم تجاوزوا في الطغيان ، والبلادة حدود ما يألفه الذوق والفطرة الإنسانية .

---

١) سورة الزخرف آية : ١٥-١٩ .

قال تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى (١) .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية" أي : جائزة . . . . . فبين - سبحانه - أن الرب الخالق أولى بأن ينزه عن الأمور الناقصة منكم فكيف تجعلون له ما تكرهون أن يكون لكم ، وتستحيون من إضافته اليكم مع أن ذلك واقع لا محالة ، ولا تنزهونه عن ذلك وتنفونه عنه ، وهو أحق بنفي المكروهات المنقصات منكم " . أ . هـ (٢) .

٣) بينت الآية الرابعة من الآيات السابقة وهي قوله (أومن ينشؤ في الحليه وهو في الخصام غير مبين) (٣) أن الأنثى محل نقص في الظاهر والباطن في الصورة والمعنى فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص فإذا كانت الأنثى محل نقص فما وجه نسبتها إلى الله ؟ ولقد بين القرآن الكريم أنهم ليس لهم دليل على صحة دعواهم حيث أنه نفى عنهم طرق العلم الثلاث التي هي : الحس ، أو الخبر ، أو النظر أما طريق الحس : فهي المراد من قوله تعالى (أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون) (٤) .

الواقع يقرر أنهم لم يشهدوا كيفية خلق الله لملائكته بل المشركون أنفسهم لم يدعوا ذلك فبطلت معرفتهم عن طريق الحس .

وأما طريق الخبر : فان الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقا وقطعا كصدوره عن المعصوم الذي قام الدليل على صدقه ، فأما الذين يخبرون بأن الملائكة بنات الله إنما هم أفاكون كذابون ، ولم يدل على صدقهم دليل ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله : (ألا انهم من إفكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون) (٥)

وأما طريق النظر : فقد بين بطلان قولهم من وجهين :

الوجه الأول : أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب لأن الله - تعالى - له الكمال المطلق لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد من قوله تعالى : (أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون) (٦) ومعنى ذلك أن إسناد الأفضل الى الأفضل أقرب

١) سورة النجم آية : ٢١ - ٢٢ .
٢) درء تعارض العقل والنقل ٧/٣٦ - ٣٧ . (٣) سورة الزخرف آية : ١٧ .
٤) سورة الصافات آية : ١٥٠ . (٥) سورة الصافات آية : ١٥١ - ١٥٢ .
٦) سورة الصافات آية : ١٥٣ - ١٥٤ .

عند العقل من إسناد المفضول إلى الأفضل ، فإن كان حكم العقل معتبرا في هذا الباب كان قولكم باطلا .

الوجه الثاني : يترك الإستدلال على فساد مذهبهم ويطالبون هم باثبات الدليل على صحة مذهبهم ، فاذا لم يجدوا ذلك الدليل ظهر ضده وهو خلو الدعوى من أي دليل يدل على صحة مذهبهم وهذا هو المقصود من قوله تعالى : (أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) (١) فثبت بما ذكرنا من الآيات القرآنية إبطال قول المشركين في دعواهم أن الملائكة بنات الله لأنه لا يوجد لديهم دليل يؤيد قولهم لا من طريق الحس ، ولا الخبر ، ولا العقل فكان المصير إليه باطلا قطعا" (٢) فبطل قول المشركين وسقطه شبهتهم وظهر أمر الله ممثلا في عقيدة التوحيد النقية من أدران الشرك وأوحال الوثنية .

رد دعوى اليهود في أن عزيرا ابن الله :

قلنا : فيما تقدم أن الفرق التي نسبت إلى الله الولد ثلاث فرق هم بعض مشركي العرب ، واليهود ، والنصارى وقد تقدم الرد على دعوى مشركي العرب بأن الملائكة بنات الله بقي أن نعرض لإبطال دعوى اليهود في أن عزيرا ابن الله ، وابطال قول النصارى في زعمهم أن المسيح ابن الله .

ولقد ذكر القرآن الكريم دعوى اليهود ، ورد عليها وبين فسادها وبطلانها قال تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله) (٣) هذه الآية بينت دعوى اليهود الباطلة في " العزير" ويا ترى هل اليهود جميعهم يقولون هذه المقالة أم بعضهم؟

اختلفت الرواية عن أهل العلم في أصحاب هذه المقالة من اليهود فقيل : هو رجل من اليهود اسمه " فنحاص بن عازوراء" وهو على ما جاء في بعض الروايات القائل (إن الله فقير ونحن أغنياء) (٤)

---

١) سورة الصافات آية : ١٥٦ - ١٥٧ .

٢) أنظر تفسير الفخر الرازي : ٢٦/١٦٧ - ١٦٩ بتصرف .

٣) سورة التوبة آية : ٣٠ . (٤) سورة آل عمران آية : ١٨١

كما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج " (١) وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أتى جماعة من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهم سلام بن مشكم ، ونعمان بن أبى أوفى ، وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك يا محمد وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله فأنزل الله في ذلك (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) (٢) .

قال الرازى :" وعلى هذين القولين فالقائلون بهذا المذهب بعض اليهود إلا أن الله نسب ذلك القول إلى اليهود بناءا على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد يقال : فلان يركب الخيول ولعله لم يركب الا واحدا منها ، وفلان يجالس السلاطين ولعله لا يجالس إلا واحدا . . . . ثم قال :" والقول الثالث : لعل هذا المذهب كان فاشيا فيهم ثم انقطع فحكى الله ذلك عنهم ، ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك فان حكاية الله عنهم أصدق " .أ.هـ (٣) .

وهناك آثار كثيرة وردت في صدور هذه المقالة عن اليهود ومنها الآتى :-

قال الإمام الكلبى (٤) لما قتل بختنصر علماء اليهود جميعا وكان عزير إذ ذاك صغيرا فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله -تعالى- عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون آية بعد ما أماته الله مائة عام يقال : إنه أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت في صدره فلما أتاهم فقال لهم : إنى عزير كذبوه وقالوا : إن كنت كما تزعم فأملل علينا التوراة ففعل فقالوا : ان الله -تعالى- لم يقذف التوراة فى قلب رجل إلا لأنه ابنه -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا" (٥) .

---

١) أنظر روح المعانى للألوسى : ١٠ / ٨١ .

٢) جامع البيان : ١٠ / ١١٠-١١١ ، وانظر التفسير الكبير للرازى ١٦ / ٣٣ ، وانظر تفسير روح المعانى للألوسى ١٠ / ٨١ .

٣) التفسير الكبير ١٦ / ٣٣ .

٤) هو: محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبى أبو النضر: نسابة ، راوية ، عالم بالتفسير والاخبار وأيام العرب قال النسائي : حدث عنه ثقات من الناس ، ورضوه في التفسير وأما فى الحديث ففيه مناكير الميزان ٣ / ٦٨ ، التهذيب ٩ / ١٧٨ ، الاعلام ٧ / ٣ .

٥) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ٢ / ٦٤ ، تفسير أبى السعود ٤ / ٥٩ ، تفسير الرازى ١٦ / ٣٤ .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : "أن اليهود أضاعوا التوراة ، وعملوا بغير الحق فأنساهم الله - تعالى - التوراة ، ونسخها من صدورهم فتضرع عزير إلى الله وابتهل فعاد حفظ التوراة إلى قلبه ، فأنذر قومه به فلما جربوه وجدوه صادقا فيه فقالوا : ما تيسر هذا لعزير إلا أنه ابن الله " (١) .

وقال السدى : المطلقة قتلوهم فلم يبق منهم أحد يعرف التوراة " (٢)

وقال الإمام البيضاوى (٣) وإنما قالوا (عزير ابن الله) لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة " بختنصر" من يحفظ التوراة وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظا فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله " (٤) .

والذين يتبين من الآثار المتقدمة ، وما جاء في معناها يوضح لنا أن منشأ الشبهة عند اليهود في " عزير" هو أنه اختص بحفظ التوراة في زمن الأزمنة دون سائر اليهود بغض النظر عن صحة تفاصيل تلك الآثار التي أسلفناها نقلا عن بعض المفسرين ، ولذلك زعموا أنها ما حصلت له هذه الكرامة إلا لأنه ابن الله - تعالى الله - عن ذلك علوا كبيرا .

وهنا سؤال لا بد منه أمام مزاعم اليهود الباطلة هو: هل يلزم في كل إنسان خصه الله - تعالى - بنعمة من اصطفاء بالنبوة والرسالة أو استجابة للدعوة ، أو ظهور كرامة من كرامات الأولياء على يديه هل يلزم من هذا أن يكون ذلك الإنسان ابنا لله ؟ .

---

١) جامع البيان ١/ ١١١ ، وتفسير الرازى ١٦ / ٣٣ .

٢) تفسير الرازى ١٦ / ٣٤ .

٣) هو: عبد الله بن عمر بن محمد بن على الشيرازى أبو سعيد ناصر الدين البيضاوى مفسر ، علامة ، ولد سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وتوفى سنة خمس وثمانين وستمائة هجرية . أنظر البداية والنهاية ١٣ / ٣٠٩ ، بغية الوعاة ٢ / ٥٠ ، الأعلام ٤ / ٢٤٨ .

٤) تفسير البيضاوى ١ / ٤١٢ .

ولو كان الأمر كذلك فهذا موسى ابن عمران وأخوه هارون بن عمران عليهما السلام قد جاءا بالتوراة من عند الله ولهط من الفضل والكرامة ما ليس لعزير فلماذا لم يدعيا أنهما ابنان لله ؟ .

ولكن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن اليهود أضاعوا التوراة وتركوا العمل بها فضلوا عن سبيل الله القويم وصراطه المستقيم ، وذهبوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، وأصدق دليل على ذلك ما حكاه الله - تعالى - عنهم في كتابه قال تعالى : (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) (٢) ، وقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ...) (٢) وقال تعالى : (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) (٣) فإذا كان اليهود لا يعتبرون مصدر ثقة فيما استحفظوا عليه من كتاب الله فمن المسلم به أنه لا يوثق بأقوالهم التي تخالف العقل والنقل وتخالف الفطر المستقيمة ، وقد حكى الله عنهم كثيرا من مخازيهم كقوله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة) فرد الله عليهم بقوله (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) (٤) .

إذا فبعد ذلك لا يستبعد أن يفتروا على الله كذبا فينسبون له الأبناء . بل قد ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه كما قال تعالى : (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناؤ الله وأحباؤه) .(٥)

ولقد نقض القرآن هذا الزعم بقوله (فلم يعذبكم بذنوبكم) ومعنى هذا أن الحبيب لا يهين كرامة حبيبه بالتعذيب فلأي شيء يعذبكم في الدنيا بالأسر والقتل والمسخ وقد اعترفتم بأن سيعذبكم في الآخرة أياماً بعدد أيام عبادتكم العجل ، ولو كان الأمر

---

١) سورة النساء آية : ٤٢ .
٢) سورة المائدة آية : ١٣ .
٣) سورة البقرة آية : ٧٥ .
٤) سورة المائدة آية : ٦٤ .
٥) سورة المائدة آية : ١٨ .

كما زعمتهم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع ، ثم بين القرآن أنهم كسائر البشر وأنهم محاسبون ومجزيون بالإحسان إحسانا ، والاساءة عقابا ، وأنهم خاضعون لمشيئة الله النافذة (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير) (١) .

وحسبنا أن اليهود عرفوا بنقض العهود والمواثيق وقتل الأنبياء بغير حق ولسنا بصدد تعداد مساوئهم فهي كثيرة ولكن الذى نقوله أنه ليس من المستغرب أن تصدر عنهم تلك الفرية الكبيرة وهى قولهم (عزير ابن الله) (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا) (٢) .

إبطال دعوى النصارى فى أن الـعيسى ابن الله :-

ما ينبغى أن يعلم أن قول النصارى (المسيح ابن الله) يرجع إلى شبهة عرضت لهم فيه وهى خلقه - تعالى - إياه من أم دون أب وهو خلاف ما جرت عليه سنة الله - تعالى - في التوالد والتناسل فقالوا عنه ابن الله كما حكى الله ذلك عنهم بقوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله) (٣) ولهم شبهة أخرى في قوله (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) (٤) . فادعى بعض النصارى أن " من" للتبعيض فيكون عيسى بعضا من الله تعالى وقد نقل عن محمد بن اسحاق قوله عن النصارى (إنهم يحتجون في قولهم أنه ولد الله بأنهم يقولون : لم يكن لأب يعلم في المهد وهو شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله) (٥) .

وأصحاب هذا القول هم النسطورية ينسبون الى نسطور، وكان " بطريركا" بالقسطنطينية (٦) فقول النصارى في المسيح أنه ابن الله بهذا الإدعاء الشنيع ينسبون إلى الله الولد والتولد .

---

١) سورة المائدة آية : ١٨ .
٢) سورة الكهف آية : ٥ .
٣) سورة التوبة آية : ٣٠ .
٤) سورة النساء آية : ١٧١ .
٥) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٣٦٩ .
٦) أنظر الفصل لابن حزم ١ / ٤٩ ، الملل والنحل للشهرستانى ١ / ٢٢٤ .

وهذا الزعم الباطل نتيجة الشبهة التي عرضت لهم وهو أن الله خلقه من أم بلا أب من البشر ، فلا بد أن يكون ولدا لله ، وهذه الشبهة قامت الأدلة النقلية والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد ، أو صاحبة أو والد أو شريك ، والله - تعالى - عظم أمر هذه المقالة الشنيعة قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض الا آتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا) (١) .

وقد أنذر الله - تعالى - جميع الطوائف التي تنسب إليه الولد بالوعيد الشديد والتهديد الأكيد قال تعالى : (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا) (٢) وقد أبطل الله - عز وجل - مزاعم اليهود والنصارى ومشركي العرب نسبة الولد إليه بقوله تعالى (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) (٣) فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد ، وأن التولد إنما يكون بين اثنين وهو - جل وعلا - لا صاحبة له ، وأيضا : فانه خلق كل شيء ، وخلقه لكل شيء ينافض أن يتولد عنه شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلا بإرادته ، فان الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالما أن يكون كالأمور الطبيعية التي تتولد عنها الأشياء بلا شعور كالحار والبارد فلا يجوز إضافة الولد اليه" (٤) .

وفي قوله تعالى (بديع السموات والأرض) استدلال بخلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال سابق وكل الطوائف التي نسبت الولد إلى الله - تعالى - مقرة بأن الله هو

---

١) سورة مريم آية : ٨٨-٩٥ .
٢) سورة الكهف آية : ٥-٦ .
٣) سورة الأنعام آية : ١٠١ .
٤) الرد على المنطقيين لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٢١٩ .

الذي خلق السموات والأرض ابتداءا ، ولكن الإستدلال بقوله تعالى (بديع السموات والأرض) على النصارى ألبق من غيرهم لأنهم استغربوا وجود عيسى عليه السلام من غير أب على غير مثال سابق ولهذا قالوا إنه ابن الله ولكن الغرابة تزول اذا عرفوا خلق آدم عليه السلام من غير مثال سابق ، كما سنذكر ذلك قريبا وإذا عرفوا خلق السموات والأرض ابتداءا من غير مادة ، فالإبداع عبارة عن تكوين الشيء من غير سبق مثال ، فكأن الآية تقول للنصارى : سلمنا لكم أن عيسى حدث من غير أب ، ولا نطفة ، بل إنما حدث ودخل في الوجود لأن الله ـ تعالى ـ أخرجه الى الوجود من غير سبق الأب ولكنكم تقولون إنه ابن الله ، وعلى هذه فلا يخلو الأمر إما أن تريدوا بكونه ولدا لله ـ تعالى ـ أنه أحدثه على سبيل الإبداع من غير تقدم نطفة ووالد ، وإما أن تريدوا بكونه ولدا لله ـ تعالى ـ كما هو المألوف المعهود من كون الإنسان ولدا لأبيه أما الاحتمال الأول : فان النصارى والمشركين يسلمون بأن الله ـ تعالى ـ خلق السموات والأرض ابتداءا ، ويلزم على تسليمهم ذلك أن يكون خلقه للسموات والأرض إبداعا ، فلو لزم من مجرد كونه مبدعا لإحداث عيسى عليه السلام كونه والدا له للزم من كونه مبدعا للسموات والأرض كونه والدا لهما ، ولما فيهما من المخلوقات ، ومعلوم أن ذلك باطل بالإتفاق فثبت أن مجرد كونه مبدعا لعيسى عليه السلام لا يقتضي كونه والدا له فبطل بهذا الإحتمال الأول .

وأما الاحتمال الثاني : وهو أن يكون مراد القوم من الولادة هو الامر المعتاد المعروف من الولادة في الحيوانات فهذا أيضا باطل ، يدل على بطلانه الوجوه التالية :

الوجه الأول : أن تلك الولادة لا تصح إلا ممن كانت له صاحبة وينفصل عنه جزء ويحتبس ذلك الجزء في باطن تلك الصاحبة وهذه الأحوال إنما تثبت في حق من يجوز عليه الأعراض المعروفة في التوالد والتناسل ، وكل ذلك على خالق العالم محال ، وهذا المراد من قوله تعالى : (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) .

الوجه الثاني : أن تحصيل الولد بهذا الطريق إنما يصح في حق من لا يكون قادرا على الخلق والإيجاد والتكوين دفعة واحدة ، فلما أراد الولد وعجز عن تكوينه دفعة

واحدة عمد إلى تحصيلة بالطريق المعتاد أما من كان خالقا لكل الممكنات قادرا على كل المحدثات ،فإذا أراد إحداث شيء قال له (كن فيكون ومن كان هذا الذي ذكرنا صفته ونعته امتنع منه إحداث شخص بطريق الولادة وهذا هو المراد من قوله تعالى (وخلق كل شيء) ٠+

الوجه الثالث: وهو أن هذا الولد اما أن يكون قديما أو محدثا ، وليس من الجائز أن يكون قديما لأن القديم يجب كونه واجب الوجود لذاته ، وما كان واجب الوجود لذاته كان غنيا عن غيره ،فامتنع كونه ولدا لغيره ، فبقي أنه لو كان ولدا لوجب كونه حادثا فنقول : إنه -تعالى -عالم بجميع المعلومات فإما أن يعلم أن له في تحصيل الولد كمالا ، ونفعا ،أو يعلم أنه ليس الأمر كذلك ،فإن كان الأول فلا وقت يفرض أن الله تعالى-خلق هذا الولد فيه إلا والداعي إلى إيجاد هذا الولد كان حاصلا قبل ذلك ومتى كان الداعي إلى إيجاده حاصلا قبله ،وجب حصول المولد قبل ذلك وهذا يوجب كون ذلك الولد أزليا وهو محال ،وإن كان الثاني فقد ثبت أنه -تعالى -عالم بأنه ليس له في تحصيل الولد كمال حال ولا ازدياد مرتبة في الألوهية وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يحدث البتة في وقت من الأوقات وهذا هو المراد من قوله تعالى :

(وهو بكل شيء عليم) (١) ٠

ولا يفوتنا أن نقول:،أنه ليس أعظم جرما وأقبح إثما ممن زعم أن الله متصف بصفات المحدثين من الجهلة المشركين ، واليهود المعاندين والنصارى الضالين ، وأن مؤمني الجن لأحسن حالا منهم وأكمل إيمانا إذ أنهم نفوا عن الله الصاحبة والولد كما قال تعالى حكاية عنهم (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) (٢) ٠

ومن الآيات التي ترد على شبهة النصارى أن عيسى وجد من أم بلا أب يقتضي أن يكون ابنا لله قوله تعالى : (إن عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (٣) ، وهذه الآية نزلت عند حضور وفد نصارى نجران على الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكر هذا ابن جرير (٤) وادعى الفخر الرازي الإجماع على

---

١) تفسير الرازي ١٣/١١٨-١١٩ والآية رقم (١٠١) من سورة الأنعام.
٢) سورة الجن آية : ٣٠ (٣) سورة آل عمران آية : ٥٩٠
٤) جامع البيان ٣/٢٩٥٠

ذلك (١) ولقد أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الوفد بنقض شبهتهم بأنه لو لزم من وجود عيسى من أم بلا أب كونه ابنا لله للزم أن يكون آدم ابنا لله -تعالى- بطريق الأولى ، فإنه وجد من غير أم ولا أب ، وأنتم تعترفون بذلك ، ثم إنه إذا جاز أن يخلق الله -تعالى- آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم ؟ بل هذا أقرب إلى العقل فان تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس ، وهذا دليل ملزم لهم لأنهم لم يقولوا بأن آدم اله كما زعموا ذلك في عيس عليه السلام ، وفي قوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) .

قال الزمخشري : هو مثيله في أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبيه به في أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه " أ.هـ (٢) .

وقوله تعالى (خلقه من تراب) ليس صفة لآدم ولا صلة له ، وإنما هو خبر مستأنف على جهة التفسير لحال آدم كما ذكر ذلك الرازي ونقل عن الزجاج قوله : " هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور ثم تخبر بقصة زيد فتقول : فعل كذا وكذا " (٣) .

وأما شبهتهم في قوله (وروح منه (٤) حيث قالوا إن هذا الجزء من الآية دليل على أن عيسى جزء من الله ويقولون : " من " في قوله " منه " تبعيضية فيكون عيسى جزءا من الله -تعالى الله- عن ذلك علوا كبيرا ، فالروح هنا ، قيل : النفخة فيكون معنى قوله (وروح منه) أي : نفخة منه لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم بأمر الله إياه بذلك فنسب إلى أنه " روح من الله " لأنه بأمره كان ، وإنما

---

(١) التفسير الكبير : ٨/٧٤ .
(٢) الكشاف : ١/٤٣٣ .
(٣) التفسير الكبير : ٨/٧٤ .
(٤) جزء من الآية رقم (١٧١) من سورة النساء .

سمي النفخ " روحا" لأنها ريح تخرج من الروح واستشهدوا على ذلك بقول ذي الرمة :

وقلت له ارفعها اليك وأحيها بروحك واقتته لها قيتة قـــــــدرا (١)

يعني بقوله : " أحيها بروحك " أي أحيها بنفخك .

وقيل معناها : " الرحمة" فيكون قوله " روح منه " أي رحمة منه كما قال تعالى : (وأيدهم بروح منه) (٢) فجعل الله عيسى عليه السلام رحمة منه على من آمن به وصدقه واتبعه من بني إسرائيل لأنه هداهم الى سبيل الرشاد كما ذكره ابن جرير الطبري ، وقد أورد أقوالاً أخرى ثم قال : تعقيبا عليها :" ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيد من الصواب" (٣) .

والأظهر في ذلك ما روى عن أبي بن كعب أنه قال : عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله -عز وجل- واستنطقها بقوله : (ألست بربكم قالوا بلى) (٤) بعثها الله إلى مريم فدخل فيها" (٦) .

وقال أبو روق : (وروح منه) أي : نفخة منه اذ هي من جبرائيل بأمره ، وسمي روحا لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام (٧) .

قال ابن كثير : (وكلمته ألقاها الى مريم) أي : خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل -عليه السلام- الى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه -عز وجل- فكان عيسى بإذنه -عز وجل- وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها ، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم والجميع مخلوق لله -عز وجل- ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه ، لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وإنما هو ناشيء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان ، والروح التي أرسل بها جبريل ..... (وروح منه) كقوله (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه (٨) أي : من خلقه ومن عنده

---

١) ديوان ذي الرمة ص ٢٤ ط: كيمبردج سنة ١٩١٩م.
٢) جزء من الآية رقم (٢٢) من سورة المجادلة .
٣) جامع البيان ٦/٣٦ .
٤) سورة الأعراف آية : ١٧٢ .
٥) جامع البيان ٣٧٦ وانظر تيسير العزيز الحميد ٦٣ .
٦) تيسير للعزيز الحميد ص ٦٣ . (٧) سورة الجاثية : آية ١٣ .

وليست من للتبعيض كما تقوله النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى ، وقد قال مجاهد في قوله (وروح منه) أي : رسول منه ، وقال غيره : ومحبة منه ، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة ، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله (هذه ناقة الله)(١) وفي قوله (وطهر بيتي للطائفين) (٢) أضافها اليه اضافة تشريف ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد" .أ.هـ (٣) .

وقد ذكر الألوسي في تفسيره : (روح المعاني) قصة مضمونها أن طبيبا نصرانيا حاذقا للرشيد ناظر علي بن الحسين الواقدي المرزوي ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه الصلاة والسلام جزء منه - تعالى - وتلى هذه الآية فقرأ الواقدي قوله تعالى : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه) فقال : اذن يلزم أن يكون جميع الأشياء جزءا منه سبحانه وتعالى - عن ذلك علوا كبيرا(٤) فانقطع النصراني ، فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ، ووصل الواقدي بصلة فاخرة

وجاء في قرة عيون الموحدين : قوله (وروح منه) أي : من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم عليه السلام ، وأخذ عليها العهد على أنه - تعالى - ربهم وإلههم . . . ، وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله تعالى . . . . فجبريل نفخ والله خلق بقول" كن" فكان " كما قال تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) (٥) فسبحان من لا يخلق غيره ولا يعبد سواه" . أ.هـ (٦)

ومن هذا نفهم أن النفخ سبب ظاهر لإيجاد الروح في كل مولود وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق :"إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة

---

١) سورة الأعراف آية : ٧٣ . (٢) سورة الحج آية : ٢٦ .
٣) تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٤٥٩ - ٤٦٠ .
٤) تفسير الألوسي : ٦ / ٢٥ . (٥) سورة (ص) آية : ٧٢ .
٦) قرة عيون الموحدين ص ١٨ ، وانظر تيسير العزيز الحميد ص ٦٣ ، فتح المجيد ص ٤٧ - ٤٨ .

ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ..... (١) الحديث .

فالنفخ يحصل من الملك بعد أمر الله - تعالى - له .

ولقد نزه نفسه - سبحانه - من المقالة السيئة التي نسبها إليه اليهود والنصارى ومشركوا العرب وغيرهم فقال تعالى (وقالوا اتخذ الله سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون) (٢) .

قال الحافظ رحمه الله تعالى : " واتفقوا على أن الآية نزلت فيمن زعم أن لله ولدا من يهود خيبر ، ونصارى نجران ، ومن قال من مشركي العرب الملائكة بنات الله فرد الله تعالى عليهم (٣) " وجاء في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ، ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كانت ، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد - فسبحاني - أن أتخذ صاحبة أو ولدا"

قال الحافظ عقب هذا الحديث : "إنما سماه شتما لما فيه من التنقيص لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ، ثم تضعه ، ويستلزم ذلك سبق النكاح ، والناكح يستدعي باعثا له على ذلك والله - سبحانه - منزه عن جميع ذلك " .أ.هـ (٤) ومما تقدم نعلم أن الله - تعالى - أبطل مزاعم اليهود والنصارى ومشركي العرب في نسبتهم الولد إلى الله - تعالى - فقد نفى عن نفسه الولادة ونفى اتخاذ الولد جميعا قال تعالى : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل) (٥) .

وقال تعالى : (الذي له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك) (٦) ومما ينبغي أن يعلم أن كل النحل التي نسبت الولد إلى الله تعالى

---

١) ٢/٢١١ .
٢) سورة البقرة آية : ١١٦ .
٣) الفتح : ٨/١٦٨ .
٤) المصدر السابق .
٥) سورة الاسراء آية : ١١١ .
٦) سورة الفرقان آية : ٢ .

لم يرد العقلاء منهم أنها ولادة حسية من جنس ولادة الحيوان بانفصال جزء من ذكره في أنثاه يكون منه الولد وإنما يريدون الولادة العقلية الروحانية مثل قول النصارى إن الجوهر الذي هو الله من وجه ، وهو الكلمة من وجه تدرعت بإنسان مخلوق من مريم فيقولون تدرع اللاهوت بالناسوت - فظاهره - وهو الدرع والقميص بشر وباطنه - وهو المتدرع - لاهوت هو الإبن الذي هو الكلمة لتولد هذا من الأب الذي هو جوهر الوجود ومن هذا نعلم أن البنوة المزعومة مركبة من أصلين :

أحدهما : أن الجوهر هو الكلمة تولد من الجوهر الذي هو الأب كتولد العلم والقول من العالم والقائل .

الثاني : أن هذا الجوهر اتحد بالمسيح وتدرع به ، وذلك الجوهر هو الأب من وجه وهو الإبن من وجه فلهذا حكى الله عنهم ، تارة أنهم يقولون : المسيح ابن الله ، وتارة أنهم يقولون : إن الله هو المسيح ابن مريم "(١) .

ولم يكتف القرآن بالرد على من زعم أن لله ولدا بالنفي فحسب بل كفر من جعل له ولدا ، أو والدا ، أو شريكا فقال تعالى في السورة التي تعدل ثلث القرآن كما جاء بذلك الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري أن رجلا يقرأ : (قل هو الله أحد " يرددها فلما أصبح جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انها لتعدل ثلث القرآن " (٢) (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " . قال شيخ الاسلام : فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء وهي جماع ما ينسب إليه من المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة ، والجن ، بل والنبات ونحو ذلك فإنه ما من شيء من المخلوقات إلا ولا بد أن يكون له شيء يناسبه إما أصل ، وإما فرع ، وإما نظير ، أو اثنان من ذلك ، أو ثلاثة وهذا في الآدميين

---

١) مجموع الفتاوى : ٢/٤٤٣-٤٤٥ .

٢) سنن أبي داود : ١/٣٣٧ ، وابن ماجة : ١/١٢٤ ، والنسائي : ٢/١٧١

والجن والبهائم ظاهر.

وأما الملائكة فإنهم وإن لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الأمثال والأشباه ولهذا قال- سبحانه - (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) (١) قال بعض السلف: لعلكم تتذكرون فتعلمون أن خالق الأزواج واحد" . أ.هـ (٢) .

وبعد أن سقنا الأدلة النقلية على إبطال فرية المشركين واليهود والنصارى في نسبة الولد إلى الله تعالى ، هناك دليل عقلي يدل على بطلان ذلك الإفتراء الباطل نذكره قبل أن نختم الكلام في هذا الموضوع وذلك الدليل هو:-

١) أن يقال : يجب أن يكون الإله واجب الوجود لذاته ، فولده إما أن يكون واجب الوجود لذاته ، أولا يكون ، فإن كان واجب الوجود لذاته كان مستقلا بنفسه قائما بذاته لا تعلق له في وجوده بالآخر ، ومن كان كذلك لم يكن له والد البتة ، لأن الولد مشعر بالفرعية والحاجة إلى أصله .

وإما أن يكون ذلك الولد ممكن الوجود لذاته فحينئذ يكون وجوده بإيجاد واجب الوجود لذاته ، ومن كان كذلك فيكون عبدا لا ولدا له ومن عرف هذه الحقيقة لم يتردد في نفي الولد عن الله - تعالى .

٢) إن الولد مشعر بكونه متولدا عن جزء من أجزاء الوالد وذلك إنما يعقل فيمن يمكن انفصال بعض أجزائه عن بعض وهو محال في حق الواجب لذاته " (٣) .

وقد خص النبي صلى الله عليه وسلم عيسى عليه السلام بمزيد من التنبيه لأن عقائد أهل الكتاب كانت فيه بين الإفراط والتفريط فبين العقيدة الصحيحة التي يجب أن يلتزمها الناس فيه بصفة عامة ، وأهل الكتاب جميعا بصفة خاصة فقد ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق

---

١) سورة الذاريات آية : ٤٩ .
٢) مجموع الفتاوى : ٢/٤٣٨-٤٣٩ .
٣) انظر التفسير الكبير للرازي : ١٣/١١٦-١١٧ .

أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " (١) .

فالقارئ لهذا الحديث يرى أن وجه تخصيص عيسى بالذكر مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم دون سائر أولى العزم من الرسل إنما كان لتوضيح الحق فيه ، وأنه عبد الله ورسوله .

وجاء في تفسير العزيز الحميد " قوله : وأن عيسى عبد الله ورسوله " وفي رواية " وابن أمته " أي : خلافا لما يعتقده النصارى أنه الله أو ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ..... إلى أن قال : " فيشهد بأنه عبد الله أي : عابد مملوك لله ، لا مالك ، فليس له من الربوبية ، ولا من الإلهية شيء ، ورسول صادق خلافا لقول اليهود إنه ولد بغي ، بل يقال فيه ما قال عن نفسه كما قال تعالى (قال أني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) (٢) ..... قوله (وكلمته) إنما سمي كلمة الله ، لصدوره بكلمة " كن " بلا أب قاله قتادة وغيره من السلف (٣) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله - تعالى - : " الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له : " كن " فكان عيسى بكن وليس عيسى هو " كن " ولكن ب : كن كان ، ف : كن " من الله قول ، وليس : كن مخلوقا ، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالت : عيسى روح الله وكلمته إلا أن الكلمة مخلوقة .

وقالت النصارى عيسى روح الله من ذات الله ، وكلمته من ذات الله ، كما يقال : إن هذه الخرقة من هذا الثوب ، وقلنا : نحن إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة . أ . هـ (٤) . وختاما لهذا نقول : إن الله قد رفع من شأن عيسى ، وجعله من أولى العزم من الرسل المذكورين في قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) .

---

١) صحيح البخاري ٢ / ٢٥٤ ، صحيح مسلم ١ / ٥٧ . واللفظ للبخاري .
٢) سورة مريم آية : ٣٠ .
٣) تيسير العزيز الحميد ص ٦٢ .
٤) الرد على الجهمية والزنادقة ص ١٢٤ - ١٢٥ .
٥) سورة الأحزاب آية : ٧ .

المبحث السابع

اثبات صفتي الوحدانية والقهـــــــر

لقد دلت السورة على اثبات صفتي الوحدانية "" والقهر" ـ للبارى سبحانه وتعالـى ـ في آية واحدة منها .

قال تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانـــه هو الله الواحد القهار) .

هذه الآية من السورة تضمنت اسمين كريمين من أسمائه ـ تعالى ـ هما "الواحـــد " والقهار" وهذان الاسمان يشتق منهما صفتان ـ للبارى جل شأنه ـ هما صفتا "الوحدانية و"القهر" فاسمه ـ تعالى ـ "الواحد " دل على اتصاف ـ البارى سبحانه ـ بالوحدانية قال ابن الأثير(١) : في أسماء الله "الواحد" هو الفرد الذي لم يزل ولم يكن معـــه غيره (٢) .

وجاء في تهذيب اللغة : "الفرق بين الواحد والأحد أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد تقول : ما جاءني أحد ، والواحد اسم بني لمفتتح العدد تقول : جاءني احد من الناس ، ولا تقول جاءني أحد فالواحد منفرد بالذات ، وعدم المثل والنظـير والأحد المنفرد بالمعنى .(٣) .

وجاء في القاموس : "التوحيد الإيمان بالله وحده أي : التصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الخبر الدال على أن الله ـ تعالى ـ واحد في ألوهيته لا شريك له" .أ.هـ (٤)

---

١) هو : المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزرى أبو السعادات مجد الدين ، المحدث اللغوي الأصولي ، ولد سنة أربع وأربعـين وخمسمائة وتوفى سنة ست وستمائة هجرية . انظر ترجمته في " وفيات الأعيان" ١/٤٤١ ، الكامل لابن الأثير ١٢/٢٨٨ ، الأعلام ٦/١٥٢ .

٢) النهاية ٥/١٥٩ .

٣) ٥/١٩٤ ، وتفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٥٨ .

٤) ١/٣٥٦ .

ومن هذه النصوص اللغوية يتبين أن هذه المادة - وحدة - تدور حول انفراد الشيء بذاته ،أو بصفاته ،أو بأفعاله ، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه ، وإذا عدى بالتضعيف فيقال : - وَحَّدَ الشيء توحيدا - كان معناه إما جعله واحدا ،أو اعتقده واحدا .

قال تعالى حكاية عن المشركين (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) (١)

فاسمه - تعالى - " الواحد " معناه : الإعتقاد الجازم بأن الله - تعالى - واحد لا شريك له ، ونفي المثل والنظير عنه ، والتوجه إليه وحده بالعبادة وإذا قيل : الله واحد كان معنى ذلك انفراده بما له من ذات وصفات وعدم مشاركة غيره فيها فهو - سبحانه - واحد في إلهيته فلا إله غيره ، وواحد في ربوبيته فلا رب سواه ، وواحد في كل ما ثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي إلا له - جل وعلا -

وأما تفسير المتكلمين لاسمه - تعالى - " الواحد " بأنه واحد لا يتجزأ ولا ينقسم فهذا من الألفاظ المبتدعة المخترعة التي لم ينطق بها أحد من سلف الأمة وأئمتها ولم يرد ذكر هذا التفسير في عقائد أهل السنة والجماعة وإنما هو من جنس ما يذكره أهل البدع من قولهم ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم ، وليس له أعراض ولا أبعاض إلى ذلك مما خالفوا فيه أهل السنة والجماعة ، ومن خلال هذه الألفاظ يتوصلون إلى نفي الكثير من صفات الله - عز وجل - قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : "فانهم إذا قالوا لا قسم له ولا جزء له ، ولا شبيه له ، فهذا اللفظ ونحو وإن كان يراد به معنى صحيح فان الله ليس كمثله شيء وهو - سبحانه - لا يجوز عليه أن يتفرق ، ولا يفسد ولا يستحيل بل هو أحد صمد ، والصمد الذي لا جوف له ، وهو السيد الذي كمل سؤدده فإنهم يدرجون في هذه نفي علوه على خلقه ، ومباينته لمصنوعاته ونفي ما ينفونه ويقولون : إن اثبات ذلك يقتضي أن يكون مركبا منقسما ، وأن يكون له شبيه ، وأهل العلم والإيمان يعلمون أن مثل هذا لا يسمى في لغة العرب التي نزل بها القرآن تركيبا وانقساما ، ولا تمثيلا وهكذا الكلام في مسمى الجسم والعرض والجوهر والتحيز وحلول

---

١) سورة " ص " آية : ٥ .

الحوادث وأمثال ذلك ، فإن هذه الألفاظ يدخلون في مسماها الذي ينفونه أمورا مما وصف به نفسه ، ووصفه بها رسوله فيدخلون فيها نفي العلم والقدرة والكلام إلى غير ذلك من الصفات بدعوى أن ذلك لا تكون إلا لمتحيز في جهة وهو جسم (١)". أ.هـ

فكلام شيخ الإسلام يستفاد منه أن قول - المتكلمين - في اسمه - تعالى - "الواحد" أنه الذي لا ينقسم ولا يتجزأ قول مبتدع مخترع لم يقل به أحد من السلف.

وأما صفة "القهر" فقد دل على ثبوتها - للباري جل وعلا - اسمه - تعالى - القهار" .

قال في القاموس : "القهر" الغلبة" والقهار" من صفاته تعالى " أ.هـ (٢) .

وجاء في المفردات لغريب القرآن : القهر الغلبة والتذليل معا ويستعمل في كل منهما " (٣) .

وقال ابن الأثير: القاهر الغالب على جميع الخلائق قهره يقهره فهو قاهر وقهار للمبالغة " أ.هـ (٤) .

فمن هذه النصوص اللغوية ندرك معنى اسمه - تعالى - "القهار" ومعناه الذي يغلب على كل شيء ، ويبسط سلطانه على كل مخلوق ، ولا يعتاص عليه ما يريده ، ولا يفلت من قبضته جبار تمرد على جبروته ، ولا متكبر نازعه رداء كبريائه بل هو - سبحانه - آخذ بنواصي عباده فمن تمرد عليه قصمه وأذله ، ومن خالف أمره أخذه نكال الآخرة والأولى ، وجعله عبرة ومثلا لغيره ، بسط - سبحانه - سلطانه على كل الكائنات فاستجابت لأمره وخضعت لحكمته ، وسارت على النهج الذي رسمه لها .

فجميع الموجودات خاضعة لسلطانه - سبحانه - مذعنة لمشيئته مقهورة لإرادته .

قال تعالى : (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) (٥) .

---

١) درء تعارض العقل والنقل : ١/٢٢٨ . (٢) ٢/١٢٨ .
٣) ص ٤١٤ . (٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/١٢٩ .
٥) سورة النحل آية : ٤٩-٥٠ .

وقال تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء) (١) .

وللقهار - سبحانه - سنن قهر بها كل عظيم ، وأخضع لحكمها كل جبار عنيد ، وتتجلى مظاهر اسمه - تعالى - " القهار " في مصابر الأمم مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ومثل قارون ، وفرعون ، فهؤلاء جميعا اغتروا بقوتهم ، فأمعنوا في الظلم ، وأسرفوا في الطغيان فكان بغيهم ، وطغيانهم وبالا عليهم .

قال تعالى : (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) (٢) .

بل قهر - سبحانه - وتعالى الأخيار والأشرار وكل ذي روح بالموت الذي يدركهم أينما يكونون ، ولو كانوا في بروج مشيدة .

وقهرهم جميعا بالبعث بعد الموت ولو استطاع الأشرار سبيلا إلى الفرار من البعث لآثروا أن يكونوا ترابا حتى لا يعودوا إلى الحياة الأخروية ليلقوا ما أعد لهم من عذاب الهون جزاء بما كانوا يعملون (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) (٣) .

ثم إن الآية التي صدرنا بها هذا المبحث وهي قوله تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) ( )

قلنا : إنها دلت على إثبات صفتي الوحدانية والقهر - للباري سبحانه وتعالى - وقد بينا وجه دلالتها على ذلك .

وأيضا : مع دلالتها على ما ذكرنا فقد لفتت الأنظار إلى أنه إنما يرغب في الولد من يرغب فيه ليشد به أزره ويستكثر به من قله ، ويعتز به من ذلك ، وللمسارعة للنجدة

---

١) سورة الحج آية : ١٨ .

٢) سورة الحج آية : ٤٥ .

٣) سورة النبأ آية : ٤٠ .

والنصرة ، وهذا شأن المخلوق الضعيف .

أما الواحد القهار - سبحانه - الذي خضع لأمره كل شيء وبسط سلطانه على جميع هذا الكون فهو الغني عن العالمين لأنه خالقهم ورازقهم ومدبر أمورهم ولو شاء أن يتخذ ولدا لاصطفى من خلقه ما يشاء ولكنه - سبحانه - لا يشاء ما يخالف حكمته وينافي كماله - سبحانه - هو الله الواحد القهار ، وقد جمع الله - سبحانه - بين وحدانيته وقهره في عدة مواضع من كتابه :

قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام (يا صاحبي السجن) أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) (١) .

فهذه الآية تبين لنا أن نبي الله يوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن إلى الله وإلى الإسلام وقال لهما : أعبادة أرباب شتى متفرقين وآلهة لا تنفع ولا تضر خير أم عبادة المعبود الواحد الذي لا ثاني له في قدرته وسلطانه الذي قهر كل شيء فذل له ، وسخرة فأطاعه طوعا وكرها" (٢) .

وقال تعالى : (قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) (٣) .

بدأ - سبحانه - في هذه الآية بالإشارة إلى مظاهرة قهره ، وطاعة سائر المخلوقات له من خلق السموات والأرض ، ثم أشار - سبحانه - بأنه لا يستوى الأعمى والبصير ، كما لا تستوى الظلمات والنور ليوجه أذهان العباد إلى الذي خلق السموات والأرض هو الجدير بأن يخصه الناس بالعبادة ثم أشار إلى ضلال المشركين الذين انصرفوا عن عبادة الله ودعوا سواه ، ما الذي صرفهم عن عبادة الواحد القهار؟ أظنوا أن له شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فاختلط الأمر في أعينهم فلم يميزوا بين خلق

---

١) سورة يوسف آية : ٣٩ .
٢) انظر جامع البيان : ١٢/٢١٩ .
٣) سورة الرعد آية : ١٦ .

ـ الباري ـ وخلق غيره فعبدوا من ظنوهم خالقين مع الله ، ولو تدبروا وتفكروا قليلا لعرفوا أن الله ـ سبحانه ـ هو خالق كل شيء ومليك كل شيء ، وأنه لا رب غيره ولا خالق سواه إذ كل الكون ناطق بأنه الواحد القهار.

وقال تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) (١) .

وهذه الآية أيضا : أشار الله ـ تعالى ـ فيها إلى بعض مظاهر قهره ونفوذ مشيئته في تبديل السموات والأرض وجمعه الخلائق ليوم المعاد الذي لا ريب فيه ، ولا جرم أن الذي يستطيع أن يغير السموات والأرض ويجمع الخلائق ليجزيهم بأعمالهم دون أن يعترض إرادته معترض ، أو يحول دون تنفيذ مشيئته حائل لا بد أن يكون إلها واحدا لا معقب لحكمه ولا شريك له في ملكه فهو يفعل ما يشاء ولا بد أن يكون قهارا غالبا على كل شيء ولا يغلبه شيء ـ سبحانه ـ هو الله الواحد القهار.

وقال تعالى : (قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار) (٢) .

وفي هذه الآية : أمر الله نبيه أن يبين للناس بأنه منذر ، ينذر الناس بطشة الله كما أمره أن يبين لهم بأنه ليس في الوجود إلا إله واحد هو الله الواحد القهار.

وقال تعالى : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) (٣) .

يشير ـ جل وعلا ـ في هذه الآية إلى يوم القيامة حين يرث الواحد القهار الأرض ومن عليها ، ويسترد الملك من كل ذي ملك ، والسلطان من كل ذي سلطان ، ويشهد الخلق جميعا أن الملك لله الواحد القهار ، والتدبر لإثبات صفتي الوحدانية والقهر الثابتة لله ـ جل وعلا ـ على ما يليق به يدرك شناعة الخطأ الذي وقع فيه الغبوريون الذين يلجئون إلى غير الله حيث يطلبون منهم الحاجات ويستعينون بهم على نيل المطالب ، والعجب لهم كيف سول لهم الشيطان أن يتركوا الواحد القهار ، ويتجهون إلى المقهورين ، وينصرفون عن الغالب إلى المغلوبين وأسماء

---

١) سورة ابراهيم آية : ٤٨ .
٢) سورة (ص) آية : ٦٥ .
٣) سورة غافر آية : ١٦ .

الله وصفاته تنادي جميع المخلوقين بتجريد التوحيد لله وحده لا شريك له ، وبأنه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

المبحث الثامن

اثبات صفتي الرحمة والمغفـــــرة

معنى الرحمـــة :

جاء في النهاية : في أسماء الله تعالى - " الرحمن الرحيم" وهما اسمان مشتقان من الرحمة مثل ندمان ، ونديم وهما من أبنية المبالغة ، و"رحمن" أبلغ من " رحـــيم" و" الرحمن " خاص لله - تعالى - لا يسمى به غيره ولا يوصف .
والرحيم" يوصف به غير الله فيقال : رجل رحيم ، ولا يقال : رحمن " أ.هـ (١) .
وقال صاحب القاموس[٢]: " الرحمة : الرقة والمغفرة والتعطف . . . أ.هـ (٣)

قال العلامة ابن القيم : " وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده فالتأليه منهم له ، والربوبية منه لهم ، والرحمة سبب واصل بينه وبين عبـــاده بها أرسل اليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبها هداهم ، وبها أسكنهم دار ثوابـــه وبها رزقهم وعافاهم ، وأنعمهم عليهم فبينهم وبينه سبب العبودية وبينه وبينهم سبب الرحمة ، واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه فا (الرحمن على العرش استوى) (٤) مطابق لقوله (رب العالمين) (الرحمن الرحيم) فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها فوسع كل شيء برحمته وربوبيته مع أن في كونه ربا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه وكونه فوق كل شيء[٥] أ.هـ

---

١) ٣/ ٣٩٠ .
٢) هو : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر أبو طاهر مجد الديـــن الفيروزآبادي كان من أئمة اللغة والأدب ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائـــة وتوفى سنة سبع عشرة وثمانمائة هجرية . انظر ترجمته في " البدر الطالع" ٢/ ٢٨٠ ، كشف الظنون ٢/ ١٦٥٧ .
٣) القاموس " طه" ٢/ ١٠٦ .
٤) سورة (طه) آية : ٥ .
٥) مدارج السالكين : ١/ ٣٥ .

معنى المغفـــرة :

قال الزجاج رحمه الله تعالى :" الغفور " هو فعول من قولهم غفرت الشيء إذا سترته وفعول موضوع للمبالغة وكذلك فعال " (١) .

وجاء في النهاية : " الغفار الساتر لذنوب عباده وعيوبهم المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، وأصل الغفر التغطية يقال : غفر الله لك غفرا ، وغفرانا ومغفرة والمغفرة إلباس الله - تعالى - العفو للمؤمنين " (٢) .

وجاء في القاموس : غفره ستره وغفر الله ذنبه يغفره غفرا . . . . . غطى عليه وعفا عنه " (٣) .

وقال العلامة ابن رجب (٤) رحمه الله تعالى : " المغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها " أ.هـ (٥) .

والذي نستفيده من هذه الأقوال التي ذكرت حول بيان معنى اسمه - تعالى - " الرحيم " واسمه تعالى " الغفور " .

أن اسمه تعالى - " الرحيم " يدل على كثرة من تناله الرحمة من خالقه فهي صفة فعل باعتبار تجددها على حسب أحوال المرحومين ، وهي صفة ذات باعتبار أصلها لأن الله - تعالى - لم يزل ولا يزال متصفا بهذه الصفة .

ويدل اسمه (الرحيم) على أنه - تعالى - يرحم خلقه برحمته ويتجاوز عن سيئاتهم مهما بلغت صغرت أم كبرت إذا أتوا بأسباب التوبة وصدقت رغبتهم في طلبها .

وأما اسمه - تعالى - " الغفور " فمعناه هو الكثير المغفرة وأن المغفرة ستر الذنوب والتجاوز عنها والعفو عن مقترفيها وصونهم من أن يمسهم العذاب بسببها وإلباسهم العفو .

---

١) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٩٦ . (٢) ٣ / ٣٧٢ . (٣) ٢ / ١٠٦ .
٤) هو : الإمام الحافظ : عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي أبو الفرج زين الدين ولد في بغداد سنة ست وثلاثين وسبعمائة وتوفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة هجرية في دمشق . انظر ترجمته في : شذرات الذهب ٦ / ٣٣٩ ، الدرر الكامنة ٢ / ٣٢١ ، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٤٠ رقم الترجمة " ١١٧٠ " .
٥) جامع العلوم والحكم ص ٣٤٤ .

عن خطيـآتهم فالله ـ سبحانه وتعالى ـ " غفور " أى كثير الستر لذنوب عباده المؤمنين عظيم التجاوز عنهم .

وقد دلت سورة " الزمر " على إثبات صفتي الرحمة والمغفرة ـ للرب جل جلاله ـ فـــى آيتين منها :

قال تعالى : (ألا هو العزيز الغفار) .

وقال تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمه اللـــــه ان الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحـــيم)

فهاتان الآيتان من السورة تضمنتا إثبات صفتي الرحمة والمغفرة ـ للبارى جلا وعلا ـ فقد أمر الله نبيه في الآية الثانية من هاتين الآيتين أن يبلغ عباده المؤمنين أن لا ييأسوا من مغفرته فانه ـ سبحانه ـ يغفر الذنوب جميعا مهما أسرفوا على أنفســهـــم وأفرطوا ما عدا الإشراك بالله ـ سبحانه ـ فانه لا يغفره إلا بالتوبة منه بالدخـــول في دين الله الحق فهو سبحانه ـ ذو مغفرة عظيمة ورحمة واسعة للمقبلين عليـــــه المنيبين إليه ، والمنقادين له انقيادا تاما ظاهرا وباطنا عن طواعية ورضى .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى : عند قوله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ....) الآية " اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بهذه الآية .

فقال بعضهم : عنى بها قوم من أهل الشرك قالوا : لما دعوا إلى الايمان بالله كيف نؤمن ، وقد أشركنا وزنينا وقتلنا النفس التي حرم الله والله ـ يحد ـ فاعل ذلك النار فما ينفعنا مع ما قد سلف منا الإيمان فنزلت هذه الآية والذين قالوا : بهذا القول هم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ومجاهد (١) وعطاء (٢) وزيد بن أسلم

---

١) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومى مولاهم المكى ، ثقة إمام في التفســـير وفي العلم مات سنة أربع ومائة هجرية . التقريب ٢ / ٢٢٩ .

٢) عطاء هو : ابن أبى رباح أسلم القرشى ـ مولاهم ، المكى ثقة فقيه فاضل لكنه كثـــير الارسال مات في سنة خمس عشرة عشرة ومائة هجرية انظر التهذيب ٧ / ١٩٩ وما بعدها

وقتادة والسدى وابن زيد (١) والشعبى (٢) رحمهم الله تعالى .

وقال آخرون : بل عنى بذلك أهل الإسلام وقالوا : تأويل الكلام إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء قالوا : وهى كذلك في مصحف عبد الله ، وقالوا : إنما نزلت هذه الآية فى قوم صدهم المشركون عن الهجرة وفتنوهم فأشفقوا أن لا يكون لهم توبة وقال : بهذا القول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وعلى بن أبى طالب ومحمد بن كعب القرظبي وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال آخرون : نزلت في قوم كانوا يرون أهل الكبائر من أهل النار فأعلمهم الله بذلك أنه يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء ، وهذا قول آخر لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

قال ابن جرير : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عنى - تعالى - ذكره بذلك جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك لأن الله عم بقوله (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) .

جميع المسرفين فلم يخصص به مسرفا دون مسرف .

فإن قال قائل : فيغفر الله الشرك ؟ قيل نعم : إذا تاب منه المشرك وإنما عنى بقوله (ان الله يغفر الذنوب جميعا) لمن يشاء ..... وأن الله قد استثنى منه الشرك إذا لم يتب منه صاحبه فقال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٣) .

فأخبر أنه لا يغفر الشرك إلا بعد توبة بقوله (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) (٤) .

فأما ما عداه فإن صاحبه فى مشيئة ربه ان شاء تفضل عليه فعفا له عنه وإن شاء عدل

١) هو : عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوى ، مولاهم المدنى روى عن أبيه ، تقريب التهذيب ١ / ٤٨٠ ، طبقات المفسرين للداودى ١ / ٢٧١ .

٢) هو : عامر بن شراحيل الشعبى أبو عمرو ثقة مشهور فقيه فاضل توفى بعد المائة انظر التقريب ١ / ٣٨٦ .

٣) سورة النساء آية : ٤٨ .

(٤) سورة الفرقان آية : ٧٠

عليه فجازاه .

وأما قوله (لا تقنطوا من رحمة الله) فإنه يعني : لا تيأسوا من رحمة الله وقوله (إن الله يغفر الذنوب جميعا) يقول : إن الله يستر على الذنوب كلها بعفوه عن أهلها وتركه عقوبتهم عليها إذا تابوا منها (إنه هو الغفور الرحيم) بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها " أ.هـ (١) .

وأما العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى فقد قال : حول الآية (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا)

"هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة .

وإخبار بأن الله تبارك وتعالى - يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه " (٢) .

وقد استدل ابن كثير رحمه الله - تعالى - على أنه لا يصح حمل هذه الآية على غير توبة بما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول : وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملنا كفارة فنزل (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) (٣) ونزل (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) (٤) .

قال ابن كثير: والمراد من الآية الأولى - أي آية الفرقان - قوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا) (٥)

فابن جرير وابن كثير رحمهما الله - تعالى - اعتبرا الآية عامة في جميع المسرفين

---

١) جامع البيان ٢٤/١٤-١٧ .
٢) تفسير القرآن العظيم ٦/١٠٠ وانظر مجموع الفتاوى ١٦/١٨-٣٢ .
٣) سورة الفرقان آية : ٧٠ .
٤) صحيح البخاري ٣/١٨٢ ، ورواه مسلم أيضا : ٤/٢٣١٨ .
٥) تفسير القرآن العظيم ٦/١٠٠ والآية رقم (٧١) من سورة الفرقان .

فى الذنوب من بنى آدم ، وأنه - تعالى - يغفر جميع ذلك مع التوبة النصوح ولا يجوز لعبد أن يقنط نفسه ، أو غيره من رحمة الله - تعالى - ومغفرته اللتين هما من صفات الكمال ولذلك اتصف بهما رب العالمين - سبحانه وتعالى - .

وصفتا الرحمة والمغفرة وردا في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة :

قال تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) (١) .

وقال تعالى : (الرحمن على العرش استوى) (٢) .

قال العلامة ابن القيم : " وصفات الإحسان والجود والبر والمنة والرأفة واللطف باسم " الرحمن " وكرر إيذانا بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته " فالرحمن " الذي الرحمة وصفه ، والرحيم الراحم لعباده ولهذا يقول تعالى (٣) (وكان بالمؤمنين رحيما) (إنه بهم رؤوف رحيم) (٤) .

ولم يجئ رحمن بعباده ، ولا رحمن بالمؤمنين مع ما في اسم " الرحمن " الذي هو على وزن " فعلان " من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه الموصوف به .

ألا ترى أنهم يقولون : غضبان للمملوء غضبا ، وندامان وحيران ، وسكران ، ولهفان لمن ملئ بذلك فبناء فعلان للسعة والشمول ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الإسم كثيرا (ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) (٥) .

فاستوى على عرشه باسم الرحمن لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء) (٦) فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات فلذلك وسعت رحمته كل شيء .

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو موضوع على العرش ان رحمتى تغلب غضبى (٧) في لفظ (فهو عنده على العرش) (٧) .

---

١) سورة البقرة آية : ١٦٣ .
٢) سورة " طه " آية : ٥ .
٣) سورة الأحزاب آية : ٤٣
٤) سورة التوبة آية : ١١٧ .
٥) سورة الفرقان آية : ٥٩ .
٦) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .
٧) صحيح البخارى ٢/٢٠٨ ، صحيح مسلم ٤/٢١٠٧ .

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ووصفه عنده على العرش وطابق بين ذلك وبين قوله (الرحمن على العرش استوى) (١) وقوله ثم استوى على العرش الرحمن فأسأل به خبيرا) (٢) ينفتح لك باب عظيم من معرفة ـ الرب تبارك وتعالى ـ إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم " أ.هـ (٣) .

فرحمته ـ تعالى ـ عمت كل شيء في العالم العلوي والسفلي البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا يخلو مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمته ، وغمره فضله ، وإحسانه ، ولكن هناك رحمة خاصة ليست لكل أحد ، وهي المقصودة بقوله (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) (٤) .

وقال تعالى (قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة) (٥) .

هذه الآية أمر الله ـ تعالى ـ نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمشركين مقررا وملزما بالتوحيد لمن ما في السموات فان أجابوك وإلا فقل إن الله هو الذي خلق هذا الكون وهو مالكه ، ومتصرف فيه كيف يشاء ثم أخبر بأنه كتب على نفسه الرحمة ترغيبا للمتولين عن الإقبال عليه ، وإخبارا منه بأنه رحيم بالعباد قادر على أن يعاجلهم بالعقوبة ولكنه كتب على نفسه الرحمة ووعد بها فضلا منه ، وإحسانا ولم يوجبها عليه أحد ، والكتابة تكون شرعية ، وتكون كونية فالكتابة الشرعية الأمرية مثل قوله تعالى (كتب عليكم الصيام) (٦) والكونية القدرية كقوله تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) (٧)

فالمراد بالكتابة في قوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) كونية قدرية ، فقد كتب على نفسه الرحمة تفضلا منه ، وإحسانا من غير أن يوجبها عليه أحد .

وقال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٨) .

---

١) سورة " طه " آية : ٥ . (٢) سورة الفرقان آية : ٥٩ .
٣) مدارج السالكين ١/٣٣-٣٤ . (٤) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .
٥) سورة الأنعام آية : ١٢ . (٦) سورة البقرة آية : ١٨٣ .
٧) سورة المجادلة آية : ٢١ . (٨) سورة غافر آية : ٧ .

هذه الآية تضمنت إثبات الرحمة والمغفرة للذين يبادرون بالتوبة ويمشون على الصراط المستقيم - فسبحانه - ربنا وسعت رحمته وعلمه كل شيء فما من مسلم ولا كافر إلا وهو يتقلب في نعم الله التي لا تحصى ولا تعد .

وقال تعالى : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) (١) .

فسورة الفاتحة التي هي أول سور القرآن دلت على إثبات صفة الرحمة - للباري جل وعلا - وهي السورة التي اشتملت على أمهات المطالب العالية .

قال العلامة ابن القيم حول تفسيره لهذه السورة العظيمة : " وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة :

أحدها : كونه رب العالمين فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملا لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم ، وما يضرهم فيها فهذا هضم الربوبية ، ونسبة - الرب تعالى - إلى ما لا يليق به وما قدره حق قدره من نسبه إليه .

الثاني : أخذها من اسم " الله " وهو المألوه المعبود ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله .

الثالث : من اسمه " الرحمن " فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم ، فمن أعطى اسم " الرحمن " حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث ، وإنبات الكلأ ، وإخراج الحب فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الإسم خسائ البهائم وأدرك منه أولو الألباب أمرا وراء ذلك " .أ.هـ (٢) .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله - تعالى - موصوف بالرحمة والمغفرة .

---

١) سورة الفاتحة آية : ١-٢ .

٢) مدارج السالكين ١ / ٨ ، والتفسير القيم ص ٧-٩ .

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه بإسناده إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم " أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟" قلنا : لا . والله وهي تقدر على أن لا تطرحه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لله أرحم بعباده من هذه بولدها" (١) .

ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم فى شأن ثبوت صفة المغفرة لله - جل وعلا - الحديث القدسي الذي رواه أبو هرة رضى الله - تعالى - عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن - ربه عز وجل - قال :" أذنب عبدى ذنبا فقال : اللهم اغفر لي ذنبي فقال - تبارك وتعالى - : أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب فقال : أى ربى اغفر لى ذنبى فقال - تبارك وتعالى - أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب إعمل ما شئت فقد غفرت لك " (٢) .

فهذا الحديثان دلا على أنه - تعالى - موصوف حقيقة بصفتي الرحمة والمغفرة كما يليق بذاته - جل وعلا - كما يقال : في سائر الصفات فالله - تعالى - هو الذى يتطلب منه المغفرة للذنوب ، والرحمة للخلق فما دام العباد منيبين إليه قارعين بابه فإنه يتوب عليهم ويرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء ، والذي يتضح من الآيات والأحاديث المتقدمة التي سقناها أدلة على أن الله - تعالى - موصوف بصفتي الرحمة والمغفرة أن الرحمة تنقسم الى قسمين :

القسم الأول : رحمة عامة يشترك فيها المسلم والكافر ، والبر والفاجر والبهائم وسائر الخلق دل على هذا القسم قوله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء (٣) .

---

١) صحيح مسلم ٤/٢١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ٤/٢١١٢ .
٣) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

وقوله تعالى : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) (١) .

القسم الثاني : قسم خاص بالأنبياء والرسل وعباده المؤمنين دل على هذا القسم قوله تعالى : (وكان بالمؤمنين رحيما) (٢) .

وقوله - تعالى - (إنه بهم رؤوف رحيم) (٣) .

والرحمة المضافة إلى الله - تعالى - نوعان :-

النوع الأول : من إضافة المفعول إلى فاعله ومثال هذا النوع الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " احتجت الجنة والنار. . . . . الحديث وفيه " فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي " (٤) فهذه رحمة مخلوقة أضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى خالقه ، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة وخص بها أهل الرحمة ، وإنما يدخلها الرحماء .

النوع الثاني : مضاف إليه إضافة صفة إلى موصوف وذلك مثل قوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) (٥) ورغم كثرة النصوص في إثبات صفتي الرحمة والمغفرة وثبوتها لله - عز وجل - حقيقة على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه فإنه قد وجد من أنكرها ووجد من أولها تأويلا باطلا بغير المراد منها ، فالجهمية مذهبهم كما هو معلوم إنكار صفات الله - تعالى - وأسماءه كلية لا يثبتون له صفة ولا اسما (٦) . وو وافقهم المعتزلة في نفي صفاته - تعالى - وأثبتوا له أسماء بدون صفات (٧) وهاتان الطائفتان متفقتان على نفي صفتي الرحمة والمغفرة ، فقد زعموا أن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم وبناء على هذه الشبهة الباطلة نفوها كلية ويزعمون أن

---

١) سورة غافر آية : ٧ (٢) سورة الأحزاب آية : ٤٣ .

٣) سورة التوبة آية : ١١٧ . (٤) صحيح البخاري ٣ / ١٨٢ .

٥) بدائع الفوائد ٢ / ١٨٣ والآية رقم (٥٦) من سورة الأعراف ، وانظر هادي الارواح ص ٢٥٨ .

٦) مجموع الفتاوى ١٢ / ٥٠٧ ، ٢٠٥ . (٧) المصدر السابق : ٣ / ٢٠ .

هذا من التنزيه وهو في الحقيقة تعطيل وجحد لصفات الله تعالى ، ومن مبالغة الجهمية في إنكارهم صفة الرحمة أن قد وتهم الأول في الضلالة " الجهم بن صفوان" كان يقف على الجذامى ويشاهد ما هم فيه من البلايا ويقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا يعني أنه ليس ثم رحمة في الحقيقة ، وأن الأمر راجع إلى محض المشيئة الخالية عن الحكمة والرحمة ، ولا حكمة عنده ولا رحمة ، فان الرحمة لا تعقل إلا من فعل من يفعل الشيء لرحمة غيره ونفعه ، والإحسان إليه ، فإذا لم يفعل لغرض ولا غاية ولا حكمة لم يفعل الرحمة فالإحسان " (١) .

فإمام الجهمية في الضلال ينكر رحمة الله وحكمته وعلى ذلك جرى أتباعه أما شبهة الجهمية وأفراخهم المعتزلة التي أدت بهم إلى انكار صفة الرحمة وهي قولهم : أن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة ، وتألم على المرحوم فهذا زعم باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن الضعف والخور مذموم من الآدميين والرحمة ممدوحة قال تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) (٢) ، وقد نهى الله عن الوهن والحزن فقال : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (٣) ، وندب بهم إلى الرحمة فقد قال صلى الله عليه وسلم " لا تنزع الرحمة إلا من شقي " (٤) وقال : من لا يرحم لا يرحم" (٥) وقال " الراحمون يرحمهم الرحمن" (٦) ومحال أن يقول : لا ينزع الضعف والخور الا من شقي ، ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور كما في رحمة النساء ، ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقا .

---

١) مجموع الفتاوى ١٧ / ١٧٧ ، إغاثة اللهفان ٢ / ١٧٧ ، شفاء العليل ص ٢٠٢ .
٢) سورة البلد آية : ١٧ . (٣) سورة آل عمران آية : ١٣٩ .
٤) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي هرير رضي الله عنه ٢ / ٣٠١ .
٥) متفق عليه : جـ صحيح البخاري ٤ / ٥١ ، صحيح مسلم ٤ / ١٨٠٩ كلاهما من حديث أبي هريرة .
٦) رواه أبو داود في سننه ٢ / ٥٨٢ والترمذي ٣ / ٢١٧ كلاهما من حديث عبد الله ابن عمرو .

الوجه الثاني : أنه لو قدر أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك لم يجب أن تكون في حق الله - تعالى - مستلزمة لذلك ، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه الله عنه .

الوجه الثالث: إنا نعلم بالاضطرار أنا إذا فرضنا موجودين أحدهما يرحم غيره فيجلب له المنفعة ، ويدفع عنه المضرة ، والآخر قد استوى عنده هذا وهذا وليس عنده ما يقتضي جلب منفعة ولا دفع مضرة كان الأول أكمل " (١) .

وأما مذهب الأشعرية : في صفتي الرحمة ، والمغفرة فانهم يؤولونها بغير المراد منهما ، فقد تأولوا صفة الرحمة بمعنى الإحسان ، أو إرادة الإحسان قال البيجوري (٢) و" الرحمن الرحيم" صفتان مأخوذتان من الرحمة بمعنى الإحسان أو إرادة الإحسان لاستحالة ذلك في حقه - تعالى - فالرحمن الرحيم " في حقه بمعنى المحسن ، أو مريد الإحسان لكن الأول بمعنى المحسن بجلائل النعم أي : بالنعم الجليلة والثاني بمعنى المحسن بدقائق النعم أي : بالنعم الدقيقة " أ.هـ (٣)

وذكر صاحب الجوهرة مذهب الأشاعرة في الصفات فقال :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها (٤)

وقال الرازي : بعد أن ذكر بعض الصفات الفعلية : "إن هذه المتشابهات يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظواهرها كما يجب تفويض معناها إلى الله - تعالى - ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها" (٥) .

فمذهب الأشعرية عموما إثبات بعض الصفات وتأويل الكثير منها بغير المراد منها فتأويلهم صفة الرحمة بمعنى الإحسان ، أو إراده الإحسان مغالطة ظاهرة إذ الحق إثبات صفة الرحمة كما يليق بجلاله - تعالى - كالقول في سائر الصفات ، والرحمة

---

١) مجموعة الرسائل والمسائل : ٤ / ٢٢٦-٢٢٧ .
٢) هو: ابراهيم بن محمد بن أحمد الشافعي الباجوري المتوفى سنة ١٢٧٧هـ .
٣) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ٣ .
٤) المصدر السابق ص ٩١ .
٥) أساس التقديس ص ٢٢٣ .

لا تنفك عن إرادة الإحسان فهي مستلزمة للاحسان " أو إرادته استلزام الخاص للعام فكما أنه يستحيل وجود الخاص بدون العام ، فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو ارادته

وبعض الأشاعرة تأول صفة الرحمة بمعنى الثواب ، ويرد على هذا التأويل البعيد عن الحق والصواب - بأن البارى سبحانه - قد فرق بين رحمته ورضوانه وثوابه المنفصل فقال : (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) (١) .

فالرحمة والرضوان صفته ، والجنة ثوابه وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثوابا منفصلا مخلوقا ، وقول من قال : هي إرادته الاحسان فإن ارادته الإحسان من لوازم رحمته فانه يلزم من الرحمة أن يريد الاحسان وكذلك لفظ اللعنة والغضب ، والمقت هي أمور مستلزمة للعقوبة فاذا انتفت حقائق تلك الصفات انتفى لازمها فإن ثبوت لازم الحقيقة مع انتفائها ممتنع ، فالحقيقة لا توجد منفكة عن لوازمها" (٢) .

والذى نخلص إليه مما تقدم أن صفتي الرحمة ، والمغفرة ثابتتان - للبارى سبحانه - على ما يليق به ، والذين نفوها أو أولوها بغير المراد منها ليس معهم ما يؤيدهم على دعواهم أي دليل لا من الكتاب ولا من السنة ، ولا من العقل ، أو الفطرة ، أو اللغة وإنما الذي حملهم على مزاعمهم الباطلة ، إنما هو قياسهم الخالق على المخلوق واتباع الهوى الذى جرهم إلى النفي والتعطيل وتحريف الكلم عن مواضعه نعوذ بالله من شر ذلك .

---

١) سورة التوبة آية : ٢١ .

٢) انظر مختصر الصواعق المرسلة ٢ / ١٢١ .

(المبحث التاسع)

اثبات صفة الغنى لله تعالـــــــــى

لقد دلت السورة على إثبات صفة الغنى المطلق - للبارى جل وعلا - في آية واحدة منها وهي قوله تعالى :-

(إن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور) .

هذه الآية الكريمة من السورة أثبتت صفة الغنى التام المطلق لله - جلا وعلا - مـــن جميع الوجوه والإعتبارات لكماله ، وكمال صفاته - سبحانه وتعالى - فصفة الغنى لله - سبحانه وتعالى - ثابتة بنص القرآن والسنة ، وغناه سبحانه - لازم لذاته .

جاء في النهاية " في أسماء الله - تعالى - " الغني " هو الذي لا يحتاج إلى أحد في شيء ، وكل أحد يحتاج إليه ، وهذا هو الغنى المطلق ، ولا يشارك الله - تعالى - فيه غيره ، ومن أسمائه - تعالى - " المغني " وهو الذي يغني من يشاء من عباده "(١) . هـ

وجاء في المفردات في القرآن : " الغنى يقال على ضروب :

أحدها : عدم الحاجات وليس ذلك إلا لله - تعالى - وهو المذكور في قوله (وإن الله لهو الغني الحميد) (٢) وقول تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد) (٣) .

الثاني : قلة الحاجات وهو المشار إليه بقوله (ووجدك عائلا فأغنى) (٤) .

الثالث : كثرة القنيات بحسب ضروب الناس ومنه قوله تعالى : (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) (٥) أي : لهم غنى النفس ، ويحسبهم الجاهل أن لهم القنيات لما يرون فيهم من التعفف والتلطف" . أ . هـ (٦) .

---

١) النهاية في غريب الحديث والأثر : ٣ / ٣٩٠ .
٢) سورة الحج آية : ٦٤ . (٣) سورة فاطر آية : ١٥ .
٤) سورة الضحى آية : ٨ (٥) سورة البقرة آية : ٢٧٣ .
٦) المفردات للراغب ص ٣٦٦ ، وانظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي" ١٩٦/١ .

فالذي يستفاد من التحريف اللفوي لاسمه - تعالى - "الغني" أن الله - تعالى - متصف بصفة الغنى المطلق من جميع الوجوه فلا يتطرق إليه نقص بوجه من الوجوه ، ولا يمكن أن يكون إلا غنيا لأن غناه - سبحانه - من لوازم ذاته ، كما لا يكون إلا خالقا ، قادرا رازقا ، محسنا ، فلا يحتاج إلى أحد بحال من الأحوال فهو - تعالى - الغني الذى بيده خزائن الأرض والسموات ، وهو الذى يغني جميع خلقه غنى عاماً وهو الذى يغنى خواص خلقه بما يفيض على قلوبهم من حقائق الإيمان ومعرفتهم ربهم معرفة تامة تزيدهم إيمانا ويقينا ، فجميع الخلائق مفتقرة اليه - سبحانه وتعالى - فى وجودها فلا وجود لها إلا به ، ومفتقرة إليه فى قيامها فلا قوام لها إلا به - جل وعلا - فهو القيوم ، القائم بنفسه فلا يحتاج الى شيء ، القيم لغيره فلا قوام لشيء إلا به ، والقائم على غيره ، المدبر لأمور خلقه ، فالله - تعالى - له الغنى المطلق الكامل ، وكل الخلق فقراء إلى الله ، وقد وردت آيات كثيرة تبين هذا المعنى وتثبته :

قال تعالى : (يأ أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) (٢)

فى هذه الآية : " يخبر - تعالى - بغناه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه فقال تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) أى : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات وهو - تعالى - الغنى عنهم بالذات ولهذا قال - عز وجل - (والله هو الغني الحميد) (٢) أى : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه "(٣) .

وقال تعالى : (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد) (٤) .

---

١) سورة فاطر آية : ١٥

٢) سورة فاطر آية : ١٥ .

٣) تفسير ابن كثير ٥٧٧/٥

٤) سورة التغابن آية : ٥-٦ .

وهاتان الآيتان : أخبر الله -تعالى- بنبط بأن الأمم التي مضت حل بهم من النكال والبال ما لا يقادر قدره بسبب تكذيبهم رسله ، والكفر بهم وبما جاءوا به من الحق المبين ، فكأن أفكارهم السخيفة أملت لهم أنهم يضرون الله بعملهم ذلك ولم يفكروا بأنه -تعالى- غني عن إيمان جميع خلقه وعبادتهم فهو -سبحانه- " غني حميد " غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم وهو المحمود -سبحانه من جميع الخلائق بلسان المقال والحال وهو -سبحانه- لا تضره معصية العاصين ، ولا تزيده طاعة الطائعين وقال تعالى (له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد) (١)

ففي هذه الآية : بيان من الله -تعالى- أن كل ما في السموات وما في الأرض من الأشياء ملك له ، وهو غني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه عبد لديه -سبحانه- من غني كريم .

وقال تعالى : (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) (٢) .

قال ابن جرير: حول هذه الآية :" قل يا محمد لهؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام ، والمنكرين ، عليك إخلاص التوحيد لربك الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان ، أشيئا غير الله -تعالى- أتخذ وليا أستنصره ، وأستعينه على النوائب والحوادث " أ.هـ (٣) .

فالله- جل وعلا -هو الذي يحتاج إليه الخلائق ويلجئون إليه لينصرهم ويعينهم على ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم لأنهم عاجزون فقراء إلى الله -تعالى- لا يستطيعون تحقيق مصالحهم إلا بعونه -تعالى- لهم ونصره إياهم .

وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (٤) .

---

١) سورة الحج آية : ٦٤ . (٢) سورة الأنعام آية : ١٤ .
٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٧/١٥٨ .
٤) سورة الذاريات آية : ٥٧-٥٩ .

هذه الآية : بين الله - تعالى - فيها أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليوحدوه - سبحانه - ويفردوه بالعبادة لأنه الخالق لهم ، والموجد لهم من العدم وهو الذي حباهم بأصناف النعم ثم بين - تعالى - في الآية الثانية أنه مستغن عن عبادة وأنه لا يريد منهم منفعة كما تريد السادة من مواليهم بل هو الغني على الإطلاق الرازق المعطي - سبحانه وتعالى - .

وقد أنكر الله على اليهود حين نسبوا الفقر إلى الله ونسبوا الغنى إلى أنفسهم الحقيرة العاجزة التي لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا وحكم بكفرهم ، لأنهم نفوا صفة الغنى عن الرب سبحانه وتعالى - الذي خزائنه لا تنفد فقال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) (١) .

- فتعالى الله الكريم - عن مقالة اليهود وأشباههم علوا كبيرا ، ورد الله عليهم في موضع آخر حين زعموا أن يد الله مغلولة - فرد عليهم - بأن يديه مبسوطتان ، سحاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة ، ولعنهم على مقالتهم الجائرة (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) (٢) .

قال تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) (٣) .

كما أنه - تعالى - رد على المنافقين حين تآمروا فيما بينهم على أن لا ينفقوا على الصحابة الملتفين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم كي يتفرقوا من حوله ويتركوه وحيدا ولم يدركوا أن الصحابة الذين كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما نزلت بهم النكبات والكوارث فإنهم بها لا يتزعزعون لأن إيمانهم راسخ لا يتزحزح كالجبال

---

١) سورة آل عمران آية : ١٨١ . (٢) سورة الكهف آية : ٥ .

٣) سورة المائدة آية : ٦٤ .

الرواسي ، ورد الله على المنافقين بأنهم لا يملكون شيئا وأن خزائن السموات والأرض بيده ـ سبحانه ـ .

قال تعالى (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يعلمون) (١) .

وقال تعالى : (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا) (٢) .

فهذه الآيات التي قدمنا ذكرها فيها الإخبار منه ـ تعالى ـ بكمال غناه عن خلقه وأنه لا يزيد في غناه طاعة من أطاعه ولا ينقص من غناه معصية من عصاه .

وبينت أنه ـ سبحانه ـ لم يخلق الخلق لحاجته إليهم ، وأنه لو شاء لذهب بهم وأتى بغيرهم . وأخبر ـ تعالى ـ بأنهم فقراء إليه لا غنى لهم عنه في نفس من أنفاسهم وكلهم يعلم ذلك ، مقرين به ، وأنهم لم يكونوا موجودين حتى أوجدهم وليس لهم قدره من أنفسهم ولا غيرها إلا بما أقدرهم الله عليه فانه ـ سبحانه ـ الغني الفعال لما يريد ، كما أن تلك الآيات تتضمن الرد على القائلين أن علة افتقار الخلائق إليه ـ سبحانه ـ إنما هو الحدوث فلا تحتاج إليه ـ سبحانه ـ إلا في حال الإحداث .

قال شيخ الإسلام رحمه الله ـ تعالى : في صدر رده على الجهمية والمعتزلة القائلين بأن علة افتقار الخلائق إلى ربها إنما هو الحدوث فلا تحتاج إليه ـ سبحانه ـ إلا في حال الإحداث ، وفي رده على ابن سينا وطائفة الذين يقولون بأن علة افتقار الخلائق إلى ربها إنما هو الإمكان الذي يظن أنه يكون بلا حدوث ، بل يكون المعلول قديما أزليا ، ويمكن افتقارها في حال البقاء بلا حدوث . فقد بين رحمه الله بطلان هذين القولين : وقرر بأن الإمكان والحدوث فلا زمان كما عليه جماهير العقلاء من الأولين والآخرين ، وحتى القدماء من الفلاسفة كأرسطو وأتباعه فإنهم يقولون : إن كل ممكن فهو محدث ، ولم يخالف في هذا إلا ابن سينا وطائفة ، ولذلك إخوانهم من

---

١) سورة المنافقون آية : ٧ . (٢) سورة الاسراء آية : ١٠٠ .

الفلاسفة أنكروا علمهم رأيهم كابن رشد(١) وغيره ..... إلى أن قال رحمه الله والمخلوقات مفتقرة إلى الخالق فالفقر وصف لازم لها دائما لا تزال مفتقرة إليه ، والإمكان والحدوث دليلان على الافتقار لأن هذين الوصفين جعلا الشيء مفتقرا ، بل فقر الأشياء إلى خالقها لازم لها لا يحتاج إلى علة ، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى إلى علة ، وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر الى علة بل هو فقير لذاته لا تكون ذاته إلا فقيرة فقرا لازما لها ولا يستغني الا بالله وهذا معنى " الصمد " وهو الذي يفتقر اليه كل شيء ويستغني عن كل شيء بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته فما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم وهذا تحقيق قوله تعالى (اياك نعبد واياك نستعين) (٢)

وقال العلامة ابن القيم رحمة الله - تعالى - بعد أن ذكر قوله تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد) (٣) .

بين - سبحانه - في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي له ففناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه ، وفقر من سواه إليه ثابت له لذاته ، لا أمر أوجبه فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل هو ذاتي للفقير ، فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة كما أن غنى الرب سبحانه - لذاته لا لأمر أوجب غناه كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : والفقر لي وصف ذات لازم أبدا

والفقر لي وصف ذات لازم أبـدا كما أن الغنى أبدا وصف له ذاتـي

---

١) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي أبو الوليد الفليسوف من أهل قرطبة اشتغل بعلم الفلسفة وترجمها إلى العربية ، وله مؤلفات كثيرة في فنون مختلفة ولد سنة عشرين وخمسمائة ، وتوفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة
آنظر ترجمته في : شذرات الذهب ٤ / ٣٢٠ ، والأعلام للزركلي ٦ / ٣١٢ .

٢) مجموع الفتاوى ٥ / ٥١٤-٥١٥ والآيتان رقم (٤-٥) من سورة الفاتحة .

٣) سورة فاطر آية : ١٥ .

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك إذ ما بالذات لا يعلل فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته وما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين الذين تذكرهما الفلاسفة والمتكلمون ، فإن الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الامكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث ، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان وكلاهما دليل الحاجة والافتقار وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته ثم يستدل بامكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر ، والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه كما أخبر عن ذاته المقدسة ، وحقيقته أنه غني حميد ، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي فيستحيل أن يكون العبد الا فقيرا ، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه الا غنيا كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدا ويستحيل أن يكون الرب إلا ربا" أ.هـ (١) .

وأما الأحاديث الدالة على أن الله متصف بصفة الغنى فكثيرة جدا .

منها : حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال تعالى " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن لكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، ولو أن لكم وآخركم وحيكم وميتكم ، ورطبكم

---

١) طريق الهجرتين ص ٦-٧ .

وياسكم ، اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادي ما زاد ذلك في ملكي جناح بعوضة يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " (١) .

ومنها حديث : عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت : شكا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحوط المطر ، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى ، ووعد الناس يوما يخرجون فيه قالت عائشة : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم . حين بدأ حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبر صلى الله عليه وسلم وحمد الله - عز وجل - ثم قال : " إنكم شكوتم جدب ديارکم واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم وقد أمركم الله - عز وجل - أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم ثم قال : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين . . لا إله إلا الله يفعل ما يريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين " رواه أبو داود وقال : هذا حديث غريب إسناده جيد " (٢) .

والذي نخلص إليه مما تقدم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن الله - تعالى - متصف بصفة الغنى المطلق ، فلا يحتاج إلى شيء وأن جميع الخلائق محتاجون إليه وفقراء إليه في كل أمر من أمورهم ، فلا قوام لهم إلا به - تعالى - في كل حركاتهم وسكناتهم وفي كل لحظة من لحظاتهم ، وفي كل نفس من أنفاسهم فلا غنى لهم عنه طرفة عين .

---

١) رواه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٩٤-١٩٩٥ .

٢) سنن أبي داود ١ / ٢٦٧ .

المبحث العاشـــــر

إثبات صفة الرضـــــــا

لقد أثبتت السورة صفة الرضا لله - جل وعلا - على ما يليق به سبحانه - وهي صفة فعلية يفعلها متى شاء وكيف شاء .

قال تعالى : (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم . . .) الآية .

هذه الآية من السورة إخبار من الله - تعالى - بأنه لا يرضى لعباده أن يكفروا بـــه ولا يرضى لهم أن يشركوا به غيره ، وإنما الذي يرضاه لهم أن يؤمنوا به - سبحانه - ويطيعوه ويكونوا بمنآى عن الكفر وأهله ، وكون الكفر لا يخرج عن المشيئة العامـــة فليس ذلك مبررا لكفر الكافر ، ومعصية العاصي لأنه - تعالى - يخلق ما يحب وما يكـره من الأعيان والأفعال وكل ما في الكون داخل تحت مشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لـم يكن .

قال العلامة ابن القيم حول الآية (ولا يرضى لعباده الكفر) الآية" فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره ، وأحدهما محبوب له مرضي ، والآخر مبغوض له مسخوط ، وكذلك قوله عقيب ما نهى عنه (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) (١) .

فهو مكروه له مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره " أ.هـ (٢) .

وصفة الرضا كثر ذكرها في الكتاب والسنة مما يدل على ثبوتها ثبوتا قطعيا للباري - سبحانه - على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه كغيرها من الصفات الأخرى كالعلم والقدرة والإرادة وغير ذلك من الصفات الثابتة التي نطق بها الكتاب والسنة .

قال تعالى : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتهـــا الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه) (٣)

ففي هذه الآية إخبار من الله - تعالى - بأنه يرضى عن عباده المؤمنين ويرضـــون عنه وقال تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان

---

١) سورة الاسراء آية : ٣٨ . (٢) مدارج السالكين ١/٢٥٣ - ٢٥٤ .
٣) سورة المائدة آية : ١١٩ .

رضى الله عنهم ورضوا عنه) (١) .

وقال تعالى (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) (٢)

وقال تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول) (٣) .

فأخبر - تعالى - في هذه الآية بأنه لا يرضى بما يبيتونه من القول المشتمل على شهادة الزور والبهت ورمي البريء وبراءة الجاني إذ الآية نزلت في حادثة هذا شأنها" (٤) .

مع أن كل ذلك واقع بمشيئته - سبحانه - إذ أجمع المسلمون على أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يخالفهم في هذا إلا القدرية النفاة الذين يقولون : يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء .

فالآيات السابقة دلت دلالة صريحة على إثبات صفة الرضا - لله جل وعلا - إثباتا يليق بجلاله فإذا نفاها ناف أو تأولها متأول بغير المراد منها فمعنى ذلك أنه يدعي أنه أعلم بصفات الله من الله - سبحانه وتعالى - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

فلا يجوز نفي أي صفة من صفاته - تعالى - أو تأويلها بغير ما يدل عليه ظاهرها كأن تؤول صفة الرضا بإرادة الثواب ، وصفة الغضب بإرادة العقاب إذ هذا من تحريف الكلم عن مواضعه ، واعتراض على الله فيما أثبته لنفسه ، كما لا يجوز أن يقال : إن رضاه - تعالى - كرضا المخلوقين كما هو مذهب الكرامية المشبهة إذ الفرق بين رضا الخالق ، ورضا المخلوق كالفرق بين الذات والذات ، ذات الخالق ، وذات المخلوق فكما أنه لا تشابه بين ذات الخالق وذات المخلوق ، فكذلك لا تشابه بين صفة الخالق ، وصفة المخلوق لأن ما وصف الله به نفسه لائق بجلاله ، وما وصف به المخلوق ، يناسب حاله وافتقاره .

---

١) سورة التوبة آية : ١٠٠ (٢) سورة الفتح آية : ١٨ .

٣) سورة النساء آية : ١٠٨ .

٤) مدارج السالكين ١ / ٢٥٣ ، فتح القدير ١ / ٥١٢ ، لباب النقول في أسباب النزول ص ٨٢

وقد دلت السنة على إثبات صفة الرضا كما دل عليها القرآن الكريم فقد جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله - عز وجل - يقول يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يا رب : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا" (١) .

فالحديث دل على أن رضى الله أعظم ، وأجل من كل نعيم كما دل دلالة واضحة على إثبات صفة الرضا والسخط إثباتا يليق بجلاله .

ومن حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله يرضى لكم ثلاثا : ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، ويكره لكم ثلاثا قيل وقال (٢) وكثرة السؤال (٣) وإضاعة المال" (٤) .

فالحديث دل على أنه - تعالى - يرضى ويكره وهاتان الصفتان صفتا كمال ولو كان في اثبات هاتين الصفتين وغيرهما محذور لأشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وبينه ووضحه للأمة ، فهو - سبحانه - يرضى رضاء يليق بجلاله ، ويكره بعض الأعمال كراهة تليق به ، ولا داعي لأن نتأول الحديث بتأويلات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان . كتأويل "الرضاء والسخط والكراهة من الله - تعالى - بأن المراد بها أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، أو إرادته الثواب لبعض العباد والعقاب لبعضهم (٥) إذ هذه التأويلات من تصرف بعض الطوائف كالأشعرية الكلابية الذين يتكلفون تأويلات لم يكلفهم الله بها ، بل هي تأويلات باطلة ناتجة عن التصرف الخاطيء

---

١) متفق عليه : صحيح البخاري مع الفتح ١٣ / ٤٨٧ ، وصحيح مسلم ٤ / ٢١٧٦ .
٢) قيل وقال : الخوض في أخبار الناس وحكايتها بعني من أحوالهم وتصرفاتهم
٣) كثرة السؤال : هو التنطع في المسائل والإكثار من السؤال عما لم يقع ، وقيل المراد به سؤال الناس أموالهم .
٤) رواه مسلم في صحيحه ٤ / ٣٤٠ .
٥) أنظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٢ / ١٠ .

إزاء صفات الله - تعالى - التي أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم بدون تعطيل ولا تأويل ، كما أن الحديث تضمن الرد على القدرية الجبرية الذين يزعمون أن كل ما في الكون محبوب لله حتى المعاصي - تعالى عن ذلك وتقدس - فقد بين الحديث أنه - سبحانه - يكره القيل والقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال .

ومن حديث أنس رضي الله عنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا يدعو على رعل (١) وذكوان (٢) وعصية (٣) عصت الله ورسوله قال أنس : أنزل الله - عز وجل - في الذين قتلوا ببئر معونة قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه " (٤) .

ففي الحديث دلالة صريحة واضحة على إثبات صفة الرضا - للرب جل وعلا - حيث أكرم الله - عز وجل - تلك الفئة المؤمنة من شهداء بئر معونة برضاه الذي هو أعظم من كل نعيم ورضوا بما أكرمهم الله - تعالى - به من دخول الجنة التي فيها ما عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وما ينبغي أن يعلم أن السلف الصالح كانوا يطلقون الصفات الخبرية على الله بدون توقف ، ولكن الأمر انعكس اليوم فأصبح كثير من أتباع العقيدة الأشعرية الكلابية يتوقفون من إطلاق الكثير من الصفات الخبرية على الله - تعالى - إلا بنية تأويلها وتفسيرها بلا زمها .

فمذهب السلف الصالح الذي هو الطريق السوي هو التسليم بما جاء في الكتاب والسنة ، ولا يتجاوزونها فالله يرضى ويغضب ويحب ويفرح كما أخبر بذلك عن نفسه وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

١) رعل : قبيلة من سليم من منصور من العدنانية تنتسب الى رعل بن عوف بن مالك الفتح ٧ / ٣٧٩ .

٢) ذكوان : قبيلة من بني سليم بن منصور من قيس بن عيلان من العدنانية أنظر تاريخ ابن خلدون ٢ / ٣٠٧ .

٣) عصية : بطن من بلى من قضاعة من القحطانية . انظر نهاية الارب للنويري ٢ / ٢٩٦ .

٤) رواه مسلم في صحيحه ١ / ٤٦٨ .

احتجاج أبي علي الجبائي المعتزلي بالآية التي صدرنا بها هذا المبحث وهي قوله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) على أن العبد يخلق أفعاله ، وقال : لو أن الله خلق الكفر لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه ولو كان الكفر بقضاء الله - تعالى - لوجب على الخلق أن يرضوا بذلك لأن الرضا بقضاء الله واجب ، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله ، وليس أيضا برضاء الله "(١) .

وهذا الزعم يرد عليه من وجوه ثلاثة :-

الوجه الأول : يقال له : اختلف أهل التفسير في هذه الآية على قولين :

(١) ذهب حبر الأمة عبد الله بن عباس والسدي (٢) إلى أن معنى قوله - تعالى - (ولا يرضى لعباده الكفر) خاص بعباده المؤمنين الذين أخلصهم لعبادته وطاعته .

(٢) وذهب آخرون إلى أن ذلك عام لجميع الناس وعلى هذا يكون المعنى أيها الناس إن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لكم أن تكفروا به(٣) .

الوجه الثاني : يقال له :

إن زعمك أن الرضاء بالقضاء واجب ففيه تفصيل عند العلماء حيث أن أقسام الرضاء ثلاثة :-

الرضاء بالله ، والرضاء عن الله ، والرضاء بقضاء الله .

فالرضاء بالله فرض ، والرضا عنه إن كان من أجل الأمور وأشرفها فلم يطالب به العموم لعجزهم عنه ومشقتهم عنه ، وأوجبه بعضهم وأما الرضاء بكل مقتضى فلا يجب بل المقضي ينقسم إلى ما يجب الرضاء به وهو الديني الشرعي ، ومقضى كوني قدري ، فإن كان فقرا

---

١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/٢٤٦ .

٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي أبو محمد الكوفي صدوق يهم . ورمي بالتشيع توفي سنة سبع وعشرين ومائة هجرية" تهذيب التهذيب "١/٣١٣-٣١٤ .

٣) جامع البيان ٢٦/٢٤٦ .

أو مرضا ونحو ذلك استحب الرضاء به ولم يجب ، وأوجبه بعضهم وإن كان كفرا ، أو معصية حرم الرضاء به ، فإن الرضاء به مخالفة لله ـ تعالى ـ فإنه ـ سبحانه ـ لا يرضى لعباده الكفر ، وأما القضاء الذى هو صفة الله وفعله فالرضا به واجب " أ.هـ (١)

الوجه الثالث :

يقال له : إن الإرادة في كتاب الله نوعان :

(١) إرادة قدرية كونية .

(٢) إرادة شرعية دينية .

فالشرعية المتضمنة للمحبة والرضا والقدرية الكونية هى : الشاملة لجميع الموجودات فما شاءه ـ سبحانه ـ كان وما لم يشأه لم يكن مثال الإرادة القدرية الكونية قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل ضيقا حرجا) (٢)

وقوله تعالى حكاية عن نبيه هود عليه السلام (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) (٣) . فهذه الإرادة تعلقت بالإضلال والإغواء .

ومثال الإرادة الشرعية الدينية الأمرية قوله تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) (٤) .

وقوله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) (٥) .

فالأمر الشرعى إنما تلازمه الإرادة الشرعية الدينية ولا تلازم بينه وبين الإرادة الكونية القدرية (٦) .

فالله تعالى أمر الكافر بالإيمان وأراده منه شرعا ودينا ، ولم يرده منه كونا وقدرا ولو أراده كونا لحصل ذلك ، لأن الإرادة الكونية القدرية لا يتخلف عنها المراد بخلاف

---

١) منهاج السنة ٢ / ٤٠-٤١ ، مدارج السالكين ١ / ٢٥٦ مع التصرف اليسير .
٢) سورة الأنعام آية : ١٢٥ . (٣) سورة هود آية : ٣٤ .
٤) سورة النساء آية : ٢٦ . (٥) سورة المائدة آية : ٦ .
٦) أنظر مختصر منهاج السنة ص ١٢١ ، شفاء العليل ص ٢٨٠-٢٨١ ، شرح الطحاوية ص ١١٦-١١٧ .

الإرادة الشرعية قد يتخلف المراد بها .

ولما اعترض المعتزلة وقالوا : ما الفائدة من أمر الله بالشيء وهو لا يريد وقوعه ؟ يجاب بأن الفائدة في ذلك ابتلاء الخلق وليتميز المطيع من غيره ولذلك أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بذبح ولده مع أنه - تعالى - لم يرد وقوع ذبحه كونا وقدرا ، وقد أبان الله - تعالى - أن الحكمة في ذلك ابتلاء ابراهيم عليه السلام حيث قال تعالى (ان هذا لهو البلاء المبين) (١) وبهذا يبطل قول القدرية المعتزلة أنه لا يكون أمرا إلا بإرادة وقوعه ، وقولهم هذا الفاسد هو الذي جرهم إلى القول بأن معصية العاصي ليست بمشيئة الله - تعالى - لأنه أمر بتركها ولم يرد إلا التزام الذي أمر به لأن الأمر لا يكون أمرا إلا بالإرادة فيترتب على قولهم نسبة العجز إلى الله واستقلال العبد بالفعل دون الله - تعالى - والله منزه من قولهم تنزيها يليق بجلاله "(٢) .

قال الطحاوي رحمه الله تعالى : ج" ولا يفعل إلا ما يريد "

قال الشارح : حول هذه العبارة : " هذا رد لقول القدرية المعتزلة فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر وقولهم فاسد مردود لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح ..... إلى أن قال ، وأما أهل السنة فيقولون : إن الله وإن كان يريد المعاصي قدرا فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها وهذا قول السلف قاطبة فيقولون ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن " أ.هـ (٣) .

والحاصل ما تقدم في هذا المبحث أن صفة الرضا من الصفات التي أثبتها الله لنفسه في محكم كتابه ، وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته المطهرة ، وأثبتها له سلف هذه الأمة حيث آمنوا بما جاء به الكتاب والسنة ، ولم يتجاوزوها إلى غيرهما

---

١) سورة الصافات آية : ١٠٦ .

٢) أنظر مذكرة أصول الفقه للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص ١٩٠ - ١٩١ .

٣) شرح الطحاوية ص ١١٦ .

اثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل ،أما الذين يفرقون بين صفات الله ويقولون صفة الرضا ، والمحبة ، والغضب ، والكراهة بالإرادة فهذا من تصرفات البشر الخاطئة التي مضمونها التفريق بين ما ورد به السمع . ، ولو قيل لهم : لم فرقتم صفة الرضا والمحبة والغضب وأثبتم الإرادة ؟ لقالوا : إن اثباتها فيه تشبيه للخالق بالمخلوق لأن الغضب غليان دم القلب لقصد الإنتقام ، والرحمة رقة تلحق المخلوق والرب منزه عن ذلك .

والرد على هذا يقال لهم : وكذلك الإرادة ؛ ميل الإنسان إلى ما ينفعه ودفع ما يضره ، والله منزه عن ذلك ، فيضطرون إلى القول بأن للإنسان إرادة تليق به ، وللرب إرادة تليق به ، ومن خلال قولهم هذا يلزمهم بأن يقولوا كذلك : في بقية الصفات من الرضا والمحبة والرحمة والغضب والكراهة ، وإن لم يقولوا بهذا فإنهم وقعوا في التفريق بين صفات الله - تعالى - وليس في العقل ولا في السمع ما يدل على التفريق فلا يحل أن يثبت له بعض الصفات - سبحانه - وينفى عنه البعض الآخر(١) مما أثبته لنفسه .

---

١) الرسالة التدمرية مع شرحها التحفة المهدية : ١/٤٦-٤٧ .

المبحث الحادى عشر

إثبات صفة العلـــم

لقد دلت السورة على إثبات صفة العلم لله - عز وجل - في ثلاث آيات منها :

قال تعالى : (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور)

وقال تعالى : (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكـــم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) .

وقال تعالى : (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

فالآية الأولى : من هذه الآيات الثلاث تضمنت اسمه - تعالى - " العليم " الدال على صفة العلم لله - تعالى - التي بها يدرك جميع المعلومات على ما هي عليه ، فـــلا يخفى عليه منها شيء فقد بين الله - تعالى - بقوله (إنه عليم بذات الصدور) أنـــه لا يخفى عليه ما أضمرته صدور عباده مما لا تدركه أعينهم فكيف بما تدركه العيون وتراه الأبصار .

وأما الآية الثانية : (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة)

ففيها الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس إن الله خالق السموات والأرض ، وأنه يعلم الغيب الذي لا تراه الأبصار ، ولا تحسه العيون ، كما يعلم الشهادة الذي تشهده أبصار الخلق وتراه عيونهم .

وأما الآية الثالثة : (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) فقد أخبر الله - تعالى فيها أنه أعلم بما يفعله العباد في الدنيا من الطاعات أو المعاصي ، ولا يعزب عنه علم شيء من ذلك وسيجازيهم على ذلك يوم القيامة فيثيب المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء على إساءته .

فالآيات الثلاث المتقدمة دلت على أنه - تعالى - عالم - بعلم ، وأن علمه محيـــط بكل الأشياء الشاهدة والغائبة من الكليات والجزئيات وعلمه - تعالى - من صفاتـــه الذاتية وهو أزلي بأزليته فقد علم - تعالى - في الأزل جميع ما هو خالق ، كما علـــم جميع أحوال خلقه وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وشقاوتهم وسعادتهم ومن هو منهم مـــن

أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار ، وعلم - تعالى - عدد أنفاسهم ، وخطاتهم وجميع حركاتهم وسكناتهم أين تقع ؟ ومتى تقع ؟ كل ذلك بعلمه ويجمرأى منه ومسمع لا يخفى عليه منهم خافية سواء في علمه الغيب والشهادة والسر والجهر، والجليل والحقير ،لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فله - تعالى - العلم المطلق بجميع الأشياء جملة وتفصيلا ، وقد جاءت في كتاب الله - تعالى - آيات كثيرة دلت على شمول علم الله وإحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه .

قال تعالى : (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) (١) .

فهذه الآية بينت بأنه - تعالى - يعلم ما يدخل في الأرض من الحب والبذور والمياه والحشرات والمعادن ، وما يخرج منها من الزرع والأشجار والعيون الجارية والمعادن النافعة ، ويعلم كذلك ما ينزل من السماء من الثلوج والأمطار والصواعق والملائكة كما يعلم ما يصعد فيها من الملائكة والأعمال والطير الصواف إلى غير ذلك مما يعلمه العليم - جل شأنه - .

وقال تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (٢) .

وهذه الآية أخبر - تعالى - فيها بأن عنده مفاتح الغيب وأنه لا يعلمها إلا هو

ومفاتح الغيب :-

قيل: خزائنه ، وقيل: طرقه وأسبابه التي يتوصل بها إليه وهي جمع مفتح بكسر الميم أو مفتاح بحذف ياء مفاعيل "(٣) .

---

١) سورة الحديد آية : ٤ .

٢) سورة الأنعام آية : ٥٩ .

٣) فتح القدير ٢ / ١٢٣ .

وقد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا قوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) (١) .

فالآية الأولى : وهي قوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية دلت على أنه - تعالى - لا يخفى عليه شيء في هذا الكون ودلت على وصول علمه إلى كل ما خفي ودق من الحسيات والمعنويات حيث بينت أنه - تعالى - يعلم سقوط الورقة من الشجرة وكم من أشجار على الأرض ؟ وكم في كل شجرة من الورق ؟ فما من شجرة أو ورقة إلا وهي في الكتاب المبين .

كما أوضحت أنه يعلم الرطب واليابس فدلت على إحاطة علم الله - تعالى - بهذا الكون إذ الكون إما رطب أو يابس - فسبحان من هو عالم الغيب والشهادة .

وقال تعالى (إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) (٢) .

وقال تعالى : (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) (٣)

وهاتان الآيتان أيضا : فيهما الإخبار بإحاطة علم الله بحمل كل أنثى ووضعها متى تضع وكيف تضع كما أخبر بعموم قدرته وتعلقها بكل شيء وأن علمه محيط بجميع الكائنات .

وقال تعالى : (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون (٤)

وقال تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) (٥) .

وقال تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (٦) .

والآيات الواردة في كتاب الله الدالة على أن الله - تعالى - متصف بصفة العلم ما لا يكاد

---

١) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما صحيح البخاري ١ / ١٩ صحيح مسلم ١ / ٣٩ . والآية رقم (٣٤) من سورة لقمان .
٢) سورة فصلت آية : ٤٧ . (٣) سورة الطلاق آية : ١٢ .
٤) سورة النساء آية : ١٦٦ . (٥) سورة غافر آية : ١٩ .
٦) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

وأما الفلاسفة : الذين يلقبون بالحكماء فقد أنكروا علمه تعالى بالجزئيات وزعموا أنه - تعالى - يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت (١) وحقيقة هذا القول أنه - تعالى - لا يعلم شيئاً إذ كل ما في الخارج هو جزئي والأحرى أنهم يلقبون بالجهلاء لا بالحكماء ومذهبهم ظاهر الفساد لبعده عما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أنه - تعالى - قد أحاط علمه بالكليات والجزئيات ولا يخفى عليه شيء .

قال السفاريني (٢) رحمه الله - تعالى - " يجب الجزم بأنه - تعالى - عالم بعلم واحد وجودي قديم باق ذاتي تنكشف به المعلومات عند تعلقه بها ، وإنما قلنا : بأن علمه ذاتي كسائر صفاته - تعالى - للرد على الحكماء القائلين بنفي الصفات وإثبات غاياتها وللرد على المعتزلة القائلين بأنه يعلم بالذات لا بصفة زائدة عليها ، والدليل على أن صفاته زائدة على ذاته ورود النصوص بأنه - تعالى عالم ، وحي وقادر ونحوها ، وكونه عالماً يعلل بقيام العلم به في الشاهد فكذلك في الغائب وقس عليه سائر الصفات "(٣) أ.هـ

وأما الغلاة من القدرية : " فقد أنكروا علمه - تعالى - بأفعال خلقه حتى يعملوها "(٤) توهماً منهم أن علمه - تعالى - بأفعال خلقه يفضي إلى الجبر وقولهم هذا معلوم البطلان بالضرورة في جميع الأديان .

قال العلامة ابن القيم في ذكره لمراتب القدر : " فأما المرتبة الأولى : وهي العلم السابق فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم ، واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة وخالفهم مجوس الأمة " أ.هـ (٥) .

وقد دلت السنة والعقل على أن صفة العلم من الصفات الذاتية الثابتة لله - عز وجل -

فقد روى البخاري : في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّم أصحابه الإستخارة في الأمور كلها كما يعلم السورة

---

١) الاشارات لابن سينا ٢ / ٨٤ وما بعدها ، وانظر مجموعة الرسائل والمسائل ٤/٣٦٣ ولوامع الانوار ١ / ١٥٩ .
٢) هو : محمد بن أحمد بن سالم السفاريني شمس الدين أبو العون : عالم بالحديث والأصول والادب ولد سنة أربع عشرة ومائة وألف وتوفي سنة ثمان وثمانين ومائة وألف هجرية . أنظر ترجمته في " الأعلام للزركلي ٦ / ٢٤٠ .
٣) لوامع الأنوار ١ / ١٤٥-١٤٦ .
٤) التبصير في الدين ص ١٠٨ ، الرد على الجهمية للدارمي ص ٦٨-٦٩ .
٥) شفاء العليل ص ٢٩ .

من القرآن يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . . . . الحديث (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت منهم وهو صغير قال : الله أعلم بما كانوا عاملين " (٢) .

" ومعنى الحديث : الله أعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا " أ.هـ (٣) .

والأحاديث الواردة في إثبات صفة العلم كثير جدا لو تتبعت وجمعت لتكون منها مصنف كبير .

وأما الدليل العقلي على علمه - تعالى - فمن وجوه :-

أولاً : أنه يستحيل إيجاده الأشياء بغير علم سابق قال - جل شأنه - (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (٤) .

ثانيا : إن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير علم .

ثالثا : إن في المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال ، فلو لم يكن الله عالما لكان في المخلوقات من هو أكمل منه ، وكل علم في المخلوق إنما استفاده من خالقه ، وواهب الكمال أحق به ، وفاقد الشيء لا يعطيه " (٥) .

---

١) ١/٢٠٢ .

٢) صحيح البخاري مع الفتح ١١/٤٩٣ وصحيح مسلم ٤/٢٠٤٨ وكلاهما من حديث أبي هريرة .

٣) شفاء العليل ص ٣٠ .

٤) سورة الملك آية : ١٤ .

٥) شرح العقيدة الأصفانية ص ٢٤-٢٥ ، وانظر لوامع الأنوار ١/١٤٨-١٤٩ .

وما قدمناه من الآيات القرآنية ، وبعض الأحاديث النبوية والأدلة العقلية كلها نصوص قطعية صريحة في إثبات صفة العلم لله - تعالى - وكلها تشهد ببطلان مذاهب أهل الأهواء في صفة العلم من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة الذين ينفون هذه الصفة وغيرها من صفات الله - جل وعلا - وهي - أي تلك الأدلة - صفعة على رؤوس الجهمية الذين يجحدون علم الله السابق بخلقه ، ويزعمون أن علمه بأفعال عباده قبل كونها يفضي إلى الجبر وهذا من علامة زيغ القلوب والعياذ بالله إذ العلم صفة كاشفة تكشف الأشياء على ما هي عليه - فالباري سبحانه - يعلم أزلا ما يكون من عبده المختار من السعادة والشقاوة وما يحصل له من الغنى والفقر ، ومن ناحية تحديد عمره وانقضاء أجله ثم كتب ما يعلمه في اللوح المحفوظ فهو كتب - سبحانه - لا ليجبر أحدا من عباده على حسب ما كتب بل كتب - سبحانه - لأنه علم في الأزل ما يكون من العبد بمحض اختياره وإرادته ، فعلمه - تعالى - صفة انكشاف للماضي والحاضر والمستقبل وهو معنى قول أهل العلم عَلِم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لم يكن أن لو كان كيف كان يكون .

والذي نستفيد من هذه التعاريف اللغوية لاسم الله - تعالى - "الوكيل" أنه من توكل إليه علمه وقدرته وحكمته أمور الخلق وشئونهم التي يعجزون عن القيام بها بأنفسهم على الرغم مما قد منحوا به من قوى محدودة الأثر، فالله - تعالى - يتوكل لهم بها ويتولاها وقد وكل - سبحانه - إلى نفسه أمر الخلق فخلق السموات والأرض وما بينهما بالحق وتكفل بذلك فأوجده على أبدع نظام وأحسن إتقان، وتكفل بما يحتاجه خلقه من المصالح التي لا طاقة لهم بالعيش إلا بوجودها وقد سبقت إرادته - سبحانه - بأنه يخلق على هذه الأرض كائنات حية لا تعيش إلا بالماء والهواء فتوكل لها من قبل أن يخلقها، بالهواء والماء كما أنه - سبحانه - توكل بجعل أجهزة محكمة للأجسام الحية وجعل كل جهاز يؤدي وظيفة خاصة ليحفظ بذلك حياة الإنسان، وتوكل - سبحانه - بالرزق للأحياء جميعا من العاقل وغير العاقل، من المؤمن والكافر كما توكل بحفظ حياتهم ولو وكلهم إلى أنفسهم طرفة عين لهلكوا ولقد يغفل الناس عن هذه الحقيقة ويسيرون في هذه الحياة والغفلة تغشاهم حتى إذا ما نزل بهم الله الضر استيقظوا من غفلتهم تلك ورجعوا إلى ربهم "الوكيل" يكلون إلى قدرته ورحمته وحكمته ما عجزوا عنه من دفع البلاء عن أنفسهم.

قال تعالى: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين (١).

وما الدعاء المذكور، والمنوه عنه في هذه الآية إلا ثمرة اليقين بأن لهم ربا قادرا رحيما يكلون إليه كل ما عجزوا عن تدبيره بأنفسهم ويتوكلون عليه فيما أعجزهم أمره وأعيتهم الحيلة فيه، والإنسان مهما أوتي من القوة والعقل والذكاء والفطنة، فإنه عاجز عن إدراك ما يخفى عليه من أمور الغيب التي استأثر الله بعلمها لا يدري كيف يقدر الله الأرزاق ولا كيف يسوق الخير ولا كيف يدفع الشر.

ولقد منح الله - تعالى - الإنسان من القوى ما يستطيع به أن يدبر الأمور الظاهرة التي تبلغها مداركه وتنالها قوته أما ما وراء ذلك مما لا تناله قوى البشر، ولا تصل إليه مداركهم فعليهم أن يكلوه إلى "الوكيل - سبحانه -".

---

١) سورة لقمان آية: ٣٢

ولذلك وجه الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يتخذه وكيلا يتوكل له بين أمور الرسالة وهداية الناس ودفع أذاهم عنه ، ونشر الدعوة وإزالة العوائق من طريقها بما يعجز عنه صلى الله عليه وسلم بقوة البشرية التي منحه الله إياها .

قال - تعالى - (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) (٢) .

ولما أكثر المنافقون من الدس ، والكيد والرياء أمره الوكيل - سبحانه أن يتوكل عليه ليكفيه أمرهم ويدفع عنه أذاهم وكل ما لا يقدر على دفعه بنفسه .

قال تعالى (ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) (٢)

ولما حاول الكافرون فتنة الرسول صلى الله عليه وسلم عن بعض ما أنزل الله إليه وساعدهم المنافقون على ذلك وأرادوا أن يخدعوه بقولهم إنه لو أجابهم إلى بعض ما يطلبون لآمنوا به واتبعوه نهاه "الوكيل" - سبحانه - وهو العليم بنياتهم الخبير ببواطن أمورهم - أمره باتباع الوحي الذي أنزل عليه وأن يتوكل عليه ليكفيه أمر فتنتهم ويبصره بما خفي من أمورهم العدوانية .

قال تعالى (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) (٣) .

ولقد أخبرنا الله - تعالى - في كتابه الكريم أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حين أخبرهم المنافقون بأن الكفار يجمعون لهم الناس ليحاربوهم ولينكلوا بهم لم يبالوا ولم يكترثوا بل ازدادوا إيمانا على إيمانهم بأن الله ناصرهم ومؤيدهم على طاغوت الكفر ، وأيقنوا بأنهم منتصرون على عدوهم ويفوزون عليه لأنهم قد اتخذوا الله وكيلا

---

١) سورة المزمل آية : ٩ .
(٢) سورة النساء آية : ٨١ .
٣) سورة الأحزاب : آية : ١-٣ .

يتولى شئونهم ويدبر أمر انتصارهم على كل من ناوأهموناوأ العقيدة الإسلامية التي هي دين الله لا يرتضي دينا سواه قال تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (١) .

ومعنى الآية :" أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك ولا التفتوا إليه بل أخلصوا لله وازدادوا طمأنينة ويقينا وفيه دليل على أن الإيمان يزيد وينقص وقوله (حسبنا الله ونعم الوكيل) حسب مصدر حسبه : أي كفاه وهو بمعنى الفاعل أى : محسب بمعنى كافي " أ.هـ (٢) .

وقال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدى : عند قوله ـ تعالى ـ

(الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) .

" والشاهد من هذا أن الله ـ تعالى ـ أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي ، وأنه على كل شيء وكيل والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلا عليه وإحاطته بتفاصيلة ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه ليتمكن من التصرف فيه ومن حفظ لما هو وكيل عليه ومن حكمة ومعرفة بوجوه التصرفات ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله ، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها ، ومن المعلوم المتقرر أن الله ـ تعالى ـ منزه عن كل نقص في أى صفة من صفاته ، فإخباره بأنه على كل شيء وكيل يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء وكمال قدرته على تدبيرها وكمال تدبيره ، وكمال حكمته التي يصنع بها الأشياء مواضعها" أ.هـ (٣)

لا اله الا هو فاعبدوه

وقال تعالى : (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) (٤) .

ففي هذه الآية الكريمة إخبار من الله ـ جل وعلا ـ بأنه الإله الحق وحده لا شريك له وهو الذي خلق كل شيء وهو الوكيل على كل شيء والوكيل كما تقدم هو من توكل

---

١) سورة آل عمران آية : ١٧٣ . (٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦١ .

٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٧ / ٤٢ .

٤) سورة الأنعام آية : ١٠٢ .

إليه الأمور فنعم الموكول إليه أمرنا وهو الذي يستحق أن يعبد ويقر له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو وأنه لا ولد له ، ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل (وهو على كل شيء وكيل) بمعنى حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار .

وقد بين موسى عليه الصلاة والسلام أن الله شهيد وحفيظ فلا يستطيع أحد أن يعمل عملا سرا سواء كان ذلك العمل صالحا أو سيئا إلا والله رقيب وشهيد عليه .

قال تعالى حاكيا عنه ذلك بشأن العقد الذي أبرم بينه وبين صهره على رعي غنمه ثماني حجج قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل) (١) .

فهو - سبحانه - الموكل بالعدل بين المتعاقدين الشهيد عليهما والعليم بعقدهما وما اتفق عليه بينهما ،

فهذه الآيات التي قدمنا ذكرها كلها تدل دلالة صريحة واضحة على أن الله - تعالى - هو الحفيظ لعباده يكلؤهم بحفظه آناء الليل وأطراف النهار، كما دلت على أنه رقيب وشهيد على أعمال عباده لا يخفى عليه من عملهم شيء فعلى العباد أن يتنبهوا لهذا ويفهموه علّهم يبتعدون عما يقربهم من سخط الله - تعالى - وغضبه ويفزعون إلى يقربهم من رضوان الله ورحمته .

وبعد أن أوردنا الكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي أثبت اسمه - تعالى - " الوكيل " وبينا أنها دلت على إثبات ذلك الإسم والصفة التي تضمنها صراحة لا تقبل المراء ولا الجدال لوضوح النصوص في ذلك من الكتاب والسنة ، ورغم كثرة النصوص الواردة من قرآن وسنة في إثبات اسمه - تعالى - " الوكيل فإنه قد وجد من أهل البدع من منع إطلاقه على الله - تعالى - .

---

١) سورة القصص آية : ٢٨ .

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله - تعالى -

" واختلفت المعتزلة في " البارى " هل يقال إنه وكيل وإنه لطيف ؟ على مقالتين :

(١) فمنهم من زعم أن البارئ لا يقال : إنه وكيل وأنكر قائل هذا القول أن يقول (حسبنا الله ونعم الوكيل) (١) من غير أن يقرأ القرآن وأنكر أيضا : أن يقال " لطيف " دون أ (يوصل ذلك فيقال : لطيف بالعباد والقائل بهذا القول " عباد بن سليمان ".

(٢) ومنهم من أطلق " وكيل " وأطلق " لطيف " وإن لم يقيد " أ .هـ (٢) .

ونقول : للجهمية والمعتزلة إن اسمه - تعالى - " الوكيل " وما دل عليه من صفة للبارى - جل وعلا - فإنه قد ثبت ذلك بالكتاب والسنة وإجماع السلف من هذه الأمة وقد أطلق الله على نفسه اسمه " الوكيل " في محكم كتابه في مواضع كثيرة من كتابه وقد قدمنا طرفا منها ، كما أطلقه عليه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في سنته المطهرة ولا يجوز القول بأن هذا الإسم لا يطلق على الله إلا عند قراءة القرآن فهذا الإسم يطلق على الله دون تقييد .

روى البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين (قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (٣) .

وروى البخارى أيضا : عن ابن عباس قال : " كان آخر قول إبراهيم حين ألقى فى النار " حسبي الله ونعم الوكيل (٤) .

---

١) جزء من الآية رقم (١٧٣) من سورة آل عمران .

٢) مقالات الإسلاميين ١ / ٢٧١-٢٧٢ .

٣) صحيح البخارى ٣ / ١١٤ .

٤) المصدر السابق ورواه أحمد فى مسنده ٦ / ٨٣ ، ٢١٧ .

فيقال للمعتزلة إن الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك إبراهيم الخليل أطلقا اسم (الوكيل) على الله - سبحانه وتعالى - فإبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام كان آخر قوله حين ألقي في النار " حسبي الله ونعم الوكيل" والرسول صلى الله عليه وسلم قالها عندما أرسل أبو سفيان ناسا فأخبروا النبي صلى الله عليه وسلم أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل " ولم يقل : لا يطلق اسم الوكيل على الله إلا في القرآن كما قال بذلك بعض المعتزلة ولكن الآراء التي تصدر عن هوى وعن العقل السقيم غالبا ما تلقي بأصحابها في الأخطاء التي تعارض النصوص الظاهرة المشهورة نسأل الله العافية من ذلك .

المبحث الثالث عشر

إثبات صفة اليدين

لقد دلت السورة على أن لله - تعالى - يدين حقيقيتين وهما من صفات الكمال التي اتصف بها - سبحانه - وقد جاء في السورة الإشارة إلى صفة اليدين في آية واحدة منها :-

قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

هذه الآية من السورة بدأت بنعي حال المشركين الذين لم يعظموا الله حق التعظيم اللائق به - سبحانه وتعالى - حيث عبدوا معه غيره وأشركوه معه في العبادة ثم بينت بأن الأرض كلها قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، ومذهب سلفنا الصالح إثبات القبضة واليمين كما وردت بلا تكييف ، ولا تأويل ، ولا تحريف ، فيجب الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه مع القطع بأنه وصف يليق بجلاله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١) .

قال العلامة ابن كثير : " يقول تبارك وتعالى = (وما قدروا الله حق قدره) أي ما قدّر هؤلاء المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه القادر على كل شيء المالك لكل شيء وكل شيء تحت قدره وقدرته . . . . . إلى أن قال : وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف " اهـ (٢) .

---

١) سورة الشورى آية : ١١ .

٢) تفسير القرآن العظيم ٦ / ١٠٦ - ١٠٧ .

وقد روى الإمام البخاري بإسناده عند هذه الآية إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنا نجد أن الله - عز وجل - يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على أصبع ، والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيام والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (١) .

هذا الحديث قال فيه المعطلة نفاة الصفات إنه من كلام اليهودي ، وليس من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، واليهود الغالب عليهم التشبيه وقد نهينا عن تصديق أهل الكتاب ، أو تكذيبهم وضحك الرسول صلى الله عليه وسلم على مقالة الحبر إنما هو من تشبيه اليهود للخالق بالمخلوق ، وليس إقرارا له بل هو استنكار منه . (٢) .

والجواب : أما كون ذكر الأصابع في الحديث من قول الحبر لا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا صحيح كما نطق بذلك الحديث.

وأما أنه عليه الصلاة والسلام لم يتلفظ بما يؤيد قول الحبر فهذا باطل إذ الثابت عنه صلى الله عليه وسلم ما هو أبلغ من ذلك وهو أنه عليه الصلاة والسلام ظهر عليه علامة السرور بقول الحبر ، ولو كان في قوله نوع تشبيه لله - جل وعلا - بخلقه لتمعر وجهه ولغضب غضبا شديدا ، ولزجر اليهودي وبين للأمة أنه غير صادق فيما قال لأن ذلك طعن لعقيدة الإسلام في صميمها ، ولكن ضحكه صلى الله عليه وسلم دال على إقراره له ، وأن ما قاله مما يؤيده الإسلام ويقره ويقال لهؤلاء النفاة أيضا : لستم أعرف بحال الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابي الراوي لهذا الحديث.

قال ابن خزيمة رحمه الله تعالى :" . . . . . وقد أجل الله قدر نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يوصف الخالق - البارى - بحضرته ما ليس من صفاته فيسمعه فيضحك عنده ، ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكا تبدو نواجذه

---

١) صحيح البخاري ٣ / ١٨٢ .

٢) انظر " كتاب الأسماء والصفات" للبيهقي ص ٤٢٥ وما بعدها ، فتح الباري ٨/٥١٥

تصديقا وتعجبا لقائله لا يصف النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته" أ. هـ (١)

وروى مسلم في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوى الله -عز وجل- السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ،ثم يقول أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الله الأرضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ (٢)

وروى ابن خزيمة رحمه الله تعالى بإسناده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال : الحمد لله فحمد الله -عز وجل- بإذن الله -تبارك وتعالى- فقال له ربه رحمك ربك يا آدم ، وقال له يا آدم إذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم فقل السلام عليكم ،فقالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثم رجع إلى ربه -عز وجل- فقال : هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله -تبارك وتعالى- له ويداه مقبوضتان إختر أيهما شئت قال : اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته . . .الحديث(٣) .

هذا الحديث والذي قبله قد يتوهم بعض الناس أن بينهما تعارضا حيث أن الأول ورد فيه ذكر الشمال ، وهذا ينص على أن كلتا يديه -سبحانه- يمين

وقال ابن خزيمة : " باب ذكر سنة ثامنة تبين وتوضح أن لخالقنا -جل وعلا- يدين كلتاهما يمينان لا يسار لخالقنا -عز وجل- إذ اليسار من صفة المخلوقين " (٤)

والجواب : أنه لا تعارض بين الحديثين فعندما نقول : إن كلتا يديه -سبحانه- يمينان مع ورود الحديث الصحيح لابن عمر الذي جاء فيه ذكر الشمال لا يلزم منه أن اليمين أكمل من الشمال كما هو شأن يدي المخلوق ، فالله -جل وعلا- له الكمال المطلق وليس للإنسان من الكمال إلا ما منحه إياه خالقه ، وبارئه فلا يترتب على قول العلماء

---

١) "كتاب التوحيد" ص ٧٦ .
٢) ٤/ ٢١٤٨ .
٣) كتاب التوحيد ص ٦٧ .
٤) المصدر السابق ص ٦٦-٦٧ .

كلتا يدي ربنا يمينان استنقاص لشأنه - سبحانه - فهو - تعالى - منزه ومقدس له المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " (١) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصدق أحد بصدقة من طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه ، أو فصيله (٢) .

وعلى هذا نقول : إن ورود ذكر اليمين والقبضة في الآية ، وذكر اليد والكف والأصابع في الأحاديث التي سقناها بعدها زيادة لتوضيح معناها كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن - للباري سبحانه - يدين حقيقتين ليستا مجازا في النعمة والقدرة (٣) (٤) كما ادعى ذلك الجهمية والمعطلة ، وصفة اليدين من الصفات الذاتية التي لا تنفك عن الله - تعالى - فيجب الإيمان بها وإثباتها حقيقة على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

وقد بين - تعالى - في مواضع من كتابه أن له يدين خلق بهما آدم وأنهما مبسوطتان بالإنفاق وأن يده فوق أيدي المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) (٥) فهذه الآية بين - تعالى - فيها أنه قرّع إبليس ووبخه حين منعه الكبر عن أن يسجد لآدم الذي خلقه الله بيديه .

وقال تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) (٦) .

---

١) أنظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٤٢ .
٢) ٤ / ٢٧٩ .
٣) انظر شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص ٢٢٨ .
٤) أنظر أصول الدين لعبد القاهر بن طاهر البغدادي ص ١١١ .
٥) سورة (ص) آية ٧٥ .
٦) سورة المائدة آية : ٦٤ .

وهذه الآية إخبار من المولى - جل شأنه - أن اليهود وصفوه - تعالى - بالبخل حيث قالوا : (يد الله مغلولة) فأكذبهم الله ولعنهم على مقالتهم التي تنبئ عما هو متمكن في نفوسهم من الشح عن الإنفاق في وجوه الخير ، أما يداه - سبحانه - فهما مبسوطتان بالإنفاق على عباده كيف يشاء ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يمين الله ملأى لا يغيضها سحاء (١) الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه قال : " وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض " (٢) .

وقال تعالى : (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) (٣)

وهذه الآية صرحت بأن الله يدا تكون فوق أيدى المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : عند قوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) (٤) .

" إن لفظ اليد جاء فى القرآن على ثلاثة أنواع : مفردا ، ومثنى ، ومجموعا .

فالمفرد كقوله تعالى (بيده الملك) (٥) .

والمثنى كقوله تعالى : (خلقت بيدى) .

والمجموع كقوله تعالى (عملت أيدينا) (٦) فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدي الفعل بالباء إليها وقال (خلقت بيديَّ) ، وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها ولم يعد الفعل بالباء ، فهذه ثلاثة فروق فلا يحتمل (خلقت بيديَّ) من المجاز ما يحتمله (عملت أيدينا) فإن كل أحد يفهم من قوله (عملت أيدينا) ما يفهمه من قوله عملنا وخلقنا كما يفهم ذلك من قوله (فما كسبت أيديكم) (٧) وأما قوله (خلقت بيديَّ) فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء ؟

---

١) سحاء : أى دائمة الصب والهطل بالعطاء النهاية ٢ / ٣٤٥ .
٢) ٢ / ٦٩١ .
٣) سورة الفتح آية : ١٠
٤) سورة " ص " آية : ٧٥
٥) سورة الملك آية : ١
٦) سورة " يس " آية : ٧١
٧) سورة الشورى آية : ٣٠

فكيف إذا ثنيت ، وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد والمراد الإضافة إليه كقوله (بما قدمت يداك) (١) و(بما كسبت أيديكم) . وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدي بالباء إلى اليد مفردة فهو مما باشرته يده ولهذا قال عبدالله بن عمر: "إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثا خلق آدم بيده ، وغرس جنة الفردوس بيده ، وكتب التوراة بيده " (٢) فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة " أ . هـ (٣) .

فابن القيم رحمه الله تعالى أراد بهذا البيان الرد على النفاة الذين يقولون : اذا قلنا : إن اليد تقتضي قوله تعالى (مما عملت أيدينا) (٤) صفة تكون قد أثبتنا أيدي كثيرة ، وأننا نقول : بإشراك غير آدم مع آدم في الخاصية وهي أن الله خلقه بيديه كما قال تعالى (لما خلقت بيدى) (٥) فيرد عليهم بأن بين الآيتين فرقا من وجهين :

الوجه الأول : أنه أضاف الفعل إليه في قوله (خلقت بيديّ) وبين أنه خلق آدم بيديه ، وهناك أضاف الفعل إلى الأيدى .

الوجه الثاني : أن العرب يضعون اسم الجمع موضع التثنية إذا أمن اللبس كقوله تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما (٦) أى : يديهما ، وقوله تعالى (فقد صغت قلوبكما) (٧) أى قلبا كما فكذلك قوله تعالى (مما عملت أيدينا) (٨)

قال أبو الحسن الأشعرى : " فإن قال قائل إذا ذكر الله الأيدي وأراد يدين فما أنكرتم أن يذكر الأيدى ويريد يدا واحدة ؟ قيل له ذكر الله -عز وجل- أيدى وأراد يدين لأنهم أجمعوا على بطلان قول من قال أيدي كثيرة ، وقول من قال يدا واحدة فقلنا : " يدان" لأن القرآن على ظاهره إلا أن تقوم حجة بأن يكون على

١) سورة الحج آية : ١٠
٢) أنظر جامع البيان للطبرى ٢٣ / ١٨٥ .
٣) مختصر الصواعق المرسلة ١ / ٣٨ .
٤) سورة " يس" آية : ٧١ (٥) سورة "ص" آية ٧٥ .
٦) سورة المائدة آية : ٣٨ (٧) سورة التحريم آية ٤ .
٨) مجموع الفتاوى ٦ / ٣٧ والآية رقم (٧١) من سورة " يس" .

على خلاف الظاهر" أ.هـ (١) .

والذي يفهم من هذا أن الله تعالى يذكر نفسه تارة بصيغة المفرد مظهرا أو مضمرا وتارة أخر يذكر نفسه بصيغة الجمع كقوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) (٢) وأمثال ذلك ولا يذكر نفسه بصيغة التثنية قط لأنها تدل على العدد المحصور وهو - سبحانه - منزه عن ذلك " (٣) .

وبهذا تبطل شبهة المعطلين القائلين إن اليد قد أفردت في بعض الآيات وجاء بلفظ الجمع في بعضها ، فلا دليل لهم في ذلك فان ما يصنع بالإثنين قد ينسب إلى المفرد تقول : رأيت بعيني ، وسمعت بأذني ، والمقصود عيناي وأذناي وكذلك الجمع يأتي بمعنى المثنى كما قدمنا ذلك قريبا .

فكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قد دلا دلالة قاطعة على أن - للباري سبحانه وتعالى - يدين مختصتين به ذاتيتين له ، كما يليق به ، وأنه - تعالى - خلق آدم بيديه دون الملائكة وإبليس .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أحتج آدم وموسى عليهما السلام فقال موسى : لآدم يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك في الألواح بيده أتلومني على أمر قضاه الله علي قبل أن يخلقني بأربعين عاما فقال رسول الله فحج آدم موسى " (٤) .

قال ابن خزيمة : " فكليم الله موسى خاطب آدم عليهما السلام شفاها أن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه على ما هو مخطوط بين الدفتين من إعلام الله - جل وعلا - عباده المؤمنين أنه خلق آدم عليه السلام بيده (٥) .

---

١) الإبانة عن أصول الديانة ص ٣٧ .
٢) سورة الفتح آية ١ .
٣) الرسالة التدمرية مع شرحها التحفة المهدية ١ / ١٢٩ .
٤) صحيح البخاري ٤ / ٣٠٠ ، صحيح مسلم ٤ / ٢٠٤٢ .
٥) كتاب التوحيد ص ٥٥ .

وجاء في حديث الشفاعة الطويل الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يجمع المؤمنون يوم القيامة فيهتمون فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء إشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا . . . . . الحديث "١) .

فالحديث نص في إثبات اليدين حقيقة ولو كانتا بمعنى النعمة أو القدرة لقالوا : أنت أو الناس الذي خلقك الله بقدرته ، أو بنعمته .

قال ابن القيم : وهذا التخصيص إنما فهم من قوله (خلقت بيدي) (٢) فلو كان مثل قوله (مما عملت أيدينا) (٣) لكان هو والأنعام في ذلك سواء فلما فهم المسلمون أن قوله (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) (٤) يوجب له تخصيصا وتفضيلا بكونه مخلوقا باليدين على من أمر أن يسجد له وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه كانت التسوية بينه وبين قوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) (٥) خطأ محضا" أ.هـ (٦) .

ويجب على المسلم أن يسلك في صفات الله تعالى مسلك السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين ، وهو إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به نبيه من غير أعتراض فيه ولا تكييف له ، وأن الإيمان به واجب وترك التكييف له لازم" (٧) .

قال عبد الرحمن بن القاسم : " لا ينبغي لأحد أن يصف الله إلا بما وصف به نفسه في القرآن ، ولا يشبه يديه بشيء ، ولا وجهه بشيء ، ولكن يقول : له يدان كما وصف نفسه يقف عند ما وصف به نفسه في الكتاب فانه - تبارك وتعالى - لا مثيل له ولا شبيه ولكن هو الله لا إله إلا هو" أ.هـ(٨) .

---

١) صحيح البخاري ٤/٢٧٩ ، صحيح مسلم ١/١٨٠ .
٢) سورة " ص" آية : ٧٥ .
٣) سورة " يس" آية : ٧١ .
٤) سورة " ص" آية ٧٥ .
٥) سورة " يس" آية ٧١ .
٦) مختصر الصواعق ١/٣٩ ، التفسير القيم ص ٤٢٢ .
٧) رسالة أبي الحسن الأشعري الى أهل الثغر "ق" ١/١ .
٨) رسالة الإعتقاد لمحمد بن عبد الله بن أبي زمنين "ق" ٢/٢ .

وقال الترمذي رحمه الله تعالى : " في باب فضل الصدقة " قد ثبتت هذه الروايات فنؤمن بها ، ولا نتوهم ولا يقال كيف ؟ كذا جاء عن مالك وابن عيينة وابن المبارك أنهم أمروها بلا كيف وهذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وأما الجهمية ، فأنكروها وقالوا : هذا تشبيه ، وقال إسحق بن راهويه إنما يكون التشبيه لو قيل يد كيد وسمع كسمع " (١) .

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : " فما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والإعتزال ولكن يده صفته بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف " (٢) .

وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي : " وله الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم يقبض ، ويبسط ويتكلم ويرضى ويسخط ويغضب ويحب ويبغض ويكره ويضحك ويأمر وينهي ذو الوجه الكريم والسمع السميع ، والبصر البصير ، والكلام المبين ، واليدين والقبضتين والقدرة والسلطان والعظمة والعلم الأزلي لم يزل كذلك ولا يزال . . . . . استوى على عرشه فبان من خلقه لا تخفى عليه منهم خافية علمه بهم محيط ، وبصره فيهم ناقد (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٣) .

وعقد البيهقي بابا في كتابه " الإعتقاد " ذكر فيه آيات وأحاديث وردت في إثبات صفة الوجه واليدين والعين ثم قال : وهذه صفات طريق إثباتها السمع فنثبتها لورود خبر الصادق بها ولا نكيفها " (٤) .

وقال الشهرستاني : " واعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى - صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة . . . . . ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقا واحدا ، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه

---

١) عارضة الأحوذي شرح الترمذي لابن العربي ٣ / ١٦٥ .
٢) شرح الفقه الأكبر ص ٥٦-٥٨ .
٣) الرد على الجهمية ص ٤ .
٤) ص ٢٩ .

وهذا الإجماع الذي نقله ابن عبد البر عن السلف فيه رد على من يقول : أن مذهب السلف هو التفويض في صفات الله - تعالى - وأن من نسب إليهم ذلك فهو جاهل تماما لمذهب السلف في هذا الباب والصحيح أن مذهب السلف هو حمل صفات الله الواردة في القرآن والسنة على الحقيقة ولا يفوضون إلا في الكيفية فقط لأنه لا يعلم كنه ذلك إلا - هو سبحانه - ولأن ذلك مما استأثر الله بعلمه فعبارة السلف " أمروها كما جاءت"(١) لا تدل على أن مذهبهم التفويض في المعنى ، وإنما معنى هذه العبارة هو ما قررنا هنا ، والعلم لله - تعالى - .

ثم إن صفة اليد بين ضلت فيها طوائف مختلفة كالمشبهة والمعتزلة والأشعرية .

أولا المشبهة :

أما المشبهة : أتباع محمد بن كرام السجستاني فقد زعموا : أن يدي الله - تعالى - جارحتان وعضوان فيهما كفان وأصابع ككفي الإنسان وأصابعه"(٢) .

وهذا الزعم باطل شرعا وعقلا .

أما شرعا فقد قال تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٣) .

ومعنى الآية : أن الله - تعالى - لا يشبه شيئا من خلقه ، ولا يشبهه شيء من خلقه فصفات الباري - سبحانه - كلها خلاف صفات المخلوقين فهو - سبحانه - مباين لخلقه له يدان لا كأيدي المخلوقين ، وله قدرة لا كقدرة المخلوقين ، وله بصر لا كبصر المخلوقين وقال تعالى : (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) (٤) .

قال ابن كثير(٥) : (فلا تضربوا لله الأمثال) أي لا تجعلوا له أنداد وأشباها وأمثالا)

---

١) الفتوى الحموية الكبرى ص ٥١ .

٢) الفرق بين الفرق ص ٢١٥ وما بعدها ، الملل والنحل ١/١٠٥ ، ١٠٨ وما بعدها وأصول الدين للبغدادي ص ١١٠ لوامع الأنوار البهية ١/٩١ .

٣) سورة الشورى آية : ١١ . (٤) سورة النحل آية : ٧٤ .

٥) تفسير القرآن العظيم : ٢/٢١٢ .

فالمشبهة عندما يزعمون أن يدي الله كأيديهم وسمعه كسمعهم وغير ذلك فقد جعلوا لله أمثالا وأشباها - تعالى الله - عما يقولون علوا كبيرا .

وقال تعالى (هل تعلم له سميا) (١) يعني هل تعلم - للرب - مثلا أو شبيها

وقال تعالى (ولله المثل الأعلى) (٢) وهذه الآية أثبتت الكمال المطلق لله تعالى - من جميع الوجوه والمشبهة ساووه بالناقصات - تعالى - وتقدس عن قولهم علوا كبيرا .

قال نعيم بن حماد : " من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكرها فقد كفر ومن أنكرها ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه " (٣) .

وقال إسحاق بن راهويه :" من وصف الله بصفات أحد من خلقه فهو كافر بالله العظيم

وقال : علامة جهم وأصحابه دعواهم على أهل السنة والجماعة ما ألزموا به من الكذب أنهم مشبهة بل هم المعطلة ، وبهذا القول قال كثير من أئمة السلف" (٤) حتى قيل إن المشبه عابد صنم والمعطل عابد عدم . (٥) .

وأما بطلان مذهبهم عقلا :

" فإن المثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه ، فلو كان المخلوق مماثلا للخالق للزم اشتراكهما فيما يجب ، وما يجوز وما يمتنع.

والخالق يجب وجوده وقدمه ، والمخلوق يستحيل وجوب وجوده وقدمه ، بل يجب حدوثه ، وإمكانه ، فلو كانا متماثلين للزم اشتراكهما في ذلك ، يجب وجوده وقدمه ويمتنع وجوب قدمه ، ويجب حدوثه وإمكانه ، فيكون كلا منهما واجب القدم واجب

---

١) سورة مريم آية : ٦٥ . (٢) سورة النحل آية : ٦٠

٣) شرح الفقه الأكبر ص ٢٤-٢٥ ، شرح الطحاوية ص ١٢٠ .

٤) شرح الفقه الأكبر ص ٢٤-٢٥ ، شرح الطحاوية ص ١٢٠-١٢١ .

٥) أنظر مقدمة قصيدة ابن القيم المسماه :" الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص ١٠ .

الحدوث واجب الوجود ، وما ليس بواجب الوجود يمتنع قدمه ، لا يتمتنع قدمه ، وهذا جمع بين النقيضين "(١) .

فالمشبهة وقعوا في محظور لم يسبقوا إلى مثله حيث شبهوا الخالق بالمخلوق ، ومن العجيب أنه لو طلب من المشبه أن يصف روحه التي بين جنبيه كيف هي ؟ لقال : إنه عاجز عن ذلك فإذا كان يعجز عن وصف مخلوق ويتجرأ على تشبيه الخالق" فإن ذلك من المحادة لله ورسوله .

ولو قيل له أيضا : "أن الله أخبر عما في الجنة من الطاعم والملابس والمناكح فهل هي كالموجودات في الدنيا ؟ لسارع إلى الاجابة بأنها لا تتفق معها إلا في الاسم فقط ، ولقال : وبينهما من المباينة ما لا يعلمه إلا الله .

ومن هنا يعرف المؤمن بعظمة الله وجلاله أن المشبه عموما عقولهم في غطاء عن صفات الله التي تليق به - سبحانه - ، ومذهبهم فاسد خارج عن نطاق الشرع والعقل مع اعترافهم وإقرارهم بذلك إذ أنهم يثبتون المباينة والفروق بين المخلوقات ولا يدركون المباينة العظمى بين الخالق والمخلوقين - تعالى الله - عن ذلك علوا كبيرا"(٢) .

ثانيا : مذهب المعتزلة والأشعرية :

زعمت المعتزلة أن صفة اليدين مجاز في النعمة ، والقوة وقال : أفراخهم الأشعرية إن صفة اليدين المراد بها القدرة قال عبد الجبار بن أحمد (٣) عند قوله تعالى - (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) (٤) .

والمراد بذلك أن نعمتيه مبسوطتان على العباد وأراد به نعمة الدين والدنيا

---

١) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٩ - ١٠ .
٢) أنظر الرسالة التدمرية مع شرحها التحفة المهدية ١ / ٧٥ .
٣) هو : عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي ، أبو الحسين قاضي أصولي شيخ الاعتزال في زمنه لقبه المعتزلة بقاضي القضاة ، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره له تصانيف كثيرة توفي سنة خمس عشرة وأربعمائة هجرية ميزان الإعتدال ٢ / ٥٣٣ .
٤) سورة المائدة آية : ٦٤ .

والنعمة الظاهرة والباطنة وقد يعبر باليد عن النعمة فيقال : لفلان عندي يد "أ . هـ (١)

وقال أيضا : عند قوله تعالى (لما خلقت بيدي) (٢) قالوا : فأثبت لنفسه اليدين ، وهذا يدل على كونه جسما ، والجواب عنه أن اليدين هاهنا بمعنى القوة وذلك ظاهر في اللغة يقال ما لي على هذا الأمر يد أي : قوة " (٣) .

فعبد الجبار هذا يعد من أكابر علماء المعتزلة ، وهذه التأويلات التي ذكرها لصفة اليدين من التأويلات الباطلة ، وهي عين التحريف الذي ذم الله عليه أهل الكتاب الذين يحرفون الكلم عن مواضعه .

وأما الأشعرية فقد أفصح عن مذهبهم " عبد القاهر بن طاهر البغدادي حيث قال : في صفة اليدين " وتأولها بعض أصحابنا على معنى القدرة . . . . . وذلك صحيح على المذهب إذ أثبتنا لله القدرة ، وبها خلق كل شيء ولذلك قال في آدم عليه السلام (لخلقت بيدي) ووجه تخصيصه آدم بذلك أن خلقه بقدرته لا على مثال سبق ، ولا من نطفة ، ولا نقل من الأصلاب إلى الأرحام كما نقل ذريته من الأصلاب إلى الأرحام " أ . هـ (٤)

وقال البيجوري : (فالسلف يقولون لله وجه ويد وأصابع لا نعلمها ، والخلف يقولون : المراد من الوجه الذات ، وباليد القدرة والمراد من قوله ((بين أصبعين من أصابع الرحمن " بين صفتين من صفاته وهاتان الصفتان القدرة والإرادة " (٥) .

وهذه التأويلات المتقدمة للمعتزلة والأشعرية لصفة اليدين بالنعمة والقدرة والقوة تأويلات باطلة بعيدة عن الصواب بمسافات بعيدة ويرد على الفريقين من وجوه :

---

١) متشابه القرآن ١ / ٢٣٠ ، وانظر المقالات للأشعري ١ / ٢٧١ .

٢) سورة (ص) آية : ٧٥ .

٣) شرح الأصول الخمسة ص ٢٢٨ .

٤) أصول الدين ص ١١١ .

٥) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد ص ٩٣ .

الوجـــه الأول : إن الأصل في الكلام الحقيقة ، فدعوى المجاز مخالف للأصل .

الوجه الثانـــي : أن ذلك خلاف الظاهر فقد اتفق الأصل والظاهر على بطـــلان هذه الدعوى .

الوجه الثالـــث : إن اطراد لفظها في موارد الإستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز ألا ترى ؟ إلى قوله (خلقت بيدي) (١) وقوله (بل يداه مبسوطتان) (٢) وقوله (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) ، فلو كان مجازا في القدرة أو النعمة لم يستعمل منه لفظ يمين وقوله في الحديث " المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين) (٣) .

فلا يقال : هذه يد النعمة ، أو القدرة ، وقوله (يقبض الله سماواته بيده ، والأرض بيده الأخرى ، ثم يهزهن ثم يقول : أنا الملك " (٤) فهنا هز وقبض ، وذكر يدين ، ولما أخبر صلى الله عليه وسلم جعل يقبض يديه ويبسطهما تحقيقا للصفة لا تشبيها لها .

الوجه الرابـــع : أن مثل هذا المجاز لا يستعمل بلفظ التثنية ، ولا يستعمل إلا مفردا ، أو مجموعا ، كقولك له عندي يد يجزيه الله بها وله عندي أيادي ، وأما اذا جاء بلفظ التثنية لم يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية .

الوجه الخامـــس : أن ليس في المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية ، بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة كقوله تعالى (أن القوة لله جميعا) (٥) وكقوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (٦) وقد يجمع الله النعم كقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (٧) وأما أن يقول : خلقتك بقدرتين وبنعمتين فهذا لم يقع في كلامه ولا كلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

١) جزء من الآية رقم (٧٥) من سورة "ص" (٢) سورة المائدة آية : ٦٤ .
٣) رواه البخاري في صحيحه ٤ / ٢٨٠ من حديث أبو عمر رضي الله عنهما .
٤) متفق عليه : صحيح البخاري ٤ / ٣٠٠ ، صحيح مسلم ٤ / ٢١٤٧ كلاهما من حديث ابن مسعود .
٥) سورة البقرة آية : ١٦٥ . (٦) سورة النحل آية : ١٨ . (٧) سورة لقمان آية : ٢٠ .

الوجه السادس: أنه لو ثبت استعمال ذلك بلفظ التثنية لم يجز أن يكون المراد هنا القدرة فإنه يبطل تخصيص آدم فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوق بقدرة الله

الوجه السابع: أن هذا التركيب المذكور في قوله (خلقت بيدي) يأبى حمل الكلام على القدرة لأنه نسب الخلق إلى نفسه - سبحانه - ثم عدى الفعل إلى اليد ثم ثناها ، ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قولك كتبت بالقلم ومثل هذا نص صريح لا يحتمل المجاز بوجه " (١) .

قال ابن خزيمة في صدر رده على الجهمية المؤولين لليد بالنعمة " وزعمت الجهمية والمعطلة أن معنى قوله (بل يداه مبسوطتان) أي : نعمتاه ، وهذا تبديل لا تأويل والدليل على نقض دعواهم هذه أن نعم الله كثيرة لا يحصيها إلا الخالق البارئ ولله يدان لا أكثر منها كما قال لإبليس لعنه الله (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) (٢) فأعلمنا الله - جل وعلا - أنه خلق آدم بيديه فمن زعم أنه خلق آدم بنعمته كان مبدلا لكلام الله " أ.هـ (٣) .

وقال العلامة أبو الحسن الأشعري : " وقد اعتل معتل بقول الله - عز وجل - (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) (٤) الأيدي القوة أن يكون معنى قوله (بيدي) بقدرتي وقيل لهم : هذا التأويل فاسد من وجوه آخرها أن " الأيد " ليس بجمع لليد لأن جمع يد التي هي النعمة " أيادي " وإنما قال (لما خلقت بيدي) فبطل بذلك أن يكون معنى قوله (بيديَّ) معنى قوله (والسماء بنيناها بأيد) وأيضا فلو كان أراد القوة لكان معنى ذلك بقدرتي وهذا ناقض لقول مخالفنا وكاسر لمذاهبهم لأنهم لا يثبتون قدرة واحدة فكيف يثبتون قدرتين " أ.هـ (٥) .

---

١) هذه سبعة وجوه من عشرين وجها ذكرها العلامة ابن القيم في مختصر الصواعق ٢ / ١٥٣ وما بعدها

٢) سورة " ص " آية : ٧٥ .

٣) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ص ٨٥-٨٦ .

٤) سورة الذاريات آية : ٤٧ .

٥) الإبانة ص ٣٥ .

وخلاصة القول مما تقدم في هذا المبحث أن لله - تعالى - يدين حقيقيتين تليقان بجلاله ، وأن ما ورد في شأن اليد من الإمساك والطي والقبض والبسط والحثيات والخلق باليدين وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ، وكون المقسطين عن يمينه ، وتخيير آدم بين ما في يديه وأخذ الصدقة بيمينه يربيها لصاحبها وأنه مسح ظهر آدم بيده إلى غير ذلك مما ورد في شأنها يدل دلالة واضحة على أنها يد حقيقية ، كما أخبر بذلك - جل وعلا - وأن تأويلها بالقدرة ، أو النعمة تأويل ظاهر البطلان (١) .

---

١) انظر مختصر الصواعق المرسلة ٢ / ١٧١ .

الفصل الثّانى

الفصـــل الثانـــــي

دلالة السورة على توحيـــــد العبـــادة

ويشتمل على المباحث الآتيـــة :

المبحث الأول : تعريف توحيد العبادة .

المبحث الثانى : وجوب إفراد الله - تعالى - بتوحيد العبادة

المبحث الثالث: أهمية الإخلاص في توحيد العبادة .

المبحث الرابع : عبودية الدعـــاء

المبحث الخامس: عبودية الخـــوف .

المبحث السادس: عبودية الرجـــــاء .

المبحث السابع : انقسام العبودية إلى عامة ، وخاصة .

المبحث الثامـن: الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل .

المبحث التاسع : بيان الطاغوت الذى أوجب الله على عباده أن يجتنبوه .

المبحث العاشر: عبودية الإنابة .

المبحث الحادى عشر: عبودية التوكـــل .

المبحث الثانى عشـر : الشفاعة نوعان منفية ، ومثبته .

المبحث الثالث عشـر : الرسل بعثوا للدعوة إلى توحيد الله بتوحيد العبادة .

المبحث الأول

تعريف توحيد العبـــــادة

هو إفراد الله - تعالى - بأفعال عباده التي تعبدهم بها كالنحر ، والنذر والدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرغبة ، والرهبة والإنابة ، والخشوع والخشية والإستعاذة ، والإستعانة ، والإستغاثة وغير ذلك من أنواع العبادة التي شرعها الله وأمر بها عباده (١) .

ومعناه : بعبارة أخرى : أن يعتقد الإنسان الإعتقاد الجازم بأن الله - سبحانه - هو الإله الحق ، ولا إله غيره ، وإفراده - سبحانه - بالعبادة وبيان ذلك أن الإله هو المألوه (٢) أي المعبود والعبادة في اللغة : هي الإنقياد والتذلل ، والخضـــوع يقال : طريق معبد أي : مذلل (٣) وقد عرفها بعض أهل العلم" بأنها كمال الحب مع كمال الخضوع والخوف "(٤) .

---

١) أنظر الحسنة والسيئة لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٢٦ ، مجموعة التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وغيرهـــم : الرسالة الأولى ص٤ ، تيسير العزيز الحميد ص ٢٠ ، كشف الشبهات ضمن مجموعة التوحيد للشيخ محمد بـــــن عبد الوهاب وغيره ص ٢١٧ ، تطهير الإعتقاد ص ٩ ، الدين الخالص ١ / ٦٢ شرح الطحاوية ص ٧٦ ، لوامع الأنوار البهية ١ / ١٢٩ .

٢) القاموس المحيط : ٤ / ٢٨٢ ، مختار الصحاح ص ٢٢ ، المصباح المنير ١ / ١٩ .

٣) مختار الصحاح ص ٤٠٨ ، المخصص لابن سيده ١٣ / ٩٦ ، لسان العرب ٣ / ٢٧١ ، النهاية ٣ / ١٧٠ .

٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٧٦ .

قال العلامة ابن القيم :

وعبادة الرحمن غاية حبهـــــه مع ذل عابده هما قطبـــــان

بالأمر قال الله قال رسولـــــه لا بالهوى والنفس والشيطـــان (١)

فلا بد في عبادة الله من أن يجتمع الأمران ، فلا يكفي أحدهما في عبادته ، بل يجب على الإنسان ، أن يكون الله أحب إليه من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء بل لا يستحق المحبة ، والذل التام إلا الله وكل ما أحب لغير اللـــه فمحبته فاسدة ، وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل " (٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريفه الشامل لمعنى العبادة :

" العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة ، والظاهـرة فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة وبر الوالديـن وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهـــاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبـــادة والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء

وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضاء بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثـال ذلك هي من العبادة لله " أ.هـ (٣)

ومن هذا التعريف الجامع لمعنى العبادة التي هي حق الله على عباده يتبين أنه لا بد للعبادة من أمرين :

الأمـــر الأول : هو أن يلتزم العبد بما أمر الله به ودعت إليه رسل الله الكـــرام عليهم الصلاة والسلام بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وبهذا الأمر يكون معـــنى العبادة الطاعة والخضوع إذ الذي لا يستسلم لأمر الله ويحرم ما حرم الله فلا يكون عبدا ولا عابدا لله ـ تعالى ـ .

---

١) القصيدة النونية مع شرحها توضيح المقاصد وتصحيح القواعد ١ / ٢٥٣ .

٢) العبودية لشيخ الاسلام ص ٤٤ .

٣) المصدر السابق ص ٣٨ .

الأمر الثاني : أن يكون هذا الإلتزام صادرا عن قلب ممتلىء بمحبة ـ الباري سبحانه ـ إذ أنه ليس في هذا الوجود من يستحق المحبة الكاملة إلا الله ـ جل وعلا ـ لأنه ـ سبحانه ـ هو الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه وأسبغ عليه النعم الظاهرة والباطنة وتوحيد الإلهية أساسه إخلاص العبادة لله وحده في باطنها وظاهرها بحيث لا يكون شيء منها لغيره ـ سبحانه ـ فيجب على المرء أن يخلص لله جميع أنواع العبادة من المحبة ، والخوف والرجاء ، والدعاء ، والتوكل ، والطاعة ، والتذلل ، والخضوع ، وأن يتوجه بها لله وحده دون سواه .

(المبحث الثاني)

وجوب إفراد الله تعالى بتوحيد العباده

لقد وردت آيات كثيرة في السورة كلها توجب على العباد أن يفردوا الله بتوحيد العبادة ، ويخصوه بها وحده دون سواه .

قال تعالى : (فاعبدالله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص) .

وقال تعالى (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين) .

وقال تعالى : (قل الله أعبد مخلصا له دينى . فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين)

وقال تعالى : (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) .

وقال تعالى : (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) .

هذه الآيات الكريمة من السورة تقرر أنه - سبحانه - هو الذي يستحق أن توجه له العبادة بجميع أنواعها الإعتقادية والقولية والعملية ، وليس لأحد سواه كائنا من كان أي شيء من أنواع العبادة ، كما تقرر أن أي نوع من أنواع العبادة لم يوجه لله أو وجه له ، ولكن فيه شركة لغيره معه ، فإنه باطل ، وغير مقبول ، لأن الله - تعالى - لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ، وأن من عمل أي عمل لله ، وأشرك معه فيه غيره من المخلوقين كائنا من كان فان الله يتركه وشركه ، لأنه - سبحانه - أغنى الشركاء عن الشرك .

فالآيات المتقدمة عددها ثمان آيات كلها دلت على وجوب إفراد الله - تعالى - بتوحيد العبادة وتجريدها له وحده دون سواه .

فالآية الأولى : منها هي قوله تعالى : (فاعبدوا الله مخلصا له الدين) فهذه الآية أمر من الله - جل وعلا - لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يخلص لله جميع دينه من العبادات الظاهرة والباطنة ، وأن يفرد الله بها وحده ، ويقصد بها وجهه ، ولا يتطلع إلى أي مقصد آخر ، وأمته تبع له في ذلك ، وإن كان الخطاب موجها له أصلا وذاتا

فالخطاب موجه إلى كل مكلف من العباد .

قال العلامة ابن جرير: حول هذه الآية (فاعبد الله مخلصا له الدين) :

" يقول تعالى ذكره : فاخشع لله يا محمد بالطاعة ، وأخلص له الألوهية وأفرده بالعبادة ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكا كما فعلت عبدة الأوثان " أ.هـ (١) .

وقال ابن كثير: أي : فاعبد الله - وحده - لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له - وحده - وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد " (٢)

وأما الآية الثانية : فهي قوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) فهي تقرير للأمر في الآية السابقة بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، فكما أنه - سبحانه - له الكمال المطلق ، وله التفضل كله على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص الذي صفى من كل شوائب الشرك صغيرها ، وكبيرها ، وهذا هو الدين الذي ارتضاه لنفسه وارتضاه لرسله الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وأمرهم به لأنه يتضمن التأله لله في حبه ورجائه ، وخوفه ، والإنابة إليه في العبودية ، والرجوع إليه في تحصيل جميع المطالب لعباده ، وحتى كانت العبادة خالصة لله كانت سببا لصلاح القلوب وتزكيتها وتطهيرها ، أما إذا كانت ملوثة بالشرك فإن الله بريء منها ، وليس له فيها شيء فهو الغني عن عبادة شابها شرك لأنه - سبحانه - أغنى الشركاء عن الشرك الذي هو مفسد للقلوب والأرواح ومشقٍ للنفوس في الآخرة والأولى .

وأما الآية الثالثة : فهي قوله تعالى (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) فهذه الآية أيضا : فيها الأمر من الله - تبارك وتعالى - لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول : للمشركين من قومه إن الله أمره أن يعبده مفردا له الطاعة دون كل ما يدعى من دونه من الآلهة والأنداد التي يعبدها المشركون .

قال ابن كثير: " وقوله (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) أي : إنما أمرت بإخلاص العبادة لله - وحده - لا شريك له " (٣) .

---

١) جامع البيان ٢٣ / ١٩٠ .
٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٧٨ .
٣) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٨٣ .

وأما الآية الرابعة: فهي قوله تعالى (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) .

وهذه الآية أيضا : فيها أمر من الله - جل جلاله - لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يكون أول المسلمين من أمته .

قال أبو عبد الله القرطبي (١) " وكذلك كان فانه كان أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام ، وحطمها وأسلم لله وآمن به ودعا إليه صلى الله عليه وسلم " أ.هـ (٢) .

والحال كما أخبر به القرطبي فإنه عليه الصلاة والسلام كان سباقا إلى امتثال أمر الله لأنه الداعي للخلق إلى ربهم فيقتضي أن يكون أول منفذ لأمر الله ومطبق له وأول من يسلم وجهه لله ، وهذا الأمر لا بد من وقوعه منه عليه الصلاة والسلام ، وكذلك لا بد أن يكون من ادعى أنه من أتباعه ، فلا بد من الإسلام في جميع الأعمال الظاهرة والإخلاص لله في جميع الأعمال الظاهرة والباطنة .

وأما الآية الخامسة: فهي قوله تعالى (قل الله أعبد مخلصا له ديني) .

هذه الآية أيضا : نصت على أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن لكفار قريش أنه لا يعبد إلا الله العبادة الخالصة ويفرده وحده بالطاعة .

قال ابن جرير حول هذه الآية : (قل الله أعبد مخلصا له ديني) " قل يا محمد لمشركي قومك : أالله أعبد مخلصا ، مفردا له طاعتي ، وعبادتي لا أجعل له في ذلك شريكا ولكني أفرده بالألوهة ، وأبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة " أ.هـ (٣) .

وأما الآية السادسة: فهي قوله تعالى (فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين) .

هذه الآية : سمتها التهديد والوعيد الشديد لمن خذل نفسه وأصر على كفره

---

١) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، أبو عبد الله القرطبي من كبار المفسرين ، صالح متعبد من أهل قرطبة توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة هجرية . أنظر ترجمته في مقدمة كتابه " الجامع لأحكام القرآن " ، طبقات المفسرين ٢/٦٩-٧١ ، الأعلام ٦/٢١٧ .

٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥/٢٤٢ .

٣) جامع البيان ٢٣/٢٠٤ .

وإشراكه بالله - تعالى - بعبادته ما سواه من الأحجار وغيرها من المعبودات التي عبدت من دون الله ، فلم يستجب لأوامر الله التي تقضي بإفراده - سبحانه - بالعبادة التي هي خالص حقه على عباده .

كما تضمنت التبرّيء ممن حاله كذلك ، وبينت الخسارة التي تلحق أهل الإشراك وتحل بهم في الآخرة ، وتلك الخسارة هي خسارة الأنفس والأهل يوم القيامة حيث يتفارقون فلا يلتقون سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة ، وقد ذهبوا هم إلى النار ، أو أن الجميع أمر بهم إلى النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : " وليس من أحد إلا وقد خلق له زوجة في الجنة فاذا دخل النار خسر نفسه وأهله " (١)

وقال ابن زيد : (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) قال : هؤلاء أهل النار خسروا أنفسهم في الدنيا وخسروا الأهلين ، فلم يجدوا في النار أهلا وقد كان لهم في الدنيا أهل" .

وقال مجاهد : "غبنوا أنفسهم وأهليهم قال : يخسرون أهليهم فلا يكون لهم أهل يرجعون إليهم ، ويخسرون أنفسهم فيهلكون في النار فيموتون وهم أحياء فيخسرونهما (٢) وهذا هو الخسران الظاهر البين الذي لا يصل في درجته أي خسران وسيحل بهم هذا الخسران عقوبة لهم على إشراكهم بالله العظيم حيث عبدوا معه من لا يستحق العبادة ، وطأطئوا رؤوسهم لمخلوقين مثلهم لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ، ولا حياة ولا نشورا ، وبذلك حل بهم خسران ليس مثله خسران ، وهو خسران دائم لا ربح بعده ولا سلامة .

وأما الآية السابعة : فهي قوله تعالى (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) هذه الآية تضمنت استنكارا بليغا صدع به الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن أمره الله - تعالى - به ، وهو أن يقول : للمشركين الذين طلبوا منه أن يعبد آلهتهم

---

١) الجامع لأحكام القرآن . ١٥ / ٢٤٣ .

٢) جامع البيان ٢٣ / ٢٠٥ .

أو يكف عن تحقيرها . (أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) قال عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما : "إن قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا : هذا لك يا محمد ، وتكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فان لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي فأنزل الله (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين) وأنزل (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) (١) .

وهذا العرض من المشركين ينبيء عن فرط جهلهم وسخافة عقولهم حيث ظنوا أن القضية مساومة ، ولم يدركوا أن أمر العبادة والعقيدة هو أمر الله وحده ، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ، وإنما الأمر في ذلك لله وحده لا شريك له فهو - سبحانه - الآمر الذي لا راد لأمره وهو الذي يحكم ولا معقب لحكمه ، فيتضح من هذا أنه لا التقاء بين التوحيد الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وبين الشرك الذي امتلأت به قلوب المشركين ، وخيم على عقولهم لأنهم ليسوا على دين وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون بتوجيههم العبادة التي هي حق الله على عباده الى من لا يستحقها من المخلوقات ، والجمادات بدعوى أنها تقربهم إلى الله زلفى وليس كذلك ، وإنما تزيدهم عن الله بعداً ، ومن النار قرباً .

وأما الآية الثامنة : فهي قوله تعالى (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) .

قال العلامة ابن جرير : " يقول تعالى ذكره : لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا تعبد ما أمرك به هؤلاء المشركون من قومك يا محمد بعبادته بل الله فاعبد دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان والأنداد (وكن من الشاكرين) لله على نعمته عليه بما أنعم من الهداية لعبادته ، والبراءة من عبادة الأصنام والأوثان " أ .هـ (٢)

---

١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٢٣٦ .

٢) جامع البيان ٢٤/٢٤-٢٥ .

وقال ابن كثير: (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) أي : أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك ا.هـ (١) .

وبهذه الآيات المتقدمة يتبين لنا أن توحيد الألوهية هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره ، وهو أول دعوة المرسلين وآخرها ، ومن أجله خلق الله الخلق قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٢) .

قال العلامة ابن القيم : "إن الله - سبحانه - إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته ، وهذا هو الحق الذي خلقت به السموات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر ،ونفيه كما يقول أعدائه - هو الباطل والعبث الذي نزه نفسه عنه أن يترك الإنسان عليه وهو - سبحانه - يحب أن يعبد ويطاع ، ولا يعبأ بخلقه شيئا لولا محبتهم له ، وطاعتهم له ، ودعاؤهم له ، وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك ، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثا وباطلا وسدى ، وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين ، والإله الحق ، فإذا خرج عن أحب الأشياء إليه ، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة ، وصار كأنه خلق عبثا لغير شيء إذ لم تخرج أرضه البذر الذي وضع فيها بل قلبته شوكا ودغلا ، فإذا راجع ما خلق له ، وأوجد لأجله فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره ، ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل فاشتدت محبة الرب - له فإن الله يحب المتطهرين " أ.هـ (٣)

ومن أجل هذا النوع من أنواع التوحيد - توحيد الألوهية - انقسم الخلق إلى مؤمنين وكافرين .

قال شيخ الاسلام: "وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين" (٤)

---

١) تفسير القرآن العظيم ٦/١٠٦ .
٢) سورة الذاريات آية : ٥٦ .
٣) مدارج السالكين ١/٢١٥ ، وانظر مجموع الفتاوى ١/٢٣ .
٤) الحسنة والسيئة ص ١٢٦ .

(المبحث الثالث)

أهمية الإخلاص في توحيد العبادة

لقد دلت السورة على أهمية الإخلاص في أربع آيات :

قال تعالى (فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص) .

وقال تعالى (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) .

وقال تعالى (قل الله أعبد مخلصا له ديني . . . . .)

هذه الآيات الأربع من السورة فيها بيان أهمية الإخلاص في توحيد العبادة ، وكما نرى أن الأمر بالاخلاص جاء مشفوعا بالأمر بالعبادة ، لأن الإخلاص هو روح العبادة وعمودها الذي تقوم عليه ، فالعبادة بدون إخلاص عبادة مردودة على صاحبها لأنها لم توجه إلى الله وحده - لا شريك له ، ومتى شاب العبادة قصد غير الله - تعالى - اعتبرت لاغية لا قيمة لها ، ولا فائدة منها سوى التعب لصاحبها لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه .

فالآيات الأربع دلت على وجوب الإخلاص في العبادة .

فالآية الأولى هي قوله تعالى : (فاعبد الله مخلصا له الدين) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يعبد الله تعالى عبادة مصحوبة بالإخلاص وأمته تبع له في هذا الأمر هو الأمر دال على الوجوب فيجب عليهم أن يخلصوا دينهم لله ويبعدوا أنفسهم عن كل شوائب الشرك .

وأما الآية الثانية من تلك الآيات هي قوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) .

قال القرطبي : أي الذي لا يشوبه شيء " (١) .

وروى ابن جرير عن قتادة أنه قال : (ألا لله الدين الخالص) قال : شهادة أن لا اله الا الله " (٢) وعلى هذا التفسير يكون معنى الآية (ألا لله الدين الخالص) أي :

---

١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/٢٣٣ .

٢) جامع البيان ٢٣/١٩١ .

التوحيد الصافي من شوائب الشرك وهو المستحق لذلك وحده .

وقال العلامة ابن كثير : (ألا لله الدين الخالص) أي : لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله - وحده - لا شريك له " أ.هـ (١) .

وأما الآية الثالثة : فهي قوله تعالى (قل إني أمرت أن أعبدا الله مخلصا له الدين) فهذه الآية أيضا : أمر بعبادة الله تعالى - العبادة الخالصة البعيدة عن كل إشراك .

وأما الآية الرابعة : فهي قوله تعالى (قل الله أعبد مخلصا له ديني) وهذه الآية إخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أمر بأن يخص الله - تعالى - وحده بالعبادة مخلصا له دينه ولا يعبد أحداً غيره فقوله (ألله أعبد) يفيدَ الحصر أي : لا أعبد أحدا غير الله تعالى .

فالسورة بينت من خلال تلك الآيات الأربع أهمية الإخلاص ودلت على أنه يجب على كل إنسان أن يحققه في عبادته ربه لتكون عبادته مقبولة عند الله - تعالى - ، وطالما أن للإخلاص هذه الأهمية فإنه ينبغي للمرء معرفته كي يعينه ذلك على تحقيقه في توحيده ربه - جل وعلا - في جميع الأعمال .

ونذكر تعريفه هنا تسهيلا لفهمه ، وإدراكا لمعناه :

معنى الإخلاص في اللغة :

جاء في المصباح المنير : خلص الشيء من التلف " من باب - قعد - " وخلاصا " و " مخلصا " سلم ونجا و " خلص " الماء من الكدر صفاء ، و " خلصته " بالتثقيل ميزته مما غيره " أ.هـ (٢) وهكذا مدار الإخلاص في كتب اللغة على الصفا والتميز عن الشوائب التي تخالط الشيء يقال : هذا الشيء خالص لك أي لا يشاركك فيه غيرك ، وتطلق العرب " الإخلاص " على الزبد إذا خلص من اللبن والثفل .

---

١) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٧٨ .

٢) ١ / ١٧٧ .

و" الخلاص" في لغة العرب : ما أخلصته النار من الذهب والفضة والخالص من الألوان عندهم ما صفا ونصع . ، ويقولون : خالصةٌ في العشرة أصافاه . (١) .

وهذه المعاني جاءت في القرآن الكريم قال تعالى : (نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا) (٢) أى : لا بخالطه دم ولا فرث.

وقال تعالى في إخوة يوسف (خلصوا نجيا) (٣) . أي : انفردوا وتميزوا عمن سواهم.

وقال تعالى حكاية عن المشركين (خالصة لذكورنا) (٤) أي : لا يشركهم الإناث

وأما حقيقة الإخلاص في الشرع:

فقد تنوعت تعريفات العلماء له ، ولكن مدارها على قصد الله بالعبادة دون سواه .

جاء في المفردات لغريب القرآن :" فحقيقة الإخلاص : التبرّيُ من كل ما دون الله تعالى " (٥) .

وعرّفه أبوالقاسم القشيرى (٦) : بأنه "انفراد الحق - سبحانه - وتعالى في الطاعات بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تضع لمخلوق ، واكتساب محمدة عند الناس ، أو صحبة مدح من الخلق ، أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله - سبحانه وتعالى " (٧)

وقال : في موضع آخر : " يصح أن يقال : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين" (٨) .

---

١) أنظر الصحاح للجوهرى ٣ / ١٠٣٧ ، القاموس ٢ / ٣١٢-٣١٣ ، لسان العرب ٧ / ٢٦-٢٩ .
٢) سورة النحل آية : ٦٦ .
(٣) سورة يوسف آية : ٨٠
٤) سورة الأنعام آية : ١٣٩ .
٥) ص ١٥٥ .
٦) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابورى من بنى قشير بن كعب شيخ خراسان في عصره ولد سنة ست وسبعين وثلاثمائة وتوفى سنة خمس وستين وأربعمائة هجرية . انظر توجمته فى " وفيات الأعيان ١ / ٢٩٩ ، تاريخ بغداد ١١ / ٨٣ تبيين كذب المفترى ٢٧١ ، الأعلام ٤ / ١٨٠ .
٧) الرسالة القشيرية ص ٩٥ .
٨) المصدر السابق .

وعرفه العز بن عبد السلام قائلا : "الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده لا يريد بها تعظيما من الناس ولا توقيرا ، ولا جلب نفع دينى ولا دفع ضرر دنيوى" (١)

وقال سهل بن عبد الله : (٢) "الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله - تعالى - خالصة" (٣) .

قال الغزالي بعد ذكره لهذا التعريف "وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض" (٤) .

وقد ذكر الإمام ابن القيم : ما يقارب ثلاثة عشر تعريفا للإخلاص (٥) وكلها ترجع إلى معنى واحد : وهو أن يقصد العبد بأقواله ، وأعماله وإرادته ، ونيته وجه الله تعالى دون سواه من غير أن ينظر إلى مغنم ، أو جاه ، أو لقب ، أو تقدم ، أو تأخر إلى غير ذلك من أعراض الدنيا (٦) .

وقد بين ابن القيم أن للإخلاص ثلاثة أركان قال رحمه الله تعالى :-

" فحقيقة الاخلاص" : توحيد المطلوب ، وحقيقة الصدق : توحيد الطلب والإرادة ولا يثمران إلا بالإستسلام المحض للمتابعة ، فهذه الأركان الثلاثة هي : أركان السير وأصول الطريق التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع ، وإن ظن أنه سائر فسيره إما الى عكس جهة مقصودة ، وإما سير المقعد والمقيد ، وإما سير صاحب الدابة الجموح كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف ، وإن لم يبذل جهده ويوحد طلبه سار سير المقيد وإن اجتمعت له الثلاثة : فذلك الذي لا يجارى في مضمار سيره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم" (٧)

---

١) قواعد الأحكام ١ / ١٤٦ .
٢) هو: سهل بن عبد الله التستري أحد أئمة الصوفية المتكلمين في الاخلاص والرياضة ولد سنة مائتين وتوفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين هجرية . أنظر ترجمته في "وفيات الاعيان" ١ / ٢١٨ ، حلية الأولياء ١٠ / ١٨٩ ، الأعلام ٣ / ٢١٠ .
٣) إحياء علوم الدين ٤ / ٣٨١ .
٤) المصدر السابق .
٥) مدارج السالكين ٢ / ٩١-٩٢ .
٦) راجع الرسالة السابعة "ضمن مجموعة التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهما من العلماء ص ١٨٥ ، الجواب الكافي ص ١٥٩ أضواء البيان ٧ / ٤٢ .
٧) مدارج السالكين ٢ / ٩٧ .

ولأهمية الإخلاص في توحيد العبادة كان أحد ركنيه ، والصدق ركنه الآخر.

قال العلامة ابن القيم:

فلو أحدكن واحدا في واحـــد أعني سبيل الحق والإيمـــان
هذا وثاني التوحيـــد تو حيد العبادة منك للرحمـــن
فنقوم بالإخلاص والـــ احسان في سر وفي إعـــلان
والصدق والإخلاص ركنا ذلك الـ وحيد كالركنين للبنيـــان (١)

وقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة ، وكثرت أقوال الأئمة في اشتراط الإخلاص للأعمال والأقوال الدينية ، وأن الله لا يقبل منه إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه.

قال تعالى (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) (٢).

فهذه الآية فيها توجيه من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمشركين أنه لا يصلي إلا لله ، ولا يذبح إلا له ، وأن محياه ومماته كل ذلك لله وحده لا شريك له بخلاف المشركين ، فإنهم كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره الله - تعالى - بمخالفتهم ، والإبتعاد عما هم عليه والإقبال بالقصد والنية والعزم والإخلاص لله تعالى" (٣).

وقال تعالى (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور" (٤)

قال الفضيل بن عياض : هو أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ، ثم قرأ قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (٥) ، فلا يمكن أن يكون العمل خالصا

١) القصيدة النونية مع شرحها توضيح المقاصد وتصحيح القواعد ٢/٢٥٨.
٢) سورة الأنعام آية : ١٦٢-١٦٣.
٣) أنظر تفسير ابن كثير ٣/١٣٩.
٤) سورة الملك آية ٢.
٥) مدارج السالكين ٢/٨٩ والآية رقم (١١٠) من سورة الكهف.

إلا إذا جمرد الإنسان المتابعة للكتاب والسنة في عبادته ، واقتفى ما خط له فيهما فقبول الأعمال مرهون وموقوف بصدق الإخلاص.

وقال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) (١) .

فاسلام العبد وجهه : لا يتحقق إلا بإخلاص قصده وعمله لله تعالى والإحسان في ذلك لا يتحقق إلا بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ولقد أخبر الله تعالى أن الأعمال التي تكون على غير الكتاب والسنة أو قصد بها غير وجه الله تعالى فإنها تصير هباءً منثورا ليس لها قيمة وليس فيها نفع لصاحبها. قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا) (٢) ، والآيات الواردة في الحض على إخلاص العبادة لله - وحده - لا شريك له كثيرة جدا في كتاب الله - تعالى - وكلها تدل على اهتمام الاسلام بإصلاح الفرد ظاهرا ، وباطنا .

والقرآن الكريم عندما يطلق اسم "الإخلاص" لا يريد به التوجه إلى الله في عمل من الأعمال بل المقصود به أن يتوجه المكلف بأعماله كلها إلى الله وحده دون سواه فلا يقصد بعبادته ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا يعبد شجرا ، ولا حجرا ، ولا شمسا ولا قمرا ، الإخلاص يعني أن يتوجه بالأعمال القلبية لله وحده ، كما يتوجه بالأعمال الظاهرة ، والإخلاص هو الدين الذي بعث الله به الرسل جميعا فكان محور دعوتهم ، ولبها وهو الدين الذي طالبت به الرسل الأمم التي أرسلت اليها (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) (٣)

وقد أكدت السنة على أهمية الإخلاص في عبادة الله تعالى في أحاديث كثيرة منها :

---

١) سورة النساء آية : ١٢٥ . (٢) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

٣) سورة البينة آية : ٥ .

١) ما رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الرجل يقاتل رياءا ويقاتل شجاعة ويقاتل حمية أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " (١) .

فقد بين صلى الله عليه وسلم أن القتال الذي يكون لله وفي سبيله إنما هو القتال الذي يكون الغاية منه رفع راية الإسلام ، أما القتال لأجل مراءات الناس ، وإظهار الشجاعة ، أو يقاتل حمية كل هذا في سبيل الشيطان ، وليس في سبيل الرحمن .

٢) وروى الإمام أحمد من حديث أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم" (٢) .

قال العلامة ابن القيم : أي لا يبقى فيه غل ، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة بل تنفي عنه غله وتنقيه منه ، وتخرجه عنه ، فان القلب يغل على الشرك أعظم غل ، وكذلك يغل على الغش ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة ، والضلالة فهذه الثلاثة تملؤه غلا ، ودغلا ، ودواء هذا الغل ، واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة الرسول " (٣) .

٣) وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا قصد بعمله وجه الله - تعالى - زاده الله رفعة ودرجة في دنياه وآخرته .

دل على ذلك حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني في حجة الوداع من وجع اشتد بي ..... وفيه فقلت : يا رسول الله أخلف بعد أصحابي قال : إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة . . . . . الحديث (٤)

---

١) صحيح البخاري ٤ / ٢٩٠ ، صحيح مسلم ٣ / ١٥١٢ .

٢) المسند ٤ / ٨٠ ، ٨٢ .

٣) مدارج السالكين ٢ / ٩٠ .

٣) رواه مسلم ٣ / ١٢٥٠ - ١٢٥١ .

٤) وأخبر عليه الصلاة والسلام أن العمل بقصد الرياء والسمعة محبط للعمل وموجب للنار كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار" قارئ القرآن والمجاهد ، والمتصدق بما له " (١) .

فقارئ القرآن قرأه ليقال : فلان قارئ ، والمجاهد جاهد ليقال : فلان شجاع والمتصدق تصدق ليقال : فلان جواد ، ولم تكن أعمالهم خالصة لله - تعالى - فكانوا من أصحاب النار لأنهم قصدوا بأعمالهم غير الله فوقعوا في الشرك والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك .

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي تركته وشركه" (٢)

فعلى الإنسان أن يجتهد في تحقيق الإخلاص في أقواله وأفعاله التي يتقرب بها إلى الله - جل وعلا - وأن يحاول جاهدا أن يربي نفسه ويعودها الأخذ بالإخلاص في جميع أعماله إذ الإخلاص من أشق الأشياء عليها .

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : (أمر النية شديد) .

وقال سفيان الثوري : " ما عالجت شيئا أشد علي من نيتي لأنها تتقلب عليَّ " و

وقال يوسف بن أسباط : تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الإجتهاد "

وقال سهل بن عبد الله التستري : " وليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب" .

وقال يوسف بن الحسين : أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في اسقاط الرياء عن قلبي ، وكأنه ينبت فيه على لون آخر فيجب على من نصح نفسه أن يكون اهتمامه بتصحيح نيته وتخليصها من الشوائب فوق اهتمامه بكل شيء لأن الأعمال بالنيات ولكل

---

١) رواه مسلم ٣ / ١٥١٣-١٥١٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٢) رواه مسلم ٤ / ٢٢٨٩ .

امرئ ما نوى " (١) فالسلف كانوا يجتهدون غاية الإجتهاد في تصحيح نياتهم ويرون الإخلاص أعز الأشياء ، وأشقها على النفس ، وذلك لمعرفتهم بالله ، وما يجب له ويعلل الأعمال ، وآفاتها ، ولا يهمهم العمل لسهولته عليهم ، وإنما يهمهم سلامة العمل وخلوه من الشوائب المبطلة لثوابه أو المنقصة له ، فقلب الإنسان هو الأساس في عبادة الله - تعالى - وهو موضع نظر الله تعالى ، ومحل عنايته كما جاء من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ان الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" (٢) .

فصلاح القلب أساس قبول العمل ولا يعتبر العمل إلا إذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله - تعالى - أما العمل إذا كان مقصودا به مراءات الناس ، أو السمعة فان ذلك مبطل للعمل من أساسه بالكلية ويفضح الله سريرة صاحبه يوم القيامة بين الخلائق عامة - فعلى العبد أن يتقي الرياء ويخلص العمل لله - تعالى - فإن الرياء من الأعمال الدنيئة التي تهبط بالإنسان إلى أسفل الدرجات ، أما إذا أظهر الإنسان الطاعات للناس دون قصد منه ، وكانت مصحوبة بالاخلاص ، فأعجبهم عمله وحمدوه على ذلك فهذا لا يحبط عمله ، ولا ينافي ذلك إخلاصه .

برهان ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه قال : تلك عاجل بشرى المؤمن " (٣) .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا كلمة لابن القيم وضعها رحمه الله كنبراس لتحقيق الإخلاص في القلب قال رحمه الله تعالى : لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار ، والضب والحوت فإذا حدثتك

---

١) أنظر هذه الأقوال في " الرسالة السابعة " تعريف العبادة وتوحيد العبادة والإخلاص - للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بأبي بطين ضمن مجموعة التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهما ص١٨٦

٢) صحيح مسلم ٤/١٩٨٧ .

٣) ٤/٢٠٣٤ .

نفسك بطلب الإخلاص ، فاقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس ، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة ، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت : وما الذى يسهل على ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح ؟

قلت : أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله - وحده - خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئا سواه .

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهلهما عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله - وحده - كما قال ذلك الأعرابي للنبى صلى الله عليه وسلم ان مدحى زين ، وذمى شين ، فقال ذلك الله عز وجل (١) . فازهد فى مدح من لا يزينك مدحه ، وفى ذم من لا يشينك ذمه ، وارغب في مدح من كل الذين فى مدحه وكل الشين فى ذمه ، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين ، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر فى غير مركب.

قال تعالى (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) (٢)

وقال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) (٣) أ.هـ

والذي نخلص إليه مما تقدم أن الإنسان مأمور بأن يصفى وينقى عمله من جميع شوائب الشرك ، وأن يفعل كل الطاعات على وجه الإخلاص ولا بد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة كالإيمان بالله ، ورسوله ، والعبادات البدنية ، والمالية ، ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع ، والمال هو مأمور بأن يفعله خالصا لله رب العالمين لا يطلب من مخلوق عليه جزاء ولا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاءا لا دعاءاً ، ولا غير دعاء " أ.هـ (٤) .

---

١) رواه أحمد فى المسند ٣/٤٨٨ من حديث الأقرع بن حابس، الترمذى ٥/٦٣ من حديث البراء بن مالك .

٢) سورة الروم آية : ٦٠ .

٣) الفوائد ص ١٤٧-١٤٨ والآية رقم (٢٤) من سورة السجدة .

٤) مجموع الفتاوى ١/١٩٠ .

(المبحث الرابـــع)

عبودية الدعـــــاء

قبل أن نبدأ بعرض الآيات الواردة في السورة التي تبين أن الدعاء عبادة لا يستحقها إلا الله ـ جل وعلا ـ نذكر معنى الدعاء في اللغة والشرع ليتضح مفهومه أكثر.

أما الدعاء في اللـــــغة :

فقد جاء في الصحاح للجوهري (١) " ودعوت فلانا أي : صحت به واستدعيته ودعوت الله له وعليه دعاءا ، والدعوة المرة الواحدة والدعاء واحد الأدعية" أ.هـ (٢)

وجاء في القاموس: الدعاء الرغبة إلى الله ـ تعالى ـ أ.هـ (٣) .

وقال في المصباح : دعوت الله أدعوه دعاءا ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيدا ناديته وطلبت إقباله " (٤) .

وأما الدعاء في الشـــــرع :

فإنه يؤخذ من التعاريف اللغوية وهو : الإتجاه إلى الله ـ تعالى ـ بطلب نفع أو دفع ضر ، أو رفع بلاء ، أو النصر على عدو ، أو نحو ذلك .

فهذا الإتجاه بالسؤال المنبعث من القلب لله ـ تعالى ـ هو روح العبادة ومخها كما ورد بذلك قول المصطفى صلى الله عليه وسلم " الدعاء هو العبادة" (٥) .

فيتبين من تعريف الدعاء في اللغة والشرع أن الدعاء في الأصل هو الطلب ويطلق على العبادة ، وقد دلت السورة على أن الدعاء عبادة وأنه لله ـ وحده ـ لا شريك له في آيتين منها :ـ

---

١) هو : إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة هجرية

٢) ٦/٢٣٣٧ .

٣) ٤/٣٢٩ .

٤) ١/١٩٤ .

٥) رواه الترمذي ٥/٥٢ من حديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه .

قال تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) .

وقال تعالى : (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات وما هم بمعجزين) .

فالآيتان الأوليان من هذه الآيات الأربع بين الله تعالى فيهما أن العبد إذا نزل به البلاء وأحاطت به المحن جأر إلى الله وفزع إليه بالدعاء لما تقرر في فطرته أنه لا يكشف ما به من البلاء والمحن إلا الله - تعالى - الذي أوجده من قبل ولم يك شيئا ، ثم إنهما توضحان ما تنطوي عليه تلك الفطرة ، وما يعتريها من التغيرات والتقلبات في حالتي الشدة والرخاء .

فالآية الأولى : وهي قوله تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه) الآية يخبر الله تعالى فيها عن كرمه وإحسانه وبره بعبده وقلة شكر عبده على ذلك وأنه حين يمسه الضر من المرض ، أو الفقر ، أو الوقوع في الكربات يعلم أنه لا ينجيه ولا ينقذه منها إلا الله فيدعوه ملحا متضرعا منيبا ، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلح في ذلك فإذا ما أنعم الله عليه بكشف ما نزل به من الضر والكرب نسي ذلك الذي دعا الله من أجله ومر كأنه لم يصبه شيء فرجع إلى الشرك بأن جعل لله الأنداد وهم الشركاء والأمثال والأشباه فضل بنفسه وأضل غيره لأن إضلاله لغيره متولد وناتج عن ضلاله . ثم أمر الله نبيه بأن يقول لمن اشتهر بهذا العتو ، وهو تبديل نعمة الله كفرا (تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) فلا ينفعه ما يتمتع به في هذه الدنيا من الأموال وسائر النعم إذا كان المآل النار . (١) .

---

١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٣ / ١٩٩ - ٢٠٠ ، تفسير القرآن العظيم ٦ / ٨١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٣٧ - ٢٣٨ ، فتح القدير للشوكاني ٤ / ٤٥٢ .

وأما الآية الثانية: وهي قوله تعالى (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

وهذه الآية أيضا: كسابقتها تبين أن العبد حين يصاب بالشدة والبلاء تقوى صلته بربه في هذه الحال فيدعوه ويضرع إليه أن يزيل عنه ما حل به من الكوارث وينيب اليه إنابة صادقة ويتجلى أمام عينيه الصراط المستقيم ويعلم علم يقين أن كل ما سوى الله من الأنداد والأوثان والأصنام وغيرها من المخلوقات ليس لهم القدرة على كشف ما به ، فعند ذلك يلجأ إلى الله ويفيق من ظلمات الجهل وركام الشرك وينقشع عنه كل ما يخالجه من الأوهام الباطلة فيتجه إلى الله بالدعاء الخالص واللجوء الصحيح ويكفر بكل ما سوى الله - تعالى - من الشركاء والشفعاء المزعومين .

أما إذا ذهب عنه الضر وحل به الرخاء وخوله الله بشتى النعم فإن حاله ينعكس غالبا وهنا يدنس فطرته التي كانت قد استيقظت في حالة الشدة فيلبسها لباس الشرك وينسى توحيده لربه وإنابته إليه وتطلعه إليه في إزالة ما به من الفقر والمرض وسائر أنواع الكرب فيبدأ بالكفر بنعم الله وينسبها إلى نفسه وأنها إنما جاءت اليه لذكائه ودقة حيلته ويكفر بربه الذي هو مصدر كل النعم ،

(ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

قال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى "أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله وينيب إليه ، ويدعوه ، ثم إذا خوله نعمة منه ظهر وقال (إنما أوتيته على علم) لعلم الله بي بأنني أستحق ذلك ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا قال قتادة : على علم عندي قال الله - عز وجل - (بل هي فتنة) أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي ؟ مع علم الله المتقدم بذلك فهي فتنة أي اختبار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ولهذا يدعون ما يدعون ويقولون ما يقولون" أ.هـ (١) .

---

١) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٩٩ .

فيجب على الإنسان أن يعلم أن كل ما به من نعمة فهي من الله - تعالى - وأنه ليس له حول ولا قوة في جر النفع إلى نفسه أو دفع الضر عنها والإنسان عندما ينسب النعم التي حباه الله بها إلى نفسه وأنها إنما جاءت إليه بحيلته وذكائه وخبرته الفائقة بوجوه المكاسب لا شك أن ذلك جحد لنعم الله وهو يؤدي إلى الكفر بالمنعم الذي هو الله - تعالى - مصدر كل النعم ، فيجب على العبد أن يعرف المنعم بذلك حتى يكون شاكرا لربه الرازق العليم .

وأما الآيتان الأخيرتان من الآيات المتقدمة وهما قوله - تعالى - (قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين) .

فهاتان الآيتان تضمنتا التهديد والوعيد لمن ينسب نعم الله إلى نفسه وأن من زعم ذلك فالمثل هو مقتد بقارون الذي اغتر بكثرة ماله ، وما أعطاه الله من أصناف النعم فكانت عاقبته النهائية أن خسف الله به وبداره الأرض فلم يجد مصيرا ولا نصيرا يمنعه من بأس الله الذي لا يرد عن القوم المجرمين فقوله تعالى (قد قالها الذين من قبلهم) الآية أوضحت بأنه قد سبق من الأمم من زعم أنما آتاه اللهالمال لما يعلم الله تعالى من استحقاقه له ولولا أنه خصيص عند الله لما خوله الله تلك النعم فهذه المقالة المرفوضة عند الله تعالى - بينت السورة أنها متداولة لدى الجبابرة من سائر الأمم يتوارثها الجاحدون لنعم الله - تعالى - كما أوضحت أن كسبهم لا يغني عنهم شيئا من عقاب الله وأن وبال ذلك راجع عليهم ، كما أوضحت أن الظلمة من المخاطبين سيصيبهم ما أصاب الظالمين من الأمم قبلهم (فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين) قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) (١)

١) سورة القصص اية : ٧٦-٧٨ .

وكون العبد ينسب نعم الله إلى نفسه وأنها وافته بفضل ما عنده من الحرص والذكاء وشدة الحيلة والعلم بوجوه المكاسب هذا من علامة الخذلان والعياذ بالله ، والكفر بالله إذ الكفر بالنعمة كفر بالمنعم .

قال العلامة ابن القيم : وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا الي ، إنما أوتيته لأني أهله ومستحقه كما قال تعالى (قال إنما أوتيته على علم عندى) أي على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله ، قال الفراء : أي على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقا له إذ أعطيته ، وقال : مقاتل : يقول على خير علمه الله عندي ، وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام فيما أوتى من الملك ثم قرأ قوله - تعالى - (هذا من فضل ربى ليبلوني أأكفر أم أكفر) (١) .

ولم يقل هذا من كرامتي ، ثم ذكر قارون وقوله (إنما أوتيته على على عندي)(٢) يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلى به فشكره ، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه . وكذلك قوله - سبحانه - (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولون هذا لي) (٣) أي أنا أهله وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه .

والمؤمن يرى ذلك ملكا لربه وفضلا منه منّ به على عبده من غير استحقاق منه بل صدقة تصدق بها على عبده ، وله أن لا يتصدق بها . فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئا هو له يستحقه عليه ، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلا ومستحقا فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها فكان حظها منها الفرح والفخر كما قال تعالى (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور) (٤)

---

١) سورة النمل آية : ٤٠ .
٢) سورة القصص آية : ٧٨ .
٣) سورة فصلت آية ٥٠
٤) سورة هود آية : ٩-١٠ .

فذمه باليأس والكفر عند الإمتحان بالبلاء وبالفرح والفخر عند الإبتلاء بالنعماء واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء قوله (ذهب السيئات عني) ، ولو أنه قال : أذهب الله السيئات عني برحمته ومنّه لما ذم على ذلك ، بل كان محمودا عليه ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر فإذا على الله - سبحانه - هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه ، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة كما قال تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) (١) .

فأخبر - سبحانه - أن محلهم غير قابل لنعمته ، مع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها اهـ (٢) .

ومما ينبغي أن يعلم أن توسيع الرزق على بعض العباد ليس ذلك دليلا على أنهم محبوبون عند الله - تعالى - كما أن تضييقه على بعضهم لا يدل على بغضهم فإن الدنيا يؤتيها الله من يحب ومن لا يحب فتوسيع الرزق إنما هو ابتلاء وامتحان منه - سبحانه - وتعالى لعبيده لينظر أيشكرونه أم يكفرونه ؟ وفي ذلك عبرة للمعتبرين وحجة على المعاندين .

وبعد هذه اللمحة لبيان معنى الآيات الأربع المتقدمة التي جاء في بعضها التنبيه على عبودية الدعاء ، نقول : إن الدعاء من أجل العبادات ، بل هو أكرمها على الله - عز وجل - وقد حث الله في كتابه العزيز على إخلاص الدعاء له وحده لا شريك له وبذلك جاءت السنة التي أوحاها الله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

---

١) سورة الأنفال آية ٢٢-٢٣ .

٢) الفوائد ص : ٢٠٠ - ٢٠١ .

الدعاء نوعـــان :

إن الدعاء الذي أمر الله به عباده في كتابه الكريم نوعان :-

١- دعاء عبادة .

٢- دعاء مسألة .

ولفظ الدعاء في القرآن الكريم يراد به هذا تارة ، وهذا تارة ويراد به مجموعها وهما متلازمان كما سنوضح ذلك !

فأما دعاء العبادة : فهو التقرب إلى الله -تعالى- بأنواع العبادات من الصلاة والذبح ، والنذر ، والصيام ، والحج وغيرها خوفا من عقاب الله وطمعا في رحمتـــه وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب ، فالعابد الذي يرغب في حصول مطلوبه ويخاف على فواته هو سائل لما يطلبه بامتثال أمر الله -تعالى- .

وأما دعاء المسألة : فهو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه ومـــن يملك الضر والنفع هو المعبود حقا ، والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر. (١)

ولقد أنكر -الباري- سبحانه -على الذين يعبدون غيره ممن لا يملكون لعابديه ضرا ولا نفعا ، وكثر أسلوب الإنكار في القرآن الكريم من أجل هذا .

قال تعالى : (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا) (٢)

فهذه الآية تضمنت الإنكار الشديد على عباد الأصنام والأنداد والأوثان وبدايـــة الآية كما هو مشاهد أمر موجه للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول : لعمـــوم العابدين لغير الله -تعالى- من سائر بني آدم بما فيهم النصارى (أتعبـــدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا) أي : لا يقدر على دفع ضر عنكـــم ولا إيصال نفع إليكم ، أما الله -جل وعلا- فإنه يسمع أقوالكم ويعلم أحوالكم فلـــم تعدلون عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ولا يملك ضرا ولا نفعا لغيره ولا لنفسه ؟ (٣)

---

١) مجموع الفتاوى ١٥ / ١٠ بدائع الفوائد لابن القيم ٣ / ٢ ، تيسير العزيز الحميد ص ١٨٠ ، ١٩٢ .

٢) سورة المائدة آية : ٧٦ .

٣) أنظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٦١٧ .

وقال تعالى زيادة في الإنكار على الذين يعبدون مالا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

(ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) (١) وقال (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) (٢) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) (٣)

وغيرها من الآيات كثير كلها تنفي عن المعبودين من دون الله النفع والضر القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم ضرا ولا نفعا فالمعبود يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ، ويدعى على طريق الخوف والرجاء دعاء العبادة ومن هذا يعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة يتضمن دعاء العبادة . ومن هذا قوله - تعالى - (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) (٤) .

فهذه الآية اشتملت على نوعي الدعاء وفسرت بهما معا .

فقيل : أعطيه إذا سألني .

وقيل : أثيبه اذا عبدني (٥) .

وكلا التفسيرين متلازمان " وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعا فتأمله فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدا هي من هذا القبيل " (٦) .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) (٧) .

وهذه الآية فيها قولان للمفسرين :

الأول : قيل لولا دعاؤكم إياه .

الثاني : قيل لولا دعاؤه إياكم إلى عبادته . (٨) .

---

١) سورة يونس آية : ١٨ . (٢) سورة يونس آية : ١٠٦ .
٣) سورة الفرقان آية : ٥٥ . (٤) سورة البقرة آية : ١٨٦ .
٥) مجموع الفتاوى ١٥ / ١١ ، بدائع الفوائد : ٣ / ٣ .
٦) بدائع الفوائد ٣ / ٣ .
٧) سورة الفرقان آية : ٧٧ .
٨) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٥١٧ ، وانظر إملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن ٢ / ١٦٦ .

فعلى القول الأول : يكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، وعلى القول الثاني : يكون المصدر مضافا إلى المفعول - ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله - تعالى - الأول (١) وعلى هذا فالمراد بلفظ الدعاء في الآية نوعا الدعاء وهو في دعاء العبادة أظهر والمعنى أي ما يعبأبكم لولا أنكم تعبدونه عبادة تستلزم طلبه وسؤاله .

وقال تعالى (وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (٢) .

وهذه الآية أيضا تضمنت نوعي الدعاء معا إلا أنها في دعاء العبادة أظهر ولذلك جاء التعقيب بعد الأمر بالدعاء فيها بقوله (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) .

وقد روى الترمذي بإسناده إلى النعمان بن بشير رضي الله تعالى - عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: "إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم غداخرين) قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح (٣) .

فهذه الآيات التي قدمنا ذكرها دلت دلالة صريحة على أن نوعي الدعاء بينهما تلازم كما قدمنا ذلك قريبا ، فينبغي للإنسان أن يكون على معرفة بهذا وأن يحققه جيدا حتى يستطيع الرد على القبوريين الذين يدعون أهل القبور من دون الله - تعالى - ويحتجون على من أنكر عليهم فعلهم ذلك بأن الدعاء الذي أمر الله بأن يكون خالصا له وحده لا شريك له إنما هو دعاء العبادة وليس المسألة ويزعمون أن قوله تعالى (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) (٤)

---

١) مجموع الفتاوى ١٥ / ١٢ ، بدائع الفوائد ٣ / ٣ .
٢) سورة غافر آية : ٦٠
٣) سنن الترمذي ٥ / ٥٢ .
٤) سورة الجن آية : ١٨ .

أي لا تبعدوا مع اللهفغيره ، والرد عليهم سهل ويسير ،

فيقال : لهم سلمنا لكم جدلا أن المراد به دعاء العبادة لكن لا يمنع ذلك من أن يدخل فيه دعاء المسألة لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ويقال : لهم أيضا إن الله تعالى -أمر عباده بأن يدعوه دعاء مسألة في مواضع كثيرة من كتابه .

قال تعالى : (قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (١)

فهذه الآية واضحة في دعاء المسألة ، ويؤيد ذلك سبب نزولها وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو ربه فيقول مرة : يا ألله ، ومرة " يا رحمن" فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما " سمع المشركون النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في سجوده " يا رحمن يا رحيم" وهو يدعوه مثنى مثنى فأنزل الله هذه الاية قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحدا (٢) ومعنى هذه الآية الكريمة : الأمر للنبي صلى اللهعليه وسلم بأن يقول للمشركين الذين أنكروا صفة الرحمة لله -عز وجل- المانعين من تسميته (بالرحمن) "أدعوا الله أوادعوا الرحمن" أي لا فرق بين دعائكم له باسم " الله " أو باسم " الرحمن" فإنه ذو الأسماء الحسنى .

وقال تعالى (أدعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين) (٣) .

وهذه الآية تضمنت إرشادا من الله لعباده بأن يدعوه تضرعا وتذللا لأن الدعاء فيه صلاح دنياهم وأخراهم ، كما أنها تتناول نوعي الدعاء لكنها ظاهرة الدلالة في دعاء المسألة المتضمن دعاء العبادة ولهذا أمر -سبحانه- بإخفائه وإسراره" (٤)

وقوله تعالى في هذه الآية (إنه لا يحب المعتدين) فسر الاعتداء بتفسيرين :

١) قيل : المراد إنه لا يحب المعتدين في الدعاء كالسائل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك . وقد جاء في سنن أبي داود رحمه الله تعالى عن

---

١) سورة الاسراء آية : ١١٠ .
٢) مجموع الفتاوى ١٥ / ١٤ ، بدائع الفوائد ٣ / ٥ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٣٥٩ .
٣) سورة الأعراف آية : ٥٥ .
٤) مجموع الفتاوى ١٥ / ١٥ ، بدائع الفوائد لابن القيم ٣ / ٦ .

عبد الله بن معقل أنه سمع ابنه يقول : (أللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال : يا بني سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء" (١) .

وعلى هذا فالإعتداء في الدعاء تارة يكون بسؤال الله ما لا يجوز له سؤاله كسؤاله العون على المعصية ، وتارة يسأل الله سؤالا لا يفعله كطلب الخلود إلى يوم القيامة أو يدفع عنه لوازم البشرية بأن يرفع عنه الحاجة إلى الطعام والشراب أو يطلعه على الغيب أو يجعله في المعصومين ، أو يطلب من الله الولد من غير زوجة وغير ذلك مما سؤاله اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله .

(٢) التفسير الثاني للآية : قيل الإعتداء برفع الصوت في الدعاء (٢) .

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الآية تكون أعم من ذلك كله وإن كان الإعتداء في الدعاء هو المقصود بها فهو من جملة المراد (إنه لا يحب المعتدين) (٣) في كل شيء دعاء كان أو غيره كما قال تعالى (ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين) (٤)

وعلى القول بعموم الآية فإن من أعظم الاعتداء أن يدعى غير الله تعالى من المخلوقين سواء أكان الدعاء يوجه إليهم مباشرة أو يدعون الله بهم كل ذلك اعتداء لا يحبه الله تعالى - لأنه وضع للعبادة في غير موضعها ومن الإعتداء أن يدعو الإنسان ربه تبارك وتعالى وهو غير مظهر للتضرع والتذلل فيكون دعاء هذا كدعاء المستغني المدل على ربه وهذا من الاعتداء الذي لا يحبه الله فمنافاته دعاء العبد المتذلل فمن لم يسأل ربه مسألة مسكين متضرع خائف فهو من المعتدين كذلك من الإعتداء عبادة الله بما لم يشرعه ، ولا أذن فيه أو يثني على الله بما لم يثن به على نفسه فذلك من الإعتداء في دعاء الثناء والعبادة ، وهو شبيه الإعتداء

---

١) ١ / ٢٢ +

٢) مجموع الفتاوى ١٥ / ٢٢ ، تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٠ .

٣) سورة الأعراف آية : ٥٥ .

٤) مجموع الفتاوى ١٥ / ٢٣ والآية رقم (١٩٠) من سورة البقرة .

في دعاء المسألة والطلب قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وعلى هذا فتكون الآيـــة دالة على شيئين :

أحدهما : محبوب للرب - سبحانه - وهو الدعاء تضرعا وخفية .

الثاني : مكروه له مسخوط وهو الإعتداء ، فأمر بما يحبه وندب إليه وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير وهو لا يحب فاعلهُ ومن لا يحبه اللـــه فأي خير يناله . . . . إلى أن قال فقسمت الآية الناس إلى قسمين داع للـــه تضرعا وخفية ، ومعتد بترك ذلك " أ.هـ (١) .

وقال تعالى (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين) (٢) .

والآيات كثيرة جدا في إثبات دعاء المسألة المتضمن دعاء العبادة ويكفينا منها هذا القدر الذي قدمنا ذكره وكلها فيها الرد الواضح على من ينكر عبودية دعاء المسألة ويكابر مناصرة لدعاء الموتى من أهل القبور ، بزعمه أن الدعاء الوارد في القـــرآن إنما المراد به دعاء العبادة ، ليسوغوا لأنفسهم سؤال غير الله - تعالى - ودعاء أهل القبور ، وقد اعتبر القرآن دعاء غير الله - تعالى - من أبلغ الضلال قال تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) (٣) فالآيـــة الأولى بينت أنه لا أضل ممن يدعو أحدا من دونه كائنا من كان وأن المدعو ليـــس لديه استجابة لما طلب منه من ميت أو غائب أو صنم أو وثن فالداعي لغير اللـــه حظه من ذلك الخسران والخيبة ، وأما الآية الثانية فقد بينت أنه إذا كان يوم القيامة فإن المعبود من دون الله يتبرأ ممن عبده ومن عبادته بل ينقلب له عدوا .

---

١) مجموع الفتاوى ١٥ / ٢٣-٢٤ .

٢) سورة الأعراف آية : ٥٦ .

٣) سورة الأحقاف آية : ٥-٦ .

قال العلامة عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب : فدلت أيضا : أي الآية على أن دعاء غير الله عبادة له وأن الداعي له في غاية الضلال وقد وقع من هـذا الشرك في هذه الأمة ما طم وهم حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان مجهولا عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله ×- تعالى - وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان لكن القلوب انصرفت إلى ما زين لها الشيطان " أ.هـ (١) .

وهو كما قال رحمه الله - تعالى - فإن الشيطان زين لبعض المسلمين دعاء أهـل القبور واللجوء إليهم عند الشدائد والإستغاثة بهم في الملمات ، والناظر بعين البصيرة لما عليه القبوريون في أغلب الأقطار الإسلامية يقطع يقينا ب بأنهم بدلـوا قولا غير الذين قيل لهم فبدلا من إتيانهم القبور للدعاء لأهلها بالمغفرة والرحمة وسؤال العافية لهم تجدهم يدعونهم ويسألونهم مطالب لا يقدر عليها إلا اللـه - تعالى - أو يدعون الله - تعالى - بهم بقصد القربى وأنهم يشفعون لهم عنـد الله - تعالى - ونسوا أن المقصود من زيارة القبور أمران :-

الأمر الأول : تذكّر الآخرة والإعتبار والإتعاظ وقد أشار إلى ذلك المصطفى عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث بريدة رضي اللـه عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروهـا فإنها تذكر الآخرة" (١) وهذا من إحسان الحي إلى نفسه .

الأمر الثاني : الإحسان : إلى الميت بالدعاء له بالرحمة والمغفرة كما كان يفعلـه صلى الله عليه وسلم فإنه كان إذا زار أهل البقيع يقول : " السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غدًا مؤجلون ، وإنا ان شاء الله بكم لا حقون اللهم اغفـر لأهل بقيع الغرقد" (٣) .

---

١) قرة عيون الموحدين : ص/ ١٠٤ .

٢) سنن الترمذى : ٢/ ٢٥٩ .

٣) رواه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها : ٢/ ٦٦٩ .

هذه هي الزيارة المشروعة التي يريدها أهل التوحيد ، وأما زيارة الذين أشربت قلوبهم بعبادة غير الله فإنهم يزعمون أن الميت المعظم الذي لروحه قرب ومنزلة عند الله - تعالى - لا يزال تأتيه الألطاف من قبل الله - تعالى - وتفيض على روحه الخيرات ، فإذا علق الزائر روحه به ، وقربها منه يحصل لها الفيض من روح ذلك المزور ويكتسب من تلك الألطاف بواسطتها كما ينعكس شعاع المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل ، وقالوا لا تتم الزيارة إلا اذا توجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت وعكف بهمته إليه ووجه قصده وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره وكلما كان جمع همته ، وقلبه عليه أعظم ، كان أقرب إلى انتفاعه به والذي قرر هذه الزيارة الشركية على هذا النحو ابن سينا والفارابي وغيرهما (١) وهذا ما كان عليه عباد الكواكب وعباد الأصنام ، ومن ثم تسلسل هذا الإعتقاد الباطل إلى عباد القبور فاتخذوها أعيادا ، وعلقوا عليها الستور ، فأوقدوا السرج عليها ، وبنوا عليها المساجد والقباب وهذا ما قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إبطاله ومحو أثره كلية وسد كل ذريعة تفضي إليه ولما عرف المشركون قصده وقفوا في طريقه وناقضوه في قصده وكان صلى الله عليه وسلم في شق وهم في شق ولذلك كان القرآن ينزل بتكفيرهم ولعنهم وإباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذراريهم ، وأوجب لهم النار ، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء بالرد عليهم وإبطال كل معتقد لهم في ذلك .

قال الشيخ سليمان (٢) بن عبد الله : بعد أن بين دعاء العبادة ودعاء المسألة .

"إذا تبين ذلك فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئا من نوعي الدعاء

---

١) اغاثة اللهفان ١/ ٢١٩ .

٢) هو: الشيخ : سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب أحمد السلسلة الذهبية التي قيضها الباري - سبحانه - للدعوة إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك والبدع والخرافات في الجزيرة العربية كان رحمه الله بارعا في التفسير والحديث والفقه توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف هجرية . أنظر ترجمته في كتاب "عنوان المجد في تاريخ نجد" ١/ ٢١٢ ، هدية العارفين ١/ ٤٠٨ معجم المولفين ٤/ ٢٦٨ .

الدعاء لغير الله فهو مشرك ولو قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام ، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله فمن أتى بالشهادتين ، وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة ، وإن تلفظ بهما كاليهود الذين يقولون : لا إله إلا الله وهم مشركون ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعا" (١)

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن الدعاء عبادة لا يجوز صرفها لغير الله - تعالى .

منها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما : من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ثم يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ ..... الحديث (٢) .

وروى الامام أحمد في المسند من حديث أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" ليس شيء أكرم على الله من الدعاء " (٣) .

وإذا كان الدعاء من أجل العبادات وأكرمها على الله - عز وجل - فهلا يعقل أولئك القبوريون الذين ينادون أهل القبور ويستغيثون بهم ويطلبون منهم المطالب التي لا يملكها إلا الله من جلب النفع ودفع الضر ؟ وهلا ينتهي أولئك الضلال الذين يدعون أنهم أولياء فيقفون في طريق العوام يزينون لهم دعاء الأموات والإستغاثة بهم فيضلونهم ويصدونهم عن سبيل الله بل وصل الحد بمن يدعي الولاية أنه يضمن لتابعيه دخول الجنة والنجاة من النار وقد قال تعالى (مخاطبا سيد الأولين والآخرين (أفمن حق عليه العذاب أفأنت تنقذ من النار؟) فأين هؤلاء الجهلة من هذه الآية ؟ فإذا كان سيد الأولين والآخرين لا يقدر على إنقاذ

---

١) تيسير العزيز الحميد ص: ١٩٢ .
٢) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٣ / ٢٩ ، صحيح مسلم ١ / ٥٢١ .
٣) ٢ / ٣٦٢ .

من حقت عليه كلمة العذاب فكيف يدعى أولئك العصاة أنهم يملكون ذلك فالواجب على كل مكلف أن يعرف ما ربه من الواجب عليه وأن يخلص له الدين حتى يكون من عباده الموحدين وليعلم أن ربه أوحى إلى نبيه بأن يأمر أمته أن يسألوا الله من فضله الذي عطاؤه لا ينفد وخزائنه ملآى لا تنضب كما في حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح (١) .

فلا يسأل إلا الله ولا يدعى إلا هو وحده لا شريك له لأن غير الله لا يقدر على الاعطاء والمنع ورفع الضرر وجلب النفع لأن ذلك من خصائص الرب - سبحانه - وتعالى وقد حصر الرسول صلى الله عليه وسلم العبادة في الدعاء فقال : عليه الصلاة والسلام (الدعاء هو العبادة) (٢) .

جاء في عون المعبود أي : هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة لدلالته على الإقبال على الله والإعراض عما سواه بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه قائما بوجوب العبودية معترفا بحق الربوبية عالما بنعمة الإيجاد اهـ (٣) .

فهذه الأحاديث التي قدمنا ذكرها تدل على أن دعاء غير الله من ميت وغائب وحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله من جلب النفع ودفع الضر أو تحويله هو الشرك بعينه بل ذلك من الشرك الأكبر إذا أن الداعي إنما يدعو الله إذ انقطع أمله مما سوى الله وذلك هو خلاصة التوحيد فمن دعا غير الله - تعالى أو ناداه فقد سوى بينه وبين الله - تعالى - وذلك عين الشرك .

---

١) سنن الترمذي ٤/٧٦ .

٢) المصدر السابق ٥/٥٢ ، وانظر سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود ٤/٣٥٢

٣) ٤/٣٥٢ .

والناظر لحال بعض المسلمين اليوم من الذين ينادون أهل القبور ويستغيثون بهم ويطوفون بقبورهم ، ويذبحون لهم وينذرون لهم فإنه يرثى حالهم ويعلم تدهور العقيدة الصحيحة في قلوبهم ، والموجب لهم ذلك أنهم عن كتاب ربهم معرضون وعن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم غافلون ، وبسبب ذلك فعلوا فعل المشركين الذين كانوا يدّعون أنهم ما يعبدون الآلهة إلا لكي تشفع لهم عند الله ، وهذا ما وقع فيه جهلة المسلمين ، من الخضوع والتذلل عند القبور، ويطلبون من أصحابها مطالب لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

وعندما يشاهد الإنسان الذي عرف العقيدة الصحيحة بعض المفتونين من القبوريين الذين ينادون أهلها الذين لا يملكون لغيرهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ، ولا حياة ولا نشورا يتساءل عن الذي جعلهم يعضون على فعلهم ذلك المنكر الشنيع الذى يجعل فاعله هو وعبدة الأصنام على حد سواء في دعوتهم غير الله - تعالى - والسبب الذى دفعهم إلى ذلك يتمثل في الأمور الآتيـة :-

١ - جهلهم أولا : بحقيقة ما أرسل الله به رسوله عليه الصلاة والسلام ، بل جهلهم بما دعا إليه جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من تحقيق التوحيد ، وقطع كل صلة تؤدي إلى الشرك بالله العظيم فكان حظهم من ذلك قليلا ، فدعاهم الشيطان إلى تلك الفتنة لأنه لا يوجد عندهم من العلم ما يدحضون به دعوته فاستجابوا لدعوته بقدر ما عندهم من الجهل وعصموا بحسب ما عندهم من العلم .

٢- من الأسباب التي جعلتهم يدعون أهل القبور الأحاديث المكذوبة المختلقة التي وضعها على الرسول صلى الله عليه وسلم أمثال عباد الأصنام من القبوريين لمناقضة دين الإسلام وزعزعة العقيدة المحمدية من النفوس مثل حديث : " إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور" وحديث " لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه " وأمثال هذه الأكاذيب التي تناقض قواعد الدين ، وضعها المشركون ، وراجت عند الجهلة من بعض المسلمين ، فالرسول صلى الله عليه وسلم ما بعث إلا لقتل من حسن ظنه بالأحجار وتجنيب الأمة فتنة القبور .

٣ - من الأسباب التي جعلت القبوريين يصرفون عبودية الدعاء لغير الله تعالى الحكايات المكذوبة لأصحاب تلك القبور مثل : أن فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدة نزلت به ، فخلص منها ، وفلانا دعاه ، أو دعا به في حاجة فقضيت له وفلانا نزل به ضر ، فرجا صاحب القبر الفلاني فكشف ضره ، وعند سدنة القبور من الأكاذيب والأساطير الباطلة الشيء الكثير ، وهم من أكذب الناس على الأحياء والأموات ونفوس بني آدم مفطورة بحب من يقضي حوائجها ويزيل ضروراتها ، فعند ما يسمعون أن القبر الفلاني ترياق مجرّب والشيطان يتلطف في دعوة المضطر المحترق القلب ، فقد يجيب الله دعوتهم ابتلاءً وامتحانا ، فالجاهل عند ما تحصل له إجابة الدعوة يظن أن لذلك القبر تأثيرا في إجابة الدعاء ، والله - سبحانه - يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، ولو كان كافرا ومصداق ذلك قوله تعالى (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) (١) .

فليس كل من أجاب الله دعوته يكون راضيا عنه ، ولا محبا له ولا راضيا بفعله ، فإنه - سبحانه - يجيب دعوة البر والفاجر والمؤمن والكافر" (٢) .

وقد تعلق القبوريون ببعض الأحاديث ، وظنوا : أنها دليل يجيز لهم ما يفعلونه عند القبور ، ومن تلك الأحاديث ما رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه بإسنادهما إلى عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أدع الله أن يعافيني قال : إن شئت أخرت ذاك فهو خير وفي رواية" وإن شئت صبرت فهو خير لك فقال : ادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء "اللهم أني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي ، اللهم فشفعه في وشفعني فيه .....الحديث قال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبي" (٣)

---

١) سورة الاسراء آية : ٢٠ .

٢) انظر إغاثة اللهفان : ١/ ٢١٤-٢١٥ .

٣) المسند ٤/ ١٣٨ ، المستدرك ١/ ١٩ ، الترمذي ٥/ ٢٢٩ . ابن ماجه ١/ ٤١٨

هذا الحديث ضعفه بعض العلماء بحجة أن في إسناده أباجعفر .

قال الترمذى : "لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وليس الخطمي"(١) فظنوا أنه أبو جعفر الرازى ، ودرجة الرازى صدوق ولكنه سيء الحفظ" (٢) .

والصواب : أنه أبو جعفر الخطمى حيث أن الإمام أحمد نسبه في إحدى روايات الحديث بأنه الخطمي ، ونسبه في أخرى فقال : المدنى" (٣) .

فالحديث صحيح ، وإنما الكلام في الزيادة التي تنسب إلى عثمان بن حنيف مع الرجل في زمن خلافة عثمان وسيأتى الكلام عليها قريبا .

فقلد تعلق القبوريون بقوله : " يا محمد إنى توجهت بك إلى ربي " .

وقالوا : لو أن دعاء غير الله شرك لم يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء الذى فيه المنادات لغير الله .

والجواب : أن يقال : إن شبهتكم هذه باطلة من وجوه :-

الوجه الأول : أن الضرير كان مجيئه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأجل أن يدعو له بدليل قوله في الحديث " أدع الله أن يعافيني فيجب أن تفهم هذه الفقرة أولا ، وقبل كل شيء حتى يعرف الفرق بين طلب الضرير من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتوجهه بدعائه مع حضوره ، وبين دعاء الجهلة للأموات ، والسجود لهم ولأضرحتهم ، والتوكل عليهم واللجوء إليهم في الشدائد وخطابهم بالحوائج من الأمكنة القريبة والبعيدة ، فالضرير طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ويشفع له ، وهذا نوع من التوسل المشروع ، وهو التوسل بدعاء أهل الصلا والتقى فأين هذا من دعاء غير الله والإستغاثة به .

الوجه الثاني : أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر ذلك الضرير أن يدعو الله بنفسه ويسأله قبول شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وهذا من أوضح الأدلة على أن دعاء غير الله شرك بالله العظيم ، فالمخلوق لا يدعى من دون الله سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ، أو رجلا صالحا لأنهم لا يقدرون على النفع والضر إذ ذلك

---

١) سنن الترمذي ٥ / ٢٢٩ . (٣) أنظر التقريب ٢ / ٤٠٦ . (٣) المسند ٤/ ١٣٨

خاص برب العالمين بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقدر على شفائه إلا بعد دعاء الله له .

الوجه الثالث: أن قوله في الحديث " يا محمد إني توجهت بك إلى ربي لا يدل على جواز سؤال الغائب ، ولا على جواز سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا فاطر السموات والأرض ، لا من طريق العبادة ، ولا عن طريق الإشارة ، ومن ادعى ذلك فقد افترى على الله كذبا لأنه لا يخلو الأمر من حالين : إما أن يكون ذلك الضرير سأل النبي نفسه ، وهذا سؤال للمخاطب فيما يقدر عليه ، وهو أن يدعو له وهذا لم ينكره أحد لأنه أمر جائز لا محذور فيه .

وإما أن يكون توجه بالنبي صلى الله عليه وسلم دون سؤاله أن يدعو له فهو لم يسأل منه ، وإنما سأل من الله سواء كان متوجها بدعائه كما هو لفظ الحديث ، أو كان متوجها بذاته عليه الصلاة والسلام ، وهو القول الضعيف ، لأن التوجه بذوات المخلوقين ، والإقسام بهم على الله من البدع المنكرة التي لم تؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة الكرام ، ولا عن التابعين لهم بإحسان ، ولا عن أحد من أئمة الدين عليهم رحمة الله أجمعين " (١) .

ومن حججهم التي احتجوا بها على جواز التوجه إلى القبور ودعاء أهلها ما أخرجه الطبراني من قصة الرجل مع عثمان بن عفان رضي الله عنه ، من طريق عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة سهل بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في زمن خلافته ، فكان لا يلتفت إليه ، ولا ينظر في حاجته فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان : ائت الميضأة ، فتوضأ ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك - عز وجل - فيقضي لي حاجتي . . . . . الخ (٢)

---

١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٢٠٨-٢٠٩ .

٢) القصة بتمامها في المعجم الصغير للطبراني ١ / ١٨٣-١٨٤ ، المعجم الكبير (١/٢/٢-٢)

قال الذين تعلقت قلوبهم بدعاء غير الله من الأموات أهل القبور هذا دليل على جواز دعاء غير الله من غائب وميت صالح لأن عثمان ابن حنيف علم الرجل أن يدعو الرسول بعد موته وناداه فقضيت حاجته .

وهذه القصة باطلة متنا وسندا .

أما من ناحية المتن فهي تدل بتركيبها ، وترتيبها على أن هناك من وضعها واختلقها ، وأن الصحابي الجليل عثمان بن حنيف بريء منها لأنه يعلم أن التوسل المشروع إنما يكون بدعاء الشخص المتوسل به لا بذاته كما هو المعهود عند من يجهل حقيقة التوسل المشروع .

ثم إن المعروف من حياة عثمان قبل الخلافة وبعدها أنه كان ليناً رقيقاً عطوفاً كثير الإهتمام بمصالح المسلمين العامة والخاصة ، ولم يثبت أنه أهمل أحداً من قضاء حاجته بل إنه كان يتتبع احتياجات المسلمين دون أن يعلموا ذلك فضلاً عن أن الشخص يدخل على عثمان ويتردد عليه مراراً ، ولم يسأله عن حاجته فهذا بعيد جداً ، فلا يليق بمكانة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ولا بمكانة من دونه من الصحابة ." (١) .

وأما من ناحية سند هذه القصة فهو ضعيف لأن فيها شبيب بن سعيد

قال الذهبي في الميزان : " شبيب بن سعيد صدوق يغرب (٢) .

وقال ابن عدي : (٣) كان شبيب لعله يغلط ويهم اذا حدث من حفظه ، وأرجو أنه لا يتعمد . فإذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس ، فكأنه شبيب آخر يعني يجود " أ.هـ (٤) .

---

١) انظر التوصل إلى حقيقة التوسل ص ٢٤٢-٢٤٣ بتصرف .
٢) الميزان ٢/٢٦٢ .
٣) هو : عبدالله بن عدي بن عبد الله بن محمد بن مبارك بن القطان الجرجاني أبو أحمد علامة بالحديث ورجاله ولد سنة سبع وسبعين ومائتين ، وتوفي سنة خمس وستين وثلاثمائة هجرية . أنظر ترجمته في " سير أعلام النبلاء ١٦/١٥٤ - ١٥٧ ، تذكرة الحفاظ ٣/٩٤٠ - ٩٤٢ .
٤) الكامل في ضعفاء الرجال ٤/١٣٤٦-١٣٤٧ ، الميزان ٢/٢٦٢ .

وهذا الكلام لابن عدي يفيد أن شبيبا هذا لا بأس بحديثه إذا كان من رواية ابنه أحمد عنه ، ويكون شبيب يروى عن يونس.

والسبب في ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل " هو أنه كان لديه كتب يونس بن يزيد فهو إذا حدث منها أحاد ، وإذا حدث من حفظه وقع في الوهم " (١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : بعد أن ساق قصة ابن حنيف " فهذه الزيادة فيها عدة علل : انفراد هذا بها -أي : شبيب- عمن هو أكبر منه وأحفظ ، وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وأن راويها عرف لم يرو هذا أحاديث منكره ، ومثل هذا يقتضى حصول الريب والشك في كونها ثابتة فلا حجة فيها إذا الإعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه إذا كان اللفظ الذي رواه لا يدل على ما فهمه ، بل على خلافه" أ.هـ (٢) .

وبهذا نعرف أن هذه القصة لا تصح لا نهيارها متنا وسندا .

ومن حجج القبوريين التي يحتجون بها على دعائهم غير الله ما رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة بإسناده إلى ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا فان لله -عز وجل- حاضرا سيحبسه " (٣) .

هذا الحديث غير صحيح لأن في سنده - معروف بن حسان أبو معاذ السمرقندى عن عمر بن ذر قال ابن عدى : منكر الحديث قد روى عن عمر بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة" أ.هـ (٤) .

---

١) الجرح والتعديل ٤/٣٥٩ .

٢) مجموع الفتاوى ١/٢٧٨ ، وانظر " التوسل وأنواعه وأحكامه للألبانى ص٨٥-٨٧

٣) ص ١٩٠ .

٤) الكامل ٦/٢٣٢٦ ، الميزان ٤/١٤٣ .

فهذه الأخبار الثلاثة موجودة في كتب مشهورة ، وكما مر معنا بأن حديث الأعمى صحيح لا غبار عليه ، ولكنه ليس في محل التنزيه بل بعيد عنه .

وأما قصة عثمان بن حنيف ، والحديث الذي عند ابن السني لم يحظيا بالصحة بل هما باطلان ، وما جاء به القبوريون بعد ذلك فإنما هو من اختلاقهم أنفسهم مثل حديث "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور" وقد تقدم .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية :" فهذا الحديث كذب مفترى على النبي صلى الله عليه وسلم بإجماع العارفين بحديثه ، ولم يروه أحد من المسلمين بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة "أ.هـ (١) .

فالأخبار التي يضعها القبوريون في جواز دعاء أهل القبور والاستغاثة بهم يعرف كذبها بمجرد مرورها على السامع لأن لفظها ليس عليه رونق ، وجمال الألفاظ النبوية .

والذي نخلص إليه مما تقدم أن الدعاء من أوضح صور العبادة ، فلا يجوز أن يصرف لغير الله - تعالى - لأنه حق من حقوقه على عباده فبالدعاء يظهر ذل العبودية ويعرف العبد عزة الربوبية ، وهذا هو الغرض المقصود من جميع أنواع العبادات ذلك أن العبد حينما يقدم على الدعاء فإنه لا يقدم عليه إلا إذا عرف من نفسه أنه محتاج إلى ما يطلبه من ربه - تبارك وتعالى - ويعرف أنه عاجز عن تحصيل مقصده إلا بعون الله له على ذلك فإذا علم أن الله يسمع دعاءه ، ويعلم حاجته ، وأنه له القدرة على دفع تلك الحاجة فهو الإله الرحيم الذي تقتضي رحمته قضاء حاجات عباده ومن هنا كان المقصود من جميع التكاليف الشرعية معرفة ذل العبودية ، وعزة الربوبية والدعاء انتظم تحته الأمران ولذلك كان الدعاء من أعظم أنواع العبادات

---

١) مجموع الفتاوى ١/٣٥٦ .

٢) انظر اغاثة اللهفان ١/٢١٦-٢١٧ .

فلا يجوز أن يدعى غيره من المخلوقين أيا من أنواع الدعاء ،لا دعاء العبـــادة ولا دعاء المسألة ، ومن فعل ذلك فهو مشرك بالله العظيم ،كذلك لا يجوز الدعاء عند الأضرحة ، والقبور فإن ذلك وسيلة إلى الشرك ، وجعلها أندادا من دون الله -تعالى -، ولا يجوز أن يدعى الله بأحد من خلقه ، أو يقسم به عليه ، فـــإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه ،أو يسأل بأحد من خلقه ، وقد أنكر ذلك كلـــه أئمة الدين (١) عليهم رحمة الله أجمعين .

---

١) انظر إغاثة اللهفان ١/٢١٦-٢١٧ .

(المبحث الخامس)

عبودية الخوف

الخوف في اللغة : الفزع .

قال في القاموس : خاف يخاف خوفا ومخافة وخيفة بالكسر . . . . . فزع" (١)

وجاء في اللسان : الخوف : الفزع خافه يخافه خوفا وخيفة ومخافة " (٢) .

وأما تعريف الخوف شرعا :

فقد عرفه العلامة ابن القيم بقوله : " الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف" أ.هـ (٣)

ومقصودنا الذي نريده هنا هو : أن الإنسان لا يخاف خوف السر إلا من - الباري سبحانه وتعالى - ، ومعنى خوف السر أن يخاف العبد من غير الله - تعالى - أن يصيبه منه مكروه بمشيئته وقدرته ، وإن لم يباشره ، فإذا وقع الإنسام في شيء من هذا فإنه وقع في الشرك الأكبر (٤) لأنه اعتقد حلول الضرر به الذي لا يقدر عليه إلا الله - تعالى - من غيره الذي هو عاجز أن يفعل به ذلك .

فالضار والنافع إنما هو الله - تعالى - لأنه هو الذي يملك ذلك أما غيره فليس له من ذلك شيء ، وقد جاء في السورة أن الخوف عبادة لا يستحقها إلا الله - تعالى - فلا خوف ولا رهبة إلا منه - تعالى - .

قال تعالى (قل إني أخاف أن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) .

وقال تعالى (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد) .

---

١) ٣/١٤٤ ، الصحاح ٤/١٣٥٨ .
٢) اللسان ٩/٩٩ وانظر المصباح المنير ١/١٨٤ .
٣) مدارج السالكين ١/٥١٢ ، التعريفات للجرجاني ٣٣٤ .
٤) أنظر تيسير العزيز الحميد ص ٢٤ .

فهاتان الآيتان من السورة فيهما بيان أن الخوف لا يكون إلا من الله - تعالى - لأنه وحده القادر على جلب النفع للعبد ، ودفع الضر عنه ، أما غيره فلا يملك من ذلك شيئا فقوله تعالى (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) هذه الآية بينت أن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور أن يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى الله - تعالى - فيما أمره به من إخلاص العبادة والطاعة له - وحده - لا شريك له وكون الرسول صلى الله عليه وسلم يخاف عذاب يوم عظيم الذي هو يوم القيامة ذلك اليوم الذي يعظم هوله ويشتد خطره لهو من أبلغ الزجر لغيره ، إذ غيره صلى الله عليه وسلم يجب أن يعظم خوفه من باب أولى لأنه - تعالى - قد أخبرنا في محكم كتابه أنه قد غفر لنبيه ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) (١)

وقد ذكر القرطبي : في تفسيره عن سعيد ابن المسيب وأبي حمزة (٢) الثمالي أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) فكان هذا الخطاب موجها للرسول صلى الله عليه وسلم من قبل أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" (٣) .

وأما قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه) . الآية

ففيها إخبار من الله - جل وعلا - بأنه الكافي لعبده العابد له وحده لا شريك له إذا صدق في التوكل عليه - سبحانه وتعالى - وفيها أيضا : بيان أن المشركين كانوا يخوفون الرسول صلى الله عليه وسلم بما يعبدون من دون الله من الأوثان والآلهة الباطلة أن تصيبه بأذى لأنه أعلن البراءة منها وعاب عبادتهم إياها وتوجيههم العبادة لمن ليس له حق فيها وجهلوا أنه صلى الله عليه وسلم قد أوى

---

١) سورة الفتح آية : ٢ .

٢) اسمه ثابت بن دينار الثمالي الأزدي بالولاء المتوفى سنة خمسين ومائة هجرية .

٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٤٢ .

إلى ركن شديد ، وعلم بأنها لا تقدر على شيء من تلك المزاعم التي اختلقوها وهي زعمهم بأن آلهتهم ستصيبه بأذى ،أو تخبله إلى غير ذلك من المزاعم التي نسبوها إليها ، ولكنه صلى الله عليه وسلم تصدى لها وبين بطلان عبادتهم لها حتى أرسى قواعد العقيدة الصحيحة ، وبين لهم أن الذي يملك النفع ويدفع الضر إنما هو الله - وحده - ومن كان ذلك شأنه هو الجدير بأن يعبد وحده ، وتوجه له العبادة الخالصة دون سواه .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى حول قوله تعالى : (ويخوفونك بالذين من دونه) يعني المشركين يخوفون الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلا وضلالا " أ.هـ (١) .

وقال الرازي جـ" جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) وذكره بلفظ الإستفهام ، والمراد تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك . . . ! إلى أن قال :" لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف عبثا وباطلا " أ.هـ (٢) ،

فعلى الإنسان أن يصدق الله - تعالى - في الإلتجاء اليه ويخلص عبودية الخوف له وحده لا شريك له ، ويحذر دعوة أهل الأهواء الذين يصدون عن سبيل الله فإذا صدق في ذلك مع الله ، فإنه عند ذلك لا يخاف إلا الله - تعالى - ويقوى إيمانه ، وثقته بالله ، مهما خوفه أهل الباطل بالتخويفات الباطلة ، فإنه لا يكترث بها لأنه يعلم أن الله كافيه كل الأخطار التي تحيط به ، وليعلم كل عبد أن الخوف فرضه الله على جميع عباده بدون استثناء .

قال تعالى (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (٣) .

---

١) ا تفسير ابن كثير ٦ / ٩٤ .

٢) التفسير الكبير ٢٦ / ٢٨١ .

٣) سورة آل عمران آية : ٧٥ .

قال ابن القيم حول هذه الآية :" ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين جنده وأولياءه لئلا يجاهدوهم ، ولا يأمروهم بمعروف ، ولا ينهوهم عن منكر ، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان ، وتخويفه ونهانا أن نخافهم ، والمعنى عند جميع المفسرين يخوفهم بأوليائه ، قال قتادة : يعظيهم في صدوركم ، ولهذا قال : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم " أ.هـ (١) .

فالآية دلت على أن إخلاص الخوف من الفرائض ، وأنه شرط في إيمان الإنسان وأن العبد إذا فقد الخوف من الله - تعالى - فقد الإيمان الواجب نسأل الله السلامة من ذلك .

وقال تعالى (وإياي فارهبون) (٢) .

وهذه الآية فيها الأمر بإخلاص الخوف لله - تعالى - وكما أنه تعالى جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة حيث قال تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) (٣) جعل كذلك الخوف لأهل الأعمال الصالحة إشارة منه - تعالى - أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل الصالح .

قال تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) (٤) .

فهذه الآيات ثناء من الله - تعالى - على الخائفين منه ، ومدح لهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

١) اغاثة اللهفان ١ / ١١٠ .

٢) سورة البقرة آية : ٤٠ .

٣) سورة البقرة آية : ٢١٨ .

٤) سورة المؤمنون آية : ٥٧-٦١ .

روى الإمام أحمد في سنده وابن ماجة في سننه عن عائشة رضى الله عنهـــا قالت قلت : يارسول الله قول الله تعالى (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة) أهو الذي يزنى ويشرب الخمر ويسرق قال : لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصـوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه "(١) .

فالله - سبحانه - قد وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف البصرى الأشقياء بالاساءة مع الامن فقال رحمه الله تعالى :" عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن تردَّ عليهـم إن المؤمن جمع إحسانا وخشية ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا " (٢) .

وقد بين العلامة ابن القيم الفرق بين الوجل ، والخوف ، والخشية ، والرهبة فقال : " الوجل ، والخوف ، والخشية ، والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة ".

فالوجل : رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته .

والخوف : اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف .

والخشية : أخص من الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله قال الله تعالى (إنمـــا يخشى الله من عباده العلماء) (٣) فهي خوف مقرون بمعرفة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم " أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . . . . .الحديث "(٤) .

وأما الرهبة : فهي الإمعان في الهرب من المكروه وهي ضد " الرغبة" التي هي : سفر القلب في طلب المرغوب فيه . . . . إلى أن قال رحمه الله وأما الهيبة : فخوف مقارن للتعظيم والإجلال ، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة والإجلال تعظيم مقرون بالحب .

فالخوف لعامة المؤمنين ، والخشية للعلماء العارفين ، والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين ، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية "أ.هـ (٥)

---

١) المسند ٦/ ٢٠٥ ، سنن ابن ماجة ٢/ ١٤٠٤ .
٢) انظر تفسير ابن جرير ١٨/ ٣٢ ، وانظر مدارج السالكين ١/ ٥١٢ .
٣) سورة فاطر آية : ٢٨ .
٤) رواه البخارى فى صحيحه من حديث أنس رضى الله عنه ٣/ ٢٣٧ .
٥) مدارج السالكين ١/ ٥١٢-٥١٣ .

ولقد مدح الله رسله بأنهم لا يخشون أحدا سواه . قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) (١) .

وقال تعالى (أفغير الله تتقون) (٢) " أي : أفغير الله أيها الناس تتقون : أي ترهبون وتحذرون أن يسلبكم نعمة الله عليكم بإخلاصكم العبادة لربكم ، وإفرادكم الطاعة له ، وما لكم نافع سواه " (٣) .

وقال تعالى : (في شأن الملائكة المقربين واصفا لهم بتحقيق عبودية الخوف : (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) (٤) .

فالخوف عبادة جليلة تعبد الله به جميع عباده من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين وسائر عباده المؤمنين .

وقد بين بعض العلماء أن الخوف أربعة أنواع :-

أحدها : خوف السر وهو أن يخاف الإنسان من غير الله - تعالى - يضيبه بأي أذى من مرض ، أو فقر ، أو قتل ونحو ذلك ويعتقد أن ما أصابه بذلك إلا بقدرته ومشيئته ، وسواء زعم أن ذلك من باب الكرامة للمخوف بالشفاعة ، أو على سبيل الإستقلال فهذا النوع لا يجوز أن يعلق بغير الله - تعالى - بحال من الأحوال لأن هذا من لوازم الإلهية ، فمن جعل مع الله ندا يخاف منه هذا الخوف فقد أشرك بالله العظيم إذ هذا معتقد المشركين في أصنامهم وآلهتهم ولذلك فإنهم كانوا يخوفون بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى في شأن إمام الحنفاء ابراهيم عليه السلام عندما خوفه قومه بآلهتهم أن تصيبه بسوء (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (٥) .

---

١) سورة الأحزاب آية : ٩ .
٢) سورة النحل آية : ٥٢ .
٣) جامع البيان : ١٧ / ١٢٠ .
٤) سورة النحل آية : ٥٠ .
٥) سورة الأنعام آية : ٨٠-٨٣ .

هذه الآيات تبين لنا موقف إبراهيم عليه السلام تجاه تخويف قومه له بآلهتهم المزعومة فقد خوفوه أنها تصيبه بأذى فبين لهم أن آلهتهم أقل وأحقر من أن تضر من جحد عبادتها وكفر بها (ولا أخاف ما تشركون به) ثم رد الأمر إلى مشيئة الباري سبحانه وتعالى - لأنه هو الذي يُخاف ويرجى فقال إلا أن يشاء ربي شيئا) وهذا الإستثناء يسمى عند النحاة استثناء منقطع ومعنى ذلك لا أخاف من تلك الآلهة التي تخوفونني بها فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة لكن إذا شاء الله أن ينالني بشيء لا راد لذلك لأن الله - تعالى - له المشيئة النافذة وقد وسع كل شيء علما أما آلهتكم لا تشاء ، ولا تعلم فيما ترى من الأولى أن يُخاف ويُعبد أهو - سبحانه - أم آلهتكم التي زعمتموها آلهة من عند أنفسكم ؟ (أفلا تتذكرون) فتدركون ما أنتم عليه من الإشراك لمن لا مشيئة له ولا علم مع من له المشيئة المطلقة والعلم التام وهو الله - تعالى - ثم استرسل الخليل عليه السلام في دحض دعواهم من أن آلهتهم ستصيبه بسوء وجعل دعواهم من أعظم الأدلة على فساد قولهم وبطلان مذهبهم وبين لهم بطلان إلهيتها وأن عبادتهم لها ستكون مضرة عليهم فقال :

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا)

أي : كيف يتسرب الخوف إلى قلبي من أوثانكم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله في عبادته آلهة أخرى فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف أهو فريق الموحدين أم فريق المشركين ؟ .

فلقد صدر الحكم بين الفريقين من عند أحكم الحاكمين وأعدل العادلين الذي لا أصح من حكمه فقال - عز شأنه - (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أي : بشرك (١) (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) فكان الحكم من قبل الله - تعالى - أن الهدى والأمن لأهل التوحيد ، وحكم لفريق الشرك بالضلال والخوف بعكس

---

١) روى الشيخان في صحيحيهما من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه فقال : إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) صحيح البخاري ٣/١٢٨ ، صحيح مسلم ١/١١٤ ، المسند ١/٣٧٨ .

ما حكم به لأهل التوحيد ، وبذلك علت حجة أبينا إبراهيم على قومه كما قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم)(١)

وقال تعالى في قصة هود عليه السلام عندما خوفه قومه بالآلهة (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون . من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) (٢) .

هاتان الآيتان بين الله فيهما موقف هود عليه السلام من مقالة قومه له حينما نصح لهم في الدعوة إلى توحيد الله وتصديقه وخلع الأوثان والتبرء منها ، ولما أيقنوا أن هودا لا يتركهم من الدعوة إلى الله وإلى عبادته وحده لا شريك له حينذاك كان قولهم ما يحملك على ذم آلهتنا إلا أنه أصابك منها خبل وجنون فكان جواب هود عليه السلام لهم جواب من وثق بربه واعتمد عليه وأصبح لا يكترث بأي تخويف كان من غير الله تعالى فقال لهم : إني أشهد الله على نفسي ، وأشهدكم أيضا : أيها القوم أنني بريء من هذه الآلهة التي أشركتموها مع الله في العبادة من دونه (فكيدوني جميعا) يقول : إعملوا كل حيلة أنتم وآلهتكم في ضري ومكروهي (ثم لا تنظرون) أي : لا تؤخرون ذلك ، ثم انظروا ماعسى أن تنالوني من السوء أنتم وآلهتكم ، فإبراهيم وهود عليهما السلام بينا أن خوف السر لا يكون إلا من الله وهو الذي بعث الله النبيين من أجله ، وهذا النوع من الخوف هو ما وقع فيه القبوريون في زمننا هذا ، فإنهم يخافون الصالحين وطواغيتهم كما يخافون الله بل أشد ، بل إنه وصل الحد بهم إذا وجبت اليمين على أحدهم ، فإنه يحلف بالله إيمانا لا حد لها سواء كان كاذبا ، أو صادقا الأمر عنده سيان ، وإذا طلب منه اليمين بصاحب القبر لم يحلف إن كان كاذبا وما ذلك إلا لأنه يعتقد أن الضرر الذي يلحقه من صاحب القبر أسرع وأقرب فالتعظيم في قلبه لذلك الولي أقوى من تعظيمه لله بكثير ، وهذه الحال لم يصل إليها المشركون الأولون ، بل غاية الأمر عندهم أنهم كانوا يحلفون بالله جهد أيمانهم .

---

١) سورة الأنعام آية : ٨٣ .

(٢) سورة هود آية : ٥٤-٥٥ .

النوع الثاني : من أنواع الخوف أن يترك العبد ما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد لأعداء الله وليس هناك أي عذر سوى أنه يخاف غير الله من بني الإنسان ولقد نهى الله عن هذا بقوله -عز وجل- (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (١) .

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحقرن أحدكم نفسه إذا رأى أمر الله فيه مقال أن يقول فيه فيقال له يوم القيامة ما منعك أن تقول فيه فيقول يا رب خشيت الناس قال : فأنا أحق أن تخشى" (٢) .

فالحديث يبين أن أحق من يخشى إنما هو الله -تعالى- .

النوع الثالث: خوف الوعيد الذي توعد الله به العاصين قال تعالى : (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) (٣) وقال تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) (٤) وقال تعالى (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) (٥) وهذا النوع يعتبر من أعلا مراتب الإيمان فالخوف الحقيقي هو الذي يكون حائلا بين المرء وبين حرمات الله تعالى .

النوع الرابع: الخوف الطبيعي كخوف العدو والحيوان المفترس وخشية الإصابة بالحرق ،أو الغرق فهذا الخوف طبيعي في الإنسان وهذا النوع لا يذم عليه العبد (٦) وهو المراد بقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام (فخرج منها خائفا يترقب(٧) فإذا اتضح هذا للإنسان فإن قوله تعالى (إنما لكم الشيطان يخوف أولياءه) إنما معناه : أنه يوهم أولياء الله أن الموالين له أهل بأس وشدة وهو غير

---

١) سورة آل عمران آية : ١٧٥
٢) المسند ٣/٤٧-٤٨ .
٣) سورة ابراهيم آية : ١٤ (٤) سورة الدهر آية : ٧ .
٥) سورة الطور آية : ٢٦ .
٦) أنظر هذه الأنواع الأربعة في " تيسير العزيز الحميد " ص ٤٢٢ - ٤٢٨ بتصرف
٧) سورة القصص آية : ٢١ .

صادق في ذلك ، ولذلك فإن الله تعالى أرشد عباده بقوله (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) فلا يجوز الإخفاء لإبهام الشيطان وتسويله ، بل الواجب على المؤمنين أن يعلموا أن الله كافيهم وناصرهم على أولياء الشيطان وآمرهم بقتالهم وبين أن كيد الشيطان ضعيف .

قال تعالى (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (١) .

فكلما قوى إيمان العبد ذهب من قلبه خوف أولياء الشيطان وإذا ضعف إيمانه فان خوف أولياء الشيطان يقوى في قلبه فيجب على العبد أن لايخاف إلا الله وحده وأن يخلص ذلك لوجهه - تعالى - دون سواه ، بل جعل الله ذلك شرطا من شروط الإيمان كما قال تعالى (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (٢) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

" وبعض الناس يقول : يارب إني أخافك وأخاف من لا يخافك ، وهذا كلام ساقط لا يجوز ، بل على العبد أن يخاف الله وحده ، ولا يخاف أحدا لا من يخاف الله ولا من لا يخاف الله ، فإن من لا يخاف الله أخس وأذل أن يُخاف ، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان فالخوف منه قد نهى الله عنه " أ.هـ (٣) .

وقال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) (٤) دلت هذه الآية على أن خشية الله وحده دون أحد من خلقه من علامة صحة إيمان العبد بربه - تبارك وتعالى - .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى :" ولم يخش إلا الله) يقول : ولم يرهب عقوبة شيء على معصية سوى الله " أ.هـ (٥)

وكما دل القرآن على أن الخوف عبادة يجب إخلاصها لله - تعالى - كذلك دلت

---

١) سورة النساء آية : ٧٦ .
٢) سورة آل عمران آية : ١٧٥ .
٣) مجموع الفتاوى ١٤/٢٠٦ .
٤) سورة التوبة آية : ١٨ .
٥) جامع البيان ١٠/٩٤ .

السنة على أن الخوف لا يكون إلا من الله ، ولا يصرف لأحد سواه فلا خوف ولا خشية إلا منه - جل وعلا - .

روى البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه بسنده إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : صنع النبى صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فخطب فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية " (١) .

هذا الحديث بيّن ما يجب أن يكون عليه العبد المسلم وهو أن يكون على معرفة بالله أولاً : وقبل كل شيء ، فاذا عرف الله ، واستقرت معرفته في قلبه هنا لك يكون من أشد عباد الله خشية منه ومحبة له وإنابة إليه - سبحانه وتعالى - .

وروى مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي " (٢) .

وكذلك كان صلى الله عليه وسلم أخشى عباد الله على الإطلاق وأعلمهم بما يتقى من الأمور ، وقد أكرمه الله بذلك ، وهذا الإخبار منه صلى الله عليه وسلم تعليما للأمة أن تقتدي به عليه الصلاة والسلام ، فالخوف من الله - تعالى - له فضل عظيم عند الله تعالى يورث العبد رحمة الله وعفوه .

روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر رجلا فيمن سلف ، أو فيمن كان قبلكم قال كلمة يعني أعطاه الله مالا وولدا فلما حضرت الوفاة قال لبنيه : أي أبٍ كنت لكم ؟ قالوا خير أب قال : فإنه لم يبتئر ، أو لم يبتئز(٣) عند الله خيرا وإن يقدر الله عليه يعذبه فانظروا إذا مت فأحرقوني حتى إذا صرت فحما فاسحقوني ، أو قال فاسحكوني ، فإذا كان يوم ريح عاصف فأذروني فيها فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخذ مواثيقهم على ذلك

---

١) ٤/٦٦ .

٢) ٢/٧٨١ .

٣) أي : لم يدخر .

وربي ففعلوا ثم أذروه في يوم عاصف فقال الله -عز وجل- كن فذا هو رجل قائم قال الله أي عبدي ما حملك على أن فعلت ما فعلت ؟ قال مخافتك أو فرقك منك (١) قال فما تلافاه أن رحمه عندها وقال مرة فما تلافاه غيرها" (٢) .

فهذا الحديث دل على أن العبد إذا أخلص العبادة لله ولم يبتغ بها أحدا سواه وأخلص الخوف لله -جل وعلا- أورثه ذلك مغفرة الله -تعالى- ورحمته ، فعلى الإنسان أن لا يخاف إلا ربه العلي الكبير ، أما ما سواه فلا يخاف منه لأنه لا يستطيع أن يضره إلا بإذن الله -تعالى- ولا يقدر على نفعه إلا بما كتبه الله له فالفضل كله عائد إلى الله -تعالى- بداية ونهاية .

وروى الشيخان في صحيحيهما من حديث عائشة رضى الله عنها في قصة خسوف الشمس على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث صلى بهم صلاة الكسوف ركعتين في كل ركعة ركوعان ثم انصرف إلى الناس وقد انجلت الشمس ووعظهم موعظة بين لهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يتخسفان لموت أحد ولا لحياته وأرشدهم أنهم اذا رأوا ذلك دعوا الله تعالى وكبروه وصلوا وتصدقوا .

" ثم قال : يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" (٣) .

فقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن أمته لو تعلم ما يعلم من عظيم قدرة الله وشدة انتقامه من العصاة الفاسقين لتركوا الضحك ، ولما حصل منهم إلا في النادر لشدة غلبة الخوف والحزن الذي يعلو قلوبهم .

قال صاحب تحفة الأحوذي (٤) :" لو تعلمون ما أعلم " أي : من عقاب الله للعصاة وشدة المناقشة يوم الحساب لضحكتم جواب لو" ولبكيتم كثيرا" أي : بكاء كثيرا ، أو زمانا كثيرا أي : من خشية الله ترجيحا للخوف على الرجاء ، وخوفاً من سوء الخاتمة أ.هـ (٥) .

---

١) الفرق : الخوف .

٢) صحيح البخاري ٤ / ٢٩٨ .

٣) " " ١ / ١٨٥ ، صحيح مسلم ٢ / ٦١٨ .

٤) اسمه محمد بن عبد الرحمن المباركفوري المتوفى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة

٥) ٦ / ٦٠٣ .

وروى الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من خاف أدلج (١) ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة" (٢) .

هذا الحديث من الأمثلة النبوية التي ضرب بها الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يسلك طريق الآخرة إذ الشيطان واقف على طريقه والنفس تمنيه الأماني الكاذبة فإن كان متنبها في سيره وأخلص النية في العمل أمنه الله من الشيطان ومكره فطريق الآخرة يحتاج إلى جهد كبير لتحقيق العمل الصالح لأن الجنة ثمنها الأعمال الصالحة قال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن) (٣) .

وروى الترمذى أيضا : من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت قال : " شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت قال الترمذى هذا حديث حسن غريب " (٤) .

فهذا الحديث تضمن شدة خوف النبى صلى الله عليه وسلم من الله - تعالى - فلما تضمنت السور المذكورة في الحديث كثيرا من أهوال يوم المعاد ، وما نزل بالأمم التى خلت من قبل أمة محمد من النوازل أخذت تلك السور من النبي صلى الله عليه وسلام مأخذها حتى ظهر فيه الشيب قبل وقته الذي فيه فينبغى لكل مسلم أن لا يخاف إلا الله تعالى الذي بيده أزمة الأمور جميعها ، ويسعى في تحقيق عبودية الخوف ويجعلها خالصة لله - تعالى - امتثالا لأمر البارى - سبحانه - واقتداءً بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولقد حقق الصحابة عبودية الخوف على أكمل وجه رأته فهذا هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع قارئا

---

١) الدلجة : السير أول الليل .
٢) سنن الترمذى ٤ / ٥١ .
٣) سورة التوبة آية : ١١١ .
٤) سنن الترمذى ٥ / ٧٦ .

يقرأ سورة الطور حتى بلغ (إن عذاب ربك لواقع) (١) بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه (٢) .

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبل لحيته فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه " (٣) .

والمأثور عن الصحابة من هذا كثير يطول تتبعه وقد ذكر العلامة ابن القيم نماذج عنهم رضى الله عنهم في تحقيقهم عبودية الخوف في كتابه" الجواب الكافي " (٤) والذى نخلص إليه مما تقدم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن الخوف عبادة لله - تعالى - فرضهُ الله تعالى على جميع عباده ، فلا يخاف المخلوق من المخلوق خوف السر لأن ذلك لله - وحده لا شريك له - لأنه تعالى هو الذي يملك النفع والضر دون سواه وما دام الأمر كذلك فهو وحده المتعبد بذلك .

---

١) الطور آية : ٧ .

٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٤٣٠ .

٣) سنن الترمذى ٣ / ٣٧٩ .

٤) أنظر ص ٤٣ . وما بعدها .

(المبحث السادس)

عبودية الرجـــاء

قبل أن نذكر ما يدل على عبودية الرجاء من السورة نذكر تعريفه أولا في اللغة والإصطلاح ليفهم معنى الرجاء الذي تعبد الله به عباده والذي لا يجوز صرفه لغير الله تعالى .

فأما تعريفه في اللغة :

فقد جاء في الصحاح : الرجاء من الأمل ممدود يقال : رجوت فلانـــا رجوا ورجاءً ورجاءة .... وقد يكون الرجو والرجاء بمعنى الخوف قال اللـــه تعالى (ما لكم لا ترجون لله وقارا) (١) أي تخافون عظمة الله (٢) .

وجاء في القاموس : الرجاء ضد اليأس " أ.هـ (٣) .

وجاء في النهاية لابن الأثير : الرجاء بمعنى التوقع والأمل " (٤) .

وقال في المصباح المنير : " الرجاء بالمد ورجيته أرجيه من باب رمى لغة ويستعمل بمعنى الخوف لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه " (٥) .

وأما تعريفه في الاصطلاح :

فقد قال العلامة ابن القيم : " الرجاء حادٍ يحدو القلوب الى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير .

وقيل هو الإستبشار بجود وفضل الرب - تبارك وتعالى - والارتياح لمطالعـــة كرمه - سبحانه .

وقيل : هو الثقة بجود الرب - تعالى - (٦) .

---

١) سورة نوح آية : ١٣ .
٢) الصحاح ٦/٢٣٥٢ .
٣) ٤/٣٣٤ .
٤) ٢/٢٠٧ .
٥) ١/٢٢١ .
٦) مدارج السالكين ٢/٣٥ .

وقال الجرجاني : الرجاء في اللغة : الأمل وفي الإصطلاح تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل " أ.هـ (١) .

والذي نستفيده من تعريف الرجاء في اللغة والإصطلاح أن الرجاء هو الأمل في الخير وترقب حصوله وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمّله فيه ورجاه منه ، ولا يكون ذلك إلا من الله - جل وعلا - فعلى العبد أن يجعل قلبه معلقا بالله خوفا ورجاءً فلا يرجو إلا الله - تعالى - وحده لا شريك له ، ولا يجوز للانسان أن يرجو سواه فيما لا يقدر عليه إلا هو - سبحانه وتعالى - كما يفعله الذين ينادون الأموات ،أو غيرهم رجاء حصول مطالبهم من جهتهم لأن هذا شرك أكبر إذ الرجاء نوع من أنواع العبادات التي لا يستحقها إلا الله - جل وعلا - فلا رجاء الا في الله - تعالى - وقد دلت سورة " الزمر" على أن الرجاء عبادة ، وأنه حق من حقوق الله - تعالى - على خلقه في آية واحدة منها قال تعالى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب)

هذه الآية من السورة فيها مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره وبين العالم والجاهل ، وهذه الأمور متقرر في العقول تباينها وتفاوتها ، فليس المعرض عن طاعة الله والذي يتبع هواه كمن هو مطيع بأفضل العبادات ، وهي الصلاة في أفضل الأوقات وهي الليل فوصفه بكثرة العمل وأفضله ، ثم وصفه بالخوف والرجاء وذكر - تعالى - أن متعلق الخوف عذاب الآخرة على ما سلف من الذنوب ، وأن متعلق الرجاء رحمة الله ، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن ، فعلى العبد أن يكون في عبادته خائفا من عقاب الله راجيا لرحمته ولا بد من الجمع بين الخوف والرجاء في العبادة ، وفي الآية رد على من ذم العبادة خوفا من النار أو رجاء الجنة .

---

١) كتاب التعريفات ص ١٠١ .

روى ابن ماجة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ما تقول في الصلاة ؟ قال : أتشهد ثم أسأل الجنة وأعوذ به من النار ،أما والله ما أحسن دندنتك ، ولا دندنة معاذ فقال :"حولها ندندن " (١) .

فبين لنا صلى الله عليه وسلم أن نعبد الله - تعالى - خوفا من عقابه وطمعا في رحمته ، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :" من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة فليره الله في ظلمة الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه " (٢) .

ثم إن القانت في الآية ذكر القرطبي في معناه أربعة أقوال :

قيل : إن القانت هو المطيع.

وقيل هو الخاشع في صلاته .

وقيل : هو القائم في صلاته .

وقيل : هو الداعي لربه ، وكلها تدخل تحت القول الأول لأنه أعم وأجمع" (٣)

والقنوت ينقسم إلى خاص ، وعام ، والسجود كذلك .

والآية التي معنا في هذا المبحث وهي قوله تعالى (أم هو قانت آناء الليل ساجدا أو قائما . . . . .) الآية المراد بالقنوت فيها القنوت الخاص ، ومثل هذه الآية قوله تعالى في حق مريم (وكانت من القانتين) (٤)

وأما القنوت العام : فكقوله تعالى (وله من السموات والأرض كل له قانتون) (٥) أي : خاضعون أذلاء .

وأما السجود الخاص فكقوله تعالى (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) (٦) .

---

١) سنن ابن ماجة ١ / ٢٩٥ .
٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٣٩ .
٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٣٩ .
٤) سورة التحريم آية : ١٢ .
٥) سورة الروم آية : ٢٦ .
٦) سورة الأعراف آية : ٢٠٦ .

وأما السجود العام فكقوله تعالى (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) (١)

فهذا السجود هنا سجود عام لكل مخلوق طوعا وكرها وهو أعم من السجود الذي ذكره الله في قوله تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) (٢) ، فهذه الآية خص فيها بالسجود كثيراً من الناس وعمهم بالسجود في قوله (لله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة) (٣) .

وهذا السجود هو سجود الذل والقهر والخضوع فكل أحد خاضع لربوبيته - تعالى - ذليل لعزته مقهور تحت سلطانه - تعالى - (٤) .

وأما قوله تعالى في تمام الآية (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) .

بين الله في هذا الجزء من الآية أنه لا يستوي عنده من وحده وأخلص له العبودية ومن جعل لله الأنداد وأشرك بالله غيره ولم يخلص له العبادة .

قال ابن كثير: أي : هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله ،(إنما يتذكر أولوا الألباب) أي : إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل " أ.هـ (٥) . فأولوا الألباب أهل العقول السليمة هم الذين يدركون الفرق بين مكانة الموحد الطائع لربه آناء الليل ، وآناء النهار ومكانة المشرك بالله العاصي لخالقه ، فالعابد لله الذي أفرد الله بجميع أنواع العبادات كريم عند الله - تعالى - ، وأما من جعل له الأشباه والنظائر فهو مهين عنده - سبحانه - قال تعالى (ومن يهن الله فما له من مكرم) (٦) .

---

١) سورة الرعد : آية ١٥ .
٢) سورة الحج آية : ١٨ .
٣) سورة النحل آية : ٤٩ .
٤) مدارج السالكين ١/١٠٦-١٠٧ .
٥) تفسير ابن كثير ٦/٨٢-٨٣ .
٦) سورة الحج آية : ١٨ .

وبعد هذا الإستطراد اليسير الذي لا يخلو من الفائدة نرجع إلى عبودية الرجاء فنقول : إن مما ينبغي لكل إنسان أن تكون حياته بين الخوف والرجاء يخاف عقاب الله ويرجو رحمته روى ابن جرير بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) قال : يحذر عقاب الآخرة ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة "(١) .

واختلف العلماء في أيهما يكون الغالب على العبد ؟

فقيل : إن العبد إذا كان صحيحا يستحب أن يغلب عليه جانب الخوف ، وإذا كان في حالة المرض يغلّب جانب الرجاء .

وقال قوم : يستحب الإقتصار على الرجاء عند الإشراف على الموت لما يتضمنه الرجاء من الإفتقار إلى الله تعالى ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر فيتعين حسن الظن بالله برجاء عفوه ومغفرته واستدلوا بحديث " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله "(٢) .

وقالت طائفة ثالثة : لا يهمل جانب الخوف أصلا بحيث يجزم بأنه آمن واستدلوا بحديث أنس عند الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال له كيف تجدك ؟ فقال : أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف " قال الترمذي هذا حديث غريب وقد روى بعضهم هذا الحديث عن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا (٣) قال الحافظ بعد أن أورد هذا الحديث :" ولعل البخاري أشار إليه في الترجمة ولما لم يوافق شرطه أورد ما يؤخذ منه وإن لم يكن مساويا له في التصريح بالمقصود" (٤) .

---

١) جامع البيان ٢٣/٢٠٢ .
٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله ٤/٢٢٠٦ .
٣) سنن الترمذي ٢/٢٢٧ .
٤) فتح الباري ١١/٣٠١ ، تفسير ابن كثير ٦/٨٢ .

ولقد حث الله - تعالى - عباده في مواضع كثير في كتابه على أن يتعبدوه بالرجاء وحده لا شريك له قال تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم والآخرة) (١) .

ففي هذه الآية إشارة على أن التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم قولا وعملا وحالا مما يعين على تحقيق عبودية الرجاء وقال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) (٢) .

وهذه الآية توضح لنا أن العبد إذا كان يرجو لقاء الله صادقا مخلصا في ذلك فإن عاقبة ذلك ونتيجته يؤدي به إلى إصلاح عمله .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه) أي ثوابه وجزاءه الصالح أ . هـ (٣) . وإضافة إلى قوله ابن كثير أقول إن الآية فيها إشارة قاطعة الى أن الرجاء لا يصح الا مع العمل ورجاء العبد لقاء ربه الذي خلقه هو من أفضل ما يرجوه العبد المؤمن ويأمله قال العلامة ابن القيم : وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته وإليه شخصت أبصار المشتاقين ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه وضرب لهم أجلا يسكن نفوسهم ويطمئنها (٤) أ . هـ

قال تعالى "إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم" (٥) وهذه الآية بينت أن من صفات المؤمنين أنهم يرجون رحمة الله بمعنى أنهم يطمعون في رحمة الله ويرجون أن يدخلهم الجنة برحمته إياهم وفضله عليهم .

قال قتادة رحمه الله تعالى : أثنى الله على أصحاب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أحسن الثناء فقال "إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم" هؤلاء خيار هذه الأمة ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون وأنه من رجا طلب ومن خاف هرب . أ . هـ (٦) .

---

١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .
٢) سورة الكهف آية : ١١٠ .
٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٣٢ .
٤) مدارج السالكين ٢/٥٤ .
٥) سورة البقرة آية : ٢١٨ .
٦) أنظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢/٣٥٦ .

وقد أخبرنا العليم الخبير بأن خواص عباده الذين كان أهل الشرك يزعمون أنهم ما كانوا يعبدونهم إلا رجاء أن يقربوهم إلى الله زلفى أنهم كانوا من أشد الناس تحقيقا لعبودية الرجاء وعبودية الخوف قال تعالى : " قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا " (١) .

قال العلا ابن القيم رحمه الله تعالى يقول تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي ، يتقربون إلي بطاعتي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تدعونهم من دوني ؟ فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء . أ.هـ (٢) .

واختلف المفسرون في هؤلاء المدعوين :

فقيل : إنهم نفر من الجن كان يعبدهم نفر من الإنس فأسلم النفر من الجن وتمسك الإنسيون بعبادتهم فأنزل الله الآية .

وقيل : إنهم صنف من الملائكة يقال لهم الجن كان قبائل من العرب يعبدونهم ويقولون لهم بنات الله .

وقيل : إن المراد بهؤلاء المدعوين الملائكة والمسيح وعزير كان المشركون يعبدونهم (٣)

قال شيخ الاسلام بعد ذكره الآية السابقة : قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله كما أن الذين يعبدونهم عباد الله وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين .أ.هـ (٤) .

---

١) سورة الاسراء آية : ٥٦ ، ٥٧ .

٢) مدارج السالكين ٢ / ٤٢ .

٣) الدر المنثور للسيوطي ٥ / ٣٠٥ .

٤) مجموع الفتاوى ١ / ١٥٨ .

فالذي يتضح لنا من هذا أن المشركين كانوا في واد والذين يدعونهم في واد آخر حيث أن المدعوين كانوا مشتغلين بأنفسهم متجهين إلى ربهم يدعونه خوفا من عذابه ورجاء رحمته .

والمشركون زين لهم الشيطان توجيه حق الله من الدعاء والرجاء وطلب الشفاعة لأولئك الصالحين بشبهة أنهم يقربونهم إلى الله زلفى ولم يشعروا لفرط جهلهم أنهم يزدادون بعدا عن الله بعملهم ذلك وهذا المزلق الذي كان سببا في شرك المشركين الأولين وقع فيه الكثير من جهلة المسلمين اليوم فإنهم يرجون من يسمونهم بالأولياء كما يرجوه الله ويدعونهم كما يدعون الله تعالى في الشدة والرخاء بل ويخافونهم كما يخافون الله تعالى وصرفوا لهم من التعظيم الذي لا يكون إلا الله الشيء الذي يجعل العاقل حيران فإنه وصل بهم الغلو في الصالحين إلى حد أنهم عبدوهم مع الله جل وعلا، بدعوى أنهم يحبونهم ويقدرونهم ولقد انتشرت الأضرحة في أكثر البلدان الإسلامية والذي يصل إلى هذه البلدان يرى الجم الغفير من المسلمين عاكفين حول تلك القبور والأضرحة زاعمين أنهم يلتمسون البركة من أصحابها وأحيانا يصل بهم هذا التبرك إلى أنهم يطوفون بها وبعض الجهلة يسجد على عتبة الضريح والمصيبة كل المصيبة أنه يوجد حول تلك الأضرحة بعض الأشخاص من شياطين الإنس الذين يزينون للوافدين ذلك العمل من الطواف والسجود والتبرك الذي لا يجوز صرفه لغير الله .

ويقولون للوافدين هذا ليس من الشرك في شيء إنما هو من باب محبة الصالحين أو التوسل بهم .

وهذا الأمر الحاصل بين صفوف المسلمين له خطره العظيم في إيقاع العامة من عباد الله في عبادة غير الله بحيث جعلوا الأولياء أندادا لله وشركاء له في صرف العبادة لهم باسم التبرك والمحبة وهذا بعينه يريد الشرك وإعادة الوثنية التي كانت شائعة في القوم الذين بعث الله فيهم رسله وعليهم الصلاة والسلام لتطهير أنفسهم من عبادة غير الله وخلع الأوثان التي كانت تعبد من دون الله .

وقد يتبادر إلى ذهن بعض البسطاء من هذا أننا نكره الأولياء والصالحين ونوذيهم ونستخف بهم ، حاشا وكلا ليس ذلك فينا بل إننا نحبهم في الله ونواليهم فيه ونطلب منهم الدعاء في حال الحياة لا بعد الممات وحال الغياب ، وذلك ما يسمى بالتوسل بدعاء أهل الصلاح ويجب أن يفهم عنا أننا نفرق بين محبتهم في الله ومحبتهم مع الله ، فمحبتهم في الله من الأعمال الصالحة ومحبتهم مع الله هو الشرك الذي وقع فيه كفار قريش قال تعالى" ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) (١) .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فمن أحب مخلوقا مثل ما يحب الله فهو مشرك ويجب الفرق بين الحب في الله والحب مع الله " أ.هـ (٢) .

ولنعد إلى موضوع الرجاء فنقول إن الواجب على العبد أن يكون رجاؤه في الله تعالى لا في غيره فيرجو لقاء الله بصدق وإخلاص قال تعالى" من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم " (٣) فهذه الآية فيها حث الإنسان على أن يكون راجيا في ثواب المصير إلى الله تعالى فالرجاء سبب من الأسباب التي ينال بها العبد ما عند الله من مغفرة ذنوبه وهدايته وتوفيقه وإعانته على طاعته ودخوله الجنة ونجاته من النار فالرجاء هو قطب الرحى الذي يدور عليه صلاح العبادة .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :" ولولا روح الرجا لعطلت عبودية القلب والجوارح وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، بل لولا روح الرجا لما تحركت الجوارح بالطاعة ، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات " أ.هـ(٤) .

---

١) سورة البقرة آية : ١٦٥ .
٢) مجموع الفتاوى ١٥ / ٤٩ .
٣) سورة العنكبوت آية : ٥ .
٤) مدارج السالكين ٢ / ٤٢ .

قال أهل التحقيق مقيد بالمختصر .أ.هـ (١) .

وروى البخاري أيضا :في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة .وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار" (٢) .

فهذا الحديث دل على أنه يستحب للعبد أن يجمع بين الخوف والرجاء ولا ينبغي له أن يغلّب أحدهما على الآخر فانه لو غلب جانب الرجاء وانهمك في العصيان لربه فإن ذلك قد يؤدي به إلى أن يمكر الله به وإذا غلب عليه جانب الخوف ربما جره ذلك إلى اليأس والغرض من الرجاء أن الإنسان لو وقع في تقصير فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويرجو منه أن يمحو عنه الذنب وكذلك إذا وفقه الله للإتيان بالطاعة يرجو من الله أن يقبلها منه .

أما أن يقع في معصية الله ويرجو عدم المؤاخذة بدون أن يندم على فعلها أو يقلع عنها فهذا مصاب بالغرور قال أبو عثمان الجيزي من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو" (٣) .

ومن الأحاديث الدالة على عبودية) الرجاء الحديث القدسي الذي رواه الترمذي في سننه من حديث أنس ابن مالك قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى : " يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي "(٤) .

---

١) الفتح ١٣ / ٣٨٥ .

٢) صحيح البخاري مع الفتح ١١ / ٣٠١ ، وانظر صحيح مسلم ٤ / ٢١٠٩ .

٣) الفتح ١١ / ٣٠١ .

٤) ٥ / ٢٠٩ .

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله الأنصاري رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل "(١) .

ومما جاء في دعاء المكروب عند أبي داود من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوات المكروب اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت "(٢) .

والذي نخلص إليه من الآيات والأحاديث المتقدمة أن الرجاء عبادة قلبية لا تكون إلا لله عز وجل ويحرم على الإنسان أن يرجو سوى الله تعالى أيا كان فيما هو من خصائص الألوهية لأن ذلك من حق الله على خلقه فعلى العبد أن يرجو ربه طمعا في رحمته وخوفا من عقابه .

ولا يلتفت إلى قول بعض الصوفية كالهروي بأن الرجاء وقوع في الرعونة (٣) فهذا يعتبر من شطحات القوم لأنه لا رعونه فيمن يتجه إلى الله يرجوه ويطمع في بره وإحسانه وفضله ويسأل ذلك من ربه بقلبه ولسانه فإن الرجاء استشراق القلب لنيل ما يرجوه فإذا كان حال العبد على هذا فلا رعونة هنا وإنما الرعونة في خلاف ذلك .

قال العلامة ابن القيم وهل الرعونة كل الرعونة إلا دعواه : أنه يحب ربه لعذابه لا لثوابه ، وأنه إذا أحبه وأطاعه للثواب كان ذلك حظا وإيثارا لمراد النفس بخلاف ما إذا أحبه وأطاعه ليعذبه . فإنه لاحظ للنفس ، في ذلك فوالله ليس في أنواع الرعونة والحماقة أقبح من هذا ولا أسمج ، وماذا يلعب الشيطان بالنفوس ؟ وإن نفسا وصل بها تلبيس الشيطان إلى هذه الحالة لمحتاجة إلى سؤال المعافاة ؟ .هـ (٤)

---

١) ٤/٢٢٠٩ .
٢) السنن ٢/٦١٨ .
٣) أنظر منازل السائرين مع شرحه مدارج السالكين ٢/٣٧ .
٤) مدارج السالكين ٢/٤٧-٤٨ .

والناظر إلى حال المتصوفة الذين غلب عليهم الهوى يجد الفرق الشاسع بين طريقتهم وطريق الأنبياء والرسل ويجد أنهم مخالفون لمنهج خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام فالرسول صلى الله عليه وسلم كان من دعائه : اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " (١) .

وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلّمه دعاء يدعو به في الصلاة فقال " قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت . فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم" (٢)

وقد سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلّمها دعاء تدعو به إن هي وافقت ليلة القدر فقال لها قولي " اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني " قال أبو عيسى الترمذي هذا حديث حسن صحيح (٣) .

وقد أخبرنا سبحانه وتعالى بأن أولي الألباب الذين هم أولياؤه وخاصته سألوه أن يقيهم عذاب النار فقال تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار" (٤)

فأين هذا من حال من يقول إنه لا يحب الله من أجل ثوابه لأنه عيي حظه وإنما يحبه لعقابه . لأنه لا حظ له فيه ويزعم أن الرجاء عين حظه فهذا يدل على فساد العقل واتباع الهوى .

وهؤلاء الصوفية قد يخطر على بال أحدهم أن الله لو عذبه لرضي بذلك العذاب كما يرضى صاحب الثواب بثوابه . ويعزم على ذلك بقلبه ولكن هذا من أماني الشيطان الخادعة إذ عند حصول الحقيقة لا يكون لتلك الأمنية أثر ألبته ولو امتحن الله أحدهم بأدنى محنة لصاح واستغاث وجأر إلى الله أن يعافيه من ذلك

---

١) الحديث رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة ١/ ٣٥٢ .
٢) صحيح البخاري مع الفتح ٢/ ٣١٧ ، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٨ .
٣) سنن الترمذي ٥/ ١٩٥ .
٤) سورة آل عمران آية : ١٩١ .

وقد ذكر ابن القيم أن رجلا يقال له سمنون كان يقول :

وليس لي من هواك بـــــــد فكيفما شئت فامتحـــــــــني

فامتحنه الله بعسر البول فضاعت هذه الدعوى عنه واضمحلت وجعل يطوف علـــى الصبيان في المكاتب ويقول أدعوا لعمكم الكذاب فالعزم على الرضى لون وحقيقتـه لون آخر(١) .

فعلى العبد المسلم أن يلح على ربه ويرجوه ويستسلم لله في ذلك ويحذر من تلاعب الشيطان به فيؤدي به ذلك إلى ترك الرجاء وإذا وقع في ذلك لم تكتمـــل عبوديته لربه سبحانه وتعالى وكلما قوي تعلق العبد برجائه ربَّه وخوفه منه كثر فرحه يوم القيامة بحصول مرجوه فينبغي للعبد أن يكون خائفا راجيا لأن الخوف مستلزم للرجاء والرجاء متضمن للخوف فكل راج خائف وكل خائف راج ولذلك جاء الرجـاء في موضع يصلح فيه وقوع الخوف في قوله تعالى " ما لكم لا ترجون لله وقارا" (٢) قال الشوكاني (٣) رحمه الله تعالى : أي أيَّ عذر لكم في ترك الرجاء ، والرجاء هنا بمعنى الخوف أي ما لكم لا تخافون الله . أ . هـ (٤)

وقبل أن نختم هذا المبحث نقول إنه ينبغي لكل مكلف أن يمضي حياته بين الخوف والرجاء ولا يفرط في الرجاء حتى يصير مع المرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان شيء ولا يغلو في الخوف حتى يكون في صف الخوارج والمعتزلة الذين قالوا إن صاحب الكبيرة مخلد في النار إذا مات ولم يتب بل عليه أن يلزم الطريق الوســـط بينهما كما قال عز وجل " يرجون رحمته ويخافون عذابه ") (٥) والذي يمعن النظر في دين الإسلام يجد قواعده أصولا وفروعا كلها في جانب الوسط وبالله التوفيـــق وهو المستعان .

---

١) مدارج السالكين ٢/٤٩-٥٠ بتصرف يسير .
٢) سورة نوح آية : ١٣ .
٣) هو : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني : فقيه ، مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان باليمن) ونشأ بصنعاء وولي قضاءها ، ومات حاكما بها ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف وتوفي سنة خمسين ومائتين وألف هجرية . أنظر ترجمته في " كتابه البدر الطالع ٢/٢١٤-٢٢٥ ، نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشرة ٢/٢٩٧ ، جلاء العينين ص ٤٦ .
٤) فتح القدير ٥/٤٩٨ . (٥) سورة الاسراء آية : ٥٧ .

(المبحث السابع)

انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

لقد جاء في السورة ذكر العبودية العامة ، والخاصة في عدة آيات منها :

فالعبودية العامة :

هي عبودية أهل السموات والأرض جميعهم عبيده - تعالى - برهم ، وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم وهذه العبودية هي عبودية القهر والملك وهذه العبودية لله أشار إليها في السورة بقوله - تعالى - (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) .

قوله - تعالى - (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية .

لفظ (العباد) في هاتين الآيتين بتناول العبودية العامة والخاصة مثل قوله - تعالى - (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) (١) . فهذه يدخل فيها كل عباده مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم .

العبودية الخاصة :

وأما العبودية الخاصة فهي عبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر والبعد عن النواهي وقد جاء ذلك في السورة في عدة آيات قال تعالى : (قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) الآية .

وقوله تعالى - (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الآية .

وقوله - تعالى - (أليس الله بكاف عبده) فالعبودية المذكورة في هذه الآيات هي عبودية أهل طاعته وولايته وهم عبيد إلهيته الذين أخلصوا له كل أنواع العبادة فلم يصرفوا منها شيئا لسواه قط .

---

١) سورة مريم آية : ٩٣ .

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه على سبيل الإطلاق إلا لهؤلاء .

وأما وصف عبيد الربوبية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه ،

الوجه الأول : أن يأتي منكراً مثل قوله - تعالى - (إن كلّ من في السموات والأرض الا آتي الرحمن عبداً) (١) .

الوجه الثاني : أن يكون معرّفا باللام كقوله - تعالى - (وما الله يريد ظلماً للعباد) (٢)

الوجه الثالث : أن يكون مقيداً بالإشارة كقوله - تعالى - (أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء) (٣) .

الوجه الرابع : أن يذكروا في عموم العباد فيدرجوا مع أهل طاعته في الذكر كقوله - تعالى - (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) .

الوجه الخامس : أن يذكروا موصوفين بفعلهم كقوله - تعالى - (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) .

هذه الآية من السورة قد يقال فيها :

إنما سماهم الله (عباده) إذ لم يقنطوا من رحمته وأنابوا إليه بالطاعة واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة والسر في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة لأن أصل معنى اللفظة " الذل والخضوع" يقال " طريق معبّد " إذا كان مذللا بوطء الأقدام و" فلان عبّده الحب" إذا ذلّله لكن أولياء الله خضعوا له وذلوا طوعا واختيارا ، وانقيادا لأمره ونهيه ، وأما أعداؤه فخضوعهم له انما كان قهرا ورغما . (٤) .

وتحقيق العبودية هو الكمال ولقد كان للأنبياء عليهم الصلاة والسلام النصيب الأوفر من ذلك وكلما كان الإنسان أكثر تحقيقا للعبودية لله تعالى كلما كان أكثر رقيا في سلم الكمال الإنساني ، وكلما ابتعد عن تحقيق العبودية كلما هبط وانحدر

---

١) سورة مريم آية : ٩٣ .
٢) سورة غافر آية : ٣١ .
٣) سورة الفرقان آية : ١٧ .
٤) مدارج السالكين ١ / ١٠٥-١٠٦ ، العبودية لشيخ الإسلام ص ٤٧ ، ٥١ .

والرسل حازوا قصب السبق في هذا الميدان فقد كانت حياتهم انطلاقة جـــادة في تحقيق هذه العبودية وهذا خاتم الرسل وسيد الأولين والآخرين يثني عليه ربه في أشرف المقامات بالعبودية فيصفه بها في مقام الوحي .

قال تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) (١) وأثنى عليه بها في مقام إنزال الكتاب (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (٢) .

وأثنى عليه بها في مقام الإسراء قال تعالى (سبحن الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله (٣) . .

وبهذه العبودية التامة استحق عليه الصلاة والسلام التقديم على الناس في الدنيا والآخرة ولذلك يقول عيسى عليه السلام للناس إذا طلبوا منه الشفاعة بعد طلبها من الرسل من قبله يقول : " ائتوا محمداً عبدا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر "(٤)

فالسعادة كل السعادة في أن يتحلى الإنسان بتحقيق العبودية الخاصة فيدين لله بالطاعة ، والمحبة وامتثال الأوامر والإجتناب عن النواهي .

---

١) سورة النجم آية : ١٠ (٢) سورة الفرقان آية : ١

٣) سورة الاسراء آية : ١

٤) رواه البخارى فى صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه ٤ / ٢٧٩ .

(المبحث الثامن)

الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل

الإسلام هو: الإستسلام لله بالتوحيد والإنقياد له بالطاعة وإخلاص العمل من شوائب الشرك " (١) .

ولقد جاء في سورة " الزمر" الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يكون أول المسلمين من هذه الأمة ، وجاء الأمر فيها أيضا : لجميع عباد الله بأن يلتزموا بدين الإسلام على وجه العموم .

قال تعالى في حق نبيه (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) .

وقال تعالى (في حق عباده عموما آمرا لهم بالإلتزام بدين الاسلام .

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون)

ففي الآية الأولى : أمر الله - جل وعلا - نبيه بأن يكون أول المنقادين .

قال العلامة ابن كثير: (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) قال السدي : يعني من أمته صلى الله عليه وسلم " (٢) .

وقال الشوكاني حول هذه الآية : (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) أي : من هذه الأمة ، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم فإنه أول من خالف دين آبائه ودعا إلى التوحيد (٣) .

وأما الآية الثانية : فهي أمر لجميع العباد بأن يلتزموا بدين الإسلام ، وإن لم يفعلوا ذلك فسيحل بهم العذاب على كفرهم به ، ولا ينصرهم ناصر يسرع لإنقاذهم من عذاب الله النازل بهم فقوله تعالى (وأسلموا له) أمر لجميع العباد بالخضوع لله - تعالى - بالطاعة والإقرار بدينه الحنيف والإلتزام بالإسلام الذي هو دين الأولين والآخرين ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بأن يكون أول

---

١) أنظر عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص ١٧ ، الأصول الثلاثة ص ١٠ .

٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٨٣ .

٣) فتح القدير ٤ / ٤٥٤ .

الموحدين والمنقادين لله بالوحدانية التي لا تشوبها أية شائبة من الإشراك ففيره بتوجه إليه الخطاب من باب أولى فيجب على كل مكلف أن يعرف دينه الذي لا فلاح له إلا به ، ويكون داعيا إليه . اقتداءا بالرسول صلى الله عليه وسلم وبجميع الرسل قبله .

فالإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين كما صرح بذلك القرآن والسنة قال تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) (١) .

قال العلامة ابن القيم : يعني الذي جاء به محمد وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) (٢) وقد دل قوله تعالى (إن الدين عند الله الاسلام على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم وأنه لم يكن لله قط دين سواه . أ.هـ (٣) .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى " كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الاسلام فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الأولين ولا من الآخرين "(٤) فمهما تدين متدين ، أو تعبد متعبد على غير نهج الإسلام فعمله مردود وليس له من ذلك العمل شيء سوى العناء والتعب والشقاء وعمله ليس بمقبول كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا) (٥) .

فاليهود والنصارى وغيرهم من الكافرين إذا تعبدوا وتدينوا بغير دين الإسلام فعبادتهم وديانتهم مردودة عليهم لأن الله لا يقبل دينا غير دين الإسلام .

كما تقدم في الآية (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) .

---

١) سورة آل عمران آية : ١٩ . (٢) سورة آل عمران آية : ٨٥ .
٣) مدارج السالكين ٣/٤٧٦ .
٤) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١١٥-١١٦ ط: المكتب الإسلامي .
٥) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

ويدخل في هذا العموم من يبتدع في عمله وعبادته بدعة لا أصل لها في الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " (١)

فالإسلام دين جميع الأنبياء وجميع الأمم فمن الأمم من آمن ومنهم من كفر وقد أخبرنا الله تعالى أن رسله الكرام عملوا بدين الإسلام ودعوا إليه أممهم فدين الإسلام اشتمل على العقائد والأحكام والعبادات والشيء المهم في دين الاسلام هو توحيد الله وإفراده بالعبودية ، وهذا يتضمن إبطال كل عبادة لغير الله والعبادة أنواع منها الدعاء والرجاء والتوكل والنذر والذبح فمن صرف منها شيئا لغير الله فقد كفر وأشرك مع الله غيره .

وقد بين الله - تعالى - أن جميع الأنبياء دعوا أممهم إلى الإسلام فقد قال نوح عليه الصلاة والسلام : فيما حكاه الله عنه (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) (٢) .

وقد ذكر الله تعالى في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذا قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (٣) .

أما يوسف عليه السلام فإنه قد دعا الله تعالى أن يتوفاه مسلما وأن يلحقه بالصالحين قال تعالى حكاية عنه (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين) (٤) .

وكليم الله موسى وجه قومه إلى الإيمان بالله والتوكل عليه وإسلام الوجه له سبحانه وتعالى قال تعالى (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) (٥) .

---

١) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ٣ / ١٣٤٣ .

٢) سورة يونس آية : ٧٢ . (٣) سورة البقرة آية : ١٢٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

٤) سورة يوسف آية : ١٠١ . (٥) سورة يونس آية : ٨٤ .

وأما سليمان عليه من الله الصلاة والسلام فإنه دعا بلقيس إلى الإسلام قال تعالى : (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين) (١)

وفي العصور القديمة بعض أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى كانوا يدينون بدين الإسلام .

قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) (٢) .

وقالت بلقيس : (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) (٣) .

وحكى الله عن روح الله عيسى ابن مريم والحواريين أن دينهم الإسلام قال تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون) (٤) .

وحكى الله عن سحرة فرعون أنهم قالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) (٥)

وقال تعالى عن سيد ولد آدم عليه من الله الصلاة والسلام أنه قال : (قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله وأمرت أن أسلم لرب العالمين) (٦)

فهذه الآيات التي سقناها تبين أن جميع المرسلين وجميع من امتثل أمر رب العالمين دينهم هو الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له .

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن أصل دين الأنبياء واحد وهو التوحيد وإن اختلفوا في فروع الشرائع.

فقد روى الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات (٧) .

---

١) سورة النمل آية : ٣٠ ، ٣١ .
٢) سورة القصص آية : ٥٢ ، ٥٣ .
٣) سورة النمل آية : ٤٤ .
٤) سورة آل عمران آية : ٥٢ .
٥) سورة الأعراف آية : ١٢٦
٦) سورة غافر آية : ٦٦ .
٧) العلات : بفتح المهملة : الضرائر ، وأصله من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها . . . وأولاد العلات الإخوة لأب ذكره الحافظ في الفتح ٦ / ٤٨٩ .

أمهاتهم شتى ودينهم واحد" (١) .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

" فالإسلام دين أهل السموات ، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض لا يقبل الله من أحد دينا سواه ، فأديان أهل الأرض ستة ، واحد للرحمن ، وخمسة للشيطان اليهودية والنصرانية ، والمجوسية ، والصابئة ، ودين المشركين " أ.هـ (٢) .

ومما تقدم يتبين أن الإسلام دين الأولين والآخرين من بني آدم ، وأن أول المسلمين في جميع الشرائع الالهية هم الرسل ، لأن الرسل هم أول من يعرف الشرائع ، والكتب المنزلة عليهم من عند الله تعالى . فالخير كل الخير بالأخذ بالإسلام الذي رضيه الله دينا لعباده المؤمنين .

---

١) صحيح البخاري مع الفتح ٦/٤٧٨ ، صحيح مسلم ٤/١٨٣٧ .

٢) مدارج السالكين ٣/٤٧٦ .

(المبحث التاسع)

بيان الطاغوت الذى أوجب الله على عباده أن يجتنبوه

لقد ورد فى هذه السورة المدح والثناء الحسن لمن اجتنب عبادة الطاغوت وتوجه بالعبادة الخالصة لربه - جل وعلا - فأفرده بها وحده لا شريك له. قال تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) .

هاتان الآيتان من السورة فيهما الثناء الحسن للذين اجتنبوا عبادة الأصنام وتفانوا في عبادة الملك العلام، وكفروا بعبادة الطاغوت الذي عبده الجاهلون بالباطل زورا وبهتانا ، والمقصود بالطاغوت هنا هو عبادة غير الله - تعالى - فمدحهم الله وأثنى عليهم باجتنابهم عبادة الطاغوت وإقبالهم بكليتهم على عبادة الله وحده وإخلاص الدين له دون غيره ، وأقلعوا عن الشرك والمعاصي إلى إخلاص التوحيد والطاعات لربهم وخالقهم - سبحانه وتعالى - .

وقيل المقصود بالطاغوت الشيطان ذكره ابن جرير عن السدى ومجاهد وابن زيد (١) والذي يظهر أن المراد بالطاغوت في الآية كل معبود من دون الله والنصيب الأكبر من ذلك للشيطان لأنه رأس كل ضلالة كما قال - تعالى - (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) (٢) .

وقد ذكر الله الجزاء الذي ينتظر عباد الله الموحدين وهو أن لهم البشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن ويكلؤهم الله بعنايته ويوفقهم للأعمال الصالحة التي يشاهدون من خلالها أنه - تعالى - يريد إكرامهم ، كما أن لهم البشرى

---

١) جامع البيان ٢٣/٢٠٦ .

٢) سورة " يس " أية : ٦٠ .

فى الآخرة عند الموت وفي القبر ، وفي القيامة وخاتمة البشارات البشارة العظمى وهي ما يحصل لهم من إحلال الله - تعالى - رضوانه عليهم ، والنظر إلى وجهه الذي هو أعظم نعيم أهل الجنة وقد أمر الله نبيه أن يبشر عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله - تعالى - : " والمراد بالقول القرآن كما فسره بذلك سلف الأمة وأئمتها " أ.هـ (١) .

فقد وصف الله عباده المبشرين بأنهم يستمعون القول فيفهمونه ويعقلونه ويتبعون أحسنه ، وأحسنه على الإطلاق كلام - الباري سبحانه - وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال العلامة ابن كثير : (فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) أي : يفهمونه ، ويعملون بما فيه كقوله - تعالى - لموسى عليه السلام حين آتاه التوراة (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) (٢) (أولئك الذين هداهم الله) أي : المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة (وأولئك هم أولوا الألباب) أي : ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة (٣) أ.هـ

وقد ذكر في أسباب النزول أن الآيتين نزلتا في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله - تعالى - عنهم كانوا في الجاهلية يقولون : " لا إله إلا الله " واجتنبوا عبادة الطاغوت (٤) والأصح أن الآيتين تشمل النفر الثلاثة المذكورين وغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن وهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة (٥) .

---

١) مجموع الفتاوى ٦ / ١٥ ، دقائق التفسير ٤ / ٢٥٢ .
٢) سورة الأعراف آية : ١٤٥ . (٣)
٣) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٨٤ .
٤) جامع البيان ٢٣ / ٢٠٧ .
٥) تفسير ابن كثير ٦ / ٨٤ .

وبعد هذه اللمحة لبيان معنى الآيتين نأتي لتعريف الطاغوت الذى فـــرض الله علينا اجتنابه .

معنى الطاغوت في اللغـــة :

جاء في القاموس: الطاغوت اللات ، والعزى ، والكاهن ، والشيطان وكل رأس ضلال ، والأصنام ، وكل ما عبد من دون الله ومردة أهل الكتاب للواحـــد والجمع " فعلوت " من طغوت، والجمع طواغيت طـواغ ،أو الجبت حيي بن أخطب والطاغوت كعب بن الأشرف وأطغاه جعله طاغياً والطغوة المكان المرتفع اهـ (١)

وقال في المصباح المنير: " والطاغوت يذكّر ويؤنث والإسم (الطغيان) وهـــو مجاوزة الحد وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان فهو (طاغ) و"أطغيته" جعلته " طاغيا" " وطغى " السيل ارتفع حتى جاوز الحد في الكثرة " والطاغوت" الشيطان وهو في تقدير فعلوت بفتح العين لكن قدمت اللام موضع العين ، واللام واو محركة مفتوح ما قبلها فقلبت ألفا فبقي في تقدير فعلوت وهو من الطغيان (٢) اهـ

وجاء في فتح المجيد : الطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد اهـ (٣) والذي نستفيده من هذه التعاريف اللغوية أن الطاغوت كل ما تجاوز حده فصار معبودا من دون الله سواء كان إنسانا أو صنما أو وثنا أو كان ما كان من أي شيء وسواء عبد بطاعة من عابديه أو بقهره لهم حتى عبدوه فهو طاغوت.

معنى الطاغوت اصطلاحا :

روى ابن جرير وابن كثير بإسناد هما إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان " (٤) .

---

١) ٤/٣٥٩ ، مختار الصحاح ٣٩٣ .
٢) ١/٣٧٣-٣٧٤ .
٣) ص ١٩ .
٤) جامع البيان ٥/١٣١ ، تفسير ابن كثير ٣/٣١٥ .

قال ابن كثير: ومعنى قوله "إنه الشيطان " قوي جدا فإنه يشمل كل شـــر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والإستنصار بها" .هـ(١)

وذكر ابن كثير: بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه سئل عـــن الطواغيت فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين .

وقال مجاهد: الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه وهو صاحـــب أمرهم.

وقال الإمام مالك رحمه الله :" هو كل ما يعبدُه من دون الله عز وجل " (٢) .

وتعريف الإمام مالك يقيد بمن عبد من دون الله وهو راض ليخرج بهذا القيـــد من عبد وهو غير راض مثل المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، والملائكة فإنهم عبدوا من دون الله وهم غير راضين بذلك بل انهم براء ممن عبدهـــم ومن عبادتهم .

وقال الواحدى: (٣) عند قوله - تعالى - (يؤمنون بالجبت والطاغوت) (٢) " كل معبود من دون الله فهو جبت وطاغوت" (٤) ،

وقال عبد الله ابن عباس : " الجبت الأصنام والطاغوت الذين يكونون بين أيدى الأصنام يصبرون عنها الكذب ليضلوا الناس .

قال ابن جرير: " وزعم رجال : أى الجبت الكاهن والطاغوت رجل من اليهـــود يدعى كعب بن الأشرف وكان سيد اليهود" (٥) .

وقال بعض السلف : عند قوله - تعالى - (يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت) (٦) إنه كعب بن الأشرف ، وقال بعضهم : حيي بن أخطب إنما استحقا هذا الإسم لكونهما من رؤوس الضلال ولإفراطهما في الطغيان وإغوائهما الناس ولطاعـــة

١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٣١٥ . (٢) المصدر السابق ٣١٦/١ ، فتح المجيد ص ١٩ - ٢٠ .

٣) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية ، أبو الحسن الواحدى مفسر عالم بالأدب وصفه الذهبي بإمام علماء التأويل توفي سنة ثمان وستين وأربعمائة هجرية . أنظر ترجمته في " النجوم الزاهرة" ١٠٤/٥ الوفيات ١ /٣٣٣ ، الأعلام ٢٥٩/٤

٤) سورة النساء آية : ٥١ .

٥) أنظر مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٤٠٧ .

٦) جامع البيان ٥ / ١٣١ . (٧) سورة النساء آية : ٦٠

اليهود لهط في معصية الله فكل من كان بهذه الصفة فهو طاغوت " أ.هـ (١) .

وهذه التعريفات المتقدمة عن السلف الصالح من باب توضيح الشيء ببعض افراده وإلا فالحد الجامع المانع لمعنى الطاغوت هو ما عرفه به ابن القيم رحمه الله - تعالى - فقد قال : " الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم اذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله - تعالى - إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته " أ.هـ (٢) .

فلو تأملنا زمننا هذا واستعرضنا حالة أكثر المسلمين لوجدناها طبقا لما قال ، هذا الإمام رحمة الله عليه إلا من رحم الله ، وبعد أن عرفنا معنى الطاغوت في اللغة والإصطلاح نقول : إن الله فرض على جميع خلقه أن يكفروا بالطاغوت ويعتقدوا اعتقادا جازما أن عبادته باطلة وأن من عبده كافر بالله العظيم .

قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(٣)

فهذه الآية فيها الإخبار بأنه - تعالى - أمر جميع خلقه باجتناب عبادة الطاغوت مطلقا سواء كان إنسانا أو جنا ، أو شجرا ، أو حجرا ، أو هوى ، أو شهوة ، أو ملا أوجاها ، أو وظيفة ، وأن يعبدوه - سبحانه - وحده دون سواه .

---

١) مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص ٤٠٧ والكلام للشيخ عبدالله بن عبد الرحمن أبا بطين رحمه الله - تعالى .
٢) تفسير العزيز الحميد ص ٣٣ ، فتح المجيد ص ٢٠ .
٣) سورة النحل آية ٣٦ .

وقال تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) (١)

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب (٢) : " واعلم أن الإنسان لا يصير مؤمنا بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية " أ.هـ (٣) .

وقال الشيخ عبد الرحمن حسن (٤) رحمه الله - تعالى - عند شرحه للآية " وهذا معنى " لا اله الا الله " فانها العروة الوثقى " أ.هـ (٥) .

وقال تعالى (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) (٦) .

والآيات في هذا المعنى كثيرة وهي تدل على أنه يجب الكفر بالطاغوت والإيمان بالله .

وضابط الكفر بالطاغوت : أن يعتقد الإنسان اعتقاد جازم بطلان عبادة غير الله وتركها والبغض لأهلها ومعاداتهم .

---

١) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

٢) هو : إمام الدعوة المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في الجزيرة العربية وقد نهج رحمه الله منهج السلف داعيا إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك والبدع والخرافات ، وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام ولد رحمه الله سنة خمس عشرة ومائة وألف ، وتوفي سنة ست ومائتين وألف هجرية . أنظر ترجمته في " كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد ١/ ٦ وما بعدها ، هدية العارفين ٢/ ٢٥٠ الأعلام ٧/ ١٣٧ ، معجم المؤلفين ١٠/ ٢٦٩ .

٣) الدرر السنية ١/ ٩٥ .

٤) هو عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، فقيه ، حنبلي من علماء نجد وهو حفيد العلامة الشيخ محمد بن عبدالوهاب صاحب الدعوة إلى التوحيد والتي عرفت باسمه ويعرف هذا البيت بآل الشيخ توفي الشيخ عبد الرحمن بن حسن سنة خمس وثمانيتين ومائتين وألف هجرية . أنظر ترجمته الأعلام ٤/ ٧٥ .

٥) فتح المجيد ص ٢٠ .

٦) سورة النساء آية : ٦٠ .

وضابط الإيمان بالله : الإعتقاد الجازم بأن الرب سبحانه - هو الإله المعبود وحده دون سواه وإخلاص جميع أنواع العبادة كلها له وحده لا شريك له ونفيها عن كل معبود سواه .

وبعد أن عرفنا أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله - تعالى - إذن فالطواغيت لا تحصى لكثرتها وتنوعها إلا أن رؤوسها خمسة (١) وهي :

الأول :

إبليس الذي لا يزال جاهدا آناء الليل وآناء النهار في الدعوة الى عبادة غير الله - تعالى -.

قال - تعالى (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) (٢) .

الثاني :

الحاكم الجائر المغيّر لأحكام الله - تعالى - وقد ذم الله من تلبس بذلك قال - تعالى - (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) (٣) .

قال العلامة ابن كثير: بعد أن ذكر أنها نزلت فيمن طلب التحاكم إلى كعب ابن الأشرف أو إلى حاكم الجاهلية وغير ذلك قال : " والآية أعم من ذلك كله فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا " أ.هـ (٤) .

---

١) أنظر مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص ٢٦٠-٢٦١ .

٢) سورة " يس" آية : ٦٠-٦١ .

٣) سورة النساء آية : ٦٠ .

٤) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٢٧ .

وقد أقسم ـ البارى سبحانه بنفسه ـ على عدم إيمان من لم يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم قال ـ تعالى ـ (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) (١) .

قال العلامة ابن القيم : " أقسم ـ سبحانه ـ بنفسه المقدسة قسما مؤكدا بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج ، وهو ضيق الصدر وتنشرح صدورهم لحكمه كل الإنشراح ، وتنفسح له كل الإنفساح وتقبله كل القبول ، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضا حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والإعتراض فهنا قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه ، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم والإنقياد إذ قد يحكمه وينتفي الحرج عنه في تحكيمه ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه ، والتسليم أخص من انتفاء الحرج ، فالحرج مانع ، والتسليم أمر وجودي ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه إذ قد ينتفي الحرج ويبقى القلب فارغا منه ومن الرضى به والتسليم له ، فتأمله ، وعند هذا يعلم أن الرب ـ تبارك وتعالى ـ أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق وعند الإمتحان تعلم هل هذه الأمور الثلاثة موجودة في قلب أكثر من يدعي الإسلام أم لا ؟ أ.هـ (٢)

الثالث: الذى يحكم بغير ما أنزل الله وهذا يخرج صاحبه من ملة الإسلام إلى الكفر قال ـ تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (٣)

---

١) سورة النساء آية : ٦٥ .
٢) التبيان في أقسام القرآن ص ٤٣٠-٤٣١ .
٣) سورة المائدة آية : ٤٤ .

هذا النوع من أخطر الأمور وأعظمها جرما على من يحكم بغير ما أنزل الله ويقرر شريعة للناس من عند نفسه ويحرم ما لم يأذن به الله - تعالى - وهذا من نواقض كلمة التوحيد التي هي الشهادة بأن الله هو الإله الذي تألهه القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والإنقياد ، ومن أشدها أيضا مناقضة للشهادة بأن محمدا رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم العباد هذا لما بقي لطاغية في الأرض وجود ولما استطاع مخلوق مهما كانت مكانته أن يضع تشريعا مضمونه الكفر بالله ويكون سببا في تنحية شرع الله الحكيم ويرفع من شأن القانون الأثيم .

والناظر في حال المسلمين اليوم يجد أنهم اهتموا اهتماما بالغا بالقوانين البشرية وزهدوا في الأحكام السماوية إلا من رحم الله ، ونتيجة لهذا الإنحراف نزل بهم الذل والهوان وتسليط الأعداء فسلبوا أراضيهم وقتلوا شيوخهم وأطفالهم وانتهكوا أعراضهم وذلك بسبب بعد المسلمين عن حكم الله ورسوله وتحكيم ما اخترعته العقول الضالة ،أصحابها يعادون الاسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة ولنستمع إلى ما ذكره ابن كثير في شأن ما حل بالمسلمين أيام التتار وذلك عند قوله - تعالى - (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) (١) .

قال رحمه الله :" ينكر الله - تعالى - على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والإصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم ، وكما يحكم به التتار من سياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم " جنكيزخان" الذي وضع لهم الياسق " وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية ، والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام

---

١) سورة المائدة آية : ٥٠ .

أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير" أ.هـ (١)

ولقد وضح لنا الشيخ محمد بن إبراهيم (٢) رحمه الله - تعالى - الصور التي ان فعلها الحاكم أخرجته من الملة فقال :

الصورة الأولى : إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله وهو معنى ما روى عن ابن عباس واختاره ابن جرير (٣) وجحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم ، فإن من الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلا من أصول الدين أو فرعا مجمعا عليه ، أو أنكر حرفا مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم قطعيا فإنه كافر كفرا ينقل عن الملة .

الصورة الثانية : إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حي ولكنه اعتقد أن حكم غير الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن من حكمه ، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال فهذا لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير ، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله - تعالى - وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نصا أو ظاهرا

---

١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٩٠ .

٢) هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية ولد سنة احدى عشرة وثلاثمائة وألف هجرية ، نشأ في بيت علم وفضل ، حفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره وكف بصره وهو في الرابعة عشرة من عمره فصبر واحتسب وتلقى العلم على الشيخ سعد بن عتيق وتوفي في رمضان سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف من عمر يناهز الثمانين عاما أنظر ترجمته في كتاب علماء نجد للبسام ١ / ٨٨ ولشيخنا عبد المحسن العباد " ترجمة لهذا العالم الجليل في مؤلف صغير بعنوان " عالم جهبذ وملك فذ " .

(٣) جامع البيان ٦ / ٢٥٧

واستنباطا أوغير ذلك علم ذلك من علمه وجهله من جهله .

الصورة الثالثة : أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ولكن اعتقد أنه مثله فهذا كالنوعين السابقين كافر كفرا ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق .

الصورة الرابعة : من اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذي قبله .

الصورة الخامسة : من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ، و ومشاقة لله ولرسوله : إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أوغيرها من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر؟ وأي مناقضة للشهادة بأن محمدا رسول الله بعد هذه المناقضة .

الصورة السادسة : ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها " سلومهم" يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضا عن حكم الله .

أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة : والذي ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما بأنه كفر دون كفر وقوله أيضا : " ليس بالكفر الذي تذهبون إليه " فذلك مثل أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله من اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها فإن معصية سماها الله في كتابه كفرا أعظم من معصية لم يسمها الله كفرا " أ.هـ (١)

---

١) تحكيم القوانين ص ٩-١١ .

ولخطورة هذا النوع من رؤوس الطواغيت أسهبنا في الكلام حوله إذ الحكم بغير ما أنزل الله قد عم وطم الكثير من الكرة الأرضية إلا من رحم الله - تعالى مثل بعض البلدان التي أراد الله لها الخير فتمسكت بكتاب ربها وسنة نبيها فحطها الله من الإضطرابات وعمها الخير والرخاء .

النوع الرابع من رؤوس الطواغيت : من اصطاده الشيطان وأحكمه في شراكه فيدعي العلم بالغيب من دون الله - تعالى - وهذا مما اختص الله به دون غيره . قال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (١) .

فالعراف والكاهن والرمال والمنجم كلهم محادون لله ورسوله إذ أنهم يدعون العلم بالمغيبات وذلك تكذيب للقرآن والسنة إذ التصريح فيهما بأن علم الغيب من خصائص الألوهية ، ومن ادعى علم الغيب فقد أنزل نفسه منزلة الألوهية وكل من ادعى ذلك يعد من المردة أهل الفجور ولو ادعى الصلاح والتقى فإن قال ذلك كذب وبهتان ، لأن التقي الصالح لا يدعي علم الغيب ولا ينازع الله في ربوبيته ولو ادعى هذا الخرج من الإسلام لأن مدعي ذلك كذّب الله ورسوله فقد قال تعالى (لرسوله صلى الله عليه وسلم آمرا له بأن يقول : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) (٢) .

وأن يقول : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ان أتبع الا ما يوحى إلي) (٣) . إلى غير ذلك من الآيات التي تجرد علم الغيب لله وحده وتنفيه عن غيره من الأنبياء والمرسلين فضلا عن غيرهم والذي يتأمل ما عليه القبوريون من الإعتقادات الباطلة في أن الأولياء يعلمون

---

١) سورة الأنعام آية : ٥٩ . (٢) سورة الأعراف آية : ٨٨

٣) سورة الأنعام آية : ٥٠ .

الغيب وأنهم النور الفائض من الله وأن فيهم من صفات الربوبية مثل العلم والقدرة والكرم ولذلك يفزعون إليهم في يسرهم وعسرهم ويحبونهم كما يحب المؤمنون ربهم ويدعونهم كدعا المؤمنين إلههم لا قوة إلا بالله .

النوع الخامس: من رؤوس الطواغيت " الذي يعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة قال - تعالى - (ومن يقل منهم إني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) (١) .

قال ابن جرير رحمه الله - تعالى - : يقول - تعالى - ذكره : ومن يقل من الملائكة إني إله من دون الله (فذلك) الذي يقول ذلك منهم (نجزيه جهنم) يقول : نثيبه على قيله ذلك جهنم (كذلك نجزي الظالمين) يقول : كما نجزي من قال : من الملائكة إني إله من دون الله جهنم كذلك نجزي ذلك كل من ظلم نفسه ، فكفر بالله وعبد غيره .

وقيل : عني بهذه الآية إبليس ، وقال قائلون ذلك : إنما قلنا ذلك لأنه لا أحد من الملائكة قال : إني إله من دون الله سواه وروى عن ابن جريج وقتادة أن الآية خاصة بإبليس لأنه دعا إلى عبادة نفسه فنزلت الآية في إبليس " (٢) .

والذي نخلص اليه مما قدمنا ذكره أن الطاغوت شامل لكل معبود مدعو لله وكل رأس ضلال يدعو إلى الباطل ويزينه لمتبعيه كما أنه يشمل كل من نصبه الناس للحكم بينهم فحكم بأحكام الجاهلية المنتنة المضادة لحكم رب العالمين وحكم رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، فالحاكم بغير ما أنزل الله طاغوت لأنه نصب نفسه منصب الإله المشرع ، وهنا يظهر معنى مجاوزة الحد في معنى الطاغوت ، فإن الحاكم ملزم بأن يتقيد بأحكام - الرب سبحانه - التي أنزلها لعبيده وأوضحها لهم فعليه أن يطبقها في غاية من الدقة والتحري سواء بسواء فإذا ما عدل عنها وحكم برأيه وهواه فإنه نزل نفسه منزلة الإله المشرع

---

١) سورة الأنبياء آية : ٢٩ .

٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٧/١٧ .

لخلقه وتجاوز حده المحدود له من كونه عبدا لله ينفذ أحكامه إلى إله مشرع يحكم بما يريد فتجاوز حد العبودية إلى منزلة الألوهية فصار بذلك طاغوتا لتجاوزه حده الذي حد له ، كما أنه يدخل في معنى الطاغوت الكاهن والساحر وسدنة الأوثان الداعين إلى عبادة المقبورين لأنهم ينسجون من الحكايات المضلة للجهال والموهمة بأن المقبور ونحوه يقضي الحاجات للذين يقصدونه ويتوجهون إليه وأنه فعل كذا وكذا مما هو كذب صريح ، أو هو من فعل الشياطين .

وبمثل هذه الأكاذيب والأباطيل يوقعون الناس في الشرك الأكبر ولو أحقه . " فكل ما صرف الناس عن عبادة ربهم وطاعته فهو طاغوت . فالأوثان والمشاهد والأشجار والقباب التي تعبد من دون الله إنما هي طواغيت لأنها صرفت الكثير من الناس عن عبادة ربهم بحيث صرفوا لها كثيرا من أنواع العبادات وألهوها . وأصل أنواع الطواغيت كلها وأعظمها إبليس فهو الطاغوت الأكبر والعدو الأعظم لأنه يصرف الناس عن عبادة خالقهم ويغويهم فيعبدون غير الله ويسفكون الدماء ويحلون الحرام ويحرمون الحلال نسأله - تعالى - أن لا يجعل للشيطان علينا سبيلا " (١) .

---

١) أنظر الرسالة الثالثة " تعريف العبادات وتوحيدها والإخلاص . . . .) للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين " ضمن مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ولبعض أبنائه وأحفاده ص : ٤٠١ .

(المبحث العاشـــر)

عبوديـــة الإنابـــة

إن الإنابة نوع من أنواع العبادة التي لا تصح إلا لله - سبحانه - ولا يجوز صرفها إلا له وحده لا شريك له وقبل أن نذكر الآيات الواردة في السـورة التي دلت على أن الله تعالى - تعبد بها عباده نذكر تعريفها في اللغـة والشرع حتى يعرف الإنسان حقيقتها ويوجهها إلى ربه - جل وعلا - .

أما تعريفها في اللغة :

فقد جاء في الصحاح للجوهري : وأناب الى الله - تعالى - أقبل وتاب"(١) وجاء في القاموس: " وناب زيد إلى الله - تاب - أ .هـ" (٢) .

وجاء في المصباح المنير: " وأناب زيد إلى الله - تعالى - إنابة رجع" .هـ (٣)

وجاء في اللسان :" وناب فلان إلى الله - تعالى - وأناب إليه إنابة فهو منيب: أقبل وتاب ورجع إلى الطاعة ، وقيل : ناب لزم الطاعة وأناب تاب ورجع. . . . إلى أن قال : الإنابة الرجوع إلى الله بالتوبة ، وفي التنزيل العزيز: (منيبـين إليه) (٤) أي : راجعين إلى ما أمرهم به ،غير خارجين عن شيء من أمره"(٥) .هـ

ومن هذه التعاريف اللغوية يتبين لنا أن الإنابة هي الإقبال على اللـه - عز وجل - والتوبة إليه .

وأما تعريفها في الشـرع :

فقد ذكر لها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى تعريفين :

---

١) ١/ ٢٢٩ .

٢) ١/ ١٤٠ .

٣) ٢/ ٦٢٩ .

٤) الآية رقم (٣٣) من سورة الروم .

٥) ١/ ٧٧٥ .

فقال : " الإنابة هي :عكوف القلب على الله -عز وجل- كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه ، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال ، والتعظيم وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ، ومن لم يعكف قلبه على الله - وحده -عكف على التماثيل المتنوعة كما قال : إمام الحنفاء (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) (١) فكان حظ قومه العكوف على التماثيل وكان -حظه -العكوف على الرب الجليل " (٢) .

وقال رحمه الله معرفا لها بتعريف آخر:

" والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف داعي القلب وجواذبه إليه وهي : تتضمن المحبة ، والخشية فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل لديه "(٣)

ولقد دلت سورة (الزمر) على أن الإنابة عبادة لله -عز وجل - في ثلاث آيات منها :

قال تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار) .

وقال تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد) .

وقال تعالى : (أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) .

فهذه الآيات الثلاث دلت على أن الإنابة نوع من أنواع العبادة التي يجب اخلاصها -للباري جل وعلا -

فالآية الأولى : وهي قوله تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه) الآية : فقد أوضح الله تعالى-فيها أن الإنسان الكافر بربه -سبحانه-

---

١) سورة الأنبياء آية : ٥٢ .
٢) الفوائد ص ١٩٠ .
٣) طريق الهجرتين ص ١٧٣ .

عندما ينزل به البلاء والشدة وتلحقه المضرة إما في نفسه ،أو ماله أو ولده فإنه يلجأ إلى الله -عز وجل- منيبا إليه ومستغيثا به -وحده- ليكشف عنه ما نزل به ، وأصابه ،فإذا ما تفضل الله عليه بالنعم ، والعطاء والرخاء نسي -ربه -الذي أناب إليه وقت الشدة ونسي حالته التي كان عليها في حال الشدة فجعل لله الشركاء والأنداد فيعبدهم مع الله -عز وجل -أو يخصهم دونه بالعبادة ليضل نفسه وغيره عن دين الحق والتوحيد الذي هو الطريق الموصل إلى الله -سبحانه - .

قال العلامة ابن جرير: " يقول تعالى ذكره :" وإذا مس الإنسان بلاء في جسده من مرض ، أو عاهة ،أو شدة في معيشته وجهد وضيق (دعا ربه) يقول استغاث بربه الذي خلقه من شدة ذلك ورغب إليه في كشف ما نزل به من شدة ذلك ، وقوله (منيبا إليه) يقول : تائبا إليه مما كان من قبل ذلك عليه من الكفر به ، وإشراك الآلهة والأوثان في عبادته ، راجعا إلى طاعته " أ.هـ (١) .

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى : (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى فبشر عباد) ،

فهذه الآية : إخبار من الله -جل وعلا- أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة الذين أنابوا إلى الله بعبادته وإخلاص الدين له فانصرفت دواعيهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام ، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات والبشرى التي ذكرها الله -تعالى -لأهل الإنابة لا يعلم وصفها إلا هو -سبحانه وتعالى - وهي شاملة للبشرى في حياتهم الدنيا بالثناء الحسن ، وتكلؤهم عناية الله التي يحسون من خلالها أنهم إذا قدموا على ربهم فلهم عنده الكرامة في الدار الآخرة بحيث يحل عليهم رضوانه وبره ، وإحسانه وأمانه في الجنة وما أعظمها من كرامة التي لا تساويها أي كرامة .

---

١) جامع البيان ٢٣/١٩٩ .

قال العلامة عماد الدين ابن كثير: قال : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم ، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة " أ.هـ (١) .

وأما الآية الثالثة: وهي قوله تعالى (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) .

فهذه الآية تضمنت الأمر من الله - تعالى - لجميع عباده بالإنابة إليه وحده دون سواه ، وأن يسلموا له أنفسهم وقلوبهم وينقادوا له انقيادا تاما ظاهرا وباطنا عن طواعية ورضا قبل أن ينزل بهم العذاب فلا يجدون من ينصرهم من دونه ويدفع عنهم عقابه لأنه لا طاقة لأحد في مواجهة عذاب الله الذي يحل بالمتمردين على أوامر الله ونواهيه .

قال العلامة ابن جرير: حول قوله تعالى (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) " يقول تعالى ذكره : وأقبلوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة وارجعوا إليه بالطاعة واستجيبوا له إلى ما دعاكم إليه من توحيده ، وإفراد الألوهية له ، وإخلاص العبادة له . . . . . إلى أن قال : قال ابن زيد : الإنابة : الرجوع إلى الطاعة ، والنزوع عما كانوا عليه (وأسلموا له) يقول : واخضعوا له بالطاعة " أ.هـ (٢)

فتبين من الآيات الثلاث الواردة في السورة في شأن الانابة ، أن الإنابة نوع من أنواع العبادة يجب على العبد أن يحققها ويجعلها من خالص حقه - تعالى - فلا ينيب إلا إلى ربه ، ولا يتوب إلا إليه لأن مغفرة الذنوب من حقه - تعالى - وليس لأحد سواه من ذلك شيء .

---

١) تفسير القرآن العظيم ٦/٨٤ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/٢٤٤ .
٢) جامع البيان ٢٤/١٧ .

الإنابة نوعـــان :

النوع الأول : إنابة لربوبيته - تعالى - وهي إنابة كل المخلوقات وهذا النوع مشترك بين المؤمن والكافر والبر والفاجر قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه) (١) فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع وهذه الإنابة ليس من مستلزماتها الإسلام ، بل تجتمع مع الشرك والكفر كما جاء في تمام هذه الآية (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم) (٢) فهذه حالهم بعد الإنابة .

النوع الثاني : إنابة أولياء الله الموحدين المخلصين المنقادين وهي إنابة لالهيته ، إنابة عبودية ، ومحبة وهذه تتضمن أربعة أمور :-

الأمـــر الأول : محبة الله - تعالى .

الأمـــر الثاني : الخضوع له - سبحانه - ،

الأمـــر الثالث : الإقبال عليه دون سواه .

الأمر الرابـــع : الإعراض عما سواه - تعالى - ولا يستحق اسم "المنيب" إلا من اجتمعت فيه هذه الأمور الأربعة ، وتفسير السلف لهذه "اللفظة يدور على ذلك ، وفي اللفظة معنى الإسراع ، والرجوع والتقدم و"المنيب" إلى اللـــه المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت ، المتقدم إلى محابه "أ.هـ (٣) .

وعندما نتصفح كتاب الله الذي أنزله الله موعظة للناس وشفاء لما في الصدور وهدى ، ورحمة لعباده المؤمنين نجد أن الإنابة أخص وصف أثنى الله به على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وجعلها - سبحانه - من أبرز صفات عبـــاده الموحدين .

قال تعالى في معرض ثنائه على خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام (إن ابراهيم

---

١) سورة الروم آية : ٣٣ .
٢) " " " : ٣٤ .
٣) مدارج السالكين : ١/ ٣٣٤ .

لحليم أواه منيب) (١) . فلقد وصف الله إبراهيم بثلاث صفات في هذه الآية آخرها الإنابة .

وقال تعالى عن نبيه داود عليه الصلاة والسلام (فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) (٢) .

وفي هذه الآية أيضا : وصف الله نبيه داود عليه الصلاة والسلام بثلاث صفات آخرها الإنابة .

وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام (ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) (٣) ، وأخبر - تعالى - أن آياته الدالة على ربوبيته وألوهيته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة قال تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) (٤) .

وقال تعالى (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر الا من ينيب) (٥) .

وقال تعالى (مخاطبا نبيه عليه الصلاة والسلام وأمته تبع له في ذلك) (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة) (٦) .

فقوله (منيبين إليه) في إعرابها وجهان :

---

١) سورة هود آية : ٧٥ .
٢) سورة "ص" آية : ٢٤ .
٣) سورة هود آية : ٨٨
٥) سورة (ق) آية : ٦-٨ .
٥) سورة غافر آية : ١٣
٦) سورة الروم آية : ٣٠ ، ٣١ .

الوجه الأول : إما أن تكون منصوبة على الحال من الضمير المستتر في قوله (فأقم وجهك) إذ الخطاب له ولأمته أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه ومثل هذا قوله تعالى (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء (١) .

الوجه الثاني : أن تكون حالا من المفعول في قوله تعالى (فطر الناس عليها) أي فطرهم منيبين إليه فلو تركوا وفطرهم لما حادت عن الإنابة ولكنها ا تنحرف وتتغير عما فطرت نتيجة للمؤثرات الخارجية . قال صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ،أو يمجسانه) (٢) وقوله عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى : (خلقت عبادي حنفاء كلهم وأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم) (٣) وقال صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود الا يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا أعرب عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا) (٤) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : فالنفس إذا تركت مقرة للهكانت له بالإلهية محبة تبعده لا تشرك به شيئا ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض عن الباطل "أ.هـ (٥) .

ولقد أعلمنا ـ سبحانه ـ أن ثوابه العظيم وجنته التي فيها ملا عين رأت ولا أذن سمعت إنما هي لأهل الخشية والإنابة قال تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب ، وجاء بقلب منيب أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) (٦) .

---

١) سورة الطلاق آية : ١ .
٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة جـ ١ / ٢٤٠ وصحيح مسلم ٤/٢٠٤٧ البخاري
٣) رواه مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي : ٤ / ٢١٩٧ .
٤) رواه أحمد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه : ٣ / ٣٥٣ .
٥) مجموع الفتاوى : ١٤ / ٢٩٦ .
٦) سورة (ق) آية : ٣١-٣٤ .

ومن علامة إسعاد الله - تعالى - عبده أن يرزقه الإنابة والرجوع إليه - سبحانه - ، ومن علامة الشقاوة للعبد أن يغويه الشيطان فيكون معجبا بعمله ولا ينيب إلى ربه روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده من حديث جابر بن عبد الله رضى الله - تعالى - عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تمنوا الموت فإن هول المطلع شديد وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة " (١) .

مراتب الناس في الإنابة :

إن الناس على مراتب في إنابتهم إلى الله - تعالى - وأنهم فيها على درجات متفاوته ، فهم متنوعون في رجوعهم إلى ربهم الذي خلقهم ورزقهم من حيث الدافع لهم وهم أقسام .

القسم الأول : من ينيب إلى الله - سبحانه - بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي وهذه الإنابة منبعها مطالعة الوعيد الذي أعده الله للمخالفين العصاة والباعث عليها العلم والخشية والحذر .

القسم الثاني : من الناس من ينيب إلى الله - عز وجل - بالدخول في أنواع العبادات ، والقربات فهذا الصنف يسعى بجد واجتهاد لأن فعل الطاعات وأنواع القربات محبب إليه ، وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد ، والثواب ومحبة الكرامة من الرب - سبحانه - وهذا الصنف من الناس هم أبسط نفوسا وأشرح من القسم الأول لأن جانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم وإلا فكل من الفريقين منيب إلى الله بالأمرين معا ولكن خوف هؤلاء دخل في رجائهم ، فأنابوا إلى الله بالعبادات وأنواع القربات والطاعات ، ورجاء الفريق الأول اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم إلى الله بترك المخالفات .

---

١) المسند ٣ / ٣٣٢ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥ / ٢٧٠ .

القسم الثالث: من الناس من ينيب إلى الله بالدعاء والتضرع والإفتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه ومصدر هذه الإنابة أنهم شهدوا الفضل والمنة والغنى والقدرة والكرم فأنزلوا بالله حوائجهم وعلّقوا به آمالهم فإنابتهم إلى الله من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي ، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة ، وأما الأعمال التي يعملونها ، فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة ، وأصلهم الإنابة إلى الله عند الشدائد والضرّاء فقط ، فإنابتهم اضطرارية لا إنابة اختيار ورغبة وحالهم كحال الذين قال الله تعالى في شأنهم (فإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إيّاه) (١) وقوله تعالى (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) (٢) وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم منصرفة عن الخالق - سبحانه - معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني صار حائلا بينها وبين إنابتها بذاتها إلى معبودها الحق وإلهها الحق فهي ملتفته إلى غيره ، ولها إليه إنابة ما بحسب ما عندها من الإيمان بالله ومعرفته له، فأعلا أنواع الإنابات إنابة الروح بجملتها لشدة المحبة الخالصة المغنية لها عما سوى محبوبها ومعبودها ، وحين أنابت إليه أرواحها لم يتخلف منها شيء عن الإنابة فإذا أناب العبد إلى ربه بروحه إنابة صادق المحبة فإن جميع قواه وجوارحه ستكون منيبة إلى الله تبعا لروحه .

فينيب القلب : بالمحبة والتضرع والذل والإنكسار.

وينيب العقل : بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه وتسليمه لها وتحكيمه إياها دون غيرها ، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها .

---

١) سورة الاسراء آية : ٦٧ .

٢) سورة العنكبوت آية : ٦٥ .

وتنيب النفس : بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق السيئة والإرادات الفاسدة ، فتنقاد لأوامر الله ، وتخضع له فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر .

وينيب الجسد : في الأعمال ويقوم بها فرائض وسننا على أكمل الوجوه فلم يبق في العبد عضو ولا جارحة إلا وأناب إنابته الخاصة فعند ذلك لم يبق في العبد المنيب هذه الإنابة عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق الذي كل محبة سوى محبته عذاب على صاحبها ، وإن كانت عذبة في مبادئها فانها عذاب في عواقبها" (١) .

وخلاصة القول مما تقدم أن من المقطوع به يقينا أنه لا يوجد في الخلق أجمعين من يعطي ، أو يمنع ، أو ينفع ، أو يضر إلا باذن الله ، ولا من يسعد أو يشقي إلا الله ، فعلى هذا يكون من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب العبد إلى غير الرب - سبحانه وتعالى - رغبة ، أو رهبة ، خوفا أو طمعا ، ولو حصل ذلك كانت الإنابة إلى غير الله - سبحانه - وتعالى باطلا وشركا ، وكان من أناب إلى ذلك الغير ابتغاء حصول خير منه ، أو خائفا من سخطه ، أو عقابه ، فقد أشرك مع الله غيره فيما هو من خالص حقه - سبحانه وتعالى - .

نسأل الله السلامة من ذلك .

---

١) أنظر طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ١٧٣-١٧٤ بتصرف .

(المبحث الحادي عشر)

عبودية التوكـــــل

قبل أن أذكر دلالة السورة على عبودية التوكل أذكر تعريفه في اللغة والإصطلاح كما هو الشأن في المباحث التي تقدمت ولكي يفهم الإنسان ـ التوكل ـ الذي فرضه الله على جميع عباده وأمرهم أن يخلصوه له ـ وحده لا شريك له .

أما تعريفه في اللغـــــة :

فقد جاء في الصحاح : "التوكل إظهار العجز والإعتماد على غيرك والإسم التكلان ، واتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته (١) .

وفي اللسان : المتوكل على الله : الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركـــن إليه وحده ولا يتوكل على غيره وذكر فيه عن ابن سيدة أنه قال :" وكل بالله ، وتوكل عليه ، . . واتكل استسلم إليه ، وتكرر في الحديث ذكر التوكل ، يقال : توكل بالأمر إذا ضمن القيام به ووكلت أمري إلى فلان أي : ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه ، ووكل فلان فلانا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجزا عن القيام بأمـــر نفسه ، ووكل إليه الأمر سلّمه ، ووكله إلى رأيه وكلا ووكولا تركه "أ.هـ (٢) .

وجاء في المصباح المنير: وكلت الأمر إليه " وكلا " ووكولا فوضته إليه ، واكتفيت به . . . . . وتوكل على الله اعتمد عليه ووثق به "أ.هـ (٣) .

---

١) ٥/١٨٤٥ ، وانظر القاموس ٤/٦٧ .

٢) لسان العرب ١١/٧٣٤ ، وانظر فتح الباري " ١١/٣٠٥ ، تيسير العزيز الحميد ص ٤٣٧ .

٣) ٢/٦٧٠ .

وأما تعريفه اصطلاحـــا :

فمن خلال معرفة التوكل في اللغة نعرف حقيقة التوكل اصطلاحا فالتوكـــل على الله : هو الثقة به ، والإعتماد عليه ، وتفويض الأمر إليه ، والإستعانة به في كل شأن ، والإيقان بأن قضاءه نافذ ، والسعي فيما لا بد منه من المطعـــم والملبس والمسكن والإحتراس من العدو مطلوب كما هو منهج الأنبيـــــاء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام .

قال العلامة ابن القيم معرفا التوكل :

" هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلـــب من الإعتماد عليها ، والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله : توكلت على اللـــه مع اعتماده على غيره وركونه إليه ، وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء فقول العبد : توكلت على الله ، مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله " تبت إلى الله ، وهو مصر على معصيته مرتكب لها " أ.هـ (١) .

ولقد دلت السورة على أن التوكل عبادة تعبد الله به عباده وأمرهم بأن يعتمدوا عليه وحده دون سواه في آيتين منها :

قال تعالى (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل اللـــه فما له من هاد) .

وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتـــم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنـــي برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) .

هاتان الآيتان : من السورة بينتا أن الله ـ تعالى ـ هو الكافي وهو الذي يتوكل عليه وحده لا شريك له .

---

١) الفوائد ص ٨٦ .

فالآية الأولى : وهي قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) الآية بين الله تعالى فيها بأنه سيكفي عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم كل ما أهمه في أمر دينه ودنياه ويدفع عنه كل من أراده بسوء كائنا من كان وما دام الله هو الكافي لعبده فمن الضلال والغي أن يخوفه المشركون بأصنامهم وأوثانهم أن تناله بسوء إذ أنها جمادات لا تقدر على جلب نفع ، أو دفع ضر بحال من الأحوال .

قال ابن جرير : اختلفت القراء في قراءة (أليس الله بكاف عبده) فقرأ ذلك بعض قراء المدينة وقرأ عامة قراء الكوفة (أليس الله بكاف عباده) على الجمع بمعنى أليس الله بكاف محمدا وأنبياءه من قبله ما خوفهم أممهم من أن تنالهم آلهتهم بسوء ..... وبعض قراء الكوفة (بكاف عبده) على التوحيد بمعنى :أليس الله بكاف عبده محمدا ..... إلى أن قال : قال ابن زيد في قوله (أليس الله بكاف عبده) قال : بلى ، والله ليكفينه الله وينصره وينجزه كما وعده" .هـ(١)

وقال ابن كثير : (أليس الله بكاف عبده) وقرأ بعضهم (عباده) يعني أنه تعالى- يكفي من عبده وتوكل عليه " أ .هـ (٢) .

وقال أبو عبد الله القرطبي : وقراءة العامة " عبده) بالتوحيد يعني محمدا صلى الله عليه وسلم يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم ، وقرأ حمزة والكسائي " عباده" وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهم " أ .هـ (٣) .

وأما قوله تعالى ،في الآية الثانية : (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) أمر الله نبيه بأن يقول : للمشركين بعد أن تبين بالدليل القاطع على أنه وحده المعبود وأنه الخالق لجميع المخلوقات النافع ،الضار وحده وأن غيره عاجز من جميع الوجوه عن الخلق والنفع والضر مستجلبا كفايته ومستدفعا مكر المشركين وكيدهم (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) أي : عليه يعتمد

---

١) جامع البيان ٢٤/٥-٦ .
٢) تفسير القرآن العظيم ٦/٩٤ .
٣) الجامع لأحكام القرآن ٥٥/٢٥٧ .

المعتمدون في جلب المصالح ودفع المضار فالله هو الذي بيده وحده الكفاية هو حسبي سيكفيني كل ما أهمني وما لا أهتم به .

قال ابن جرير : فقل حسبي الله مما سواه من الأشياء كلها إياه أصمد وإليه أفزع في أموري دون كل شيء سواه فإنه الكافي وبيده الضر والنفع لا إلى الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع (عليه يتوكل المتوكلون) يقول : على الله يتوكل من هو متوكل وبه فليثق لا بغيره " أ.هـ (١) .

وقال الرازي : حول الآية :" إذا ثبت أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر ، إذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الإعتماد عليه كافيا وهو المراد من قوله (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله - تعالى - (ويخوفونك بالذين من دونه) أ.هـ (٢) .

ومما تقدم يتبين لنا أن المشركين لو حكموا عقولهم في شأن أصنامهم لعرفوا أن تخويفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بها لا قيمة له ولا معنى ، إذ هم يعلمون أنها لا تقدر على جلب النفع ولا تدفع الضر بحال ولذلك جاء الوحي الإلهي بأنه لا كافي إلا الله ، ولا قادر على كل شيء سواه ، ولا عالم بكل شيء غير ، وبذلك كان التوكل على غير الله باطلا وشركا فالسورة بينت بأن الكفاية لله وحده والاعتماد عليه دون سواه لأنه القادر على كل شيء والمحيط بكل شيء علما .

---

١) جامع البيان ٢٤/٧ .
٢) التفسير الكبير ٢٦/٢٨٢ .

ولقد فرض الله التوكل على عباده وأوجب عليهم أن يخلصوه له وحده لا شريك الله لأنه من أفضل العبادات ومن أجل مقامات الدين ولا يوفق للقيام بـــه على وجه الكمال إلا أولياء الله وحزبه المؤمنون ومما يدل على فرضيته أن الله - تعالى - أمر به في مواضع كثيرة من كتابه المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال - تعالى - (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (١) .

قال ابن القيم : فجعل التوكل على الله شرطا في الإيمان قدل على انتفـــاء الإيمان عند انتفائه .أ.هـ (٢) .

قال صاحب قرة عيون الموحدين (٣) حول شرحه للآية السابقة (وأراد المصنف بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله لأنه من أجمـــع أنواع العبادة الباطنة فإن تقديم المعمول يفيد الحصر فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة بكمال التوكل على الله كما في هذه الآية .أ.هـ (٤) .

ومما دل على فريضة التوكل أن المولى سبحانه - جعله من شروط صحة الإسلام والإيمان ، والمفهوم من ذلك انتفاء الإسلام ، والإيمان عند عدم التوكل قال الله تعالى فيما حكاه عن نبيه موسى عليه السلام (وقال موسى يا قوم إن كنتـــم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) (٥) .

وقال تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) . (٦)

فهاتان الآيتان دلتا على أن صحة الإسلام والإيمان متوقفة على صحة التوكل .

وقال تعالى (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) (٧) .

وهذه الآية فيها الأمر بالتوكل على الله ، وأردف هذا الأمر بما هو الموجـــب للتوكل والمصحح له وذلك مما تضمنه قوله تعالى (إنك على الحق المبين) فإن

---

١) سورة المائدة : ٢٣ .

٢) طريق الهجرتين ص ٢٥٥ .

٣) هو عبد الرحمن بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى -

٤) قرة عيون الموحدين ص ٢٠٤ .

٥) سورة يونس آية : ٨٤ . (٦) سورة المائدة آية : ٢٣ .

٧) سورة النمل آية : ٧٩ .

ثالثها : ما حكاه الله عن أوليائه وعباده المؤمنين حيث قالوا : (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) (١) .

رابعها : قول الباري - سبحانه - مخاطبا خاتم الأنبياء والمرسلين (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذ وكيلا) (٢)

خامسها : قوله تعالى (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) (٣) .

سادسها : قوله - سبحانه وتعالى - (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) (٤) .

سابعها : قوله تعالى (قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) (٥)

فهذه سبعة مواضع جمع الله فيها بين الوسيلة والغاية فالوسيلة هي التوكل والغاية هي الإنابة ، فإن الإنسان لابد له من غاية يطلبها ، ووسيلة توصله إلى تلك الغاية ، وأشرف غاية للإنسان وأجلها في هذه الحياة هي أن يعبد ربه وينيب إليه ، ومن أعظم الوسائل التي لا وسيلة سواها البتة أن يتوكل العبد على الله ويستعين به ، ولا سبيل له إلى تحقيق عبودية الله والإنابة إليه إلا بهذه الوسيلة .

وأما الجمع بين التوكل والإيمان فكقوله - سبحانه وتعالى - (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين) (٦) .

وقوله (ألله لا اله هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٧) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : " فذكر اسم الإيمان هنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل ، وأن قوة التوكل وضعفه

---

١) سورة الممتحنة آية : ٤
٢) سورة المزمل آية : ٨-٩ .
٣) سورة هود آية : ١٢٣ .
٤) سورة الحج آية ٧٨ .
٥) سورة الرعد آية : ٣٠ .
٦) سورة الملك آية : ٢٩ .
٧) سورة التغابن آية : ١٣ .

بحسب قوة الإيمان وضعفه وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفا فهو دليل على ضعف الايمان ولا بد "أ.هـ (١) .

وأما الجمع بين التوكل والإسلام : فمثل قوله تعالى : (وقال موسى لقومه يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) (٢) .

ومثال الجمع بين التوكل والتقوى : ففي قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٣) .

وأما اقتران التوكل بالهداية ففي قول رسل الله عليهم الصلاة والسلام لأممهم (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) (٤) .

فالعبد إذا سلك طريق الحق والهدى يكون قويا في توكله على ربه - تبارك وتعالى - ومن اعتمد على ربه كفاه كلما أهمه وما لم يهمه قال تعالى (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) (٥) "أي : الله وحده كافيك وكافي أتباعك فلا تحتاجون معه إلى أحد .

وقيل : المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون ، وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه فإن الحسب والكفاية لله - وحده - كالتوكل والتقوى والعبادة قال تعالى (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) (٦) .

ففرق بين الحسب والتأييد فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (٧) .

---

١) طريق الهجرتين ص٢٥٥ .
٢) سورة يونس آية : ٨٤ .
٣) سورة الطلاق آية : ٢-٣ .
٤) سورة ابراهيم آية : ١٢ .
٥) سورة الأنفال آية : ٦٤ .
سورة الأنفال آية : ٦٢ .
٧) سورة آل عمران آية : ١٧٣ .

ولم يقولوا :حسبنا الله ورسوله فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب ـ تعالى ـ لهم بذلك فكيف يقول لرسوله : ألله وأتباعك حسبك ؟ وأتباعه قد أفرد وه بالحسب ولم يشركوا بينه وبين رسوله صلى الله عليه وسلم هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل ، ونظير هذا قوله تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا الى الله راغبون) (١) وتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله كما قال تعالى (وما آتكم الرسول فخذوه) (٢) وجعل الحسب وحده فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله بل جعله خالص حقه كما قال تعالى(انا الى الله راغبون) (٣) ولم يقل إلى رسوله بل جعل الرغبة إليه ـ وحده ـ كما قال تعالى (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) (٤) فالرغبة ، والتوكل والإنابة ، والحسب لله ـ وحده ـ كما أن العبادة والتقوى والسجود لله ـ وحده ـ والنذر والحلف لا يكون إلا له ـ سبحانه وتعالى " أ.هـ (٥) .

أقسام التوكل على الله ـ تعالى ـ:

التوكل على الله ـ تعالى ـ نوعان :

أحدهما : توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية . وهذا النوع وإن لم تكن غايته المطلوبة عبادة لأنها محض حق العبد إلا أن التوكل على الله لحصولها عبادة لأن العبد أنشأها لمصلحة دينه ودنياه .

---

١) سورة التوبة آية : ٥٩ .
٢) سورة الحشر آية : ٧ .
٣) سورة التوبة آية : ٥٩
٤) سورة الإنشراح آية : ٧-٨
٥) زاد المعاد ١/١٦-١٧ .

الثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه . ففاية هذا النوع عبادة وهو في نفسه عبادة فإن العبد استعان بالله على ما يرضيه فصاحبه متحقق بإياك نعبد وإياك نستعين فمن تركه فقد ترك شطر دينه . ، وبين هذين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله تعالى- فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضا ، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه ، فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل ، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم " (١) .

وأما التوكل على غير الله -تعالى- فهو أيضا نوعان :

أحدهما : التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كالذين يتوكلون على الأموات والغائبين فهي رجاء تحقيق المطالب من الرزق والنصر والحفظ والشفاعة فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بالتوبة النصوح .

الثاني : التوكل على الأحياء الحاضرين من ولاة الأمور ونحوهم فيما لهم قدرة عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك فهذا جائز لأنه في الأسباب العادية الظاهرة وهو أيضا نوع شرك أصغر. والوكالة الجائزة هي توكيل الإنسان أخاه في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه ولكن ليس الإعتماد عليه في حصول ما وكل فيه بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ولا يعتمد عليه بل يعتمد على المسبِّب الذي أوجد السبب والمسبب" (٢) .

---

١) الفوائد ص ٨٥-٨٦ ، طريق الهجرتين ص ٢٦٢ .

٢) تيسير العزيز الحميد ص ٤٣٩ ، وانظر قرة عيون الموحدين ص ٢٠ وانظر فتح المجيد ص ٢٩٠ . ط: السلفية .

وللتوكل على الله تعالى - فضل عظيم وثواب جزيل في الدنيا والآخرة وقد جاء في الكتاب والسنة الكثير من ذلك .

فمن فضائله أن صاحبه موسوم بمحبة الباري - سبحانه وتعالى - وأكرم بمقام موسوم صاحبه بمحبة الله - عز وجل - قال تعالى (فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) (١) ، ومن أحبه الله - تعالى - ناله كل خير ، ومن أبغضه فأي خير يناله ؟ .

ومن فضائله أن الله - تعالى - ضمن الكفاية لمن توكل عليه .

قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٢) ومن كان الله حسبه وكافيه ومراعيه فقد ظفر بفوز عظيم ، فالله وحده هو الذي تطلب منه الكفاية - وحده - ومن طلبها من غيره له الخيبة والخسران .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :-

" والتوكل عليه هو الإستعانة به فمن يتق الله مثال (إياك نعبد) ومن يتوكل عليه مثال (إياك نستعين) كما قال تعالى (فاعبده وتوكل عليه) (٣) وقال (عليك توكلنا وإليك أنبنا) (٤) ..... إلى أن قال : وأما التوكل فبين أن الله حسبه أي : كافيه ، وفي هذا بيان التوكل على الله من حيث أن الله يكفي المتوكل عليه كما قال : (أليس الله بكاف عبده) خلافا لمن قال : ليس في التوكل إلا التفويض والرضا " أ.هـ (٥) .

---

١) سورة آل عمران آية : ١٥٩ .
٢) سورة الطلاق آية : ٣ .
٣) سورة هود آية : ١٢٣ .
٤) سورة الممتحنة آية : ٤ .
٥) مجموع الفتاوى ١٦ / ٥٥-٥٦ .

وعلى هذا نقول : فمن كفاه الله ـ تعالى ـ ووقاه فلا يكون هناك سبيل لعدو في أن يطمع في الإضرار به ، أو التنكيل به لأنه جعل الله ملجأه ومعاذه فهو الذي يكفيه كل مهمة ويصرف عنه كل بلية .

قال ابن القيم : رحمه الله تعالى :" وأخبر : أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه وأنه كاف من توكل عليه وحسبه وجعل لكل عمل من أعمال البر ومقام من مقاماته جزاءا معلوما ، وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته فقال (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) (١) . (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته) (٢) (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) (٣) . . . . . ثم قال في التوكل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٤) فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل ولم يجعله لغيره ، وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه وليس كونه وكل الأمور إلى نفسه لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة : صارت حاله التوكل قطعا على من هذا شأنه لعلمه بأن الأمور كلها موكولة اليه ، وأن العبد لا يملك شيئا منها " أ.هـ (٥) .

ومن فضائله أنه من صفات أولياء الله وخاصته وهم المؤمنون به حقا : وفي مقدمتهم أنبياء الله ورسله قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) (٦) فهذه الآية فيها دليل على انحصار المؤمنين الكمل فيمن تلبس بهذه الصفة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية :" المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر

---

١) سورة الطلاق آية : ٢ . (٢) سورة الطلاق آية : ٥ .
٣) سورة الطلاق آية : ٤ . (٤) سورة الطلاق آية : ٣ .
٥) مدارج السالكين ٢ / ١٢٨ .
٦) سورة الأنفال آية : ٢ .

الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) .

يقول : تصديقا : (وعلى ربهم يتوكلون) يقول : لا يرجون غيره" أ .هـ (١)

يقول :

وقوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) يبين بأن المؤمنين لا يعتمدون بقلوبهم الا على ربهم ويفوضون اليه جميع أمورهم ، فلا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يرغبون إلا إليه مع يقينهم بأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه صاحب التصرف في الملك وحده والمستحق للعبادة دون سواه .

وقال في " فتح المجيد " : وفي الآية وصف المؤمنين حقا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي : الخوف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على الله وحده وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان ، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة" أ .هـ(٢)

وقال تعالى في وصفه رسله وأنبياءه بالتوكل عليه :

(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) (٣) دلت هذه الآية على أن الجمع بين التوكل والهداية من تحقيق الإيمان ، ومصيبة الإنسان إما من عدم الهداية وإما من عدم توكله على الله ، كما دلت أيضا على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كان حالهم التوكل على الله وحده ، والقرآن مملوء بذكر التوكل إما أمرا به ، وإما إخبارا عن خاصة الله وأوليائه وهم المؤمنون بأنهم حققوا عبودية التوكل ، وقد أمر الله نبيه وخاتم رسله بالتوكل عليه في مواضع كثيرة من كتابه وسماه المتوكل كما روى ذلك البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) (٤) قال : في التوراة يا أيها النبي إنا أرسلناك

---

١) جامع البيان ٩ / ١٧٨-١٧٩ .

٢) ص ٣٦٣ .

٣) سورة ابراهيم آية : ١٢ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٥ .

شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ (١) ولا سخاب (٢) بالأسواق ...." الحديث (٣) .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب بأن لهم النصيب الأوفر في تحقيق مقام التوكل .

روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب : هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون" (٤)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى حول هذا الحديث :"إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون ، والطِّيرة نوع من الشرك ، ويتوكلون على الله وحده لا على غيره وتركهم الإسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله " أ.هـ (٥) .

وجاء في قرة عيون الموحدين عقب قوله صلى الله عليه وسلم (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون" أي : لا يطلبون الرقية من أحد ولا يكتوون إذا كان فيهم ما يشتفى بالكي منه ، ولا يتطيرون ، والطيرة شرك فتركوا الشرك رأسًا ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألوه الرقية فما فوقها وتركوا الكي ، وإن كان يراد للشفاء ، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله وتفويضهم أمورهم إليه ، وأن لا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبّره وقضاه ، فلا يرغبون إلا إلى ربهم ، ولا يرهبون سواه ، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرهم

---

١) الفظ : سيء الخلق وفلان أفظ من فلان أي أصعب خلقا - والمراد هنا أنه صلى الله عليه وسلم رفيق بأمته في التبليغ غير فظ ولا غليظ النهاية ٣/٤٥٩

٢) السَّخب والصخب : بمعنى الصياح . النهاية ٢/٣٤٩ .

٣) صحيح البخاري ٣/١٩٩-١٩٠ ، المسند ٢/١٧٤ .

٤) صحيح البخاري مع الفتح ١١/٣٠٥ .

٥) هادي الأرواح ص ٨٩ .

١) قرة عيون الموحدين ص ٣٦ والآية رقم (٨٦) من سورة يوسف .

٢) ص ٨٦ .

٣) صحيح البخاري مع الفتح ١٣/٣٦٨-٣٦٩ ، صحيح مسلم ٤/٢٠٨٦ ، المسند ١/٣٠٢ .

وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (١) .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب:

قوله : " وقالها محمد صلى الله عليه وسلم . . .الخ وذلك بعد ما كان من أمر أحد ما كان بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم " ومعه جماعة من الصحابة حتى انتهى إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثلاثة أميال - ثم ألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان ، فرجع إلى مكة ومر به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : نريد المدينة قال : فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها إليه قالوا نعم : قال فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم فمرّ الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه : فقال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) (٢) .

وروى الترمذي في جامعه عن عمر مرفوعا : لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " أ.هـ (٣) .

ومعنى هذا أنه لا بد من الحركة والسعي في طلب الرزق فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الطير تصبح جائعة ضامرة البطون ليس في حواصلها شيء من الطعام وترجع آخر النهار وقد امتلأت بطونها من رزق الله - تعالى - فالذي يجلس في بيته ، أو في مسجده ويظن أن رزقه سيأتيه وهو متلبس بالعجز والكسل هذا إنسان جهل ما في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن التوكل .

---

١) صحيح البخاري ٣ / ١١٤ .

٢) تيسير العزيز الحميد ص ٤٤٤ والآية رقم (١٧٣) من سورة آل عمران .

٣) سنن أبي داود ٢ / ٦١٩ ، ورواه الترمذي في جامعه ٥ / ١٥٤ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال : (بعني إذا خرج من بيته - بسم الله توكلت على الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت ووقيت وكفيت - فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقى .. ؟ (١)

وبالجملة فإنه ورد الكثير من النصوص في الكتاب والسنة في بيان فضل التوكل على الله وإخلاصه لله - وحده لا شريك له - فما على العبد إلا أن يسعى جاهدا في تحقيق عبودية التوكل وتفويض أمره إلى الله وبعتمد عليه وحده وبحسن ظنه بربه ، وعلى قدر حسن ظن العبد بربه ورجائه له يكون توكله عليه ، وذلك لأن حسن الظن بالله يدعو العبد إلى التوكل عليه ، ولا يمكن حصول التوكل على من ساء ظنه به ، ولا يمكن التوكل على من لا يرجوه .

ولا يتحقق التوكل إلا بأمرين :

أحدهما : علم القلب ومعناه : أن يكون موقنا بكفاية الله الذي توكل عليه وكمال قيامه بما وكله إليه ، وأن غير الله لا يقوم مقامه في ذلك بحال فلا بد من معرفة الرب - تعالى - ومعرفة صفاته من القدرة والكفاية والقيومية وانتهاء جميع الأمور إلى علمه - تعالى - وصدورها عن مشيئته وقدرته ، فهذه المعرفة هي أول خطوة يحقق بها العبد عبودية التوكل ، فلا يتصور التوكل ممن أنكر صفات الله - تعالى - كما لا يمكن أن يكون ممن يعتقد بأنه يقع في ملك الله ما لا يشاء إذن فلا يحصل التوكل إلا ممن أثبت لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم دون تكييف أو تعطيل ، فالذي يقول إن الله لا يعلم جزئيات العالم سفلية وعلوية ، أو يقول ان الله ليس فاعلا باختياره ، وليس له إرادة ومشيئة ولا تقوم به صفة من أين يصح توكله ؟ إذن لا بد للعبد أن يكون على علم ومعرفة بالرب - سبحانه وتعالى - وما يليق به من صفات جلاله وعظيم سلطانه

حتى يصح توكله ، ويكون قويا .

الأمر الثاني : الذي يتحقق به التوكل .

عمل القلب ، ومعناه : أن يسكن إلى وكيله ويطمئن إليه ويفوضه ويسلم الأمر إليه ويرضى بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه فبالأصلين المذكورين يتحقق التوكل ، وهط لبه ، وإن كان التوكل داخلا في عمل القلب من ناحية علمه بالله - تعالى - قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب " (١) ولكن لا يتحقق الا بالعلم : إذ العلم إما شرط فيه وإما جزء من ماهيته ، والمقصود إن القلب متى كان على الحق تعظم طمأنينته ووثوقه بالله ، وإذا كان منحرفا مائلا إلى الباطل علط وعطا ، أو أصيب بأحدهما فإن ثقته واطمئنانه بالله معرّضان للزوال فيكون لا ضمان له عند الله ولا عهد له عنده " (٢) . نعوذ بالله من ذلك .

التوكل والأسباب:

إن التوكل على الله تعالى لا ينافي اتخاذ الأسباب بل إن التوكل لا يتم إلا اذا اتخذ الإنسان لكل عمل يريده الأسباب التي توصله إلى تحقيقه فالله سبحانه وتعالى قد ربط المسببات بأسبابها .

بل إن الإنسان ينساق إلى الأخذ بالأسباب بمقتضى فطرته وبمقتضى التكليف الشرعي فإذا قال الإنسان أنا متوكل على الله في تحصيل رزقي ولم يتخذ الأسباب التي توصله إلى ذلك وتحقق له مطلبه فهو مخالف للفطرة ومخالف لشرع الله الذي جاء الأمر فيه باتخاذ الأسباب قال تعالى (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) (٣) . وقال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٤) .

---

١) طريق الهجرتين وباب السعادة ص ٢٥٧ .

٢) طريق الهجرتين ص ٢٥٧ وانظر مدارج السالكين م ١١٧/٢-١١٨ ، ص ١٢٠-١٢١ .

٣) سورة الملك آية : ١٥ (٤) سورة الأنفال آية : ٦٠

وقال سبحانه وتعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) (١) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثباتا أو انفروا جميعا) (٢)

وغيرها من الآيات كثير في الأمر بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله في إتمام الأمور التي يسعى العبد في تحصيلها لأن التوكل من أعظم الأسباب وأنفعها في دفع المضار وجلب المنافع فلا بد من الأخذ بالأسباب التي توصل الإنسان إلى تحقيق حاجاته والحصول على مطالبه ، ومن قال بنفي الأسباب فتوكله مشوب ومدخول .

قال ابن القيم : فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبته لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به " أ.هـ (٣) .

وقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين ربط المسببات بأسبابها ، فلا يجوز للإنسان تعطيلها مهما أمكنه القيام بها ، فإذا فعلها عبودية يكون قد أتى بعبودية القلب بالتوكل وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة . وتحقيق التوكل موقوف على القيام بالأسباب المأمور بها ، فمن عطلها لم يصح توكله ، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيا ، كما أن من عطلها يكون توكله عجزا ، وعجزه توكلا (٤) فالتارك للأسباب المطلوبة منه شرعا وعقلا ويقول : إن كان قضي لي وسبق في الأزل حصول الولد فإنه آت لا محالة ولو لم أتزوج فهذا لا شك أنه يكون موقع إنكار الناس بل ربما يقال فيه إنه ليس من جملة العقلاء وأن البهائم أفهم منه فإن الواقع المشاهد من حال الحيوان أنه يسعى في تحصيل رزقه بالهدايا العامة التي منحها الله جميع خلقه .

---

١) سورة البقرة آية : ١٩٧ .
٢) سورة النساء آية : ٧١ .
٣) مدارج السالكين ٢/١١٨ .
٤) الفوائد ص ٨٦ .

جاء في فتح المجيد : عند قوله تعالى (واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(١)
فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض وإن كان مشوبا بنوع من التوكل فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزا ولا عجزه توكلا بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها" أ.هـ (٢) .

ومما تقدم نجزم بأنه لا يجوز التخلي عن الأسباب بحال لأن ذلك ممنوع عقلا وشرعا وحسًّا فالرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد المتوكلين وإمام المتقين عندما خرج مهاجرا استأجر دليلا ليدله على الطريق وكان الدليل مشركا على دين قومه (٣) وحضر غزوة أحد بين درعين ، ولم يذكر أنه حضر الصف قط مرتانا (٤) وكفى به صلى الله عليه وسلم قدوةً في تحقيق عبودية التوكل وبيان كيفيته ، وكان عليه الصلاة والسلام يدخر لأهله قوت سنة (٥) وكان إذا خرج مسافرا للجهاد أو للعمرة أو للحج حمل معه الزاد وكذلك الصحابة رضي الله عنهم ، وهم أولوا التوكل حقا ، ومن جاء بعد الصحابة ووفقه الله بأن وصل إلى القمة في التوكل إنما اشتم رائحة توكلهم من مسافة بعيدة ، أو عثر على أثر من غبارهم ، فحال النبي صلى الله عليه وسلم ، وحال أصحابه هي الميزان الذي يقوم به حال من بعدهم ، وعلى ضوء ذلك تعرف الأحوال الصحيحة من السقيمة ، ولا يفوتنا أيضا أن نقول : إن التوكل الذي كان في قلوب الصحابة كان سببا في تبصير القلوب ، وأن يعبد الله في جميع البلاد ، وأن يوحده جميع العباد ، فملئوا بتوكلهم القلوب هدى وإيمانا ، وكانت هِمَمُهم عالية فكان أحدهم لا يصرف قوة توكله واعتماده على الله في أمر يحصل عليه بأقل حيلة وسعي ، وإنما كانوا

---

١) سورة المائدة آية : ١١ .
٢) ص ٣٦٥ ط : السلفية ، تيسير العزيز الحميد ص ٤٤٣ .
٣) انظر صحيح البخاري ٢ / ٣٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .
٤) ذكره الترمذي في سننه ٣ / ١١٩ من حديث الزبير بن العوام وابن ماجة ٨٢ ٩٣
٥) رواه البخاري في صحيحه ٣ / ٢٨٧ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

يتوكلون في الأمور العظمية مثل فتح البلدان ، والنصر على الأعداء ، وتوطيد عقيدة التوحيد في كل مكان فرضي الله عنهم وأرضاهم (١) ، وعلى ضوء هذا نقول : إن من يطعن في متخذي الأسباب مع التوكل فإنه يطعن بالدرجة الأولى في نبي الهدى صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده ، ومن طعن في أولئك فليتهم نفسه بأنه على غير ملة الإسلام .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : عند شرحه لحديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب : " واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه بعض الجهلة فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم ، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى (من يتوكل على الله فهو حسبه)(٢) أي كافيه وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها كالاسترقاء والاكتواء فتركهم له ليس لكونه سببا لكن لكونه سببا مكروها لا سيما والمريض يتشبث بما يظنه سببا لشفائه بخيط العنكبوت ، أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعا كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء " أ.هـ (٣)

---

١) أنظر مدارج السالكين ٢/١٣٤-١٣٥ بتصرف .

٢) سورة الطلاق آية : ٣ .

٣) تيسير العزيز الحميد ٨٦/ والحديث في صحيح البخاري ٤/٨ .

والذى نخلص إليه مما تقدم أن التوكل عبادة تعبد الله به عباده وأمرهم جميعا بأن يخلصوه له وحده لا شريك له ، وأن التوكل لا يتنافى مع الأسباب لأن الشرع أثبت الأسباب والمسببات وحكم على قوله من أنكرها بالبطلان والفساد فالشرع جاء بالأمر بالتداوى (١) ، ولا ينافي ذلك توكل الإنسان على ربه لأن التداوى من الأسباب المشروعة التي أباحها الله - تعالى - بل لا يكمل للعبد توحيده إلا بمباشرة الأسباب التي جعلها الله مقتضية لمسبباتها كونا وشرعا وتعطيل الأسباب يقدح في التوكل ، كما يقدح في أمر الله وحكمته البالغة ، فالإنسان يتوكل على الله في كل أموره مع مباشرة الأسباب ولا يعتمد عليها بل يجعل قلبه متعلقا بربه الذي له الفضل في إيجاد السبب والمسبب.

---

١) أنظر سنن ابن ماجة ٢/١١٣٧ ، المسند ٤/٢٧٨ .

(المبحث الثاني عشـــر)

الشفاعة نوعان : منفية ومثبتـــــــــــــــة

لقد جاء في السورة أن الأمر الوحيد الذي أوقع المشركين في الإشراك باللـــه -تعالى- إنما كان نتيجة تعلقهم بأن معبوداتهم التي يوجهون لها العبـادة من دون الله تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى ، كما أوضحت أن الشفاعـــة نوعان شفاعة منفية ، وشفاعة مثبتة ، وقبل إيراد الآيات التي وردت في السـورة لبيان ذلك نبين حقيقة الشفاعة في اللغة ، والاصطلاح .

أما الشفاعة في اللغـــــة :

فقد جاء في الصحاح للجوهري : "الشفع خلاف الوتـــر وهو خلاف الوتـــر تقول : كان وترا فشفعته شفعا ..... واستشفعته إلى فلان ، أي سألتـــه أن يشفع لي إليه ، وتشفعت إليه في فلان فشفعني فيه تشفيعا "(١) .

وفي القاموس : "الشفع خلاف الوتر وهو الزوج وقد شفعه كمنعه ..... إلـــى أن قال : وعين شافعة تنظر نظرين وشفعت لي الأشباح بالضم أي أرى الشخص شخصين لضعف بصري وانتشاره "أ.هـ(٢) .

وجاء في اللسان : الشفع خلاف الوتر وهو الزوج تقول : كان وترا فشفعتـــه شفعا وشفع الوتر من العدد شفعا صيّره زوجا" (٣) .

وجاء في النهاية لابن الأثير : " ومنه الشُّفعة - بالضم - وهي مشتقة من الزيادة لأن الشفيع يضم المبيع إلى ملكه فيشفعه به كأنه كان واحدا وترا فصار زوجـــا شفعا" (٤) .

---

١) ٣/١٢٣٨ .
٢) ٣/٤٧ .
٣) ٨/١٨٣ ، وانظر المعجم الوسيط ١/٤٨٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١/٣٧٨ .
٤) ٢/٤٨٥ .

وقال الراغب : " ويطلق لفظ الشفيع والشافع على من طلب شيئا لغيره لينفعه به أو يضره قال تعالى (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) (١) أي : من انضم الى غيره وعاونه وصار شفعا له ،أو شفيعا في فعل الخير والشر فعاونه وقواه وشاركه في نفعه وضره " (٢) .

ومن هذه التعاريف اللغوية السابقة يتبين أن المعنى اللغوي للشفاعة يدخل فيه كل ما دلت عليه مادة الشفع وهو : الإزدواج والإنضمام إلى الغير في الصحول على أمر ما .

قال في اللسان : والشافع : الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب يقال : تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه وأسم الطالب شفيع" (٣) .

وقال الراغب: الشفع : ضم الشيء إلى مثله والشفاعة الإنضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى مرتبة إلى من هو أدنى ومنه الشفاعة في القيامة " (٤) .

وقال الحافظ: الإستشفاع طلب الشفاعة وهي : انضمام الأدنى إلى الأعلى ليستعين به على ما يروم " (٥) .

وأما تعريف الشفاعة في الإصطلاح :

فإنه لا يكاد يخرج عن المعنى اللغوى ،إذ المعنى الإصطلاحي للشفاعة هو : ضم الشافع رجاءه إلى رجاء المشفوع له ،فيصبح طلبهما بذلك شفعا وهو ضد الوتر .

وعرفها بعضهم بأنها : سؤال الخير للغير" (٦) .

---

١) سورة النساء آية : ٨٥ .
٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٦٣ وانظر " الإيمان لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٦١ .
٣) اللسان ٨/ ١٨٤ ، وانظر تاج العروس ٥/ ٤٠٠ .
٤) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٦٣ .
٥) الفتح ١١/ ٤٣٣ .
٦) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٠٤ .

وقيل : هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم " (١)

وبهذا نعلم موافقة المعنى الشرعي للشفاعة لمعانيها اللغوية .

وبعد تعريف الشفاعة لغة وشرعا نقول : إن " سورة الزمر" قد تناولت نوعي الشفاعة المنفية ، والمثبتة ، كما أوضحت أن المشركين ما أوقعهم في الشرك بالله - العظيم - إلا تعلقهم بأن الآلهة التي يعبدونها من دون الله تشفع لهم عنده وتقربهم إلى الله زلفى .

قال تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) .

وقال تعالى (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض إليه ترجعون) هذه ثلاث آيات من السورة الآية الأولى : منها أوضحت أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ، والأوثان لكي تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى . قال قتادة : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أي + "قالوا ما نعبد هؤلاء إلا ليقربونا ، إلا ليشفعوا لنا عند الله " .

قال ابن زيد : قالوا هم شفعاؤنا عند الله ، وهم الذين يقربوننا إلى الله زلفى يوم القيامة " (١) فهذه حال من يتخذ الأولياء والشفعاء من دون الله يزعم أن ذلك يقربه إلى الله زلفى ، والحال أن عمله هذا مشاهد عليه بالكفر والكذب محروم من هداية الله تعالى ، وأما الآيتان الأخيرتان وهما قوله تعالى (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض إليه ترجعون) .

---

١) النهاية لابن الأثير ٢ / ٤٨٥ ، لسان العرب ٨ / ١٨٤ .

٢) قول قتادة وابن زيد في جامع البيان للطبري ٢٣ / ١٩١ ، ١٩٢ .

هاتان الآيتان من السورة بينتا بأن الشفاعة تنقسم إلى قسمين :

أ - شفاعة منفية وهي التي ادعاها المشركون وأثبتوها لآلهتهم .

ب - شفاعة مثبتة ، وهي التي أثبتها الله لأهل الإخلاص فيأذن هو - سبحانه - لمن يشاء أن يتشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له ، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له ، وأمره وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم ، وهي التي أبطلها الله في أماكن كثيرة من كتابه سنذكر طرفاً منها فيما يأتي إن شاء الله - تعالى - بعد بيان دلالة الآيتين من السورة التي تقدم ذكرها .

فالآية الأولى منهما : وهي قوله - تعالى - (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون) .

فهذه الآية تضمنت الإنكار لاتخاذ المشركين الشفعاء من دون الله - سبحانه - حيث زعموا أنها تشفع لهم عند الله من دون أن يأذن أو يأمرهم بذلك والحال أنه لا يمكن أن يشفع أحد عنده - تعالى - إلا باذنه وأن يرضى عن المشفوع له فهذان الشرطان الثقيلان لا بد منهما في الشفاعة المقبولة عنده - جل وعلا - وهذان الشرطان مفقودان فيمن زعمهم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله - تعالى - وهو - سبحانه - لم يجعل اتخاذ الشفعاء ودعاءهم من دونه سببا لإذنه ورضاه بل ذلك من أعظم الأسباب المانعة لرضاه ، ومن أعظم الأسباب الجالبة لغضبه ثم أنكر عليهم ثانيا في نفس الآية (قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون) أي : يشفعون لكم ولو كانوا على هذه الصفة كما ترونهم جمادات ليس لها قدرة ولا علم بحالكم ، أو أموات كذلك لا يملكون الشفاعة وليسوا أهلا لها .

وأما الآية الثانية : وهي قوله - تعالى - (قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض وإليه ترجعون) .

فهذه الآية أمر من الله - جل وعلا - لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

بأن يعلن لجميع العالمين بأن الشفاعة كلها لله فهو المالك لها وليس لمن زعمهم المشركون منها شيء قال العلامة ابن جرير حول الآيتين السابقتين " يقول - تعالى - ذكره : أم اتخذ هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهتهم التي يعبدونها شفعاء تشفع لهم عند الله في حاجاتهم وقوله (قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لهم : أتتخذون هذه الآلهة شفعاء كما تزعمون ولو كانوا لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ، ولا يعقلون شيئا ، قل لهم : إن تكونوا تعبدونها لذلك وتشفع لكم عند الله فأخلصوا عبادتكم لله ، أفردوه بالألوهية فإن الشفاعة جميعا له ، لا يشفع عنده إلا من أذن له ورضي له قولا وأنتم متى أخلصتم له العبادة فدعوتموه وشفعكم (له ملك السموات والأرض) يقول : له سلطان السموات والأرض وملكها ، وما تعبدون أيها المشركون من دونه ملك له : يقول : فاعبدوا الملك لا المملوك الذي لا يملك شيئا (ثم إليه ترجعون) يقول : ثم إلى الله مصيركم وهو معاقبكم على إشراككم به إن متم على شرككم " أ.هـ (١)

وقال البيضاوي : عند قوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعا) الآية (لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون وهي تماثيلهم والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ولا يستقل بها (٢) وقوله (له ملك السموات والأرض) تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه بأنه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه فيدخل في ذلك ملك الشفاعة فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائناً من كان وسيعلمون حقيقة ذلك إذا وقفوا بين يدي الله يتبين لهم أنهم لا يشفعون ويخيب سعيهم في عبادتهم .

---

١) جامع البيان : ٢٤/٩-١٠ .

٢) أنوار التنزيل ٢/٣٢٤ .

قال العلامة ابن القيم حول الآية السابقة :

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده وأن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه فانه ليس بشريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض أ.هـ (١) .

والشفاعة التي أثبتها المشركون لأصنامهم ضرح القرآن ببطلانها ونفيها في مواضع كثيرة :

قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) (٢) .

قال في تيسير العزيز الحميد : في هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصورة على صور الصالحين وغيرهم وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه فأنكر ذلك عليهم .أ.هـ (٣) .

وقال تعالى : وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) (٤) .

فأخبر تعالى أنه ليس للعباد شفيع من دونه بل إذا أراد الله -سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه كما قال تعالى (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) (٥) فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه ، بل شفيع بإذنه والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور فالشفاعة التي أبطلها الله شفاعة الشريك فإنه لا شريك له ، والتي أثبتها : شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له : ويقول : إشفع في فلان ولهذا كان أسعد الناس بشافعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا

---

١) إغاثة اللهفان ١/٢٢٢ .

٣) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

٣) ص ٢٤٠ .

٤) سورة الأنعام آية : ٥١ .

٥) سورة يونس : ٣ .

التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله ـ سبحانه ـ قال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) (١) .

وقال تعالى (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا)(٢) وهنا أخبر سبحانه أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاه قول المشفوع له ، وإذنه للشافع فيه ، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه ـ سبحانه ـ علقها بأمرين من المشفوع له وإذنه للشافع فمتى لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة " (٣) .

" والسر في ذلك أن الأمر كله لله تعالى ، وليس لأحد معه من الأمر شيء وأكرم خلقه سبحانه وأفضلهم عنده ملائكته المقربون ورسله الكرام وهم مع ذلك عبيد محض لا يسبقونه بقول ، ولا يتقدمون بين يديه ، ولا يفعلون شيئا إلا بعد اذنه ، وأمره لهم ، ولا سيما يوم القيامة ، فالملائكة والأنبياء مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمر الله وإذنه فمن عبدهم واتخذهم شفعاء ، وأولياء ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب ـ سبحانه ـ وما يجب له ويمتنع عليه .

والذي أوقع عباد الأصنام ، وعباد القبور في طلب الشفاعة من غير الله ـ تعالى ـ هو قياسهم الخالق على المخلوق حيث قاسوه ـ تعالى ـ على الملوك والعظماء في هذه الدنيا حيث يتخذ الشخص من المقربين لديهم من يشفع له عندهم في قضاء الحوائج فهذا هو القياس الفاسد الذي بنى عليه المشركون عبادتهم للأصنام ، واتخذوا من دونه الشفعاء والأولياء وهذا من جهلهم بالفارق بين الخالق والمخلوق " (٤) .

---

١) سورة الأنبياء آية : ٢٨ .
(٢) سورة " طه " آية : ١٠٩ .
٣) إغاثة اللهفان : ١/٢٢١ .
٤) أنظر إغاثة اللهفان ١/٢٢١ بتصرف .

الذي يجب على كل مسلم معرفته . فهناك فرق بين الشفاعة عند المخلوقين والشفاعة عند الله تعالى - ذلك أن الوسائط التي تكون بين الملوك وبين الناس تكون على أحد الوجوه الآتية :-

الوجـــه الأول :

أن العظماء من أهل الدنيا بحاجة إلى من يخبرهم بأحوال النـاس مالا يعرفونه ، ومن زعم أن الله لا يعلم أحوال الناس حتى يخبره بذلك بعض الأنبياء ، أو غيرهم من الملائكة والأولياء والصالحين فهو كافر به - سبحانه - لأنه - جل وعلا - يعلم السر وأخفى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

الوجه الثانـــي :

أن العظماء من أهل الدنيا عاجزون عن تدبير رعيتهم ودفع أعدائهم إلا بأعوان يعاونونهم ، وأنصار يكونون مستندا لهم عند الذلة والعجز، أما الله - جل وعلا - ليس له ظهير ، ولا ولي من الذل ، وكل ما في الوجود مـــن الأسباب فهو - سبحانه - ربه وخالقه وهو الغني عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم في الحقيقة شركاؤهـــم والله - سبحانه - لا شريك له في الملك ، بل لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، ولهذا لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، لا ملك مقـــرب ولا نبي مرسل ، فضلا عن غيرهما ، فإن من شفع عنده بغير إذنه فهو شريـــك له في حصول المطلوب أثر فيه بشفاعته حتى يفعل ما يطلب منه ، والله تعالى لا شريك له بوجه من الوجوه .

الوجه الثالث :

إن العظماء من أهل الدنيا قد يكونون غير مريدين نفع رعيتهم والإحسان إليهم إلا بمحرك يحركهم من الخارج ، فإذا خاطبهم من ينصحهم ويعظـهم أو من يدلهم ممن يرجونهم ويخافونهم تحركت إرادتهم وهمتهم في قضـــاء

حوائج رعيتهم . فلحاجتهم إليهم يقبلون شفاعتهم وإن لم يأذنوا فيها لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم ، ولذا فهم يقبلون شفاعتهم على الكره والرضى .

أما الباري سبحانه وتعالى فهو رب كل شيء ومليكه وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها وكل الأسباب إنما تكون بمشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو سبحانه - إذا أراد إجراء نفع العباد بعضهم على يد بعض جعل هذا يحسن إلى هذا وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن والداعي إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة "(١) . ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده أو يعلمه ما لم يكن يعلمه ، والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه كما قدمنا ذلك بخلاف العظماء من أهل الدنيا فإنهم محتاجون والشافع عندهم يكون شريكا لهم في الملك وقد يكون مظاهرا لهم على ملكهم ولذا فإنهم يشفعون عند ملوكهم بغير إذنهم ، والملوك يقبلون شفاعتهم تارة لحاجتهم إليهم وتارة لجزاء إحسانهم ومكافأتهم ، حتى أنهم يقبلون شفاعة أولادهم وأزواجهم ، بل إن أحدهم لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك ، بل يقبل حتى شفاعة مملوكه فإنه إذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه ، ويقبل شفاعة أخيه مخافة أن يسعى في ضرره فشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا القبيل فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو لرهبة بالله - جل وعلا - لا يرجو أحدا ، ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد هو الغني - سبحانه - عما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، والمشركون قديما وحديثا إنما يتخذون الشفعاء ، والأولياء على غرار ما يعهدونه عند المخلوق "(٢)

---

١) الواسطة بين الحق والخلق لابن تيمية ص ١٧-١٩ بتصرف ، وانظر اغاثة اللهفان ١/٢٢٣ . (انظر الهدية السنية لابن سحمان ص ١٥

٢) إغاثة اللهفان ١/٢٢٣ .

وفيما ذكرنا من الفروق كفاية بين الشفاعة الشركية ، والشفاعة الشرعية لمن أراد الله تنوير بصيرته ، فابتعد عما يدين به المشركون والقبوريون في الشفعـــاء والأولياء ، وأما من أراد الله فتنته فلا حيلة فيه (من يهد الله فهو المهتـــد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً) (١) .

ولقد حكم الله في كتابه على اتخاذ المشركين الشفعاء والأولياء بالكفر وأنهـــم كاذبون فيما يزعمون من أن معبوداتهم تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى .

قال تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) .

وهذه الآية من السورة بينت أن غاية المشركين من عبادتهم الأولياء أنهم يقربونهم إلى الله زلفى وذلك بتحصيل شفاعتهم وهذا من افتراء المشركين الباطل وقد تقدم الكلام على هذه الآية قريبا .

وقال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢) .

هذه الآية فيها الإخبار بذم المشركين الذين يعبدون الأصنام التي ليس لديها جلب نفع ولا دفع ضر وأبانت بأن مقصودهم من عبادتها هو الشفاعة عند الله كما أوضحت بأن ذلك شرك بالله العظيم نزه تعالى نفسه عنه .

قال الصنعاني رحمه الله تعالى (فجعل الله تعالى اتخاذهم للشفعـــاء شركا ونزه نفسه عنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فكيف يثبتون شفعاء لهـــم

---

(١) سورة الكهف آية : ١٧ (٢) سورة يونس آية : ١٨ .

(٣) هو محمد بن اسماعيل بن صلاح بن الحسين الكحلاني ثم الصنعاني أبـــو ابراهيم عز الدين المعروف بالأمير وهو مجتهد له مؤلفات كثيرة أصيب بمحن كثيرة من الجهلاء والعوام ولد سنة تسع وتسعين وألف وتوفى سنة اثنتين وماءة وألف هجرية (انظر ترجمته في " البدر الطالع للشوكاني ٢/١٣٣-١٣٩ ")

لم يأذن الله لهم في شفاعة ولا هم أهل لها ، ولا يغنون عنهم من الله شيئا" أو هـ (١) .

وقال تعالى مبطلا للشفاعة الشركية وقاطعا منافذ الشرك فيها بالكلية .

(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (٢) .

هذه الآية قال فيها بعض العلماء : "انها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها " (٣) يوضح ذلك ما قاله العلامة ابن القيم حولها :

قال رحمه الله تعالى :" فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسدت بها عليهم الباب أبلغ سد وأحكمه ؟ فإن العابد إنما تعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه ، وإلا فلو كان لا يرجو منفعة منه فلا يتعلق قلبه به أبدا وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود إما مالكا للأسباب التي ينتفع بها عابده أو شريكا لمالكها ، أو ظهيرا أو وزيرا أو معاونا له ، أو وجيها ذا حرمة وقدر ، يشفع عنده فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت أسباب الشرك وانقطعت موارده فنفى - سبحانه - عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض فقد يقول المشرك : هي شريكة للمالك الحق فنفى شركها له .

---

١) تطهير الاعتقاد ص ١١ ، وانظر " شذرات البلاتين" ١/ ٢٨١-٢٨٣ .
٢) سورة سبأ آية : ٢٣ .
٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢٤٥ .

فيقول المشرك : قد تكون ظهيرا أو وزيرا أو معاونا فقال (وما له منهم من ظهير) (١) .

ولم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فإن لم يأذن للشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه ، كما يكون في حق المخلوقين ، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع وإلى معاونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له بها .

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته فهو الغني بذاته عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه ؟ (٢) .

فتبين مما تقدم أن الشفاعة المنفية التي نفاها الله - سبحانه - هي الشفاعة الشركية التي زعمها المشركون في آلهتهم أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى ولذلك يطلق القرآن نفيها تارة بناءا على أنها هي المعروفة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد أن يأذن الله لمن يشاء ، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه - سبحانه - وتعالى لأنه هو الذي أذن وهو الذي رضي عن المشفوع وهو الذي وفقه للعمل الذي استحق به الشفاعة ، أما متخذ الشفيع فهو مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه .

النوع الثاني : الشفاعة المثبتة :

ذكرنا فيما تقدم أن السورة دلت على نوعي الشفاعة ، المنفية ، والمثبتة وتقدم الكلام على الشفاعة المنفية وهي التي أثبتها المشركون لآلهتهم الباطلة وذكرنا أن قوله تعالى :

(قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) .

هذه الآية من السورة دلت على الشفاعة المثبتة .

فالآية كما قدمنا قريبا دلت على أن الشفاعة كلها لله تعالى لأن الأمر كله له

---

١) سورة سبأ آية : ٢٢ .
٢) مختصر الصواعق المرسلة ١ / ٩٤ ، مدارج السالكين ١ / ٣٤٣ .

وبيده - سبحانه - وكل شفيع يخافه ولا يقدر أي مخلوق كائنا من كان أن يشفع عنده بدون إذنه مهما كانت مكانته ، فإذا أراد - سبحانه - رحمة عبد من عبيده أذن للشفيع أن يشفع عنده رحمة بالإثنين فله - سبحانه - ملك السموات والأرض من الذوات والأفعال والصفات فالواجب على جميع العباد أن يطلبوا الشفاعة من مالكها ويخلصوا في الطلب علّهم يحصلون على نصيب من ذلك .

وسنبين هنا حقيقة الشفاعة المثبتة وحكمها ثم نختم ذلك بذكر أنواعها :-

حقيقة الشفاعة المثبتة :

لقد قيد القرآن الكريم الشفاعة المثبتة بشرطين :

الشرط الأول : إذن الله تعالى للشافع بالشفاعة قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) (١) .

الشرط الثاني : رضاه عن المشفوع له قال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) (٢) وعلى هذين الشرطين فليس في مكانة الملائكة ، أو أي مخلوق مما سوغ المشركون عبادته من دون الله ممن لا يملك النفع والضر . أن يشفع عند الله إلا باذنه ، ولا يأذن الله بالشفاعة إلا عند رضاه عن المشفوع له والله لا يرضى عن المشركين الذين قامت عليهم الحجة بدعوة التوحيد ، فلم يستجيبوا (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) (٣) .

حكمها :

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : " مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلا ووجودها سمعا بصريح قوله تعالى : (يومئذ لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) (٤) .

و(١) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٢٨ .
(٣) سورة المائدة آية : ٧٢
(٤) سورة " طه" آية : ١٠٩

وقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) (١) وأمثالهـا ويخبر الصادق صلى الله عليه وسلم وقد جاءت الآثار والتي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين ، وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها ، ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة ، وتعلقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار، واحتجوا بقوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين)(٢) وبقوله تعالى (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) (٣) وهذه الآيات في الكفار، وأما تأويلهم أحاديث الشفاعة بكونها في زيادة الدرجات فباطل وألفاظ الأحاديث في الكتاب وغيره صريحة في بطلان مذهبهم وإخراج من استوجب النار) أ.هـ (٤) .

قال القاضي عبد الجبار: عند قوله تعالى (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) (٥) .

يدل على أن من استحق العقاب لا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم له ، ولا ينصره لأن الآية وردت في صفة اليوم ولا تخصيص فيها فلا يمكن صرفها إلى الكفار دون أهل الثواب وهي واردة فيمن يستحق العذاب في ذلك اليوم لأن هذا الخطاب لا يليق إلا بهم فليس لأحد أن يطعن على ما قلناه بأن يمنع الشفاعة للمؤمنين أيضا ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يشفع لهم لكان قد أغنى عنهم وأجزى فكان لا يصح أن يقول تعالى (لا تجزي نفس عن نفس شيئا) ولما صح أن يقول (ولا يقبل منها شفاعة) وقد قبلت شفاعته صلى الله عليه وسلم فيهم ، ولما صح أن يقول : (ولا يؤخذ منها عدل) لأن قبول الشفاعة وإسقاط العقاب إلى المغفرة أعظم من كل فداء لهم مما قد استحقوه

---

١) سورة الأنبياء آية : ٢٨ .
٢) سورة المدثر آية : ٤٨ .
٣) سورة غافر آية : ١٨ .
٤) نقلا عن شرح النووي على صحيح مسلم ٣/٣٥ .
٥) سورة البقرة آية : ٤٨ .

من المضرة ، بل كان يجب أن تكون الشفاعة فداء لهم عما قد استحقوه من حيث تزول بها ولمكانها ، ولما صح أن يقول : ولا هم ينصرون) وأعظم النصرة تخليصهم من العذاب الدائم بالشفاعة (١) فالآية دالة على ما نقوله من جميع هذه الوجوه" أ.هـ

ونحن نقول : له إن ذلك غير صحيح وأن مذهبك هذا ومذهب أتباعك من المعتزلة ظاهر الفساد والبطلان لمخالفته الكتاب والسنة وإجماع الأمة في ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر.

قال البيضاوي حول الآية السابقة : التي استدل بها عبد الجبار بن أحمد على نفي الشفاعة " وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة ، ويؤيده أن الخطاب معهم والآية نزلت ردا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم " أهـ (٢) .

ويرد على المعتزلة والخوارج الذين نفوا الشفاعة من وجوه :

١) إن الشفاعة ثابتة بالقرآن والأخبار المتواترة.

٢) الإجماع : من السلف على تلقى هذه الأخبار بالقبول ، ولم يبد من أحد منهم في عصر من الأعصار نكير فظهور الأخبار الواردة فيها وإطباقهم على صحتها ، وقبولها لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد مذهب المعتزلة والخوارج . (٣) .

٣) إن أهل العلم قد جمعوا بين الآيات الواردة في نفي الشفاعة وبين الآيات الدالة على إثبات الشفاعة ، بأن الآيات الواردة في نفي الشفاعة والشفيع المراد بها الشفاعة للكفار (٤) والشفاعة المنفية هي التي تطلب من الأصنام

---

١) متشابه القرآن القسم الأول : ٩٠-٩١ .
٢) أنوار التنزيل ١ / ٥٥ .
٣) تفسير القرطبي ١ / ٣٧٨-٣٧٩ .
٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٣ / ٣٥ ، فتح الباري ١١ / ٤٢٦ ، تفسير ابن جرير الطبري ١ / ٢٦٧ ، تفسير الرازي ٣ / ٥٦ وما بعدها ، الجامع لأحكام القرآن ١ / ٣٧٨ وما بعدها ، تفسير النسفي ١ / ٤٧ .

والأموات الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعا ولا ضرا .

أنواع الشفاعة المثبتـــــة :

اختلف العلماء في شفاعاته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة كم هي ؟ .

فذكر النقاش (١) في تفسيره أن للنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات الشـفاعة العامة، وشفاعته في السبق إلى الجنة ، وشفاعة في أهل الكبائـر وقال أبو عطية (٢) : في تفسيره ، والمشهور أنها شفاعتان فقط العامـة وشفاعة في إخراج المذنبين ، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافها الأنبيـاء بل يشفعون ويشفع العلماء ، وذكر القاضي عياض (٣) إن للنبي صلى الله عليه وسلم خمس شفاعات (٤) .

وذكر القرطبي أن للنبي صلى الله عليه وسلم ست شفاعات (٥) وذكر شيـخ الاسلام ابن تيمية في (العقيدة الواسطية) أن للنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات وقد ذكر شارح الطحاوية أن أنواع الشفاعة في الآخرة ثمانيـة أنواع منها ما هو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم وهذه الأنواع هي :

---

١) هو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون ، أبو بكر النقاش ، عالـم بالقرآن وتفسيره أصله من الموصل ومنشأه ببغداد وكان في بدء حياته يزاول نقش السقوف والحيطان ولد سنة ست وستين ومائتين هجرية وتوفي سنـة احدى وخمسين وثلاثمائة . أنظر ترجمته في وفيات الأعيان ١ / ٤٨٩ ، ميزان الإعتدال ٣ / ٤٥ ، اللباب ٣ / ٣٢١ .

٢) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي من محارب قيس ، الغرناطي أبو محمد مفسر ، فقيه ، أندلسي من أهل غرناطة ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائـة وتوفي سنة اثنتين وخمسمائة هجرية . أنظر ترجمته في بغية الوعاة ٢ / ٩٣ ، كشف الظنون ٢ / ١٦١٣ .

٣) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبتي أبو الفضل عالـم بالمغرب وامام أهل الحديث في زمنه ولد سنة ست وسبعين وأربعمائة وتوفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية . أنظر ترجمته في وفيات الأعيان ١/ ٣٩٢ الفهرس التمهيدي ١ / ٣٦٨ والأعلام ٥ / ٢٨٢ .

٤) انظر التذكرة للقرطبي ص ٢٤٩ ، شرح النووي على صحيح مسلم ٣ / ٣٥-٣٦ فتح الباري ١١ / ٤٢٨ .

٥) التذكرة ص ٢٤٩ .

٦) ص ١٢٧-١٢٨ بشرح محمد خليل هراس.

النـــــوع الأول :

الشفاعة العامة : وهي التي يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع آدم إلى نوح وابراهيم وموسى وعيسى وعليهم الصلاة والسلام وهي المقام المحمـــــود الذي يحمده عليه الأولون والآخرون .

قال تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقامـــا محمودا) (١) .

روى البخاري في صحيحه عن أبوعمر رضى الله عنهما قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثيا كل أمة تتبع نبيها تقول : يا فلان إشفع يا فلان إشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله المقـــام المحمود " (٢) .

وروى الترمذي في سننه وحسنه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) . قال هي الشفاعة " (٣) .

فالمقام المحمود هو الشفاعة العظمى لتفسير النبي صلى الله عليه وسلم الآيـة الواردة فيه بذلك .

جاء في لوامع الأنوار ما نصه : شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم نوع مـــــن السمعيـات وردت بها الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي وانعقد عليها إجماع أهل الحق من السلف الصالح قبل ظهور المبتدعة لكن هذه الشفاعـة العظمى مجمع عليها لم ينكرها أحد ممن يقول بالحشر إذ هي للإراحة من طول الوقوف حتى يتمنون الإنصراف من موقفهم ذلك ولو إلى النار . . . . . .

---

١) سورة الاسراء آية : ٧٩ .
٢) ٣ / ١٥١
٣) ٤ / ٣٦٥ .

وقد التمس بعض العلماء الحكمة في الهام الناس التردد إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم قبله ولم يلهموا المجيء إليه لأول وهلة أن ذلك إظهار لفضله عليه الصلاة والسلام وشرفه على رؤوس الخلائق فصلوات الله وسلامه عليه" (١)

النوع الثاني :

شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع ليدخلوا الجنة .

النوع الثالث :

شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام أمر بهم إلى النار فيشفع فيهم أن لا يدخلوها .

ومما يستدل به لهذين النوعين قوله صلى الله عليه وسلم : يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك . إذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله قال فيقول ابراهيم لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلا من وراء وراء إعمدوا إلى موسى صلى الله عليه وسلم الذي كلمه الله تكليما . فيأتون موسى صلى الله عليه وسلم فيقول : لست بصاحب ذلك إذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه فيقول عيسى صلى الله عليه وسلم لست بصاحب ذلك فيأتون محمدا صلى الله عليه وسلم . فيقسوم فيؤذن له . وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا فيمر أولكم كالبرق " قال قلت : بأبي أنت وأمي ! أي شيء كمر البرق ؟ قال : "ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرحال تجري

---

١) ٢٠٨/٢ وانظر شرح النووي على مسلم ٥٦/٣ .

النوع الخامس:

شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

ويستدل لهذا النوع بما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغيرحساب فقال رجل : يا رسول الله ! أدع الله أن يجعلني منهم قال :" اللهم اجعله منهم ثم قام آخر فقال فقال : يارسول الله ! أدع الله أن يجعلني منهم قال : " سبقك بها عكاشة " (١) .

ووجه الدلالة منه دعاؤه لعكاشة بن محصن أن يجعله من أولئك السّبعين ألفا فدعاؤه صلى الله عليه وسلم شفاعة له .

النوع السادس:

الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه .، ودليل هذا النوع ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال " لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار ، يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه " (٣)

قال القرطبي : بعد أن ذكر هذا النوع فإن قيل : فقد قال -تعالى -(فما تنفعهم شفاعة الشافعين " (٣) قيل له لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون ويدخلون الجنة " أ.هـ (٤) .

---

١) صحيح البخاري مع الفتح ١١ / ٤٠٦ ، صحيح مسلم ١٠ / ١٩٧ .
٢) ٤ / ١٩٥ .
٣) سورة المدثر آية : ٤٨ .
٤) التذكرة ص ٢٤٩ .

بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب ! سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا . قال وفي حافتي الصراط كلا ليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس(١) في النار" (٢) .

قال الحافظ : بعد أن ذكر النوع الثالث من أنواع الشفاعة " ودليل الثالثة حديث حذيفة عند مسلم " ونبيكم على الصراط يقول : " رب سلم سلم " (٣) .

النوع الرابع :

شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة .

قال القاضي عياض : وهذه الشفاعة لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأول " (٤) . ودليل هذا النوع : ما رواه الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما أصيب عمه أبو عامر في غزوة أوطاس فلما أخبر أبو موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع يديه وقال : اللهم اغفر لعبيد أبي عامر واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك " (٥) .

وحديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لأبي سلمة بعدما توفي فقال : اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه " (٦) .

---

١) قال في النهاية : أي مدفوع وتكدس من الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط
٢) رواه مسلم من حديث حذيفة ١ / ١٨٧ .
٣) فتح الباري ١١ / ٤٢٨ .
٤) ذكره عنه القرطبي في التذكرة ص ٢٤٩ .
٥) صحيح البخاري ٤ / ١٠٣ ، صحيح مسلم ٤ / ١٩٤٣ .
٦) صحيح مسلم ٢ / ٦٣٤ وسنن أبي داود ٢ / ١٧٠ والمسند ٦ / ٢٩٧ .

النوع الخامس:

شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

ويستدل لهذا النوع بما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغيرحساب فقال رجل: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال: "اللهم اجعله منهم ثم قام آخر فقال فقال: يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال: "سبقك بها عكاشة" (١).

ووجه الدلالة منه دعاؤه لعكاشة بن محصن أن يجعله من أولئك السَّبعين ألفا فدعاؤه صلى الله عليه وسلم شفاعة له.

النوع السادس:

الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه.، ودليل هذا النوع ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار، يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه" (٣)

قال القرطبي: بعد أن ذكر هذا النوع فإن قيل: فقد قال -تعالى- (فما تنفعهم شفاعة الشافعين" (٣) قيل له لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون ويدخلون الجنة" أ.هـ (٤).

---

١) صحيح البخاري مع الفتح ١١ / ٤٠٦، صحيح مسلم ١: ١٩٦م.

٢) ٤/ ١٩٥.

٣) سورة المدثر آية: ٤٨.

٤) التذكرة ص ٢٤٩.

وقال الحافظ : " لعله تنفعه شفاعتي " ظهر من حديث العباس وقوهـــذا الترجي واستشكل قوله صلى الله عليه وسلم (تنفعه شفاعتي " بقوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وأجيب بأنه خص ولذلك عدوه في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : معنى المنفعة في الآية يخالف معنى المنفعة في الحديث والمراد بها في الآية الاخراج من النار وفي الحديث المنفعة بالتخفيف " أ.هـ (١) .

النوع السابع:

شفاعته صلى الله عليه وسلم في أن يؤذن لأهل الجنة في دخولها ومن أدلة هذا النوع ما جاء في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا " (٢)

وفي حديث آخر عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول : محمد فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك " (٣).

النوع الثامن :

الشفاعة في أهل الكبائر من هذه الأمة ممن دخل النار فيخرجون منها وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث الكثيرة (٤) .

ورغم تواترها فقد خالف في ثبوتها الخوارج والمعتزلة فمن قل علمه منهم ينكرها لجهله بكثرة الأحاديث الواردة فيها .

١) فتح الباري ١١ / ٤٣١ . (٢) صحيح مسلم ١ / ١٨٨
٣) المصدر السابق ورواه أحمد أيضا في مسنده ٣ / ٢٤٧ .
٤) ذكر هذه الأنواع العلامة ابن القيم في شرحه على سنن أبي داود ، أنظر عون المعبود ١٣ / ٧٧-٧٨ وابن كثير في النهاية ٢ / ١٧٩-٢٥٨ ، كما ذكرها شارح الطحاوية ص ٢٥٣-٢٥٨ ، فتح الباري ١١ / ٤٢٨ شرح النووي على صحيح مسلم ٣ / ٣٥ ، تحفة الأحوذي ٧ / ١٢٧ ، لوامع الأنوار البهية ٢ / ٢٠٧-٢١٧ ، الدين الخالص ٢ / ٣٠٩-٣١٠ .

وأما من علم تلك الأحاديث منهم فإنكاره لها إنما هو عناد واستكبار عن الحق واسترواح لهذه البدعة المنكرة ، واتباع للهوى .

وهذه الشفاعة يشارك فيها النبي صلى الله عليه وسلم الملائكة والنبيون والمؤمنون وأدلة هذا النوع كثيرة جدا .

فمنها ما رواه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله ، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا" (١) . ومنها ما رواه مسلم في صحيحه عن معبد بن هلال العنزي قال : اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس ابن مالك ، وذهبنا معنا بثابت البناني إليه / يسأله لنا عن حديث الشفاعة فإذا هو في قصره فوافقناه يصلي الضحى ، فاستأذنا ، فأذن لنا وهو قاعد على فراشة فقلنا لثابت لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة فقال : يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة فقال : " حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض . . . . .الحديث وفيه أنهم يأتون آدم فيطلبون منه أن يشفع لهم ، فيحيلهم على ابراهيم وابراهيم يحيلهم على موسى وموسى يحيلهم على عيسى ، وعيسى يحيلهم على الرسول صلى الله عليه وسلم فيأتونه فيقول : أنا لها فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، ويلهمني محامد أحمده بها ، لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وأشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال انطلق فأخرج / منها / من كان في قلبه مثقال شعيرة من ايمان فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ، أرفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : يارب أمتي أمتي

---

١) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ١٣ / ٤٤٧ ، صحيح مسلم ١ / ١٨٩ .

فيقال : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أوخردلة من إيمان فأنطلق فأفعل ، ثم أعود بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجدا فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي فيقول : انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل . قال : فلما خرجنا من عند أنس ، قلت لبعض أصحابنا لو مررنا بالحسن ، وهو مقوار في منزل أبي خليفة فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك فأتيناه فسلمنا عليه ، فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة ، فقال : هيه ؟ فحدثناه بالحديث ، فانتهى إلى هذا الموضع ، فقال : هيه ؟ فقلنا له لم يزد لنا على هذا ، فقال : لقد حدثني وهو يومئذ جميع ، منذ عشرين سنة فما أدري ، أنسي ، أم كره أن تتكلوا ؟ فقلنا : يا أبا سعيد ، فحدثنا ، فضحك وقال : خلق الإنسان عجولا ما ذكرته الا وأنا أريد أن أحدثكم ، حدثني كما حدثكم به ، قال : ثم أعود الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه واشفع تشفع ، فأقول : يا رب أئذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، فيقول : وعزتي وجلالي ، وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله" (١)

فهذا الحديث : وأمثاله من الأحاديث الواردة في شفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من أمته بلغت مبلغ التواتر ورغم ذلك فقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة ، فخالفوا في ذلك ، لجهلهم بصحة الأحاديث ، وعنادا ممن علم ذلك واستمر على بدعته ، وهذه الشفاعة ، تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون (٢) أيضا .

---

١) ١/ ١٨٢ - ١٨٤ .

٢) أنظر النهاية لابن كثير ٢/ ١٨٠ .

للحديث الذى رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا قال :" فيقول الله - تعالى - شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط " (١) .

قال شارح الطحاوية :" ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال :

فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم : يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا . والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة ، فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر وشفاعة غيره لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويوجد له حدا كما في الحديث الصحيح حديث " الشفاعة" (إنهم يأتون آدم ثم نوحا ، ثم إبراهيم ثم موسى ، ثم عيسى ، فيقول لهم عيسى عليه السلام : " إذهبوا إلى محمد ، فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتوني ، فأذهب فإذا رأيت ربي خررت له ساجدا فأحمد ربي بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن ، فيقول : أي محمد إرفع رأسك وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فأقول : ربي : أمتي ، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أنطلق فأسجد ، فيحد لي حدا " (٢) ذكرها ثلاث مرات " أ.هـ (٣) .

والذي نخلص إليه مما تقدم أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي الشفاعة التي تعلق بها المشركون الذين إتخذوا من دون الله ، الشفعاء ، والأولياء والأولياء ، فعاملهم الله بنقيض قصدهم من شفعائهم وأما الشفاعة المثبتة التي

---

١) ١ / ١٧٠ ، صحيح البخارى ٤ / ٢٨٦ .

٢) صحيح البخارى ٤ / ٢٨٦-٢٨٧ ، صحيح مسلم ١ / ١٨٠-١٨٢ .

٣) شرح الطحاوية ص ٣٦٠ .

أثبتها القرآن فهي التي يفوز بها الموحدون والتي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لأبي هريرة رضي الله عنه سأله عنها : حين سأله عنها " من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال" أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قبله " (١) .

فتأمل كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد وتخليصه من شوائب الشرك ، وذلك عكس ما عند المشركين : حيث زعموا أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء ، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله وقد أبطل الله هذا الزعم في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه لا تطلب الشفاعة إلا منه - تبارك وتعالى - ولا يعبد إلا هو - سبحانه - ولا ولاء إلا له - جل وعلا - والمتأمل لحديث أبي هريرة السابق يرى أنه قلب المفهوم الذي يتصوره المشركون ، وأبان للناس أجمعين مسلمهم وكافرهم أن سبب الشفاعة الوحيد هو تجريد التوحيد ، وحينئذ بأذن الله للشافع أن يشفع وبالله التوفيق وهو المستعان .

---

١) صحيح البخاري مع الفتح ١١/٤١٨ ، وأحمد في المسند ٢/٣٧٣ .

(المبحث الثالث عشـــر)

الرسل بعثوا للدعوة إلى توحيد الله بتوحيد العبادة

من أجل توحيد الألوهية أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب فما من رسول أرسله الله إلى العباد إلا كان هذا التوحيد أساس دعوته وجوهرها .

قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (١)

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنـــا فاعبدون) (٢) وأخبرنا - سبحانه - في محكم كتابه عن رسله نوح وهود وصالح وشعيب أنهم جميعا دعوا أقوامهم إلى توحيد العبادة .

فقال نوح عليه الصلاة والسلام لقومه : (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيـــره أفلا تتقون) (٣) فهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك .

وقال هود عليه الصلاة والسلام لقومه : (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (٤)

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـــه غيره) (٥) وقال صالح عليه السلام لقومه : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (٥) وقال إمام الحنفاء وأبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

(أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون مـــن دون الله أفلا تعقلون) (٧) .

وقال تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام (يا صحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتـــم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبـــدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر لا يعلمون) (٨) .

---

١) سورة النحل آية : ٣٦ (٢) سورة الأنبياء آية : ٢٥
٣) سورة الأعراف آية : ٥٩ (٤) سورة الأعراف آية : ٥٩ .
٥) سورة هود آية : ٨٥ . (٦) سورة الأعراف آية : ٧٣ .
٧) سورة الانبياء آية ٦٦-٦٧ (٨) سورة يوسف آية : ٣٩ - ٤٠

وأما المسيح الذي زعم النصارى أنه ابن الله أو هو الله ، أو ثالث ثلاثة فقد كان من أشد الناس عبودية لله تعالى ، ولم يستنكف أن يكون عبدا لله فإنه قال (إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) (١) وأ

وأما كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام فإنه واجه بني إسرائيل بإنكار بليغ ومؤثر في النفس حين طلب منه بنو اسرائيل أن يجعل لهم إلها فأنكر عليهم ذلك أشد الإنكار قال تعالى حكاية عنهم (يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) (٢) .

وقد حكى الله في كتابه عن يعقوب عليه الصلاة والسلام أنه اختبر بنيه عن الإله الذي يعبدونه من بعده قال تعالى (أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) (٣) .

وأما مسك الختام وبدر التمام محمد بن عبد الله عليه من الله أزكى الصلاة والسلام فإنه صارح اليهود والنصارى بما أمره الله به قال تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (٤)

فالله - عز وجل - أرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب ، وخلق السموات والأرض ليعرفه العباد ويعبدوه ويوحدوه ويكون الدين كله لله والطاعة كلها له وحده لا شريك له - . ويفرد بتوحيد الألوهية

---

١) سورة آل عمران آية : ٥١ .
٢) سورة الأعراف آية : ١٣٨-١٤٠ .
٣) سورة البقرة آية : ١٣٢ .
٤) سورة آل عمران آية : ٦٤ .

فتوحيد الألوهية هو حقيقة دين الإسلام فقد كانت الشهادتان أول ركن من أركانه ، ولذلك قال : صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا متفق عليه (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : "إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ..... الحديث (٢) فتوحيد العبادة هو أول واجب على المكلف لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوال لمن لم يعرف ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من معاني القرآن والسنة فهو أول واجب كما قال صلى عليه وسلم " يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" (٣) وهو آخر ما يخرج به من الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) (٤) بل إن أول وصية في القرآن وأول أمر فيه هو الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة كل ما سواه ، ومن سواه من الآلهة المزعومة سواء كان من الجن أو أي مخلوق آخر فروح الإسلام وقطب رحاه الذي يدور عليه هو توحيد الله - تعالى - بتوحيد العبادة .

قال تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر . وثيابك فطهر والرجز فاهجر) (٥)

وقال تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) (٦) .

وقال عز شأنه (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) . (٧) .

---

١) صحيح البخاري : ١ / ١١ ، صحيح مسلم جـ١ / ٤٥ سنن الترمذي : ٤ / ١١٩ النسائي ٨ / ١٠٧-١٠٨ .
٢) صحيح مسلم ١ / ٥٠ ، النسائي ٥ / ٢ .
٣) رواه أحمد في مسنده من حديث ربيعة بن عباد الديلي ٣ / ٤٩٢ .
٤) المستدرك للحاكم وصححه ١ / ٣٥١ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .
٥) سورة المدثر آية : ١-٥ . (٦) سورة الفاتحة آية ٤ ، ٥ .
٧) سورة البقرة آية : ٢١ .

ومن هذه الآيات والأحاديث المتقدمة يتبين بطلان زعم بعض المتكلمين بأن غاية التوحيد هو : أن الله واحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له (١) لأن التوحيد الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله ليس هو هذه الأمور الثلاثة التي ذكروها ، وإن كان فيها ما هو داخل في التوحيد الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس توحيدهم التوحيد الذي ذكر الله ورسوله ، وهو عبادة الله وحده ، فمن عبد الله ، لم يشرك به شيئا فقد وحده ، ومن عبد دونه شيئا من الأشياء فهو مشرك ليس بموحد مخلص له الدين ، وإن كان ، مع ذلك قائلا بهذه المقالات التي زعموا أنها التوحيد حتى لو أقر بأن الله وحده خالق كل شيء وهو " التوحيد في الأفعال " لكان مشركا ، وهذه حال مشركي العرب الذي بعث الرسول إليهم ابتداء وأنزل القرآن ببيان شركهم ودعاهم إلى توحيد الله وإخلاص الدين له " (٢) .

---

١) الظل والنحل ١ / ٤٢ .

٢) تلبيس الجهمية ١ / ٤٧٨ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل ١/٢٢٥-٢٢٦ .

الفصل الثالث

الفصـــــل الثالـــــث

دلالـــة الســـورة علـي توحيـد الربوبيـــــة

ويشـــتمل علـى المبـاحـث الآتيـــة :

المبحث الاول : تعريـــف توحيـــد الربوبيـــــــة .

المبحث الثاني : دلائـل توحيـد الربوبيـة من الســـــورة .

المبحث الثالث : اقـرار المشـركين الذين بعث فيهم الرسـول صلـي الله عليـه وسـلم بوجـود اللـه تعالـى .

المبحث الرابع : الاقـرار بتوحيـد الربوبيـة يسـتلزم الاقـرار بتوحيـــد الالوهيـــة .

المبحث الاول

تعريف توحيد الربوبية

معنى الرب في اللغة :

الرب في اللغة : يطلق على المالك ، والسيد ، والمدبر ، والمربي والقيم والمنعم ، والمتمم ، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله - تعالى - وإذا أطلق على غيره أضيف فيقال : رب كذا ... ومنه حديث أبي هريرة (لا يقل المملوك لسيده ربي)[1] كره أن يجعل مالكه ربا له لمشاركة الله تعالى في الربوبية فأما قوله تعالى ((اذكرني عند ربك))[2] فإنه خاطبه على المتعارف عندهم ، وعلى ما كانوا يسمونهم به ومثله قول موسى عليه السلام للسامري ((وانظر إلى إلهك))[3] أي : الذي اتخذته إلها . وأما الحديث في ضالة الإبل (حتى يلقاها ربها)[4] فإن البهائم غير متعبدة ولا مخاطبة فهي بمنزلة الأموال التي يجوز إضافة مالكيها اليها وجعلهم أربابا لها . ومنه حديث عمر رضي الله عنه (رب الصريمة ورب الغنيمة)[5] وقد كثر ذلك في الحديث[6] . وجاء في الصحاح للجوهري : (رب كل شيء) : مالكه ، والرب اسم من أسماء الله - عز وجل - ولا يقال : في غيره إلا بالإضافة ، وقد قالوه في الجاهلية للملك قال الحارث بن حلزة :

---

(١) رواه أبو داود في سننه ٢/٥٩١ .

(٢) سورة يوسف آية ٤٢ ٣) سورة طه آية ٩٧

٤) رواه ابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهني ٢/٨٣٧ .

٥) رواه البخاري في صحيحه أنظر " فتح الباري " ٦/١٧٥

٦) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/١٧٩ - ١٨٠ .

وهو الرب على يوم الحيارين والبلاء بلاء .

والرباني : المتألـه العارف بالله ـ تعالى ـ وقد قال ـ سبحانه ـ ((ولكـــن كونوا ربانيين)) [1] وربيت القوم سستهم أى : كنت فوقهم . قال أبـــو نصر : وهو من الربوبية ، ومنه قول صفوان : لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن . ورب الضيعة : أي : أصلحها وأتمها . ورب فلان ولده يربه ربا وربيه ، وتربيه بمعنى أي : رباه أ . هـ [2] .

وجاء في المفردات في غريب القرآن : " الرب : في الأصل من التربية وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام يقال : ربه ، ورباه ، وربيه ..... فالرب : مصدر مستعار للفاعل ولا يقال : الرب مطلقا إلا على الله ـ تعالى ـ المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله تعالى ((بلدة طيبة ورب غفور)) [3] ... وبالإضافة يقال : له ولغيره نحو قوله ((رب العالمين)) [4] ويقال : رب الدار ورب الفرس لصاحبها " أ . هـ [5] .

المعنى الإصطلاحي لتوحيد الربوبية :

هو إفراد الله بأفعاله : كالخلق والرزق ، فلابد من الإعتقاد الجـــازم بأنه ـ تعالى ـ الخالق الرازق المحيي المميت المدبر ، المعطي المانع ، الضار النافع ، القادر المقتدر مالك الملك الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

---

١) سورة آل عمران آية / ٧٩

٢) الصحاح ١ / ١٣٠ وانظر القاموس ١ / ٧٢ ـ ٧٣ ، اللسان ١ / ٣٩٩ وما بعدها .

٣) سورة سبأ آية / ١٥ ٤) سورة الفاتحة آية / ١

٥) المفردات للراغب ص ١٨٤ وانظر أحكام القرآن لابن العربي ١ / ٢٧٩ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : الرب : له الجمع الجامع لجميع المخلوقات فهو رب كل شيء وخالقه ، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السموات والارض عبد له في قبضته وتحت قهره ، فاجتمعوا بصفة الربوبية ، وافترقوا بصفة الالهية فألهه وحده السعداء ، وأقروا له طوعا بأنه الله الذى لا اله الا هو ، الذى لا تنبغي العبادة ، والتوكل ، والرجاء ، والخوف والحب ، والانابة والاخبات ، والخشية ، والتذلل ، والخضوع الا له ، وههنا افترق الناس وصاروا فريقين فريقا مشركين في السعير ، وفريقا موحدين في الجنة ، فالالهية هي التي فرقتهم ، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم " أ . هـ [1]

وقال في تيسير العزيز الحميد معرفا توحيد الربوبية : " هو الإقرار بأن الله - تعالى - رب كل شيء ومالكه ، وخالقه ، ورازقه ، وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد باجابة الدعاء عند الاضطرار ، الذى له الامر كله ، وبيده الخير كله القادر على ما يشاء ، ليس له في ذلك شريك ، ويدخل في ذلك الايمان بالقدر وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الاسلام بل لابد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الالهية ، لان الله حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده " [2] .

وجاء في لوامع الانوار : " توحيد الربوبية أن لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا موجد ولا معدم الا الله تعالى " [3] .

---

١) مدارج السالكين ١ / ٣٤ .

٢) ص ١٧

٣) ١ / ١٢٨ - ١٢٩ .

وقال محمد صديق حسن خان في كتابه " الدين الخالص " مبينا معنى توحيد الربوبية " ومعناه : أن الله وحده هو الخالق للعالم وهو الرب لهم ، والرازق لهم ، وهذا لا ينكره المشركون ولا يجعلون لله فيه شركاء بل هم مقرون به " أ. هـ (١) .

والذي نخلص اليه من تعريفات أهل العلم لتوحيد الربوبية أنه لا بد من الاعتقاد الجازم بأن الله - تعالى - هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بأصناف نعمه ، وربى خواص خلقه وهم الانبياء وأتباعهم الذين آمنوا بهم وصدقوا بما جاءوا به من عند ربهم بالعقائد الصحيحة ، والاخلاق الجميلة والعلوم النافعة ، والاعمال الصالحة .

---

(١) ٦١/١

(المبحث الثاني)

دلائل توحيد الربوبية من السورة

لقد ذكرت سورة " الزمر " الكثير من دلائل توحيد الربوبية فقد بينت أنه تعالى الخالق للسموات والارض وما بينهما ، وأنه - سبحانه - هو الذى جعل الليل والنهار يتعاقبان بحيث اذا ذهب هذا خلفه الاخر ، وهو الذى سخر الشمس والقمر لتهيئة مصالح العباد ومنافعهم ، وهو الذى خلق بني آدم من نفس واحدة وهو آدم عليه السلام ، وهو الذى خلق لهم الازواج الثمانية من الانعام التي تعتبر أكثر الحيوانات نفعا لبني الانسان ، وهو الذى يرعاهم بلطفه وعنايته وهم في الارحام في ظلمات ثلاث وهو الذى ينزل المطر من السماء وينبت النبات ، وهو - سبحانه - المتصرف في شئون خلقه بالاحياء والاماتة واليقظة والنوم ، وبسطه - تعالى - الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء ، ثم بينت السورة في ختام تلك الدلائل أن مقاليد السموات والارض بيده - سبحانه - تلك هي دلائل توحيد الربوبية في السورة وسأتحدث عن كل واحد منها بحديث خاص حتى يتبين وجه دلالتها على ربوبية الخالق وأنه - سبحانه - المستحق للعبادة وحده لا شريك له . والى بيان تلك الادلة مرتبة :

١ - خلق السموات والارض :

لقد دلت السورة على أن خلق السموات والارض من أعظم الايات الدالة على ربوبيته - تعالى - والتصرف عليه - سبحانه - في آيتين منها : قال تعالى ((خلق السموات والارض بالحق ...)) الاية . وقال تعالى

((قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون)) .

ان خلق السموات والارض وابداعهما على هذه الصورة من أعظم الايات الدالة على ربوبية الله ، والتعرف عليه -سبحانه- فقد أوضح الحق -سبحانه- بقوله ((خلق السموات والارض بالحق)) أنه خلقهما بالحق المتجرد عن اللهو والعبث ، وبث فيهما من الحكم العظيمة التي يتجلى بعضها لعباده المتفكرين المتدبرين في خلقهما .

وأما قوله تعالى ((قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون)) فهذه الاية فيها أمر : للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يدعو الله وحده لا شريك له الذى خلق السموات والارض وفطرها على غير مثال سابق قال ابن جرير الطبرى : عند قوله تعالى ((خلق السموات والارض بالحق)) يقول تعالى ذكره : معرفا خلقه حجته عليهم في توحيده ، وأنه لا تصلح الالوهية الا له : خلق ربكم أيها الناس السموات والارض بالعدل - وهو الحق منفردا بخلقها لم يشركه في انشائها واحد اثنا شريك ولم يعنه عليها معين " [1] . فالاله الحق الذى يستحق أن يعبد هو من يخلق وينشيء السموات والارض ، وليس ذلك في مقدور أحد سوى رب العالمين الذى لا تنبغي العبادة الا له وحده دون سواه ، فالسموات جعلها الله سقفا محفوظا تتألف من سبع طبقات وفيها من مخلوقات الله العجيبة ما الله به عليم يحكمها نظام متقن تسير على وفقه ، وذلك النظام هو النظام الالهي الرباني الذى يحافظ على سيرها العام دون أن يحصل فيها خلل أو فطور قال تعالى ((الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن

---

١) جامع البيان ١٤/٧٨

من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير))[1] وقد تحدث العلامة ابن القيم في كتابه " مفتاح دار السعادة " عن آيات الله الدالة على وجوده وقدرته وحكمته في خلقه السموات وابداع صنعها وما هي عليه من حيث السعة والعظم ، وحسن خلقها ومنائها كما أوضح بأنها أشمل للعجائب التي دلت على وجود الخالق - سبحانه - وأن دلالتها على وجود الله - تعالى - أوضح من دلالة المخلوقات الاخرى ، ثم قرر أنه لا نسبة لجميع ما في الارض الى عجائب السموات .

قال رحمه الله تعالى : " فالارض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة الى السموات كقطرة في بحر ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن الا وفيها ذكرها اما اخباراً عن عظمها وسعتها ، واما اقساما بها ، واما دعاء الى النظر فيها ، واما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها ، واما استدلالا منه - سبحانه - بخلقها على ما أخبر من المعاد والقيامة ، واما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته ، وأنه الله الذى لا اله الا هو ، وأما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته ، وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكم من قسم في القرآن بها ؟ كقوله ((والسماء ذات البروج ، والسماء والطارق ، والسماء وما بناها والسماء ذات الرجع ، والشمس وضحاها ، والنجم اذا هوى ، والنجم الثاقب فلا أقسم بالخنس ، " وهي الكواكب التي تكون خنسا عند طلوعها حوار في مجراها ، وسيرها عند غروبها فأقسم بها في أحوالها

---

(١) سورة الملك آية / ٤

الثلاثة ، ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه - يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الايات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان اقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظم هذا القسم كقوله ((فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم))أ.هـ [1] وقال في موضع آخر " فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها ؟ من أعظم الايات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالاجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هي مسموكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والارض أن تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضمت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الالوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له . أ. هـ [2] .

فلقد أوضح ابن القيم دلالة خلق السموات وعلى أن للعالم خالقا حكيما عليما قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام ولقد حث القرآن الكريم في غير ما آية على التفكر في خلق السموات والارض وبين أن الذى أقامها وأمسكها انما هو الخالق القادر على كل شيء المستحق للعبادة وحده دون سواه . قال تعالى ((الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم)) [3] .

وقال تعالى ((أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت)) [4]

---

١ - مفتاح دار السعادة ١/١٩٦-١٩٧ والايتان رقم ٧٥-٧٦ من سورة الواقعة .
٢ - مفتاح دار السعادة ١/٢٠٧ .
٣ - سورة الرعد آية / ٢ ٤) سورة الغاشية آية / ١٧-١٨

أفلا ينظرون ؟ من رفع السماء بلا عمد ترونها وهي بعيدة المدى لا علاقة من فوقها ولا عمد تحتها تسندها ولا يدخل في حساب الخلق نجومها ؟ وقال تعالى ((ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا))[1] . فهو سبحانه قيوم السموات والارضين فلا قيام لهما ولا استقرار الا به سبحانه وتعالى .

وأما خلق الارض وما فيها من الجبال والهضاب والسهل والوعر والرمل والبحار والانهار وما في بطنها من المعادن وغيرها من المنافع الظاهرة والباطنة التي تساعد الانسان على بناء حياته لادلة واضحة على ابداع الخلاق الحكيم ، سبحانه وتعالى وقد نبه الله عباده في غير ما آية الى النظر والتفكر في الارض . قال تعالى ((وفي الارض آيات للموقنين))[2]

فالارض طيئة بالعبر والعظات لاهل اليقين . قال تعالى ((أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت))[3] أفلا ينظرون ؟ من بسط الارض ودحاها وجعلها بساطا ممتدا في الطول والعرض ((لتسلكوا منها سبلا فجاجا))[4] تثبت عليها الاقدام ويتقلب عليها الحيوان ويتمتع بخيراتها الانسان ؟ انه الله . . فلا شيء يخلق نفسه .

وقد أثنى الله ـ تعالى ـ على عباده الذين يتفكرون في خلق السموات والارض ، وبين الثمرة التي تحصل لهم نتيجة تفكرهم وتدبرهم في خلق

---

١) سورة فاطر آية / ٤١ ٢) سورة الذاريات آية / ٢٠

٣) سورة الغاشية آية / ١٧-٢٠ ٤) سورة نوح آية / ٢٠

السموات والارض فقال تعالى : ((ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار))[1] .

فتأمل أولي الالباب في خلق ربهم للسموات والارض وما احتويا عليه من الايات الدالة على قدرة ـ البارى سبحانه وتعالى ـ أكسبهم الثمرة المطلوبة وتلك الثمرة هي أنهم يذكرونه ـ سبحانه ـ في جميع حالاتهم قياما ، وقعودا وعلى جنوبهم ، ثم أيقنوا وآمنوا بأن الرب ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلق هذه المخلوقات عبثا ولذلك نزهوه عن العبث فقالوا ((ربنا ما خلقت هذا باطلا)) .

فتفكرهم في هذا الكون الفسيح علويه وسفليه نقلهم الى الايمان بما وراء هذا الكون وهو الدار الاخرة ولذلك تضرعوا الى الله أن يقيهم عذاب النار الذى يوجب لصاحبه الخزى والعار فقالوا ((سبحانك فقنا عذاب النار)) .

وقد ذم الله المعرضين عن التفكر فيما خلق الله من المخلوقات في السموات والارض فقال ـ سبحانه ـ : ((وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون))[2] .

قال ابن كثير : أى لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها

---

١) سورة آل عمران آية / ١٩٠-١٩١ ٢) سورة الانبياء آية / ٣٢

من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة ، فتسير غاية لا يعلم قدرها الا الله الذى قدرها وسخرها وسيرها " أ.هـ[1]

وقال تعالى ((وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون))[2] .

" يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ، ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والارض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الارض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والالوان والصفات ، - فسبحان الواحد الاحد خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للاسماء والصفات وغير ذلك " أ.هـ[3] .

فالسموات والارض مليئة بالايات البينات والحجج الواضحات التي تهدى الانسان وتدله على أن وراء هذا الكون خالقا حكيما مدبرا ، هو المستحق أن يعبد وحده دون سواه .

٢ - تعاقب الليل والنهار :

ان تعاقب الليل والنهار المشار اليه في السورة بقوله تعالى ((يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل)) باد خال أحدهما على الاخر وتداخلهما من أعجب آيات الله ، وبدائع صنعه ، ولذلك يعيد - البارى

١) تفسير القرآن الكريم ٤/٥٦١ . ٢) سورة يوسف آية /١٠٥
٣) تفسير ابن كثير ٤/٥٥ .

سبحانه - ذكرهما في القرآن ويبديه ،

قال تعالى ((ومن آياته الليل والنهار))[١] وقوله تعالى ((وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا))[٢] وقوله سبحانه ((وهو الذى جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا))[٣] .

فالله تعالى هو الذى يحول ضياء النهار الى ظلام الليل ليتمكن الانسان من الحصول على الهدوء والسكينة حتى يرتاح من ارهاق العمل ومشقة السعي ، وحتى يستجمع قواه ويجدد نشاطه ليواصل سعيه من جديد اذا ما جاء النهار وولى الظلام "[٤] .

وفي ذلك عبر ودلالات واضحة على ربوبية الله - تعالى - وتصرفه في الكون كيف يشاء .

وعند التأمل في مقادير الليل والنهار نجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار الليل والنهار لو زاد على ما قدر له أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك بل جعل الله لهما مقدارا معينا وهو أربعة وعشرون ساعة ويتقارضان الزيادة بينهما فما يزيد في أحدهما من الاخر يعود الاخر فيسترده منه وفي ذلك قال تعالى ((يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل))[٥] وفي الاية قولان :

أحدهما : أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في

---

١) سورة فصلت آية /٣٧ ٢) سورة الفرقان آية /٦٢
٣) سورة الفرقان آية /٤٧
٤) أنظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٠٣ بتصرف .
٥) سورة الحديد آية /٦

مكان ظلمة الاخر فيدخل كل واحد منهما في موضع الاخر وعلى هذا القول تكون الاية عامة في كل ليل ونهار .

الثاني : أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الاخر فما ينقص منه يلج في الاخر لا يذهب جملة وعلى هذا القول فالاية تكون خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الاخر .[1] ولا تنافي بين القولين فكلاهما حق .

وعلى كل فاختلاف الليل والنهار وزيادة أحدهما ونقصان الاخر من أظهر الادلة على تصرفه سبحانه في هذا الكون وذلك لان النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان وفي كل يوم يغلب هذا ذاك تارة وذاك هذا أخرى ، وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى .[2]

٣ - تسخير الشمس والقمر لتهيئة مصالح العباد ومنافعهم :

اذا تأمل الانسان بفكر عميق وعقل متدبر في بعض جزئيات هذا الكون المسخر لمصالحه والتي عليها استقرار حياته كفاه ذلك دليلا واضحا وحجة بينة على أن هذا الكون مخلوق لخالق حكيم قدير ومن جزئيات هذا العالم تسخير الشمس والقمر و المشار اليه في السورة بقوله تعالى ((وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى ألا هو العزيز الغفار)) .

ان الشمس والقمر عليهما يترتب قوام حياة البشرية وحياة جميع المخلوقات

---

١) مفتاح دار السعادة ١/٢٠٩ - ٢١٠ .

٢) تفسير الرازى ٢٦/٢٤٤ .

سن حيوان ونبات ؛

قال الرازى : والثالث : اعتبار أحوال الكواكب لا سيما الشمس والقمر فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله ((كل يجرى لاجل مسمى)) الاجل المسمى يوم القيامة لا يزالان يجريان الى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا ونظيره قوله تعالى ((وجمع الشمس والقمر))[1] والمراد من هذا التسخير أن هذه الافلاك تدور كدورات المنجنون[2] على حد واحد الى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطي السجل للكتب أ.هـ[3] ؛

وقال العلامة ابن القيم ؛ ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم الى آخر الاجل على هذا الترتيب والنظام وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الارض من أصناف الحيوان والنبات وهل يخفى على ذى بصيرة ان هذا ابداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله وانما دعوهم الى عبادته وحده لا الى الاقرار به . أ.هـ[4]

فتعاقب الليل والنهار ناتج عن طلوع الشمس وغروبها فلولا تسخيره سبحانه الشمس والقمر والليل والنهار بصورة منظمة محكمة بلغت النهاية في التنظيم

---

١) سورة القيامة آية / ٩

٢) المنجنون : الدولاب التي يستقى عليها . أنظر " مختار الصحاح "ص ٦٣٥

٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٤ .

٤) مفتاح دار السعادة ١/ ٢١٢

الليل بذكر السمع لان سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لانه وقت هدوء الاصوات وجمود الحركات .[١]

وهناك فوائد أخرى مترتبة على حركة الشمس والقمر أشار اليها سبحانه بقوله ((هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون))[٢]

فالخلق بأسرهم بحاجة ماسة الى معرفة الحساب الذى لا غناء لهم في مصالحهم عنه فعليه تتوقف معرفة أعمارهم والاجال المضروبة للديون والاجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك فلولا حلوك الشمس والقمر في المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك .[٣]

فالحركة الدائبة للشمس والقمر قائمة على النظام والاتقان والتقدير الالهي الذى شمل كل مخلوقات الله تعالى ذلك أن الكون منظم ومنسق وانتظامه مرتبط بارادة الله وقدرته كما أن استمراره على هذه الحالة منوط باختيار الله تعالى ومشيئته قال تعالى ((صنع الله الذى أتقن كل شيء))[٤] وقال تعالى ((وخلق كل شيء فقدره تقديرا))[٥] وقال تعالى ((انا كل شيء خلقناه بقدر))[٦] .

فليس هناك فوضى أو عبث وانما هو اتقان وتقدير الهي والنظام المتمثل في هذا الكون يدركه عقل الانسان بسهولة ويسر لانه لا يحتاج الى كد ذهن

---

١) مفتاح دار السعادة ١/٢٠٧-٢٠٨ ، التفسير القيم ص ٤٠٢ .
٢) سورة يونس آية /٥
٣) مفتاح دار السعادة ١/٢٠٩ .
٤) سورة النمل آية /٨٨ ٥) سورة الفرقان آية /٢
٦) سورة القمر آية /٤٩ .

أو اعمال فكر لانه خطاب موجه من العليم بنفوس البشر جميعا فاقتضت الحكمة الالهية مخاطبة الناس كافة بآيات هذا الكون الفسيح وما فيه من عجائب المخلوقات ولقد أحسن من قال :

تأمل سطور الكائنات فانها ... من الملأ الاعلى اليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

تشير باثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي ومن هو قائل (١)

فدلائل ربوبية الخالق ماثلة في كل ما يحيط ببني الانسان على مختلف حواسهم ، نشرها البارى بينهم لكي يقرؤها فيعبدوه ويوحدوه دون سواه .

٤ - خلقه تعالى بني آدم من نفس واحدة :

قال تعالى ((خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها)) هذه الآية من السورة بين الله تعالى فيها أنه خلق بني آدم الذين لا يحصى عددهم الا هو - سبحانه - من أب واحد - وهو آدم عليه السلام حيث كان خلقه في المرحلة الاولى منفردا ، ثم خلق له - البارى سبحانه - زوجة من نفسه وجسمه وهي حواء في صورة نادرة ليس لها مثيل بين المخلوقات (٢) ، فخلقه تعالى البشرية على هذا النحو من أعظم الادلة الدالة على ابداع المبدع الحكيم والمدبر العليم ، وخلقه - تعالى - بني آدم من نفس واحدة فيه لفت أنظارهم الى مبدء خلقهم وأن البشرية على اختلاف تنوعها بين الذكورة والانوثة ، وعلى اختلافها في العرق والعنصر وتباينها في اللغة واللون ، فان مرجعها الى مصدر واحد

---

١) مدارج السالكين ٣/٣٥٦

٢) انظر جامع البيان ٢٣/١٩٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/٨٠ ، التفسير الكبير للرازى ٢٦/٢٤٤-٢٤٥ ، تفسير النسفي ٤/٥٠ .

والى منشأ واحد كما قال تعالى ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)) [1] .

قال ابن جرير حول قوله تعالى : ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها)) " يعني بقوله تعالى ذكره : احذروا أيها الناس ربكم في أن تخالفوه فيما أمركم ، وفيما نهاكم فيحل بكم من عقوبته مالا قبل لكم به ثم وصف تعالى ذكره : نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الانام من شخص واحد وعرف عباده كيف كان مبتدء انشائه ذلك من النفس الواحدة ، ومنبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة وأن بعضهم من بعض" أ.هـ [2] .

فانشاء جميع البشر على كثرتهم الهائلة من نفس واحدة آية بينة على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته وذلك من نعم الله على عباده ، فيجب عليهم أن يشكروا تلك النعمة وهي خروجهم من العدم الى الوجود ويفردوه -سبحانه- بالعبادة وحده لا شريك له .

٥ - تذكير العباد بمرحلة التكوين في الارحام :

لقد جاء التذكير في السورة لبني آدم بأطوار خلقهم التي يمرون بها وتمر بها الحيوانات عند خلقها مع التفاوت في تلك الاطوار ، وقد أحيطت بظلمات متعددة في البطون ، والارحام ، والمشايم ، والسلي تحت العناية الربانية كما أبانت بأن الذى يفعل بهم ذلك انما هو الله الذى له السلطان المطلق على جميع خلقه ، والذى له الملك الحقيقي ظاهرا وباطنا فلا معبود بحق

---

١) سورة النساء آية / ١

٢) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٤/ ٢٢٣/ ٢٢٤ .

الا هو - سبحانه - وتعالى فلا ينبغي لأى انسان أن ينصرف عن عبادته وعن اخلاص العبودية له - وحده لا شريك له اذ هو الذى خلقهم من العدم وحباهم بأصناف النعم الظاهرة والباطنة وليس في مقدور أى أحد أن يفعل لهم من ذلك شيئا مهما كانت منزلته وعلت مكانته .

قال تعالى مذكرا عباده بمرحلة تكوينهم في بطون أمهاتهم في الظلمات الثلاث : ((يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأنى تصرفون)) . قال قتادة والسدى ((يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق)) نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما " [1] .

وقال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : يبتدئ خلقكم أيها الناس في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق وذلك أنه يحدث فيها نطفة ، ثم يجعلها علقة ، ثم مضغة ثم عظاما ، ثم يكسو العظام لحما ، ثم ينشئه خلقا آخر فتبارك الله وتعالى فذلك خلقه اياكم خلقا بعد خلق " [2] .

وقال ابن كثير :((يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق)) أى قد ركم في بطون أمهاتكم يكون أحدكم أولا نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين " [3] .

قال أبو الحسن الاشعرى رحمه الله تعالى : ان الانسان اذا

---

١) الجامع لاحكام القرآن ١٥ / ٢٣٦ ، وانظر مجموع الفتاوى ١٦ / ٢٦٢ .
٢) جامع البيان ٢٣ / ١٩٥ .
٣) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٨٠ .

فكر في خلقه من أى شيء ابتدأ وكيف دار في أطوار الخلقة طورا بعد طور حتى وصل الى كمال الخلقة وعرف يقينا أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته ، وينقله من درجة الى درجة ويرقيه من نقص الى كمال علم بالضرورة أن له صانعا قادرا عالما مريدا اذ لا يتصور حدوث الافعال المحكمة من طبع ، لظهور آثار الاختيار في الفطرة وتبين آثار الاحكام والاتقان في الخلقة فله تعالى صفات دلت أفعاله عليها لا يمكن جحدها ، أ.هـ [1] .

وقد أكد شيخ الاسلام ابن تيمية أن أحسن ما يستدل به على ربوبية الخالق هو الاستدلال بخلق الانسان نفسه كما كرر ذلك كتاب الله اذ هو الدليل وهو المستدل ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون)) [2] . ثم بما يحدثه في هذا الوجود من آثار " أ.هـ [3] .

والحال كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : اذ أن خلق الانسان من أعظم الايات الدالة على وجود - الخالق سبحانه - ومن أعظم الايات الدالة على عموم قدرته وعلمه ، وكمال حكمته واحسانه ورحمته ، ولما كان خلق الانسان من أوضح الادلة على وجود - الباري جل وعلا - ومن أقرب الادلة وضوحا للانسان نفسه نجد أن الله - تعالى - دعا جميع عباده الى أن يتفكروا وينظروا بعين البصيرة في مبدء خلقهم ، وفي أطوار هذا الخلق والمراحل التي مروا بها حتى صاروا بشرا ينتشرون على هذه الارض . قال تعالى ((فلينظر الانسان مم خلق)) [4] وقال تعالى ((يا أيها الناس ان كنتم في ريب من

---

١) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٩٤ .
٢) سورة الذاريات آية ٢١/
٣) مجموع الفتاوى ١٦/ ٢٦٢ .
٤) سورة الطارق آية ٥/ .

واختلاف مجاريها الى أن ساقها الى مستقرها ومجمعها .... وكيف قدر

---

١) سورة الحج آية ٥/ ٢) سورة المؤمنون آية ١٢/-١٤

اجتماع دينك المائين مع بعده كل منهما عن صاحبه ، وساقهما من أعماق العروق والاعضاء ، وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا ، لا ينالـه هواء يفسده ولا برد يجمده ، ولا عارض يصل اليه ، ولا آفة تتسلط عليه ، ثم قلب تلك النطفة الى علقة حمراء مباينة للنطفة ، ثم جعلها مضغة لحم ، مباينة للعلقة في شكلها ولونها وحقيقتها ، ثم تحويل تلك المضغة عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة كل المباينة في الشكل والهيئة والقدر والملمس ، ثم كيف قسمت تلك النطفة الحمراء الى تلك الاجزاء المتشابهة ، وبالمقدار المناسب لكل عضو ، ثم اتجاه كل جزء ، أو خلية الى مكانها المناسب في وقتها وأوانها وعلى حسب الحاجة اليها ، فمنها ما يتجه لانشاء العظام كل في محله ، وعلى قدره الذى قدر أن يكون عليه فمنها الصغير ، والكبير ، والطويل ، والقصير ، والمنحني ، والمستدير ، والعريض ، والمصمت والمجوف ، فهي مختلفة الاشكال والاحجام ، وذلك حسب اختلاف المنافع المنوطة بها ، ثم شد تلك العظام وربط بعضها ببعض برباط قوى محكم بحيث لا يسقط عضو من آخر "[1] . ((نحن خلقناهم وشددنا أسرهم))[2] . ثم أن هذا الخلق الذى يبتدئ بخلق النطفة الى أن يصير بشرا سويا يتم في ظلمات ثلاث كما أشارت اليه السورة في قوله تعالى ((يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأنى تؤفكون)) والمراد بالظلمات الثلاث هي : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة "[3] . ففي تلك الظلمات الثلاث يتم ذلك الخلق العجيب

---

١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٧-١٨٩ وانظر" ايثار الحق على الخلق لابن الوزير ص٤٤-٤٥

٢) سورة الانسان آية /٢٨

٣) الجامع لاحكام القرآن ١٥/ ٢٣٦ ، تفسير ابن كثير ٦/ ٨٠ .

فعلى الانسان أن يتصور نفسه وهو في تلك الظلمات الثلاث : لا عين تـراه ، ولا يد تلمسه ، ولا حيلة له في التماس الغذاء .

قال ابن القيم :" فأعد الان النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية من الـذى دبرك بألطف تدبير ، وأنت جنين في بطن أمك لا يد تنالك ولا بصر يدركـك ولا حيلة لك في التماس الغذاء ، ولا في دفع الضرر فمن الذى أجرى اليـك من دم الام ما يغذوك كما يغذو الماء النبات ، وقلب ذلك الدم لبنا ولم يـزل يغذيك به في أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى اذا كمل خلقلـك واستحكم وقوى أديمك على مباشرة الهواء ، وبصرك على ملاقاة الضياء ، وصلبت عظامك على مباشرة الايدى ، والتقلب على الغبراء هاج الطلق بأمـك فأزعجك الى الخروج أيما ازعاج الى عالم الابتلاء "[1] . فابن القيم رحمه الله عليه وضح لنا وجه الدلالة من التدرج في خلق الانسان على أن هناك مدبـرا حكيما قادرا عليها وراء هذا الكون وما فيه من المخلوقات دبره فأحسن تدبيره -فسبحانه - من اله حكيم أحكم خلقه وقدره تقديرا .

وبعد هذا العرض لمرحلة تكوين العباد في الارحام نقول : انا اذا اعتبرنا أن تلك المراحل انما سيقت لتبين لنا كيف خلق الانسان ؟ وكيف نما ؟ وكيف تحول بحكم المراحل المتعاقبة الى كائن حيواني ، ثم كيف انتقل الى ذلـك الانسان العاقل المدرك الواعي عنده من المؤهلات والاستعدادات ما يجعلـه يتبوأ عماره هذه الارض ومسئولية بنائها .

ولتبين : أن ذلك التعريف بخلق الانسان انما جاء دليلا على قـدرة

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٥٥ - ٢٥٦ .

الله وعلمه وحكمته وعند ئذ يكون التعريف بتلك المراحل انما هو تعريف بالله وبصفاته اعتمادا على التعريف بأحد مخلوقاته المعتبره اعتبارا أوليا .

فليتأمل الانسان خلقه ، أليس مخلوقا من قطرة ماء ؟ من كونها لحوما منضدة وعظاما مركبة وأوصالا متعددة مشدودة بالعروق والاعصاب مجمعة بجلد متين مشتمل على ثلاثمائه وستين مفصلا ما بين كبير وصغير ؟

من جعل فيها تسعة أبواب فبابان للسمع وبابان للبصر وبابان للشم وباب للكلام والطعام والشراب والتنفس وبابان لخروج الفضلات التي يحوذيه احتباسها ؟

من جعل داخل بابي البصر ملحا لئلا تذيب الحرارة الشحم الذي فيه ؟

من جعل داخل باب الطعام والشراب حلوا ليسيغ ما يأكله ويشربه فلا يتنغص به لو كان مرا أو ملحا ؟

من جعل له مصباحين كالسراج المضيء في أعلى مكان وفي أشرف عضو طليعة له ؟ (١)

فخلق الانسان من الايات العظيمة الدالة على ربوبية الله تعالى لهذا الكون وما فيه من ألوان المخلوقات وقد حث الله عباده على أن يتفكروا في أنفسهم ليستدلوا بذلك على معرفة الله وأنه المعبود بحق دون سواه .

قال تعالى ((فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر)) (٢) .

---

١) التبيان في أقسام القرآن ص ٣٠٤ .

٢) سورة الطارق آية /٥-٨ .

وقال تعالى ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون))[1]

قال قتادة : من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصلـــة للعبادة "[2] ، وقال ابن جرير الطبرى : وفي أنفسكم أيضا : أيها الناس آيات وعبر تدلكم على وحدانية صانعكم ، وأنه لا إله لكم سواه اذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه اياكم "[3] .

٦ - الإستدلال بخلق الأزواج الثمانية من الأنعام على ربوبيته تعالى :

من الأدلة التي أشارت إليها السورة على ربوبية الخالق -سبحانه- خلقه تعالى الأزواج الثمانية من الأنعام وهي الإبل ، والبقر ، والضأن والمعز[4] فهذه الأصناف تعتبر أكثر الحيوانات نفعا لبني الإنسان فقد خلقها- تعالى- لهم فضلا منه وكرما ، وقد جاءت الإشارة إليها في السورة بقوله تعالى ((وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج)) وقد يقال هنا : كيف عبر عن الأنعام بالإنزال مع أنها مخلوقة على الأرض ، فيجاب عليه بأن الإنزال في كل شيء بحسبه .

قال شارح الطحاوية : أثناء رده على القائلين بأن إنزال القرآن إنما هو نظير إنزال المطر أو إنزاله الحديد ، وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام . قال رحمه الله : " وإنزال الحديد والأنعام مطلق ، فكيف يشبه هذا الإنزال بهـــذا الإنزال ؟ فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال ، وهي عاليـــة على الأرض ، وقد قيل إنه كلما كان معدنه أعلا كان حديده أجود ، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث ،

---

١) سورة الذاريات آية / ٢١ ٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤١٩

٣) جامع البيان ٢٦/ ٢٠٥ .

٤) جامع البيان ٢٣/ ١٩٤ ، الجامع لاحكام القرآن ١٥/ ٢٣٥ .

ولهذا يقال : أنزل ولم يقل نزّل ، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الارض ، ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء ، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى ، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سفل وعلى هذا فيحتمل قوله تعالى ((وأنزل لكم من الأنعام)) وجهين :

أحدهما : أن تكون " من " لبيان الجنس .

الثاني : أن تكون " من " لابتداء الغاية " أ.هـ[1]

وقال ابن كثير ((وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج)) أي : وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام ((ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين)) أ.هـ[2] .

أما القرطبي : فقد ذكر ثلاثة أقوال لمعنى انزال الثمانية الازواج :

أحدهما : أنه أخبر عن الانعام بالنزول لأنها تكونت بالنبات ، والنبات بالماء المنزل وهذا يسمى التدريج .

الثاني : أنه جعل الخلق إنزالا لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء والمعنى خلق لكم كذا بأمره النازل .

الثالث : أن "أنزل" بمعنى أنشأ - وجعل - وقال سعيد بن جبير[3] "خلق" أ.هـ[4] .

وقد بين تعالى أن في خلقه الأنعام عبرة لأولى النهى من عباده .

---

١) شرح الطحاوية ص ١٩٦ .

٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٨٠

٣) هو : سعيد بن جبير الاسدي ، بالولاء الكوفي أبو عبد الله : تابعي ، كان أعلمهم على الإطلاق وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد أخذ العلم عن عبد الله بن عباس . أنظر ترجمته في "وفيات الأعيان ١ /٢٠٤ تهذيب التهذيب ٤/ ١١ ، حلية الأولياء ٤/ ٢٧٢ .

٤) الجامع لاحكام القرآن ١٥/ ٢٣٥ .

قال تعالى ((وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين))[1] .

والعبرة في الاصل : تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ومنه قوله تعالى ((فاعتبروا ياأولي الأبصار))[2] . وقال أبو بكر الوراق : العبرة في الانعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم . والظاهر أن العبرة هي قوله ((نسقيكم مما في بطونه)) الاية[3] فخلق الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم والمعز آية من آيات الله الدالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه سبحانه وتعالى وعلى أنه المعبود بحق دون سواه .

كما بين لنا تعالى أن خلقه الأنعام من نعمه التي توجب أنه المتفرد بالخلق والوحدانية ولا يشرك به غيره في العبادة .

قال تعالى ((أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون))[4] .

قال العلامة ابن كثير : يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ((فهم لها مالكون)) قال قتادة مطيقون أي جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ولو شاء لأقامه وساقه وذاك ذليل منقاد معه وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير وقوله تعالى ((فمنها ركوبهم)) أي منها ما يركبون في الأسفار ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ((ومنها ما يأكلون)) إذا شاءوا نحروا واجتزروا ((ولهم فيها منافع)) أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا

---

١) سورة النحل آية /٦٦ ٢) سورة الحشر آية /٢

٣) فتح القدير ج ٣ ص ١٧٤

٤) سورة يس آية /٧١-٧٣ .

ومتاعا إلى حين ((ومشارب)) أى من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك ((أفلا يشكرون)) أي أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ا.هـ[1]

وقال تعالى ((والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون))[2].

وفي هذه الآية يمتن الله على عباده بخلقه لهم الأنعام وما فيها من المنافع الكثيرة وذلك من حججه على الناس حيث خلقها لهم وسخرها لهم وجعل لهم من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس يستدفئون بها من البرد ويشربون من ألبانها وجعل لهم ظهور بعضها مركبا ووصف منها يأكلون لحومها كالإبل والبقر والغنم وسائر ما يؤكل لحمه من غيرها .[3]

وقد أمر الله عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ومن بين تلك المخلوقات التي أمر بالنظر إليها الابل . قال تعالى ((أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت))[4] .

فأول ما أرشد تعالى في هذه الآيات إلى النظر في الإبل فإنها خلق عجيب وتركيب غريب ، فإنها في غاية القوة والشدة وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف ويؤكل لحمها وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ونبه الله خلقه إلى ذلك لأن العرب كان غالب دوابهم الإبل وكان القاضي شريح[5] يقول أخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت . . . فنبه البدوي على الإستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه والسماء التي فوق رأسه والجبل الذي

---

١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٦٣٠ ٢) سورة النحل آية /٦ .
٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٤/ ٧٨ .
٤) سورة الغاشية آية /١٧-٢٠ .
٥) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي أبو أمية من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام أصله من اليمن ولي قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية واستعفى في أيام الحجاج فأعفاه سنة سبع وسبعين هجرية وكان ثقة في الحديث مأمونا في القضاء توفي سنة ثمان وسبعين هجرية أنظر ترجمته في تقريب التهذيب ١ / ٣٤٩ وطبقات الحفاظ للسيوطي ص٢٧ رقم الترجمة ٤٢ وانظر تذكرة الحفاظ ١/٥٩ والأعلام للزركلي ٣/ ٢٣٦ .

تجاهه والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم الخالق الملك المتصرف وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه .[1]

فلذلك كله يوجه الله عباده من خلال كتابه بأن يتدبروا ويعتبروا في خلقه للأنعام ويأخذوا العبرة منها التي ترشدهم إلى عجيب صنع الباري ويدل هذا الصنع على ألوهيته سبحانه وتعالى فاللبن الذي قدره لهم ضروع الأنعام الذي هو مستخلص من بين الفرث والدم والفرث هو ما يبقى في كرشها بعد الهضم وبعد أن تمتص الأمعاء العصارة المتحولة إلى دم ، هذا الدم هو الذي يذهب إلى كل خلية في الجسم فإذا ما وصل إلى غدد اللبن الموجودة في الضرع تحول إلى ذلك اللبن الخالص السائغ للشاربين بديع صنع الله الذي أتقن كل شيء .

((وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين))[2] .

٧ - إنزال المطر وإنبات النبات :

من دلائل الربوبية التي وردت في السورة إنزال المطر من السماء وإنبات النبات قال تعالى ((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب))

في هذه الآية من السورة أشار -سبحانه- إلى دليل حسي ملموس متكرر ومشاهد على قدرته ولطفه وعلى أنه الرب الذي تشمل إحسانه وإنعامه ورحمته جميع مخلوقاته حيث ينزل لهم المطر من السماء فيدخله جل وعلا في ينابيع[3] في الأرض ، ثم يخرج به من الأرض الزروع المختلفة في ألوانها من الخضرة والصفرة والحمرة والبياض ، والمتنوعة في أجناسها من البر والشعير والتمر والعنب ثم

---

١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٧٧

٢) سورة النحل آية /٦٦

٣) الينابيع جمع ينبوع وهو عين الماء" أنظر الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٤٦

لفت الانظار الى ما يصيب ذلك الزرع من الاصفرار بعد نضرته وبهجته حيث تتغير وتذهب بهجته وخضرته فيصيره حطاما منتفتتا متكسرا . ثم بين بأن في هذه الأحوال المتقدمة العبرة والإعتماظ والتذكير لأهل العقول السليمة (١) الذين يتذكرون بذلك فيوقنون بأن من فعل كل ذلك " لا يتعذر عليه إحداث ما شاء من الاشياء وإنشاء ما أراد من الأجسام والاعراض وإحياء من هلك من خلقه من بعد مماته وإعادته من بعد فنائه كهيئته التي كان عليها قبل فنائه كما فعل بالأرض الميتة التي أنزل عليها الماء فأنبتت الزرع المختلف الألوان بقدرته " (٢) .

فإنزال المطر من السماء ، ومشاهدة الأرض مخضرة بألوان من النباتات المختلفة لونا وجنسا بين عشية وضحاها آية متكررة بين العباد تدل دلالة واضحة على أنه لا بد من صانع حكيم وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن إهمال وتعطيل ولا دخل للطبيعة والصدفة التي يلهج بها الجاحدون للصانع الحكيم الذي دلت جميع المخلوقات على وحدانيته وألوهيته الحقة .

وقال شيخ الاسلام حول الآية السابقة : فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع والينابيع جمع ينبوع وهو منبع الماء كالعين والبئر فدل القرآن على أن ماء السماء تنبع منه الأرض والإعتبار يدل على ذلك فإنه إذا كثر ماء السماء كثرت الينابيع وإذا قل قلت .

وماء السماء ينزل من السحاب والله ينشئه من الهواء الذي في الجو وما يتصاعد من الأبخرة .

وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء ولا هذا أيضا معلوما بالإعتبار فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال ويكون فيها أبخرة يخلق منها الماء ، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل ماءا كما إذا أخذ إناء فوضع

---

١) جامع البيان ٢٣/٢٠٨ ، تفسير القرطبي ١٥/٢٤٦ ، تفسير ابن كثير٦/٨٦-٨٧ تفسير النسفي ٤/٥٤ .

٢) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٢٣/٢٠٨-٢٠٩ .

فيه ثلج فانه يبقى ما أحاط به ماء وهو هواء استحال ماء،وليس ذلك من ماء السماء فعلم أنه ممكن أن يكون في الارض ماء ليس من السماء فلا يجزم بأن جميع المياه من ماء السماء وإن كان غالبها من ماء السماء . أ.هـ[1] .

وعلى كل حال فالماء آية دالة على قدرة الله ولطفه سواء كان الماء النازل من السماء أو الماء النابع من الأرض فهو من الآيات الكونية التي نصبها الله للدلالة على الصانع الحكيم وقدرته التي تتسع لكل شيء .

وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك عمرت به الأرض بعد خرابها لدليل ساطع على قدرة الله ووحدانيته وفي إنزاله أيضا من السماء حكم عظيمة مترتب عليها الكثير من مصالح العباد قال العلامة ابن القيم :

" ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا اذا اجتمع في السفلي وكثر وفي ذلك فساد فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشيء سبحانه السحاب وهي روايا الأرض ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

وفي الموطأ مرفوعا وهو أحد الأحاديث الأربعة المقطوعة (إذا نشأت سحابة بحرية فتلك عين غديقة)[2] .

فالله سبحانه ينشيء الماء في السحاب إنشاء تارة بقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم

---

١) مجموع الفتاوى ١٦/١٦-١٧

٢) الموطأ ص/٩٥ .

إذا أخذت حاجتها منه وكان تتابعه عليها يضر بها أمسكه عنها وأتبعه بالصحو فجعل تعالى الصحو والغيم متعاقبين لما فيهما من المصالح الكثيرة لهـــذا العالم .

قال تعالى ((وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم))(١)

قال أبو جعفر ابن جرير يقول تعالى ذكره : وما من شيء من الأمطار إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر لكل أرض معلوم عندنا حده وبلغه " .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما من أرض أمطر من أرض ولكن اللـــه يقدره في الأرض "(٢)

فلو قدر الله بأن تعالت الأمطار لأهلكت كل ما على الارض ولو زاد نزول المطر على قدر حاجتها لفسدت الحبوب والثمار وتعفنت الزروع والخضروات فـــترخى الأبدان ويحتقن الهواء وتحصل ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل .

ولو قدَّر الله دوام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع ماء العيـــون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضرر واشتد الهواء فيبس ما على الأرض فيحدث عن ذلك ضروب من الأمراض عسرة الزوال ولكن حكمة اللطيف الخبير اقتضت بـــأن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كـــل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح .(٣)

والذي نخلص إليه مما تقدم أن إنزال البارى ـ سبحانه وتعالى ـ المطـــر ـ من السماء ليعم بسقيه كل أجزاء الأرض ثم تنبت الأرض على أثره الزروع المختلفة لونا وجنسا وطعما ورائحة لدليل واضح على أن وراء هذا الكون إلها قـــادرا حكيما يتصرف فيه كيف يشاء بيده الخلق والأمر سبحانه وتعالى .

---

١) سورة الحجـــر آية / ٢١

٢) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ١٨/٢٤ .

٣) مفتاح دار السعادة ٢٢٤/١ بتصرف .

٨ ـ تصرفه ـ تعالى ـ في شئون خلقه :

لقد دلت السورة على أنه تعالى المتصرف في شئون خلقه كلها من الحياة والموت ، ومن بسطه الرزق لمن يشاء ، وتضييقه عمن يشاء وأن بيده خزائن السموات والارض يفتح منها على من يشاء ويمسكها عمن يشاء من خلقه فله ـ سبحانه ـ التصرف المطلق في كل شيء في هذا الوجود وأن سواه لا يملك شيئا كائنا من كان .

قال تعالى ((الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون))

هذه الآية من السورة أقام الله فيها الدليل القاطع على قدرته الكاملة ، وعلى ربوبيته الشاملة لكل مخلوق ، فأخبر أنه يتوفى الأنفس ، ويمسك الأرواح ويحول بينها وبين أبدانها حيلولة نهائية عند ما يجيئها أجلها الذي قدره لها ، كما بين ـ تعالى ـ أنه يقبضها نوعا آخر من أنواع القبض حتى يكون اتصالها بالبدن اتصالا غير تام بحيث يذهب عنها تمييزها وينقطع تفكيرها وتعلقها وذلك في حالة نومها .

فأما النفس الأولى : التي قضى الله عليها الموت فإنها تقبض عن البدن قبضا نهائيا .

وأما النفس الثانية وهي : توفيت الوفاة الصغرى بأن كانت نائمة فيطلقها ربها ويرسلها للعودة إلى جسدها إلى حين يأتيها أجلها عند انقضاء المدة التي بقيت لها من عمرها ثم يتوفاها إليه .

ثم أوضحت الآية أن ذلك القبض ، والإرسال ، والإمساك والإطلاق فيه العبر والآيات والدلائل الواضحة لمن تفكر وتدبر بهدف الوصول إلى الحقيقة التي يدرك من خلالها الإدراك الصحيح أن الإله القادر على هذه الأمور المذكورة هو الذي يجب أن توجه له العبادة وأنه يخلص له الدين كله .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى حول الآية ((الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها)) الآية يقول تعالى ذكره : ومن الدلالة على أن الألوهة لله الواحد القهار خالصة دون كل ما سواه أنه يميت ويحيي ويفعل ما يشاء ولا يقدر على ذلك شيء سواه فجعل ذلك خبرا نبههم به على عظيم قدرته " أ.هـ [1]

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى حول هذه الآية " قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى عند المنام كما قال تعالى ((وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون)) وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون)) [2] . فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ولهذا قال - تبارك وتعالى - ((الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)) .... إلى أن قال " وقال بعض السلف يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله - تعالى - أن تتعارف ((فيمسك التي قضى عليها الموت)) التي قد ماتت ((ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)) قال السدي : إلى بقية أجلها ، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط " [3] .

وروى عن ابن عباس أيضا في هذه الآية أنه قال : " بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها " . وقال سعيد ابن جبير " إن الله يقبض أرواح

---

١) جامع البيان ٩/٢٤

٢) سورة الانعام آية /٦٠-٦١

٣) تفسير القرآن العظيم ٦/٩٥-٩٦ .

الاموات اذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ((فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى)) [1] أي : يعيدها .

وقال السدى : في قوله تعالى ((والتي لم تمت في منامها)) قال :يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي ، وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان قال : فترجع روح الحي إلى جسدها في الدنيا إلى بقية أجلها وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس " [2] .

وهذا البيان من هؤلاء الأئمة لمعنى الآية انما هو أحد القولين في هذه الاية وهو : أن المسكة من توفيت وفاة الموت أولا ، والمرسلة من توفيت وفاة النوم ، فيكون المعنى على هذا التفسير أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة ، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الكبرى ، وأما التفسير الثاني : في هذه الآية هو أن المسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفيتا وفاة نوم فمن استكملت أجلها الذي قدر لها أمسكها عنده فلا ترجع إلى جسدها ، ومن لم تستكمل الأجل المحدود لها ردها إلى جسدها لتستكمله ، وقد اختار هذا الوجه شيخ الإسلام ابن تيمية وقال : " وعلى هذا يدل الكتاب والسنة فإن الله ذكر امساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها بالنوم ،وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا إرسال فتلك قسم ثالث " أ.هـ [3]

أما تلميذه ابن القيم فقد جنح إلى ترجيح القول الأول وقال " لأنه -سبحانه- أخبر بوفاتين وفاة كبرى وهي وفاة الموت ، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم ، وقسم الأرواح قسمين :

قسما : قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاها وفاة الموت .

---

١) جامع البيان ٢٤/ ٩ ، الروح لابن القيم ص ٣٠-٣١

٢) جامع البيان ٢٤/ ٩ ،كتاب الروح لابن القيم ص ٣١ .

٣) مجموع الفتاوى ٥/ ٤٥٢-٤٥٣ ، شرح حديث النزول ص ٩٤ .

وقسما : لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها ، وجعل -سبحانه- الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولا فهذه ممسكة وهذه مرسلة ، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين ، وفاة موت ، ووفاة نوم لم يقل ((والتي لم تمت في منامها)) فإنها من حين قبضت ماتت وهو -سبحانه- قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول : بعد ذلك ((فيمسك التي قضى عليها الموت)) بعد أن توفاها وفاة النوم فهو -سبحانه- توفاها أولاً وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك .

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين فإنه -سبحانه- ذكر وفاتين وفاة نوم ووفاة موت وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى ومعلوم أنه -سبحانه- يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أم في اليقظة ، ويرسل نفس من لم يمت فقوله ((يتوفى الأنفس حين موتها)) يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام " (١) .

والذى يبدو أن القول الراجح هو ما قرره ابن القيم رحمه الله تعالى ولا ننسى أن نذكر أن الآية المتقدمة وهي قوله تعالى ((الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)) دلت على أن الروح محدثة لأنها وصفت بالوفاة ، والقبض والإمساك ، والإرسال وهذه الصفات من شأن المخلوق المحدث المربوب والمراد بالأنفس في الآية هي الأرواح قطعا لما رواه البخارى في صحيحه من حديث بلال (إن الله قبض أرواحكم حين شاء ورد ها حين شاء)(٢) فهذه الأرواح المقبوضة هي الأنفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها التي يتوفاها ملك الموت ، وهي التي تتوفاها رسل الرب -سبحانه- بإذنه

---

١) كتاب " الروح " لابن القيم ص ٣١-٣٢ .

٢) صحيح البخارى ١/١١٢ ، سنن النسائي ٢/١٠٦ ، الموطأ مع شرحه تنوير الحوالك ١/٣٥ .

وقضائه وحكمه وأمره ،[1]

وفي الآية أيضا " تنبيه على عظيم قدرته وانفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيي ويميت ، لا يقدر على ذلك سواه "[2] .

٩ - بسطه تعالى الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء :

قال تعالى ((أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون))

أقام الله تعالى في هذه الآية دليلا محسوسا وملموسا على ربوبيته يحسه العباد بحواسهم ، ويلمسونه بين ظهرانيهم ، ويشاهدون ذلك بأبصارهم فيوحدوه - سبحانه - ويفردوه بالعبادة ، وهذا الدليل هو أنه - سبحانه - الفعال لما يشاء بتوسيعه الرزق على من يشاء من عباده سواء كان صالحا أو غير صالح ، وبضيقه ، على من يريد من عباده سواء كان صالحا ، أو طالحا فرزقه - سبحانه - مشترك بين الخلق أجمعين ، أما الإيمان والعمل الصالح فيخص به أصلح البرية وهذا أمر ملحوظ في الدنيا ، كما أوضحت الآية أن فعله - تعالى - ذلك وتصرفه في العطاء ، والسعة ، والمنع والتضييق على من يشاء يحمل في طياته العبر ، والعظات والحكم البالغات للمؤمنين المنتفعين بالمواعظ والعبر لأنهم يعلمون أن مرد ذلك راجع إلى حكمته ورحمته - تعالى - وأنه العليم بحال عباده فقد يضيق عليهم الرزق لطفا بهم لأنه لو بسطه عليهم قد يحملهم ذلك على الفساد والبغي في الأرض ففعله - سبحانه - ذلك مراعاة لإصلاح دينهم الذي هو مصدر سعادتهم وفلاحهم .

قال : أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى حول هذه الآية "(يقول تعالى ذكره : أولم يعلم يا محمد هؤلاء الذين كشفنا عنهم ضرهم فقالوا : إنما أوتيناه على علم منا أن الشدة والرخاء ، والسعة ، والضيق ، والبلاء بيد الله

---

١) الروح لابن القيم ص ١٩٩-٢٠٠

٢) الجامع لاحكام القرآن ١٥/٢٦٣ .

د ون كل ما سواه يبسط الرزق لمن يشاء ، فيوسعه عليه ، ويقدر ذلك على من يشاء من عباده ، فيضيقه ، وأن ذلك من حجج الله على عباده ، ليعتبروا به ، ويتذكروا ، ويعلموا أن الرغبة إليه ، والرهبة د ون الآلهة ، والأنداد ((إن في ذلك لآيات)) يقول : إن في بسط الله الرزق لمن يشاء ، وتقتيره على من أراد لآيات : يعني د لالات ، وعلامات ((لقوم يؤمنون)) يعني يصد قون بالحق فيقرون إذا تبينوه وعلموا حقيقته أن الذي يفعل ذلك هو الله د ون كل ما سواه " أ . هـ (١) .

وقال أبو عبد الله القرطبي حول قوله تعالى في الآية السابقة ((إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)) خص المؤمن بالذكر لأنه هو الذى يتد بر الآيات وينتفع بها ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكراً واستد راجاً ، وتقتيره رفعة وإعظاماً " أ . هـ (٢)

وهذه الآية الآنفة الذكر من السورة لها نظائر في كتاب الله ورد ت بمعناها منها قوله تعالى ((من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون)) (٣) . فهذه الآية : بين الله تعالى فيها أنه الذي بيده قبض أرزاق العباد وبسطها د ون غيره ممن ادعى أهل الشرك أنهم آلهة واتخذوه ربا د ونه يعبد ونه ، وقد بين صلى الله عليه وسلم أن بسط الرزق وتضييقه عائد إلى فعل الرب - سبحانه - المتصرف في كل شيء قال أنس ابن مالك رضي الله عنه : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله غلا السعر فأسعر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله الباسط القابض الرازق وإني لأرجو أن ألقى الله ليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في د م ولا مال) (٤) فبين صلى الله عليه وسلم بقوله هذا أن - الغلاء والرخص ، والسعة والضيق بيد الله د ون غيره ، فما أنصع هذه الحجة وما أوضح هذا البرهان ، ولو أن الذين يحاولون أن يستد لوا على وحد انية

---

١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ١٣/٢٤ .
٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٧/١٥ ، فتح القد ير للشوكاني ٤٦٩/٤ .
٣) سورة البقرة آية ٢٤٥
٤) رواه أبو د اود بسننه ٣٨٨/٢ وابن ماجه ٧٤١/٢-٧٤٢ ، والترمذى في سننه وحسنة ٣٨٨/٢ .

الله ـ تعالى ـ بالأدلة التي كثيها علماء الكلام لجئوا إلى القرآن الكريم واقتبسوا من أدلته وأفادوا من حججه لوضح لهم السبيل ووصلوا إلى الحق من أقرب طريق .

وقال تعالى ((الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر))[1] .

وفي هذه الآية بين الله ـ تعالى ـ أنه هو الذي يوسع الرزق ، ويبسطه على من يشاء ويقدر ، ويضيقه على من يشاء فله ـ سبحانه ـ التصرف المطلق كيف يشاء وعلى ما يريده ـ جل وعلا ـ في جميع شئون خلقه .

وقال تعالى ((أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر))[2] . وهذه الآية أيضا أبانت بأن سعة الرزق وتضييقه كله فعل الله ـ تعالى ـ ومرده إليه لا إلى غيره .

وقال تعالى ((يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم))[3] . قال العلامة ابن جرير : يقول تعالى ذكره : " يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ، ويبسط له ، ويكثر ماله ويغنيه ((ويقدر)) يقول : ويقتر على من يشاء منهم فيضيقه ، ويفقره ((إنه بكل شيء عليم)) يقول : إن الله تبارك وتعالى بكل ما يفعل من توسيعه على من يوسع ، وتقتيره على من يقتر ، ومن الذي يصلحه البسط عليه في الرزق ، ويفسده من خلقه ، والذي يصلحه التقتير عليه ، ويفسده ، وغير ذلك من الأمور ، ذو علم لا يخفى عليه موضع البسط والتقتير وغيره ، من صلاح تدبير خلقه " أ.هـ[4] .

فلو تدبر أولئك القبوريون الذين يلتمسون الرزق من اصحاب القبور هذه الآيات وأمثالها لألزموا أنفسهم بالحياء ، وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له وعلموا أن الرزق بيده وحده ، فابتغوه عنده مخلصين له الدين وأقلعوا عن الشرك الذي امتلأت به قلوبهم وذلت به أنفسهم ولكن الشيطان سول لهم وأملى لهم

---

١) سورة الرعد آية / ٢٦ ٢) سورة الروم آية / ٣٧
٣) سورة الشورى آية / ١٢
٤) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٢٥ / ١٤ .

وفعل بهم كما فعل بأشياعهم من قبل لا قوة إلا بالله .

١٠- مقاليد السموات والأرض بيده - سبحانه - :

قال تعالى ((له مقاليد السموات والارض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون)) .

هذه الآية من السورة أوضحت أن من الدلائل على ربوبيته تعالى كون خزائن العالم كله علوية ، وسفلية بيده وحده دون غيره فمن خزائن السموات المطر ، ومن خزائن الأرض النبات وما يخرج منها من المعادن ، والمياه من آبار وعيون وغير ذلك من الأشياء مما اكتشف حاليا من مصادر الرزق والنعم التي لا تحصى كل ذلك بيد الله وتحت تصرفه ، وقدرته الشاملة لكل شيء فهو - سبحانه - المسيطر على جميع الكائنات ملكا وحفظا وتصرفا ، ومن هذه صفته فهو الجدير وحده بالعبادة دون سواه ، كما أوضحت الآية أن الكافرين بآيات الله التي تدل على الحق واليقين ، وعلى طريقة المستقيم هم الذين خسروا ما فيه صلاح قلوبهم من التعبد لله ، والإخلاص له ، وما به تصلح ألسنتهم من ذكره ، وما فيه صلاح الجوارح من الطاعة ، واستبدلوا بذلك الكفر بالله الذي هو مفسد لقلوبهم ، وأبدانهم كما خسروا جنات النعيم وتعوضوا عنها بالعذاب المقيم .

قال العلامة ابن جرير حول الآية : ((له مقاليد السموات والأرض)) الآية " يقول تعالى ذكره : له مفاتيح خزائن السموات والأرض ، يفتح منها على من يشاء ويمسكها عمن أحب من خلقه . قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : مقاليد السموات والأرض مفاتيحها وبه . قال قتادة ، وقال السدى ((له مقاليد السموات والأرض)) خزائن السموات والأرض " [1] .

قال ابن كثير : " والمعنى على كلا القولين أن أزمة الأمور بيده - تبارك وتعالى

---

١) جامع البيان ٢٤/٢٣ ، تفسير ابن كثير ٦/١٠٥

له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير " أ.هـ[1] .

وقد وردت آية أخرى مماثلة لهذه الاية التي معنا في السورة وهي قوله تعالى((له مقاليد السموات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم))[2] .

فهذه الآية إرشاد من الله تعالى لعباده بأن يفزعوا إلى من له مقاليد السموات والأرض الذى هذه صفته ، ويتوجهون إليه بالعبادة وإفراده بالطاعة فكأن الآية تقول : إلى الله أيها الناس فارغبوا وإياه فاعبدوا مخلصين له الدين واتركوا الأوثان والأولياء والآلهة والأصنام التي اتخذتموها آلهة من قبل أنفسكم دون حجة ولا برهان ولا تملك لكم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

وما دلك عليه آية الزمر من أنه - تعالى - مالك خزائن السموات والأرض أفصحت عن هذا المعنى آيات أخر مثل قوله تعالى ((ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون))[3] . ومثل قوله تعالى ((وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم))[4] قال العلامة ابن القيم : بعد أن ذكر قوله تعالى ((وإن من شيء إلا عندنا خزائنه)) متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا من خزائنه ، ومن مفاتيح تلك الخزائن بيده ، وإن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه ، وقوله تعالى ((وأن إلى ربك المنتهى))[5] متضمن لكنز عظيم ، وهو أن كل مراد إن لم يرد لاجله ويتصل به ، وإلا فهو مضمحل منقطع ، فإنه ليس إليه المنتهى ، وليس المنتهى إلا الى الذي انتهت إليه الأمور كلها ، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب ، وكل عمل لا يراد لأجله ، فهو ضائع وباطل وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي

---

١) تفسير ابن كثير ٦/١٠٥-١٠٦ .
٢) سورة الشورى آية /١٢ . ٣) سورة المنافقون آية /٧
٤) سورة الحجر آية /٢١ ٥) سورة النجم آية /٤٢

محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع ما يراد له كله في قوله ((وأن إلى ربك المنتهى)) فليس وراءه ـ سبحانه ـ غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى " أ.هـ(١) .

وكل ما قدمنا من الآيات التي أسلفناها من السورة وغيرها للإستدلال بها على توحيد الربوبية كلها على اختلاف أساليبها ، واختلاف موضوعاتها تلفت الأنظار إلى أن هذا الكون وما يحتويه لم يكن وليد المصادفة والإتفاق وإنما هو مخلوق عن علم عليم ، وقدرة قادر وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي كل ذلك آية على وجود الخالق الحكيم .

قال الشاعر :

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة في الورى شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد (٢)

---

١) الفوائد ص ١٩٦

٢) البيتان لأبي العتاهية أنظر ديوانه ص ٢٢٢ .

(المبحث الثالث)

إقرار المشركين الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم بوجود الله

لقد دلت سورة " الزمر " على أن مشركي العرب كانوا يعترفون بوجوده - سبحانه - وربوبيته لخلقه ، كما يؤمنون بأنه هو الذي أوجد العالم العلوي والسفلي ، وليس لآلهتهم من ذلك شيء .

قال تعالى ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون))

هذه الآية من السورة تضمنت إعتراف المشركين الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله هو الخالق لهذا العالم علويه وسفليه ، فقد بدأ الله هذه الآية بالقسم مخاطبا بذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه لو سأل هؤلاء المشركين العابدين لغير الله تعالى من الأوثان ، والأصنام عمن خلق السموات والارض ؟ لكان جوابهم جوابا حقيقيا صادقا نابعا من الفطرة التي فطر الله الناس عليها فيقولون : إن الخالق لهذه الكون هو الله - جل وعلا - كما تضمنت بيان عجز الآلهة التي يعبدونها عن أن تجلب لهم نفعا ، أو أن تدفع عنهم شرا ، وما دام الحال هكذا من أنه لا خالق لهذا الكون إلا الله - تعالى - وأن الآلهة التي يزعمونها من دون الله عاجزة عن جلب الخير ، أو دفع الشر ، فعبادتهم لها باطلة ويلزمهم أن يتوجهوا بالعبادة إلى الإله الحق الذي له القدرة على الخلق وجلب الخير ودفع الضرر ومن هذه صفته فهو المعبود بحق دون سواه .

قال ابن جرير : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض)) يقول تعالى ذكره : لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين العادلين بالله الأوثان والأصنام من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن الله .[1]

وقال ابن كثير : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله)) يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله -عز وجل- هو الخالق للاشياء كلها ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا . أ. هـ [2] .

فوجود الرب - سبحانه - وتعالى من الأمور البدهية الظاهرة للعقول والفطر ولو وجد بعض الملاحدة الذين يجاهرون بإنكار وجود - الرب سبحانه - بألسنتهم فذلك نتيجة العناد ، وإلا فإنه متقرر في فطرهم وعقولهم ما يكذب قولهم ذلك .

قال العلامة ابن القيم : ((وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - قدس الله روحه - يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ثم قال : ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما " أ. هـ [3] .

وأما قوله تعالى في الاية ((قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)) فهذا الشطر من الآية أمر الله فيه النبي صلى الله

---

١) جامع البيان ٢٤/٧ .

٢) تفسير ابن كثير ٦/٩٤ .

٣) مدارج السالكين ١/٦٠ .

عليه وسلم بأن يسأل هؤلاء المشركين عن معبوداتهم المتنوعة من الأوثان والأصنام التي يتوجهون إليها بالعبادة دون الله تعالى هل لديها القدرة في الحيلولة دون مراد الله تعالى ؟ وهل في استطاعتها أن تدفع عنه البلاء إن أراد الله إنزاله ؟ وهل في إمكانها أن تمنع عنه رحمة الله تعالى التي يريد أن يتفضل بها عليه فيمنحه إياها ؟ . ولو أنصفوا من أنفسهم وتجردوا لقول الحق لكان ردهم كلا لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا راد لما يريده - سبحانه - وقد أجاب البعض منهم بأن آلهتهم المزعومة لا تستطيع شيئا من ذلك وإنما يعبدونها لتقربهم إليه زلفى .

قال مقاتل فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم فسكتوا .

وقال غيره : قالوا : لا تدفع شيئا قدّره الله ولكنها تشفع "[1] .

وهذه حجة واهية آلت إليهم عن طريق الإلف والعادة المتوارثة عن أسلافهم .

قال أبو جعفر ابن جرير عند قوله تعالى : ((قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته)) " فقل : أفرأيتم أيها القوم هذا الذى تعبدون من دون الله من الأصنام والآلهة ((إن أرادني بضر)) يقول : بشدة في معيشتي وكثرة مالي ، ورخاء ، وعافية في بدني هل هن ممسكات عني ما أراد أن يصيبني به من تلك الرحمة ؟ وترك الجواب لاستغناء السامع بمعرفة ذلك ، ودلالة ما ظهر من الكلام عليه ، والمعنى : فإنهم سيقولون لا ، فقل حسبي الله مما سواه من الأشياء كلها إياه أعبد ، وإليه أفزع في أموري دون كل شيء سواه فانه الكافي وبيده الضر والنفع لا إلى الأصنام والأوثان التي لا تضر ، ولا تنفع "أ.هـ [2]

١) الجامع لاحكام القرآن ١٥/٢٥٩ ٢) جامع البيان ٢٤/٧ .

فالآية تضمنت اعتراف المشركين الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله - تعالى - هو الخالق للكون وحده دون سواه ، كما تضمنت بيان عجز الآلهة التي يعبدونها عن أن تجلب لهم نفعا ، أو أن تدفع عنهم شرا ، وورد هذا كثير في القرآن الكريم ، فقد كانوا أيضا يعترفون بأن الله تعالى هو الرزاق النافع ، الضار ، ومع ذلك يعبدون غيره معه .

قال تعالى ((قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون)) [1] . هذه الاية استجوبت المشركين عن أمور أربعة :

الأمر الأول : عن سبب الأرزاق في السموات والأرض لأنها إنما تحصل الارزاق من السماء والأرض ، أما السماء فبإنزال الأمطار ، كما قال تعالى ((واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون)) [2] .

وأما الرزق من الارض ففيما أودع الله فيها من منافع مادية وأبرزها الغذاء سواء أكان نابتا منها أو ما أوجد الله على ظهرها من الحيوان .

الأمر الثاني : أحوال الحواس ومن أشرفها وأظهرها وأشدها ضرورة وأعجبها خلقا السمع والبصر ولهذا خصت بالذكر .

الأمر الثالث : أحوال الموت والحياة من إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ومعنى إخراج (الحي من الميت) إخراج الإنسان من النطفة والطائر من البيضة وإخراج (الميت من الحي) إخراج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر .

---

١) سورة يونس آية ٣١/ ٢) سورة الجاثية آية ٥/

وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في تفسيره أعم من هذا ، إذ قال : عند قوله تعالى ((ومن يخرج الحي من الميت))قال :" أي النبات من الأرض ،والإنسان من النطفة والسنبلة من الحبة ، والطير من البيضة ؛ والمؤمن من الكافر"[1] وهذا التعميم أولى لشموله الحياة النباتية ؛ والحياة الحيوانية ، وقد نبه القرآن إلى هذا بقوله تعالى (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون))[2] .

ويمكن أن يلحق بهذا المعنى آخر قريب لم أر من ذكره من المفسرين في كتب التفسير التي اطلعت عليها وقد يكون ذكره بعضهم ولم أطلع عليه ، وهو أن الجنين قد يخرج من بطن أمه التي تصحبها الحياة ، وقد يخرج الجنين حيا من بطن أمه بعد موتها بواسطة عملية جراحية ، فإنه داخل في عموم الآية .

الأمر الرابع : قوله تعالى في نهاية الآية : ((ومن يدبر الأمر فسيقولون الله)) هذه الجملة من الآية من باب عطف العام على الخاص لأن أنواع التدبير في هذا العالم لا نهاية لها فهناك تدبير في العالم العلوي ، وتدبير في العالم السفلي ولهذا جاءت الجملة بلفظ كلي عام يشمل تدبير الكون بما فيه .

فلقد استجوب القرآن الكريم أولئك المشركين عن الأمور الأربعة المتقدمة ، والهدف منها إلزامهم بما يستلزم اعترافهم ، وبما فطرت عليه النفوس البشرية جمعاء من الإيمان بربوبية الله تعالى وذلك مسلم عندهم فطرة وعقلا وضرورة فيلزمهم أن يفردوه بالعبادة دون سواه .

---

١) الجامع لاحكام القرآن ٨/٣٣٥

٢) سورة الانعام آية /٩٥ .

يسلبهم اياه فلا أعجز من هذه الآلهة ، ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله تعالى ، وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله - سبحانه - في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم " أ. هـ[1] فهذا المثل كان بحق دليلا في منتهى القوة حيث أثبت بطريقة حسية بطلان الوثنية وأقام الحجة على إظهار الوحدانية .

ومن الأمثال التي ضربها الله - تعالى - لبيان ضعف آلهتهم وبطلان عبادتها قوله تعالى ((مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون))[2] بين الله تعالى أنهم ضعفاء وإن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الاولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا وهو أوهن البيوت وأضعفها وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا ممن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا كما قال تعالى ((واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا))[3] وقال تعالى ((واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون))[4] وقال - سبحانه - بعد أن ذكر هلاك الأمم الماضية من المشركين ((وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب))[5] فهذه أربع آيات من آيات القرآن الكثيرة الدالة على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكثر به لم يحصل له إلا ضد مقصوده ولو علم المشركون ضعف آلهتهم ، كما

---

١) أعلام الموقعين ١/ ١٨١-١٨٢ ، الأمثال في القرآن الكريم ص ٢٤٧-٢٤٨

٢) سورة العنكبوت آية ٤١/ ٣) سورة مريم آية ٨١/-٨٢

٤) سورة يس آية ٧٤-٧٥ ٥) سورة هود آية ١٠١/

يعلمون ضعف بيت العنكبوت لما اتخذوهم أولياء فالذي كانوا يلتمسونه منها من قوة وعزة ونصر يكون بعكس ما يظنون "[1] . وهو ما جاء في تأكيد اعترافهم بضعف آلهتهم حديث عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحصين : (كم إلها تعبد قال سبعة ، ستة في الأرض ، وواحد في السماء قال من لرهبتك ورغبتك ؟ قال الذى في السماء قال : فاترك الستة واعبد الذي في السماء وأنا أعلمك دعوتين ، فأسلم وعلمه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي)[2] .

ومن ذلك أيضا ما ورد في تلبية بعض مشركي العرب إذا أهلوا (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)[3] .

وقد جاء في أشعارهم ما يدل على أن عبادتهم للأصنام لم تكن عميقة في قرارات أنفسهم لأنهم كانوا يدركون عدم جدواها ونفعها . وقد ذكر ابن كثير في كتابه " البداية " أن صنما يقال له سعد : وكان صخرة طويلة فأقبل عليه رجل من كنانة بإبل له لقصد التبرك به فلما أدناها منه نفرت وكان يهراق عليه الدماء فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه ، فأسف عليها فأخذ حجرا ورماه به وقال : لا بارك الله فيك إلها أنفرت علي إبلي ، ثم سار في طلبها فجمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد[4]

---

١) اعلام الموقعين ١ / ١٥٤ - ١٥٥

٢) سنن الترمذى ٥ / ١٨٢ .

٣) صحيح مسلم ٢ / ٨٤٣ .

٤) البداية والنهاية ٢ / ٢٠٩ .

وقال بعض المشركين حين وجد الثعلبان يبول على رأس صنمه :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب[1]

وكذلك قصة عمرو بن الجموح فقد كان له صنم وكان بعض الفتيان ممن أسلم وشهد العقبة كانوا يأتونه ليلا فيلقونه في حفر بني سلمة وفيها عذرة الناس منكسا على رأسه فيطلبه فيغسله ويطيبه ثم يقول له : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه فإذا نام وأسى عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى . فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه ، ففسله وطهره وطيّبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ؟ فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك ، فلما أسى ونام عمرو عدوا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة ، فيها عذر من عذر الناس ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به ، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه ، وكلمه من أسلم من رجال قومه ، فأسلم وحسن إسلامه . فقال : بعد إسلامه ومعرفته لله متذكرا صنمه شاكرا لله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرن
أف لطلقاك إلها ستة ن الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلي فله المنن الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبر مرتهن
بأحمد المهدي النبي المؤتمن[2]

---

١) أنظر القاموس ١ / ٤٢ ، لسان العرب ١ / ٣٣٧ ، الأصنام لابن الكلبي ص ٤٧

٢) سيرة ابن هشام ١ / ٤٥٢-٤٥٣ ، الإصابة ٢ / ٥٢٢-٥٢٣ . والشطر الأخير في هذين المصدرين " بأحمد المهدي النبي المرتهن " ولعل ذلك تحريف .

وهناك قصص أخرى كثيرة تدل على عدم إيمان بعض عباد الأوثان الإيمان الكامل بأوثانهم ويعلمون قطعا أنها لا تنفع ولا تضر ، ولذلك عند ما نزل القرآن شنّع عليهم عباد تهم لها وكان من أساليب القرآن معهم أنه كان يقررهم بما لا مجال لإنكاره لأن إلزام الخصم بما يسلّم به من أبلغ الطرق الجدلية ، لأنه إذا سلّم بالمقدمة فقد ألزم بالنتيجة سواء التزم بذلك أو لم يلتزم ، ولذلك كان القرآن يحتج عليهم بحجة لا بد للمعقول من الإقرار بها ، ولا يجوز للعقل السليم رفضها ، قال تعالى ((أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون))[1] . فالآية تقول لهم أنتم موجودون وهذه حقيقة لا تنكرونها وكذلك السموات والأرض موجودة كذلك ولا شك ، والذي تقرر عقلا أن الموجود لا بد له من سبب لوجوده لأن العدم لا يوجد شيئا هذا أمر مقرر في بدائه العقول ، ولان الشيء لا يوجد نفسه . فقوله تعالى ((أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)) دليل قاطع يرغم العقلاء على التسليم بأن هناك خالقا معبودا ، إلا أن الآية صاغته بأسلوب مؤثر فلا تكاد الآية تلمس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها .

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقرأ - في المغرب - بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ((أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون)) كاد قلبي يطير)[2] قال شيخ الإسلام : تعقيبا على هذا الحديث " وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها يقول : ((أم خلقو من غير شيء ؟!))

---

١) سورة الطور آية ٣٥-٣٦

٢) ٢ / ١٩٣ .

أى من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم ؟! وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل ، فتعين أن لهم خالقا خلقهم - سبحانه وتعالى - [1]

وقال أبو سليمان [2] الخطابي : معلقا على قصة جبير بن مطعم " إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة فاستدركها بلطف طبعه واستشق معناها بزكي فهمه .... واختار الخطابي في معنى ((أم خلقوا من غير شيء)) فوجدوا بلا خالق ، وذلك مالا يجوز أن يكون لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الأمر فلابد له من خالق فإذ قد أنكروا الإله الخالق ، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم ، أفهم الخالقون ؟ لأنفسهم ؟ وذلك في الفساد أكثر وفي الباطل أشد ، لان مالا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفا بالقدرة ؟ وكيف يخلق ؟ وكيف يتأتى منه الفعل ؟ وإذا بطل الوجهان معًا قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا ، فليؤمنوا به . ثم قال سبحانه ((أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون)) وذلك شيء لا يمكنهم أن يدعوه بوجه فهم منقطعون ، والحجة قائمة عليهم " أ . هـ [3] .

وهذا الذي قرره الله في هذه الآيات لا يمكن الكفار أن يدعوه ، والفائدة من ذكره والسؤال عنه قطع الحجاج والخصام ، إذ قد يوجد جاحد مكابر يقول : أنا

---

١) مجموع الفتاوى ٥ / ٣٥٩ ، وانظر شرح حديث النزول ص ٢٨ .

٢) هو : حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي البستي أبو سليمان فقيه ، محدث من أهل " بست " من بلاد " كابل " من نسل زيد بن الخطاب ولد سنة تسع عشرة وثلاثمائه ، وتوفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائه هجرية أنظر ترجمته في " وفيات الاعيان ١ / ١٦٦ خزانة الادب ١ / ٢٨٢ الاعلام للزركلي ٢ / ٣٠٤ .

٣) ذكره عنه البيهقي في كتابه " الاسماء والصفات " ص ٤٩٥-٤٩٦ .

خلقت نفسي " كما زعم شيل له من قبل أنه يحيي ويميت ((ألم تر إلى الـــذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت)) . وكان الجواب عليه سؤالا آخر أبان عجزه وكذبه فـــي زعمه الأول ((قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب)) فكانت النتيجة ((فبهت الذي كفر والله لا يهدى القوم الظالمين))[1] .

فإذا كان العدم لا يوجد سماءا ولا أرضا ، وإذا كانت السماء والأرض لم توجدا نفسيهما ، وإذا كان الملاحدة لا يستطيعون ادعاء ذلك كله فإنه لابد لهذا كلـه من موجد وهذا الموجد ليس إلا الله تعالى ، قال تعالى ((أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماءا فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلـه مع الله بل هم قوم يعدلون))[2] .

هـذه الآية وجهت سؤالا مستمدا من واقع هذا الكون الذي من حول الناس والذى يشاهدونه ، ويلمسونه ، ويتمتعون بخيراته فإطلاق السمع ، والبصر ، والفؤاد في السموات التي ترى وفي الأرض التي يعيش عليها الإنسان ، وما فيها مـــن الحدائق الفنية بالأشجار ، والأزهار والثمار والفرش منها بائن وواضح لأن هذا التناسق البديع لا يعقل أن يكون فلتة أو طرفة ، أو صدفة ، ولا يعقـل أن يكون رمية بدون رام ، وخاصة لم تدَّعِ الصدفة ، ولا الأصنام ، ولا أية جدلية أنها خلقته وأبدعته ، .

ومما قدمنا من الآيات وبعض الأحاديث وما ذكرنا أيضا من بعض أقـوال مشركي العرب يتبين أن الإقرار بالصانع أمر فطرى مركوز في كل نفس ولهذا

---

١) سورة البقرة آية ٢٥٨ ٢) سورة النمل آية ٦٠

٥) سورة النحل آية /١٧ .

وحده ، بل هو الحجة عليهم كما بين ذلك ـ سبحانه ـ في كتابه الكريم في عدة مواضع ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أ.هـ[1]

وقال شارح الطحاوية : بعد أن ذكر تعريف توحيد الربوبية ، " وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية ، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم ((أفي الله شك فاطر السموات والأرض)) ؟ [2]

---

١) إغاثة اللهفان ١ / ٣٠

٢) شرح الطحاوية ص ٧٠ والاية رقم (١٠) من سورة ابراهيم .

المبحث الرابع

الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية

تظهر أهمية الإقرار بتوحيد الربوبية في أنه مقدمة لنتيجة ، فإذا أقر العبد أن الله سبحانه وتعالى هو الرب المتفرد بالربوبية وخصائصها ، استلزم ذلك حتما أن ينتج عن إقراره هذا إقرار آخر بتفرد الرب جل وعلا في ألوهيته فيجرد له العبادات كلها ، ولا يصرف منها شيئا لغير الله تعالى إذ أنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان ربا ، سيدا ، خالقا ، بارئا ، مصورا ، مالكا رازقا ، معطيا ، مانعا ، محييا ، مميتا ، مدبرا لأمر الكون كله ، وذلك كله لا يثبت إلا لله وحده لا شريك له ، فوجب أن يكون هو المعبود وحده ، الذي لا يصح أن يكون لأحد من خلقه شركة معه في أي شيء من العبادات على اختلاف صورها .

ولهذا جرت الطريقة في كتاب الله الكريم على سوق آيات الربوبية ، ثم الخلوص منها إلى الدعوة إلى توحيد الألوهية فيجعل توحيد الربوبية مدخلا لتوحيد العبادة للإله . الذي لا يستحقها بأنواعها جميعا سواه "(١) .

وأما توحيد الالوهية : فهو متضمن لتوحيد الربوبية ، بمعنى أن توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الألوهية فإن من عبد الله وحده لم يشرك به شيئا لا بد أن يكون قد اعتقد أن الله هو ربه ومالكه الذي لا رب له غيره ولا مالك له سواه فهو يعبده لاعتقاده أن أمره كله بيده ، وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه وأن كل ما يدعى من دونه فهو لا يملك لعابديه ضرا ، ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

ولا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية ، كما لا ينفع توحيد الألوهية

---

١) أنظر كتاب " صيانة الإنسان عن وسوسة " الشيخ دحلان ـ ص ٤٣٧-٤٥١ .

يتبين توحيد الربوبية فإن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئا في عبـــادته ، ولكنه اعتقد مع ذلك أن لغير الله تأثيرا في شيء ، أو قدرة على مالا يقـــدر عليه إلا الله ، أو أنه يملك ضر العباد ، أو نفعهم ، ونحو ذلك فهذا لا تصـــح له عبادة لأن أساس العبادة التي تبنى عليه هو الإيمان بالله ربا متفـــــردا بخصائص الربوبيـة جميعـا .

وأما توحيد الأسماء والصفات فإنه شامل للنوعين فهو يقوم على إفراد الله - تعالى - بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي لا تنبغي إلا لـه ، ومن جملتها كونـه ربـا واحدا لا شريك له في ربوبيته وقد كان المشركون الأولـــون مقريـن بتوحيد الربوبية ولكـن إقرارهم هذا لم ينفعهم شيئا ، ولم يخرجهم مـــن كفرهـم وشـركهم ولم يصبحوا بهذا الإقرار موحدين لله - جل وعلا - "[1]

وقد كانوا أيضا: مع اقرارهم ذلك يعبدون الله ويخلصون له ذلك أنواعا من العبادات كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الإضطرار .

قال تعالى ((وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الديـــن فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور))[2] .

وكانوا يدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام . فأنزل الله تعالى ((ما كـان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركـين))[3]

وكان البعض منهم يؤمن بالبعث والحساب وبعضهم يؤمن بالقدر .

قال زهير بن أبي سلمى :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم[4]

---

١) شرح الطحاوية ص ٧٩-٨٤ بتصرف . وراجع " تيسير العزيز الحميد " ص ١٧ - ٢٠ ، وانظر " كتاب صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان " صفحـــة ٤٣٧ - ٤٥١ .

٢) سورة لقمان آية / ٣٢ ٣-) سورة آل عمران آية / ٦٧

٤) المعلقات السبع مع شرحها ص ٧٥

---

١) ديوان عنترة ص ٧٤

٢) سورة ص آية / ٤-٧

٣) صحيح مسلم ١ / ٥٢ ورواه البخاري من حديث ابن عمر ١ / ١٣ .

أما قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة (وحسابهم على الله)[1] أي أن الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حساب الذي يقول كلمة التوحيد بلسانه فقط فإن كان صادقا في قوله جازاه بجنات النعيم وإن كان يقولها نفاقا فله من الله العذاب الأليم .

وأما في الدنيا فيحكم له بالظاهر فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما يناقضه ظاهرا والتزم بشرائع الإسلام وجب الكف عنه .

والذي نخلص إليه مما تقدم أن الإقتصار على الإقرار بتوحيد الربوبية لا أثر له في عصمة المال والدم .

( ) تقدم تخريجه قريبا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الفصل الرابع

ـ الفصل الرابع ـ

ماجاء في السورة بشأن الشرك

ويشتمل على المباحث الآتيـــــة :

المبحث الاول : تعريف الشرك .

المبحث الثاني : أنواع الشـــرك .

المبحث الثالث : أصل الشرك في بني الانسان .

المبحث الرابع : ذم الانسان على جعله أندادا لله تعالى .

المبحث الخامس : الفرق بين الشرك والموحد .

المبحث السادس : التحذير من الشرك وبيان أنه محبط للعمل .

(المبحث الأول)

تعريف الشرك في اللغة والإصطلاح : ـ

تبين مما تقدم في الفصول السابقة أن سورة (الزمر) تناولت أنواع التوحيد الثلاثة ، وقد تقدم الحد يشعر عنها في الفصول الثلاثة المتقدمة ثم تعرضت للشرك الذي هو أعظم ذنب عصي الله به في الأرض ولقد الحديث في السورة حول الشرك عن بيان أصل الشرك في بني الانسان ثم عرضت لذم الإنسان على جعله أندادا لله تعالى ، ثم جاء البيان فيها للفرق بين المشرك والموحد ، ثم ختم الحد يشعر عنها عن الشرك بالتحذير منه ، وبيان أنه محبط للعمل ، وسنتحدث عن هذه الأمور بطريقة مفصلة في المباحث التي ستأتي بعد تعريف الشرك في اللغة ، والإصطلاح ، وبيان أنواعه فنقول :

الشرك في اللغة :

جاء في مقاييس اللغة : أن مادة (الشرك) المكونة من حرف (الشين والراء والكاف) لها أصلان :

أحدهما : يدل على مقارنة وخلاف انفراد ، والآخر يدل على امتداد واستقامة فالأول : الشركة وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما ويقال : شاركت فلانا في الشيء اذا صرت شريكه ، وأشركت فلانا إذا جعلته شريكا لك قال تعالى (وأشركه في أمري) (١) ويقال في الدعاء اللهم أشركنا في دعاء المؤمنين أي : اجعلنا لهم شركاء في ذلك .

وأما الثاني : فالشرك : لقم الطريق ، وهو شراكه أيضا ، وشرك النعل مشبه بهذا ، ومنه شراك الصائد سمي بذلك لامتداده) (٢)

---

١) سورة (طه) آية / ٣٢
٢) مقاييس اللغة : ٣/ ٢٦٥

وقال في اللسان : (الشركه والشركة سر) مخالطة الشريكين يقال : اشتركنا بمعنى : تشاركنا ، وقد اشترك الرجلان وتشاركا ، وشارك أحدهما الآخر والشريك المشارك ، والشرك كالشريك ، والجمع أشراك وشركاء) (١) وجاء في تهذيب اللغة : (الشرك بمعنى الشريك وهو بمعنى النصيب وجمعه أشراك كشبر وأشبار) أهـ (٢)

وفي اللسان : (وطريق مشترك : يستوى فيه الناس ، واسم مشترك تستوى فيه معان كثيرة) (٣)

وقال في الصحاح : (والشرك أيضا : الكفر ، وقد أشرك فلان بالله فهو مشرك ومشركي) أ ٠ هـ (٤)

وجاء في تاج العروس : مبينا قوله تعالى (والذين هم به مشركون) (٥) ومعناه : الذين صاروا مشركين بطاعتهم الشيطان وليس المعنى أنهم آمنوا بالله ثم شركوا بالشيطان ، ولكن عبدوا الله وعبدوا معه الشيطان فصاروا بذلك مشركين فهو مشرك ومشركي) (٦) ،

وزاد في اللسان (مثل الشرك في الجاهليه وهو تلبيتهم حول الكعبة لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك (يعنون بالشريك الصنم) أ، هـ (٧)

وفي تهذيب باللغة : قال الليث ، شرك الصائد : حبائل الصيد ، وكذلك ما ينصب للطير) وفي الحديث : أعوذ بك من شر الشيطان وشركه (٨)

أي : حبائله ومصائده ، يعني ما يدعو اليه ، ويوسوس به من الإشراك بالله تعالى) (٩)

---

١) لسان العرب ١٠/ ٤٤٨

٢) ١٠/ ١٧ تاج العروس ٧/ ١٤٨ ، لسان العرب ١٠/ ٤٤٩

٣) ١٠/ ٤٤٩

٤) ٤/ ١٥٩٣

٥) سورة النحل آية / ١٠٠

٦) ١٤٨/٧

٧) ١٠/ ٤٥٠

٨) رواه الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة ٥/ ١٣٤ والدارمي في سننه ٢/ ٢٩٢

٩) تهذيب اللغة ١٠ / ١٨ تاج العروس ٧ / ١٤٩ ، لسان العرب ١٠/ ٤٥٠

ومما تقدم يتبين أن مدلول كلمة (الشرك) تطلق على النصيب والتسوية، والمخالطة والمصاحبة ، والكفر، وحبائل الصيد والشبكة ، والقاعدة المتبعة في اللغة العربية أن الكلمات ذات المادة الواحدة ، يكون فيما بينها ترابط وثيق واذا تأملنا المدلولات السابقه لكلمة (الشرك) نلمس الترابط الواضح فيما بينها ،

فالشرك أن يجعله غير الله مشاركا له فيما هو من خالص حقه على عباده ، ومن فعل هذا فقد سوى بين الله وبين من أشركه معه في العبادة بمعنى أنه اتخذ الها آخر مع الله لانه قصد غير الله بشيء من العبادة فجعله شريكا لله في عبادته بقدر كبير ، أو صغير في ذات أو وصف)

وأما تعريف الشرك في الاصطلاح :

فقد تنوعت عبارات العلماء في تحديده ، وعلى الرغم من تنوعها فان كل عبارة منها تكمل الأخرى .

فبعض أئمة اللغة جعله بمعنى الكفر .

قال صاحب القاموس : (وأشرك بالله كفر) اهـ (١)

وجاء في تهذيب اللغة (الشرك أن تجعل لله شريكا في ربوبيته تعالى الله عن الشركاء والأنداد) اهـ (٢)

وقال الراغب : (وشرك لانسان نوعان :

أحدهما : الشرك العظيم ، وهو اثبات شريك لله تعالى يقال : أشرك فلان بالله وذلك أعظم كفر قال تعالى (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلا لا بعيدا (٣)

---

١) ٣/ ٣١٨

٢) ١٠/ ١٦

٣) سورة النساء ١١٦

وقال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١)

والثاني : الشرك الأصغر وهو : مراعاة غير الله في بعض الأمور وهو الرياء قال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) (٢)

فتعريف الشرك في الاصطلاح : هو ضد التوحيد كالكفر ضد الايمان وهو أن يجعل الانسان لله شريكا فيما هو من خالص حقه - سبحانه - مثل أن يتخذ الها ، أو آلهة يعبدها أو يطيعها ، أو يستعين بها ، أو يحبها ، أو نحو ذلك مما لا يستحقه الا الرب جل وعلا - فمن صدر منه هذا الاعتقاد فقد أشرك بالله العظيم وحبط عمله ، ولا يصلح مع الشرك أي عمل اذ من شرط قبول العمل عند الله تعالى أن يكون خالصا لوجهه الكريم ليس لغيره فيه حظ ولا نصيب) (٣)

---

١) سورة النساء آية / ٤٨

٢) المفردات في غريب القرآن ص ٢٥٩ - ٢٦٠ والاية رقم (١٠٦) من سورة يوسف

٣) أنظر تجريد التوحيد للمقريزي ص٢٧ - ٢٨ ، تيسير العزيز الحميد ص ٢٧ ، (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد) ٢/ ٢٦٦

المبحث الثاني

أنواع الشرك

والشرك الذي هو أعظم ذنب عصي الله به على هذه الأرض ذكر العلماء أنه ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الشرك الأكبر.

النوع الثاني: شرك أصغر

النوع الثالث: شرك خفي (١).

ولخطورة الشرك على عمل الانسان المسلم: يتحتم عليه أن يعرف حقيقة هذه الأنواع الثلاثة حتى لا يقع فيها من حيث لا يشعر وسأتحدث في هذا المبحث عن بيان حقيقة هذه الأنواع باختصار.

تعريف الشرك الأكبر:

لقد اختلفت تعريفات العلماء للشرك الأكبر لفظا، واتحد تمعنى ومدلولا.

قال العلامة ابن القيم: مبينا حقيقة الشرك الأكبر (هو أن يتخذ من دون الله ندا يحبه كما يحب الله وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين) (٢)

وقال رحمه الله في تعريف آخر (هو تشبيه المخلوق بالله وتشبيهه بغيره) (٣)

وقال المقريزي (٤) رحمه الله تعالى (أعلم أن حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالمخلوق وتشبيه المخلوق بالخالق أما الخالق فان المشرك شبه المخلوق بالخالق في خصائص الالهية وهي التفرد بملك الضر، والنفع والعطاء، والمنع فمن علق

---

(١) أنظر الرسالة الأولى ضمن مجموعة التوحيد لشيخ الاسلام ابن تيمية

(٢) والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهما من العلماء

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٣٦

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ١٥١ اغاثة اللهفان ٢/ ٢٢٦

(٤) هو الامام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفي سنة أربع وخمسين وثمانمائة هجرية

ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى وسوى بين التراب ، ورب الأرباب فأى فجور وذنب أعظم من هذا ..... هذا في جانب التشبيه وأما في جانب التشبيه فمن تعاظم ، وتكبر ودعا الناس الى اطرائه ورجائه ومخافته فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وهوحقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله عزوجل العظمة والكبرياء ردائي فمن نازعنى في واحد منهما عذبته)أهـ(١)

وقال الامام الذهبي معرفا للشرك الأكبر : (هو أن يجعل لله ندا ويعبد معه غيره من حجر ، أو شجر ، أو شمس ، أو قمر ، أو نبي ، أو شيخ ، أو نجم ، أو ملك أوغير ذلك وهذا هوالشرك الأكبر) أ . هـ (٢)

وجاء في تيسير العزيز الحميد : (هو أن يجعل لله ندا يدعوه كما يدعو الله ويسأله الشفاعة كما يسأل الله ، ويرجوه كما يرجو الله ويحبه كما يحب الله ويخشاه كما يخشي الله، وبالجملة فهو أن يجعل لله ندا يعبده كما يعبد الله) أ.هـ (٣)

والذى يتبين من هذه التعاريف المتقدمة للشرك الأكبر أن معنى الشرك الأكبر هو جعل الانسان لربه ـ تعالى ـ مثيلا أوكفؤا أو نظيرا ، أوعديلا ، يتوجه اليه بالعبادة كما كان عليه أهل الجاهلية من المشركين مع أصنامهم ، وأوثانهم التى اتخذوها من الأحجار والأشجار فصرفوا لها العبادة التى لا يستحقها الا الله ـ تعالى ـ من دعاء ، ونذر وذبح وغير ذلك من أنواع العبادات .

وهذا ما عليه القبوريون حاليا فانهم يتوجهون الى الموتى من أهل القبور وينادونهم ويهتفون بهم ويستعينون بهم ويستغيثون ، ويقربون لهم القرابين والنذور بصنوف الأموال ، ويطلبون منهم الشفاعة، وشفاء المرضى وغير ذلك مما لا يقدر عليه الا الله ـ تعالى ـ وتجدهم يشدون اليهم الرحال ويحملون الزاد من البلدان والأقطار البعيدة .

---

(١) تجريد التوحيد ص ٢٧ ـ ٢٨ والحديث رواه مسلم بلفظ(العز ازاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعنى عذبته) ٤/ ٢٠٢٣

(٢) الكبائر ص ٨

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢٧

وكما تبين مما تقدم أن من الشرك بالله تشبيهه بخلقه كقولهم : يد الله كيد المخلوق، وعينه كعينه الى غير ذلك من أباطيل أهل الزيغ الذين يحاولون إخضاع النصوص لأهوائهم ، ولا يخضعون أهواءهم لها . وكذلك تشبيه المخلوق بالخالق كما زعم فرعون لقومه أنه ربهم الأعلى وكما فعلت السبئية (١) مع علي رضي الله عنه وكما شبه بعض الزائغين من الناس الحاكم العبيدى بأنه اله وأنه مشرع وأن حكمه خير من حكم الله تعالى (٢)

أنواع الشرك الأكبر:

لقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية أن الشرك الأكبر نوعان :

النوع الأول : شرك في الإلهية .

النوع الثاني : شرك في الربوبية ،

قال رحمه الله - تعالى - (ان كان شركا يكفر به صاحبه وهو نوعان :

شرك في الإلهية ، وشرك في الربوبية ،

فأما الشرك في الالهية : فهو أن يجعل لله ندا - أي - : مثلا في عبادته أو محبته، أو خوفه ، أو رجائه ، أو انابته فهذا هو الشرك الذي لا يغفر الله الا بالتوبة منه قال - تعالى - (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) " ٣"

---

١) هم أتباع عبد الله بن سبأ الضال المضل الذي رام افساد دين الإسلام بمكره وكيده الآثيم حيث دعا الناس الى القول بنبوة علي ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك فزعم أنه إله وقد وجد بعضهم في زمن علي وقالوا فيه هذا القول فأمر باحراقهم أنظر في شأن هذه الفرقة المارقة (الفرق بين الفرق) ص٢٣٣ والتبصير في الدين ص/٧١ والملل والنحل ١/ ١٧٤ ومقالات الاسلاميين ١/ ٨٦

٢) كما يعتقد ذلك طائفة الدروز في الحاكم العبيدي منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز بالله العبيدى الثالث من الخلفاء العبيديين المغاربة الذين تغلبوا على مصر فقد ادعى هذ العبيدى الألوهية تأسيا بفرعون ، وقتل من العلماء مالا يحصى وكتب على المساجد والجوامع سب الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم من الصحابة وهذا العبيدى يعظمه الدروز في لبنان والاسماعيلية في الهند أنظر ترجمته في (النجوم الزاهرة) ٤/ ١٧٦ - ٢٠٦ ، وخطط المقريزى ٢/ ٢٨٥ - ٢٨٩) وفيات الأعيان) ٢/ ١٢٦

٣) سورة الأنفال آية / ٣٨

وهذا هو الذى قا تل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركي العرب لأنهم أشركوا في ا لإ لهية قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من د ون الله انـد اد يحبونهم كحب الله والذين آ منوا أشد حبا لله) (١) وقال ـ تعالى ـ(أجعل الآ لهة إلها واحـدا ان هذا الشي ء عجاب) " ٢" .....

وأما النوع الثانى : فالشرك في الربوبية فان الرب ـ سبحانه ـ وتعالى هـو ا لما لك المدبر المعطي المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل فمـن شهد أن المعطي أو المانع أوا أو المعز ، أو المذ ل غيره فقد أشـرك بربو بيته (٣)

وقال العلا مة ابن القيم : مبينا نوعي الشرك الأ كبـر:

(الشرك شركان :

النوع الأ ول (شرك يتعلق بذات المعبود ، وأسمائه وصفاته وأفعالـه

النوع الثانى (شرك في عبادته ومعاملته ، وان كان صاحبه يعتقد أنـه سبحانه ـ لا شـريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعالـه

ثم ان القسـم الأ ول نوعـان :

أحد هما : شرك التعطيل وهو أ قبح أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قـال: (وما رب العالميـن) (٤) وقال تعالى مخبرا عنه أنه قال لهامـان (وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأ سباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسي واني لأ ظنه كاذبا) (٥) والشرك والتعطيـل متلا زمان فكل مشرك معطل ، وكل معطل مشرك ، لكن الشرك لا يستلـزم أصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق ـ سبحانه ـ وصفاته ولكنـه عطل حق التوحيد وأصل الشرك وقاعدته التى يرجع اليها هو التطيل وهـو ثلا ثـة أقسـام :

---

(١) سورة البقرة آية / ١٦٥

(٢) سورة (ص) آية / ٥

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ٩١ ـ ٩٢.

(٤) سورة الشعراء آية / ٢٣

(٥) سورة غافر آية / ٣٦ ـ ٣٧

الأول : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقـــــه .

الثاني : تعطيل الصانع ـ سبحانه ـ عن كماله المقدس بتعطيل أسمائـه وأوصافه وأفعالـــــــه

الثالث : تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون : ما ثم خالق ومخلـــوق ولا ها هنا شيئان ، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه وهذه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأنه لم يكن معدوما أصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادهـــا يسمونها بالعقول والنفوس ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالـــى وأوصافه، وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسماولا صفـــة بل جعلوا المخلوق أكمل منه ، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتهـــــا

النوع الثاني : شرك من جعل مع الله الها آخر ولم يعطل أسماءه وصفاتـــه وربوبيتـــه كشرك النصارى الذين وجعلوه ثالث ثـــلاثة ، فجعلـــوا المسيح الها وأمه الهـــا .

ومن هذا شرك المجوس القائلين باستناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر الى الظلمـــــة .

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفســـه وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته ولهذا كانوا أشباه المجوس .

ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه (إذ قال إبراهيم ربي الـــذي يحيي ويميت قال أنا أحي وأميت) (١)

فهذا جعل نفسه ندا لله يحي ويميت بزعمه كما يحي الله ويميت فألزمـــه ابراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة الـــتي يأتي بها الله منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل ، بل إلزامـــا على طرد الدليل إن كان حقـــــا .

---

١ ، سورة البقـــرة آيـــة ٢٥٨

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب السبعة العلويات ويجعلها أربابا مدبرة لأمر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

ومن هذا شرك عباد الشمس) أ.هـ (١)

وأما القسم الثاني :

وهو ما يتعلق بمعاملته - سبحانه - فهو أربعة أنواع (٢)

النوع الأول : شرك الدعوة وقد أشار اليه - سبحانه - بقوله (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون "٣"

قال العلامة ابن جرير يقول تعالى ذكره : (فاذا ركب هؤلاء المشركون السفينة في البحر، فخافوا الغرق والهلاك فيه (دعوا الله مخلصين له الدين) يقول : أخلصوا لله عند الشدة التي نزلت بهم التوحيد وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم ولكن بالله الذي خلقهم (فلما نجاهم الى البر) يقول : فلما خلصهم مما كانوا فيه وسلمهم، فصاروا الى البر اذا هم يجعلون مع الله شريكا في عبادتهم ويدعون الالهة والأوثان معه أربابا.

قال قتادة (فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون) فالخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم، ثم يشركون بعد ذلك) أ.هـ (٣)

ومن تفسير ابن جرير للاية السابقة يتبين لنا أن شرك المشركين السابقين كان أخف من شرك المتأخرين اذ أولئك كان شركهم مقصورا في حالة الرخاء أما في الشدة فكانوا يخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له وأما غير مشركوا زماننا فانهم ينادون ويستغيثون بغير الله في الشدة والرخاء على حد سواء قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - تعالى - (فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين :

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص١٥٢ - ١٥٤

(٢) أنظر الرسالة الأولى من (مجموعة التوحيد لشيخ الاسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهما ص٦-٧

(٣) سورة العنكبوت آية / ٦٥

(٤) جامع البيان ٢١/ ١٣

أحد همـــا: أن الأولين لا يشركون ولا يد عون الملا ئكة والأولياء مع الله الا في الرخاء، وأمافي الشدة ، فيخلصون لله الدعاء كما قـــال ـت تعالي ـواذا مسكم الضر في البحر ضل من تد عون الا اياه فلمـــا نجاكم الي البر أعرضتم وكان الا نسان كفورا) (١) .....

الى أن قال : فمن هذه المسألة التى وضحها الله في كتابه وهي أن ا لمشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يد عون الله تعالى ـ ويدعـــون غيره في الرخاء وأمافي الضراء والشدة فلا يد عون الا الله وحده لاشريك له ، وينسون ساداتهم ، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك ا لأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهما جيدا راسخا؟ والله المستعـــان

الأمر الثانـــي : أن الأولين يد عون مع الله أناسا مقربين عند اللـــه اما أنبياء واما أولياء واما ملا ئكة، أو يدعون أحجا را أو أشجـارا مطيعة للـــه ليست عاصة وأهل زماننا يد عون مع الله أناسا من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلـــك والذى يعتقد في الصالح فأو الذى لا يعصي ـ مثل الخشب والحجر ـأ هـون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به) أ . هـ (٢)

النوع الثانى : شرك المحبة كما ذكر الرمعن بعض الناس بقوله (ومن النـــاس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبالله) (٣) قال العلا مة ابن القيم (فأخبر أن من أحب من دون الله شيئا كما يحب اللـــه ـ تعالى ـ فهو ممن اتخذ من دون الله أندادا فهذا ند في المحبـــــة، لا في الخلق والربوبية فان أحدا من أهل الأرض لم يثبت هذا النـــــد في الربوبية بخلاف ند المحبة فان أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادا في الحب والتعظيم ثم قال (والذين آمنوا أشد حبا لله) وفي تقدير الآيـــة قولا ن :

---

(١) سورة الا ســـراء آيـــة ٦٧

(٢) كشف الشبهات ص٢٢٧ ضمن مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب

(٣) سورة البقـــرة آيـة / ١٦٥

أحدهما : (والذين آمنوا أشد حبا لله) من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله .

والثاني (والذين آمنوا أشد حبالله) من محبة المشركين بالأنداد لله فان محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة ، أشد من المشتركة والقولان على القولين في قوله - تعالى - (يحبونهم كحب الله) (١) فان فيها قولين :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادا

والثاني : أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم ، وكان شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - يرجح القول الأول ، ويقول : انما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين لله) أهـ (٢)

النوع الثالث : شرك الطاعة المذكور في قوله - تعالى - (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) (٣)

وفي المسند الحديث عن عدي بن حاتم حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية (إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال : فقلت : انهم لم يعبدوهم ؟ فقال (بلى انهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم) (٤)

قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسيرها : انهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

---

١) سورة البقرة آية / ١٦٥

٢) مدارج السالكين ٣/ ٢٠ - ٢١

٣) سورة التوبة آية / ٣١

٤) رواه ابن جرير في تفسيره جامع البيان ١٠/ ١١٤ سنن الترمذي ٢/ ٣٤

وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥

قال ابن القيم (وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالانسان : أن يقتل أو يقاتل من هداه علي يديه ، ويتخذ من لم تضمن له عصمته ندا لله يحرم عليه ويحلل له) أ هـ (١)

النوع الرابع : شرك النية والارادة والقصد المشار اليه بقوله تعالى ـ (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الاخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) (٢)

وقال العلامة ابن القيم (وأما الشرك في الارادات والنيات فذلك البحر الذى لا ساحل له، وقل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئا غير التقرب اليه ، وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك في نيته وارادته والاخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله واراته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة ابراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الاسلام (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين) (٣)

وهى ملة ابراهيم التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء) أ هـ (٤)

تعريف الشرك الأصغر :

الشرك الأصغر هو النوع الثانى من أنواع الشرك وقد أوضح تعريفه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : (ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال الرياء) (٥)

---

١) اغاثة اللهفان (٢/ ٣١٩)
٢) سورة يونس آية / ١٥ ـ ١٦
٣) سورة آل عمران آية / ٨٥
٤) الجواب الكافي ص ١٥٩
٥) مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٢ من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه قال الهيثمى رواه الطبراني ورجاله الصحيح غير شبيب وهو ثقة

وعند الحاكم من حديث أبو سعيد عن أبيه قال : كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر) (١)

والرياء الذى يعتبر شركا انما هو يسيره وليس بكثيره اذ الكثير منه قد يصل بصاحبه الى الشرك الأكبر وهذا لا يصدر الا من المنافقين الذين توعدهم الله بالدرك الأسفل من النار أو ممن لم تخالط بشاشة الايمان قلبه .

قال ابن القيم : رحمه الله ـ تعالى ـ في حده للشرك الأصغر (وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ـ تعالى ـ وقول الرجل ماشاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك (وأنا بالله وبك) وما لى الا الله وأنت وأنا متوكل على الله وعليك ولولا أنت لم يكن كذا وقد يكون شركا أكبر بحسب قائله ومقصده) (٢)

قال في تيسير العزيز الحميد ففسر الشرك الأصغر باليسير من الرياء فدل على أن كثيره أكبر، وضد الشرك الأكبر والأصغر التوحيد والاخلاص وهو افراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة باطنا وظاهرا) أ ، هـ (٣)

الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر:

أما الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر فمن وجوه :

أولا : أن الشرك الأكبر لا يغفر الله لصاحبه ، وأما الأصغر فتحت المشيئة

الثانى : أن الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال وأما الأصغر فلا يحبط الا العمل الذى قارنه .

الثالث : أن الشرك الأكبر مخرج لصاحبه من ملة الاسلام ، وأما الأصغر فلا يخرجه منها

---

١) المستدرك ٤/ ٣٢٩ وصححه وأقره على ذلك الذهبى

٢) مدارج السالكين ١/ ٣٤٤

٣) تيسير العزيز الحميد ص ٤٧٢

الرابع : أن الشرك الأكبر صاحبه خالد في النار ، وأما الأصغر فكغيره من الذنوب(١)

تعريف الشـــــرك الخفي ؛

الشرك الخفي هو النوع الثالث من أنواع الشرك وقد بين حقيقته المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قال (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلي قال : الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) (٢)

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : قوله (فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) فسر الشرك الخفي بهذا أن يعمل الرجل العمل لله ، لكن يزيد فيه صفة كتحسينه وتطويله ونحو ذلك لما يرى من نظر رجل فهـــــذا هو الشرك الخفي ، وهو الرياء ، والحامل له على ذلك هو حب الرياسة والجاه عند الناس) أ . هـ (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم (الشرك الخفي أن يعمل الرجل لمكان الرجـــــل) (٤)

وقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره لقوله ـ تعالى ـ (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) الا نداد هو الشرك أخفي من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ويقول لولا كليـــة هذا لأتانا اللصوص البارحة ولولا البط في الدار لأتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلانا ما هذ كله به شـــــرك) (٥)

---

(١) الكواشف الجلية ص ٢٦٧

(٢) رواه أحمد في المسند ٣/ ٣٠ وابن ماجه في السنن ٢/ ١٤٠٦

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٤٧٢

(٤) رواه الحاكم في المستدرك وصححه وأقره على ذلك الذهبي من حديث أبي سعيد الخدري ٤/ ٣٢٩

(٥) تفسير ابن كثير ١/ ١٠١

قال : شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ـ تعالى ـ

وأما الشرك الخفي فهو الذي لا يكاد أحد يسلم منه مثل أن يحب الرجل مع الله غيره فان كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب لأن هذه تدل على حقيقة المحبة لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه ، ويكره ما يكرهه ، ومن صحت محبته

امتنعت مخالفته لأن المخالفة انما تقع للنقص المنافية ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى ـ (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم (١) الاية فليس الكلام في هذا انما الكلام في محبة تتعلق بالنفوس بغير الله ـ تعالى ـ فهذا الاشك أنه نقص في توحيد المحبة لله وهو دليل على نقص محبة الله ـ تعالى ـ اذ لو كملت محبته لم يحب سواه ..... وكذا الخوف والرجاء ، وما أشبه ذلك فان كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئا سواه ..... واذا نقص خوفه خاف من المخلوق وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف .... وكذا الرجاء وغيره فهذا هو الشرك الخفي الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه الا من عصمه الله ـ تعالى ـ (٢)

فشيخ الاسلام رحمه الله تعالى ـ يبين لنا خطورة الشرك الخفى الذى لا ينجو منه الا من عصمه الله ـ تعالى ـ ولذلك خافه صلى الله عليه وسلم على الصحابة الذين هم أبر الأمة أعمالا وأقواها ايمانا وأصحها اسلاما وأحسنها أخلاقا وأصدقها أقوالا كما تقدم من حديث أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١

(٢) مجموع الفتاوى ١/ ٩٣ ـ ٩٤

قال صاحب تيسير العزيز الحميد (١) قال الطيبي (٢) (مبينا ضرر الشرك الخفي على الإنسان) (وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الاخرة فانهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة والواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة الى الظاهر بالخير، واظهار العلم والعمل فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة الى لذة القبول عند الخلق ولم يقتنع باطلاع الخالق تبارك وتعالى ؛ وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحببت مدحهم وتبركهم بمشاهدته وخدمته واكرامه وتقديمه في المحافل فأصابت النفس في ذلك أعظم اللذات وأعظم الشهوات وهو يظن أن حياته بالله ـ تعالى ـ وبعباداته، وانما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين وهو يظن أنه عند الله من عباده المقربين وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها الا الصديقون ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة) أ هـ (٣)

وباستطاعة الانسان أن يتخلص من هذا الشرك الخفي بأمرين اثنين :

الأول : الاخلاص بأن يكون عمله خالصا لوجه الله ـ تعالى ـ

الثاني : أن يكون العمل موافقا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم

---

١) هو الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله ـ تعالى

٢) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الشرف الدين الطيبي : من علماء الحديث والتفسير والبيان كان ذا ثروة طائلة من الارث والتجارة فأنفقها في وجوه الخير حتى افتقر في آخر عمره، كان شديد الرد على أهل البدع وكان ملازما لتعليم طلبة العلم له مولفات في البلاغة والتفسير، والحديث انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٦٨ ـ ٦٩ كشف الظنون ١/ ٧٢٠، شذرات الذهب ٦/ ١٣٧ ـ ١٣٨ بغية الوعاة ١/ ٥٢٢، البدر الطالع للشوكاني ١/ ٢٢٩

٣) أنظر تيسير العزيز الحميد ص ٤٧٣

كفارة الشرك الخفي :

على الرغم من خطورة الشرك الخفي كما عرفنا ذلك مما تقدم وأنه صلى الله عليه وسلم خافه على سادة هذه الأمة وهم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، وأنه لا يسلم منه الا من عصمه الله تعالى ـ الا أنه صلى الله عليه وسلم علمنا دعاءا ند عو الله به يكون كفارة لما يحصل للا نسان من هذا الداء العضال .

روى الامام أحمد باسناده الى أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه ـ أنه خطب الناس يوما ـ فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فانه أخفي من دبيب النمل فقام اليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أولنأتين عمر مأذون لنا أو غير مأذون قال : بل أخرج مما قلت خطبنا رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : أيها الناس اتقوا هذا الشرك فانه أخفي من دبيب النمل فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفي من دبيب النمل يارسول الله ؟ قال قولوا (اللهم انا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم)) (١)

فهذا الحديث بين لنا فيه صلى الله عليه وسلم كفارة الشرك الخفي ، نسأل الله أن يجنبنا الوقوع في الأمور التى تغضبه ـ سبحانه ـ وقد اختار أكثر العلماء الذين ألفوا في التوحيد أن الشرك ينقسم الى نوعين أكبر وأصغر ، فيكون الشرك الخفي من أنواع الشرك الأصغر على قول من قال : ان الشرك على نوعين وهذا الخلاف في التقسيم الى نوعين إلى ثلاثة إنما هو خلاف لفظي لأن ما يفسر به الشرك الخفي هو ما يفسر به الشرك الأصغر وحيث ذكرنا أنواع الشرك فانه من المستحسن أن نردف ذلك بذكر أنواع الكفر وأنواع النفاق لأنها كلها من الأمور المهلكة لمن شرح صدره بها .

---

(١) ٤/ ٤٠٣

أنواع الكفر :

قال العلامة ابن القيم (فأما الكفر فنوعان : كفر أكبر ، وكفر أصغر ، فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار والأصغر موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود) (١)

أنواع الكفر الأكبر :

الكفر الأكبر خمسة أنواع :

النوع الأول : كفر التكذيب وهو اعتقاد كذب الرسل وهذا القسم قليل في الكفار فان الله ـ تعالى ـ أيد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة .

قال تعالى في شأن فرعون وقومه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) (٢) وقال ـ تعالى ـ مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) (٣)

النوع الثاني :

كفر اباء واستكبار مثل كفر ابليس اللعين ومنه كفر من عرف الرسول صلى الله عليه وسلم ولم ينقد له اباءا واستكبارا وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال ـ تعالى ـ عن فرعون وقومه (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) (٤)

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٣٥

(٢) سورة النمل آية / ١٤

(٣) سورة الأنعام آية / ٣٣

(٤) سورة المؤمنون آية / ٤٧

ومنه كفر أبي طالب فانه صدق الرسول صلى اللهعليه وسلم ولم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية ، وكره أن يرغب عن ملة آبائه ، أو أن يحكم بتكفيرهم .

النوع الثالث :

كفر الإعراض : مثل أن يعرض عن الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث لا يسمعه ولا يصدقه ولا يكذبه ، ولا يصغي الى ماجاء به البته كما قال أحد بني عبد باليل للنبي صلى الله عليه وسلم (والله أقول لك كلمة : ان كنت صادقا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وان كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أكلمك) (١)

النوع الرابع :

كفر الشك : حيث لا يجزم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ولا يكذبه بل يشك في أمره ، وهذا الا يستمر شكه الا اذا ألزم نفسه الا عراض عن النظر في آيات صدق الرسول صلى اللهعليه وسلم جملة ، وأما مع التفاته اليها ونظره فيها فانه لا يبقى معه شك لا نها مستلزمة للصدق .

النوع الخامس :

كفر النفاق وهو أن يظهر الا يمان بلسانه وينطوي قلبه على تكذيب الرسول صلى اللهعليه وسلم ، وهذا هو النفاق الأكبر (٢)

---

(١) علق على هذا النوع الشيخ محمد حامد الفقي فقال (وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلاميه المقلدين للافرنج من اليهود والنصارى المنحلين عن كل خلق وفضيلة زاعمين بجاهليتهم وسفههم أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية) مدارج السالكين ١/ ٣٣٨ (الهامش)

(٢) ذكر هذه الأنواع العلامة ابن القيم في مدارج السالكين ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦ وانظر (مجموعة التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية (والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهما ص ٧ ـ ٨

الكفـــــر الأصغـــــــــر :

النوع الثاني من أنواع الكفر الكفر الأصغر ، وهو لا يخرج من ملة الإسلام وذلك مثل كفر النعمـــة وقد ذكره الله ـ تعالى ـ في قوله (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (١)

ومثله الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنـــه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب ، والنياحة) (٢)

فمثل هذا كفر دون كفر لا يخرج من ملة الاسلام

أنواع النفاق :ـ

جاء في الصحاح : النافقاء إحدى حجـرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها وهو موضع يرققه ، فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي : خرج والنفقة أيضا : مثال الهمزة النافقاء تقول منه : نفق اليربوع تنفيقا ونافق أي أخذ في نافقائه ، ومنه اشتقاق المنافق في الدين) (٣)

وجاء في المصباح المنير : نافق اليربوع اذا أتى النافقاء ومنفق : نافق الرجـل اذا أظهر الاسلام لأهله وأضمر غير الاسلام وأتاه مع أهله فقد خرج بذلـــك ومحل النفاق القلب) (٤)

---

(١) سورة النحل آية / ١١٢

(٢) صحيح مسلم ١/ ٨٢

(٣) ٤/ ٥٦٠ ، القاموس المحيط ـ ٣/ ٢٩٦

(٤) ٢/ ٦١٨

وفى اللسان عن أبى عبيد قال (سمي المنافق منافقا للنفق وهوالسرب في الأرض وقيل : انما سمي منافقا لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه ، يقال : قد نفق به ، ونافق وله جحر آخر يقال له القاصعاء ، فاذا طلب قصع فخرج من القاصعاء ، فهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء ، ويدخل في القاصعاء ويخرج من النافقاء ، فيقال هكذا يفعل المنافق يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذى دخل فيه) (١)

ومن هذا يتبين أن النفاق في اللغة : اظهار الخير وابطان الشر) وأما حقيقته في الشرع : فهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر وإخفاؤه) (٢)

والمتصفون بذلك موجودون في كل زمان ومكان !

والنفاق على ضربين :

الضرب الأول : النفاق الاعتقادى

الضرب الثانى : نفاق عملى ،

أما الضرب الأول : وهو النفاق الاعتقادى فانه مخرج لصاحبه من الملة

وفيه يقول شيخ الاسلام ابن تيمية (والنفاق منه ماهوأكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق عبد الله بن أبي وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول أوجحود بعض ماجاء به ، أو بغضه ، أوعدم اعتقاد وجوب اتباعه أو المسرة بانخفاض دينه ، أو المساءة بظهور دينه ونحو ذلك مما لا يمكن صاحبه الا أن يكون عدوا لله ورسوله (٣) وجاء في مجموعة التوحيد :

(فأما الاعتقادى فهو ستة أنواع : تكذيب الرسول ، أوتكذيب بعض ماجاء به أوبغض الرسول ، أو بغض ماجاء به الرسول ، أو المسرة بانخفاض دين الرسول أوالكراهية بانتصار دين الرسول) (٤)

---

١) ١٠/ ٣٥٩

(٢) أنظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٩٨

(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٣٤

(٤) الرسالة الأولي من مجموعة التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن الوهاب وغيرهما ص ٩

وأما الضرب الثاني : وهو النفاق العملي فهو جريمة كبرى، وإثم عظيم وكبيرة من كبائر الذنوب، ولكنه لا يخرج صاحبه من ملة الاسلام وأنواعه كثيرة (١)

قال صلى الله عليه وسلم (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان واذا حدث كذب، واذا عاهد غدر، واذا خاصم فجر)

وفي رواية أخرى واذا اذا وعد أخلف) (٢)

ذلك هو حقيقة الشرك وأنواع وأنواع الكفر والنفاق وكل هذه الأمور تكسب صاحبها الا نحطاط والهبوط متى ماشرح بها صدره واطمأنت بها نفسه أعاذنا الله من ذلك ...

---

١) انظر أنواع النفاق في (مدارج السالكين لابن القيم) ١/ ٣٤٧، وانظر الرسالة الأولى من مجموعة التوحيد لشيخ الاسلام والشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم صحيح البخاري ١/ ١٥ صحيح مسلم ١/ ١٠٦

(المبحث الثالث)

أصـــل الشـــرك في بني الا نســـان

قال ـ تعالى ـ (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونـــا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار)

هذه الا ية من السورة فيها بيان لأصل الشرك والدافع اليه عند المشركيـــن قديما وحديثا وفيها توضيح لحال المتخذين من دون الله ـ تعالى الأولياء والشركاء ، وأن الذى تقرر في قلوب المشركين المتقدمين والمتأخرين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ـ تعالى ـ ويزعمون أنها تقربهم الى الله ـ تعالى ـ برفع حوائجهم اليه والشفاعة عنده والا فهم يعتقدون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئا وهذا كما هو معلوم من أقبح الاعذار وإقدامهم على أشد المحرمـــات وارتكاب أعظم المنكرات وهو الشرك بالله العظيم ولذلك جاءت الآية مذيلة بالحكم عليهم بأنهم كاذبون كفار وأنه ـ تعالى ـ لا يهديهم فهذه حال مـــن اتخذ من دون الله وليا أو شريكا ،

قال ابن جرير رحمه الله ـ تعالى ـ حول هذه الاية (يقول تعالى ذكره : والذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولونـــهم ويعبدونهم من دون الله يقولون لهم ما نعبدكم أيها الا لهة الا لتقربونا الى الله زلفى ، قربه ومنزلة وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا .

قال مجاهد : قريش تقوله للأوثان ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى بن مريـــم ولعزيـــــر) (١)

وقال العلامة ابن كثير : حول قوله تعالى (ما نعبدهم الا ليقربونا الى اللـــه زلفى) ثم أخبر عز وجل عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون أما نعبدهـــم الا ليقربونا الى الله زلفى) أى انما يحملهم على عبادتهم لهـــــــــا .

---

(١) جامع البيان عن تأويل أى القرآن ٢٤ / ١٩١

أ نهم عمد وا الى أصنام اتخذ وها على صور الملا ئكة المقربين في زعمهم فعبد وا تلك الصور تنزيلا لذ لك منزلة عباد تهم الملا ئكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الد نيا فأما المعاد فكانوا جاحد ين له كافرين به قال : قتاد ة والسد ى ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد : إلا ليقربونا الى الله زلفى أى ليشفعوا لنا ويقربونا عند ه منزلة ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم اذ احجـــوا فى جا هليتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك وهذه الشبهة هي التى أعتمد ها المشركون في قد يم الد هر وحد يثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين برد ها والنهي عنها والدعوة الى إفراد العباد ة لله وحد ه لا شريك له وان هذا شي * اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذ ن الله فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبد وا اللـــــه واجتنبوا الطاغوت) (١)

(وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبد ون) (٢)

وأخبر أن الملا ئكة التى في السموات من الملا ئكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عند ه الا باذ نه لمن ارتضي وليسوا عند ه كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عند هم بغير اذ نهم فيما أحبه الملوك وأبوه (فلا تضربو الله الأمثال) (٣) تعالى الله عن ذ لك علوا كبيرا أ ٠ هـ (٤)

وقال الشوكانى : (والضمير في (نعبد هم) راجع الي الأشياء التى كانوا يعبد ونها من الملا ئكة وعيسي والأصنام وهم المراد ون بالأولياء والمراد بقولهم (إلا ليقربونا الى الله زلفي) الشفاعة كما حكاه الواحد ى عن المفسرين) أ ٠ هـ (٥)

---

(١) سورة النحل آية / ٣٦

(٢) سورة الأنبياء آية / ٢٥

(٣) سورة النحل آية / ٧٤

(٤) تفسير ابن كثير ٦٦ / ٧٨

(٥) فتح القد ير ٤ / ٤٤٩

قال صاحب محاسين التأويل (١)

(والذين اتخذوا من دونه أولياء) أي بالمحبة للتقرب والتوسل بهم إلى الله تعالى ـ (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أي يقولون ذلك احتجاجا على ضلالهم (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) أي عند حشر معبوداتهم معهم فيقرن كلا منهم مع من يتولاه من عابد ومعبود ويدخل المبطل النار مع المبطلين كما يدخل المحق الجنة مع المحقين) أ ٠ هـ (٢)

فالآية بينت أن أصل الشرك في المشركين من بني آدم إنما كان نتيجة الغلو في المخلوق ورفعه فوق منزلته ويشهد لهذا ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت) (٣)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية (وأصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين ، فانهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم ، فهذا أول شرك كان في آدم ، وكان في قوم نوح فانه أول رسول بعث الى أهل الأرض يدعوهم الى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك كما قال ـ تعالى ـ (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا) (٤) وهذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض ثم صارت إلى العرب كما ذكر ابن عباس وغيره إن لم تكن أعيانها فهي نظائرها) أ هـ (٥)

---

(١) هو جمال الدين محمد سعيد بن قاسم القاسمي الخلاق عالم مشارك في أنواع من العلوم ولد بدمشق ونشأ وتعلم بها ولد سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف وتوفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية الأعلام ٢/ ١٣١

(٢) محاسن التأويل ١٤/ ١١٥

(٣) ٣/ ٢٠٨ (٤) سورة نوح آية / ٢٣ ـ ٢٤ (٥) الحسنة والسيئة ١١٣ ـ ١١٤

---

١) جامع البيان ٢٩/ ٩٩

(٢) صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري ٣/ ٢٠٨

وهذه الأمور هي بعينها التي كان يفعلها مشركو الجاهلية بل هؤلاء أشد منهم عبادة وتعظيما وهذا أصل الشرك وعينه الذي حذر الله عنه عباده ونهاهم عن والوقوع فيه ..

وحرم على من مات عليه الجنة،

قال صاحب تيسير العزيز الحميد ؛ بعد ذكر قصة أصنام قوم نوح ؛ فتبين أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها واعتقاد النحوس فيها والسعود ، ونحو ذلك وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم كما أن ذلك هو الغالب على عبادة القبور ونحوهم وهو وأصل عبادة الأصنام فانهم عظموا الأموات تعظيما مبتدعا ، فصوروا صورهم وتبركوا بها قال الأزرقي أن عبدت الصور ومن (هي) صورته وهذا أول شرك حدث في الأرض وهو الذي أوحاه الشيطان الى عبادة القبور في هذه الأزمان فإنه ألقى إليهم أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم وأن الدعاء عندها أرجي في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام والمساجد فاعتاد وهلة لذلك فاذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى الدعاء به والإقسام على الله به) (١) أ.هـ (١)

---

(١) ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠

(المبحث الرابـــع)

ذم الإنسان على جعله أندادا لله تعالى

لقد جاء في السورة الذم والعتاب للإنسان الذي يجعل لله تعالى الأنداد ، أوضحت أن من فعل ذلك فان مصيره الى النار ،

قال تعالى (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منـــه نسى ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتـــع بكفرك قليلا انك من أصحاب النـــار) .

هذه الاية من السورة تضمنت ذما وعتابا من الله تعالى لمن جعل لله الأنـداد والأشباه من المخلوقين فيحبها كما يحب الله ويرجوها كما يرجو الله وهذا فعـل الضالين المشركين بالله ـ عزوجـل .

فقد أوضح الله في هذه الاية أن الانسان اذا نزل به الضر واشتد به الكرب يضرع الي الله ويخلص له الدعاء والانابة لا يشرك به غيره ، فاذا ما أزيـــح عنه ذلك وخوله الله بشتى النعم ينسي ربه الذى كان يدعوه عند الشدة والكـرب وعند الفقـــر والمرض ، فيشرع في اتخاذ الشركاء من الأصنام التي هي عبارة عـــن أحجار وأخشاب فيتوجه اليها بالعبادة والدعاء والاستغاثة ويصرف لها الكثيـــر من أنواع العبادات التي لا يستحقها الا الله تعالى ، أو يجعل لله أنـــدادا من طواغيت البشر فيطيعهم في معصية الله ـ تعالى ـ كما قال السدى رحمـــه الله تعالى : (الأنداد من الرجال يطيعونهم في معاصي الله وقال غيره (عنى بذلك أنه عبد الأوثان فجعلها لله أندادا في عبادتهم اياهـــا وقال ابن جرير (وأولي القولين بالصواب قول من قال عنى به انه أطاع الشيطان فـــي عبادة الأوثان فجعل له الأوثان أندادا لأن ذلك في سياق عتاب الله اياهـــم على عبادتهـــا) أ . هـ (١)

---

(١) جامع البيان ٢٣/ ٢٠٠)

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : حول قوله تعالى في الاية (وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار) أى من مات وهو يدعو لله ندا ، أى : يجعل لله ندا فيما يختصه ـ تعالى ـ ويستحقه من الربوبية والالهية دخل النار ، لأنه مشرك ، فان الله تعالى هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود الذى تألهه القلوب وترغب اليه وتفزع اليه عند الشدائد وماسواه فهو مفتقر اليه مقهور بالعبودية له تجرى عليه أقداره وأحكامه طوعا وكرها فكيف يصلى أن يكون ندا) (١)

وقد نهي الله تعالى عباده عن أن يجعلوا له الأنداد وذمهم على ذلك قال تعالى (فلا تجعلوا لله الأنداد وأنتم تعلمون) (٢)

قال البغوى (٣) (فلا تجعلوا لله أندادا) أى أمثالا تعبدونهم كعبادة الله وقال أبو عبيدة (٤) الند : الضد وهو من الأضداد والله تعالى ليس له من المثل والضد (وأنتم تعلمون) أنه واحد خالق هذه الأشياء) اهـ (٥)

و قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (الأنداد : الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله) وقال ابن زيد (الأنداد : الالهة التى جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له) وقال ابن عباس (الأنداد : الأشباه) (٦)

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٩٥

(٢) سورة البقرة آية / ٢٢

(٣) هو الامام محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى فقيه ، محدث مفسر نسبته الى (بغا) على قرى خراسان بين هراة ومرو ولد سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وتوفي سنة عشر وخمسمائة هجرية أنظر ترجمته في (وفيات الأعيان ١/ ١٤٥ تهذيب ابن عساكر ٤/ ٣٤٨

(٤) هو : معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصرى أبو عبيدة النحوى من أئمة العلم بالأدب واللغه ولد سنة عشر ومائة وتوفى في سنة تسع ومائتين هجرية أنظر ترجمته في (تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٤٦ ، الميزان ٣/ ١٨٩ وفيان الأعيان) ٢/ ١٠٥ تاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٢

(٥) تفسير البغوى المسمى (معالم التنزيل) على حاشية الخازن ١/ ٣٣ مجاز القرآن ١/ ٣٤

(٦) تفسير ابن جرير الطبرى ١/ ١٦٣ ، اغاثة اللهفان ٢/ ٢٢٩

وقال تعالى في ذم بعض الناس الذين اتخذوا من دونه أندادا (ومن الناس من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله (١)

قال ابن القيم : فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلا للخالق فالند : الشبيه يقال : فلان ند فلان ونديده أى مثله وشبهه ..... فالذى أنكره الله سبحانه ـ عليهم هو تشبيه المخلوق به حتى جعلوه ند الله ـ تعالى ـ يعبدونه كما يعبدون الله) أ هـ (٢)

وأما اتخاذ العدلاء بمعنى : جعلهم شركاء لله في العبادة فقد بين ـ تعالى ـ بأن ذلك فعل المشركين ،

قال تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) (٣) وقال مجاهد (يعدلون) يشركون وقال محمد بن جرير الطبرى (يجعلون شريكا في عبادتهم اياه فيعبدون معه الآلهة والأنداد ، والأصنام ، والأوثان وليس منها شيء شاركه في خلق شيء من ذلك ولا في انعامه عليهم بما أنعم عليهم ، بل هو المنفرد بذلك كله وهم يشركون في عبادتهم اياه غيره) (٤)

ولقد بين النبي صل الله عليه وسلم أن اتخاذ الند من أعظم الذنوب والآثام لما روى من حديث ابن مسعود رض الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم؟ قال (أن تجعل لله ندا وهو خلقك .....) الحديث (٥)

قال ابن الأثير : الأنداد جمع ند بالكسر وهو مثل الشيء الذى يضاده في أموره وينازعه : أى يخالفه ويريد بها ماكانوا يتخذونه الهة من دون الله) أ هـ(٦)

ولقد بعث الله النبي الهدى صلى الله عليه وسلم لخلع جميع الأنداد التى كانت تعبد من دون الله تعالى ـ وقد كان المشركون يتنافسون فيها وكانت تمثل كثرة هائلة حتى أنه أصبح لكل مشرك في الجاهلية معبود وحتى أنه كان اذا اسافر أحدهم يصطحب صنمه معه وكانت حالتهم سيئة كما سنبين ذلك فنقول :

---

(١) سورة البقرة آية / ١٥٦ (٢) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٢٩ (٣) سورة الأنعام آية/ ١
(٤) جامع البيان ٧/ ١٤٤ (٥) متفق عليه صحيح البخارى ٣/ ٩٨ صحيح مسلم ١/ ٩٠
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٣٥

لقد بين الله ـ تعالى ـ في كتابه أن المعبودات سواء كثرت وتنوعت من عبادة الأشخاص، الى عبادة الأحجار والأخشاب، إلى عبادة الهوى الى عبادة الأجرام السماوية الى عبادة الملائكة وسنأتي بنبذ تحول كل من هذه المذكورات.

(١) عبادة الأشخاص من بني الانسان:

لقد أخبرنا البارئ ـ سبحانه ـ أن بعض عبيده ادعوا الألوهية واستعبدوا أتباعهم عن طريق القهر والعنف، كما استغلوا جهلهم ونشروا في صفوفهم الضلال عن طريق الكذب والتدجيل وهذا كما حصل من فرعون الذي أخبرنا الله عنه أنه قال: لقومه منادياً لهم (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري (١)

وقال ـ تعالى ـ (حاكياً توعده لمن آمن بنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) (٢)

ومثل فرعون علماء الضلال الذين يشرعون للخلق ما لم يأذن به الله ولا يرضاه وقد ذم الله أهل الكتاب على هذا الصنيع قال تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) (٣) فقد أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله فأنزلوهم منزلة الرب ـ سبحانه ـ اذ أنه لا حق لأحد في التحليل والتحريم اذ ذلك من خصائص البارئ ـ سبحانه ـ دون سواه، والسبب الذي جعل أتباع فرعون، وأتباع الأحبار والرهبان من أهل الكتاب يعبدونهم ويطيعونهم عدم تحقيقهم عبودية الخوف لله ـ جل وعلا ـ ومن عبادة الإنسان غلو اليهود في العزير والنصارى في عيسى عليه الصلاة والسلام وقد بينا بطلان دعواهم تحت عنوان (تنزيه الله تعالى من نسبة الولد إليه) وقد تقدم هذا فليرجع إليه

---

(١) سورة القصص آية ٣٨

(٢) سورة الاعراف آية/ ١٢٣ ـ ١٢٤

(٣) سورة التوبة آية/ ٣١

(٢) (عبادة الأصنام والأوثان : ـ

قال ابن جرير رحمه الله ـ تعالى ـ (والأصنام جمع (صنم) والصنم : التمثال من حجر أو خشب أو من غير ذلك، في صورة انسان ، وهو الوثن وقد يقال، للصورة المصورة على صورة الانسان في الحائط غيره : صنم ووثن) أ : هـ (١)

أما الراغب الأصبهاني فقد فرق بين الصنم والوثن فقال :

الصنم جثة متخذه من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونه متقربين به الى الله ـ تعالى ـ وجمعه (أصنام) قال الله ـ تعالى ـ (أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك في ضلال مبين) (٢)

قال بعض الحكماء : كل ماعبد من دون الله بل كل مايشغل عن الله ـ تعالى يقال له (صنم)

وأما الوثن : فانه قال فيه (الوثن واحد الأوثان وهو حجارة كانت تعبد ، قال تعالى (إنما اتخذ تم من دون الله أوثانا) (٣)

وممن فرق بين الصنم والوثن الشيخ عبد الرحمن بن حسن فقال (الصنم ماكان منحوتا على صورة ، والوثن ماكان موضوعا على غير ذلك ٠٠٠٠)

الى أن قال : وقد يسمى الصنم وثنا كما قال : الخليل عليه السلام (انما تعبدون من دون الله أوثانا) (٤) ويقال : إن الوثن أعم وهو قوي فالأصنام أوثان كما أن القبور أوثان) أ هـ (٥)

ونقول : مهما وجدت من فروق بين الأصنام والأوثان في المادة ، والهيئة فغرض الوثنين منها واحد وهو عبادتها من دون الله تعالى ـ على أي كيفية كانت

---

(١) جامع البيان ٧/ ٢٤٤

(٢) سورة الأنعام آية/ ٧٤

(٣) المفردات للراغب ص ٢٨٧ ، ٥١٢ والاية رقم (٢٥) من سورة العنكبوت

(٤) سورة العنكبوت آية / ١٧

(٥) فتح المجيد ص ٧٩

وعلى أى صورة وجدت ، ولقد انتشرت عبادة الأصنام والأوثان بين العرب الجاهليين انتشارا هائلا ولقد صورلنا ابن اسحاق (١) رحمه الله تعالى ـ بدء الانحراف عند العرب من نسل اسماعيل عليه السلام في عبادتهم ، فقد كان أول انحرافهم أنهم كانوا يعظمون الحرم فلا يرتحلون منه حتى كثروا وضاقت بهم مكة فأخذوا يرتحلون عنه طالبين السعة وارفسح في البلاد فكان لا يظعن ظاعن منهم عن الحرم الى غيره الا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما له فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، ثم أدى بهم حالهم ذلك الي عبادة تلك الأحجار ثم كانوا يعبدون من الأحجار ما استحسنته عقولهم) أ هـ (٢)

واسمع ماصار اليه حالهم قال أبو رجاء العطاردى كنا نعبد الحجر في الجاهلية فاذا وجدنا حجرا أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبنا عليه ثم طفنا به) (٣)

ومن عجائب أمر الجاهلية أن أحدهم اذا كان مسافرا أخذ معه أربعة أحجار ثلاثة لقدره والرابع يعبده (٤)

ولقد بالغ العرب الجاهليون في اكثارهم من الأصنام حتى أنه كان لأهل كل دار بمكة صنم يعبدونه وكان أحدهم اذا أراد السفر تمسى بصنمه واذا رجع من سفره فعل كذلك قبل أن يدخل منزله (٥)

وكان من أقدم أصنامهم (مناة) وكان منصوبا على ساحل البحر الأحمر من ناحية (المشلل) بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت الأوس والخزرج ومن ينتزل المدينة ومكة وماقارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له وكانت الأوس والخزرج من أشد الناس تعظيما له حتى أنه يبلغ من تعظيمهم أنهم كانوا يحجون ويقفون المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فاذا نفروا أتوه فحلقوا رؤوسهم ولا يرون حجهم صحيحا الا اذا فعلوا ذلك وكانت (مناة) لهذيل وخزاعة وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا عام الفتح فهدمها) (٦)

---

(١) محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة وكان من احسن الناس سياقا للاخبار مات سنة احدى وخمسين ومائة وقيل سنة اثنتين وخمسين ومائة انظر ترجمته في (تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٢، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٨ـ٤٦ الاعلام للزركلي ٦/ ٢٥٢

(٢) ذكره عنه ابن هشام السيرة النبوية (١/ ٧٧) (٣) صحيح البخاري مع الفتح ٨/ ٩

(٤) اغاثة اللهفان ٢/ ٢٢٠ (٥) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢١٠

(٦) الأصنام لابن الكلبي ص١٣ ـ ١٥ اغاثة اللهفان ٢/ ٢١١ـ٢١٢

ثم اتخذت العرب بعد (مناة) اللات) بالطائف وهي أحدث من (مناة) وكانت صخرة مربعة وكانت سدنتها من ثقيف وكانوا قد بنوا عليها وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها وبها كانت تسمى (زيد اللات) و(تيم اللات) وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى فلم تزل كذلك حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ المغيرة ابن شعبة لما أسلمت ثقيف فهدمها وحرقها بالنار) (١) غير أن ابن جرير روى في تفسيره عن مجاهد في قوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى[٢]) قال كان يلت السويق فمات فعكفوا على قبره (٣)

وقد روى البخاري في صحيحه موقوفا على ابن عباس قال : كان اللات رجلا يلت سويق الحاج) (٤)

ثم اتخذت العرب بعد اللات (العزى) فهي تعتبر أحدث من (اللات) اتخذها رجل يقال له : ظالم بن أسعد بوادي نخلة فوق ذات عرق وبنوا عليها بيتا فكانوا يسمعون منها الصوت . وذكر ابن عباس أنه كانت للعزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال : ائت بطن نخلة فانك ستجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء اليه قال هل رأيت شيئا ؟ قال لا : قال فاعضد الثانية فعضدها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال هل رأيت شيئا قال لا قال فاعضد الثالثة فأتاها فاذا هو بحبشية ناشرة شعرها واضعة يديها على عاتقها تضرب بأنيابها وخلفها سادنها فقال خالد :

كفرانك لا سبحانك : . انى رأيت الله قد أهانك .

ثم ضربها ففلق رأسها فاذا هي حممة وقتل السادن ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب وكانت العزى لأهل مكة في موضع قريب من عرفات وكانت شجرة يذبحون عندها ويدعون) أهـ (٥)

---

(١) الأصنام ص ١٦ ــ ١٧ ، اغاثة اللهفان ٢/ ٢١٢

(٢) سورة النجم آية / ١٩

(٣) جامع البيان ٢٧/ ٥٨

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ٨/ ٦١١

(٥) الأصنام لابن الكلبي ص ١٧ ــ ١٨ ، ٢٥ ــ ٢٨

قال الكلبي (١) في كتابه الأصنام :

(وكانت القريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وأعظمها (هبل) وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الانسان وكانوا اذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرا أتوه فاستقسموا عنده بالقداح وهو الذى قال أبو سفيان يوم أحد أعل هبل فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (قولوا الله أعلا وأجل) (٢).

وهناك أصنام قوم نوح التى ذكرها الله في كتابه فانها آلهة العرب وعبد وهي المذكورة في قوله تعالى (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) (٣) وقد قد مناقول ابن عباس كان هؤلاء قوما صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فلما طال عليهم الأمد عبدوهم .

فكان (ود) لبنى كلب بن مرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكان منصوبا بدومة الجندل) (٤)

وكان (سواع) لبنى هذيل بن الياس بن مدركة بن مضر ، وكان منصوبا بمكان يقال له (رهاط) (٥)

وأما يغوث : فكان لبني أنعم من طي ، ولأهل جرش (٦) من مذحج وكان منصوبا بجرش وأما يعوق ، فكان بأرض همدان من لبني من لبنى خيوان بطن من همدان .

---

(١) هو أبو المنذر هشام بن محمد أبى النضير بن السائب بن بشر الكلبي مؤرخ عالم كثير التصانيف توفي سنة أربع ومائتين هجرية أنظر الأعلام للزركلى ٨/٧

(٢) كتاب الأصنام ص٢٨ والحديث رواه البخارى أنظر الفتى ٦/ ١٦٢ ـ ١٦٣ من حديث البراء بن عازب

(٣) سورة نوح آية/ ٢٣

(٤) دومة الجندل : بلدة في وادى القرى في الشمال الشرقى من المدينة المنورة منها أنظر معجم البلدان ٢/ ٤٨٧

(٥) رهاط كغراب موضع على ثلاثة ليال من مكة أنظر معجم البلدان ١/ ١٠٧

(٦) جرش ، كزفر مخلا فبالين أنظر معجم البلدان ٢/ ١٢٦

وأما (نسر) فقد كان بأرض حمير لقبيلة يقال لهم : ذو الكلاع) (١) وكان أول من غير دين ابراهيم الخليل بالبدع المحدثة ونشر الأصنام في الجزيرة العربية رجل يقال له : عمرو بن عامر الخزاعي وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب) (٢)

وقد اختلفت الروايات في الكيفية التي نشر بها عمرو الأصنام في الجزيرة العربية فاحدى الروايات تقول : انه كان له رئي من الجن وهو الذي دله على الأصنام التي كانت عند قوم نوح وكانت قد دفنت منذ عهد نوح حيث قذفها الطوفان الى ساحل جدة فوارتها الرمال على كر الأيام فجاء رئيه من الجن فأخبره بذلك فنبشها عمرو وزعمها على عرب الجزيرة ودعاهم الى عبادتها (٣)

ورواية أخرى تقول : انه جاء بالأصنام من بلاد الشام عند ما رآهم يعبدونها فطلب منهم صنما فأعطوه واحد نصبه بمكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه) (٤)

وعلى كل فان عمرا هذا استطاع التأثير على العرب واستخفهم فأطاعوه حتى غير عليهم دين ابراهيم لما كان له من مكانة فيهم ، فأطاعوه في معصية الله تعالى فيما ابتدعه من الأمور التي لم يأذن بها الله ..

قال ابن كثير رحمه الله تعالى (والمقصود أن عمرو بن لحي لعنه الله كان قد ابتدع لهم اشياء في الدين غير بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك فضلوا بذلك ضلالا بعيدا وبنا قطعيا شنيعا) أ هـ (٥)

---

(١) أنظر الأصنام لابن الكلبي ص٥٥ ، ٥٧ ، اغاثة اللهفان ٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨ البداية لابن كثير ٢/ ٢٠٨ مطبعة الفجالة الجديد بدون تاريخ

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٨/ ٢٨٣

(٣) اغاثة اللهفان ٢/ ٢٠٧

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٧٧

(٥) البداية ٢/ ٢٠٧ مطبعة الفجالة ـ القاهرة

هذه لمحة عن بعض الأصنام التي كانت شائعة عند العرب ، وهناك أصنام ومعبودات أخرى يضيق المقام بذكرها ، وذكرنا هذا الطرف منها للتمثيل لمعرفة ما كانت عليه حالة العرب في الجاهلية من توجيههم العبادة لتلك الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغني عنهم من الله شيئا ، فقد كانوا لفرط جهلهم يدعونها من دون الله ويفزعون اليها في النائبات ويزعمون أنها تقربهم الى الله زلفى ، وهذا نتيجة الجهل والغلو في المخلوق واعطاؤه منزلة فوق منزلته ، قال العلامة ابن القيم مبينا سبب اقبال العرب على عبادة الأصنام : (ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق ، واعطاؤه فوق منزلته حتى جعل فيه حظ من الالهية وشبهوه بالله ـ سبحانه ـ وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم الذي أبطله الله ـ سبحانه ـ وبعث رسله ، وأنزل كتبه بانكاره والرد على أهله ، فهو ـ سبحانه ـ ينفي وينهى أن يجعل غيره مثلا له ، وند له وشبيها له لا أن يشبه هو بغيره اذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته ـ سبحانه ـ مثلا لشيء من مخلوقاته فجعلت المخلوق أصلا وشبهت به الخالق ، فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم ، وانما الأول هو المعروف في طوائف أهل الشرك غلوا فيمن يعظمونه ، ويحبونه حتى شبهوه بالخالق ، وأعطوه خصائص الالهية بل صرحوا أنه اله ، وأنكروا جعل الالهة الها واحدا وقالوا (اصبروا على آلهتكم) (١) وصرحوا بأنه اله معبود يرجى ويخاف ويعظم ويسجد له ويحلف باسمه ، وتقرب له القرابين الى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي الا لله ، فكل مشرك فهو مشبه لا لهه ومعبوده بالله ـ سبحانه ـ وان لم يشبهه به من كل وجه) أ هـ (٢)

---

(١) سورة ص آية ٦

(٢) اغاثة اللهفان ٢/ ٦ ، ٢ ـ ٢٢٧

(٣) عبادة الهـــــــوى

من أنواع المعبودات التي عبدت من دون الله (الهوى) وقد ورد الإنكـــار الشديد في كتاب الله تعالى لمن جعل الهه هواه فيتبعه في كل مايملي عليه قال تعالى (أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (١)

وقال تعالى (أفرايت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم) "(٢)

فالذي يترك أوامر الله وينعرض عنها ويرفض الحق الذي جاءه فانه يعد من عبدة الهوى ويصير هواه معبودا لمن دون الله تعالى ،

قال عبد الله بن عباس : ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان)

وقال قتادة هو الكافر لا يهوى شيئا ركبه لا يخاف الله) (٣)

وقال ابن كثير : (أفرأيت من اتخذ الهه هواه) أي انما يأتمـــــر بهواه فمهما رآه حسنا فعله ومهما رآه قبيحا تركـــــه (٤)

ومتى خضع الانسان لهواه واستسلم له كان بمنزلـــة الأنعام بل أضل منهـــا كما قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضـــــل سبيلا (٥)

قال ابن القيم : فشبه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والإنقياد له ، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعـــــــام لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق ، فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا ، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين مايضرهم وبين ماينفعهم والانعام تفرق بين مايضرها من النبات والطريق فتجتنبه وماينفعها فتؤثره ،

---

١) سورة القرفان آية / ٤٣

(٢) سورة الجاثية آية / ٢٣

(٣) جامع البيان ٢٥/ ١٥٠

(٤) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٦٩

(٥) سورة الفرقان آية / ٤٤

والله تعالى — لم يخلق للانعام قلوبا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها وأعطي ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم فان من لا يهتدى الى الرشد والى الطريق — مع الدليل — إليه أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه) (١)

والناظر في زمننا الحاضر يرى بأم عينيه أن عبادة الهوى غلبت على الكثير من الأمة الاسلامية فتراهم يستحسنون ما تمليه عليهم أهواؤهم فيستحسنون ويستقبحون بعقولهم ولم يلتفتوا الى الهدى الذى جاء هم من ربهم جل وعلا بل اننا نرى الكثير ينصر ما توحيه الشياطين الى أوليائهم من الانعى من المبادىء والمذاهب والتسميات والحزبيات التى كانت سببا عدو فى تفرقهم واختلافهم وكان من اهم الأسباب التى جعلت عدوهم يطمع فيهم وذلك نتيجة لا تباع الهوى ، والبعد عما فيه الرشاد والهدى ، لاقوة الا بالله .

(٤) عبادة الأجرام السماوية :

ومن المعبودات التى عبدت من دون الله — تعالى — بعض الايات الكونية مثل الشمس والقمر والكواكب والماء والنار وغير ذلك من المخلوقات .

قال العلامة ابن القيم (وأصل هذا المذهب من مشركي الصائبة ، وهم قوم ابراهيم عليه السلام الذين ناظرهم في بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه وآلهتهم بيده فطلبوا تحريقه ، وهو مذهب قديم فى العالم وأهله طوائف شتى فمنهم عباد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهي أصل نور القمر الكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها ، وهي عندهم ملك الفلك فيستحق التعظيم والسجود والدعاء) (٢)

---

(١) أعلام الموقعين ١/ ١٥٩

(٢) اغاثة اللهفان ٢/ ٢٢٣

وقد ذكر الجصاص(١) أن الصابئة اتخذوا الأجرام السماوية معبودات لهم من دون الله حيث قال (وكانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة ويعتقدون ..... وهم الذين بعث الله تعالى ـ اليهم ابراهيم خليله صلوات الله عليه فدعاهم الى الله وحاجهم بالحجج الذى بهرهم به وأقام عليهم به الحجة من حيث لم يمكنهم دفعه) آهـ (٢)

فالانسان حين يسعى في تعطيل عقله عما خلق له فانه يوقع نفسه في السخافات والمهانات والتذلل للمخلوقات مثله وبذلك يفقد تكريمه الذى نوه الله به له كما يفقد تفضيله على كثير من المخلوقات فيتدنى حتى يضل عن سواء السبيل فهذه المخلوقات العجيبه المبثوثة في أرجاء هذا الكون علويه وسفليه لم تخلق لتعبد من دون الله وانما جعلها الله دلائل واضحا وآيات بينات على وحدانيته وتفرده بالعباده ، وجميع المخلوقات التى يشاهدها الانسان والتى لم يشاهدها كلها خاضعة لله طوعا وكرها قال ـ تعالى ناهيا عباده عن أن يسجدوا للشمس والقمر وآمرا لهم بالسجود له وحده (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون (٣)

قال ابن جرير الطبرى : لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر فإنهما وان جريا في الفلك بمنافعكم فإنما يجريان بها لكم بإجراء الله إياهما لكم طائعين له في جريهما ومسيرهما لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سير وجرى دون اجراء الله اياهما وتسييرهما أو يستطيعان لكم نفعا أو ضرا وانما الله مسخرهما لكم لمنافعكم

---

(١) هو أحمد بن على الرازى الحنفي المعروف بالجصاص (أبو بكر) فقيه ، مجتهد ورد بغداد في شبيبته ، ودرس وجمع ورئى عليه كثير من الفقهاء توفي ببغداد سنة سبعين وثلاثمائة هجرية انظر ترجمته في الفهرس لابن النديم ص ٢٩٣ المنتظم لابن الجوزى ٧ / ١٠٥ ، ١٠٦ الفوائد البهية ٢٧ ، ٢٨ النجوم الزاهرة ٤/ ١٣٨

(٢) أحكام القرآن ١/ ٤٣

(٣) سورة فصلت آية / ٣٧

ومصالحكم فله فاسجد وا واياه فاعبد وا . نهما فانه ان شاء طمس ضوء هما فتركم حيارى في ظلمة لا تهتد ون سبيلا ولا تبصرون شيئا (١)

وكما أن الآية بينت ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله التى يستدل بهما على عباد ته وحده دون سواه كذلك دلت على بطلان عباد تهما من د ون الله وقد بين الله ـ تعالى ـ بطلان عباد ة جميع المخلوقات سوى الله ـ تعالى ـ قال تعالي (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والد واب وكثير من الناس) (٢)

فأ خبرنا تعالى بأن جميع المخلوقات التى يحويها هذا الكون من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ود واب وكثير من الناس خاضعة لله مطيعة له كلها عبد لديه متفقرة اليه فلا يصح عبادة شيء منها البتة

قال العلا مة ابن كثير : يخبر ـ تعالى ـ أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له فانه يسجد له لعظمته كل شيء طوعا وكرها) (٣)

(٥) عبادة الملا ئكة :

لقد افترى عبدة الشيا طين أنهم يعبد ون الملا ئكة على حسب زعمهم . لكن من المقطوع به والمعلوم بالضرورة من الأ دلة القرآنية أن هؤلاء عبد و المردة من الشياطين .

قال العلا مة ابن القيم رحمه الله تعالى ومن تلاعبه ـ أي الشيطان ـ بهم أن زين لقوم عبادة الملائكة فعبد وهم بزعمهم ولم تكن عباد تهم في الحقيقة لهم ولكن كانت للشياطين فعبد وا أقبح خلق الله وأحقهم باللعن والذم قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبد ون قالوا سبحانك أنت ولينا من د ونهم بل كانوا يعبد ون الجن أكثرهم به مؤمنون) (٤)

---

(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٢٤/ ١٢١

(٢) سورة الحج آية/ ١٨

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٢٢

(٤) سورة سبأ آية/ ٤٠ ـ ٤١

وقال ـ تعالى (ان يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا) (١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما (وان يدعون الا شيطانا مريدا) قال هو شيطان في الصنم، في كل صنم شيطان يتراءى لسدنته فيكلمهم ،

وقال أبي ابن كعب (٢) مع كل صنم جنية .

وقال مقاتل (٣) انه ابليس ، وعبادته طاعته فيما سول لهم) (٤)

ومما تقدم يتبين أن المعبودات من دون الله تعالى تنقسم الى قسمين :

(١) قسم عاقل وهما كالآدمي والملائكة والجن

(٢) وقسم غير عاقل وهذا كالأحجار والأشجار وغيرهما مما لا عقل (٥)

والقسم الأول ، ينقسم الى قسمين .

قسم راض بأن يعبد من دون الله تعالى .

وقسم غير راض بأن يعبد من دون الله ، ومثال الأول : فرعون وابليس وغيرهما من الطواغيب وهؤلاء جميعهم في النار هم وعابدوهم

قال تعالى (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) (٦)

وقال تعالى في شأن ابليس وأتباعه (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) " ٧ "

وقال تعالى في شأن فرعون (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود) (٨)

---

(١) سورة النساء آية / ١١٧

(٢) هو أبي بن كعب بن قيس أبو المنذر الأنصاري الخزرجي أقرأ الصحابة وسيد القراء توفي بالمدينة في سنة تسع عشره هجرية. الاصابه ١/ ٣١ تذكرة الحفاظ ١/ ١٦ شذرات الذهب ١/ ٣١

(٣) هو مقاتل ابن سليمان بن كثير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي المفسر روى عن الضحاك ومجاهد وله كتاب (نظائر القرآن والتفسير الكبير) مات سنة خمسين ومائة هجريه أنظر ترجمته في (طبقات المفسرين ٢/ ٣٣٠ ، تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٧٩ ميزان الاعتدال ٣/ ١٩٦

(٤) زاد المسير في علم التفسير ٢/ ٢٠٣

(٥) أنظر معان القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمي ١/ ٤٤٧

(٦) سورة البقرة آية / ١٦٦ ـ ١٦٧

(٧) سورة ص آية /٨٥ (٨) سورة هود آية ٩٨

وقال تعالى (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين (١) الى غير ذلك من الآيات وأما القسم الثاني : الذي لم يرض بالعبادة فكالمسيح وعزير والملائكة وغيرهم وهؤلاء كلهم براء ممن عبدهم في الدنيا والاخرة كما أخبر ـ سبحانه ـ عن عيسى عليه السلام بقوله (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب) ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) (٢)

وقال تعالى في شأن الملائكة (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) (٣)

وقال تعالى ـ في شأن كل من عبد من دونه من ملك أو نبي ، أو ولي صالح (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ، فقد كذبوكم بما تقولون فما تستيطعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) (٤)

وأما ما عبد من دونه ـ تعالى ـ مما لا يعقل من جماد شجر أو حجر وغير ذلك فانه يدخل في عموم قوله ـ تعالى (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون) (٥)

---

(١) سورة فصلت آية ٢٩

(٢) سورة المائدة آية / ١١٦ ـ ١١٧

(٣) سورة سبأ آية / ٤٠ ـ ٤١

(٤) سورة الفرقان آية / ١٧ ـ ١٩

(٥) سورة الأنبياء الآية / ٩٨ ـ ٩٩

وبما أن الأشجار والأحجار لاأرول لها الا أنه يعذب بهامن عبد هامن دون الله تعالى كما قال تعالى — يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة(١)

وقال ابن كثير : وقودها أى حطبها الذى يلقى فيها جثثبنى آدم والحجارة)

وقيال المراد بها الأصنام التى تعبد لقوله — تعالى — (انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم (٢)

وقد جاء في حديث الشفاعة الطويل الذى رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال (اذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ماكانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غيرالله — سبحانه من الأصنام والأنصاب الا يتساقطون فى النار حتى اذا لم يبق الا من كان يعبد الله من برو فا جرا وغير أهل الكتاب (٣) فيدعى اليهود فيقا لهم ماكنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزيرابن الله فيقال : كذبتم ماتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيماذا تبغون؟ قالوا : عطشيا ربنافاسقنا فيشار اليهم ألا ترد ون؟ فيحشرون الى النار كأنها سراب(٤) . يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار ثم يد عى النصارى فيقال لهم ماكنتم تعبد ون؟ قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون ؟ فيقولون عطشنا يا ربنا فأسقنا قال فيشار اليهم ألا ترد ون؟ فيحشرون الى جهنم كأنها سراب(٤) يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار حتى اذا لم يبق الا من كان يعبد الله تعالى من بر وفا أ تاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التى رأوه فيها قال فماتنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا : يا ربنا فارقنا الناس في الد نيا أفقر ما كنا اليهم ولم نصاحبهم فيقول : أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا (مرتين أوثلا ثا)

---

(١) سورة التحريم آية / ٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٥٩ واية من سورة الأنبياء آية / ٩٨

(٣) غبر أهل الكتاب : معناه بقاياهم جمع غابر

(٤) السراب ما يترائ ى للناس في الأرض الفقر والقاع المستوى وسط النهار فى الحر الشديد لا معا مثل الماء

حتى ان بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء أو رياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال ؟ أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا ـــ ٠٠٠٠ الحديث (١) وهذا الحديث يبين النهاية في الاخرة لأهل الشرك وكيف يكون لهم ذلك المصير السيء الذى تجف منه القلوب وتقشعر له الجلود نعوذ بالله من الشرك وأهله ٠

تلك بعض معبودات المشركين التى استطعنا جمعها تحت هذا البحث والذى نخلص اليه مما تقدم أن السورة أوضحت لنا أصل الشرك الذى دفع المشركين لعبادة غير الله ـ تعالى ـ من المعبودات التى ذكرناها والتى لم نذكرها وأن السبب الوحيد في حدوث الشرك هو قياس الخالق سبحانه على المخلوق فان المشركين زعموا بعقولهم الفاسدة أن ملوك الدنيا لا يتوصل إليهم إلا بالوجهاء والشفعاء والوزراء الذين يرفعون اليهم حوائج رعاياهم ويطلبون لهم عطفهم فيكون ذلك تمهيدا للأمر المطلوب منهم ٠ فظن المشركون أن الله ـ تعالى ـ كذلك وهذا ظن سوء بالله ـ تعالى ـ وهذا القياس من أفسد الأقيسة اذ أنه يتضمن تسوية الخالق بالمخلوق مع ثبوت الفرق العظيم عقلا ونقلا وفطرة اذ ملوك الدنيا انما يحتاجون الى الوساطة بينهم وبين رعاياهم لعدم علمهم بأحوال من استرعاهم الله فيهم في أشد الحاجة الى من يعلمهم بذلك ، ولأنه ربما لا يكون في قلوبهم رحمة أو شفقة لصاحب الحاجة ، فيحتاجون الى من يعطفهم عليه ويسترحمهم له ولذلك يحتاجون الى الشفعاء والوزراء فيقضون حوائج العباد مراعاة لوزرائهم ومداراة لخواطرهم وقد يمتنعون من ذلك خشية الفقر لأنهم فقراء

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٦٧ ـ ١٧١

أما البارى – سبحانه – فانه أحاط بكل شيء علما يعلم ظواهر الأمور وبواطنها فلا يحتاج الى من يخبره بأحوال عباده ولا من يشفع لهم عنده لأنه رحيم بعباده جواد بالعطاء، ولا يحتاج الى أحد منهم بل هو أرحم بهم من أنفسهم ومن والديهم وهو الكريم الذى يجتهم ويدعوهم الى الأخذ بالأسباب التى ينالون بها رحمته وهو يريد من مصالحهم مالا يريدونه لأنفسهم.

وهو الغنى الذى له الغنى التام المطلق الذى لو اجتمع الخلق كلهم من أولهم الى آخرهم في صعيد واحد فسألوه جميعهم فأعطي كلا مسألته لم ينقصوا مما عنده الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر.

وجميع الشفعاء يخافون منه – سبحانه – ولا شفاعة لأحد عنده الا بعد اذنه له الشفاعة كلها.

ومن هذا لا يدرك المؤمن جهل المشركين ويعرف سفاهتهم وشدة جرأتهم على الله – تعالى – كما يعلم الحكمة في كون الشرك أعظم الذنوب وأنه لا يغفره الله لأنه يتضمن القدح في الله تعالى – نسأل الله أن يجنبنا ذلك

المبحث الخامس

الفرق بين المشرك والموحد

لقد دلت السورة على الفرق الشاسع بين الموحد والمشرك وصورت ذلك تصويرا دقيقا جعلته كأنه محسوس ، ملموس مما دل ذلك على قبح الشرك في النفوس والعقول السليمة ، والفطر المستقيمه قال تعالى : ـ

(ضرب الله مثلا رجلافيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)

قال ابن جرير رحمه الله تعالى ـ (يقول تعالى ذكره : مثل الله مثلا للكافر بالله الذى يعبد آلهة شتى ويطيع جماعة من الشياطين ، والمؤمن الذى لا يعبد الا الله الواحد .

يقول تعالى ذكره (ضرب الله مثلا لهذا الكافر رجلا فيه شركاء يقول واحد هو بين جماعة ما لكين متشاكسين يعنى مختلفين متنازعين سيئة أخلاقهم من قولهم رجل شكس : اذا كان سيء الخلق وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه (ورجلا سلما لرجل (يقول ٢/ ورجلا خلوصا لرجل يعنى المؤمن الموحد الذى أخلص عبادته لله لا يعبد غيره ولا يدين لشيء سواه بالربوبية .

قال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ؟ (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ولا جلا سلما لرجل) الاية قال الشركاء المتشاكسون الرجل الذى يعبد آلهة شتى كل قوم يعبدون الها يرضونه ويكفرون بما سواه من الآلهة فضرب الله هذا المثل لهم وضرب لنفسه مثلا يقول : (رجلا سلم لرجل) يقول : يعبدون الها واحدا لا يختلفون فيه .

وقال قتادة (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) قال هذا المشرك تتنازعه الشياطين لا يقربه بعضهم لبعض (ورجلا سلما لرجل) قال : هو المؤمن أخلص الدعوة والعبادة وقال مجاهد ؟ (رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سالما لرجل قال : هذا مثل اله الباطل ، واله الحق

وقال السدى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) قال : مثل لأوثانهم التى كانوا يعبدون ...

وقوله (هل يستويان مثلا) يعنى هل يستوى مثل هذا الذى يخدم جماعة شركاء سيئة أخلاقهم مختلفة فيه متنازعة مع منازعته شركاءه فيه والذى يخدم واحد لا ينازعه فيه منازع اذا أطاعه عرف له موضع طاعته وأكرمه، واذا أخطأ صفح له عن خطئه يقول : فأى هذين أحسن حالا وأروح جسما وأقل تعبا ونصبا) أ هـ (١)

قال العلامة ابن القيم حول هذه الآيـــة :

هذا مثل ضربه الله ـ سبحانه ـ للمشرك والموحـد ، فالمشرك بمنزلـــة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحون ، والرجل الشكس الضيق الخلق فالمشرك كما كان يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمتـــه لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين ، والموحد لما كان يعبد الله وحده ، فمثله كمثـــل عبد لرجل واحد قد سلم له، وعلم مقاصده وعرف الطريق الى رضاه فهو في راحة من تشاحن المخلطاء فيه ، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه مع رأفة مالكه به ورحمتـه له وشفقته عليه، وإحسانه إليه وتوليه لمصالحه فهل يستوى هذان العبدان ، وهذا من أبلغ الأمثال فان المخالص لمالك واحد يستحق من معونته واحسانه والتفاتـــه اليه وقيامه بمصالحه مالا يستحق صاحب الشركاء المتشاكين (الحمد للـــه بل أكثرهم لا يعلمون أ هـ (٢)

وقال رحمه الله في موضع آخر (احتج ـ سبحانه ـ على قبح الشرك بما تعرفـه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا الملكة وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله لفهل يصح في العقول استواء حال العبد يـن؟ فكذلك حال المشرك والموحد قد سلم تعبوديته لا لهه الحق لا يستويان) أ هـ (٣)

---

(١) جامع البيان عن تأويل أى القرآن ٢٣/ ٢١٣/ ٢١٤

(٢) اعلام الموقعين ١/ ١٨٧

(٣) مدارج السالكين / ١/ ٢٤٠

وأما العلامة ابن كثير فقد قال حول الآية (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) أى يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم (ورجلا سلما لرجل) أى سالما (لرجل) أى خالصا لا يملكه أحد غيره (هل يستويان مثلا) أى لا يستوى هذا وهذا ، كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذى لا يعبد الا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد هذه الاية ضربت مثلا للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهرا بينا جليا قال (الحمد لله) أى على اقامة الحجة عليهم (بل أكثرهم لا يعلمون) أى فهم بهذا يشركون بالله أ هـ (١)

ومما تقدم يتبين لنا أن المؤمن الذى يعبد الله وحده لا شريك له، لا شك أنه أحسن حالا وأهد أبالا وأقل تعبا ونصبا من ذلك المشرك الذى خالف عقله وفطرته وأمر ربه ، واتجه بالعبادة الى الأولياء والشركاء الذين لم يأذن الله بعبادتهم بل جعل ذلك من أقبح القبيح وأظلم الظلم وأن الكافر لا يمكن أن يستقر له قرار ولا يطمئن له قلب ولا تهدأ له نفس بعكس المؤمن الذى أخلص لله في عبادته فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة لأنه لم يعمل ما فيه مضادة لأمر الله أو ما فيه مخالفة للعقل والفطرة ،

فلقد أنكر الله ـ سبحانه ـ قبح الشرك به في الالهية وعبادة غيره معه بما ضربه لعباده من الأمثال وأقام على بطلانه الكثير من الأدلة العقلية والسمعية التى يتذكر بها أولو الألباب . ولقد جاءت آيات كثيرة في معنى الآية التى معنا من السورة من ذلك قوله تعالى ـ (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) (٢)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٩٠

(٢) سورة الروم آية/ ٢٨

هذه الآية احتج الله فيها على عباده بما هو مستقر في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكا له فكأنه يقول : لهم اذا كان أحدكم يستنكف أن يكون مملوكه شريكاله، ولا يرضي بذلك ، فكيف تجعلون لله من عباده شركاء تعبدونهم كعبادته ؟ فالآية توضح لنا أن قبح عبادة غير الله ـ تعالى ـ مستقر في العقول والفطر، والشرع نبه العقول وأرشدها بما هو مودع وكان من فيها من قبح ذلك .

قال العلامة ابن القيم : حول هذه الاية (وهذا دليل قياس احتج الله سبحانه ـ به على المشركين حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم ، لا يحتاجون فيها الى غيرهم ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الانسان من نفسه ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عنده هما معلوم لها فقال (هل لكم مما ملكت أيمانكم) من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل ؟ أى هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم و يشاطروكم اياها و يستأثرون ببعضها عليكم كما يخاف الشريك شريكه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا والمعنى هل يرضي أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء الأحرار ؟

فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي ؟

فأن كان هذا الحكم باطلا في نظركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة وانما هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم وهم عبيد لي ـ فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي ؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولى العقول) أ هـ (١)

ومن الأمثال التى ضربها الله ـ تعالى ـ لقبح الاشراك بقوله ـ تعالى ـ (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢)

---

(١) اعلام الموقعين ج ١ ص ١٥٩

(٢) سورة النحل آية ٧٥

هذه الآية تضمنت مثلا لقبح الشرك والتنفير منه فقد ضرب الله ـ سبحانه ـ فيها مثلا لنفسه وللأوثان فالله ـ سبحانه ـ هو الذى يملك كل شيء، وهو الذى ينفق على عباده كيف يشاء ليلا ونهارا، سرا وجهارا يمينه ملأى لا يغيضها نفقه سحاء الليل والنهار.

أما الأوثان فهي عاجزة مملوكة ليس لها القدرة على أى شيء ومادام حالها على هذا كيف تجعلونها شركاء لله وتعبدونها من دونه مع هذا التفاوت المبين والفرق العظيم، وهذا هو معنى تفسير مجاهد وغيره لهذه الآية الكريمة. (١)

وأما عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما فانه قال: ان هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذى عنده، ثم رزقه منه رزقا حسنا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرا وجهرا، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء لأنه لا خير عنده فلا مساواة بين الرجلين عند أحد من ذوى الألباب (٢)

قال العلامة ابن القيم: والقول الأول أشبه بالمراد فانه أظهر في بطلان الشرك وأوضح عند المخاطب، وأعظم في اقامة الحجة وأقرب نسبا لقوله (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون) ثم قال (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) (٣) ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقا حسنا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد اليه، فذكره ابن عباس منبها على اولويته لا أن الآية اختصت به فتأمله. أ هـ (٤)

---

(١) جامع البيان عن تأويل أى القرآن ١٤/ ١٤٩

(٢) جامع البيان ١٤/ ١٤٩ تفسير ابن كثير ٤/ ٢١١

(٣) سورة النحل آية / ٧٣ ـ ٧٤

(٤) أعلام الموقعين ١/ ١٦١

ومن الأمثال التي ضربها الله لقبح الإشراك به ـ سبحانه ـ وتعالى (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم (١) وفي هذه الاية ضرب الله ـ سبحانه ـ فيها لنفسه وللأصنام المعبودة من دونه مثلا ، فالصنم الذى يعبد من دونه الله هو بمثابة رجل أبكم لا يعقل ، ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني ، اضافة الى ذلك أنه عاجز لا يقدر على شيء ألبته ومع هذا فأينما وجه لا يأتي بخير ولا يقضى حاجة لمن أرسله

أما الله ـ تعالى ـ فانه الحي القادر المتكلم الآمر بالعدل وهو على الصراط المستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد فانه ـ سبحانه ـ الآمر بالعدل ـ وهو الحق ـ (وذلك يتضمن أنه سبحانه ـ عالم به محب له راض به آمر لعباده به محب لأهله لا يأمر بسواه بل هو ـ سبحانه ـ منزه عن ضده الذى هو الجور والظلم والسفه ، والباطل ، بل أمره وشرعه عدل كله وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور والآمر بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدرى الكوني ، وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما (٢) ومن كانت هذه صفاته هو الجدير بأن يعبد وحده لا شريك له ويخلص له الدين كله ـ ومما تقدم يتبين لنا من المثل الذى ضربه الله في السورة وغيرها من الآيات التى ذكرناها في معناها قبح الشرك سمعا وعقلا وفطرة كما يتبين لنا الآتى :

١) = أن الموحد لا يكون لاعنده ضيق نظر بخلاف المشرك الذى يعبد آلهة شتى أو يجحدها بالكلية

---

(١) سورة النحل آية ٧٦

(٢) اعلام الموقعين ١/١٦٣

٢) = أن الموحد تنشأ في نفسه العزة والقوة التي لا يقف أمامها شيء لأنه أيقن في نفسه بأنه لا نافع ولا ضار الا الله وأنه سبحانه ـ المحي المميت هو أيضا صاحب القهر والحكم والسلطان في هذا الكون وهنا ينتزع من قلبه كل خوف من غير الله ـ تعالى ـ فتجده لا يطأطيء رأسه لأحد من الخلق، ولا يتضرع لغيره ولا يسأله ولا يخاف من كبريائه وعظمته لأنه استقر في نفسه عظمة القادر ـ سبحانه وهذا بخلاف المشرك والكافر ومن تربى على الالحاد ،،

٣) = أن الموحد لربه ـ جل وعلا ـ يتولد في نفسه مع العزة والقوة : تواضع دون ذل وترفع من غير كبر حتى أن الشيطان لا يلقي اليه سبيلا لأن يلقى في نفسه الأخلاق الذميمة اذ أنه يعلم بيقين أن الله تعالى ـ هو الذي وهبه كل ما عنده من النعم وهو القادر على سلبه اياه في أي لحظة شاء، أما المشرك فانه يجد لديه من الاخلاق الذميمة التي هي كفيلة باهلاكه مثل الكبر وبطر الحق بمجرد حصوله على نعمة سريعة الزوال بين حين وآخر.

٤) = أن الموحد موقن تمام اليقين بأنه لا سبيل الى النجاة والفلاح الا بتطهير نفسه من كل معصية لله ـ عزوجل ـ بالعمل الصالح أما المشرك والكافر فانه يمضي حياته كلها في الأماني الكاذبة كما يزعم النصارى بأن المسيح عليه الصلاة والسلام أصبح كفارة لذنوبهم وكما يزعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه فلا يعذبهم بذنوبهم وكما يعتقد بعض جهلة المسلمين أن الكبراء والأتقياء من اهل الصلاح سيشفعون لهم عند الله ـ تعالى ـ فيقدمون لهم النذور والقرابين في المواسم، ثم يستمرون في مخالفة الأوامر والنواهي، اتباعا للهوى والشهوات الشيطانية.

٥) = أن الذي أقر لله بالوحدانيه وأفرده بالعبادة والطاعة لا يتسرب اليه يأس ولا يحل به القنوط لأنه يؤمن بأن خزائن السموات والأرض بيد الله وحده دون سواه ومن هنا يكون مطمئنا تغمره السكينة والأمل حتى ولو نزل به ألوان من الهوان، والطرد من قبل أعداء الله فانه لا تضيق به طرق العيش اذا أنه يوقن بأن الله يكلؤه ولا يسلمه الى نفسه مع بذله جهده في التوكل على خالقه وبارئه ـ سبحانه ـ أما الكافر أو المشرك فانه يعتمد على طاقاته المحدودة فإذا ما نزل به أمر فسرعان ما يحل به اليأس والقنوط في الشدائد بل ربما يؤدي به حاله إلى الإنتحار.

٦) أن المؤمن بالله يتربى على الشجاعة والعزم والتوكل والثبات عند مايقدم على أمور يريد بها وجه الله ـ تعالى ـ كالجهاد في سبل الله والمرابطة في ثغور الاسلام اذ أنه يشعر في قرارة نفسه بأنه يستمد قوته ونصره من مالك السموات والأرض وما بينهما فلا يكون هناك مثيل لموقفه وثباته وأني للمشرك والكافر مثل هذا الموقف بتلك القوة والثبات التي يؤيد الله بها أولياءه .

٦) أن الذي يؤمن بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا يكون قوى الجانب فلا مكانة للجبن والوهن لديه اذا الجبن وضعف العزم يتولد من أمرين: حب الانسان نفسه وماله وأهله ، واعتقاده أن غير الله له القدرة على سلبه الحياة لكن المؤمن بالله حق الايمان ينحي من قلبه كلا الأمرين السابقين فهو موقن بأن الله هو المالك الحقيقي للانسان ونفسه وماله وأهله فهو يضحي في سبيل الله بكل غال ورخيص في الحصول على مرضات الله ـ تعالى ـ كما أنه موقن بأنه ليس في مقدور الخلق أجمعين سلب الحياة الا بقضاء الله وقدره ، ونتيجة الايمان الصادق فان المؤمن حينما يلتقي بجيش الكفر لا يهاب كثرته ولا يخاف قعقعة السوف فهو يواجه أعداء الله مقبلا غير مدبر لأنه يؤمن أن اطالة العمر وانقضاءه لأجل انما هو بيد الله وحده .

٨) = أن الايمان بأنه لا معبود بحق الا الله ـ تعالى ـ يرفع من قدر العبد فلا توجد فيه الخصال الذميمة مثل الدناءة واللؤم والشره والحسد وغيرها من الصفات القبيحة شرعا وعقلا وفطرة ـ لأن الاسلام يبغض هذه الخلال ويحذر منها شد تحذير .

٩) أن التوحيد الخالص والاقرار الصحيح بـ (لا اله الا الله) قولا وعملا ، اقتضاء معنى يجعل المرء ملتزما لشرع الله ، ومحافظا عليه اذا المرء عند ما يؤمن بأن ربه بكل شيء عليم وأن معه من الملائكة من هو رقيب وعتيد وأنه اذا كان لديه حيلة في النفلت من بطش البشر فانه ليس له قدرة على التخلص من الله ـ عز وجل وعلى قدر قوة الايمان وضعفه يكون التزام المعبد بأحكام الله واقفا عند حدوده فلا يكون عنده جرأة على اقتراف الآثام وانتهاك المحارم بل يكون مبسارعا الى فعل الخيرات بعكس المشرك والكافر والملحد فان حياته كلها في الوقوع فيما يغضب الله جـ ـ تعالى (١) أعاذنا الله من شر ذلك وجعلنا ممن يعبدونه وحده دون سواه .

---

(١) أنظر مبادى الاسلام للمودودى ص ٨٠ ـ ٨٦

(المبحث السادس)

التحذير من الشرك وبيان أنه محبط للعمل

لقد ورد التحذير عن الشرك ، وأنه يحبط العمل في آية واحدة من هذه السورة قال ـ تعالى ـ (ولقد أوحي اليك والي الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)

هذه الآية من السورة بين الله ـ تعالى ـ فيها أنه قد أوحى الي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والي كل اخوانه من الأنبياء ممن سبقوه بأنه لو صدر من أحدهم اشراك بالله وحاش أن يصدر منهم ذلك لأن الله عصمهم من الوقوع في الاشراك به جل وعلا ـ ولكن هذا من باب فرض المستحيل غير الواقع ـ ولو حصل ذلك لكان سببا في احباط العمل وضياع الثواب ويصير صاحبه في ضمن الأشقياء الذين حرموا الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض.

واذا كان هذا الخطاب موجها الى أكرم الخلق وأحبهم لى الله ـ تعالى ـ وهم الرسل الكرام وفي طليعتهم سيد الأولين والآخرين عليهم الصلاة والسلام فما البال بصدوره من غيرهم من بني الانسان ..

قال البغوي رحمه الله ـ تعالى ـ حول قوله عزوجل ـ (ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) يعني الذي عملته قبل الشرك وهذا خطاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد منه غيره، وقيل هذا أدب من الله ـ عزوجل ـ لنبيه وتهديد لغيره لأن الله ـ تعالى ـ عصمه من الشرك) أ هـ (١)

وقال ابن جرير رحمة الله عليه ، حول الاية نفسها :

يقول ـ تعالى ـ ذكره (ولقد أوحي اليك يا محمد ربك، والى الذين من قبلك من الرسل (لئن أشركت ليحبطن عملك) يقول لئن أشركت بالله شيئا يا محمد ليبطلن عملك ، ولا تنال به ثوابا ولا تدرك جزاء الاجزاء من أشرك بالله وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم ، ومعنى الكلام :

---

(١) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل أنظر حاشية تفسير الخازن ٦/ ٧٠

ولقد أوحي اليك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين والى الذين من قبلك ، بمعنى والى الذين من قبلك من الرسل من ذرك ، مثل الذى أوحى اليك منه فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك ، ومعنى قوله (ولتكونن من الخاسرين ولتكونن من الهالكين بالا شراك بالله ان أشركت شيئاً هـ (١)

ومثل هذه الاية في السورة (ولقد أوحي اليك والي الذين من قبلك) الايـــة قوله ــ تعالى ــ (ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون) (٢)

وهذا تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته (٣)

ولقد حذر الله من الشرك وبين عاقبته السيئه في مواضع كثيرة من كتابـــــه قال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) (٤)

قال ابن كثير (أخبر ــ تعالى ــ أنه لا يغفر أن يشرك به ، أى : لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ، ويغفر مادون ذلك أى : من الذنوب لمن يشاء من عباده أ هـ ( )

(فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب لأن الله ــ تعالى ــ أخبر أنه لا يغفره أى الا بالتوبة منه ، وماعداه فهو داخل تحت مشيئة الله ان شاء غفره بلا توبة وان شاء عذب به وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذى هذا شأنه عند الله ((٥

وقال تعالى (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وماللظالمين من أنصـــــار (٧)

وفي مسند الامام أحمد من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله بـــه

---

(١) جامع البيان ٢٤/ ٢٤

(٢) سورة الأنعام آية / ٨٨

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٣

(٤) سورة النساء آية/ ٤٨

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٠٨

(٦) تيسير العزيز الحميد ص ٩٠ ــ ٩١

(٧) المائدة ا لاية ٧٢

ودیوان لا یترك الله منه شیئا ، ودیوان لا یغفره الله فأما الدیوان الذی لا یغفره الله فالشرك قال الله عز وجل ومن یشرك بالله فقد حرم الله علیه الجنة ، وأما الدیوان الذی لا یعبأ الله به شیئا فظلم العبد نفسه فیما بینه وبین ربه من صوم یوم تركه أو صلاة تركها فان الله عز وجل یغفر ذلك ویتجاوز ان شاء وأما الدیوان الذی لا یترك الله منه شیئا فظلم العباد بعضهم بعضا القصاص لا محالة [1] .

قال العلامة ابن القیم" ولما كان الشرك أعظم الدواوین الثلاثة عند الله ـ عزوجل ـ حرم الجنة على أهله فلا تدخل الجنة نفس مشركة وانما یدخلها أهل التوحید فان التوحید هو مفتاح بابها فمن لم یكن معه مفتاح لم یفتح له بابها ، وكذلك ان أتى بمفتاح لا اسنان له لم یمكن الفتح ، وأسنان هذا المفتاح هي الصلاة والصیام والزكاة والحج والجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وصدق الحدیث وأداء الامانة وصلة الرحم وبر الوالدین " أ.هـ [2] .

وقال تعالى آمرا عباده باجتناب عبادة غیره من الاوثان والاصنام ((فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غیر مشركین به ومن یشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطیر أو تهوى به الریح في مكان سحیق)) [3] .

هذه الایة توجیه للبشریة جمعاء بالابتعاد عن ملابسة كل طاغوت یعبد من دون الله تعالى ـ وفیها تصویر للاوثان بأنها رجس لوخامة ما ینتج عنها من الاعتقاد والفساد وقد قرن الله الاوثان بقول الزور لان الشرك من باب الزور فان المشرك یزعم أن الوثن تحق له العبادة وهذا أعظم أبواب الزور والافتراء . ولنستمع الى ابن القیم وهو یصور لنا الاهتزازات التي تعتري الذین ارتكسوا في أوحال الوثنیة وعبدوا غیر الله ـ تعالى ـ ممن هم عبید أمثالهم فقال رحمه الله في كلامه لبیان هذا المشهد في هذه الایة" فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغیره ویجوز لك في التشبیه أمران : أحدهما : أن تجعله تشبیها مركبا ویكون قد شبه من أشرك بالله یرجى معه نجاة فصور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطیر في الهوى فتمزق مزقا في حواصلها أو عصفت به الریح حتى هوت به في بعض المطارح البعیدة وعلى هذا لا تنظر الى كل فرد من أفراد المشبه ، ومقابلة من المشبه به .

---

١) المسند ٦/ ٢٤٠ ٢) الوابل الصیب ص ١٨

٣) سورة الانبیاء آیة ٣٠-٣١

والثانى : أن يكون من التشبيه المفرق فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به وعلى هذا فيكون قد شبه الايمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التى هى مصعده ومهبطه، فمنها هبط الى الأرض، واليها يصعد منها وشبه تارك الايمان والتوحيد بالساقط من السماء الى أسفل سافلين من حيث التطييق الشديد والا لام المتراكمة والطير التى تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التى يرسلها الله ـ سبحانه وتعالى عليه وتؤزه أزا وتزعجه وتقلقه الي مظان هلاكه ، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه والريح التى تهوى به في مكان سحيق هو هواه الذى يحمله على القاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء) (أ هـ (١).

فكل ما تقدم من الايات القرآنية وأقوال العلماء من التحذير من الشرك يوجب للانسان أن يخاف على نفسه فانه أعظم ذنب عصي الله ـ تعالى ـ به .

وقد ذكر الله عن خليله ابراهيم أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام أنه خاف على نفسه وبنيه من عبادة الأصنام مع أنه عليه الصلاة والسلام قد أكرمه الله العصمة من الشرك وغيره ،

قال تعالى مخبرا عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس) (٢)

قال في تيسير العزيز الحميد (واجنبنى) أى اجعلنى وبنى في جانب عن عبادة الأصنام وباعد بيني وبينها قيل : وأراد بذلك بنيه وبناته من صلبه ولم يذكر البنات لدخولهم تبعا في البنين ، وقد استجاب الله دعاءه وجعل بنيه أنبياء وجنبهم عبادة الأصنام وانما دعا ابراهيم عليه السلام بذلك لأن كثيرا من الناس افتتنوا بها كما قال (رب انهن أضللن كثيرا من الناس) فخاف من ذلك ودعا الله أن يعافيه وبنيه من عبادتها ، فاذا كان ابراهيم عليه السلام يسأل الله أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام فما ظنك بغيره ؟ أ هـ (٣)

---

(١) أعلام الموقعين ١/ ١٨٠

(٢) سورة ابراهيم آية ٣٥ ـ ٣٦

(٣) ص ٩٢ ـ ٩٣

فابراهيم عليه السلام هو الذى أمتثل أمر ربه حين أمره بذبح ولده وهوالذى أخذ الفأس وحطم به الأصنام، وهو الذى اشتد نكيره على عبدة الأصنام والأوثان ومع ذلك يخاف على نفسه وبنيه الوقوع في الشرك الذى هوعبادة الأصنام لأنه يعلم أنه لا يصرف عن ذلك الا بهداية الله جل وعلا وتوفيقه ..

جاء في قرة عيون الموحدين : فهذا الذى خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة فبنيت المساجد والمشاهد على القبور و صرفت لها العبادات بأنواعها

واتخذ ذلك دينا وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى و مناة وأصنام العرب وغيرهم ، فما أشبه ماوقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم ما أشبه ما بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الربوبيه سابطول عده) (١)

وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من الشرك وبين العاقبة السيئة التى تلحق المشرك اذا رجع الى الله ـ تعالى ـ

قال صلى الله عليه وسلم (من مات وهويدعومن دون الله ندا د خل النار) (٢)

وقال عليه الصلاة والسلام : من لقي الله لا يشرك به شيئا د خل الجنة ، ومن لقيه د خل النار) (٣)

فقد بين صلى الله عليه وسلم في هذين الحديثين أن من مات على الشرك لا يد خل الجنة ولا تنا له رحمة الله ويكون من الخالدين في نار جهنم ..

كما بين أن من مات على التوحيد دخل الجنة قال النووى (أما د خول المشرك الى النار فهو على عمومه ، فيد خلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابى اليهودى والنصراني ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة من المرتدين والمعطلين ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناد اوغيره ، ولا بين من خالف ملة الاسلام وبين انتسب اليها ثم حكم لكفره بجحده وغير ذلك ، وأما د خول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له ، لكن ان لم يكن صاحب كبيرة مات مصرا عليها د خل الجنة أولا ، وان كان صاحب كبيرة مات مصرا فهو تحت المشيئة ، فان عفا عنه د خل الجنة

---

(١) ص ٤٠ (٢) رواه البخارى انظر الفتح ٨/ ٧٦ من حد يث ابن مسعود رضى عنه

(٣) رواه مسلم من حد يث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ١/ ٨٤

أولا والا عذ ب في النار ثم أخرج فيد خل الجنـــــــة.) أ هـ (١)

ومن هذا يتبين لنا أن الشرك أشد الأعمال جرما ، أقبحها ظلما كما قال تعالى حكايـة عن لقمان وهو يوصي ابنه (يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) (٢)

وقد بين تعالى في موضع آخر بأنه لا أمن ولا اهتداء الا لمن يخلطوا عباد تهـــم بمعصية الشـــــرك

قال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (٣)

وقد روى الشيخان . في صحيحهما من حد يث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الاية شق ذلك على المسلمين فقالوا يارسول الله وأينا ذلك ؟ قال انما هو الشرك ألم تستمعوا ما قال لقمان لا بنه ان الشرك لظلم عظيم) (٤) قال النووى عند شرحه لهذا الحديث (لما شق عليهم أنزل الله ــ تعالى (وان الشرك لظلم عظيم) (٤)

وأعلم النبى صلى الله عليه وسلم أن الظلم المطلق هناك هو المراد به هذا المقيد وهـــو الشرك كما قال لقمان لابنه فالصحابة رضي الله عنهم حملوا الظلم على عمومه والمتبادر الى الأفهام منه وهو وضع الشيء في غير موضعه وهو مخالفة الشرع فشق عليهم الى أن أعلمهم النبى صلى الله عليه وسلم بالمراد بهذا الظلم) أ هـ (٥)

قال شيخ الا سلام ابن تيميه رحمه الله ــ موضحا لذلك (والذى شـــق عليهـــــم أنهـــم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفســـه وأنه لا أمن ولا اهتـداء الا لمن لم يظلم نفسه ، فبين لهم النبى صلى الله عليه وسلم ما دلهم على أن الشـــرك ظلم فى كتاب اللـه

فلا يحصل الأمن والا هتداء الا لمن لم يلبس ايمانه بهذا الظلم فان من لم يلبـــس ايمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والا هتداء .. فمن سلم من أجناس الظلم الثلا ثة الشرك ، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه د ون الشـــرك ، كان له الأمن التام والاهتـــداء التام ، ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والإهتداء المطلق بمعنى :

---

(١) شـــرح النووى على مسلم ٢/ ٩٧

(٢) سورة لقمان آيـــة / ١٣

(٣) سورة الا نعام آية / ٨٢

(٤) صحيح البخارى ٣/ ١٧٢ صحيح مسلم ١١٤ــ١١٥

(٥) شـــرح النووى على مسلم / ٣/ ١٤٣

أنه لا بد من أن يدخل الجنة كما وعد الله بذلك وقد هداه الله الى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه الى الجنة ، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من ايمانه بظلمه لنفسه ، وليس مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله (انما هو الشرك أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم لا من التام والاهتداء التام الذى يكونون بهما مهتدين الى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من غير عذاب يحصل لهم ، بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم . ولا بد لهم من دخول الجنة ، وقوله (انما هو الشرك) ان أراد به الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والاخرة ، وان كان مراده جنس الشرك يقال : ظلم العبد لنفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر ، وحبه مايغضب الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الشرك بهذا الاعتبار) أ هـ (١)

ومن هذا يعلم أن الشرك بالله أظلم الظلم وأشد ذنب عصي الله به ولذلك رتب الله عليه من العقوبات الدنيوية والاخروية مالم يرتبه على ذنب سواه من اباحة دماء أهله وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم وعدم مغفرته من بين الذنوب الا بالتوبه منه) (٢)

قال في تيسير العزيز الحميد (وانما كان كذلك لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم ، مضمونه تنقيص رب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره ، وعدل غيره به كما قال تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) (٣) ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر منا فله من كل وجه وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته والذل له والانقياد لأمره الذي لا صلاح للعالم الا بذلك فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة كما قال صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى لايقال في الأرض الله الله) (٤)

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٨٠ ـ ٨١

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٨٩ تبصرف يسير

(٣) سورة الأنعام آية / ١

(٤) رواه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه ١/ ١٣١

ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق ـ تعالى ـ وتقدس في خصائص الالهيـــه من ملك الضـــر والنفع ، والعطاء ، والمنع الذى يوجب تعلق الدعاء والخوف الرجـاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله ، فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه ضـــرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فضلا عن غيره شبيهـــا بمن له الخلق كله وله الملك كله وبيده الخير كله واليه يرجع الأمر كلـــه .

فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه ـ ومرجعها اليه فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن) أ : هـ (١)

كما يفهم من هذا أن المشرك لم يقدر الله حق قدره ، ولم يأت بالأمر الذى خلق من أجلـــه فهو ظالم من جهة أنه صرف الحق الذى لا يستحقه الا الله ـ تعالى للمخلوق الذى لا يستحق من ذلك شيئا لأنه ليس أهلا لذلك .

كما أن المشرك ظالم لنفسه حيث يشقيها باشراكه بالله ـ تعالى ـ ويحرمها رحمـــه الله ويجعلها تتذلل لمخلوق من مخلوقات الله فقير الى الله الذى له الغنى المطلـــق من جميع الوجوه والاعتبارات

أعاذنا الله من الشـــرك كبيره وصغيره جليه وخفيه وبالله التوفيق .

---

(١) ص ٩١

المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
قسم الدراسات العليا
«شعبة العقيدة»

مباحث العقيدة
في سورة الزمر

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية الماجستير

إعداد الطالب
ناصر بن علي عايض حسن الشيخ

إشراف فضيلة الشيخ
عبد المحسن بن حمد العباد

المجلد الثاني

١٤٠٥ - ١٤٠٦هـ

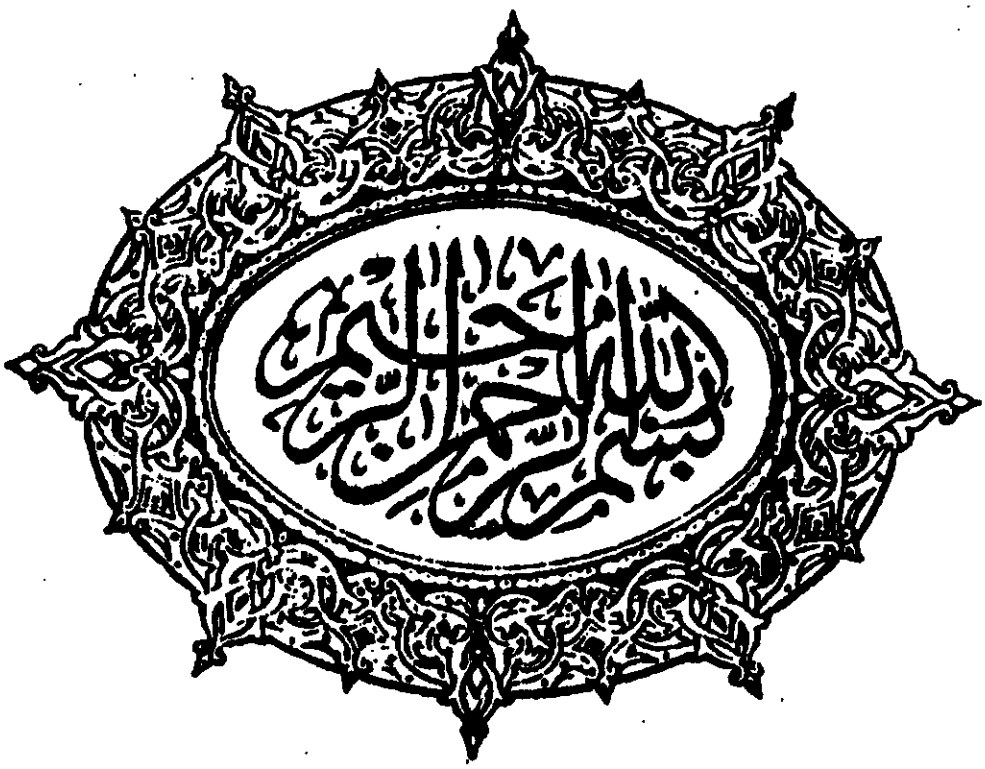
بسم الله الرحمن الرحيم

البَابُ الثانى

ـ((البـــاب الثـــانى))ـ

دلالة السورة على وجوب الايمان بالملائكة والكتب ، والرســـــــل والقدر

وفيه فصـــــــول

الفصـــــل الاول : دلالة السورة على وجوب الايمان بالملائكـــة

الفصل الثـــانى : دلالة السورة على وجوب الايمان بالكتـــــــــب.

الفصل الثالـــث : دلالة السورة على وجوب الايمان بالانبياء والرســـــل.

الفصـــل الرابع : دلالة السورة على وجوب الايمان بالقـــــــــدر.

الفصل الأول

(الفصـــل الأول)

دلالة السورة على وجـــوب الايمان بالملائكـــة وفيه مبحثـــــان

المبحث الأول : تعريف الملائكـــــــــة ، ومن أى شيء خلقوا ؟

المبحث الثاني : ذكر بعض أعمال الملائكة التي أنيط بعضهم بعضا

(المبحث الأول)

تعريف الملائكة عوم أى شيء خلقوا؟

(١) تعريف الملائكة :

الملائكة جمع ملأك) نقلت حركة الهمزة فيه الي الساكن قبله، ثم حذفت الهمزة تخفيفا فصارت (ملكا) وهو مشتق من كلمة (الألوكه) التى هي الرسالة والجمع (ملائك) و(ملائكة) (١)

قال شيخ الا سلام ابن تيميه رحمه الله تعالى : (والملك في اللغة : حامل الألوكة وهي الرسالة) أهـ (٢)

والذى نستفيده من التعريف اللغوى : أن الملائكة هم سفراء الله الى أنبيائه ورسله في تبليغ الوحى والشرائع

أما التعريف الاصطلاحى :

فالملائكة : (أجسام نورانيه ـ لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات ، وأبطل من قال : انها الكواكب أو أنها الأنفس الخيرة التى فارقت أجسادها وغير ذلك من الأقوال التى لا يوجد في الأدلة الصحيحة شيء منها أهـ (٣)

(٢) من أى شيء خلقوا ؟

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ـ المادة ـ التى خلق الله منها الملائكة وهي النور ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم (٤)

---

(١) القاموس المحيط ٣/ ٣٢٧ لسان العرب ١٠/ ٤٩٦ المصباح المنير ١/ ١٨ بصائر ذوى التمييز ٤/ ٥٢٤ الفتح ٦/ ٣٠٦

(٢) النبوات ص ٢٥٧

(٣) فتح البارى ٦/ ٣٠٦ وانظر (كتاب التعريفات للجرجاني ص ٢٢٩

(٤) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٤ ومسند الامام أحمد ٦/ ١٦٨

فبين صلى الله عليه وسلم أن الملائكة خلقوا من نور ، ولم يبين النبي صلى الله عليه وسلم أي نور هذا ؟ الذي خلقهم الله منه . فلا يجوز الخوض لأي أحد في نوع هذا النور لزيادة تحديده لأنه غيب لم يأت فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث النبوي الشريف وأما تحديد الزمن الذي خلقوا فيه فلم يرد في الكتاب والسنة ما يفيد ذلك الا أن الله - تعالى - أخبر بأن خلقهم كان قبل خلق آدم - عليه السلام - فقد أخبر - سبحانه - أنه أعلم الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة قال تعالى :

(واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة) (١)

والمراد بالخليفة آدم - عليه السلام - وأمرهم بالسجود له حين خلقه (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (٢)

فالملائكة نوع من مخلوقات الله - تعالى - خلقهم الله من نور وأقدرهم الله على التشكل بأشكال مختلفة فقد أرسل الله جبريل الى مريم في صورة بشر قال تعالى :

(واذكر في الكتاب مريم اذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) (٣)

وابراهيم عليه السلام جاءته الملائكة في صورة بشر ، ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم .

قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم) (٤)

---

(١) سورة البقرة آية / ٣٠

(٢) سورة الحجر آية / ٢٩

(٣) سورة مريم آية / ١٦ - ١٩

(٤) سورة الزاريات آية / ٢٤ - ٢٨

وفي آية أخرى قال (فلمارأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفةقالوا لاتخف انا أرسلنا الى قوم لوط) (١)

وجاؤا الى لوط في صورة شباب حسان الوجوه، وضاق لوط بهم وخشي عليهم من قومه فقد كانوا قوم سوء يفعلون السيئات ويأتون الذكران من العالمين قال تعالى :

(ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب (٢)

قال ابن كثير رحمه الله – تعالى – : (تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان امتحانا واختبارا حتى قامت على قوم لوط الحجة وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر) (٣)

وقد كان جبريل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية بن خليفة الكلبي (٤)

وتارة يأتيه في صورة أعرابي

وقد شاهده كثير من الصحابة كما في حديث عمر قال (بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد فجلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الاسلام ؟

وفي الحديث أنه سأله عن الايمان والاحسان والساعة وأماراتها ثم أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم (٥) الى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا المعنى والملائكة كثيرون لا يحط بهم عد ولا يحصيهم من دون الله أحد وهم مجبولون على أعمال الخير فلا يعملون الشر ولا يأمرون به ، فلذلك هم لربهم مطيعون ، وبعبادته مشتغلون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ،

وقد كلف الله جميع عباده الايمان بهم ، والتصديق بوجودهم لأن ذلك من جملة عقائد الايمان التي أمرهم الله بها وفرضها عليهم في محكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة هود آية ٧٠
(٢) سورة هود آية ٧٧
(٣) البداية والنهاية / ١ / ٤٣
(٤) هذا الصحابي الجليل كان يضرب به المثل في الحسن انظر الاصابة ١ / ٤٦٣ رقم ٢٣٩٠
(٥) صحيح مسلم ١ / ٣٧

قال تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب و النبيين (١)

وقال تعالى (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) (٢)

وقال تعالى (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) (٣)

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أركان الايمان الستة وذكر من بينها الايمان بالملائكة كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل الطويل حيث سأله عن الاسلام والايمان والاحسان وأشراط الساعة وجاء في هذا الحديث أن جبريل عليه السلام قال للرسول صلى الله عليه وسلم (أخبرني عن الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) (٤)

فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم على سؤال جبريل عن الايمان ببيان أركانه الستة وأخبر بأن الايمان بالملائكة ركن من أركان الايمان فمن هنا كان وجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي الذي لا يمكن أن يتطرق اليه شك ومن هنا كان انكار وجود الملائكة كفرا باجماع المسلمين بل بنص كتاب الله الكريم وسنة رسوله الأمين فمن كفر بهم أو حاول التشكيك في وجودهم فهو كافر بكافر لا حظ له في الاسلام لتكذيبه لله ـ تعالى ـ ولرسوله وللمؤمنين .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : بعد أن ذكر جملة من الأحاديث الواردة في شأن الملائكة وصفاتهم (وفي هذا وما ورد من القرآن رد على من أنكر وجود الملائكة من الملاحدة (٥) ومن هذا يفهم بأن من أنكر وجود الملائكة فهو ملحد زنديق كافر بالله العظيم ، فيجب الايمان بالملائكة على سبيل الاجمال ، ويجب الايمان على سبيل التفصيل بمن اشتهر باسمه الخاص كما روت وما روت أو من أضيف اليه عمل معين بأدلة الكتاب والسنة ، كجبريل ، وميكائيل واسرافيل ورضوان وما لك فمثل هؤلاء الملائكة لايكفي الايمان بهم اجمالا بل لا بد من الايمان بهم تفصيلا .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ (٢) سورة البقرة آية/ ٢٥٨

(٣) سورة النساء آية / ١٣٦

(٤) صحيح مسلم ١/ ٣٧

(٥) الفتح ٦/ ٣٠٦

(المبحث الثاني)

ذكر بعض أعمال الملائكة التي أنيطت بهم

لقد دلت سورة (الزمر) على أن لله ملائكة أسند اليهم القيام بمهام الجنة والنار كما ورد فيها أن بعض الملائكة محدقون بعرش الرحمن - جل وعلا -

قال تعالى (سيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)

وقال تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين .

فهذه الايات الأربع من السورة دلت على وجود الملائكة وأن منهم من أوكل الله اليه القيام على أمور الجنة والنار فمن المهام التي اسندت اليهم تجاه جهنم أن الكفار عند ما يحشرون تسوقهم الملائكة اليها أفواجا متفرقة فوجا بعد فوج فعند ذلك تفتح لهم أبواب جهنم فتتلقاهم الملائكة خزنة النار يوبخونهم ويبكتونهم ويسألونهم أما جاءكم في الدنيا رسل من جنسكم ؟ يقرؤون عليكم ما أنزل من الآيات البينات والحجج الواضحات ويخوفونكم هول هذا اليوم الذي تردي تم فيه ؟ فيعترفون بان الرسل بلغوهم آيات ربهم فكذبوهم فلم يصدقوهم فحقت عليهم كلمة العذاب التي توعد الله بها الكافرين فاذا سمع الملائكة منهم هذه الا جابة سارعوا في الرد عليهم بقولهم (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين)

انكم فيها الى الأبد لا تخرجون منها ولا تنفصلون عنها فبئس المقام الذي تبوأتموه جزاء تكبركم وتكذيبكم برسل الله وآياته ولقائه وأما مهامهم في الجنة فانه عند ما يحشر الذين اتقوا ربهم بأداء الفرائض واجتناب المعاصي فأخلصوا الدين لله وحده لا شريك له فان الملائكة الموكلين بالجنة يحتفون بهم ويرحبون بلقائهم ويحيونهم بأطيب تحية ويذكرونهم بأطيب صفاتهم (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين)

وأما الآية الأخيرة من الآيات الأربع السابقة وهي آخر آية من السورة فهي تبين مشهدا عظيما لعباد الله المكرمين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهذا المشهد هو أنهم محدقون بعرش الرحمن ينزهونه عما نسبه إليه المشركون وعملهم ينسبوه من صفات النقص، وليست هذه أعمالهم فحسب بل لهم أعمال أخرى كثيرة جدا أنيطت بهم ونذكرها طرفا منها اذ يتعذر علينا حصرها هنا ،

فجبريل عليه السلام : أوكل الله إليه النزول بالوحي وقد أخبرنا الله تعالى أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة الجليلة فقال تعالى (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه) (١)

وجبريل هو الروح الأمين كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين (٢) وقد ينزل بالوحي غير جبريل الا أن هذا قليل جدا

لما رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال (بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال (هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط الا اليوم، فنزل منه ملك فقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما الا أعطيته) (٣)

ومنهم من أوكل الله إليه القطر والنبات والأرزاق .

قال ابن كثير : (ميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلاله ـ وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء الا ومعها ملك يقرها في موضعها من الأرض) (٤) ومنهم من هو موكل بالسحاب ففي سنن الترمذي عن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (الرعد ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله)

قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب (٥)

---

(١) سورة البقرة آية ٩٧ (٢) سورة الشعراء آية / ١٩٣ ـ ١٩٤

(٣) ١/ ٥٥٤

(٤) البداية والنهاية ١/ ٥٠ مطبعة الفجالة الجديدة

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٢٥٧ وأحمد في مسنده ١/ ٢٧٤ وانظر صحيح الجامع الصغير للألباني / ٣/ ١٨٨

ومنهم من أوكل الله اليه مهمة النفخ في الصور وهو اسرافيل

ومنهم من اختصه الله بقبض أرواح بنى آدم عند ما تنتهي آجالهم التى قدرها الله لهم قال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الي ربكم ترجعون) (١)

ولملك الموت أعوان يكونون معه عند قبض أرواح بنى آدم

قال تعالى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٢)

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعا شديدا عنيفا بلا رفق ولا هوادة .

قال تعالى (ولو ترى اذ يتوفي الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) (٣)

أما المؤمنون فان الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رفيقا وتبشرهم عند النزع .

قال تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) (٤)

ومنهم من أوكل الله اليه حفظ أعمال بنى آدم من خير وشر وهم الكرام الكاتبون

قال تعالى (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) (٥)

ومنهم من أوكل الله اليه الجنة ونعيمها وهم رضوان ومن معه ، قال ابن كثير (وخازن الجنة ملك يقال له : رضوان جاء مصرحا به في بعض الآحاديث) أهـ (٦)

ومنهم من أسند اليه القيام على النار وعذاب أهلها وهم مالك ومن معه فقد أخبر الله تعالى ـ أن أهل النار ينادون مالكا وهو كبير خزنة أهل النار بقوله تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) (٧)

---

(١) سورة السجدة آية ١١
(٢) سورة الانعام آية ٦١ ـ ٦٢
(٣) سورة الانفال آية ٥٠
(٤) سورة فصلت آية ٣٠ ـ ٣١
(٥) سورة الانفطار آية ١٠ / ١٢
(٦) البداية والنهاية ١ / ٥٣
(٧) سورة الزخرف آية ٧٧ ـ ٧٨

ومنهم من أوكل الله اليه فتنه القبر وهما منكر ونكيـــر (١)

ومنهم حملة العرش قال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانيـــــــه (٢)

ومنهم الموكل بالنطف في الأرحام وكتابة مايراد بهـــا .

روى الشيخان في صحيحيهما من حديث أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلـــم صلى الله عليه وسلم قال (وكل الله تعالى — بالرحم ملكا ، فيقول ، أي رب نطفـــة أي رب علقه أي رب مضغة ، فاذا أراد أن يقضي خلقها قال ، أي رب ذكر أم أنثى أشقـــى أسعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل فيكتب كذلك في بطن أمـــه (٣)

ومنهم ملائكة يدخلون البيت المعمور ويدخله كل يوم سبعون ألفا ثم لا يعودون اليـــه آخر ما عليهم (٤)

ومنهم ملائكة سياحون يتتبعون مجالس الذكر روى الشيخان في صحيحيهما من حديـــث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ان لله تبارك وتعالى — ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فاذا وجدوا قوما يذكرون الله — تعالى — تنـادوا هلموا الى حاجتكم قال ، فيحفونهم بأجنحتهم الى السماء الدنيـــا (٥)

ومنهم الموكل بالجبال فقد أرسل الله — تعالى — ملك الجبال الى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم يستأمره في اهلاك أهل مكه فقد جاء في الحديث المتفق على صحته المـروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : للنبي صلى الله عليه وسلم (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال لقد لقيت ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبني الى ما أردت
فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق

---

(١) أنظر موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان حديث رقم (٧٨٠) ص ٩٧
(٢) سورة الحاقة آية/ ١٧
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٤٣ صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٨
(٤) صحيح البخاري ٢/ ٢١١ صحيح مسلم ١/ ١٥٠ كلاهما من حديث أنس
(٥) صحيح البخاري ٤/ ١١٤ صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٩ — ٢٠٧

الا وأنا بقرب الثعالب ـ مكان قرب مكـــة ـ فرفعت رأسي فاذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فاذا فيها جبريل فناداني فقال : ان الله قد سمع قول قومك لك وما رد وا به عليك وقد بعث الله اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (١) فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا (٢)

ومنهم الموكل بكتابة الناس يوم الجمعة يكتبون الأول فالأول فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فاذا جلس الامام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر (٣)

ومنهم المعقبات وهم الذين أوكل الله اليهم حفظ العبد فيحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله) ( )

وقد بين حبر الأمة عبد الله بن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الانسان من أمامه ومن ورائه ، فاذا جاء قدر الله الذي قدر أن يصل اليه خلوا عنه . (٤)

وقال مجاهد : ما من عبد الا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما منها شيء يأتيه الا قال له الملك وراءك الا شيء أذن الله فيه فيصيبه)

وقال رجل لعلي بن أبي طالب : ان نفرا من مراد يريدون قتلك فقال ـ أي علي ـ ان مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فاذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، ان الأجل جنة حصينة) (٦)

والمعقبات المذكورة في آية ـ سورة الرعد ـ هي المقصودة بالاية الأخرى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) (٧

---

(١) الاخشبان هما الجبلان المطيفان بمكة أبو قبيس والأخمر وهو جبل مشرق وجهة على قعيقعان النهاية ٢/ ٣٢ (٢) صحيح البخاري ٢/ ٢١٢ صحيح مسلم ٣/ ١٤٢٠

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٢/ ٤٠٧ ; البداية والنهاية

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٣/ ١١٧ البداية والنهاية ١/ ٥٤

(٦) جامع البيان ١٣/ ١١٩ وانظر البداية والنهاية ١/ ٥٤

(٧) سورة الأنعام آية ٦١/

فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له .

وورد أن الملائكة يؤمنون على قراءة المصلي ، قال عليه الصلاة والسلام (اذا أمن الامام فأمنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) [1] .

وورد أنهم يدعون لمنتظر الصلاة كما جاء في الصحيحين (أن الملائكة تصلي على الذى يأتي المسجد للصلاة فتقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه) [2] .

وورد أنهم يلعنون من هجرت فراش زوجها لما رواه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فأبت ، فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح) [3] وأعمال الملائكة كثيرة جدا فانهم يقومون على مختلف شئون هذا الكون مما نشاهده ومالا نشاهده ، واذا تأمل الانسان الايات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة في أعمال الملائكة مثل قوله - تعالى - ((والصافات صفا فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا)) [4] .

ومثل قوله تعالى ((والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا)) [5] .

جزم في يقين بأن هذا الكون كله علويه وسفليه ، قد أنيط أمر تدبيره الى الملائكة ، وذلك باذن ربهم - تبارك وتعالى - قال صلى الله عليه وسلم (أطت السماء وحق لها أن تئط ما من موضع أربع أصابع الا عليه ملك واضع جبهته ساجدا لله تعالى)) [6] ومما تقدم يتبين بطلان قول الزائغين من الفلاسفة الزنادقة بأن الملائكة قوى معنوية ليس لها حقيقة في الخارج [7] بل هم كما أخبر صلى

---

١) صحيح البخارى ٣/٩٧ ، صحيح مسلم ١/٣٠٧

٢) صحيح البخارى ٢/٢١٤ ، صحيح مسلم ١/٤٥٩ كلاهما من حديث أبي هريرة

٣) ٢/٢١٥

٤) سورة الصافات آية ١/ - ٣ ٥) سورة النازعات آية ١/ - ٥

٦) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢/١٤٠٢ سنن الترمذى ٣/٣٨١ من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

الله عليه وسلم أنهم مخلوقون من نور وأنهم كما وصفوا في الكتاب والسنة أولوا أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، ومن زعم غير ذلك فقد كذب الله ورسوله والمؤمنين .

= ٧) انظر (كتاب النبوات لشيخ الاسلام) ص١٧٢ ، اغاثة اللهفان ٢٦١/٢ شرح الطحاوية ص ٢٣٣ .

الفصل الثّانى

((الفصل الثاني))

دلالة السورة على وجوب الإيمان بالكتب

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : كيفية الإيمان بالكتب السابقة .

المبحث الثاني : كيفية الإيمان بالقرآن .

(المبحث الاول)

كيفية الايمان بالكتب السابقة

قبل أن نبين كيفية الإيمان بالكتب السماوية السابقة نذكر الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالكتب من سورة "الزمر" ونبين وجه دلالتها على ذلك ،فنقول : إن الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله ركن من أركان العقيدة الإسلامية الستة ، ودعامة من دعائمها الأساسية التي لا تقوم العقيدة إلا بالإيمان بها كلها .

فكما أن الله - تعالى - أنزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم فقد أنزل من قبله كتبا .

والإيمان بالكتب : هو التصديق الجازم بأن لله كتبا أنزلها على أنبيائه ورسله وهي من كلامه - تعالى - حقيقة اشتملت على النور والهدى وكل ما احتوته حق وصدق ولا يعلم عددها إلا الله - تعالى - الذي أنزلها ، ولقد السورة على أن الله - تعالى - أنزل القرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما أشارت إلى إنزال الكتب السابقة قبله على من سبقه من الأنبياء والمرسلين ، فيجب الإيمان بالكتب وتصديقها كلها وأن من كذب بها كان من أهل النار .

قال - تعالى - ((تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين))

وقال - تعالى - ((ألله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد))

وقال تعالى ((ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون)) .

وقال تعالى ((إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه

ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل)) .

وقال تعالى ((واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين))

وقال تعالى ((ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ....)) الاية .

هذه المجموعة الكثيرة من الآيات كلها ورد ت في السورة ، وكلها واضحة الدلالة في وجوب الإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عند الله -عز وجل - ووجوب التصديق بها والعمل بمقتضاها . إذ الايمان بالكتب معناه " التصديق بأنها كلام الله وأن ما تضمنته حق "(١)

فالآيات السبع الأولى : من هذه الآيات كلها توجب الإيمان بالقرآن وقد قدمنا الكلام عليها تحت عنوان " القرآن كلام الله منزل غير مخلوق " . في " الفصل الاول " من الباب الأول " فليرجع إليه وأما قوله تعالى ((بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)) فالمراد بالآيات المذكورة في هذه الآية هي الآيات التنزيلية القرآن وغيره من الكتب السماوية قبله التي نزلت على الرسل لتبليغها إلى سائر الأمم فقوله -عز وجل - ((بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)) رد من قبل الله تعالى على الكافر الذي يظهر الحسرة والندامة يوم القيامة بحيث أنه فرط في طاعة الله ، ومع ذلك كان من المستهزئين بدين الله في الدنيا ، وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين وحينما يشاهد العذاب يتململ بما لا طائل تحته فيتمنى لو أن الله أرشده وهداه الى دينه ليتقي الشرك والمعاصي ، ويتمنى الرجعة إلى الدنيا ليكون من الموحدين

---

١) الفتح ١/١١٧-١١٨

لله تعالى المحسنين أعمالهم وهذه من الأماني الواهية التي يتعلق بها المشركون يوم القيامة فيكون الجواب من قبل الله -عز وجل- على كل مشرك متمن على الله الأماني الباطلة ((بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها)) بحيث قلت إنها ليست من عند الله ، واستكبرت عن الإيمان بها وبذلك كنت في عداد الكافرين .

قال ابن جرير الطبري : ((بلى قد جاءتك آياتي)) يقول : " قد جاءتك حججي من بين رسول أرسلته إليك وكتاب أنزلته يتلى عليك ما فيه من الوعد والوعيد والتذكير (فكذبت) بآياتي (واستكبرت) عن قبولها واتباعها " أ.هـ[1] .

فالآية دلت على وجوب الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله -عز وجل- وحرمة الكفر بها والإعراض عن قبولها .

وأما قوله - تعالى- ((ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم . . .)) الآية ففيها تأنيب وتقريع لجميع أصناف الكفار الداخلين جهنم من خزنة جهنم بقولهم ألم تأتكم رسل منكم ومن جنسكم تفهمون عنهم وتعرفون أمرهم وينذرون عليكم آيات ربكم وهي الكتب المنزلة على رسله وحججه التي بعث بها رسله إلى أممهم ؟ فيقول الكافرون مجيبين لخزنة جهنم . أن الرسل جاءوهم وبلغوهم وحي الله ، ولكنهم كذبوهم وقالوا ما نزل الله من شيء فحقت عليهم كلمة العذاب وهي حكم الله عليهم بالشقاوة وأنهم من أهل جهنم بسوء اختيارهم وشنيع فعلهم الذي فعلوه مع أنبيائهم فالسورة دلت دلالة على وجوب الإيمان بكتب الله وتحريم تكذيبها ولا شك أن من كذب بكتب الله المنزلة على رسله وأنبيائه فإنه كافر بالله العظيم لأنه - تعالى - ربط الإيمان بالكتب بالإيمان به - سبحانه وتعالى - قال - تعالى - ((ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب))[2]

قال ابن كثير: (والكتاب) وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على

---

١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢١/٢٤

٢) سورة البقرة آية / ١٧٧ .

الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله " أ.هـ [1] .

فمن كذب بكتب الله المنزلة على رسله كان من الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة بإرادته واختياره أعاذنا الله من ذلك .

وأما كيفية الإيمان بالكتب السماوية السابقة :

فالإيمان بها يكون إجمالا ، وتفصيلا فيجب الإيمان على التفصيل بما سماه الله منها في القرآن الكريم ، والذي سمي لنا منها في القرآن هي :

١ - التوراة وهي الكتاب الذي أنزله الله على كليمه موسى عليه الصلاة والسلام قال تعالى ((إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء)) [2] .

٢ - الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه الصلاة والسلام . قال تعالى : ((وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين)) [3] .

٣ - الزبور الذي أنزله الله على داود عليه الصلاة والسلام . قال تعالى ((وآتينا داود زبورا)) [4] ،

٤ - الصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام والتي أخبر عنها بقوله - جل شأنه - ((أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى)) [5]

---

١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٣٦٥

٢) سورة المائدة آية / ٤٤ ٣) سورة المائدة آية ٤٦

٤) سورة الاسراء آية / ٥٥ ٥) سورة النجم آية / ٣٦ - ٣٥ .

وقال تعالى ((ان هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)) [1] .

فهذه الكتب يجب الإيمان بها على التفصيل .

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل ، ولم يخبرنا الله - تعالى - بأسمائها وإنما جاء الخبر في كتاب الله أن لكل نبي أرسله الله رسالة بلغها إلى قومه قال تعالى ((كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)) [2] . فالواجب الإيمان بهذه الكتب التي لم تسم إجمالا ، ولا يجوز نسبة كتاب إلى الله - جل وعلا - لم ينسبه إلى نفسه بالإخبار عنه في القرآن العظيم والسنة المطهرة ، كما يجب الإيمان بأن هذه الكتب نزلت من عند الله بالحق والنور والهدى ، وتوحيد الله - سبحانه - في ربوبيته وألوهيته ، وأسمائه وصفاته ، وما ألصق بها مما يخالق ذلك إنما هو من تحريف البشر الذين يحرفون الكلم عن مواضعه بسبب ما علق بقلوبهم من مرض الإلحاد ،

قال شارح الطحاوية مبينا كيفية الإيمان بالكتب السابقة " وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه ، من التوراة والإنجيل والزبور ، ونؤمن بأن لله - تعالى - سوى ذلك كتبا أنزلها على أنبيائه لا يعلم أسماءها وعددها إلا الله تعالى " أ.هـ [3] .

وبالجملة فقد بين الكتاب والسنة أن الإيمان بالكتب أحد أركان الايمان الستة قال تعالى ((آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله)) [4] " فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرقون بين

---

١) سورة الاعلى آية/١٨-١٩ ٢) سورة البقرة آية /٢١٣

٣) شرح الطحاوية ص ٣٥٠

٤) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

أحد منهم ، فيؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته " أ.هـ [1] .

وقال تعالى ((ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين)) [2] . فجعل الله - سبحانه وتعالى - الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين [3] ومن بينها الإيمان بالكتب .

ولقد أوجب الحق - سبحانه - في كتابه الإيمان بجميع الكتب السماوية قال تعالى ((يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدا)) [4] .

إن هذه الآية وحدها كافية في الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله - تعالى - على وجه العموم والقرآن الكريم كتاب رب العالمين على وجه الخصوص وإنها أيضا لكافية في الدلالة على تحريم التكذيب بها وعدم التصديق بكل ما ورد فيها مما هو وحي الله وكلامه - سبحانه وتعالى - .

وأما دلالة السنة على وجوب الإيمان بالكتب فقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته وهو حديث جبريل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، فقال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) [5] .

فهذه أصول اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ولم يؤمن

---

١) تفسير ابن كثير ١/٦٠٨ ٢) سورة البقرة آية /١٧٧

٣) شرح الطحاوية ص ٣٣٢ ٤) سورة النساء آية /١٣٦

٥) صحيح البخارى ١/١٨ ، صحيح مسلم ١/٣٦-٣٧ .

بها حقيقة الايمان الا أتباع الرسل "[1] .

قال الحافظ : عند قوله صلى الله عليه وسلم (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) " دل الإجمال في الملائكة والكتب والرسل على الإكتفاء بذلك في الإيمان بهم من غير تفصيل ، إلا من ثبتت تسميته فيجب الإيمان به على التعيين . وهذا الترتيب مطابق للآية ((آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ...)) الآية[2] . ومناسبة الترتيب المذكور ، وإن كانت الواو لا ترتب بل المراد من التقديم أن الخير والرحمة من الله ، ومن أعظم رحمته أن أنزل كتبه إلى عباده والمتلقي لذلك منهم الأنبياء والواسطة بين الله وبينهم الملائكة " أ . هـ[3] .

ولا يفوتنا أن نقول : هنا إنه وإن كان الإيمان بالكتب المنزلة على الأنبياء السابقين قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واجبا إلا أنه لا يجوز الأخذ بما في أيدي اليهود والنصارى لأنهم قد حرفوا كتب الله المنزلة على أنبيائهم وذمهم الله على ذلك وتوعدهم وزجرهم "[4] .

ومما تقدم يتبين أن الإنسان مطالب بالإيمان بالكتب السماوية السابقة من حيث أنها نزلت من عند الله تعالى ، وأن الإنقياد لها والحكم بها كان فرضا على الأمم التي نزلت إليها تلك الكتب ، كما يجب الإيمان بأن تلك الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا كما قال تعالى في شأن الانجيل ((ومصدقا لما بين يديه من التوراة))[5] كما يجب على الانسان أن يؤمن بأن من الشرائع اللاحقة ما هو ناسخ للشرائع السابقة إما جزئيا أو كليا .

قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام بأنه كان من المؤمنين بالتوراة وناسخا لبعضها ((ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم))[6]

---

١) شرح الطحاوية ص ٣٣٣ ٢) سورة البقرة آية / ٢٨٥
٣) الفتح ١/ ١١٨ ٤)
٤) انظر المنهاج في شعب الايمان للحليمي ١/ ٣٢٢-٣٢٣ .
٥) سورة المائدة آية / ٤٦
٦) سورة آل عمران آية / ٥٠

قال ابن كثير حول هذه الآية : (" فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين "[1]

وقد بين تعالى أن القرآن نسخ ما في التوراة والإنجيل ، قال تعالى ((الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم))[2] .

---

١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٠

٢) سورة الأعراف آية /١٥٧ .

(المبحث الثاني)

كيفية الإيمان بالقرآن

تقدم معنا فيما سبق أنه يجب على المرء أن يؤمن بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ، وأن الله تكلم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم كلامه تعالى حقيقة لا كلام غيره .

إلا أنه يجب مع هذا الإيمان الإيمان بأنه آخر الكتب السماوية ، وأنه مهيمن عليها وقد خصه الله بمزية الحفظ من التغيير والتبديل والتحريف ، ويجب على كل شخص أن يقر بما فيه ، ويتبعه ويتمسك به ظاهرا وباطنا ، وأن يقوم بحقه .

قال شارح الطحاوية : " وأما الإيمان بالقرآن ، فالإقرار به ، واتباع ما فيه وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب "[1] وقد تميز القرآن الكريم عما سبقه من الكتب المنزلة بمزايا من أهمها :

١ - أنه جمع التعاليم الربانية ، وجاء مؤيدا لما جاء في تلك الكتب السابقة من توحيد الله -عز وجل- وعبادته ، ووجوب طاعته وجمع كل ما كان مفرقا في تلك الكتب من المحاسن والفضائل وجاء مهيمنا عليها ورقيبا يقر ما فيها من حق ، ويبين ما دخل فيها من التحريف والتغيير قال تعالى ((وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه))[2] فقد جاء بشريعة عامة لبني الإنسان فيها كل ما يحتاجون إليه ، وما يلزمهم لسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ونسخ الله به جميع الشرائع العملية الخاصة بالأمم السابقة ، وأثبت الأحكام النهائية الخالدة التي تصلح لكل زمان ومكان .

فمعنى قوله تعالى في الآية السابقة (ومهيمنا عليه) أي : مؤتمنا وشاهدا

---

١) شرح الطحاوية ص ٣٥٠ ٢) سورة المائدة آية /٤٨

على ما قبله من الكتب ، ومصدقا لها يعني : يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما فيها من التحريف ، والتبديل والتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير "[١] .

٢ - أن القرآن الكريم هو الكتاب الإلهي الوحيد الذي ضمن الله حفظه وصانه من عبث البشر قال تعالى ((إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون))[٢] وقال تعالى ((وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد))[٣] قال ابن كثير عند قوله تعالى ((إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)) " ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل " أ . هـ[٤]

" فمن أجاز أن يتمكن أحد من زيادة شيء في القرآن ، أو نقصانه منه ، أو تحريفه ، أو تبديله ، فقد كذب على الله تعالى في خبره ، وأجاز وقوع الخلف فيه وذلك كفر . . . . فصح أن من تمام الإيمان الإعتراف بأن جميعه هذا ، المتوارث خلفا عن سلف لا زيادة فيه ولا نقصان "[٥] . ومزية الحفظ هذه للقرآن الكريم متفرغة عن مزية أخرى وهي أن هذا الكتاب العظيم أنزله الله للبشرية جمعاء وليس خاصا بأمة معينة ، أو قوم معينين كما كان الحال في الكتب السابقة وكان حفظه من التحريف والتغيير والتبديل الذي يحصل من البشر العابثين لكي يبقى ما تضمنه حجة قائمة على الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما الكتب السماوية الأخرى ، فكانت تنزل ويوجه الكلام الذي تتضمنه إلى أمم مخصوصه دون سائر الأمم وإن اتفقت في أصل الدين إلا أن أحكامها وشرائعها خصت بأزمنة معينة ، وأقوام معينين قال تعالى ((لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا))[٦] .

---

١) أنظر جامع البيان ٦/٢٦٦ وما بعدها ، تفسير القرآن العظيم ٢/٥٨٦ - ٥٨٧ ، فتح القدير ٢/٤٧ - ٤٨ .
٢) سورة الحجر آية /٩
٣) سورة فصلت آية /٤١ - ٤٢
٤) تفسير القرآن العظيم ٤/١٥٤
٥) كتاب المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/٣٢٠
٦) سورة المائدة آية /٤٨ .

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قوله ((لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)) يقول : سبيلا وسنة ، والسنن مختلفة ، هي في التوراة شريعة ، وفي الإنجيل شريعة ، وفي الفرقان شريعة يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه والدين الذي لا يقبل الله غيره . التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام " [1] .

وتلك الشرائع التي سبقت القرآن لم يضمن الله حفظها على مدى الأزمان كما هو الشأن في القرآن ، بل أخبرنا - سبحانه - بما طرأ على تلك الكتب من التحريف .

فمن تحريف اليهود وتغييرهم الذي أدخلوه في التوراة قال تعالى((أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)) [2] وقال تعالى ((من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه)) [3] .

وأما عن تحريف النصارى الذي أدخلوه على الإنجيل فقد قال تعالى ((ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين)) [4] .

ومن التحريفات الباطلة التي أحدثها اليهود والنصارى في دينهم ما زعمه اليهود في العزير من أنه ابن الله وما زعمه النصارى في المسيح أنه ابن الله تعالى الله عن قولهم جميعا علوا كبيرا .

---

١) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٦

٢) سورة البقرة آية /٧٥ ٣) سورة النساء آية /٤٦

٤) سورة المائدة آية /١٤-١٥ .

ولقد ذكر الله في القرآن هذا الإنحراف وأكذبهم فيه ولعنهم عليه . قال تعالى ((وقالت اليهود عزيرابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون)) (١)

وقد بين الله تعالى فساد هذا المعتقد ونزه نفسه عنه فقال تعالى ((قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)) (٢) .

وأخبر - سبحانه بأن الرسل جميعهم بشر اختصهم الله بالوحي ومنحهم من الكمال ما يجعلهم أهلا لتلقي الوحي وتبليغه لغيرهم من الخلق قال تعالى مخاطبا رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)) (٣) .

ومن تحريف النصارى الذي جنوه على دينهم زعم بعضهم بأن عيسى إله قال تعالى ((لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم)) (٤) وقول بعضهم بالتثليث قال تعالى ((لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا اله واحد)) (٥) .

فقد بين القرآن الكريم أن هذا تحريف منهم للعقيدة الصحيحة كما بين الإعتقاد الصحيح في عيسى عليه السلام وأمه قال تعالى ((ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون)) (٦) .

والحق الذي لا يقبل الجدال ولا النزاع أنه لا يوجد على وجه الدنيا بأسرها كتاب تصح نسبته إلى الخالق - جل وعلا - سوى القرآن الكريم وهذه حقيقة لا يمارى فيها عاقل يدل على صحة هذه الحقيقة أدلة حسية إضافة إلى ما

---

١) سورة التوبة آية / ٣٠ ٢) سورة الإخلاص
٣) سورة الكهف آية / ١١٠ ٤) سورة المائدة آية / ٧٢
٥) سورة المائدة آية / ٧٣ ٦) سورة المائدة آية / ٧٥

أخبر به القرآن الكريم من التحريف الواقع في الكتب التي يدعي اليهود والنصارى نسبتها إلى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ومن هذه الأدلة :

١ - أن الكتب التي أنزلها الله قبل القرآن قد فقدت نسخها الأصلية ، ولم يبق في أيدي الناس إلا تراجمها . أما القرآن الكريم فإنه ما زال محفوظا ، سوره وآياته وكلماته وحركاته كما ألقاه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكما بلغه المصطفى صلى الله عليه وسلم لصحابته الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين .

٢ - أن تلك الكتب قد اختلط فيها كلام الله تعالى بكلام البشر من سير الأنبياء وتاريخهم وذكر تلاميذهم ، واستنباطات علمائهم حتى أصبح كلام الله فيها لا يميز من كلام الأحبار والرهبان أما القرآن الكريم فإنه جميعه كلام البارى - سبحانه - ولم يختلط به غيره من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أقوال الصحابة أو غيرهم "[1] جاء في " كتاب الوفاء بأحوال المصطفى " " قال أبو الوفاء علي بن عقيل : إذا أردت أن تعلم أن القرآن ليس من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو ملقى عليه ، فانظر إلى كلامه كيف يمتاز عن القرآن ، وتلمح ما بين الكلامين والأسلوبين ومعلوم أن كلام الإنسان يتشابه ، وما للنبي صلى الله عليه وسلم كلمة تشاكل القرآن " وقال أيضا : " ومن إعجاز القرآن أنه لا يمكن أحد أن يستخرج منه آية قد أخذ معناها من كلام قد سبق فإنه ما زال الناس يكشف بعضهم عن بعض ، فيقال مثلا : المتنبي أخذ من البحترى "[2] .

٣ - إن تلك الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين ليس فيها كتاب تصح نسبته إلى الرسول الذي ينسب إليه فليس لأى كتاب منها سند صحيح متصل إلى ذلك النبي حتى يوثق بنسبته إليه فالأسفار الموجودة التي تسمى بالعهد القديم ، ويطلقون عليها اسم " التوراة " إنما كان تدوينها بعد موسى عليه الصلاة والسلام

---

١) أنظر مهادى الإسلام للمودودى ص ٩١

٢) الوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزى ١ / ٢٧٠ .

وأما القرآن الكريم فهو الكتاب الوحيد الذي ثبتت نسبته بصورة قطعية إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقد نقل إلينا هذا القرآن بسوره وآياته وطريقة ترتيبها ، وكيفية تلاوته إلى كل عصر جاء بعد عصر نزوله بالتواتر بحيث لا يشك في أن القرآن الذي نتلوه هو الذي نزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم "[1]

٤ - من الأدلة على وقوع التحريف في تلك الكتب كثرة نسخها وتعددها واختلافها فيما اشتملت عليه من أقوال وآراء "[2] .

٥ - ومن القرائن القوية القاطعة على وقوع التحريف في هذه الكتب ما تضمنته من العقائد الباطلة ، والتصورات الفاسدة عن - الباري جل وعلا - وعن رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام فإنه يوجد فيها تشبيه الخالق بالمخلوق ، والطعن في الأنبياء بما يحس كرامتهم ويتنافى مع عصمتهم[3] وذلك من أعظم الأدلة وأقواها

---

١) انظر " هادي الإسلام للمودودي ص ٩١-٩٢ .

٢) قال السيد سابق " ويكفي لصحة التدليل على التحريف في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى الآن - أنها أربعة أختيرت من نحو سبعين إنجيلا وهذه الاناجيل تناولت الكتابة عن سيرة عيسى عليه السلام ومؤلفوها معروفون وأسماؤهم مكتوبة عليها وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هي رأي بولس دون سائر الحواريين ، ودون أقرب الأقربين إلى عيسى وقد وجد في مكتبة أمير من الأمراء في باريس نسخة من إنجيل " برنابا " وقد طبعته " مطبعة المنار" بعد ترجمته إلى العربية وهو يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة كبيرة" أ.هـ انظر " العقائد الاسلامية " ص ١٦٨ .

٣) من ذلك ما جاء في التوراة المتداولة عندهم فإنه قد جاء في سفر التكوين" وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر " وفيه أيضا " فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه " وما جاء فيه مما يحس شرف الأنبياء ويتنافى مع عصمتهم ما قالوه عن إبراهيم عليه السلام أنه كذاب وأن لوطا زنى بابنتيه " وفي سفر الخروج : " زعموا أن هارون دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل " وفي سفر صموائيل الثاني " زعموا أن داود زنا " وفي سفر الملوك الأول : " زعموا أن سليمان عبد الأصنام إرضاء لبعض نسائه " أنظر هذه التحريفات الفاسدة في " العهد القديم " من " الكتاب المقدس " ص ٧ وص ١٠ وص ١٩ و ص ٢٩ وص ١٤٠ وص ٤٩٨ وص ٥٥٣ - ٥٥٤ وهذه المفتريات من أقوى الأدلة وأظهرها على التحريف الذي غيروا به كتب الله المنزلة على أنبيائهم .

على أن ذلك من وضع البشر الذين اتبعوا أهواءهم وعبدوا شيطانهم .

والذى نخلص إليه مما تقدم أن الإيمان بالكتب السماوية الإلهية أحد أركان الإيمان التي بنيت عليها العقيدة الإسلامية ، فلا إسلام صحيح ولا إيمان ثابت لاحد حتى يؤمن الإيمان الجازم بأنها نزلت من عند الله ، وأنها كلامه تكلم بها حقيقة على ما يليق بجلاله ، ويزاد في القرآن الكريم على ذلك أنه خاتمة الكتب والمهيمن عليها ، والمعجزة الخالدة ، وأن كل لفظ فيه محفوظ ، ويجب الإقرار بما فيه ، واتباع أمره ، واجتناب نهيه ، وتصديق خبره ، ورفض كل ما يخالفه ، ويخالف سنة النبي صلى الله عليه وسلم كما قال عليه الصلاة والسلام (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[1]

---

١ -) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ١ / ١٣٤ .

الفصل الثالث

((الفصـــل الثالـــث))

دلالـة السورة علـى وجوب الإيمـان بالأنبيـاء والـرسـل

ويشـتمـل علـى المباحـث الآتيـــة :

المبحـث الأول : تعريـف النـبي والرسـول والفـــرق بينهمـــا .

المبحـث الثاني : كيـفيـة الإيمـان بالانبيـاء و السـابقـــــين .

المبحـث الثالث : كيـفيـة الإيمـان بمحمـد صلى الله عليه وسلم .

المبحـث الرابـع : مـا يجـب للرسـل ، ومـا يجـوز عليهـــــم .

المبحـث الخامس : موضـــوع الرســـالات السمـــاويـــة .

(المبحث الأول)

تعريف النبي والرسول والفرق بينهما

أولاً : تعريف النبي والرسول :

النبي في اللغة : مشتق من النبأ وهو الخبر قال تعالى ((عم يتساءلون عن النبأ العظيم)) [1] وإنما سمي النبي نبيا لأنه مخبر ، مخبر فهو مخبر بمعنى أن الله أخبره وأوحى إليه قال تعالى ((قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير)) [2] ، ومعنى كونه مخبرا فهو يخبر عن الله تعالى بأمره ووحيه قال تعالى ((نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم)) [3] .

وقيل : إن النبوة مشتقة من " النبوة " وهي المكان المرتفع من الارض ، وتطلق العرب لفظ النبي على علم من أعلام الأرض التي يهتدى بها ، والرابط بين لفظ النبي والمعنى اللغوي واضح ذلك أن النبي ذو رفعة وقدر عظيم في الدنيا والاخرة ، فالأنبياء كما هو معلوم أشرف خلق الله وهم الأعلام التي يهتدي بها العباد فيما يكون فيه صلاح دينهم ودنياهم " [4]

- تعريف النبي في الإصطلاح :

النبي في الإصطلاح : هو الذي ينبئه الله بأن يعمل بشريعة من قبله ولم يرسل إلى كفار خالفوا أمر الله ليبلغهم رسالة من الله إليهم وقد يوحى إليه وحي خاص في قصة معينة فالأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين بهم " [5] .

- وأما تعريف الرسول في اللغة :

فالإرسال في اللغة : هو التوجيه [6] فاذا بعثت شخصا في القيام بمهمة ما

---

١) سورة النبأ آية ١-٢ ٢) سورة التحريم آية / ٣

٣) سورة الحجر آية / ٤٩

٤) الصحاح للجوهري ٦/٢٥٠٠ ، لسان العرب ١٥/٣٠٢ ، المصباح المنير ٢/٥٩١ ،

٥) كتاب النبوات لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ طبع دار القلم بيروت- لبنان

٦) لسان العرب ١١/٢٨٣ وانظر الصحاح للجوهري ٤/١٧٠٩ ، المصباح المنير ١/٢٢٦

فهو رسولك قال تعالى حكاية عن ملكة سبأ ((وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون)) [1] .

فالرسل : إنما سموا بذلك لأنهم وجهوا من قبل - البارى جل وعلا - قال تعالى ((ثم أرسلنا رسلنا تترا)) [2] قال ابن عباس يتبع بعضهم بعضا " أ.هـ [3] فالله تعالى بعث رسله برسالة معينة وكلفهم بعملها وأمرهم بتبليغها إلى الناس .

- تعريف الرسول في الإصطلاح :

الرسول في الإصطلاح : " هو الذي ينبئه الله ، ثم يأمره بأن يبلغ رسالته من خالف أمره كنوح فقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس وقبلهما آدم كان نبيا مكلما " [4]

ثانيا : الفرق بين النبي والرسول :

لا يصح قول من يقول أنه لا فرق بين النبي والرسول ، إذ القرآن شاهد بعدم صحة هذا القول حيث ورد في كتاب الله العزيز عطف النبي على الرسول قال - تعالى - ((وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته)) [5] . وأيضا وصف الله - تعالى - بعض الرسل بالنبوة والرسالة وهذا يدل على أن الرسالة أمر زائد على النبوة كقوله - تعالى - في شأن موسى عليه الصلاة والسلام ((واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا)) [6] والذى شاع عند أهل العلم أن الرسول أعم من النبي : قال شارح الطحاوية بعد أن ذكر الفرق بين النبي والرسول " ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل ، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم بل الأمر بالعكس ، فالرسالة أعم من جهة نفسها ،

---

١) سورة النمل آية /٣٥ ٢) سورة المؤمنون آية /٤٤

٣) تفسير ابن كثير ٥/٢٠

٤) النبوات لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٢٥٥

٥) سورة الحج آية /٥٢ ٦) سورة مريم آية /٥١

وأخص من جهة أهلها " أ.هـ [1] .

وجاء في لوامع الانوار البهية في تعريفه للنبي : قال : " وهو إنسان أوحي إليه بشرع وان لم يؤمر بتبليغه فان أمر تبليغه فهو رسول أيضا على المشهور فبين النبي والرسول عموم وخصوص مطلق ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، والرسول أفضل من النبي إجماعا لتميزه بالرسالة التي هي أفضل من النبوة على الأصح " أ. هـ [2] .

وما ذكره شارح الطحاوية وصاحب لوامع الأنوار فيه بعد لأمرين :

الامر الاول : أن الله - تعالى - أخبر بأنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل قال تعالى ((وما أرسلنا من رسول ولا نبي)) [3] . ولو كان الفرق بينهما إنما هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبي أن يبلغ ما أنزل الله اليه من الوحي .

الأمر الثاني : روى مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . . . " الحديث [4] فهذا الحديث دل على أن الأنبياء أمرهم الله بتبليغ ما أوحاه إليهم وأنه حصل بينهم تفاوت في الاستجابة لهم من قبل أممهم .

والتعريف الراجح هو ما قرره شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى ، حيث قال " فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبىء بما أنبأ الله به فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول .

وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول " أ. هـ [5] .

---

١) شرح الطحاوية ص ١٦٧ ٢) ١/٤٩ - ٥٠

٣) سورة الحج آية /٥٢ ٤) ١/١٦٩

٥) النبوات ص ٢٥٥ وانظر تفسير الالوسي ١٧/١٧٣

ومما يؤكد هذا أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما توفي نبي بعث الله بعده نبيا آخر كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام [١].

وأنبياء بني اسرائيل من بعد موسى كانوا يحكمون بالتوراة قال تعالى((إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)) [٢].

وقال تعالى ((ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ...)) الاية [٣].

فالآيتان دلتا على أن النبي يوحى إليه شيء من السماء ويوجب على قومه أمرا ، وهذا لا يحصل إلا بعد أن يجب عليه التبليغ .

---

١) أنظر صحيح البخاري مع الفتح ٦ / ٤٩٥

٢) سورة المائدة آية / ٤٤

٣) سورة البقرة آية / ٢٤٦ .

(المبحث الثاني)

كيفية الإيمان بالأنبياء السابقين

قبل أن نبين كيفية الإيمان بالانبياء والمرسلين السابقين الذين بعثهم الله إلى أممهم قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نذكر الآيات التي جاءت في سورة " الزمر " التي دلت على وجوب الإيمان بالأنبياء والمرسلين مع بيان وجه دلالتها على ذلك .

قال تعالى ((ولقد أوحي إليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين))

وقال تعالى ((وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء))

وقال تعالى ((ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين))

فهذه الآيات الثلاث من السورة دلت على أن الله تعالى أرسل رسلا وأنبياء إلى جميع خلقه ليبلغوهم عن ربهم ما أوحاه إليهم من النور والهدى الذي يسعدهم في دنياهم وأخراهم فيجب الإيمان بهم ووجه دلالة الآيات الثلاث على وجوب الإيمان بهم تتضح بما يلي :

فالآية الاولى : هي قوله تعالى ((ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)) فيها الاخبار المؤكد من الله - تعالى - بأنه أوحى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وإلى من سبقه من إخوانه الأنبياء والمرسلين بخطورة الشرك وأنه محبط ، ومبطل لكل أعمال العبد متى تلبس به .

وأما الآية الثانية : وهي قوله تعالى ((وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ....) الآية . ففيها الإخبار من الله

ـ تعالى ـ بأن أرض المحشر ستضيء بنوره إذا تجلى لفصل القضاء بين الخلائق ويوضع كتاب الأعمال ويؤتى بالنبيين ليشهدوا على أممهم بأنهم بلغوهم رسالات الله ـ تعالى ـ لإقامة الحجة على المنكرين والمكذبين من الأمم .

قال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ((وجيء بالنبيين)) قال يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله " [1] .

وأما الآية الثالثة ؛ وهي قوله تعالى ((ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم)) الآية ففيها إخبار من المولى ـ جل وعلا ـ بأن خزنة جهنم من ضمن توبيخهم لأصناف الكفار الداخلين جهنم توبيخهم لهم بقولهم ؛ ألم تجئكم رسل من جنسكم يمكنكم مخاطبتهم والأخذ عنهم وأقاموا عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه وحذروكم شر هذا اليوم ؟ فيكون الجواب منهم بأن الرسل جاءوهم وأنذروهم وأقاموا عليهم الحجج والبراهين ولكنهم كذبوهم كما قال ـ تعالى ـ ((قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير)) [2] فهذه الآيات الثلاث المتقدمة من السورة دلت على وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل ومعنى الإيمان بالانبياء والرسل الإعتقاد الجازم بأن الله ـ جل وعلا ـ أرسل رسلا من البشر ليرشدوا الخلق إلى ما يهمهم في معاشهم ومعادهم فقد اقتضت حكمة الحكيم العليم أن لا يترك خلقه سدى ، بل أرسل إليهم رسلا مبشرين بثوابه ومنذرين عقابه وقد قاموا بتبليغ ما أمرهم الله بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لأحكامه من أوامر ونواهي فيجب على كل مسلم ومسلمة أن يعتقد وجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن الله ـ تعالى ـ .

ويعتقد وجوب اقتداء أممهم بهم في سيرهم ، وأن يأتمروا بما أمروا به وينكفوا عما نهوا عنه .

وأن يعتقد بأنهم مؤيدون بالمعجزات الإلهية الدالة على صدق دعواهم

---

١) جامع البيان ٢٤/٣٣ ، تفسير ابن كثير ٦/١١١

٢) سورة الملك آية /٩

أنهم أنبياء الله ورسله .

أما كيفية الإيمان بالأنبياء والمرسلين :

فيجب الإيمان على التفصيل بمن سمى الله - تعالى - في كتابه من رسله وأنبيائه ويجب الإيمان إجمالا بمن لم يسم الله - تعالى - منهم فإن لله رسلا وأنبياء لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا هو - تعالى - .

قال تعالى ((ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك)) [1] وقال تعالى ((وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)) [2] وقال - عز شأنه - ((ولكل أمة رسول)) [3] والذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم من الأنبياء والمرسلين خمسة وعشرون وهم : آدم ، ونوح ، وإدريس ، وصالح ، وإبراهيم ، وهود ولوط ويونس وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون واليسع وذو الكفل وداود وزكريا وسليمان وإلياس ويحيى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد ورد ذكر ثمانية عشر منهم في قوله تعالى ((وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين)) [4] .

وورد ذكر الباقين في مواضع متفرقة من القرآن قال تعالى ((وإلى عاد أخاهم هودا)) [5] وقال تعالى ((وإلى ثمود أخاهم صالحا)) [6] وقال تعالى ((وإلى مدين أخاهم شعيبا)) [7] وقال تعالى ((ان الله اصطفى آدم ونوحا)) [8] وقال تعالى ((واسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين)) [9] وقال - عز وجل -

---

١) سورة غافر آية / ٧٨
٢) سورة فاطر آية / ٢٤
٣) سورة يونس آية / ٤٧
٤) سورة الأنعام آية / ٨٣-٨٦
٥) سورة الاعراف آية / ٦٥
٦) سورة الاعراف آية / ٧٣
٧) سورة الاعراف آية / ٨٥
٨) سورة آل عمران آية / ٣٣
٩) سورة الانبياء آية / ٨٥

((محمد رسول والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)) [1] فهؤلاء الأنبياء والرسل يجب الإيمان بهم إيمانا تفصيليا بحيث لو عرض على إنسان واحد منهم لم ينكر نبوته ولا رسالته إذ من أنكر نبوة واحد منهم أو رسالته فهو كافر بالله العظيم ، أما الأنبياء الذين لم يقصصهم الله علينا فالواجب علينا الإيمان بهم إجمالا . وليس لأحد أن يقول بنبوة أحد أو رسالته طالما أن القرآن لم يذكره في عداد من ورد ذكرهم من الأنبياء والمرسلين ولم يأتنا الإخبار بنبوته عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم .

أولو العزم من الرسل :

ذكر كثير من العلماء أن أولي العزم من الرسل هذه هم خمسة [2] وهم : محمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم وموسى ، ونوح ، وعيسى عليهم أفضل الصلاة والسلام وهؤلاء الرسل جمعهم الله في آيتين من كتابه ، قال تعالى ((وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم)) [3]

وقال تعالى ((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)) [4]

---

١) سورة الفتح آية / ٢٩
٢) جامع البيان ٢٦/ ٣٧ ، تفسير ابن كثير ٦/ ٣٠٧
٣) سورة الاحزاب آية / ٧
٤) سورة الشورى آية / ١٣

(المبحث الثالث)

كيفية الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم

قال شارح الطحاوية رحمة الله تعالى :" وأما الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالا وتفصيلاً " أ. هـ [1]

فيجب علينا أن نؤمن بأن محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم نبي الله ورسوله وعبده وصفيه فلم يعبد صنما ولم يشرك بالله طرفة عين " [2] .

وقال ابن قدامة رحمه الله تعالى" ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وسيد المرسلين لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته ولا يقضى بين الناس في يوم القيامة إلا بشفاعته ، ولا تدخل الجنة أمة إلا بعد دخول أمته ، صاحب لواء الحمد والمقام المحمود والحوض المورود وهو إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ، أمته خيرُ الأمم " [3]

فيجب على الإنسان أن يؤمن بأنه خاتم الأنبياء لقوله - تعالى - ((ولكن رسول الله وخاتم النبيين)) [4] فالآية نصت على أنه لا نبوة بعده صلى الله عليه وسلم وكل من ادعاها بعده فهو كذاب لقوله صلى الله عليه وسلم (وأنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي) [5] .

كذلك يجب الإعتقاد الجازم بأنه عليه الصلاة والسلام إمام المتقين الذي يقتدى به في الخير كله وأنه وحده الجدير بأن يقتدى ويتأسى به دون سواه .

قال تعالى ((قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)) [6] .

ويجب الإيمان بأنه خليل الرحمن ، وأن له أعلا مراتب محبة الله - عز وجل -

---

١) ص ٣٤٩

٢) الفقه الأكبر مع شرحه لملا علي القاري ص ٩٦

٣) لمعة الاعتقاد ص ٢٥ ٤) سورة الاحزاب آية / ٤٠

٥) صحيح مسلم ٤ / ٢٢٤٠ ، سنن أبي داود ٢/٤١٤ ، سنن الترمذي ٣/٣٣٨ ، المسند ٥/٤١

٦) سورة آل عمران آية / ٣١

فقد قال عليه الصلاة والسلام (لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا) [1] . ويجب الإعتقاد الجازم بأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى عامة الورى بالحق والهدى قال تعالى ((وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)) [2] وقد حكى الله عن الجن أنهم قالوا : ((يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)) [3]

قال شارح الطحاوية : " وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة " أ.هـ [4] .

ويجب على كل مسلم أن يقدم محبته عليه الصلاة والسلام على الوالد والولد والنفس لقوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) [5] .

ويجب الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ أجرى على يديه صلى الله عليه وسلم معجزات باهرات ، وآيات بينات إذا تأملها من يريد الحق دلته على أنها شهادة صادقة من قبل الله ـ عز وجل ـ لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله حقا . ومعجزاته صلى الله عليه وسلم كثيرة جدا ألفت فيها مؤلفات مستقلة ، وتناولها علماء التوحيد والتفسير ، والحديث والتاريخ بالشرح والبيان ، ومن تلك المعجزات التي دلت على صدقه صلى الله عليه وسلم ما يأتي :

١ ـ المعجزة العظمى :

من أعظم المعجزات التي أعطيها رسولنا صلى الله عليه وسلم ـ القرآن الكريم ـ الذي يخاطب النفوس والعقول ، وهو الآية الباقية الدائمة إلى يوم الدين لا يعتريه التغيير والتبديل ((وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)) [6] . وقد تحدى الله بهذا الكتاب أرباب

---

١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥ / ١٥٢ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .
٢) سورة سبأ آية / ٢٨ ٣) سورة الاحقاف آية / ٣١
٤) شرح الطحاوية ص ١٧٨
٥) صحيح البخاري ١ / ١٢ ، صحيح مسلم ١ / ٦٧ من حديث أنس رضي الله عنه .
٦) سورة فصلت آية / ٤١-٤٢ .

الفصاحة ، وقادة البلاغة من العرب ، فقد كانت البلاغة والفصاحة وجودة القول هي بضاعتهم وقد تصدوا لمعاداة دعوة الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ولكن رغم فصاحتهم وبلاغتهم تحداهم الله عن أن يأتوا بشيء من مثله ، ولكنهم عجزوا عن ذلك قال تعالى ((وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)) (١) .

٢ - انشقاق القمر :

ومن المعجزات التي أيد الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر فقد سأل أهل مكة الرسول عليه الصلاة والسلام آية فانشق القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما ، وقد كان القمر حين انشقاقه بدرا ، وقد ذكر الله هذه الآية العظيمة في كتابه فقال عز وجل ((اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)) (٢) .

وقد نقل العلامة ابن كثير : " إجماع المسلمين على وقوع هذه الآية ، كما ذكر أنه قد وردت أحاديث متواترة من طرق متعددة في انشقاق القمر " (٣)

وقد شاهد هذه المعجزة الناس في أرجاء الجزيرة العربية ، فإن أهل مكة لم يصدقوا وقالوا : سحرنا محمد ، ولكنهم استدركوا قائلين : أنظروا ما يأتيكم به المسافرون فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس جميعهم وفي اليوم الثاني سألوا من وفد إليهم ، من خارج مكة ، فأخبروهم أنهم قد رأوه .

وقد شاهد الناس انشقاق القمر في خارج جزيرة العرب . قال ابن كثير : " وشوهد انشقاقه في كثير من بقاع الأرض ، ويقال إنه أرخ ذلك في بعض بلاد الهند ، وبني بناء في تلك الليلة وأرخ بليلة انشقاق القمر " (٤) .

---

١) سورة البقرة آية / ٢٣-٢٤ ٢) سورة القمر آية / ١ - ٢
٣) البداية والنهاية ٣/ ١٣٠
٤) البداية والنهاية ٣/ ١٣٢ .

٣ - تسليم الحجر :

ومن المعجزات التي أيد الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم أنه كان حجر بمكة يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته .

فقد روى مسلم بإسناده إلى جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن)[1].

٤ - حنين الجذع :

جاء في صحيح البخارى من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه " وفي رواية أخرى عنه " فلما صنع له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوت كصوت العشار "[2]

٥ - نبع الماء من بين أصابعه :

وفي صحيح البخارى من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة - ظرف للماء - فتوضأ فجهش الناس[3] نحوه فقال : ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة "[4] .

٦ - تكثير القليل من الطعام :

من ذلك ما رواه أنس بن مالك قال : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء ؟

---

١) صحيح مسلم ٤/١٧٨٢

٢) صحيح البخارى مع " الفتح " ٦/٦٠١ - ٦٠٢ .

٣) فجهش الناس : أى : أسرعوا لأخذ الماء .

٤) صحيح البخارى مع الفتح ٦/٥٨١ .

قالت : نعم فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولاثتني [1] ببعضه ، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذهبت به فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعه الناس فقمت عليهم فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : آرسلك أبو طلحة ؟ فقلت : نعم قال : بطعام ؟ قلت : نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه : قوموا . فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته فقال : أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وليس عندنا ما نطعمهم فقالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة معه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هلمي يا أم سليم ما عندك فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت وعصرت أم سليم عكة [2] فأدمته ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ما شاء الله أن يقول : ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة فأكل القوم كلهم حتى شبعوا والقوم سبعون رجلا ، أو ثمانون رجلا " [3]

٧ - نطق ذراع الشاة الذي قدم له ليأكله بأنه مسموم :

روى أبو داود بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه كان يحدث أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية [4] ثم أهدتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذراع فأكل منها ، وأكل رهط من أصحابه معه ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " إرفعوا أيديكم " وأرسل

١) المراد أنها لفت بعضه على رأسه ، وبعضه على إبطه " الفتح " ٦/٥٨٩ .
٢) العكة : إناء من جلد مستدير يجعل فيه السمن غالبا والعسل . أنظر الفتح ٦/٥٩٠
٣) صحيح البخاري مع الفتح ٦/٥٨٦ - ٥٨٧ .
٤) أي: مشوية .

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المرأة فدعاها فقال لها : أسممت هذه الشاة ؟ قالت اليهودية من أخبرك ؟ قال " أخبرتني هذه التي في يدي " وهي الذراع قالت نعم قال : فما أردت بذلك ؟ قالت : قلت إن كنت نبيا فلن تضرك ، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك فعفا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعاقبها .... الحديث وفي رواية أخرى : عن أبي سلمة : " فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلت " [1] .

٨ ـ كيد الأعداء عنه :

من ذلك أن أبا جهل حلف باللات والعزى أنه لو رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يصلي في المسجد حيث مجامع قريش أن يطأ على رقبته ، أو ليعفرن وجهه في التراب فلما رأى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساجدا أراد أن يفعل ما أقسم عليه ، فلما اقترب منه " ما فاجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواعضوا)[2]

وفي معركة حنين انهزم المسلمون وثبت الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة وأحاط به الأعداء وأتوه من كل جانب فلما رأى ذلك عليه الصلاة والسلام نزل عن بغلته " ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ، ثم استقبل به وجوههم فقال (شاهت الوجوه) قال سلمة بن الأكوع : فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ الله عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين . فهزمهم الله ـ عز وجل ـ وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم بين المسلمين " [3] .

٩ ـ ما كان من شأن شاة أم معبد حين مسح بيده المباركة على ضرعها :

ومضمون هذه القصة أنه عليه الصلاة والسلام عند ما خرج مهاجرا إلى المدينة

---

١) سنن أبي داود ٢/٤٨٢ ، وانظر صحيح البخاري مع الفتح ٥/٢٣٠

٢) صحيح مسلم ٤/٢١٥٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٣) صحيح مسلم ٣/١٤٠٢ من حديث إياس بن سلمة عن أبيه .

هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي فمروا بخيمتي أم معبد [1] الخزاعية ، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي فسألوها هل عندها لحم ، أو لبن يشترونه منها ؟ فلم يجدوا عندها شيئا من ذلك ، وقالت : لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، وإذا القوم مرملون مسنتون ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا شاة في كسر خيمتها فقال : " ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم قال : " فهل بها من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، قال : تأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : إن كان بها حلب فاحلبها ، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالشاة فمسحها وذكر اسم الله ومسح ضرعها ، وذكر اسم الله ، ودعا بإناء لها يربض الرهط [2] فتفاجت [3] واجترت ، فحلب فيه ثجاحتى ملأه وأرسله إليها فسقاها وسقى أصحابه فشربوا عللا بعد نهل حتى إذا رووا شرب آخرهم وقال : " ساقي القوم آخرهم " ثم حلب فيه ثانيا عوذا بعد " فغادره عندهم ثم ارتحلوا " [4] .

١٠ - استجابة الله - سبحانه - لدعائه عليه الصلاة والسلام :

من ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي قلت : يا رسول الله ! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم اهد أم أبي هريرة " فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جئت فصرت إلى الباب فاذا هو مجاف [5] فسمعت أمي خشف [6] قدمي فقالت : مكانك

---

١) اسمها : عاتكة بنت خلف بن معبد بن وهيمة بن أصرم " البداية والنهاية ٣/٢٠٩
٢) أي : يتتبع الجماعة حتى يربضوا . ٣) أي : فرجت بين رجليها .
٤) انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٢٧٨ ، الوفاة بأحوال المصطفى ١/٢٤٢ ، البداية والنهاية ٣/٢١١
٥) أي : مغلق .
٦) أي : صوتهما في الأرض .

يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة [1] الماء قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة أشهد أن لا إله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته وأنا أبكي من الفرح قال قلت : يارسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا .... الحديث [2] .

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام إخباره بالمغيبات التي وقعت كما أخبر بها صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عصمته من القتل فقد عصمه الله " من أعدائه وهم الجمع الغفير ، والعدد الكثير وهم على أتم حنق عليه ، وأشد طلب لنفسه ، وهو بينهم سترسل ولهم مخالط ومكاثر ، ترمقه أبصارهم شذرا وترتمد عنه أيديهم ذعرا ، وقد هاجر عنه أصحابه حذرا حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة ، ثم خرج عنهم سليما لم يكلم في نفس ولا جسد ، وما كان ذلك إلا بعصمة إلهية وعده الله تعالى بها فحققها حيث يقول ((والله يعصمك من الناس)) [3] فعصمه منهم [4] " ومعجزاته عليه الصلاة والسلام كثيرة جدا لا نستطيع احصائها هاهنا وانما ذكرنا ما تقدم منها كنماذج فقط ، وإلا فمعجزاته صلى الله عليه وسلم الحسية جاءت بها أخبار كثيرة بعضها متواتر ، وكثير منها مشهور وهي في جملتها تفيد العلم اليقيني بوقوع تلك المعجزات أولا : وبصدقه صلى الله عليه وسلم ثانيا " [5] . وللعلماء في معجزاته صلى الله عليه وسلم تصانيف مستقلات . [6]

---

١) خضخضة الماء صوت تحريكه .
٢) رواه مسلم في صحيحه ٤/١٩٣٨
٣) سورة المائدة آية / ٦٧
٤) أعلام النبوة للماوردى ص ٧٦
٥) انظر الوفاء بأحوال المصطفى ١/٣٣٩
٦) مثل " دلائل النبوة للبيهقي " ، " دلائل النبوة لابي نعيم الاصبهاني " ، " أعلام النبوة للماوردى " ، " شمائل الرسول " لابن كثير .

(المبحث الرابع)

ما يجب للرسل ، وما يجوز عليهم

أولا : ما يجب للرسل :

لقد دلت السورة على وجوب تصديق الأنبياء والرسل وحذرت أشد تحذير من تكذيبهم فيما جاءوا به عن الله - تعالى - وجعلت تكذيبهم أبلغ النهاية في الظلم وبينت أن جزاء من فعل ذلك أن النار مسكنه ومأواه إذ هو من عداد الكافرين .

قال تعالى ((فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جنهم مثوى للكافرين ، والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون))

هاتان الآيتان من السورة دلتا على واجب واحد من الواجبات التي تجب للرسل على المبعوثين إليهم وهو وجوب تصديقهم فيما أخبروا به .

فالآية الأولى دلت على أنه لا أحد أظلم ولا أعظم فرية ممن كذب على الله بادعاء أن له ولدا وصاحبة أو أنه حرم ما لم يحرمه من المطاعم ، ولا أحد أظلم ممن كذب بالقرآن الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وابتعثه الله به رسولا فعارض ما جاء به منكرا قول " لا إله الا الله " ، ومن كذب بالقرآن وأنكر " لا إله الا الله " ، فقد كذب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن كذب الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كذب سائر الأنبياء والمرسلين إذ المرسل لهم واحد وهو الله - تعالى - لغاية واحدة وهي عبادة الله وحده لا شريك له .

ومن اعتقد تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وامتنع عن متابعته فيما يدعو إليه مما أتى به من عند الله من التوحيد وحكم القرآن فالنار مقامه ومستقره لأنه آثر الكفر على الإيمان بتكذيبه رسول ربه - جل وعلا - وعلى هذا دلت الآية على أن من حق المرسلين على من سواهم ممن بعثوا إليهم اعتقاد صدقهم فيما جاءوا به من الوحي الالهي الرباني .

وأما الآية الثانية : وهي قوله تعالى ((والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)) فهي شهادة قاطعة من الله - تعالى - لرسوله بأنهم صادقون فيما قالوه عن الله - تعالى - كما اشتملت على الثناء والمدح للذين صدقوهم وآمنوا بهم - بأنهم متقون - بقوله ((أولئك هم المتقون)) الذين اتقوا الله بتوحيده ؛ والبراءة من الأوثان والأنداد فأدوا الفرائض واجتنبوا المعاصي فخافوا عقابه .

وقد وردت آيات كثيرة على غرار قوله - تعالى - ((والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)) وكلها تدل على صدق رسل الله وأنبيائه ووجوب تصديقهم قال تعالى ((هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)) [1] .

وقال تعالى في شأن خليله إبراهيم عليه السلام ((واذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صديقا نبيا)) [2] وقال تعالى في شأن إسماعيل عليه السلام ((إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا)) [3] إلى غير ذلك من الايات الدالة على أن رسل الله وأنبياءه هم أكمل البشرية صدقا على الإطلاق ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة اعتقاد صدق جميع أنبياء الله ورسله ، ويجب الإعتقاد الجازم أنهم أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة على الوجه الأكمل وبينوا بيانا واضحا شافيا كافيا . لا حاجة إلى بيان سواه ، ويجب على العباد طاعتهم : وعدم مخالفتهم لأن ذلك من طاعة الله ، وأنهم أكمل البرية خلقا وعملا وأنهم مختصون بفضائل لا يصل إليها أحد سواهم ، وأنهم معصومون من الكذب والخيانة والكتمان والتقصير في التبليغ وعن الكبائر كلها دون الصغائر قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - تعالى - " القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف حتى إنه قول أكثر أهل الكلام كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا القول أكثر الأشعرية وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء

---

١) سورة يس آية / ٥٢ ٢) سورة مريم آية / ٤١

٣) سورة مريم آية / ٥٤

بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول ...." أ. هـ [1].

ويجب الإيمان بأن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا رجالا من بني آدم وليسوا من الملائكة ولم يبعث الله أنثى قط . قال تعالى ((وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم)) [2] وقد دعا القرآن الكريم إلى الايمان بالرسل وحذر من الكفر بهم ، أو التفريق بينهم .

قال تعالى ((يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا)) [3] وقال تعالى ((آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله)) [4] وقال تعالى ((إن الذين يكفرون بالله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا)) [5] فهذه الآية فيها الوعيد الشديد للكافرين بالله ورسله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فآمنوا ببعض الانبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصبية فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد صلى الله عليه وسلم .... والمقصود أن من كفر بنبي من الانبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانا شرعيا ، إنما هو عن غرض وهوى

---

١) مجموع الفتاوى ٤/٣١٩

٢) سورة الانبياء آية /٧

٣) سورة النساء آية /١٣٦

٤) سورة البقرة آية /٢٨٥

٥) سورة النساء آية /١٥٠-١٥١

وعصبية " [1] فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعضهم أو كلهم لا غبار على وضوح كفره لأن كفره بالرسل كفر بالله تعالى .

ثانيا : ما يجوز عليهم :

قال تعالى ((إنك ميت وانهم ميتون))

هذه الآية إخبار مؤكد من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سيموت عن قريب وأن المكذبين به من قومه والمؤمنين منهم ميتون كذلك ، وإذا كان أشرف الخلق وأحبهم إلى الله - تعالى - قد ذاق الموت فكذلك غيره من إخوانه الانبياء والرسل قد ذاقوه من قبله .

قال عماد الدين ابن كثير رحمه الله - تعالى - " هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تحقق الناس موته مع قوله - عز وجل - ((وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين)) ومعنى هذه الآية أنكم ستنتقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله - تعالى - في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل فيفصل بينكم " [2]

وهذه الآية دلت على أن الرسل يموتون ويقتلون كما يموت غيرهم من الخلق ويقتلون .

قال تعالى ((وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون)) [3]

قال ابن جرير رحمه الله - تعالى - " يقول تعالى ذكره : لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وما خلدنا أحدا من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك من رسلنا " أ.هـ [4] .

---

١) تفسير ابن كثير ٢/٤٢٥

٢) تفسير القرآن العظيم ٦/٩٠ والآية رقم ١٤٤ من سورة آل عمران .

٣) سورة الانبياء آية / ٣٤

٤) جامع البيان ١٧/٢٤ .

وكونه صلى الله عليه وسلم قد ذاق الموتة الأولى التي هي موتة الدنيا لا ينافي حياته البرزخية حيث أخبرنا الله - تعالى في كتابه بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ولم ينالوا ذلك إلا بمتابعتهم وإيمانهم بهم الإيمان الصادق ، وحياة الأنبياء البرزخية تفوق حياة الشهداء إذ هم أفضل الخلق على الإطلاق "[1]

وروى أبو داود في سننه بسند صحيح عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : " وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم "[2] .

فالسورة ذكرت أمرا واحدا مما يجوز على الرسل وهو أنهم يموتون كما يموت غيرهم من المخلوقات وهناك أمور أخرى تجوز على الرسل ذكرت في غير هذه السورة وبعضها دلت عليها السنة المطهرة فيجب على الإنسان أن يؤمن الإيمان الجازم بأن الله - تعالى - لم يخص أنبياءه ورسله بطبائع غير طبائع البشر ، وإنما كان اختيارهم من الرجال الذين يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق وينامون ويجلسون ويضحكون ولهم أزواج وذرية وتمتد إليهم أيدي الظلمة ، وينالهم الإضطهاد ويقتلون بغير حق ويتألمون ويصيبهم المرض وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية بين الخلق وكل هذه الأمور منصوص عليها في القرآن الكريم وبعضها نصت عليها السنة المطهرة .

ومن هنا يجب على المرء أن يعتقد بأن الرسل لا يملكون شيئا من خصائص الألوهية فليس لهم تصرف في الكون ولا يملكون لأحد نفعا ولا ضرا وليس لهم تأثير على إرادة الباري - سبحانه - وتعالى ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه ، وقد خصهم - الباري - سبحانه - بمؤهلات من المزايا والفضائل والأخلاق التي أهلتهم لأن يتلقوا الوحي عن الله - تعالى - وليقوموا بأعباء الرسالة ليكونوا الأسوة المثلى والقدوة الحسنة للناس يقتدون بهم في أمور الدين والدنيا .

---

١) فتح الباري ٦/٤٨٨ .

٢) ٢/٤٧١

(المبحث الخامس)

موضوع الرسالات السماوية

لقد دلت السورة على أن موضوع رسالة الأنبياء والمرسلين هو التبشير والإنذار وتبليغ أممهم ما أمرهم الله بتبليغه من الأوامر والنواهي التي فيها سعادة الأمم إن هم صدقوا المرسلين وآمنوا بهم ، ولهم الشقاء المستمر إن هم كذبوهم وخالفوهم فيما يدعونهم إليه من توحيد العبادة وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له .

قال تعالى ((لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب)) .

وقال تعالى ((وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين))

فهاتان الآيتان من السورة دلتا على أن الله تعالى بعث أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين ومبلغين وحي الله إلى العباد وهم الواسطة بين الله وعباده وهي الواسطة الشرعية الحقة التي العباد بأمس الحاجة إليها وهي واسطة تبليغ الوحي إلى العباد ، وما سواها من الوسائط باطلة .

قال البيضاوي : ((لهم البشرى)) بالثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت " أ.هـ [1] .

وقال ابن جرير رحمه الله - تعالى - : ((فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنة)) يقول : جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول من القائلين فيتبعون أرشده وأهداه وأدلهُ على توحيد الله والعمل بطاعته ويتركون ما سوى ذلك من القول الذى لا يدل على رشاد ولا يهدى إلى سداد " أ.هـ [2]

---

١) تفسير البيضاوي ص ٦٠٩

٢) جامع البيان ٢٣/٢٠٦

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله - تعالى - : عند قوله تعالى ((لهم البشرى فبشر عباد)) قال : ((لهم البشرى)) بالثواب الجزيل وهو الجنة وهذه البشرى إما على ألسنة الرسل أو عند حضور الموت أو عند البعث ((فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)) المراد بالعباد هنا العموم فيدخل الموصوفون بالإجتناب والإنابة إليه دخولا أولياً ، والمعنى : يستمعون القول الحق من كتاب الله وسنة رسوله فيتبعون أحسنه أي محكمه ويعملون به .

قال السدي : يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون بما فيه ، وقيل هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن ويكف عن القبيح فلا يتحدث به ، وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ، وقيل يستمعون الرخص والعزائم فيتبعون العزائم ويتركون الرخص ، وقيل يأخذون بالعفو ويتركون العقوبة ، ثم أثنى - سبحانه - على هؤلاء المذكورين فقال ((أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب)) أي : هم الذين أوصلهم الله إلى الحق وهم أصحاب العقول الصحيحة لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم ولم ينتفع من عداهم بعقولهم " أ.هـ [1]

ودعوة الرسل إلى الله - جل وعلا - دائما تقترن بالتبشير والإنذار ، لأن ارتباط دعوتهم بالتبشير والإنذار وثيق جدا ، فقد قصر - القرآن الكريم - مهمة الرسل عليهما في بعض آياته : قال تعالى ((وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين)) [2] وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لنفسه مثلا في هذا فقال (مثلي ومثل مابعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : ياقوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني ، فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق " [3]

---

١) فتح القدير ٤/٤٥٦

٢) سورة الكهف آية /٥٦

٣) صحيح البخاري مع الفتح ١٣ / ٢٥٠ من حديث أبي موسى الاشعري رضي الله عنه .

وتبشير الرسل عليهم الصلاة والسلام وانذارهم دنيوى وآخروى ،فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة ((من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)) (١) ((فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)) (٢) . ويعدونهم بالتمكين في الأرض وتبديل خوفهم أمنا ((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا)) (٣)

أما العصاة من الخلق فإن الرسل يخوفونهم بالشقاء الدنيوي قال تعالى : ((ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا)) (٤) كما يحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوى . قال تعالى ((فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)) (٥)

أما بالنسبة للآخرة فإنهم يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها قال تعالى ((ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم)) (٦) .

وأما المجرمون والعصاة فإنهم يخوفونهم عذاب الله في الآخرة قال تعالى ((ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين)) (٧) .

وعندما يتأمل الإنسان دعوة الرسل يجد أنها قد اصطبغت بالتبشير والإنذار ، والذي يظهر أن التبشير والإنذار على النحو الذي جاءت به الرسل من أعظم الأسباب لفتح النفس الانسانية ، وإقبالها على الخير ، لأن النفوس مطبوعة على طلب الخير لذاتها ، ودفع الشر عنها ، فقد أرسل الله الرسل ليبصروا النفوس بالخير العظيم الذي يحصلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة فإن النفوس

---

١) سورة النحل آية / ٩٧
٢) سورة طه آية / ١٢٣
٣) سورة النور آية / ٥٥
٤) سورة طه آية / ١٢٤
٥) سورة فصلت آية / ١٣
٦) سورة النساء آية / ١٣
٧) سورة النساء آية / ١٤

تشتاق إلى تحصيل الخير ، وعند ما تبين الرسل عليهم الصلاة والسلام الأضرار العظيمة التي تلحق النفوس من وراء الكفر والضلال فإنها تهرب من هذه الأعمال المشقية .

ومما تقدم يتضح أن موضوع الرسالات السماوية التي أرسل الله بها الرسل عليهم الصلاة والسلام هي التبشير والإنذار يبشرون المدعوين برضوان الله وثوابه وجنته إن هم آمنوا بالله وصدقوا رسله .

والإنذار للمعاندين الكافرين بالله ورسله بغضب الله وسخطه قال تعالى ((رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)) [1] .

أما دعوة الرسل فإنها كانت إلى غرض أساسي واحد ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) [2] .

---

١) سورة النساء آية /١٦٥

٢) سورة النحل آية /٤٠

الفصل الرابع

(الفصل الرابع)

دلالة السورة على وجوب الايمان بالقدر

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الاول : تعريف القضاء والقدر ومعنى الايمان به .

المبحث الثاني : بيان المبتدعة الذين نازعوا في القدر والرد عليهم .

المبحث الثالث : مراتب القدر .

المبحث الرابع : ما يتعلق بالهداية والضلال .

(المبحث الاول)

تعريف القضاء والقدر ومعنى الإيمان به

القضاء في اللغة :

جاء في لسان العرب : " تكرر في الحديث ذكر القضاء ، وأصله القطع والفصل . يقال : قضى يقضي قضاءا فهو قاض إذا حكم وفصل ، وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق .

وقال الازهري : القضاء في اللغة : على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه ، وكل ما أحكم عمله أو أتم ، أو ختم ، أو أدى أداء ، أو أوجب ، أو أعلم ، أو أنفذ ، أو أمضي فقد قضي . قال : وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الحديث ، ومنه القضاء المقرون بالقدر ، والمراد بالقدر التقدير وبالقضاء الخلق كقوله تعالى ((فقضاهن سبع سموات))[1] أي : خلقهن ، فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس ، وهو القدر والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه "[2] .

وأما تعريف القضاء شرعا :

" فهو إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال "[3]

وأما تعريف القدر في اللغة :

" فهو بتحريك الدال وتسكن " مصدر " قدرت الشيء " بفتح الدال - مخففة - اذا أحطت بمقداره و" أل " فيه وفي " القضاء " عوض عن مضاف إليه أي : بتقدير الله - تعالى - لذلك "[4] .

---

١) سورة فصلت آية ١٢/ ٢) اللسان ١٥/ ١٨٦

٣) لوامع الأنوار البهية ١/ ٣٤٥ .

٤) المصدر السابق .

وأما تعريف القدر اصطلاحا :

فقد عرفه بعضهم : بأنه " تحديد ه ـ تعالى ـ أزلا كل مخلوق بحد ه الذي يوجد به من حسن وقبح ، ونفع وضر وما يحويه من زمان ومكان ، وما يترتب عليه من طاعة وعصيان وثواب وعقاب وغفران .

وحد ه بعضهم : بأنه " إيجاد الله ـ تعالى ـ الأشياء على قدر مخصوص ، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم " [1] ثم من العلماء من فرق بين القضاء والقدر ومنهم من اعتبرهما شيئا واحدا . قال ابن بطال : عند شرحه لتعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء " [2] " والمراد بالقضاء هنا المقضي لأن حكم الله كله حسن لا سوء فيه ثم قال الحافظ وقال غيره : " القضاء : الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل . والقدر : الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل " [3] .

وقال الخطابي : " قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله تعالى والقضاء معنى الإجبار ، والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ، ويتوهم أن قوله صلى الله عليه وسلم (فحج آدم موسى) [4] من هذا الوجه ، وليس كذلك ، وانما معناه الاخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلق لها خيرها وشرها قال : والقدر : اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر كالهدم والنشر والقبض أسماء لما صدر عن فعل الهادم ، والناشر ، والقابض يقال : قدرت الشيء ، وقدرت خفيفة وثقيلة بمعنى واحد ، قال : والقضاء : معناه في هذا الخلق كقوله تعالى ((فقضاهن سبع

---

١) لوامع الأنوار البهية ١/٣٤٥

٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة . أنظر فتح الباري ١١/١٤٧

٣) " فتح الباري " ١١/١٤٨

٤) رواه البخاري في صحيحه عن حديث أبي هريرة . أنظر " فتح الباري ١١/٥٠٥

سموات في يومين))[1] أي : خلقهن ، وإذا كان الأمر كذلك فقد بقي عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم واكتسابهم ، ومباشرتهم تلك الأمور ، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد وتقديم إرادة واختيار والحجة إنما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها قال : وجماع القول في هذا أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس ، والآخر بمنزلة البناء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه " أ.هـ "[2] . فمن جعل للقضاء والقدر تعريفا واحدا كابن بطال والخطابي فمعناه : " هو النظام المتقن الذي وضعه الله لهذا الكون علويه وسفليه والقوانين العامة ، والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها وهذا المعنى : هو الذي وردت به الكثير من الآيات القرآنية كقوله تعالى ((وكل شيء عنده بمقدار))[3] وقوله - جل شأنه - ((وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم))[4] وقوله تعالى ((انا كل شيء خلقناه بقدر))[5] قال قتادة : سألت سعيد ابن المسيب عن القدر فقال : " ما قدر الله فهو قدر "[6] . وقد أجاب الإمام أحمد حين سئل عن القدر فقال : " القدر قدرة الله تعالى " قال ابن القيم : معلقا على تعريف الإمام أحمد " واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدا وقال هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين وهو كما قال أبو الوفاء فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الله على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم "[7] وفي الحقيقة أن تعريف الإمام أحمد السابق جامع مانع لمدلول القدر فالإمام أحمد رحمه الله تعالى يقصد أن القدر هو ما قرره - سبحانه - في قوله تعالى ((قل إن الأمر كله لله))[8] وقوله ((بيده ملكوت كل

---

١) سورة فصلت آية / ١٢

٢) معالم السنن شرح سنن أبي داود ٥ / ٧٦-٧٧ وانظر لوامع الأنوار ١/ ٣٤٧-٣٤٨

٣) سورة الرعد آية / ٨ ٤) سورة الحجر آية / ٢١

٥) سورة القمر آية / ٤٩

٦) ذكره عبد الله بن الامام احمد في كتاب السنة ص ١١٦ .

٧) شفاء العليل ص ٢٨ وانظر توضيح المقاصد وتصحيح القواعد ١ / ٢٥٧ .

٨) سورة آل عمران آية / ١٥٤

شيء))[1] وقوله (يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه))[2] وغير ذلك من الآيات التي تدل على أنه لا يحدث شيء في هذا الكون إلا بإرادته تعالى ومشيئته .

قال الطحاوى :" وكل شيء يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ لا مشيئة العباد ، إلا ما شاء الله فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره " أ. هـ[3] . ومما تقدم يفهم معنى الإيمان بالقدر . فالإيمان بالقدر هو أن يصدق الإنسان تصديقا جازما بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره وأنه ـ سبحانه ـ الفعال لما يريد لا يكون شيء إلا بإذنه وإرادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته وليس في الوجود شيء خارج عن تقديره ولا محيد لأحد عما قدره الله ، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المحفوظ وأنه ـ تعالى ـ هو الخالق لأفعال عباده كلها من طاعات ومعاصي ومع ذلك فقد أمرهم ـ سبحانه ـ ونهاهم وجعلهم مختارين لجميع أفعالهم وليسوا مجبورين عليها بل تحصل منهم بقدرتهم وإرادتهم يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

الإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين :

فالدرجة الأولى :

الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق فتأول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ما أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطئه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما

---

١) سورة يس آية / ١٣ ٢) سورية يونس آية / ٣

٣) شرح الطحاوية ص ١٥٣ .

قال تعالى ((ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير))[1] . وقال ((ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على على الله يسير))[2] .

وهذا التقدير التابع لعلمه - سبحانه - يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء ، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له أكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ونحو ذلك ، فهذا التقدير قد ينكره غلاة القدرية قديما ومنكروه اليوم قليل .

وأما الدرجة الثانية :

فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله - سبحانه - لا يكون في ملكه ما لا يريد ، وأنه - سبحانه - على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه لا خالق غيره ولا رب سواه ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ، وهو - سبحانه - يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد ، والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن ، والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وقدرتهم وإرادتهم " أ. هـ (٣)

فشيخ الإسلام رحمه الله - تعالى أبان لنا الكيفية المطلوبة في الإيمان بالقدر بل إنه أوجز لنا القدر كله بمراتبه الأربع في هذه العبارات القليلة وهذه الكيفية التي ذكرها هي الواجب المطلوب من الإنسان من حيث إيمانه بالقدر وكيفيته .

---

١) سورة الحج آية / ٧٠ ٢) سورة الحديد آية / ٢٢

٣) العقيدة الوسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس ص ١٣٠-١٣٦ .

(المبحث الثاني)

بيان المبتدعة الذين نازعوا في القدر والرد عليهم

إن انكار القدر الذى هو أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح لاحد ايمان حتى يؤمن بها كلها اشتهرت بإنكاره إحدى الفرق الزائغة وتسمى فرقة القدرية "[1] .

والكلام في القدر وتعلق أفعال العباد بمشيئته - سبحانه - من المسائل التي كان لها وجود قبل ظهور الإسلام كما أخبرنا الله بذلك في كتابه المبين عن كفار قريش ومن سبقهم من مشركي الأمم أنهم ينسبون شركهم وما هم عليه من المعاصي إلى مشيئته - جلا وعلا - .

قال تعالى ((وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين))[2] .

قال ابن كثير رحمه الله - تعالى - حول هذه الآية " يخبر - تعالى - عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ((لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء)) أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانا ومضمون كلامهم أنه لو كان - تعالى - كارها لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه " قال تعالى - رادا عليهم شبهتهم ((فهل على الرسل إلا البلاغ المبين)) أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الانكار ونهاكم عنه أكد النهي ، وبعث في كل أمة أى في كل قرن وطائفة من الناس رسولا ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله ، وينهون عن عبادة ما سواه ،

---

١) القدرية : اسم أطلقه أهل السنة والجماعة على الزاعمين بأنهم الفاعلون لأعمالهم دون البارى سبحانه - وقد وردت آثار كثيرة تصفهم بأنهم مجوس هذه الأمة . أظ أنظر سنن أبي داود ٢/ ٥٢٤ ، الإحتجاج بالقدر ص٨٦-٨٧ ، شفاء العليل ص ٤٩ ، لوامع الانوار ١/ ٣٠٥ .

٢) سورة النحل آية /٣٥ .

((أن اعبد وا الله واجتنبوا الطاغوت)) [1] فلم يزل - تعالى - يرسل إلى النـــاس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آد م في قوم نوح الذين أرسل إليهم نـوح وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الارض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليـــه وسلم الذى طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب وكلهم كما قال اللـه - تعالى - ((وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا اله إلا أنـــا فاعبـد ون)) [2] وقولـه - تعالى ((واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من د ون الرحمن آلهـة يعبـد ون)) [3] .

وقال - تعالى - ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبد وا الله واجتنبـــوا الطاغوت))

فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ((لو شاء الله ما عبد نا من د ونه من شيء)) [4] فمشيئته - تعالى - الشرعية عنهم منتفية [5] لأنـه نهاهـــم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قد را فـــلا حجة لهم فيها ، لأنه - تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهـــو لا يرضى لعباد ه الكفر وله في ذلك حجة بالغة ، وحكمة قاطعة " أ - هـ [6] .

وبهذا يتبين بطلان احتجاج المشركين بالقد ر على ما هم واقعون فيه مـــن الكفر والمعاصي والإشراك بالله - تعالى - وأنه لا حجة لهم فيه لانتفاء الإرادة الشرعية عنهم ولذلك نهاهم اللـه - تعالى - عن طريـق الرسـل .

وروى مسلم في صحيحه بإسناد ه إلى أبي هريرة رضي الله - تعالى - عنـــه قال : جاء مشركوا قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القـــد ر فنزلت ((يوم يسحبون في النار على وجوههم ذ وقوا مس سقر إنا كل شـيء خلقناه

---

١) سورة النحل آية / ٣٦ ٢) سورة الانبياء آية / ٢٥
٣) سورة الزخرف آية / ٤٥ ٤) سورة النحل آية / ٣٥
٥) التعبير بالمشيئة عن الارادة الدينية الشرعية لم يرد في الكتاب والسنة ، بـــل المشيئة لم تأت الا كونية قدرية بخلاف لفظ الارادة فانه جاء للمعنى الشرعي والمعنى القدرى .
٦) تفسير ابن كثير ٤/١٩٣-١٩٤ .

بقدر)) [1] وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حصل بعض الخصام في القدر بين بعض الصحابة رضي الله عنهم فصادف مجيء النبي صلى الله عليه وسلم وهم يختصمون فاحمر وجهه غضبا لذلك فقال (بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأمم قبلكم) [2] .

فانتهى الصحابة عن ذلك فلم يعودوا لمثل ذلك قط .

ولم يظهر القول في القدر إلا بعد مضي نصف القرن الأول على وجه التقريب فأشار القول فيه رجل يدعى " معبد الجهني " . وقد تلقى هذا القول الباطل المخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة في إثبات القدر عن أحد النصارى كان قد أسلم ، ثم ارتد إلى النصرانية . فقام تلميذه " معبد الجهني " بنشر قوله بين الناس .

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى يحيى ابن يعمر أنه قال : (كان أول من قال في القدر بالبصرة " معبد الجهني " فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر " أنف " قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر) [3]

---

١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٢٠٥ والآيات من سورة القمر/٤٨-٤٩

٢) سنن ابن ماجه ١/٣٣

٣) صحيح مسلم ١/٣٦-٣٧ وانظر مجموع الفتاوى ٨/٤٥٠ .

ومما يؤكد أيضا أن معبدا تلقى القول في القدر عن أحد النصارى قـــول الاوزاعي " أول من نطق في القدر : رجل من أهل العراق يقال له " سوسن" كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان (١) عن معبد (٢) (٣).

وقال ابن عون : " أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان حتى نشأ هاهنـــا حقير يقال له : " سنسويه البقال ، قال : فكان أول من تكلم بالقدر (٤) وذكر ابن سعد في الطبقات أن اسمه سنبويه " (٥) ومذهب القدرية عند ظهوره كان هـــو " إن الأمر أنف " كما تقدم عند مسلم عن يحيى ابن يعمر ومعنى " إن الأمر أنف " أي : لم يسبق به قدر ولا علم من الله - تعالى - وإنما يعلمه بعد وقوعه " (٦) فكان مذهب القدرية منهيا على أمرين :

الأمر الاول : انكارهم علم الله السابق بالحوادث .

الأمر الثاني : أن العبد هو الذي يوجد أفعاله .

والقائلون بهذا القول قد انقرضوا وهلكوا فلم يبق لهم وجود . قال الحافظ " قال القرطبي وغيره : قد انقرض هذا المذهب ولا نعرف أحدا ينسب إليه مـــن المتأخرين قال : والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبـــل وقوعها وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم منهم على جهة الإستقلال ، وهو مع كونه مذهبا باطلا أخف من المذهب الأول " اهـ (٧)

---

١) هو غيلان بن مسلم الدمشقي أبو مروان وهو الذي تنسب اليه فرقة " الغيلانية " وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، ولم يسبقه في ذلك سوى معبد الجهني قال الذهبي : ضال مسكين " أنظر ميزان الإعتدال ٣/٣٣٨ ، الأعلام ٥/٣٢٠ .

٢) هو معبد بن عبد الله بن عويم الجهني البصري أول من قال بالقدر في البصـــرة سمع الحديث من ابن عباس وعمران بن حصين وغيرهما وحضر يوم " التحكيم " وانتقل من البصرة إلى المدينة فنشر فيها مذهبه وعنه أخذ " غيلان " المتقدمة ترجمته قيل : قتله الحجاج صبرا بعد أن عذبه ، وقيل صلبه عبد الملك بن مروان بدمشق علـى القول في القدر ، ثم قتله " أنظر ترجمته في "تهذيب التهذيب" ١٠/٢٢٥ ، ميزان الإعتدال ٤/١٤١ ، شذرات الذهب ١/٨٨ ، البداية والنهاية ٩/٣٤ .

٣) أنظر "كتاب الشريعة" للآجري ص ٢٤٣ ، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة برقم ١٣٩٧

٤) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي برقم ١٣٩٦ " .

٥) الطبقات لابن سعد ٧/٢٦٤ .

٦) هكذا فسره النووي في شرحه على صحيح مسلم ١/١٥٦ .

٧) فتح الباري ١/١١٩ .

وهذا المذهب الاخف الذى ذكره الحافظ تبنته المعتزلة وحملت راية سلفهم من بعدهم وقد تشعبت فرقها القائلة به وتنوعت مذاهبها حوله .

قال الحافظ : وأما المتأخرون منهم فأنكروا تعلق الإرادة بأفعال العباد فرارا من تعلق القديم بالمحدث ، وهم مخصومون بما قال الشافعي : " ان سلم القدرى العلم خصم يعني : يقال له : أيجوز أن يقع في الوجود خلاف ما تضمنه العلم ؟ فان منع وافق قول أهل السنة وإن أجازه لزمه نسبة الجهل إلى الله تعالى الله عن ذلك "[1] . وحقيقة اعتقاد القدرية في نفي القدر إنما هو مضادة لنصوص الكتاب والسنة ومخالفة لإجماع الأمة وقد وردت في السنة نصوص كثيرة فيها الوعيد الشديد لمن كذب بالقدر ولم يؤمن به من ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبادة بن الوليد بن عبادة : حدثني أبي قال : دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت يا أبتاه أوصني واجتهد لي فقال : أجلسوني فقال يابني : إنك لن تجد طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره . قلت : يا أبتاه كيف أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال أن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يابني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) يا بني ان مت ولست على ذلك دخلت النار "[2] وغيره من الأحاديث التي ورد فيها الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن كذّب بالقدر كثيرة جدا . وقال الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى صاحب كتاب " توضيح المقاصد وتصحيح القواعد " بعد أن ساق جملة من الأحاديث التي تتضمن الوعيد لنفاة القدر : " وكل هذه الأحاديث وما في معناها ، فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر ، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم ومن مذهبهم تخليد أهل المعاصي في النار ، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر ، وأعظم

---

١) الفتح ١١٩/١ .

٢) المسند ٣١٧/٥ ، سنن أبي داود ٥٣٨/٢ .

المعاصي ، وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا ، وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا ، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر ، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين في النار "[1] . وتلك الفرقة النافية للقدر قابلتها فرقة مضادة لها وهي فرقة غلاة القدرية وهم الجبرية الذين أخذ رايتهم الجهم بن صفوان السمرقندي ، فقد زعم هو وأتباعه أنه لا اختيار لشيء من الحيوانات في شيء مما يجرى عليهم فإنهم كلهم مضطرون لا استطاعة لهم بحال وأن كل من نسب فعلا إلى أحد غير الله فسبيله سبيل المجاز ، وهو بمنزلة قول القائل : سقط الجدار ، ودارت الرحى وجرى الماء ، وانخسفت الشمس . وهذا القول خلاف ما تجده العقلاء في أنفسهم لأن كل من رجع إلى نفسه يفرق في نفسه بين ما يرد عليه من أمر ضروري لا اختيار له فيه وبين ما يختاره ويضيفه إلى نفسه ، كما أن كل عاقل يفرق بين كل حركة ضرورية كحركة المرتعش ، وحركة المختار ، يجد العاقل في نفسه فرقا بينهما ، ومن أنكر هذه التفرقة لم يعد من العقلاء ، وكل ما ورد في القرآن من قوله يعطون ، ويعقلون ، ويكسبون ، ويضمنون حجة عليهم وكذلك قوله تعالى + ((كل نفس بما كسبت رهينة))[2] ولو لم يكن للعبد اختيار كان الخطاب معه محالا ، والثواب والعقاب عنه ساقطين كالجمادات "[3] وقد رد الله تعالى على الجبرية والقدرية في آية واحدة قال تعالى : ((وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى))[4] .

قال العلامة ابن القيم حول هذه الآية :" اعتقد جماعة أن المراد بالآية سلب فعل الرسول عنه ، وإضافته إلى الرب تعالى ، وجعلوا ذلك أصلا في الجبر وابطال نسبة الأفعال إلى العباد ، وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده ، وهذا غلط منهم في فهم القرآن ، فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال ، فيقال ما صليت إذ صليت ، وما صمت إذ صمت ، وما ضحيت إذ ضحيت ، ولا فعلت كل

---

١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد شرح قصيدة الإمام ابن القيم ١ / ٢٥٨-٢٥٩ .
٢) سورة المدثر آية / ٣٨ ٤) سورة الأنفال آية / ١٧
٣) التبصير في الدين ص١٠٧-١٠٨ وانظر الفرق بين الفرق ص٢١١ ، الملل والنحل ١/ ٨٧

فعل اذ فعلته ، ولكن الله فعل فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد طاعاتهم ومعاصيهم إذ لا فرق ، فإن خصوه بالرسول وحده وأفعاله جميعها ، أو رميه وحده ، تناقضوا فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية وبعد فهذه الآية نزلت في شأن رمية صلى الله عليه وسلم المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء ، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته ، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ فكان منه صلى الله عليه وسلم مبدأ الرمي وهو الحذف ، ومن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نهايته ، وهو الإيصال فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته ، ونظير هذا قوله في الآية نفسها ((فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم)) ثم قال : ((وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)) فأخبر أنه وحده هو الذي تفرد بقتلهم ولم يكن ذلك بكم أنتم ، كما تفرد بإيصال الحصباء إلى أعينهم من رسوله ، ولكن وجه الإشارة بالآية : أنه سبحانه أقام أسبابا ظاهرة لدفع المشركين وتولي دفعهم وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافا إليه وهو خير الناصرين " أ.هـ (١)

---

١) مدارج السالكين ٣/٤٢٦-٤٢٧ ، وانظر التفسير القيم ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .
وانظر شرح الطحاوية ص ٤٩٤ - ٤٩٥

(المبحث الثالث)

مراتب القدر

لقد دلت سورة " الزمر " على مراتب القدر الأربع التي من لم يؤمن بها لم يتحقق له الإيمان بالقضاء ، والقدر وتلك المراتب هي : علم - الرب سبحانه - بالأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل كونها ، ومشيئته لها ، وخلقه - سبحانه - الأعمال وتكوينه وإيجاده لها ، كما تحدثت عن الهداية والضلال الذين هما لب القدر وسنبين تلك المراتب كلا منها على حدة ، كما سنتحدث عن بيان الهداية والضلال وبذلك نختم الكلام على القدر .

(١) مرتبة العلم :

لقد دلت سورة " الزمر " على إثبات علم - الرب سبحانه - بالأشياء قبل كونها وأنه علم ما الخلق عاملون به بعلمه القديم الموصوف به أزلا وأبدا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال كل ذلك سبق به علم الله - جل وعلا - قال تعالى ((ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور))

وقال تعالى ((أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار))

وقال تعالى ((ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون))

وقال تعالى ((ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين))

هذه الآيات الأربع من السورة دلت على أن الله - تعالى - عالم بما يعمله العباد بعلمه القديم الذي اتصف به أزلا وأبدا فلا يخفى عليه من أعمالهم شيء ، وأنه قد علم منهم الشقي والسعيد ، ومن هو منهم من أهل الجنة ، ومن هو من أهل النار فالآيتان الأوليان من هذه الآيات الأربع قد تقدم الكلام عليهما عند الحديث على إثبات صفة العلم بما أغنى عن إعادته هنا .

وأما الآية الثالثة فهي قوله تعالى ((أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت

تنقذ من في النار))

فقد قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى حول هذه الآية قال ابن عباس: رضي الله عنهما : من سبق في علم الله أنه من أهل النار . وقيل : كلمة العذاب قوله ((لأملان جهنم))[1] وقيل : كلمة العذاب قوله ((هؤلاء في النار ولا أبالي))[2] . (أفأنت تنقذ من في النار)) أي لا تقدر عليه قال ابن عباس يريد أبا لهب وولده " أ.هـ [3] .

وقال ابن جرير رحمه الله - تعالى - : ((أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار)) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : أفأنت تنقذ يامحمد من هو في النار من حق عليه كلمة العذاب ، فأنت تنقذه فاستغنى بقوله ((تنقذ من في النار)) عن هذا ... إلى أن قال : وإنما معنى الكلمة أفأنت تهدي يامحمد من قد سبق له في علم الله أنه من أهل النار إلى الإيمان فتنقذه من النار بالإيمان لست على ذلك بقادر " أ.هـ [4] .

وقال العلامة ابن كثير ((أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار)) يقول تعالى : أفمن كتب الله عليه أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله لأنه من يضلل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضل له " أ.هـ [5] .

وأما الآية الرابعة : وهي قوله - تعالى - ((ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين))

فقد أوضحت أن كلمة العذاب وجبت على الكافرين ، وكلمة العذاب هي قوله ((لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين))[6] فقد وجبت كلمته - تعالى -

---

١) سورة هود آية /١١٩

٢) رواه أحمد في مسنده من حديث معاذ رضي الله عنه ٥/٢٣٩ .

٣) تفسير البغوي على حاشية تفسير الخازن ٦/٥٩-٦٠ .

٤) جامع البيان ٢٣/٢٠٧-٢٠٨

٥) تفسير ابن كثير ٦/٨٥ ٦) سورة هود آية /١١٩

أن عذابه لأهل الكفر به بسبب كفرهم وعدم قبولهم هدى الله الذي جاءهم عن طريق الرسل . قال قتادة : ((ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)) بأعمالهم[1] وقال ابن كثير حول الآية ((ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)) أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل " أ.هـ [2] .

وقال العلامة ابن القيم :" وكلمته - سبحانه - إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم فحقت عليهم حجته ، وكلمة عدله بعقوبته .

وحاصل هذا كله : أن الله - سبحانه - أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم لا مع مراد أنفسهم فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم فاستحقوا كرامته وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده .

وعلم - سبحانه - منهم أنهم لا يؤثرون مراده ألبته ، وانما يؤثرون أهواءهم ومرادهم فأمرهم ، ونهاهم فظهر بأمره و نهيه من القدر الذي عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم ، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده ، فقامت عليهم بالخصوصة حجة عدله فعاقبهم بظلمهم " أ. هـ [3] .

فالآيات الأربع السابقة من السورة دلت دلالة واضحة على المرتبة الأولى من مراتب القدر وهي مرتبة العلم ، فيجب على الإنسان أن يؤمن بأن الله تعالى علم الأشياء كلها قبل كونها ، وهذه المرتبة اتفق عليها الصحابة ومن تبعهم من الأمة ، وخالفهم مجوس الأمة ، وكتابته - تعالى - السابقة تدل على علمه بها قبل كونها "[4] .

وقد كفر السلف من الصحابة ومن بعدهم من أنكر علم الله وتقدم قول ابن

---

١) جامع البيان ٢٤/٣٤
٢) تفسير ابن كثير ٦/١١٢
٣) مدارج السالكين ١/٢١٩
٤) شفاء العليل ص ٢٩ بتصرف .

عمر رضي الله عنهما " والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ،ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره "[1].

قال النووي :" هذا الذي قاله ابن عمر رضي الله عنهما ظاهر في تكفير القدرية . قال القاضي عياض رحمه الله : هذا في القدرية الأول الذين نفوا تقدم علم الله بالكائنات قال : والقائل بهذا : كافر بلا خلاف ، وهؤلاء الذين ينكرون القدر هم الفلاسفة " أ.هـ[2].

فالله تعالى علم أرزاق عباده وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم ، وجميع حركاتهم وسكناتهم ، وشقاوتهم وسعادتهم ، من قبل أن يخلقهم وهذا هو مقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب ، كما قال -عز وجل- ((وهو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة))[3] وقوله -تعالى ((لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما))[4] وقوله -عز شأنه- ((إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين))[5] وقال تعالى ((هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى))[6].

والآيات في إثبات علم الله -تعالى- كثيرة جدا ، وأما الأحاديث فمنها ما رواه البخاري رحمه الله تعالى بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذراري المشركين فقال : (الله أعلم بما كانوا عاملين)[7].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون

---

١) صحيح مسلم ١/ ٣٧
٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٥٦
٣) سورة الحشر آية / ٢٢
٤) سورة الطلاق آية ١٢
٥) سورة النجم آية / ٣٠
٦) سورة النجم آية ٣٢
٧) صحيح البخاري مع الفتح ١١/ ٤٩٣ .

البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها . قالوا : يا رسول الله فرأيت من يموت وهو صغير قال : ألله أعلم بما كانوا عاملين)[1] .

قال النووي : " وفي قوله صلى الله عليه وسلم (ألله أعلم بما كانوا عاملين) بيان لمذهب أهل الحق ، أن الله علم ما كان وما يكون وسالا يكون لو كان كيف كان يكون " أ.هـ [2]

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم . قال : فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له ، أو لما ييسر له)[3] .

وروى مسلم في صحيحه من حديث علي رضي الله عنه قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة قال : فقال رجل يارسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، فقال اعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ((فأما من أعطي واتقى ، وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى))[4] .

وعند البخاري (فقال رجل من القوم : ألا نتكل يارسول الله ؟ قال : لا إعملوا فكل ميسر ثم قرأ (فأما من أعطى) الآية[5] .

---

١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٢١١
٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/٢١١
٣) رواه البخاري انظر الفتح ١١/٤٩١
٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩٧ .
٥) انظر فتح الباري ١١/٤٩٤ .

فهذه الاحاديث فيها النهي عن ترك العمل والتوكل على القدر السابق بل يجب على الإنسان أن يعمل ويأخذ بالأسباب ويحرص على ما ينفعه .

قال ابن القيم رحمه الله - تعالى - " فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الإتكال عليه بل يوجب الجد والإجتهاد ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنت أشد اجتهادا مني الآن ، وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم ، وصحة علومهم فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب فإن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكن منه وهيء له فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب وكلما زاد اجتهادا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه وهذا كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالإجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه . . . . . فاذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادا في فعلها من القيام بها منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه وقد فقه هذا كل الفقه من قال : ما كنت أشد اجتهادا مني الآن . . . فالقدر السابق معين على الأعمال وما يحث عليها ومقتض لها لا أنه مناف لها وصادر عنها وهذا موضع مزلة قدم من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم ، ومن زلت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم فالنبي صلى الله عليه وسلم أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة :

١ - الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد .

٢ - والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجزه عن شره وذلك نظام الشرع فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر " أ.هـ [1] .

والآيات والأحاديث الدالة على إثبات القدر واتصاف الله - تعالى - بصفة العلم أزلا وأبدا كثيرة جدا .

---

١) شفاء العليل ص ٢٥-٢٦ .

٢ - مرتبة الكتابة :

لقد دلت آيات الكتاب ، وأحاديث السنة على أن من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر ، الإيمان بأن كل كائن إلى يوم القيامة قد كتبه الله تعالى في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ وقد جاء في سورة " الزمر " في شأن هذه المرتبة قوله تعالى ((أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار)) وقوله ((ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين))

قال ابن كثير : ((أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار)) " أفمن كتب الله عليه أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله لأنه من يضلل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضل له)أ.هـ (١) .

والآيات التي دلت على مرتبة الكتابة كثيرة جدا .

قال تعالى ((ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين)) (٢) .

قال ابن القيم رحمه الله - تعالى - " فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود والذكر أم الكتاب الذي عند الله والأرض الدنيا وعباده الصالحون أمة محمد صلى الله عليه وسلم هذا أصح الأقوال في هذه الآية وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم وساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول إنهم يرثون الأرض من الكفار ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته (كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء) (٣)

١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٨٥
٢) سورة الانبياء آية /١٠٥-١٠٦ .
٣) فتح الباري ١٣/ ٤٠٣ .

فهذا هو الذكر الذى كتب أن الدنيا تصير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم" أ.هـ [1]

وقال تعالى ((إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)) [2] .

فهذه الآية جمع الله فيها بين الكتابين الكتاب السابق لأعمال العباد قبل أن يوجدوا ، والكتاب المقارن لأعمالهم ، فأخبر - تعالى - أنه يحييهم بعد موتهم للبعث ، ويجازيهم على أعمالهم ، ونبههم بكتابته لها على ذلك والمقصود من الآية قوله ((وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)) وهو اللوح المحفوظ وهو أم الكتاب وهو الذكر الذي كتب الله فيه كل شيء بما في ذلك أعمال العباد قبل أن يعملوها ، وإحصاؤه - تعالى - لها يتضمن علمه بها وحفظه لها وإحاطته بعددها وإثباتها في اللوح المحفوظ . [3]

وقال - تعالى - ((وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين)) [4] .

وقال - تعالى - (ما فرطنا في الكتاب من شيء)) [5] .

وقال تعالى عن موسى حين قال له فرعون ((فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى)) [6] .

وقال تعالى ((ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير)) [7] .

قال ابن كثير : يخبر - تعالى - عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال ((ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم)) أى في الآفاق وفي نفوسكم ((إلا في كتاب من قبل أن نبرأها)) أى : من قبل أن نخلق الخليقة

---

١) شفاء العليل ص ٣٩
٢) سورة يس آية / ١٢
٣) شفاء العليل ص ٤٠
٤) سورة هود آية / ٦
٥) سورة الانعام آية / ٣٨
٦) سورة طه آية / ٣٨
٧) سورة الحديد آية / ٢٢

ونبرأ النسمة .

وقال بعضهم : من قبل أن نبرأها عائد على النفوس .

وقيل : عائد على المصيبة ، والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها " أ. هـ [1] .

قال ابن جرير حول هذه الآية حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية عن منصور بن عبد الرحمن قال : كنت جالسا مع الحسن فقال رجل سله عن قوله - تعالى - ((ما أصاب من مصيبة في الأرض . .) الآية فسألته عنها فقال : سبحان الله - ومن يشك في هذا ؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة .

وقال قتادة ((ما أصاب من مصيبة في الأرض)) قال : هي السنون يعني الجدب ((ولا في أنفسكم)) يقول : الأوجاع والأمراض .

قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفوا الله عنه أكثر " أ.هـ [2] .

قال ابن كثير: وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية نفاة - العلم السابق - قبحهم الله أ.هـ [3] .

وأما قوله تعالى ((إن ذلك على الله يسير)) [4] فهو إخبار منه - تعالى - بأن علمه بكل الأشياء قبل أن تكون وكتابته لها على وفق وجودها في حينها سهل عليه - جل وعلا - لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقد دلت السنة على مرتبة الكتابة في أحاديث كثيرة .

---

١) تفسير ابن كثير ٦/٥٦٤

٢) جامع البيان ٢٧/٤٣٤ .

٣) تفسير القرآن العظيم ٦/٥٦٥ .

٤) سورة الحديد آية /٢٢ .

روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . قال وعرشه على الماء) [1] .

وروى البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين قال : إني عند النبي صلى الله عليه وسلم اذ جاءه قوم من بني تميم فقال : (إقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا : بشرتنا فأعطنا ! فدخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا : قبلنا جئناك لنتفقه في الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السماوات والارض ، وكتب في الذكر كل شيء ثم أتاني رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها ، وأيم الله لود ت أنها ذهبت ولم أقم " [2] .

فهذا الحديث دل على أن ـ الباري سبحانه ـ قد كتب ما يقوله وما يفعله وما يكون بقوله وفعله وكتب مقتضى أسمائه وصفاته وآثارها [3] كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه ان رحمتي سبقت غضبي) [4]

وقال عبادة ابن الصامت رضي الله عنه لابنه : يابني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب قال رب وما أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، يابني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات على غير هذا فليس مني) [5] وفي لفظ لاحمد " يابني ان مت على غير هذا دخلت النار " [6]

---

١) صحيح مسلم ٤/٢٠٤٤ ٢) فتح الباري ١٣/٤٠٣
٣) شفاء العليل ص ٤٣ ٤) فتح الباري ١٣/٤٠٤ ، صحيح مسلم ٤/٢١٠٧
٥) رواه أبو داود في سننه ٢/٥٢٨ .
٦) المسند ٥/١٨٣ من حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه .

وقال أبو هريرة رضي الله ـ تعالى ـ عنه قال لي النبي صلى الله عليه وسلم (جف القلم بما أنت لاق) [١] .

قال الحافظ ابن حجر : (جف القلم) أي فرغت الكتابة اشارة أن الذى كتب في اللوح المحفوظ لا يتغير حكمه ، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة لان الصحيفة حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها وكذلك القلم فإذا انتهت الكتابة جفت الكتابة والقلم " أ. هـ [٢] .

ومن الأحاديث التي دلت على مرتبة الكتابة حديث على المتقدم (ما منكم من أحد الا قد كتب مقعده من الجنة أو النار) [٣] .

ومما تقدم يتبين أن مرتبة الكتابة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة قال : ابن القيم : وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب وقد دل القرآن على أن الرب ـ تعالى ـ كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله فكتب في اللوح أفعاله وكلامه ، فتبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب " أ.هـ [٤] .

---

١) صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى ١١ / ٤٩١ .
٢) المصدر السابق
٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦ / ١٩٧
٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر ص ٤١

٣) مرتبة المشيئة :

لقد دلت سورة " الزمر " على اثبات مرتبة المشيئة في ثلاث آيات من آياتها قال تعالى ((ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ...))

وقال تعالى ((أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر))

وقال تعالى ((ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ....))

هذه الآيات الثلاث من السورة بين الله تعالى فيها أن له مشيئة مطلقة لا يخرج عنها شيء في هذا الوجود .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبينا مرتبة المشيئة " وهي الايمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما في السموات وما في الأرض من حركة ، ولا سكون إلا بمشيئة الله - سبحانه - ولا يكون في ملكه إلا ما يريد " أ.هـ (١)

وقال العلامة ابن القيم :" وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند الله ، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه ، وأدلة العقول والعيان ، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وخالفهم في ذلك من ليس منهم في هذا الموضع وإن كان منهم في موضع آخر فجوزوا أن يكون في الوجود مالا يشاء الله ، وأن يشاء مالا يكون ، وخالف الرسل كلهم وأتباعهم من نفي مشيئة الله ، ولم يثبت له - سبحانه - مشيئة واختيارا أوجد بها الخلق كما يقوله طوائف من أعداء الرسل من الفلاسفة وأتباعهم " أ.هـ (٢)

---

١) العقيدة الواسطية مع شرحها " لمحمد خليل هراس " ص ١٣٣-١٣٤ .
٢) شفاء العليل ص ٤٣ .

وما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في بيان معنى المشيئة هو طبق ما جاء في الكتاب والسنة وأجمع عليه سلف الأمة وذلك أن لله مشيئة لا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولا عين ولا فعل ، ولا وصف إلا بمشيئته - تعالى - فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وقد أكثر القرآن في هذا الشأن . قال تعالى ((ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد)) (١) .

وقال تعالى ((ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها)) (٢) .

وقال تعالى ((ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة)) (٣) .

وقال تعالى ((ولو شاء ربك لجمعهم على الهدى)) (٤)

وقال تعالى ((ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد)) (٥)

وقال تعالى ((إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين)) (٦)

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إثبات المشيئة ، كما تدل على تكذيب نفاتها .

قال ابن القيم : بعد أن ساق الكثير من الآيات الدالة على إثبات مشيئة الرب - جل وعلا - " وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال نفاة المشيئة بالكلية ، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم وهو - سبحانه - تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته ، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن ، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع ، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه ، وأنه لو شاء ما عصى وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة ، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته ، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته وهذا حقيقة الربوبية ، وهو معنى كونه رب العالمين وكونه القيوم القائم بتدبير عباده فلا خلق ولا رزق ، ولا عطاء ولا منع ، ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا

---

١) سورة البقرة آية / ٢٥٣ ٢) سورة السجدة آية / ١٣
٣) سورة هود آية / ١١٨ ٤) سورة الانعام آية / ٣٥
٥) سورة فاطر آية / ١٦ ٦) سورة النساء آية / ١٣٣

حياة ولا اضلال ،ولا هدى ، ولا سعادة ،ولا شقاوة إلا بعد إذنه ، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ،ولا رب غيره . قال تعالى ((وربك يخلق ما يشاء ويختار)) [١] وقال ((ونقر في الأرحام ما نشاء)) [٢] وقال ((في أى صورة ما شاء ركبك)) [٣] وقال ((لله ملك السموات والارض يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما)) [٤] . وقال ((يهدى الله لنوره من يشاء)) أ.هـ [٥] .

وقد دلت السنة على إثبات مشيئة الرب - سبحانه - في أحاديث كثيرة فمن ذلك ما رواه البخاري بإسناده من حديث أبي موسى قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه وربما قال جاءه السائل أو صاحب الحاجة قال : اشفعوا فلتؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء) [٦] .

وفيه من حديث علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال لهم ألا تصلون قال علي : فقلت يا رسول الله انما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا . . .الحديث [٧]

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص يقول أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء) [٨] .

وفي صحيح البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفيء ورقه من حيث أتتها الريح تكفئها فإذا سكتت اعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء ، ومثل الكافر

---

١) سورة القصص آية /٦٨ ٢) سورة الحج آية / ٥
٣) سورة الإنفطار آية / ٨ ٤) سورة الشورى آية / ٤٩-٥٠
٥) شفاء العليل صفحة ٤٤ والآية رقم /٢٤ من سورة النور .
٦) فتح البارى ١٣ /٤٤٨
٧) المصدر السابق ص ٤٤٦
٨) صحيح مسلم ٤ /٢٠٤٥

كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء) [1]

وفيه أيضا من حديث أبي قتادة رضي الله عنه حين ناموا عن الصلاة (قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها حين شاء ....) الحديث [2] .

وفيه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل نبي دعوة فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة) [3] .

فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية السابقة دلت على أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وقبل أن نختم الكلام على مرتبة المشيئة هناك أمر يجب أن يتنبه له وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن قصر علمه به وهو أن الله - جلا وعلا - له الخلق والأمر ، وأمره - سبحانه - نوعان :

أ - أمر كوني قدري .

ب - وأمر ديني شرعي .

فمشيئة الرب - سبحانه - متعلقة بخلقه وأمره الكوني ، وكذلك تتعلق بما يحب وما يكره كله داخل تحت مشيئته كما خلق ابليس وهو يبغضه ، وخلق الشياطين والكفار والأعيان ، والأفعال المسخوطة وهو يبغضها فمشيئته - سبحانه - شاملة لذلك كله ، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا فهو محبوب للرب واقع بمشيئته كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين ، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته وما وجد من الكفر

---

١) فتح الباري ١٣ / ٤٤٦

٢) المصدر السابق صفحة ٤٤٧

٣) المصدر السابق ص ٤٤٧

والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني ، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته فلفظ المشيئة كوني ولفظ المحبة ديني شرعي ، ولفظ الإرادة ينقسم إلى ارادة كونية فتكون بمعنى المشيئة ، وإرادة دينية فتكون بمعنى المحبة ، وإذا عرف هذا فقوله - تعالى - ((ولا يرضى لعباده الكفر)) وقوله ((والله لا يحب الفساد)) [1] وقوله ((ولا يريد بكم العسر)) [2] لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره فإن المحبة غير المشيئة والأمر غير الخلق ونظير هذا لفظ الأمر فإنه نوعان : أمر تكوين ، وأمر تشريع والثاني قد يعصى ويخالف أمر التكوين فقوله - تعالى - ((وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)) [3] لا يناقض قوله ((إن الله لا يأمر بالفحشاء)) [4] وليس هناك حاجة تكلف تقدير أمرنا مترفيها بالطاعة فعصونا وفسقوا فيها بل الأمر ههنا أمر تكوين وتقدير لا أمر تشريع " أ.هـ [5] .

والحاصل مما تقدم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة إثبات مشيئة الرب - جل وعلا - وأنها الموجبة لكل موجود في هذا الكون كما أن عدم مشيئته - سبحانه - يوجب عدم الشيء فهما الموجبتان ، فما شاء الله تحتم وجوده وما لم يشأ تحتم عدمه وامتناعه وهذا أمر شامل لكل مقدور من أعيان وأفعال ، وحركات وسكنات - فسبحانه - أن يكون في ملكه مالا يشاء ، أو أن يشاء شيئا فلا يكون ، وإن كان في الأشياء ما لا يرضاه ولا يحبه ، وإن كان يحب الشيء فلا يحصل لعدم مشيئته - سبحانه - له ولو شاء ذلك لوجد له الحكم النافذ ، والمشيئة المطلقة ، والقدرة التامة على كل شيء .

---

١) سورة البقرة آية / ٢٠٥ ٢) سورة البقرة آية / ١٨٥

٣) سورة الاسراء آية / ١٦ ٤) سورة الاعراف آية / ٢٨

٥) شفاء العليل ص ٤٧- ٤٨ .

٤) مرتبة خلق الله ـ سبحانه ـ الأعمال وتكوينه وإيجاده لها :

لقد دلت سورة " الزمر " على أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء ومن ذلك أعمال العباد ، فهو المكون لها والموجد لها ـ وحده لا شريك له ـ قال تعالى : ((ألله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل))

هذه الآية الكريمة من السورة تدل على أن جميع الأشياء مخلوقة فقد أخبر ـ تعالى ـ أنه خالق لجميع العالم علويه ، وسفليه ، ومن ضمن ذلك أفعال عباده فإنها شيء من الأشياء ، ففيها رد على القدرية القائلين بأن العبد هو الخالق لأفعاله ، كما أن فيها ردا على الفلاسفة القائلين بقدم العالم ، وهي أيضا : ترد على القائلين بقدم الأرواح ، وهذه الأقوال صادرة عن أهل الباطل ، وهي تتضمن تعطيل ـ الباري سبحانه ـ عن خلقه .

قال العلامة ابن القيم : حول قوله تعالى ((ألله خالق كل شيء)) الآية " وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته ، وليس مخصوصا بذاته ، وصفاته ، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق ، وصفاته ـ سبحانه ـ داخلة في مسمى اسمه فإن الله ـ سبحانه ـ اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال المنزه عن كل صفة نقص ومثال ، والعالم قسمان : أعيان وأفعال وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال ، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك ، فلا يخرج شيء منه عن علمه ، ولا عن قدرته ، ولا عن خلقه ومشيئته " أ . هـ [1] .

وقال شارح الطحاوية : ((ألله خالق كل شيء)) أي : الله خالق كل شيء مخلوق فدخلت أفعال العباد في عموم كل وما أفسد قولهم ـ يعني المعتزلة ـ في إدخال كلام الله تعالى في عموم " كل " الذي هو صفة من صفاته يستحيل عليه أن يكون مخلوقا ، وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم كل !! وهل يدخل

---

١) شفاء العليل ص ٥٣ .

في عموم كل إلا ما هو مخلوق ؟ فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هـــذا العموم ، ودخل سائر المخلوقات في عمومها " أ.هـ [1] .

وقال البغوى :((الله خالق كل شيء)) أى : مما هو كائن ،أو يكون فـي الدنيا والاخرة " أ.هـ [2]

وقال ابن كثير : ((الله خالق كل شيء)) يخبر تعالى أنه خالق الاشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره وقهره وملكه " أ.هـ [3]

ومن هذه التفاسير للاية من مفسرى أهل السنة يتبين أن أفعال العبـــاد جميعها مخلوقة ومقدرة للمولى - جل وعلا - اذ هو - سبحانه - الخالق وما سواه كلـه مخلوق .

وأما قول القدرية : في الاية ((الله خالق كل شيء)) مما لا يقدر عليـــه غيره وأما أفعال العباد التي يقدر عليها العباد فاضافتها اليهم ينفـــي اضافتها اليه ، والالزم وقوع مفعولين بين فاعلين وهو محال " أ.هـ [4]

فهذا زعم باطل لان اضافة أفعال العباد اليهم فعلا وكسبا لا ينفي اضافتها اليه - سبحانه - خلقا ومشيئة فهو - سبحانه - الذى شاءها وخلقها حقيقة وهـــم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة فلو لم تكن مضافة الى مشيئته وقدرته وخلقـــه لاستحال وقوعها منهم اذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه اللـــه ولم يقدر عليه ولا خلقه " أ.هـ [5] .

وهناك آيات كثيرة وردت في كتاب الله - تعالى - وهي تدل على ما دلـــت عليه هذه الاية من السورة مثل قوله - تعالى -((ذلكم الله ربكم خالق كل شيء)) [6] فيدخل في هذا العموم الاعيان والافعال من الخير والشر "

---

(١) شرح الطحاوية ص ٤٩٦

٢) تفسير البغوى على حاشية الخازن ٩٦/٦ .

٣) تفسير القرآن العظيم ١٠٥/٦ .

٤) شفاء العليل ص ٥٤

٥) سورة غافر آية / ٤٠

وقوله ـ تعالى ـ ((أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء)) [1] .

قال البيهقي : عقب هذه الاية " فنفى أن يكون خالق غيره ، ونفى أن يكون شيء سواه غير مخلوق ، فلو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله ـ سبحانه ـ خالق بعض الأشياء دون جميعها وهذا خلاف الآية ، ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان ، فلو كان الله خالق الاعيان والناس خالقي الأفعال لكان خلق الناس أكثر من خلقه ولكانوا أتم قوة منه وأولى بصفة المدح من ربهم سبحانه ولأن الله ـ تعالى ـ قال ((والله خلقكم وما تعملون)) [2] فأخبر أن أعمالهم مخلوقة لله ـ عز وجل ـ أ . هـ [3] .

ولا يقال : إن " ما " مصدرية ـ أي خلقكم وعملكم ـ لأن سياق الآية يأباه لأن الخليل عليه الصلاة والسلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله ـ تعالى ـ ، وهو ما صار منحوتا إلا بفعلهم فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقا لله ـ تعالى ـ ولو لم يكن النحت مخلوقا لله ـ تعالى ـ لم يكن المنحوت مخلوقا له ، بل الخشب أو الحجر لا غير " [4] .

ومما يدل على أن العباد فاعلون حقيقة قوله ـ تعالى ـ ((وما تفعلوا من خير يعلمه الله)) [5] . وقوله تعالى ((وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)) [6] . وقوله ـ تعالى ـ ((ولو شاء الله ما فعلوه)) [7] وقوله ((فلا تبتئس بما كانوا يفعلون)) [8] .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ـ تعالى ـ : " والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي

---

١) سورة الرعد آية / ١٦ ٢) سورة الصافات آية / ٣٧
٣) الإعتقاد ص ٥٩ ـ ٦٠
٤) شرح الطحاوية ص ٤٩٦ ، وانظر " مجموع الفتاوى " ٨ / ٧٩
٥) سورة البقرة آية / ١٩٧ ٦) سورة الحج آية / ٧٧
٧) سورة الانعام آية / ١٣٧ ٨) سورة هود آية / ٣٦

والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وقدرتهم وإرادتهم كما قال - تعالى - ((لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين)) [1] وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها " أ.هـ [2] .

وقال العلامة ابن القيم :" ومن الدليل على خلق أعمال العباد قوله تعالى ((وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم)) [3] فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم ، فإذا كانت مجعولة لله مخلوقة له بجملتها صورتها ومادتها وهيآتها ، ونظير هذا قوله ((والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم)) [4] فأخبر - سبحانه - أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة مجعولة له ، وهي إنما صارت بيوتا بالصنعة الآدمية " [5] .

ومن الآيات الدالة على خلق أفعال العباد قوله تعالى ((وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور)) [6] .

قال البيهقي فأخبر أن قولهم وسرهم وجهرهم خلقه وهو بجميع ذلك عليم" أ.هـ [7]

فهذه الآيات التي قدمنا ذكرها دلت على أن الله خالق كل شيء فهو خالق كل عامل وعمله ، وكل متحرك وحركته وكل ساكن وسكونه ، وما من ذرة في السموات ولا في الأرض الا والله - سبحانه وتعالى - خالقها وخالق حركتها وسكونها

---

١) سورة التكوير آية / ٢٨-٢٩ ٢)
٢) العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس ص ١٣٥ - ١٣٧ .
٣) سورة النحل آية / ٨١ ٤) سورة النحل آية / ٨٠
٥) شفاء العليل ص ٥٤-٥٥ ٦) سورة الملك آية / ١٣-١٤
٧) الإعتقاد ص ٦٠ .

- سبحانه - لا خالق غيره ولا رب سواه .

كما دلت على أن للعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم مشيئة والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم ، وأقوالهم وأعمالهم وهو الذي منحهم إياها وأقدرهم عليها وجعلها قائمة بهم مضافة إليهم حقيقة ، وبحسبها كلفوا وعليها يثابون ويعاقبون ، كما قال تعالى ((وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون)) [1] وقال تعالى ((وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)) [2] ولم يكلفهم الله تعالى إلا وسعهم ولم يحملهم إلا طاقتهم كما قال تعالى ((لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)) [3] .

وروى البخاري في صحيحه بإسناده إلى البراء بن عازب رضي الله عنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا صمنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام ان لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا [4]

وقال صلى الله عليه وسلم في شأن الحمر (ما أنزل الله علي فيها شيئا إلا هذه الاية الجامعة الفاذة ((فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)) [5] .

وكما أن العباد لم يوجدوا أنفسهم فكذلك لم يوجدوا أفعالهم ، فقدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم وأفعالهم ، تبع لقدرة الله - سبحانه - وإرادته ومشيئته وأفعاله ، إذ هو - تعالى - خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وأفعالهم ، وليس مشيئتهم وإرادتهم وقدرتهم وأفعالهم هي عين مشيئة الله - تعالى - وإرادته ، وقدرته ، وفعله ، كما ليسوا هم إياه - تعالى الله - عن

---

١) سورة الزخرف آية / ٤٣ ٢) سورة السجدة آية / ٣٢
٣) سورة البقرة آية / ٢٨٦ ٤) صحيح البخارى مع الفتح ١١/٥١٥-٥١٦
٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، صحيح البخارى ٣/٢٢٠ ، مسلم ٢/٦٨٢

ذلك علوا كبيرا بل إن أفعالهم المخلوقة لله قائمة بهم لائقة بهم مضافة إليهم حقيقة ، وهي من آثار أفعاله - تعالى - القائمة به اللائقة المضافة إليه حقيقة . فالله - تعالى - هاد حقيقة ، والعبد مهتد حقيقة ولهذا أضاف - تعالى - كلا من الفعلين إلى من قام به . فقال - عز وجل - ((من يهد الله فهو المهتد ى)) [1] فإضافة الهداية إلى الله - تعالى - حقيقة ، واضافة الاهتداء الى العبد حقيقة ، وكما أن الهادى - تعالى - ليس هو عين المهتدى فكذلك ليست الهداية هي عين الإهتداء ، وكذلك يضلل الله - تعالى - من يشاء حقيقة ، وذلك العبد يكون ضالا حقيقة وهو - سبحانه - وتعالى خالق المؤمن وإيمانه والكافر وكفره كما قال - جل وعلا - ((هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير)) [2] .

فالله - تعالى - هو الخالق لعباده على هذه الصفة وأراد منهم ذلك كونا لا شرعا ، فلابد من وجود المؤمن والكافر ، وهو - سبحانه - البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال وهو شهيد على أعمالهم وسيجزيهم عليها جزاءا وفاقا ولذلك قال تعالى ((والله بما تعملون بصير)) [3] فأضاف - سبحانه - الخلق الذى هو فعله القائم به اليه حقيقة وأضاف الإيمان والكفر الذي هو عملهم القائم بهم إليهم حقيقة والله - تبارك وتعالى - هو الذي جعلهم كذلك ، وهم فعلوه باختيارهم وقدرتهم ومشيئتهم التي منحهم الله إياها وخلقها فيهم وأمرهم ونهاهم بحسبها .

والأدلة من الكتاب والسنة على هذا كثيرة جدا . قال ابن القيم : "وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد .

قال ابن عباس : الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض

---

١) سورة الاعراف آية /١٧٨ ٢) سورة التغابن آية /٢

٣) جزء من الاية رقم /٢/ من سورة التغابن .

تكذيبه توحيده " أ. هـ [1]

أقوال الناس في أفعال العباد الاختيارية :

هذه المسألة فيها آراء ثلاثة :

القول الأول : للجبرية :

فقد زعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي : أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله - تعالى - ، وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش ، والعروق النابضة ، وحركات الأشجار وإضافتها إلى الخلق مجاز وهي على حسب ما يضاف الشيء الى محله دون ما يضاف إلى محصله [2] .

القول الثاني : للمعتزلة :

ورأى المعتزلة مقابل لرأي الجبرية : فقد قالوا : إن جميع الأفعال الإختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلق لها بخلق الله - تعالى - واختلفوا فيما بينهم هل الله - تعالى - يقدر على أفعال العباد أم لا ؟ [3]

القول الثالث : قول أهل الحق :

وهو أن أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهي مخلوقة لله - تعالى - والحق - سبحانه - وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه " أ. هـ [4] .

فالقول الأول وهو قول الجبرية من أفسد المذاهب إذ أنهم غلوا في إثبات القدر حتى نفوا فعل العبد بالكلية وجعلوه كريشة في مهب الريح تصفقها كيف تشاء .

---

١) شفاء العليل ص ٦٥

٢) شرح الطحاوية ص٤٩٣ ، الملل والنحل للشهرستاني ١ /٨٥ ، التبصير في الدين ص ١٠٧

٣) شرح الطحاوية ص ٤٩٣ ، مقالات الإسلاميين ١ /٢٩٨ ، الفرق بين الفرق ص ١١٤ الملل والنحل للشهرستاني ١ /٤٥ .

٤) شرح الطحاوية ص ٤٩٣ .

وأما القدرية نفاة القدر فقد جعلوا العباد خالقين مع الله - تعالى - ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة [1] بل أخبث من المجوس حيث أن المجوس أثبتوا خالقين اثنين وهم أثبتوا خالقين كثيرين ، وللجبرية والقدرية أدلة يستدلون بها على دعاويهم الباطلة ومذاهبهم الفاسدة وهي في الحقيقة حجج عليهم في بطلان ما يدّعون . فمما استدل به الجبرية : قوله - تعالى - ((وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)) [2] قالوا : إن الله نفى عن نبيه الرمي وأثبته لنفسه - سبحانه - فدل على أنه لا فعل للعبد ، وقالوا : أيضا إن الجزاء غير مرتب على الأعمال بدليل قوله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل أحدا الجنة عمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة) [3] ، ومما استدل به القدرية قوله - تعالى - ((فتبارك الله أحسن الخالقين)) [4] قالوا : والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض كما قال - تعالى - ((جزاء بما كانوا يعملون)) [5] و ((تلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون)) [6] وحجج الفريقين عليهم لا لهم ،

فأما ما استدل به الجبرية من قوله تعالى ((وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)) [7] فهو دليل عليهم لا لهم لأنه تعالى أثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم رميا بقوله ((إذ رميت)) ومن هنا يعلم أن المثبت غير المنفي وذلك أن " الرمي " له ابتداء وانتهاء فابتداؤه الحذف ، وانتهاؤه الإصابة ، وكلاهما يسمى رميا فيكون المعنى حينئذ والعلم لله تعالى " وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب " وإلا فيطرد على قولهم : " وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى ! وما صمت إذ صمت وما سرقت إذ سرقت !! وبطلان هذا بين واضح " [8] .

---

١) أنظر سنن أبي داود ٢/٥٢٥ من حديث ابن عمر

٢) سورة الانفال آية /١٧

٣) رواه البخاري من حديث عائشة الفتح ١١/٢٩٤ ، صحيح مسلم ٤/٢١٧١

٤) سورة المؤمنون آية /١٤ ٥) سورة السجدة آية /١٧

٦) سورة الاعراف آية /٧٢ ٧) سورة الانفال آية /١٧

٨) شرح الطحاوية ص ٤٩٥ وانظر مجموع الفتاوى ٨/١٨ ، التبصير في الدين ص ١٠٧

ويشبه قول الجبرية في البطلان الكسب عند الأشاعرة فإنهم يقولون : إن قدرة العبد لا تأثير لها في فعله .

جاء في " غاية المرام " وذهب من عدا هؤلاء من أهل الحق إلى أن أفعال العباد مضافة إليهم بالإكتساب وإلى الله تعالى بالخلق والإختراع وأنه لا أثر للقدرة الحادثة فيها أصلا "[1] وهذا المذهب مماثل لمذهب الجبرية إن لم يكن عينه ، وليس أهله أهل الحق كما زعم اذ كيف يثبتون قدرة لا أثر لها ، وهذا في الحقيقة نفي للقدرة كليا ولهذا يقال : كسب الأشعري من محالات الكلام "[2] .

وأما ترتب الجزاء على الأعمال فقد ضلت فيه طائفتا الجبرية والقدرية وهدى الله أهل السنة والجماعة وذلك بفضله ومنته عليهم بسلوك الصراط السوى .

فهم يقولون : إن الباء التي في النفي غير الباء التي في الاثبات فالمنفي في قوله عليه الصلاة والسلام (لن يدخل أحد الجنة بعمله)[3] باء العوض وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة كما تزعم ذلك المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله .بل ذلك برحمة الله وفضله والباء التي في قوله - تعالى - ((جزاءً بما كانوا يعملون))[4] وغيرها باء السبب أي بسبب عملكم والله - تعالى - هو خالق الأسباب والمسببات فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته "[5] .

وأما استدلال المعتزلة بقوله - تعالى - ((فتبارك الله أحسن الخالقين))[6] فمعنى هذه الآية : أحسن المصورين المقدرين و " الخلق " يذكر ويراد به التقدير وهو المراد هنا بدليل قوله - تعالى - ((الله خالق كل شيء))[7] .

والناظر في مذهب الجبرية والقدرية يجد أن كل طائفة منهما معها حق

---

١) غاية المرام ص ٢٠٧ ، الإعتقاد للبيهقي ص ٦٠ المواقف في علم الكلام ص ٣١٢ وما بعدها .
٢) شفاء العليل ص ٥٠
٣) تقدم تخريجه قريبا وهو في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها وعن أبيها .
٤) سورة السجدة آية ١٧ ٥) مجموع الفتاوى ٨/ ٧٠ ، شرح الطحاوية ص ٤٩٥
٦) سورة المؤمنون آية ١٤ ٧) سورة الرعد آية /١٨

وباطل وأدلة كل منهما انما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى لا على إبطال ما أصابوا فيه ، فكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة ـ الـــرب تعالى ـ ومشيئته وأنه لا خالق غيره وأنه على كل شيء قدير لا يستثنى من هـــذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات وهذا حق ، ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادرا مريدا فاعلا بمشيئته وقدرته وأنه فاعل حقيقة وأفعالـــه قائمة به ، وأنها فعل له ، وأنها قائمة بـه .

وكل دليل صحيح يقيمه القدرية فإنما يدل على أن أفعال العباد فعل لهم قائمة بهم واقعة بقدرتهم ، ومشيئتهم وإرادتهم وأنهم مختارون لها غير مضطريـن ولا مجبورين ، وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله ـ سبحانه ـ قادرا على أفعالهم وهو الذي جعلهم فاعلين .

فأدلة الجبرية صحيحة متظافرة على من نفى قدرة الرب ـ سبحانه ـ على كـل شيء من الأعيان والأفعال ونفى عموم مشيئته وخلقه لكل موجود ، وأثبت فـــي الوجود شيئا بدون مشيئتـه وخلقـه .

وأدلة القدرية صحيحة متظافرة على من نفى فعل العبد وقدرته ومشيئتـــه واختياره وقال إنه ليس بفاعل شيئا والله يعاقبه على ما لم يفعله ولا له قدرة عليـــه بل هو مضطر إليه مجبور عليه "[1]

فإذا ضممنا ما عند كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى فإنما يـدل ذلك على ما دل عليه كتاب الله ، وسائر كتب الله المنزلة قبله من عموم قدرة اللـــه ومشيئته لجميع ما في هذا الكون من الأعيان والأفعال وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة ، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم "[2] .

وعند التأمل للأدلة التي أسلفناها التي دلت على أن العباد فاعلـــون حقيقة ، والله ـ تعالى ـ خالقهم وخالق أفعالهم وأنهم مختارون لهم إرادة ومشيئة

---

١) شفاء العليل ص ٥١

٢) شرح الطحاوية ص ٤٩٤

تابعة لارادة الله ومشيئته . نعلم أن أهل الكلام الباطل ، وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف هم أبخس الناس حظا ، وأقلهم نصيبا ، وأخسرهم عملا . وأن أهل السنة والجماعة هم أهل الحق في هذه المسألة وغيرها " فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشيئته العامة ، وينزهونه أن يكون في ملكه مالا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ، ويثبتون القدر السابق وأن العباد يعملون على ما قدره الله وقضاه وفرغ منه وأنهم لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه ، والقدر عندهم قدرة الله - تعالى - وعلمه ، ومشيئته ، وخلقه فلا يتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه ، وقدرته فهم المؤمنون " بلا حول ولا قوة الا بالله " على الحقيقة إذا قالها غيرهم على المجاز اذ العالم علويه ، وسفليه ، وكل حي يفعل فعلا فان فعله بقوة فيه على الفعل وهو في حول من ترك إلى فعل ومن فعل إلى ترك ، ومن فعل إلى فعل ، وذلك كله بالله - تعالى - ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلما والكافر كافرا والمصلي مصليا والمتحرك متحركا وهو الذى يسير عبده في البر والبحر وهو المسير والعبد السائر . . . . ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وإرادته ، واختياره وفعله حقيقة لا مجازا وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول . . . . فحركات العباد واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة وهي مفعولة لله - سبحانه - مخلوقة له حقيقة والذي قام بالرب - عز وجل - عطيه وقدرته ومشيئته وتكوينه والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة ، وهو سبحانه هو المقدر لهم على ذلك القادر عليه الذى شاءه منهم وخلقه لهم ومشيئتهم وفعلهم بعد مشيئته فما يشاؤون إلا أن يشاء الله ، وما يفعلون إلا أن يشاء الله ، وإذا قارن الإنسان بينه وبين المذاهب الأخرى وجد أنه المذهب الوسط السوي ووجد غيره من المذاهب خطوطا عن يمينه وعن شماله فقريب منه ، وبعيد " (١)

---

١) شفاء العليل ص ٥٢

(المبحث الرابع)

ما يتعلق بالهداية والضلال

قبل أن نشرع في عرض الآيات المتعلقة بالهدى والضلال من سورة " الزمر " نذكر تعريف الهدى والضلال أولاً :

أما الهدى : فهو في الأصل مصدر كالسرى ومعناه : الرشاد والدلالة ولو غير موصلة " (١) .

وجاء في النهاية لابن الأثير : " ومن أسمائه ـ تعالى ـ الهادي وهو الذي بصّر عباده وعرّفهم طرق معرفته حتى أقروا بربوبيته وهدى كل مخلوق إلى ما لابد منه في بقائه ودوام وجوده وفي الحديث " الهدي الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة " (٢) والمراد بالهدى هنا السيرة ، والهيئة والطريقة ، ومعنى الحديث : أن هذه الخلال من شمائل الأنبياء وخصالهم الحميدة وأنها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم لا أن المعنى أن النبوة تتجزأ ، ولا أن من جمع هذه الخلال كان فيه جزء من النبوة ، فإن النبوة غير مكتسبة ولا مجتلبة بالأسباب وإنما هي كرامة من الله تعالى " أ. هـ (٣) .

وأما تعريف الضلال : فقد جاء في القاموس : الضلال والضلالة .... ضد الهدى " (٤)

وفي اللسان : قال أبو منصور : والإضلال في كلام العرب ضد الهداية والإرشاد يقال : أضللت فلانا إذا وجهته للضلال عن الطريق وإياه أراد لبيد :

من هداه سبل الخير اهتدى ∴ ناعم البال ومن شاء أضل

قال لبيد هذا في جاهليته فوافق قوله التنزيل العزيز ((يضل من يشاء ويهدي

---

١) لوامع الأنوار البهية ١ / ٥٠

٢) رواه أبو داود في سننه ٢ / ٥٤٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

٣) النهاية ٥ / ٢٥٣ ، لوامع الأنوار ١ / ٥٠ .

٤) القاموس ٤ / ٥ .

من يشاء)) أ . هـ [1]

وبعد تعريف الهدى والضلال نقول : إن الهدى والضلال هما لب أبواب القدر ، وما يتعلق به من المسائل ، فإن أعظم نعمه يقدرها الله تعالى للعبد هي نعمة الهداية وأعظم مصيبة يصاب بها الإنسان هي مصيبة الضلال وكل ما بالإنسان من نعمة هي دون نعمة الهداية ، وكل مصيبة مهما كبرت وعظمت فهي دون مصيبة الضلال وقد أجمع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى خاتمهم والكتب المنزلة عليهم - أن الباري سبحانه - يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وأن من هداه الله فلا مضل له ومن أضله الله فلا هادي له ، فالهداية والإضلال بيده - سبحانه - وأن العبد لا يملك من ذلك شيئا [2] ونصوص الكتاب والسنة تقرر أن العبد هو الضال أو المهتدي ، وقد دلت سورة " الزمر " في عدد من آياتها على أن الهداية والإضلال فعل الله والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه .

قال تعالى : ((إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار))

وقال تعالى : ((أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد))

وقال تعالى : ((أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد))

وقال تعالى : ((ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام))

وقال تعالى : ((إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل

---

١) اللسان ١١ / ٣٩١ ، والآية رقم /٨/ من سورة فاطر .

٢) أنظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر لابن القيم ص ٦٥ بتصرف .

فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل))

وقال تعالى : ((أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين))

هذه سبع آيات من السورة دلت على أن الهداية والإضلال بيد الله ، وأن الله تعالى هو الهادي والعبد هو المهتدي .

فالآية الأولى : وهي قوله ((إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار)) ففيها الإخبار من الله - جل وعلا - بأنه لا يوفق للهداية إلى صراطه المستقيم من صفته الكذب والكفر بحيث تصل إليه المواعظ والآيات البينات ولا يزول عنه ما اتصف به من الصفات التي تحول بينه وبين الهداية حيث يرى الآيات فيجحدها ويكفر بها ويكذب فمثل هذا أنى له الهدى وقد أغلق على نفسه الباب فعاقبه الله بالطبع على قلبه فصار ليس أهلا للهداية .

قال ابن جرير رحمه الله - تعالى - يقول تعالى ذكره ((إن الله لا يهدي)) إلى الحق ودينه الإسلام والإقرار بوحدانيته فيوفقه له ((من هو كاذب)) مفتر على الله يتقول عليه الباطل ، ويضيف إليه ما ليس من صفته ويزعم أن له ولدا افتراء عليه كفار لنعمه جحود لربوبيته " أ.هـ [1] .

وقال الرازي : ((إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار)) والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقي محروما عن الهداية " أ.هـ [2] .

وأما الآية الثانية : وهي قوله ((أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين)) هذه الآية بينت بأن من فسح الله قلبه لمعرفته والإقرار بوحدانيته والإذعان لربوبيته ، والخضوع لطاعته ، فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين بتنوير الحق في قلبه ، فهو لذلك لأمر الله متبع ، وعما نهاه عنه منته فيما يرضيه ، ومن كان كذلك لا يستوي هو ومن أقسى الله قلبه وأخلاه من ذكره وضيقه عن استماع الحق ، واتباع الهدى ،

---

١) جامع البيان ٢٣/١٩٢

٢) التفسير الكبير ٢٦/١٩٢

والعمل بالصواب فبين هذا والذي قبله فرق عظيم ، وتفاوت كبير إذ الذين قست قلوبهم عن ذكر الله في ضلال واضح بين عن الحق . قال مجاهد : ليس المنشرح صدره مثل القاسي قلبه " [1] .

وأما الآية الثالثة : وهي قوله ((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها)) الآية . فهذه الآية بين الله - تعالى - فيها أن التأثير الحاصل لعباده المؤمنين عند سماعهم القرآن من اقشعرار جلودهم ولين قلوبهم إنما هو هدى من الله يهدي به من يشاء من عباده وهو من جملة فضل الله وإحسانه عليهم .

فالقرآن طريق موصل إلى الله - تعالى - يهدي به من يشاء من عباده وهم الذين صلحت أعمالهم وحسنت مقاصدهم كما قال - عز وجل - ((يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام)) [2] . فلا سبيل إلى الله إلا بتوفيقه ، والتوفيق للإقبال على كتابه فإذا لم يحصل للعباد ذلك فلا وصول إلى الهدى ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء الأليم .

قال ابن جرير رحمه الله - تعالى - ((ذلك هدى الله يهدي به من يشاء)) يقول تعالى ذكره " هذا الذي يصيب هؤلاء القوم الذين وصفت صفتهم عند سماعهم القرآن من اقشعرار جلودهم ، ثم لينها ولين قلوبهم إلى ذكر الله من بعد ذلك وهدى الله يعني : توفيق الله إياهم ووفقهم له ((يهدي به من يشاء)) يقول : يهدي تبارك وتعالى بالقرآن من يشاء من عباده ، إلى أن قال وقوله ((ومن يضلل الله فما له من هاد)) يقول تعالى ذكره : ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن والتصديق بما فيه ، فيضله عنه ((فما له من هاد)) يقول : فما له من موفق له وسدد يسدده في اتباعه " أ . هـ [3]

وأما الاية الرابعة : وهي قوله تعالى ((.... ومن يضلل الله فما له هاد)) ففيها توضيح أن من أضله الله لم يكن لاحد سبيل الى هدايته ورده من

---

١) جامع البيان ٢٣/٢٠٩
٢) سورة المائدة آية /١٦
٣) جامع البيان ٢٣/٢١١ .

الكفر إلى الإيمان .

قال القرطبي : ((ومن يضلل الله فما له من هاد)) أي من خذله الله فلا مرشد له وهو يرد على القدرية "[1]

وأما الآية الخامسة : وهي قوله ((ومن يهد الله فما له من مضل ...)) الآية بين الله - تعالى - فيها أن من هداه ووفقه للرشاد فليس لأحد طريق إلى إضلاله .

قال الطبري : ((ومن يهد الله فما له من مضل ...) يقول : ومن يوفقه الله للإيمان به والعمل بكتابه ((فما له من مضل)) يقول : فما له من مزيغ يزيغه عن الحق الذي هو عليه إلى الإرتداد إلى الكفر " أ.هـ [2] .

وقال الشوكاني : ((ومن يهد الله فما له من مضل ...)) يخرجه من الهداية ويوقعه في الضلال " أ . هـ [3]

وأما الآية السادسة : وهي قوله ((إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ...)) الآية . هذه الاية فيها إخبار من الله تعالى بأن من اهتدى بالقرآن وعمل بما فيه واتبعه فإن نفع ذلك عائد إلى نفسه ومن ضل بعد أن اتضح له الهدى فإن ضرر ذلك عائد عليه ولا يضر الله شيئا .

وأما الآية السابعة : وهي قوله - تعالى - حكاية عن الكافر الذى يتأسف على نفسه يوم القيامة حيث جانب طريق الهدى بعدم أخذه بأسباب الهداية والإيمان بالرسل . ((أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين)) ففي هذه الآية مشهد لحال النفس التي فرطت في جنب الله أي في جانب حقه فلم يمتثل أمر الله ، ولم تكن أطاعته حق الطاعة أنها تتمنى لو أن الله هداها ووفقها للرشاد فتكون مع عباد الله المتقين فتسلم من العقاب ، وتظفر بالثواب ، ولكن

---

١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/٢٥٠

٢) جامع البيان ٢٤/٦

٣) فتح القدير ٤/٤٦٥

هيهات لعدم نفع هذا التمني الكاذب حيث أضاعت الفرصة في المكان الذي كان لها القدرة في الأخذ بأسباب الهدى فتكون من المهتدين ، ومع عباد الله المتقين ولكن هذا التمني والتأسف وقع بعد فوات الأوان .

وكما نرى أن هذه الآيات السبع المتقدمة كلها وردت في هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل . كما أوضحت أن الهداية والاضلال فعل الله والإهتداء والضلال فعل العبد وكسبه .

وقد وردت آيات كثيرة في معنى الآيات السابقة في سور أخرى من القرآن ، قال تعالى ((من يهد الله فهو المتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون)) (١) .

دلت هذه الآية على أنه لا سبيل إلى وجود الهداية للعبد إلا بعد هداية الله له فإذا وفقه الله للهدى كان من المهتدين . قال العلامة ابن القيم : " ولا سبيل الى وجود الأثر إلا بموجبه التام فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد ولهذا قال تعالى ((إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل)) (٢) وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له صلى الله عليه وسلم ولو حرص عليه ولا إلى أحد غير الله وأن الله - سبحانه - إذا أضل عبدا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته " أ.هـ (٣) . وقال تعالى ((من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم)) (٤) . وقال تعالى ((من يضلل الله فلا هادي له)) (٥) . وقال تعالى ((أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)) (٦) وقال تعالى عن أهل الجنة ((الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)) (٧) ولم يقصدوا أن بعض الهدى من الله وبعضه منهم بل نسبوا الهدى كله لله ولولا أنه هداهم لما اهتدوا . وقال تعالى ((كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم

---

١) سورة الاعراف آية ١٧٨ ٢) سورة النحل آية / ٣٧
٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر ص ٨١ .
٤) سورة الانعام آية / ٣٩ ٥) سورة الأعراف آية / ١٨٦
٦) سورة فاطر آية / ٨ ٧) سورة الأعراف آية / ٤٣

جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكر للبشر)) [1] ففي هذه الآية التصريح بأن مشيئة الله تعالى في الهداية والضلال مطلقة لا يسأل عما يفعل ولكنه تعالى عدل فحاشاه أن يضل من يستحق الهداية ، وحاشاه أن يهدي من يستحق الضلال فقد نزه نفسه عن ذلك فقال : ((إن الله لا يظلم مثقال ذرة)) [2] وقال - جل ثناؤه - ((وما ربك بظلام للعبيد)) [3] بقي أن نعرف من هم الذين يشاء الله هدايتهم ؟ ومن هم الذين يشاء الله ضلالهم ؟ الذين يشاء الله هدايتهم هم الذين فتحوا قلوبهم للهدى وعقولهم للحق وأقبلوا على كتابه صادقين وانقادوا لأوامره طائعين فهؤلاء لهم المنة من الله على الهداية ويوفقهم لطلبها والإقبال عليها ، ويزيدهم إيمانا وهدى ، وعن هذه الفئة قال تعالى ((والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)) [4] وقال تعالى في شأن أهل الكهف ((إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)) [5] وأما الذين يشاء الله ضلالهم فهم الذين حادوا عن الحق وأعرضوا عن الهدى وسدوا عن أنفسهم جميع المنافذ التي توصلهم إلى الإيمان بالله والتزام دين الإسلام فلم يكن عندهم أي استعداد لأن يتقبلوا هدى الله الذي أنزله على رسله فهم كما قال تعالى ((صم بكم عمي فهم لا يعقلون)) [6] وقد أخبر تعالى بأن من جحده أو كفر بدينه فإنه لا يهديه . قال تعالى ((والله لا يهدي القوم الكافرين)) [7] . وأخبر بأن من فسق في حياته وخرج عن طاعة ربه فإنه لا يهديه قال تعالى ((والله لا يهدي القوم الفاسقين)) [8] وأخبر بأنه لا يهدي القوم الظالمين قال تعالى ((والله لا يهدي القوم الظالمين)) [9] وقال تعالى عن الفريقين معًا فريق الهداية ، وفريق الضلالة ((فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين)) [10] .

---

١) سورة المدثر آية / ٣١
٢) سورة النساء آية / ٤٠
٣) سورة فصلت آية / ٤٦
٤) سورة محمد آية / ١٧
٥) سورة الكهف آية / ١٣
٦) سورة البقرة آية / ١٧١
٧) سورة البقرة آية / ٢٦٤
٨) سورة المائدة آية / ١٠٨
٩) سورة آل عمران آية / ٨٦
١٠) سورة البقرة آية / ٢٦

ومما يجب أن يعلم أن الله تعالى إنما يضل من يضل من خلقه إنما يكون ذلك بعد العذر إليهم بتبيين طرق الهدى ومنحهم القدرة الكافية التي تمكنهم من السير عليها فإذا قدم العبد - بعد العلم - الضلال على الهدى ولاه الله ما تولى وكان ذلك بمحض عدله سبحانه لا ظلم فيه قال تعالى ((وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون)) [1] والذي يؤثر طلب الهداية والرغبة فيها ويأخذ بالأسباب التي توصله إليها فإنه سيجد من الله عونا على تحصيلها وتحقيقها وذلك من رحمة الله لعباده وفضله عليهم ، ومن يؤثر الضلالة ويرغب فيها ويسعى جاهدا في طلبها ويعمل بالأسباب التي توصله إليها تمت له فلم يجد من الله تعالى صارفا عنها وهذا من عدل الله في عباده وحسن تدبيره لهم .

وإذا عرفنا ذلك فليس لعبد من عباد الله أن يعترض على الله ويقول إذا كان الله يضل ويهدي فليس للعبد حرية الإختيار . فالواقع أن الهداية والإضلال نتائج لمقدمات وسببات لأسباب كما تقدم ذلك في الآيات التي قدمنا ذكرها حيث تبين لنا أن الهداية إنما هي ثمرة العمل الصالح والإقبال على منهج الله تعالى ، والضلال إنما هو نتائج العمل القبيح السيء وإذا رجعنا إلى الآيات القرآنية نجد هذا المعنى بينا واضحا لا التباس فيه ولا إشكال .

قال تعالى ((ويهدي إليه من أناب)) [2] وقال تعالى ((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)) [3] فالهداية الحاصلة للمؤمنين إنما هي ثمرة مجاهدتهم لأنفسهم وإنابتهم إلى الله واستسلامهم لإرشاده ووحيه . قال تعالى في شأن الإضلال ((كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)) [4] وقال تعالى ((فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين)) [5] وقال تعالى ((بل طبع

---

١) سورة التوبة آية /١١٥
٢) سورة الرعد آية /٢٧
٣) سورة العنكبوت آية /٦٩
٤) سورة غافر آية /٣٥
٥) سورة الصف آية /٥

الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا)) [1] .

فالذي نشاهده من خلال هذه الآيات أن سبب الإضلال هو الزيغ والخروج عن طاعة الله والكبر ، والجبروت ، والكفر ، واقتراف الآثام ، فالذي يؤثر العمى على الهدى ويستحب الظلام على النور يعاقب من الله بعمى البصيرة بمقتضى السنة الجارية وهي ارتباط الأسباب بمسبباتها . والمقدمات بنتائجها .

مراتب الهداية :

إن للهداية التي هي أعظم نعمة ينالها العبد أربع مراتب :

المرتبة الأولى : الهداية العامة المشتركة بين الخلق أجمعين وقد ذكرها الله تعالى في قوله ((الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى)) [2] أي : أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره ، وأعطى كل عضو شكله وهيأته ، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال ، وهذه الهداية تعم هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره وهداية الجماد المسخر لما خلقه له ، فله هداية تليق به ، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به ، وإن اختلفت أنواعها وضروبها ، وكذلك لكل عضو هداية تليق به ، فالرجلان للمشي ، واليدان للبطش والعمل ، واللسان للكلام ، والأذن للاستماع ، والعين لكشف المرئيات ، وكل عضو لما خلق له ، وهدى الزوجين من كل حيوان للإزدواج والتناسل ، وتربية الولد ، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه ، وجزئيات هذه الهداية لمخلوقات الله تعالى لا يحصيها إلا هو - سبحانه - .

المرتبة الثانية : هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي الهلاك والنجاة وهذه لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط ، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب بل قد يتخلف عنه المقتضي ، إما لعدم كمال

---

١) سورة النساء آية /١٥٥ ٢) سورة طه آية /٥٠

السبب ، أو لوجود ما نع . قال تعالى ((وأما ثمود فهد يناهم فاستحبوا العمى على الهد ى)) [1] قال قتادة : في قوله -عز وجل - ((وأما ثمود فهد يناهم)) أي : بينا لهم طريق الهد ى وطريق الضلالة فاستحبوا أي : آثروا الضلالة على الهد ى " [2] . وقال تعالى ((وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هد اهم حتى يبين لهم ما يتقون)) [3] فهد اهم هد ي الد لالة والبيان فلم يهتد وا فأضلهم عقوبة لهم على ترك الإهتد اء أولا بعد أن عرفوا الهد ى فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه وهذا شأنه -سبحانه- في كل من أنعم عليه بنعمة ، فكفرها فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه كما قال تعالى ((ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) [4] وقال تعالى عن قوم فرعون ((وجحد وا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)) [5] أى : جحد وا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها . وقال تعالى ((كيف يهد الله قوما كفروا بعد إيمانهم والله لا يهد ي القوم الظالمين)) [6] .

وهذه الهد اية هي التي أثبتها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى ((وانك لتهد ى الى صراط مستقيم)) [7] ونفى عنه ملك الهد اية الموجبة وهي هد اية التوفيق والإلهام بقوله تعالى ((إنك لا تهد ي من أحببت ولكن الله يهد ى من يشاء)) [8] فالرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله د اعيا ومبلغا ولا يملك من الهد اية شيئا سوى هد اية الد لالة والبيان وخلق الله إبليس مزينا ومغويا ، وليس له القدرة على إضلال أحد من البشر إذ الهد ى والضلال بيده -سبحانه- وقال تعالى ((والله يدعو إلى د ار السلام ويهد ي من يشاء الى صراط مستقيم)) [9] فجمع -سبحانه- بين الهد ايتين العامة والخاصة ،

---

١) سورة فصلت آية /٥٠
٢) جامع البيان ٢٤/١٠٤ ، زاد المسير ٧/٢٤٨-٢٤٩ ، لسان العرب ١٥/٣٥٤
٣) سورة التوبة آية /١١٥
٤) سورة الانفال آية /٥٣
٥) سورة النمل آية /١٤
٦) سورة آل عمران آية /٨٦
٧) سورة الشورى آية /٥٢
٨) سورة القصص آية /٥٦
٩) سورة يونس آية /٢٥

فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلا ، وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلا ، وهذه المرتبة أخص من التي قبلها فإنها هداية تخص المكلفين وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا إلا بعد إقامتها عليه قال تعالى ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)) [1] وقد يقول قائل : كيف تقوم حجة الله عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه ؟ ويجاب على هذا أن حجة الله قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى ، وبيان الرسل لهم وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانا ، ونصب لهم أسباب الهداية ظاهرا وباطنا ، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب ، ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل ، أو صغر لا تمييز معه ، أو كونه في ناحية من الأرض لم تبلغه دعوة الرسل فإنه ـ سبحانه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته فهو ـ سبحانه لم يمنعهم من هذا الهدى ، ولم يحل بينهم وبينه ، ولكنه ، ـ سبحانه ـ قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه إعانتهم ، والإقبال بقلوبهم إليه فلم يحل بينهم ، وبين ما هو مقدور لهم ، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه ، وهو فعله ومشيئته وتوفيقه فهذا غير مقدور لهم وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه فليتنبه لهذا ليزول الإشكال .

المرتبة الثالثة من مراتب الهداية : هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل وهذه المرتبة أخص من التي قبلها وهي التي ضل فيها جهال القدرية بالتأويل الفاسد فقد زعموا : أن المراد من الضلال والهدى هو تسمية الله العبد مهتديا وضالا فجعلوا هداه ، وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك [2] وسنبين بطلان هذا قريبا بعد ذكر الآيات الدالة على هذه المرتبة . وأما الجبرية : فقد ظلموا القدرية ، ولم ينصفوهم بل ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى وإنكارهم فعل العبد وقدرته ، وأن يكون له تأثير في الفعل البتة فلم يهتدوا لقول القدرية ، بل ازدادوا ضلالا على ضلالهم وجمودا على ما هم

---

١) سورة الاسراء آية /١٥

٢) انظر مقالات الاسلاميين ١ / ٣٢٤-٣٢٥ ، شفاء العليل ص ٨٢

عليه من الباطل "[1] .

وهداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل تتضمن أمرين :

أحدهما : فعل - الرب تعالى - وهو الهدى :

الثاني : فعل العبد وهو الإهتداء وهو أثر فعل الباري - سبحانه - فهو الهادي والعبد هو المهتدي .

قال تعالى ((من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون))[2]

وقد أمر - سبحانه - عباده جميعهم بأن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم في كل يوم وليلة في الصلوات الخمس المفروضة ، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه ، كما أن الضلال نوعان : ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه ، وضلال فيه ، فالأول ضلال عن معرفته ، والثاني ضلال عن تفاصيله ،أو بعضها[3]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :" والعبد مضطر دائما إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله ، وهذه الآية[4] مما يبين فساد مذهب القدرية "[5] .

وهذه المرتبة دل عليها الكثير من آيات القرآن كقوله تعالى : ((إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء))[6] وقوله تعالى ((إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل))[7] فالآيتان دلتا على أن هداية الإلهام والتوفيق وخلق الهداية في القلب ليس إليه صلى الله عليه وسلم ولا إلى أحد غيره ، وإنما ذلك لله وحده .

---

١) الظل والنحل ١/٨٥-٨٦ شفاء العليل ص ٨٠ ، لوامع الانوار ١/٩٠-٩١

٢) سورة الاعراف آية /١٧٨ ٣) شفاء العليل ص ٨١

٤) يشير الى قوله تعالى في سورة الفاتحة (إهدنا الصراط المستقيم)

٥) مجموع الفتاوى ١٤/٣٧ ، وانظر دقائق التفسير ١/٢٠٩ ، شفاء العليل ص ٨١

٦) سورة القصص آية /٥٦ ٧) سورة النحل آية /٣٧

وأما تأويل القدرية : بأن المراد من الهدى والضلال هو : " تسمية الله العبد مهتدياً وضالا " فهذا تأويل فاسد أنكره عليهم سلف الأمة وأئمتها في كل مكان ، وفي كل عصر ، وبينوا أن قولهم هذا ليس له أساس ، وإنما بنوه على ترهاتهم الفاسدة وتأويلاتهم الباطلة . لا يصح حمل آيات الهدى والضلال على هذا المعنى وتأويلهم ذلك باطل من وجوه :

الوجه الأول : أننا إذا تأملنا آيات الهدى والضلال وجدناها لا تحتمل تأويلهم ذلك إذ أنه ليس في أي لغة من اللغات فضلا عن اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن أن هداه بمعنى سماه مهتديا وأضله سماه ضالا ، ولا يصح أن يقال : علمه إذا سماه عالما ، وفهمه إذا سماه فهما ، وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى ((ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء)) [1] ؟ فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا " ليس عليك تسميتهم ولكن الله يسمي من يشاء مهتديا ؟ وهل فهم أحد غيرهم ((إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)) إنك لا تهدي من أحببت لا تسميه مهتديا ولكن الله يسميه بهذا الإسم - سبحانك هذا بهتان عظيم وقوله على الشارع بغير علم .

الوجه الثاني : عليهم أن يبينوا صلاحية اللفظ للمعنى الذي ذكروه أولا : واستعمال المتكلم له في ذلك المعنى ، في أكثر المواضع حتى إذا استعمله فيما يحتمل غيره حمل على ما عهد منه استعماله فيه .

الوجه الثالث : عليهم أن يقيموا دليلا سالما عن المعارض على الموجب لصرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه واستعارته وإلا كان ذلك منهم مجرد دعوى لا تقبل منهم " [2]

وتأول بعضهم نصوص الهداية على أن المراد بها هداية البيان والتعريف لا خلق الهدى في القلب ، فإنه - سبحانه - لا يقدر على ذلك عند هذه

---

١) سورة البقرة آية / ٢٥٢

٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر ص ٨٢-٨٣ .

الطائفة الزائغة " [1] .

قال محمد بن أحمد السفاريني : " تنبيه المشهور عند المعتزلة ومن مذهبهم أن الهداية هي الدلالة الموصلة إلى المطلوب فان لم تكن موصلة إلى المطلوب فليست بهداية عندهم " [2] .

ويرد عليهم في هذا التأويل : أن الله تعالى قد أخبر أنه قسم الهداية إلى قسمين :

قسم : لا يقدر عليه إلا هو - سبحانه وتعالى - .

وقسم : مقدور للعبد قال تعالى في القسم المقدور للعبد ((وانك لتهدي الى صراط مستقيم)) [3] وقال تعالى في القسم غير المقدور للعبد ((إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)) [4] . وقال تعالى ((فان الله لا يهدي من يضل)) [5]

فحمل هذا على هداية الدعوة والبيان لا يصح وغير سائغ فان هذا يهدي وإن أضله الله بالدعوة والبيان وكذا قوله تعالى ((وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله)) [6] فهل يجوز حمله على معنى فمن يدعوه إلى الهدى ويبين له ما تقوم به حجة الله عليه ، وكيف يصنع هؤلاء القدرية بالنصوص التي فيها أنه - سبحانه - هو الذي أضلهم ؟ أيجوز لهم حملها على أنه دعاهم إلى الضلال ؟ لا شك أنهم يقولون ليس هذا معناه ولكنهم لما وجدوا أنفسهم لا يستقيم لهم دليل على دعواهم جنحوا الى تحريفات أخرى .

فقالوا : " إنما معناها ألفلدهم ، ووجدهم ، كذلك ، أو أعلم ملائكته ورسله بضلالهم ، أو جعله على قلوبهم علامة يعرف الملائكة بها أنهم ضلال "

---

١) المصدر السابق ص ٨٣
٢) لوامع الأنوار ١/ ٣٣٥
٣) سورة الشورى آية / ٥٢
٤) سورة القصص آية / ٥٦
٥) سورة النحل آية / ٣٧
٦) سورة الجاثية آية / ٢٣

ويرد على هذه التحريفات من وجوه :

الوجه الأول : أن اللغة لا تحتمل ذلك ، وأن النصوص إذا تأملها المتأمل وجد ها أبعد شيء من هذا المعنى .

الوجه الثاني : أما قولهم إنه علمهم بعلامة يعرفهم بها الملائكة فهذا من جنايتهم على كتاب الله تعالى ففي أي لغة وفي أي لسان يدل قوله تعالى ((إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)) على معنى إنك لا تعلمه بعلامة ولكن الله هو الذي يعلمه بها ؟ وفي أي لغة يفهم من قول الداعي ((إهدنا الصراط المستقيم)) [1] علّمنا بعلامة يعرف الملائكة بها أننا مهتدون ؟ وفي أي لغة يكون معنى قوله ((وجعلنا قلوبهم قاسية [2] علمناها بعلامة أو وجدناها كذلك ؟

الوجه الثالث : يقال لهم في أي لسان وفي أي لغة ؟ وجد تمم هديت الرجل اذا وجدته مهتديا وختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة وجده كذلك ، فهل هذا إلا من الإفتراء المحض ومن الجناية على القرآن واللغة لم يجنها غيركم ، ولما يدركوا أن تأويلاتهم الفاسدة لم تساعدهم على ما يريدون وتضمحل أمام مناقشة أهل الحق لها يجنحون إلى مراوغة أخرى فيقولون : نحن لم نقل هذا إلا في نحو أضله الله أي : وجده ضالا كما يقال : أحمدت الرجل ، وأبخلته وأجننته إذا وجدته كذلك ، أونسبته إليه .

ويرد على تحريفهم هذا بأنه لم يرد إلا في ألفاظ معدودة نادرة والا فوضع هذا البناء على أنك فعلت ذلك به ولا سيما إذا كانت الهمزة للتعدية من الثلاثي كقام وأقمته .... لم نجد فيها لفظا واحدا معناه أنه وجده كذلك تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .... ثم إذا نظرنا لم نجد أحدا من الأولين والآخرين من أهل اللغة يقول : إن العرب وضعت أضله الله وهداه وختم على سمعه وقلبه ، وأزاغ قلبه ، وصرفه عن طاعته ونحو ذلك

---

١) سورة الفاتحة آية / ٦ ٢) سورة المائدة آية / ١٣

لمعنى وجده كذلك ولكن الله ـ سبحانه ـ لما أراد الإبانة عن هذا المعنى قال ((ووجدك ضالا فهدى)) [1] ولم يقل وأضلك .

الوجه الرابع : يقال لهم أي مدح ؟ وأي توحيد ؟ وتعريف للخلق بأن الأمر كله لله وبيده ، وأنه ليس لأحد من أمره شيء في مجرد التسمية والعلامة ومصادفة ـ الرب تعالى ـ عباده كذلك ، ووجوده لهم على هذه الصفات من غير أن يكون له فيها صنع ، أو خلق ، أو مشيئة إذ البشر كلهم لا يعجزون عن التسمية والمصادفة والوجود فياعجبا لهذا الهراء الذى لا مدح فيه ولا ثناء لرب العالمين [2] ففي الحقيقة أن القدرية والجبرية لم يقدروا الله حق قدره بل هم هلكى فيما يجب لله من التعظيم والتنزيه ، ولذلك أبغضهم أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينوا ما هم عليه من المنكر الواضح ومن الإعتقاد الفاسد .

روى أبو بكر محمد بن الحسين الآجرى : بإسناده إلى عبد الله بن الحارث قال خطب عمر بن الخطاب بالجابية [3] فحمد الله وأثنى عليه وعنده جاثليق [4] يترجم له ما يقول فقال : من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، فنفض جبهته كالمنكر لما يقول : قال عمر ما يقول : قالوا يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحدا قال عمر : كذبت أي عدو الله بل الله خلقك ، وقد أضلك ، ثم يدخلك الله النار أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك إن الله ـ عز وجل ـ خلق أهل الجنة وما هم عاملون وخلق أهل النار وما هم عاملون فقال هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه قال فتفرق الناس وما يختلفون في القدر [5] .

المرتبة الرابعة : من مراتب الهداية : غاية هذه الهداية وهي الهداية

---

١) سورة الضحى آية / ٧ . ٢) شفاء العليل ص ٨٣-٨٤ بتصرف .
٣) الجابية : مدينة بالشام أنظر معجم البلدان ٢/٩١ ، وانظر مختار الصحاح ص ٩٢
٤) الجاثليق : جمعه جثالقه وهو متقدم الأساقفه أنظر المنجد في اللغة والأعلام ص ٧٩ .
٥) الشريعة للاجرى ص ٢٠٠-٢٠١ .

إلى الجنة والنار إذا سبق أهلهما إليهما . قال تعالى ((إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم)) (١) .

وقال تعالى عن أهل النار ((أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم)) (٢)

والذي نخلص إليه مما تقدم أن الهدى والإضلال بيد الله تعالى وأن العباد لا يملكون من ذلك شيئا ، وأن الله تعالى يمنحها من طلبها بإخلاص ، وأخذ بالأسباب التي توصله إليها ، وأسباب الهداية في مقدور كل امرئ أن يأخذ بها حتى يكون من المهتدين ، أما من أعرض عنها وأبى إلا أن ينحرف عن طريق الهدى فهذا يكون نصيبه الغواية والضلال وهذا من فعل العبد وكسبه ، فالهداية والإضلال فعل الله ، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه .

---

١) سورة يونس آية / ٩

٢) انظر أنواع الهداية في " شفاء العليل " ص ٦٥-٨٤ ، بدائع الفوائد ٢ /٣٥-٣٧ ، فتح الباري ١١ /٥١٥ ، لوامع الانوار البهية ١ /٣٣٤-٣٣٥ ، والآيتان رقم ٢٢ ، ٢٣ من سورة الصافات .

الباب الثالث

* الباب الثالث *

دلالة السورة على وجوب الايمان باليوم الاخر

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ما يحدث في اليوم الاخر قبل دخول الجنة والنار .

الفصل الثاني : النار دار الكافرين .

الفصل الثالث : والجنة دار المتقين .

الفصل الأول

* الفصل الأول *

مباحث في اليوم الآخر قبل دخول الجنة والنار .

وهي كالآتي :

تمهيد :

المبحث الأول : النفخ في الصور .

المبحث الثاني : بعث الموتى من قبورهم .

المبحث الثالث : عناية القرآن بإثبات البعث .

المبحث الرابع : أرض المحشر .

المبحث الخامس : كتاب الأعمال .

المبحث السادس : جزاء الأعمال يوم القيامة .

تمهيد :-

أن الله تعالى فطر الانسان على الاحساس بوجود عالم آخر بعد الموت ، وهذا امن أقوى الأدلة على وجود اليوم الآخر لأن الله - جل وعلا - إذا أراد أن يقنع الانسان بأمر ما فانه يغرس فكرة الاقتناع به في فطرهم ، ولذا فإن الإنسان يشتاق إلى حياة خالدة ولو في عالم غير هذا العالم وهذا الإحساس شائع في نفوس البشر بحيث لا يمكن النظر إليه باستخفاف ولذلك جاءت الأديان السماوية مبشرة بحياة أخرى بعد الموت وجعلت مصير كل إنسان مرتهنا بما قدمت يداه في الحياة الدنيا وهذا مايكسب الإنسان زيادة إيمان بربه ، وماجاءت به رسله فيقدم الأعمال الصالحة استعدادا بها ليوم المعاد ولما كان القرآن الكريم خاتما لجميع الرسالات السماوية ، وليس بعده أي رسالة تبين للناس مايختلفون فيه ، ومايستجد في حياتهم فإنه جاء وافيا بمطالب الروح والجسد في تعاليمه وتوجيهاته ولما كان مرتكز الجدل في بني الإنسان جبلة وطبعا كما قال تعالى (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا[1]) ولما كان الإقتناع أيضا : بحياة أخرى بعد الموت من الأمور التي شغلت فكر الإنسان ، فإن القران الكريم جاء وافيا بالأدلة والبراهين القاطعة على البعث والجزاء ، وعرض ذلك في نماذج حية ، وضمنها شبه المنكرين ، ولم يتركها تمردون مناقشة لها ، بل أبطل شبههم بالمنطق الصحيح والبراهين العقلية التي تزيل فكرة الفناء الأبدي التي علقت ببعض الأفكار السقيمة ، وتطمئن الإنسان وتدفعه للعمل الصالح وتحيي عنده آمال التسابق إلى الدرجات العلى في حياة أفضل وقد ذكرت بعضا من تلك البراهين في المبحث الثالث من هذا الفصل ، ولقد دعا القرآن إلى الإيمان باليوم الآخر بأساليب متنوعة لا يقفل قلبه عنها إلا دهري جحود فيجب على المسلم التصديق الجازم بجميع ماأخبره به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه .

(١) سورة الكهف آية : (٥٤) .

ونعيمه ، والبعث والحشر ، والنشر ، والصحف ، والميزان والحساب ، والجزاء ، والصراط ، والحوض ، والشفاعة[1] ، والجنة والنار وأحوالهما ، وما أعد الله لأهلهما إجمالا وتفصيلا والإيمان بالبعث بعد الموت هو أحد أركان الإيمان الستة وقد دل على وقوعه النقل ، والعقل ، والفطرة كما صرحت به جميع الكتب السماوية ، ونادى به جميع الأنبياء والمرسلون[2] ، وقد تعرضت سورة الزمر لمباحث كثيرة تتعلق باليوم الآخر وهي ماسنتحدث عنها فيما يأتي .

---

(١) تقدم الكلام على الشفاعة عند الكلام على توحيد العباده وقد أفردناها ببحث خاص .

(٢) أنظر إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات للشوكاني (ص ١٤) .

(المبحث الأول)

* النفخ في الصور *

قبل أن نذكر الآية التي دلت على النفخ في الصور من سورة " الزمر " نذكر معنى النفخ في اللغة والإصطلاح ومعنى الصور ،

أما النفخ في اللغة :-

فقد قال الراغب : النفخ : نفخ الريح في الشيء : (يوم ينفخ في الصور[1]) (ونفخ في الصور[2]) .... ومنه نفخ الروح في النشأة الأولى "أ . هـ[3] .

وجاء في أساس البلاغة : " نفخ في النار ، ونفخ النار بالنفاخ وهو الكير ونصبوا على النار المنافيخ ، ونفخت في الزق ، فتنفخ وهو يجد نفخة في بطنه ونفخة انتفاخا من طعام وغيره "أ ـ هـ[4] .

وفي القاموس : نفخ بفمه أخرج منه الريح .... والنفيخ الموكل بنفخ النار والمنفاخ (آلته) أ . هـ[5] .

والذي نستفيده من هذه التعاريف اللغوية أن النفخ هو : دفع الهواء كما يعرف كل إنسان .

وأما معناه في الاصطلاح :-

فهو نفخ مخصوص في وقت مخصوص من ملك مخصوص لما يريده الله ـ تعالى ـ كما جاء التصريح بذلك في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أن نافخا ينفخ في الصور بأمر الله تعالى لما يريده الله من التغيير في خلقه لأمر القيامة .

---

(١) سورة طه آية : (١٠٢) .
(٢) سورة يس آية : (٥١) .
(٣) المفردات في غريب القرآن (ص ٥٠٠) (٤) (ص ٤٦٦) .
(٥) (٢٨١/١) انظر النهاية في غريب الحديث (٥/ ٩٠) .

وأما معنى الصور :-

فقد جاء في صحيح البخاري عن مجاهد أنه قال : الصور كهيئة البوق (١) وذكر الحافظ عن الجوهري أنه قال : " البوق الذي يزمر به وهو معروف ... والصور إنما هو قرن كما جاء في الأحاديث المرفوعة ، وقد وقع في قصة بدء الأذان بلفظ البوق ، والقرن ؛ الآلة التي يستعملها اليهود للأذان ويقال : إن الصور اسم القرن بلغة أهل اليمن وشاهده قول الشاعر :

نحن نفخناهم فداة النقعين ؛ نطحا شديدا كنطح الصورين (٢)

قال ابن جرير : واختلف في معنى الصور ... فقال بعضهم هو قرن ينفخ فيه نفختان ، احداهما : لفناء من كان حيا على الأرض .

والثانية : لنشر كل ميت واعتلوا لقولهم ذلك بقوله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) ، وبالخبر الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذ سئل عن الصور " هو قرن ينفخ فيه " (٣) وقال آخرون الصور : جمع صورة ينفخ فيها روحها فتحيا لقولهم : سور لسور المدينة وهو جمع سورة كما قال جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت ؛ سور المدينة والجبال الخشع (٤)

إلى أن قال : والصواب من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ (٥) ، وأنه قال : " الصور قرن ينفخ فيه " أ . هـ (٦) .

---

(١) ١/١٣١ .

(٢) النفخ ١١/٦٨ ، وانظر الصحاح (٤/١٤٥٢ ، ٢/٧١٦ ، تحفة الأحوذي (٧/١١٧)

(٤) ديوان جرير (ص ٣٤٥) .

(٥) رواه احمد والترمذي من حديث أبي سعيد السند (٣/٧) ، سنن الترمذي (٤/٤٢) .

(٦) جامع البيان (٧/٢٣٩) ، والحديث رواه الترمذي من حديث عبد الله ابن عمرو وقال : حسن صحيح (٤/٤١) .

وقال ابن كثير بعد أن ذكر القولين المتقدمين في معنى الصور : " والصحيح أن المراد بالصور القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام " أ.هـ[1] ، وقد ورد أنه ينفخ في الصور مع اسرافيل ملك آخر روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " النافخان فى السماء الثانية .... فينظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخا[2] .

قال الحافظ بعد ايراده لهذا الحديث : " ورجاله ثقات وأخرجه الحاكم فى حديث عبد الله بن عمرو " أ.هـ[3] .

وقال الهيثمى : " رواه احمد ورجاله ثقات " أ.هـ[4] .

ولا تعارض بين هذا الحديث وبين ماورد فى بعض الاحاديث أن اسرافيل هو صاحب الصور ومن ذلك ماروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعا قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور فقال : " عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل[5] .

قال الحافظ : " تنبيه : اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام ، ونقل فيه الحليمي الإجماع[6] .

وهذا يحمل على أن إسرافيل رئيسهم كما قيل في شأن ملك الموت وأعوانه والعلم عند الله - تعالى -

وقد جاء في حديث صحيح أن اليوم الذي تكون فيه النفخة والصعقة هو يوم الجمعة وهو حديث أوس بن أوس الثقفي مرفوعا (إن أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه الصعقة وفيه النفخة[7] ..

وقد دلت السورة على أن من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالصور والنفخ فيه ، الذي جعله الله سبب الفزع ، والصعق والقيام من القبور . قال تعالى (ونفخ في الصور فصعق من السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) هذه الآية الكريمة من السورة ذكر الله فيها نفختين نفخة الصعق ، ونفخة البعث .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٦) ، وانظر تفسير روح المعانى للالوسى (٧/١٩١) .
(٢) ١٩٢/٢ من حديث ابى مرية ، وعن عبد الله بن عمرو عند المسند
(٣) الفتح (١١/٣٦٩) .
(٤) مجمع الزوائد (١٠/٣٣٠) . (٥) سنن ابى داود (٢/٣٦٠) .
(٦) الفتح (١١/٣٦٨) (٧) سنن النسائي ٣/٩١ وابن خزيمة في صحيحه (٣/١١٨) .

والنفخات ثلاث !

قال ابن كثير رحمه الله - تعالى -

وأما النفخات في الصور فثلاث نفخات نفخة الفزع ، ثم نفخة الصعق ، ثم نفخة البعث " أ.هـ[1] !

وقال أبو بكر ابن العربي[2] : الصور هو القرن الذي فيه اسرافيل ... ، ينفخ فيه بأمر ربه ثلاث نفخات : أولاها نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة البعث " أ . هـ[3] !

فعدد النفخات ثلاث وقد وردت كلها صريحة في القرآن ،

الأولى نفخة الفزع :

وهي المذكورة في قوله - جل وعلا - (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله)[4] ،

قال ابن كثير : " يخبر - تعالى - عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ..... وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في الأرض " أ . هـ[5] .

وروى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو وجاء رجل فقال : ماهذا الحديث الذي تحدث به ؟ تقول : إن الساعة تقوم يوم كذا وكذا فقال : - سبحان الله - أولا إله إلا الله . أو كلمة نحوها " لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا أبدا إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يحرق البيت ويكون ، ويكون . ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين (لا أدري : أربعين يوما أو أربعين شهرا ، أو أربعين عاما فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه .

---

(١) النهاية : (١/ ١٨٠) .
(٢) هو : محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي أبو بكر ابن العربي قاض من حفاظ الحديث ولد في إشبيلية سنة ثمان وأربعين وتوفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة انظر ترجمته في " طبقات الحفاظ " للسيوطي (ص ٤٦٨) ، وفيات الاعيان (١/ ٤٨٩ ، الديباج المذهب لابن فرحون (ص ٢٨١) ، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٩٤ وما بعدها .
(٣) عارضه الاحوذي ٩/ ٢٦٧-٢٦٨ (٤) سورة النمل آية : (٨٧) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٥٩) .

ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته . حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل[1] لدخلته حتى تقبضه " قال : سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع[2] لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون فيما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم ، حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا[3] قال و أول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله[4] ..... الحديث[5] .

فهذه النفخة المذكورة في الحديث هي نفخة الفزع ثم تأتي بعدها نفخة الصعق .

قال ابن كثير : " فلابد من مدة بين نفختي الفزع والصعق وقد ذكر في حديث الصور أنه يكون فيها أمور عظام من ذلك زلزلة الأرض وارتجاجها ، ومدانها بأهلها وتكفيها يميلون شمالا قال الله - تعالى - (إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها[6]) .

وقال تعالى (اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . اذا رجت الارض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة[7]) . وقال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد[8]) .

---

(١) (في كبد جبل) أي وسطه وداخله ، وكبد كل شئ وسطه .
(٢) (في خفة الطير وأحلام السباع) أي في سرعتهم الى الشرور وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطير ، وفي العدوان وظلم بعضهم بعضا في أخلاق السباع العادية .
(٣) الليت هو صفحة العنق ، أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا .
(٤) (يلوط حوض إبله) أي يطينه ويصلحه .
(٥) صحيح مسلم (٤ / ٢٢٥٨-٢٢٥٩) (٦) سورة الزلزلة آية : (١-٥) .
(٧) سورة الواقعة آية : (١-٧) (٨) سورة الحج آية : (١-٢) .

ولما كانت هذه النفخة أعني نفخة الفزع أول مبادئ القيامة كان اسم يوم القيامة صادقا على ذلك كله .

كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة ، وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة ، وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها[1] وهذا إنما يتجه على ماقيل في نفخة الفزع أنها الساعة لما كانت أول مبادئها " أ . هـ[2] .

وقد ثبت في الحديث في وصف أهل آخر الزمان بأنهم شرار الناس وعليهم تقوم الساعة[3] .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح (١١/٣٥٢) .

(٢) النهاية (١/١٨١) .

(٣) أنظر صحيح مسلم (٣/١٥٢٥) ، وسنن ابن ماجة (٢/١٣٤١) ، المسند للإمام أحمد رحمه الله (١/٤٠٥) .

النفخة الثانية نفخة الصعق :

وهي نفخة الموت ، وهذه هي التي فيها الهلاك لجميع الموجودين من أهل السموات ومن في الأرض من الإنس والجن والملائكة إلا من شاء الله . وقد قدمنا أن نفختي الصعق ، والبعث دلت عليهما السورة .

قال - تعالى - (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله ...) .

قال ابن جرير يقول " تعالى ذكره : ونفخ إسرافيل في القرن ..... وقوله (فصعق من في السموات ومن في الارض) يقول : مات .

وقال السدي (فصعق من في السموات ومن في الأرض) مات .(١)

وقال ابن كثير : يقول - تبارك وتعالى - مخبرا عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقوله - تعالى - (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) .

هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله " أ . هـ .(٢)

وقد اختلف أهل العلم في الذين عنى الله بالإستثناء في هذه الاية :

قال القرطبي : واختلف العلماء في المستثنى من هو ؟

فقيل : الملائكة .

وقيل : الأنبياء .

وقيل : الشهداء واختاره الحليمي قال : وهو مروي عن ابن عباس أن الإستثناء لأجل الشهداء فإن الله - تعالى - يقول (أحياء عند ربهم يرزقون)(٣) وضعف غيره من الأقوال ... وقال شيخنا أبو العباس(٤) والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل " أ . هـ .(٥)

---

(١) جامع البيان (٢٩/٢٤) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (١٠٩/٦) . (٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ .
(٤) هو أبو العباس القرطبي : أحمد بن عمر بن ابرهيم ، أبو العباس الانصاري من فقهاء المالكية ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وتوفي سنة ستو خمسين وستمائة انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣/٢١٣ ، النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧١ (٥) التذكرة (١٦٧/١ ، وانظر جامع البيان للطبري (٢٩/٢٤ - ٣١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - تعالى - :

" وأما الإستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين ، فان الجنة ليس فيها موت و متناول لغيرهم ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله فإن الله أطلق في كتابه " أ . هـ "[1] .

وقال العلامة ابن القيم : عند قوله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الارض إلا من شاء الله) فقد استثنى الله - سبحانه - بعض من في السموات و من في الارض من هذا الصعق ،

فقيل : هم الشهداء ، هذا قول أبي هريرة و ابن عباس وسعيد بن جبير ،

وقيل : هم جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل و ملك الموت وهذا قول مقاتل وغيره .

وقيل : هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم و من في النار من أهل العذاب و خزنتها قاله : أبواسحاق بن شاقلا[2] من أصحابنا ،

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين و الولدان لا يمتن عند النفخ في الصور .

وقد أخبر سبحانه - أن أهل الجنة (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى)[3] وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى ، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان ، وأما قول أهل النار (ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين)[4] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٣٦) .

(٢) هو أبواسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن بشاقلا البزار الحنبلي ، جليل القدر ، كثير الرواية حسن الكلام في الاصول و الفروع ، توفي سنة تسع وستين و ثلاثمائة هجرية ، شذرات الذهب (٣/٦٨) .

(٣) سورة الدخان آية : (٥٦) .

(٤) سورة غافر آية : (١١) .

فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهو قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم)[1]

فكانوا أمواتا وهم نطف في أصلاب آبائهم ، وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ، ثم يحييهم يوم النشور وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات ، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها ففي الحديث الصحيح أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور[2] .

فهذا صعق في موقف القيامة اذا جاء الله لفصل القضاء ، وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى (فذرهم يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون)[3]

ولو كان هذا الصعق موتا لكانت موتة أخرى[4] " وقد تفطن لهذا بعض أهل العلم فقد قال أبو عبد الله القرطبي ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الحادثة عن نفخ الصور قال : وقد قال شيخنا احمد ابن عمرو : ظاهر حديث النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية ، نفخة البعث ونص القرآن يقتضي أن ذلك الإستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ، ولما كان هذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الانبياء وهذا باطل . وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور (حين تنشق السموات والارض ،

قال فتستقل الأحاديث والآثار ، ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال : يرد هذا قوله في الحديث الصحيح : أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذا بقائمة العرش : وهذا إنما يكون عند نفخة الفزع .

---

(١) سورة البقرة آية (٢٨) .
(٢) صحيح البخاري مع الفتح (٦/ ٤٣٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، المسند (٣/ ٣٣) .
(٣) سورة الطور آية : (٤٥) .
(٤) الروح (ص ٥٠ - ٥١)

قال أبو عبد الله : وقال شيخنا احمد بن عمرو :
الذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالى أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء في الدنيا وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الانبياء وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصا بموسى وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه .... وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ فسمع الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فأما صعق غير الأنبياء فموت ، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشي ، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حي ومن غشي عليه أفاق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته : فأكون أول من يصعق فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى فإنه حصل له فيه تردد : هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقا لأنه حوسب بصعقة يوم الطور ؟ وهذه فضيلة عظيمة في حق موسى عليه السلام ولا يلزم من فضيلة أحد الأمرين المشكوك فيهما فضيلة موسى على محمد صلى الله عليه وسلم مطلقا لأن الجزئي لا يوجب الشيء أمرا كليا " أ . هـ "[1] .

وقال أبو عبد الله القرطبي : إن حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال ، وإن حمل على صعقة الموت عند نفخ الصور وصرف ذكر يوم القيامة إلى أنه أراد أوائله ، فيكون المعنى إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور[2] .

---

(١) التذكرة (ص ١٦٩) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٦٨/١) .

وقد رد هذا العلامة ابن القيم فقال : " وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه صلى الله عليه وسلم تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزى بصعقه الطور ، فالمعنى لا أدرى أصعق أم لم يصعق ، وقد قال في الحديث : فأكون أول من يفيق ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم يصعق فيمن يصعق ، وأن التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق ولو كان المراد به الصعقة الاولى وهل صعقة الموت لكان صلى الله عليه وسلم قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت ، وهذا باطل لوجوه كثيرة ، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت وحينئذ فلا تدل الاية على أن الارواح كلها تموت عند النفخة الاولى نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الاولى وكل من لم يذق الموت قبلها فانه يذوقه حينئذ وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الاية على أنه يموت موتة ثانية ، والله أعلم - ثم قال رحمه الله :

فان قيل : فكيف تصنعون بقوله في الحديث : ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الارض فأجد موسى باطشا بقائمة العرش(١) قيل لا ريب أن هذا قد ورد هكذا ومنه نشأ الاشكال ولكنه دخل على الراوي حديث في حديث فركب اللفظين فجاء هذا والحديث هكذا .

احدهما : أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق .

والثاني : هكذا : أنا أول من تنشق عنه الارض يوم القيامة ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ، ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الارض ولا فخر .

قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح(٢) .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح (١١ / ٢٦٧) ، صحيح مسلم (٤ / ١٨٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سنن الترمذي (٤ / ٢٧٠) ، سنن ابن ماجه (٢ / ١٤٤٠) واحمد في المسند ١ / ٢٨١ .

فدخل على الراوي هذا الحديث الاخر وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ[1] يقول ذلك .

فإن قيل : فما تصنعون بقوله (فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل[2] - والفريق استثناهم الله انما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة كما قال الله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله) ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة .

قيل : هذا والله أعلم غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة والمحفوظ ماتواطأت الروايات الصحيحة من قوله : (فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور[3]) فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة ، وأن موسى داخل فيمن استثنى منها ، وهذا لا يلتئم على سياق الحديث قطعا ، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث فكيف يقول " لا أدري أبعث قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ فتأمله ، وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله - سبحانه - لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فإنهم يصعقون جميعا ، وأما موسى صلى الله عليه وسلم فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا ، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضا من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة " أ . هـ .[4]

---

(١) اسمه : يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج ، محدث الديار الشامية ، مهر في اللغة ، ثم في الحديث ومعرفة رجاله وصنف كتبا منها ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال" ولد سنة أربع وخمسين وستمائة ، وتوفي سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، أنظر ترجمته في " الدرر الكامنة " (٤/٤٥٧) ، النجوم الزاهرة (١٠/٧٦ ، الأعلام (٩/٣١٣) .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ١١/٣٦٧ ، صحيح مسلم ٤/١٨٤٤ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٦/٤٣٠ السند ٣/٣٣ .

(٤) الروح لابن القيم ص ٥٢-٥٤ ، شرح الطحاوية ص ٤٦٧-٤٦٨ .

وماذكره ابن القيم من اعتبا الصعق لتجلي الله يوم القيامة محتمل وهناك احتمال آخر وهو أن هذا الصعق يكون عند النفخة الثانية ، والصعق عندها صعقان صعق موت لمن كان حينئذ على قيد الحياة في الدنيا وصعق غشي فيمن تكون حياته حياة برزخية ، وعلى هذا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره حصل له هذا الصعق ، وموسى يحتمل أن يكون حصل له هذا الصعق ويحتمل أنه لم يحصل له فيكون جوزي بصعقة الطور أو يكون ممن استثنى الله .

والذي يبدو أن الراجح في الإستثناء المذكور في الآية " أنه متناول لمن في الجنة من الحور العين إذ الجنة لا موت فيها وإنما هي دار خلود وبقاء كما أنه يتناول غيرهم وليس في الإمكان أحبذ أن يقطع بكل من استثناه الله فلا يمكننا أن نجزم بذلك فيصير هذا مثل العلم بقرب الساعة وأعيان الأنبياء وغير ذلك مما لم يرد فيه خبر عن الشارع إذ هذا الأمر لا تتم معرفته إلا عن طريق خبر الشارع وهذا اختيار - شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - تعالى -"[1] .

(وقد دلت السنة على أن هناك مدة بين نفختي الصعق والبعث .

روى الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مابين النفختين أربعون ، قالوا : أربعون شهرا ؟ قال أبيت[2] قالوا : أربعون سنة ؟ قال أبيت " ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل " قال وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب[3] الذنب[4] .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٦/٣٦) .

(٢) معناه : أبيت أن أجزم بأن المراد أربعون يوما ، أو سنة ، أو شهرا بل الذي أجزم به أنها أربعون على سبيل الاجمال .

(٣) عجب الذنب : عظيم في أصل الصلب ، وهو رأس العصعص ، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الاربع ذكره الحافظ في " هدى الساري في مقدمة فتح الباري " (ص ١٥٣) .

(٤) صحيح البخاري (٣/١٨٢ ، صحيح مسلم (٤/٢٢٧٠-٢٢٧١ واللفظ له .

فالمراد بالنفختين نفخة الصعق و نفخة القيام للبعث والنشور ، ويؤيد ذلك إنزال الماء بينهما وذكر عجب الذنب الذي منه يخلق الإنسان وفيه يركب خلقه عند بعثه يوم القيامة (١) .

النفخة الثالثة : نفخة البعث :

وهذه النفخة هي نفخة البعث والنشور والقيام لرب العالمين دل عليها من السورة قوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

قال السدي : " (ثم نفخ فيه أخرى) قال : في الصور وهي نفخة البعث .

وقال قتادة : (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) قال نبي الله : بين النفختين أربعون قال : قال أصحابه فما سألناه عن ذلك ولا زادنا على ذلك / غير أنهم كانوا يرون من رأيهم أنها أربعون سنة ،

وذكر لنا أنه يبعث في تلك الأربعين مطر يقال له : مطر الحياة حتى تطيب الأرض وتهتز وتنبت أجساد الناس نبات البقل (٢) ،

قال ابن كثير : " ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث قال الله - عز وجل - (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) أي : أحيا بعد ما كانوا عظاما ورفاتا صاروا احياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة " أ.هـ (٣) .

وهذه النفخة التي هي نفخة البعث جاءت فيها آيات كثيرة .

قال تعالى (يوم ينفخ في الصور فتأتون افواجا) (٤) .

وقال تعالى (فإنما هي زجرة واحدة) (٥)

وقال تعالى (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون) (٦) .

---

(١) النهاية لابن كثير ١/ظ (٢) جمع البيان ٢٤/ ٣١ (٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١١٠ .
(٤) سورة النبأ آية : (١٨) . (٥) سورة النازعات آية (١٣) .
(٦) سورة يس آية : (٥١ - ٥٣) .

وقال تعالى : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون)[1] .

وقال تعالى (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير)[2] .

وقال تعالى (واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج)[3] .

وقد اختلف العلماء في عدد النفخات في الصور هل هي ثلاث نفخات أم نفختان فقط ؟ .

فمنهم من قال : إنها ثلاث نفخات كما قدمنا ذكرها .

ومنهم من قال : إنها نفختان فقط ، واعتبروا نفخة الفزع هي نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لها أي : فزعوا فزعا ماتوا منه وهذا اختيار القرطبي وغيره من بعض المفسرين[4] والراجح أنها ثلاث نفخات كما قدمنا ذكرها وقد تقدم قول ابن كثير وأبي بكر بن العربي أنها ثلاث نفخات ، وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فإنه قال : والقرآن قد أخبر بثلاث نفخات نفخة الفزع ، ذكرها في سورة النمل في قوله تعالى (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله)[5] .

ونفخة الصعق والقيام ذكرهما في قوله (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)[6] .

وقال السفاريني : " واعلم أن النفخ في الصور ثلاث نفخات ، نفخة الفزع وهي التي يتغير بها هذا العالم ، ويفسد نظامه وهي المشار إليها في قوله تعالى (وما ينظرون هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق)[7] أي رجوع ومرد .

النفخة الثانية : نفخة الصعق وفيها هلاك كل شيء .

النفخة الثالث : نفخة البعث والنشور (. أ.هـ)[8] .

فالنفخات الثلاث كلها نص عليها القرآن وعينها ، ومن هنا يتعين أن القول الراجح في عدد النفخات أنها ثلاث نفخات .

---

(١) سورة الروم آية (٢٥) . (٢) سورة المدثر آية (٨-٩) .
(٣) سورة ق آية (٤١-٤٢) . (٤) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٨ ، تفسير البغوي على حاشية تفسير الخازن ٥ / ١٣١ ، تفسير الألوسي المسمى روح المعاني ٢٠ / ٣١ .
(٥) الآية رقم (٨٧) . (٦) مجموع الفتاوى (١٦ / ٣٥-٣٦ .
(٧) سورة (ص) آية (١٥) .
(٨) لوامع الأنوار ٢ / ١٦١-١٦٤ .

* المبحث الثاني *

بعث الموتى من قبورهم .

. قبل أن نذكر ماجاء في سورة " الزمر " من الدلالة على بعث الموتى من قبورهم ، وأن البعث يكون لهذا الجسد بعينه نذكر تعريف البعث في اللغة والشرع .

أما تعريف البعث في اللغة : فإنه يختلف بحسب ماعلق به فالبعث يطلق ويراد به المعاني الآتية :-

(١) الإرسال : يقال بعثت فلانا ، أو ابتعثه أي : أرسله .

(٢) البعث من النوم : يقال بعثه من منامه إذا أيقظه .

(٣) الإثارة : وهو أصل البعث ومنه قيل للناقة بعثتها إذا .... أثرتها وكانت قبل باركة[1] .

وجاء في القاموس : " بعثه كمنعه أرسله كابتعثه فانبعث والناقة أثارها ، وفلانا من منامه أهبه .... وتبعث مني الشعر انبعث كأنه سال[2] .

وجاء في تهذيب اللغة : " قال الليث : بعثت البعير إذا فانبعث اذا حللت عقاله وأرسلته لو كان باركا فأثرته ، والبعث في كلام العرب على وجهين :

أحدهما : الإرسال كقول الله تعالى (ثم بعثنا من بعدهم موسى)[3] معناه : أرسلناه .

الثاني : والبعث أيضا : الإحياء من الله للموتى ومنه قوله - جل وعلا - (ثم بعثناكم من بعد موتكم)[4] أي : أحييناكم[5] .

---

(١) الصحاح للجوهري ١/ ٣٧٢ ، لسان العرب (٢: ١١٦-١١٨

(٢) القاموس (١/ ١٦٨) .

(٣) سورة الاعراف آية : (١٠٣) .

(٤) سورة البقرة أية (٥٦) .

(٥) تهذيب اللغة (٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥) ، المفردات في غريب القرآن (ص ٥٢ - ٥٣) .

وأما تعريف البعث في الشرع :

فيراد به " إحياء الله - تعالى - الأموات وإخراجهم من قبورهم ، وهم أحياء للحساب وللجزاء كما ذكر الله - تعالى - (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر)[1] وقال تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون)[2] .

وقال العلامة ابن كثير : " البعث وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة "[3] .

وقال أبوهلال[4] العسكري : " بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف ومنه قوله - تعالى - (من بعثنا من مرقدنا)[5] .

وجاء في لوامع الأنوار : " البعث فالمراد به المعاد الجسماني فانه المتبادر عند الاطلاق اذ هو الذي يجب اعتقاده يكفر منكره "[6] .

والحاصل أن البعث : هو أن يعيد الله - تعالى - الإنسان بروحه وجسده كما كان في الحياة الدنيا ، وهذا كائن عند ما تتعلق إرادة - الرب جل وعلا - بذلك فيخرج الخلق جميعهم من قبورهم ، وهم حفاة عراة غرل بهم ويساقون إلى أرض الموقف لينال كل إنسان مايستحقه من الجزاء العادل وفق ماعمل في حياته الدنيا .

---

(١) سورة القمر آية (٧) .
(٢) سورة المعارج آية (٤٣) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٦١٤) .
(٤) هو : الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى ابن مهران العسكري أبوهلال من علماء الأدب ، توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة هجرية ، أنظر ترجمته في " خزانة الأدب " للبغدادي (١/ ١١٢) ، معجم البلدان (٥/ ١٢٤) الأعلام (٢/ ٢١١ - ٢١٢) .
(٥) كتاب الفروق (ص ٢٨٤) والآية رقم (٥٢) من سورة يس .
(٦) ٢/ ١٥٧ .

وعند المقارنة بين المعنى الشرعي لكلمة " البعث " والمعنى اللغوى نجد ترابطا وثيقا إذ من معاني " البعث " في اللغة التحريك والإثارة لما كان ساكنا قبل ذلك ، وكذلك الإرسال كما في قوله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله)[1] .

فالمعنى الشرعي : هو أن يرسل الله - تعالى - الحياة إلى الأموات ويثيرها من جديد لتتمكن من المراد منها وهو الإسراع من الأجداث الى موقف الحساب . وقد دلت سورة " الزمر " على أن من الإيمان باليوم الآخر : الإيمان ببعث هذه الأجساد الدنيوية وإعادتها بعينها روحا وجسدا قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

قال القرطبي : (فإذا هم قيام ينظرون) أي فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم ، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون به وقيل : قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به ، وقيل النظر بمعنى الإنتظار أى : ينتظرون مايفعل بهم " أ.هـ[2] .

وقال العلامة ابن جرير : (فإذا هم قيام ينظرون) يقول : فإذا من صعق عند النفخة التي قبلها وغيرهم من جميع خلق الله الذين كانوا أمواتا قبل ذلك قيام من قبورهم وأماكنهم من الأرض أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ينظرون أمر الله فيهم " أ.هـ[3] .

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى (فإذا هم قيام ينظرون) يعني : الخلق كلهم قيام على أرجلهم ينظرون مايقال لهم ،أو ينتظرون ذلك " أ.هـ[4] .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى : عند قوله تعالى (فإذا هم قيام ينظرون) أي : قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح ، وشخصت أبصارهم " أ.هـ[5] .

---

(١) سورة النحل آية : (٣٦)
(٢) الجامع لاحكام القرآن ١٥ / ٢٨١ ، المعاني ١٤ / ٢٠٨-٢٠٩ .
(٣) جامع البيان (٢٤ / ٣٢) (٤) فتح القدير ٤ / ٤٧٥-٤٧٦ .
(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨ / ٤٤) .

ومن كلام أهل العلم الذي تقدم لبيان معنى قوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) [illegible] .

من سورة الزمريتين وجه دلالتها على أن المبعوث هو الأجساد الدنيوية وليست أجسادا أخرى .

وقد اختلف الناس هل المبعوث هو الجسد الأول بعينه أو غيره ؟

ذكر شارح المواقف عن الحليمي والغزالي[1] والراغب ومعمر من المعتزلة وبعض الإمامية والصوفية أنهم قالوا : " الانسان بالحقيقة هو النفس الناطقة وهي المكلف والمطيع والعاصي والمثاب والمعاقب والبدن يجري منها مجرى الآلة والنفس باقية بعد فساد البدن فإذا أراد الله تعالى حشر أجساد الخلائق خلق لكل واحد بدنا من الارواح تتعلق به الروح وتتصرف فيه كما كان في الدنيا"[2] وهذا مذهب فاسد كما سنبين قريبا فساده من حيث أنه مخالف للكتاب والسنة في بيانهما صفة الإعادة بعد الموت .

ثانيا : مذهب السلف في صفة الإعادة :

قال شارح الطحاوية " القول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال ، فتستحيل ترابا ، ثم ينشئها الله نشأة أخرى ، كما استحال في النشأة الأولى ، فإنه كان نطفة ، ثم صار علقة ، ثم صار مضغة ، ثم صار عظاما ولحما ، ثم أنشأه الله خلقا سويا ، كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم وفيه يركب"[3] .

---

(١) الغزالي له قول آخر " وهو القول بإعادة الجسد الأول بعينه " أنظر كتابه الإقتصاد في [illegible] الإعتقاد " (ص ١٨٠ - ١٨٢) .

(٢) المواقف بشرح الجرجاني (٨ / ٢٨٩) ، وانظر " كتاب محمد عبده " بين الفلاسفة والمتكلمين (٢/٦٠٧) ومابعدها تحقيق سليمان دنيا .

(٣) صحيح البخاري (٣/١٨٢) ، صحيح مسلم (٤/٢٢٧٠-٢٢٧١.

فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه ، والمعاد هو الأول بعينه ، وإن كان بين لوازم البداءة فرق ، فعجب الذنب هو الذي يبقى ، وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها ، ومعلوم أن من رأى شخصا وهو صغير ، ثم رآه وقد صار شيخا علم أن هذا هو ذاك مع أنه دائما في تحلل واستحالة ، وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن رأى شجرة وهي صغيرة ثم رآها كبيرة قال هذه تلك : ، ثم قال " وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال : إن الصفات هي المغيرة لاسيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة آدم طوله ستون ذراعا كما ثبت في الصحيحين وغيرهما وروى أن عرضه سبعة أذرع ، وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات ، وهذه نشأة فانية معرضة للآفات "(١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية " لقد اضطرب علماء في المعاد ، ومعرفة المعاد مبنية على المبدأ ، والبعث مبني على الخلق فقال بعضهم : هو تفريق تلك الأجزاء ، ثم جمعها وهي باقية بأعيانها .

وقال بعضهم : بل يعدمها ويعدم الأعراض القائمة بها ، ثم يعيدها ، وإذا أعادهما فإنه يعيد تلك الجواهر التي كانت باقية إلى أن انفصلت في هذا الإنسان .

ولهذا اضطربوا لما قيل لهم فالإنسان إذا أكله حيوان آخر فإن أعيدت تلك الجواهر من الأول نقصت من الثاني وبالعكس ، أما على قول من يقول : إنها تفرق ، ثم تجمع فقيل له : تلك الجواهر إن جمعت للآكل نقصت من المأكول ، وإن أعيدت للمأكول نقصت من الآكل .

وأما الذي يقول : تعدم ثم تعاد بأعيانها فقيل له أتعدم لما أكلها أم قبل أن يأكلها ؟ .

فإن كان بعد أن أكلها فإنها تعاد في الآكل فينقص المأكول ، وإن كان قبل الأكل ، فالآكل لم يأكل جواهر فهذه مكابرة وبعد أن أورد هذه الشبهة التي أبطلت كلا الرأيين لعلماء الكلام قرر ما هو الحق في المسألة فقال :

" والمشهور أن الإنسان يبلى ويصير ترابا كما خلق من تراب ، وبذلك أخبر الله ، فإن قيل : إنه إذا صار ترابا عدمت الجواهر ، فهو لما خلق من تراب عدم .

---

(١) شرح الطحاوية (ص ٤٦٣-٤٦٤) ، وانظر (مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٧/ ٢٤٨) .

... عدمت أيضا : تلك الجواهر ، فجعل الجواهر باقية في جميع الإستحالات إلا اذا صار ترابا تناقض بين و يلزمهم عليه الحيوان المأكول وغير ذلك) . أ.هـ (١) .

و قال العلامة ابن القيم " وأما ماخلقه - سبحانه - فإنه أوجده لحكمة في إيجاده فإذا اقتضت حكمته إعدامه جعلة أعدمه ، وأحدث بدله ، وإذا اقتضت حكمته تبديله و تغييره و تحويله من صورة إلى صورة بدله وغيره ولم يعدمه جملة .

و من فيهم هذا افهم مسألة المعاد ، و ماجاءت به الرسل فيه فإن القرآن و السنة إنما دلا على تغيير العالم و تحويله و تبديله لا جعله عدما محضا ، وإعدامه بالكلية ، فدل على تبديل الأرض غير الأرض و السموات و على تشقق السماء و انفطارها و تكوير الشمس و انتشار الكواكب وسجر البحار وإنزال المطر على أجزاء بدن آدم المختلطة بالتراب فينبتون كما تنبت النبات و ترد تلك الأرواح بعينها إلى تلك الأجساد التي أحيلت ، ثم أنشئت نشأة أخرى .... إلى أن قال : " قد أخبر الله - سبحانه أنه يحي العظام بعد ماصارت رميما ، وأنه قد علم ما ينقص الأرض من لحوم بني آدم و عظامهم فيرد ذلك إليهم عند النشأة الثانية وأنه ينشئ تلك الأجساد بعينها بعد مابليت نشأة أخرى و يرد إليها تلك الأرواح (٢) .

وإذا نظرنا إلى آيات القرآن الكريم و أحاديث السنة نجد أنها تبين بطلان مذهب علماء الكلام في صفة الإعادة و تؤيد مذهب السلف في أن المبعثون هو الجسد الأول بعينه لا غيره للأدلة الآتية :-

أولا : إن الآيات القرآنية التي جاءت لمناقشة المنكرين للبعث جاءت نصا في بيان أن أجساد بني آدم الدنيوية هي التي تعاد بأعيانها ، ولذلك كان المنكرون للبعث يستبعدون إعادة أجسادهم بعد أن أصبحت عظاما بالية ، و أشلاء متفرقة في التراب ، و متصورة بصورته كما قال تعالى حكاية (أيعدكم أنكم إذا متم و كنتم ترابا و عظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون (٣)) .

---

(١) النبوات (ص ٨٢ - ٨٣) ، وانظر مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٤٦-٢٤٧) .
(٢) مفتاح السعادة (٢/ ٣٤-٣٥) .
(٣) سورة المؤمنون آية : (٣٤ - ٣٥) .

وقال تعالى (قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظما أئنا لمدينون)[1] .

وقال تعالى (وقالوا أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد)[2] .

أنكر الله عليهم هذا الإستبعاد ، ورد على جميع شبههم وبين إمكان البعث وثبوت وقوعه بمثل قوله تعالى (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا)[3] .

ومثل قوله تعالى (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)[4] ،

وقوله عز وجل - (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ)[5] .

فقد بين تعالى دليل الإمكان بخلقهم الأول ، وبين ثبوت وقوعه بدليل كمال قدرته وسعة علمه وذلك مما يؤيد القول ببعث الجسد الأول بعينه .

ثانيا : مما يؤكد أن المعاد هو عين الجسد الأول لا غيره قوله تعالى (ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون)[6] .

فهذه الآيات بين الله تعالى فيها أن جوارح الإنسان التي اقترفت الذنوب والآثام هي التي تشهد على صاحبها يوم القيامة بأنه فعل كذا وكذا ولو لم تكن هذه الجوارح هي عين جوارح الإنسان التي كانت في الدنيا لما قبلت شهادتها ولا اعتذرت من الله حين استنطقها وقالت يا ألله أنت الحكم العدل لا تظلم أحدا من خلقك فلا تظلمنا بما نعمله ، أو نشاهده ولا علم عنه شيئا .

---

(١) سورة الصافات آية : (٥١ - ٥٣) .
(٢) سورة السجدة آية : (١٠) .
(٣) سورة الاسراء آية : ٥٠-٥١ .
(٤) سورة يس آية : ٧٩ .
(٥) سورة ق آية : ٤ .
(٦) سورة فصلت آية : ١٩-٢٢ .

ولكن لم يحصل شيء من هذا الإعتذار ، وإنما نطقت وأخبرت بما فعل صاحبها ، فعلم يقينا أنها عين الجسد الأول .

وفي صحيح مسلم من حديث أنس ابن مالك قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : هل تدرون مم أضحك قلنا : الله ورسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربه يقول : يارب ألم تجرني من الظلم قال : بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال : يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال : فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي . قال فتنطق بأعماله قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام قال : فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ثم يقال : (الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه أنطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه)[1] .

وإذا كانت أركان الإنسان وسمعه وبصره وجلده ولحمه وعظمه هي التي تتكلم فهل يبقى شك في أن المعاد هو عين الجسد الأول ، لاشك أنه لا يبقى أي ريب في قلب المسلم الذي يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد أفصح القرآن جهرة الإفصاح عن معاد الأبدان الدنيوية قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)[2] وقال تعالى (والله أنبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا)[3] .

وقال تعالى (ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ)[4] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٨/١٠٤ - ١٠٥) .
(٢) سورة طه آية : (٥٥) .
(٣) سورة نوح آية : (١٦ - ١٧) .
(٤) سورة (ق) آية : (١ - ٤) .

فهذه الآيات القرآنية تنص على أن الخلق يعودون من التراب الذي منه خلقوا ، وتشير إلى أدلة الإمكان على ذلك المتمثلة في كمال قدرته - سبحانه - وسعة علمه - جل وعلا -

وقال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)[1] .

وقوله - سبحانه - (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه)[2] وقوله سبحانه (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد)[3] وغيرها من الآيات التي تعرض شبه المنكرين للبعث المتمثلة في استبعادهم لإعادة أبدانهم التي مزقها البلى وأكلتها الأرض وأصبحت رميما . كلها دلت على أن الإعادة أمر سهل وميسور على الله الذي خلق الإنسان ولم يك شيئا مذكورا الذي يعلم ما أكلته الأرض وما أبقته لكمال علمه وسعة إحاطته بكل شيء ، وأنه تعالى قادر على أن يجمع العظام ويسوي البنان التي هي أدق عضو ومفصل في الإنسان .

وقد أخبرنا تعالى أنه كما خلقنا يعيدنا قال تعالى (كما بدأكم تعودون)[4] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : قال الحسن البصري ومجاهد : كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة .

وقال قتادة : " بدأهم من التراب وإلى التراب يعودون كما قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى)[5] وقال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون)[6] .

---

(١) سورة يس آية : (٧٨ - ٧٩)
(٢) سورة القيامة آية : (٣) .
(٣) سورة سبأ آية : (٧) .
(٤) سورة الأعراف آية : (٢٩) .
(٥) سورة طه آية : (٥٥) .
(٦) أنظر مجموع الفتاوى : ١٧/ ٢٤٩ - ٢٥٠ والآية رقم (٢٥) من سورة الأعراف .

وأما الاحاديث النبوية : فمثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه " مابين النفختين أربعون قالوا يا أباهريرة أربعون يوما ؟ قال أبيت . قالوا أربعون شهرا ؟ قال أبيت قالوا : أربعون سنة قال أبيت ، ثم ينزل الله من السماء ماءا فينبتون كما ينبت البقل قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة .

وفي رواية أخرى " كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب " ، وفي رواية أخرى : " إن في الإنسان عظما واحدا لا تأكله الارض أبدا فيه يركب الخلق يوم القيامة قالوا : أي عظم هو يارسول الله ؟ قال عجب الذنب "[1] .

فإذا نظرنا إلى هذه الأحاديث النبوية نراها تقرر في وضوح إعادة الجسد الأول من التراب الذي استحال إليه وأن الأرض تأكل ابن آدم إلا عجب الذنب ، وأما بقية الجسد فإنه يفنى ويضل فيها والله - سبحانه - وتعالى بقدرته يتولى خلقه الثاني فيحيي تلك الأجساد الميته فيؤلف خلقها ويكمل صورتها بما ينزله على الأرض من الماء الذي ينزل عليها كأنه الطل[2] حتى إذا اكتملت الصورة وتم الخلق أذن لهم بالخروج بنفخة البعث فخرج الناس من قبورهم وكأنهم أحياء كأنهم إلى نصب يوفضون وتلك ساعة الحشر إلى الله التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله من حديث عائشة رضي الله عنها " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا[3] "[4] .

وقد أخبر تعالى في كتابه أنه هو الذي يتولى النشأ الاخرة قال تعالى (وأن عليه النشأة الاخرى)[5] .

وقال تعالى (ثم الله ينشئ النشأة الاخرة)[6] .

وقال تعالى (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون)[7] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٨ / ٩١ - ٩٢) .
(٢) أنظر صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (٤ / ٢٢٥٨-٢٢٥٩ .
(٣) أي : غير مختونين .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧ / ١٩٢-١٩٣ .
(٥) سورة النجم آية : ٤٧ .
(٦) سورة العنكبوت آية : ٢٠ .
(٧) سورة الواقعة آية : ٦٠-٦١ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال الحسن بن الفضل البجلي الذي عندي في هذه الآية يعني قوله تعالى (وننشئكم فيما لا تعلمون) أي أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت ، وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات وليست الأخرى كذلك .

قال شيخ الإسلام : " ومعلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة من مني الرجل ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، وتلك النطفة من مني الرجل والمرأة وهو يغذيه بدم الطمث الذي يربي الله به الجنين في ظلمات ثلاث : ظلمة المشيمة ، وظلمة الرحم وظلمة البطن ، والنشأة الثانية : لا يكونون في بطن امرأة ولا يغذون بدم ولا يكون أحدهم نطفة رجل وامرأة ، ثم يصيرون علقة ، بل ينشئون نشأة أخرى وتكون المادة من التراب " أ.هـ[1] .

والذي نخلص إليه مما تقدم أن صفة الإعادة هي كما قررها السلف الصالح من أن الأجساد تتقلب من حال إلى حال ، فتستحيل ترابا ، ثم يعيدها الله مما استحالت إليه ، فينشئ لحمها وعظامها ويبعث فيها الحياة مرة ثانية ، بحيث يكون المعاد هو الجسد الأول بعينه بعد رجوع روحه إليه وذلك أمر ممكن عقلا وواقع شرعا إذ هو الذي نشاهده في خلق الله تعالى ، فإنه - سبحانه - يخلق الجسم من الجسم ، كما يخلق الإنسان من الماء المهين ويخلق من الماء المهين علقة ، ثم يخلق من العلقة مضغة ، ثم يخلق من المضغة عظاما ، ثم يكسو العظام لحما ، ثم يسويه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، وكذلك خلق الشجر فإنه - سبحانه - يقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة ، والهواء ، والماء الذي ينزل عليها وكذلك الحب يفلقه ، ويقلب المواد التي يخلقها منه إلى سنبلة ، ثم إلى ثمرة جديدة ، وكذلك الإعادة ، فالأجساد تبلى ، وتستحيل الى التراب والله يعيدها مما استحالت إليه كما قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نخرجكم تارة اخرى[2]) قال القرطبي مبينا مذهب أهل السنة في صفة الاعادة " ومذهب أهل السنة والجماعة أن أجساد بني آدم الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها بلا خلاف بينهم حتى أن بعضهم قال : (بأوصافها فيعاد الوصف أيضا : كما يعاد الجسم واللون]" أ.هـ[3] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٢٥٢ - ٢٥٣) .
(٢) سورة طه آية : (٥٥) . (٣) التذكرة (ص ١٨٢) .

((المبحث الثالث))
عناية القرآن باثبات البعث

لقد سلك القرآن الكريم في استدلاله على امكان البعث بعد الموت وتحقق وقوعه مسلكا قويما جمع بين ما فطرت عليه النفوس من الايمان بما تشاهد وتحس ، وبين ما تقرره العقول السليمة ، ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة ، وتلك طريقة تفرد بها القرآن الكريم :

وكان منهج القرآن الكريم في استدلاله على البعث كما يلي :-

أولا : الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم ، كما أخبر تعالى عن ذلك ومنهم :-

١) قوم موسى قال تعالى : (واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون)(١) .

وقيل : ان الذين أخذتهم الصاعقة هم السبعون الذين اختارهم موسى لذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله -تعالى- قالوا : له بعد ذلك (لن نؤمن لك) والايمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم ، فأرسل الله اليهم نارا من السماء فأحرقتهم ثم دعا موسى ربه فأحياهم كما قال تعالى (ثم بعثناكم من بعد موتكم)(٢) .

٢) المضروب ببعضو من أعضاء البقرة كما قال تعالى (واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون)(٣) . قيل : ان المقتول ضرب بعضو من أعضاء تلك البقرة التي أمرهم الله أن يذبحوها كما قال موسى لهم (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة)(٤) فلما ضرب به حي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان(٥) .

٣) الذين أخبر الله عنهم بقوله -تعالى- (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)(٦) وهؤلاء قوم من بني اسرائيل وقع فيهم الوباء ففروا هاربين . قال ابن عباس : " كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون وقالوا نأتي أرضا ليس بها موت فأماتهم الله -تعالى- فمر بهم نبي فدعا الله فأحياهم "(٧) .

---

(١) سورة البقرة آية ٥٥-٥٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٠٣ .
(٣) سورة البقرة آية ٧٢-٧٣
(٤) سورة البقرة آية ٦٧
(٥) تفسير القرطبي ١/ ٤٥٧
(٦) سورة البقرة آية / ٢٤٣ .
(٧) تفسير القرطبي ٣/ ٢٣٠ .

٤) (الذى مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه اللـــه بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يومـــا أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آيه للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير)[١].

والذى مر على القرية هو "عزير" عليه السلام . قال ابن كثير في تفسيره : "وهذا هو القول المشهور" والقرية المشهورة هي بيت المقدس مر عليها عزير بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها"[٢].

٥) سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى قال تعالى : (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعه من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم)[٣].

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام هذا أسبابـــا منها : أنه لما قال لنمرود (ربي الذي يحيي ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة[٤] ولم يكـــن إبراهيم عليه السلام بسؤاله ذلك شاكا في قدرة الله ـ تعالى ـ قطعا .

٦) ما أخبر الله به عن عيسى عليه السلام من أنه كان يحي الموتى بإذن الله كما قال تعالى : (ورسولا إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن اللـــه وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله)[٥].

---

(١) سورة البقرة آيه / ٢٥٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٥٨ .
(٣) سورة البقرة آيه / ٢٦٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٥٩ .
(٥) آل عمران آيه / ٤٩ .

٧) ما أخبر الله به من قصة أهل الكهف من أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ثم بعثهم الله بعد هذه المدة الطويلة .

وهذه الأدلة التي قدمناها أدلة مادية حسية وقعت كلها لتدل على إحياء الموتى بعد مماتهم ،وهذا برهان قطعي على القدرة الإلهية ، وقد أخبر الله ورسله عن وقوع البعث والحشر فوجب القطع بذلك لأنه أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته فالآيات المتقدمة فيها دلالات واضحات على قدرة الله ـ تعالى ـ في إحياء الموتى .

ثانيا : الإستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية :ـ

١ ـ قال تعالى (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من ترابثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ليكلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)(١) .

هذه الآيات الثلاث تضمنت دليلين على إمكان البعث :

أحدهما : دليل في الأنفس وهو ما اشتمل عليه صدر الآية وهو متعلق بالنشأة الأولى .

الثاني : دليل آفاقي وهو ما اشتمل عليه قوله تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وهو الإستدلال بخلق النبات على إمكان البعث وسيأتي .

---

(١) سورة الحج آيه / ٥-٧ .

قال العلامة ابن القيم : شارحا قوله - تعالى - (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب) الآية [١] .

" يقول - سبحانه - ان كنتم في ريب من البعث فلستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت ، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى فهما نظيران في الإمكان والوقوع فإعادتكم بعد الموت خلقا جديدا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها " أ.هـ [٢] .

٢ - قال تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) [٣] .

قال شيخ الإسلام : فإن قول الله تعالى (من يحيي العظام وهي رميم) قياس حذفت إحدى مقدمتيه لظهورها ، والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم ، فإن كونها رميما يمنع عنده إحياءها لصيرورها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة ، ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ولنحو ذلك من الشبهات ، والتقدير : هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها ، ولكن هذه السالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء ، فبين - سبحانه - إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال : (يحييها الذي أنشأها أول مرة) وقد أنشأها من التراب ثم قال :

---

(١) سورة الحج آية / ٥ . (٢) اعلام الموقعين ١/ ١٤٢ .

(٣) سورة " يس " آية / ٧٨ - ٧٩ .

(وهو بكل خلق عليم) ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء أو استحال[1] اهـ .

٣) قال تعالى : (وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا[2]) .

هذه الآيات تقرر بأن شبهات المنكرين للبعث تكاد تكون متجانسة لأنها تدور حول استبعاد جمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة الحياة إليها بعد فنائها وهذه الشبهة لا تكون إلا بالقدح في كمال علم الله - جل وعلا - المحيط بكل شيء ، وكمال قدرته على كل شيء ، وقد قام البرهان على كمال العلم والقدرة لله - تعالى - فلا وجه للإستبعاد والإستغراب بعد ذلك وفي قوله تعالى (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم) يعني به أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حالة كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادتكم حتى لو تحولتم إلى حجارة أو حديد فالله قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى من أن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمة وبين قبول الحياة وذلك أن العظم قد كان جزءا من بدن الحي أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة .

قال شارح الطحاوية : " فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فإنهم قالوا أولا : (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا)[3] . فقيل لهم في جواب هذا السؤال : إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣٣ .
(٢) سورة الاسراء آية / ٤٩ - ٥١ .
(٣) سورة الاسراء آية / ٤٩ .

وماهو أكبر في صدوركم من ذلك ؟ فإن قلتم : كنا خلقا على هذه الصفة التي لاتقبل البقاء فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقا جديدا ؟ وللحجة تقرير آخر وهو : لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم ، وينقلها من حال إلى حال ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها ؟ ثم أخبر أنهم يسألون آخر بقولهم : من يعيدنا إذا استحالت جسومنا وفنيت ؟ فأجابهم بقوله : (قل الذي فطركم أول مرة)(١) فلما أخذتهم الحجة ، ولزمتهم حكمها ، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به تعلل المنقطع ، وهو قولهم : متى هو ؟ فأجيبوا بقوله : (عسى أن يكون قريبا)(٢) .

ثالثا : الإستدلال على إمكان البعث بخلق ماهو أعظم منه مثل السموات والأرض والجبال والأنهار والبحار فإن خلقها أعظم من خلق الإنسان ومن الآيات الدالة على ذلك مايلي :-

١) قال تعالى (وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه)(٣) .

٢) قال تعالى (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)(٤) .

٣) وقال تعالى (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير)(٥) .

---

(١) سورة الاسراء آيه / ٥١ .
(٢) شرح الطحاوية ص ٤٥٩-٤٦٠ .
(٣) سورة الاسراء آيه / ٩٨-٩٩ .
(٤) سورة يس آيه / ٨١ .
(٥) سورة الأحقاف آيه / ٣٣ .

فهذه الآيات جميعها أكبر برهان على قدرة الله المطلقة التي لا تقيد بقيود ، ولا تنتهي عند حدود فإن تلك الآيات الكونية مما هو معروف ببداهة العقول أن خلقها أعظم من إعادة خلق الإنسان .

قال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس)(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ تعالى ـ " فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك " أ.هـ.(٢)

فالآيات المتقدمة فيها التنبيه على إمكان البعث بأمر مشاهد أمام الأنظار وهو خلق السموات والأرض ألم ير أولئك المكذبون أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير فالذي يصنع الأمر العظيم لا يعسر عليه أن يصنع الأمر اليسير ، وما نسبة خلق الإنسان مرة أخرى بالنسبة لخلق السموات والأرض ، فالله ـ تعالى ـ له القدرة المطلقة على كل شيء وإذا أراد شيئا إنما يقول له كن فيكون .

رابعا : الإستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة وتحول الأرض من هيأة إلى هيئة ومن الآيات الدالة على ذلك ما يلي :ـ

(١) قال تعالى (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون)(٣) .

---

(١) سورة غافر آية / ٥٧ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/٣٢ .

(٣) سورة الأعراف آية / ٥٧ .

٢) وقال تعالى (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور)[١] .

٣) وقال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير)[٢] .

ففي هذه الآيات السابقة استدلال واضح بتبدل أحوال النباتات من حياة إلى موت ، فحياة وسلب خاصّيّة النشوء والنماء في بعض النباتات فتهمد وتتفتت ، ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك الخاصية فلو كان مستحيلا إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى ، ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين للبعث إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والإستقرار .

وإحياء الأرض بعد موتها بالنبات من الأمور الحسية للمشاهدة أرض أصابها الجدب فإذا بأشجارها تيبس بعد نضارتها وإذا بتلك الأرض هامدة خاشعة مستكينة قد مات منها كل شيء فيريد الله إحياءها فتنزل عليها الأمطار فإذا بها تظهر بمظهر آخر مخضرة بالزهور على أشكال شتى أفيعجز من أعاد الحياة الى هذه الارض الميتة والاشجار اليابسة أن يعيد الى الإنسان حياته مرة أخرى لمجازاته على ماعمل في هذه الحياة الدنيا ؟ بلى إنه على كل شيء قدير .

قال ابن كثير عند قوله تعالى (وترى الأرض هامدة)[٣] " هذا دليل آخر على قدرته - تعالى - على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء . . . (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

---

(١) سورة فاطر آية / ٩ .
(٢) سورة فصلت آية / ٣٩ .
(٣) سورة الحج آية / ٥ .

وأنبتت من كل زوج بهيج) أي : فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت أي : تحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربت أي : ارتفعت ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ولهذا قال تعالى : (وأنبتت من كل زوج بهيج) أي : حسن المنظر طيب الريح "أ.هـ"(١).

خامسا : الإستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر ، والآيات الدالة على ذلك ما يلي :-

١) قال تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون)(٢).

٢) قال تعالى (أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون)(٣).

إن الذي قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غضا طريا ثم تحول إلى يابس(٤).

تلك هي بعض الدلائل الواضحة ،والبراهين الساطعة التي استعطها القرآن لإثبات الإيمان باليوم الآخر والمسالك التي استعطها القرآن لإثبات ذلك اليوم كثيرة جدا ،ويكفينا منها في مقامنا هذا تلك الإستدلالات الخمسة المتقدمة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦١٧ .

(٢) سورة " يس "آية / ٨٠ .

(٣) سورة الواقعة آية / ٧١ - ٧٢ .

(٤) هذه الطرق التي استعطها القرآن لإثبات البعث بعد الموت أشار إليها بإيجاز شيخ الاسلام ابن تيمية .
انظر " مجموع الفتاوى" ٩/ ٢٢٤ - ٢٢٥ .
وانظر النهاية لابن كثير ١/ ١٦٥-١٦٨ .

ـ المبحث الرابع ـ

أرض المحشـــــــــر

لقد دلت السورة على أن هناك أرضا أخرى يحشر الخلائق عليها ، وتلك الأرض هي أرض المحشر .

قال تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها) الآيه .

فالمراد بالأرض المذكورة في هذه الآية هي أرض المحشر فقد أخبـــــر ـ تعالى ـ في هذه الآيه الكريمة بأن أرض المحشر ستضيء بنوره ـ سبحانه ـ وهو نور غير نور الشمس والقمر ، وهو نور حق يقي صفة لذاته المقدسة يليـــق بجلاله ـ تعالى ـ ، ويمكن أن تشمل هذه الآيه مع النور الحقيقي النـــور المعنوي وهو عدل ـ الرب سبحانه ـ الذي لا جور فيه ولا ظلم لأنه ـ تعالى ـ الحكم العدل .

قال الإمام البغوي : (وأشرقت الأرض) أضاءت (بنور ربها) بنـــور خالقها ، وذلك حين يتجلى ـ الرب ـ لفصل القضاء بين خلقه فما يتضادون في نوره ، كما لا يتضادون في الشمس في اليوم الصحو .

وقال الحسن والسدي : بعدل ربها وأراد بالأرض عرصات القيامة أ.هـ.(١)

وقال العلامة ابن جرير : (وأشرقت الأرض بنور ربها) . ل

يقول تعالى ذكره : فأضاءت الأرض بنور ربها يقال : أشرقت الشـــمس : إذا صفت وأضاءت .

قال قتادة : فما يتضادون في نوره إلا كما يتضادون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه .

---

(١) تفسير البغوي على حاشية تفسير الخازن ٦ / ٧١ .

وقال السدى : (وأشرقت الأرض بنور ربها) أضاءت " أ.هـ "[1].

وقال ابن كثير : (وأشرقت الأرض بنور ربها) أي : أضاءت يوم القيامة اذا تجلى ـ الحق جل وعلا ـ للخلائق لفصل القضاء " أ.هـ "[2].

وقال الشوكاني : (وأشرقت الأرض بنور ربها) .

الاشراق : الإضاءة ، يقال أشرقت الشمس : إذا أضاءت وشرقت: إذا طلعت ،ومعنى (بنور ربها) بعدل ربها قاله الحسن وغيره .

وقال الضحاك : بحكم ربها ، والمعنى : أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها ،وما قضى به من الحق فيهم ،فالعدل نور والظلم ظلمات .

وقيل : إن الله يخلق نورا يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس ،والقمر ،ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي ،فإن الله سبحانه ـ هو نور السموات والأرض " أ.هـ "[3].

وحمله على الحقيقة هو الصواب لأن النور صفة كمال وضده نقص ولقد وصف الله ـ تعالى ـ نفسه بصفة النور حيث قال جل ثناؤه : (اللّه نور السموات والأرض)[4] الآيه . فلا ينكر صفة النور التي اتصف الله بها ـ الا من أشرب قلبه بمعنى التعطيل أعاذنا الله منه .

قال العلامة ابن القيم عند قوله ـ تعالى ـ (وأشرقت الأرض بنور ربها) " فأخبر أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره وهو نوره الذي هو نوره فإنه ـ سبحانه ـ يأتي لفصل القضاء بين عباده وينصب كرسيه بالأرض فإذا جاء الله ـ تعالى ـ

---

(١) جامع البيان ٢٤/٣٢ . (٢) تفسير القرآن العظيم ٦/١١١ .
(٣) فتح القدير ٤/٤٧٦ ، وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٥/٢٨٢ .
(٤) سورة النور آيه / ٣٥ .

أشرقت الأرض وحق لها أن تشرق بنوره وعند المعطله لا يأتي ولا يجيء ولا له نور تشرق به الأرض " أ.هـ.[1]

صفة هذه الأرض :-

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم صفة أرض المحشر التي يقف عليها الخلائق للحساب وللجزاء العادل وكيف هي :

فقد جاء عن سهل بن سعد رضي الله -تعالى- عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي قال سهل -أو غيره- ليس فيها معلم لأحد "[2].

فمن هذه الصفات الواردة في هذا الحديث يتبين أن تلك الأرض التي يقف عليها العباد يوم القيامة بين يدي ربهم - تبارك وتعالى - هي أرض مغايرة لأرض الدنيا ، وليس بينهما أي تشابه فأرض الموقف لها صفات، وأرض الدنيا لها صفات أخرى وأن أرض الدنيا التي يعرفها الخلق ستنتهي وتضمحل وتحل محلها أرض أخرى هي أكبر منها وأطهر .

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث " عفراء " للعلماء في هذه الكلمة عدة تفاسير نظمها عنهم الحافظ ابن حجر رحمه الله -تعالى- فقال : " قال الخطابي : العفر بياض ليس بالناصع " .

وقال عياض : " العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلا ومنه سمي عفر الأرض وهو وجهها " .

---

(١) مختصر الصواعق المرسله ٢/١٩٣.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ١١/٣٧٢ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/١٣٤.

وقال ابن فارس[١] : معنى عفراء : خالصة البياض .

وقال الداودي : شديدة البياض .

قال ابن حجر : كذا قال والأول هو المعتمد "أ . هـ"[٢] .

فالحافظ رحمه الله رجح من هذه الأقوال قول الخطابي وهو أن معنى كلمة "عفراء" هو البياض غير الناصع ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث "كقرصة النقي" بفتح النون وكسر القاف أي : الدقيق النقي من الغش والنخالة قاله الخطابي .

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس فيها معلم لأحد ، أو علم كما في رواية مسلم هما بمعنى واحد .

قال الخطابي : يريد أنها مستوية والمعلم - بفتح الميم واللام - بينهما مهبطة ساكنة ، هو الشيء الذي يستدل به على الطريق .

وقال عياض : المراد أنها ليس فيها علامة سكن ولا بناء ولا أثر ولا شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة .

قال الحافظ : "وفيه تعريض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها" .

وقال الداودي : المراد أنه لا يحوز أحد منها شيئا الا ما أدرك منها".

وقال ابن أبي جمرة[٣] : "فيه دليل على عظيم القدرة ، والإعلام بجزئيات

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين من أئمة اللغة والأدب أصله من قزوين ولد سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وتوفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة .
انظر ترجمته في : "وفيات الأعيان" ١/ ٣٥ ، والأعلام ١/ ١٨٤ .

(٢) الفتح ١١/ ٣٧٥ .

(٣) هو محمد بن أحمد بن عبد الملك بن أبي جمرة الأموي بالولاء أبو بكر : فقيه مالكي من أعيان الأندلس ، ولد بمرسية سنة ثماني عشرة وخمسمائة وتوفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة .
انظر ترجمته في : "شذرات الذهب" ٤/ ٣٤٢ ، والأعلام ٦/ ٢١٣ .

يوم القيامة ليكون السامع على بصيرة فيخلص نفسه من ذلك الهول لأن في معرفة جزئيات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها بخلاف مجيء الأمر بغتة وفيه إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جدا ، والحكمة في الصفة المذكورة أن ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك طاهرا عن محل المعصية والظلم ، وليكون تجليه ـ سبحانه ـ على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته ولأن الحكم فيه إنما يكون لله ـ وحده ـ فناسب أن يكون المحل خالصا له وحده" أ . هـ .(١)

وقال عليه الصلاة والسلام : " يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر "(٢) .

" ومعناه يبلغ أولهم وآخرهم لاستواء الأرض فلا يكون فيها ما يستتر به أحد من الرائي "(٣) .

والذي يريده عليه الصلاة والسلام أرضا مستوية لا جبل فيها ولا أكمة ولا ربوة ولا وهدة أرض بيضاء نقية لم يسفك عليها دم ولا عمل عليها خطيئة ولا ارتكب فيها محرم "(٤) .

---

(١) الفتح ١١/ ٣٧٥ .

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
أنظر الفتح ٨/ ٣٩٥ .

(٣) الفتح ٨/ ٣٩٦ .

(٤) أنظر شرح الطحاوية ص ٢٥٢ ، وانظر تكملة شرح الصدور ص ١٨ ، " مخطوط " .

بيان خلاف العلماء في أرض المحشر :-

إن تبدل هذه الأرض بأرض أخرى جديدة مما وقع الخلاف فيه بين السلف قال الحافظ ابن حجر : " وقد وقع للسلف في ذلك الخلاف في المراد بقوله -تعالى- (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . .) الآية (١) .

هل معنى تبديلها تغيير ذاتها وصفاتها ، أو تغيير صفاتها فقط " أ.هـ (٢)

فقد بين الحافظ : بقوله هذا أن للعلماء في ذلك قولين :

القول الأول : أن التبديل يكون في ذاتها وصفاتها .

القول الثاني : أن التغيير إنما يحصل في صفاتها فقط .

ثم أخذ رحمه الله -تعالى- في ذكر أدلة الفريقين ، فمما ذكره من أدلة الفريق الأول ما يأتي :-

١) حديث سهل المتقدم في بيان صفة أرض المحشر .

٢) ما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد والطبري في تفاسيرهم والبيهقي في الشعب من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله -تعالى- (يوم تبدل الأرض غير الأرض . .) الآية قال : تبدل الأرض أرضا كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل عليها خطيئة " ورجاله رجال الصحيح وهو موقوف ، وأخرجه البيهقي من وجه آخر مرفوعا وقال : الموقوف أصح ، وأخرجه الطبري والحاكم من طريق عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بلفظ " أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة " ورجاله موثقون أيضا " .

ولأحمد من حديث أبي أيوب " أرض كالفضة البيضاء قيل فأين الخلق يومئذ ؟ قال : هم أضياف الله لن يعجزهم ما لديه " .

---

(١) سورة ابراهيم آية / ٤٨ .
(٢) فتح الباري ١١/ ٣٧٥ .

وللطبري من طريق سنان بن سعد عن أنس مرفوعا " يبدلها الله بأرض من فضة لم يعمل عليها الخطايا ، وعن علي موقوفا نحوه ومن طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد : " أرض كأنها فضة والسموات كذلك" وعن علي " والسموات من ذهب" .

وعند عبد من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال : " بلغنا أن هذه الأرض يعني أرض الدنيا والى جنبها أخرى يحشر الناس منها اليها " .

وفي حديث الصور الطويل " تبدل الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم العكاظي لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ؟ ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم في الأرض المبدلة في مثل مواضعهم من الأولى ماكان في بطنها كان في بطنها وماكان على ظهرها كان عليها " .

قال الحافظ " وهذا يؤخذ منه أن ذلك يقع عقب نفخة الصعق بعد الحشر الأول ويؤيده قوله - تعالى - (وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلّت) .(١)

وبعد أن فرغ الحافظ من نقله حجج القول الأول وهو قول من قال " بأن التغيير يحصل في ذات أرض الدنيا وصفاتها " شرع في ذكر أدلة الفريق الثاني القائل بأن التغيير يحصل في صفات الأرض وليس في ذاتها فقال : " وأما من ذهب إلى أن التغيير إنما يقع في صفات الأرض دون ذاتها فمستنده ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال : " إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الخلائق " .

---

(١) سورة الانشقاق آية / ٣ ، ٤ .

ومن حديث جابر يرفعه " تمد الأرض من الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها الا موضع قدميه ورجاله ثقات» إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه .

ووقع في تفسير الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله - تعالى - (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات)[1] .

قال : يزاد فيها وينقص منها ويذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد مد الأديم العكاظي " وعزاه الثعلبي في تفسيره لرواية أبي هريرة وحكاه البيهقي عن أبي منصور الأزهري وبعد عرضه لأدلة الفريق الثاني قال : " وهذا وإن كان ظاهره يخالف القول الأول فيمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا لكن أرض الموقف غيرها " أ . هـ[2] .

أما العلامة ابن جرير فقد أجمل الأقوال في أرض المحشر في خمسة أقوال ونسب كل قول إلى قائله من السلف وذلك عند قوله - تعالى - (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات)[3] حيث قال رحمه الله : " واختلف في معنى قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) .

فقال بعضهم : معنى ذلك يوم تبدل الأرض التي عليها الناس اليوم في دار الدنيا غير هذه الأرض فتصير أرضا بيضاء كالفضة . وقد عزى هذا القول إلى عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون ومجاهد .

وقال آخرون : تبدل نارا وقد أسند هذا القول إلى ابن مسعود أيضا وذكر له روايتين ليستا مرفوعتين .

---

(١) سورة ابراهيم آية / ٤٨ .
(٢) انظر فتح الباري ١١ / ٣٧٥ - ٣٧٦ .
(٣) سورة ابراهيم آية / ٤٨ .

وقال آخرون : بل تبدل الأرض أرضا من فضة ، وقد عزى هذا القول الى أنس بن مالك وابن عباس وعلي بن أبي طالب إلا أنه لم يبين من سمعها عن علي رضي الله عنه .

وقال آخرون : يبدلها خبزة وقد بين بأن القائل بهذا القول هو سعيد ابن جبير ، ومحمد بن كعب القرظي ، أو عن محمد بن قيس .

وقال آخرون : تبدل الأرض غير الأرض وقد عزا هذا القول إلى كعب ورواية عن أبي هريرة مرفوعة ولم يسم الراوي عنه وإلى عمرو بن ميمون الأودي (١) .

وبعد أن انتهى من عرض الأقوال ونسبتها إلى أصحابها ، اختار قولا منها ورجحه .

فقال : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : يوم تبدل الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرها وكذلك السموات . اليوم تبدل غيرها كما قال جل ثناؤه ، وجائز أن تكون نارا ، وجائز أن تكون خبزا ، وجائز أن تكون غير ذلك ، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أي ذلك يكون فلا قول في ذلك يصح إلا ما دل عليه ظاهر التنزيل " اهـ (٢) .

وهذا القول الذي رجحه ابن جرير هو الذي دل عليه ظاهر القرآن والسنة .

فأما القرآن فقد تقدم قوله - تعالى - (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار (٣)) .

---

(١) جامع البيان ١٣/ ٢٤٩ - ٢٥٢ ، التذكرة للقرطبي ص/ ١٩١-١٩٢ .

(٢) جامع البيان ١٣/ ٢٥٤ .

(٣) سورة ابراهيم آية / ٤٨ .

وأما السنة فقد روى مسلم رحمه الله ـ تعالى ـ من حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد وذكر الحديث وفيه فقال اليهود فأين يكون الناس (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم في الظلمة دون الجسر . . " الحديث.(١)

وروى أيضا : من حديث عائشة رضي الله عنها قالت سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ـ تعالى ـ (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فأين يكون الناس يومئذ قال على الصراط".(٢)

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : يارسول الله (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) فأين يكون الناس قال على الصراط ياعائشة " قال هذا حديث حسن صحيح.(٣)

وخرّج عن مجاهد قال : قال ابن عباس : "أتدري ما سعة جهنم؟ قلت لا ، قال أجل والله ماتدري حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويّات بيمينه) قالت : قلت فأين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال على جسر جهنم" ـ قال ـ وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.(٤)

---

(١) صحيح مسلم ١/٢٥٢ .

(٢) صحيح مسلم ٤/٢١٥٠ .

(٣) سنن الترمذي ٤/٣٥٩ .

(٤) المصدر السابق ٥/٥١ - ٥٢ .

فهذه الأحاديث المتقدمة نص في أن الأرض والسموات تبدل وتزال ويخلق الله أرضا أخرى يكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط لا كما قال كثير من الناس : أن تبديل الأرض عبارة عن تغيير صفاتها وتسوية آكامها ونسف جبالها ومد أرضها[1] اذ هذا هو ما يحصل لأرض الدنيا أما أرض الموقف فهي غيرها والله أعلم .

---

(١) التذكرة للقرطبي ص : ١٩١ .

ـ المبحث الخامس ـ

كتاب الأعمـــــــــال

لقد دلت السورة على أن من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكتاب الأعمال الذى يسجل فيه كل ما يعمله العبد في هذه الحياة الدنيا من خيـــــر أو شر .

قال تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون) .

ووجه دلالة هذه الآية على الإيمان بكتاب الأعمال قوله (ووضع الكتاب) أي : ووضعت صحف الأعمال لكل فرد من العباد فمنهم الآخذ كتابه بيمينه ، ومنهم الآخذ كتابه بشماله ،أو من وراء ظهره .

قال ابن جرير رحمه الله ـتعالى ـ : (ووضع الكتاب) يعني : كتـــاب أعمالهم لمحاسبتهم ومجازاتهم .

وروى بإسناده إلى قتادة أنه قال : (ووضع الكتاب) قال : كتـــاب أعمالهم "أ. هـ"(١)

وقال البغوي رحمه الله ـتعالى ـ : (ووضع الكتاب) أي : كتاب الأعمال(٢)

ومن هذا يتبين وجه دلالة السورة على أن من الإيمان باليوم الآخر الإيمـان بكتاب الأعمال الذى يحصى فيه على ابن آدم كل ماعمله من خير ، أو شـــر ، وأن هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

---

(١) جامع البيان ٣٢/٢٤ ، تفسير ابن كثير ١١١/٦ ،الجامع لأحكـــام القرآن ٢٨٢/١٥ ، فتح القدير ٤٧٦/٤ .

(٢) تفسير البغوي على حاشية الخازن ٧١/٦ .

وقد ثبت في كثير من آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة وإجماع علماء الإسلام أن ـ الباري سبحانه ـ سيؤتي كل عبد من عباده يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ويقال له : إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا فيقرأ في كتابه ذلك كل ما قدمه في الدنيا من الخير والشر ويجد أن الملائكة قد سجلت كل ما عمله فلم يتركوا منه صغيرة ولا كبيرة إلا دوّنوها في ذلك الكتاب ويكون الإنسان حسيب نفسه يوم القيامة ، كما أخبرنا ـ الرب جل وعلا ـ بذلك في كتابه الكريم (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (١).

وقد جعل الله مع كل إنسان ملكين يراقبانه ويحصيان عليه أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، فالذي عن يمينه مهمته كتابة الحسنات ، والذي عن يساره مهمته كتابة السيئات ، يراقبانه في كل صغيرة وكبيرة ويجازى على كل صغيرة وكبيرة عملها يوم القيامة ولأهمية كتاب الأعمال أكثر القرآن من ذكره ونوه بشأنه ليتنبه العباد له ، وليتحرزوا من أن يكتب عليهم فيه مالا يرضي ـ الرب جل شأنه ـ وعند ما نمعن النظر في آيات القرآن الكريم التي وردت في شأن كتابة أعمال العبد وإحصائها نجد أنها جاءت في أساليب متعددة .

فتارة يسند ـ الرب تبارك وتعالى ـ الكتابة إلى نفسه مع العلم بأن الذي يقوم بكتابة الأعمال هم الملائكة ولكنه ـ تبارك وتعالى ـ أسندها إلى نفسه للإهتمام البالغ بذلك .

قال تعالى : (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) (٢).

---

(١) سورة الاسراء آية / ١٤ .

(٢) سورة آل عمران آية / ١٨١ .

وفي هذه الآية من التهديد والوعيد مالا يقادر قدره .

ومعنى قوله -تعالى- في الآية (سنكتب ما قالوا) أي : سنكتبه في صحف الملائكة ،أو سنحفظه ،والمراد الوعيد لهم وأن ذلك لا يفوت على الله بل هو معد لهم ليوم الجزاء (١).

وقال تعالى (إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) (٢).

وتارة يخبر -تعالى- عن مراقبة الملائكة الشديدة للعبد في تسجيل ما يلفظه من الأقوال قال -تعالى- في شأن ذلك : (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) (٣).

وتارة ؛ يسند الله -تعالى- كتابة أعمال العبد إلى الكرام الكاتبين من الملائكة . قال تعالى : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون) (٤).

وقال تعالى : (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) (٥).

وتارة : يسند -الباري سبحانه- كتابة أعمال العباد للمجهول للعلم به وهم الملائكة .

قال تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سنكتب شهادتهم ويسئلون) (٦).

---

(١) فتح القدير للشوكاني ١/ ٤٠٦ (٢) سورة (يس) آية / ١٢ .
(٣) سورة ق آية/ ١٧، ١٨ . (٤) سورة الانفطار آية/ ١١-١٢ .
(٥) سورة الزخرف آية/ ٨٠ . (٦) سورة الزخرف آية/ ١٩ .

وقال تعالى : (ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون)(١) .

وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)(٢) .

فهذه الآيات المتقدمة دلت بوضوح على أنه يجب على كل إنسان أن يؤمن بصحف الأعمال التي يقرؤها العباد ، وهي الكتب التي كتبت فيها الملائكة مافعله العباد في حياتهم الدنيا ، فيجب الإيمان بأن الله -عز وجل - وكّل بنا من ملائكته من يحفظنا ، ويكتب أعمالنا وأقوالنا وهم الحافظون الكرام الكاتبون فكل ما يكتبه هؤلاء الملائكة يقرؤه العباد يوم القيامه ، طبقا لما عملوه ، أو قالوه دون زيادة ، أو نقصان .

وقد دلت السنة المطهرة في أحاديث متعددة على كتابة الملائكة لأعمال بني آدم فمن ذلك :

مارواه البخاري وسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ، ومثل المهجر(٣) كمثل الذي يهدي بدنة ، ثم

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٠ / ١٢١ . (٢) سورة الكهف آية / ٤٩ .

(٣) مثل المهجر : المبكر كما في النهاية ٥ / ٢٤٦ .

كالذى يهدى بقرة ، ثم كبشا ، ثم دجاجة ، ثم بيضة ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر "(١).

وروى البخاري بإسناده إلى رفاعة بن رافع الزرقي قال : "كنا يوما نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم " فلما رفع رأسه من الركعة قال : "سمع الله لمن حمده . قال رجل : وراءه ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما انصرف قال من المتكلم ؟ قال : أنا قال رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا "(٢).

وروى البخارى ومسلم أيضا : بإسناديهما إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه - عز وجل - قال قال : "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده سيئة واحدة "(٣).

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى بعض الأعمال إن هم عملوها كتب الله لهم الأجر العظيم ، والثواب الجزيل .

قال صلى الله عليه وسلم " من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ٢ / ٤٠٧ ، صحيح مسلم ٢ / ٥٨٧ .

(٢) صحيح البخارى مع الفتح ٢ / ٢٨٤ .

(٣) صحيح البخارى مع الفتح ١١ / ٣٢٣ ، صحيح مسلم ١ / ١١٨ .

حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومن قال : سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر (١).

وعن مصعب بن سعد قال : حدثني أبي قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ؟ فسأله سائل من جلسائه كيف يكسب أحدنا ألف حسنة قال يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ، أو يحط عنه ألف خطيئة (٢).

والأحاديث الوارده في هذا المعنى كثيرة جدا فنكتفي بهذا القدر الذي قدمنا ذكره منها .

كيفية أخذ الكتاب :-

لقد بين الله -تعالى- في كتابه الكريم الكيفية التي بها يأخذ العباد كتبهم يوم القيامة ، وأنهم يأخذونها على هيئات مختلفه .

١) فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه ،

٢) ومنهم من يأخذ كتابه بشماله .

٣) ومنهم من يعطى كتابه وراء ظهره .

فهذه الحالات الثلاث نص عليها القرآن الكريم . قال تعالى : (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية في جنة عالية ، قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخاليه وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٣٣٨ - ٣٣٩ ، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧١ .

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٣ .

كتابيه ولم أدر ما حسابيه يالليتها كانت القاضية ما أغني عني ماليه هلك عني سلطانيه (١) .

فهذه الآيات صورتلنا مشهد من يأخذ كتابه بيمينه ،ومن يأخذه بشماله وأما عن القسم الثالث فقال تعالى (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا إنه كان في أهله مسرورا إنه ظن أن لا يحور بلى إن ربه كان به بصيرا (٢) .

فالقرآن الكريم حصر الكيفية في أخذ الكتب على ثلاث حالات فقط هذا على حسب ظاهر الآيات ،ولكنها في واقع الأمر ترجع إلى حالتين إما أن يكون الأخذ باليمين وهذه للسعداء من أهل التوحيد والإيمان ، واما أن يكون الأخذ بالشمال وهذه حالة أهل الشقاوة والخسران ولذلك حصل الخلاف بين العلماء في الحالة الثالثة وهي حالة إيتاء الكافر كتابه من وراء ظهره ولكن نتيجة الخلاف يرجع إلى أن الكافر يتناول كتابه بشماله ،وإليك بعض أقوال العلماء في ذلك :-

قال سعيد بن المسيب : الذي يأخذ كتابه بشماله تلوى يده خلف ظهره ثم يعطى كتابه ، وقيل تنزع من صدره إلى خلف ظهره .

وقال مجاهد : في قوله -تعالى- (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره) قال : تجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه (٣) .

---

(١) سورة الحاقة آية / ١٩-٢٧ .

(٢) سورة الانشقاق آية/ ١٠ -١٥ .

(٣) أنظر لوامع الأنوار : ٢/ ١٨٢ .

وقال القرطبي : " وأما من أوتي كتابه وراء ظهره " تخلع كتفه اليسرى ، فتجعل يده خلفه فيأخذ بها كتابه .

وقال مجاهد : يتحول وجهه في موضع قفاه فيقرأ كتابه[1] . وقرأ تلك الكتب تكون من القارىء وغير القارىء .

قال قتادة : " سيقرأ من لم يكن قارئا في الدنيا[2] " .

وقال الحسن : " يقرأ الإنسان كتابه أميا ، أو غير أمي[3] " .

ويقرأة الانسان كتابه تظهر له نتيجة أعماله ، وأقواله حسنة كانت ، أم قبيحة .

والحاصل : مما تقدم من الآيات والأحاديث أنه يجب على كل إنسان أن يؤمن بصحف الأعمال وقراءتها يوم القيامة كما يجب الإيمان بأن الكرام الكاتبين يسجلون أعمال الإنسان الفعلية ، والقولية ، وكذلك النية لأنها فعل القلب يشملها عموم قوله تعالى (يعلمون ماتفعلون[4]) ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم " قال الله - عز وجل - إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة ، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا[5] " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جراي[6] " .

---

(١) التذكرة ص ٢٥٨ ، الجامع لأحكام القرآن ١٩/٢ ٢٧٢ ، وانظر تكملة شرح الصدور ص ١٥ ، دفع إيهام الإضطراب ص ٣١٢ .

(٢) جامع البيان ١٥/٥٣ .

(٣) التذكرة للقرطبي : ص ٢٥٥ .

(٤) سورة الانفطار آية / ١٢ .

(٥) صحيح مسلم ١/١١٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) المصدر السابق ص ١١٨ .

فلا مجال لمن ينكـــر صحف[1] الأعمال وهو يتلو تلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها سلف الأمة وأئمتها بالقبول ولا خلاف بينهم في ثبوت صحف الأعمال وأخذها باليمين ،أو بالشمال ،فيجب الإذعـــان لتلك النصوص وقبولها ، والتسليم بما ترمي إليه ومن أنكر ذلك كفر بعد يقين الاسلام .

قال محمد بن أحمد السفاريني : " والحاصل أن نشر الصحف وأخذها باليمين والشمال مما يجب الإيمان به وعقد القلب بأنه حق لثبوته بالكتاب والسنة والإجماع[2] .

---

(١) انظر " التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع " ص/ ١١١ فإنه بيـــن بأن الجهم بن صفوان " ينكر صحف الأعمال .

(٢) لوامع الأنوار البهية ٢ / ١٨١ .

ـ المبحث السادس ـ

جزاء الأعمال يوم القيامة

لقد دلت السورة على أن من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بجزاء الأعمال وأن كل إنسان لابد أن يوفى جزاء عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

قال تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور) .

وقال تعالى : (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون) .

وقال تعالى : (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم مايشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين . ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) .

وقال تعالى (ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون) .

هذه ست آيات من السور دلت على إثبات الجزاء على الأعمال يوم القيامة ، وأن ذلك الجزاء سيكون طبقا لأعمال الإنسان التي قدمتها يداه في هذه الحياة الدنيا .

فالآية الأولى : وهي قوله ـ تعالى ـ (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بماكنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور) بين الله فيها أن مرجع العباد إليه يوم القيامة وسيخبرهم بأعمالهم التى أحاط بها علمه ، وجرى بها قلمه ، وكتبتها عليهم الحفظة ، وشهدت بها جوارحهم ، فيجازى كلا منهم بما يستحق ،

وهو -سبحانه- العليم بنفس الصدور ، وما تنطوي عليه من وصف بر ، أو فجور والغرض من هذا إخباره -تعالى- بالجزاء بالعدل التام .

قال ابن جرير : عند قوله -تعالى- : (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) :

يقول تعالى ذكره : ثم بعد اجتراحكم في الدنيا ما اجترحتم من صالح وسيىء إيمان وكفر أيها الناس إلى ربكم مصيركم من بعد وفاتكم فينبئكم يقول : فيخبركم بما كنتم في الدنيا تعملونه من خير وشر ، فيجازيكم على كل ذلك جزاءكم ، المحسن بإحسانه ، والمسيىء بما يستحقه ، .

يقول -عز وجل- فاتقوا أن تلقوا ربكم وقد عملتم في الدنيا بما لا يرضاه منكم فتهلكوا ، فانه لا يخفى عليه عمل عامل منكم" أ.هـ.(١)

وأما الآية الثانية : وهي قوله -تعالى- (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون) .

بين الله -تعالى- فيها أنه لا مساوات ولا التقاء بين من هداه الله ووفقه لسلوك الطريق الذي يوصله إلى طريق الجنة التي هي دار الكرامة وبين من كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم على الله يوم القيامة فجاءه عذاب الله الذي لا يقادر قدره ، فجعل يتقيه بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء ، وأقل شيىء من العذاب يؤثر فيه فهو يتقي به سوء العذاب لأن يديه ورجليه قد غلت وألقي في نار جهنم وفاقا لكسبه الذي كسبته يداه في دنياه ، فآثر الكفر على الإيمان والشرك على التوحيد فكان من أصحاب النار .

---

(١) جامع البيان ٢٣ / ١٩٨ .

قال البغوى رحمه الله ـ تعالى ـ : (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب) أى : شدته يوم القيامة .

قال مجاهد : يجر وجهه في النار .

قال عطاء : يرمى به في النار منكوسا فأول شيء تمسه النار وجهه .

قال مقاتل : هو أن الكافر يرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه وفي عنقه صخرة مثل جبل عظيم من الكبريت فتشتعل النار وهو معلق في عنقه فحرها ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عن وجهه للأغلال التي في عنقه ويديه ، ومجاز الآية (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن من العذاب) (وقيل) يعني : تقول الخزنة (للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون) أي : وباله (١) اهـ.

وقال العلامة ابن جرير : حول هذه الآية : " اختلف أهل التأويل في صفة اتقاء هذا الضال بوجهه سوء العذاب .

فقال بعضهم : هو أن يرمى به في جهنم مكبوبا على وجهه فذلك اتقاؤه إياه وقد أسند هذا القول إلى مجاهد رحمه الله ـ تعالى ـ .

وقال آخرون : هو أن ينطلق به إلى النار مكتوفا ثم يرمى به فيها ، فأول ماتمس النار وجهه ، وهذا قول يذكر عن ابن عباس من وجه كرهت أن أذكره لضعف سنده ، وهذا أيضا مما ترك جوابه استغناء بدلالة ماذكر من الكلام عليه عنه ، ومعنى الكلام : أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة خيرا أم من ينعم في الجنان ؟ .

وقوله (وقيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون) يقول : ويقال يومئذ للظالمين أنفسهم بإكسابهم إياها سخط الله ، ذوقوا اليوم أيها القوم وبال ماكنتم في الدنيا تكسبون من معاصي الله " اهـ. (٢)

(١) معالم التنزيل للبغوى على حاشية تفسير الخازن ٦/٦٢ .
(٢) جامع البيان ٢٣ / ٢١١-٢١٢ ، وانظر تفسير ابن كثير ٦/٨٩ .

وأما الآية الثالثة والرابعة - والخامسة - من الآيات الست السابقة :

وهي قوله - تعالى - (والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) .

فقد أخبر الله - تعالى - فيها بأن الذي جاء بالصدق في قوله وعمله ويدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم فصدق فيما قاله من الاخبار عن الله وأحكامه ، وفيما فعله من خصال الصدق ، وصدّق بذلك إذ الإنسان قد يأتي بالصدق ولكنه لا يصدق به بسببما حل بقلبه من الكبر والعناد والإحتقار لمن قاله ، وجاء به ، فلابد من الصدق والتصديق ، فالذين وفقوا للجمع بين الأمرين فإن الجزاء الذي ينتظرهم عند الله هو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فكل ما تعلقت به مشيئتهم ، وإرادتهم من أنواع اللذات والمشتهيات فإن ذلك حاصل ومهيئ ومعد لهم عند الله - تعالى - في الجنات .

(ذلك جزاء المحسنين) وهم الذين يعبدون ربهم كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، وإضافة الى ذلك أنهم يحسنون إلى عباد الله .

ومن إكرام الله لهؤلاء المتقين المحسنين أنه - تعالى - يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ويثيبهم بأحسن الذي كانوا يعملون (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) .

ومن هذه الآية أيضا : يتبين أن عمل الإنسان له حالات ثلاث :-

الحالة الأولى : إما أن يكون عملا أسوأ .

الحالة الثانية : أن يكون عملا أحسن .

الحالة الثالثة : أن يكون عملا لا أسوأ ولا أحسن وهذه الحالة الأخيرة هي العمل المباح الذي لا يتعلق به ثواب ولا عقاب وهذه الحالة الأخيرة لم تذكر في الآية كالحالتين قبلها .

والعمل الأسوأ هي المعاصي كلها ،والعمل الأحسن هي الطاعات كلها ، وبمعرفة هذه الحالات الثلاث يتضح معنى الآية (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا) فيكون المراد بها صغائر الذنوب بسبب إحسانهم وتقواهم .

(ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) أي : بحسناتهم كلها (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما)[1] .

قال مقاتل : (لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ،ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) .

قال : يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوئ[2]

وقال العلامة ابن جرير : وقوله (لهم ما يشاؤون عند ربهم) .

" يقول تعالى ذكره : لهم عند ربهم يوم القيامة ماتشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم (ذلك جزاء المحسنين) يقول.

يقول تعالى ذكره : هذا الذي لهم عند ربهم جزاء من أحسن في الدنيا فأطاع الله فيها وائتمر لأمره ،وانتهى عما نهاه فيها عنه .

وقال أيضا : رحمه الله ـ تعالى ـ عند قوله ـ تعالى ـ (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) .

---

(١) سورة النساء آية / ٤٠ .

(٢) تفسير البغوي المسمى " معالم التنزيل على حاشية تفسير الخازن ٦٤/١) .

" يقول تعالى ذكره : وجزى هؤلاء المحسنين ربهم بإحسانهم، كسي يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا في الدنيا من الأعمال ، فيما بينهم وبين ربهم ، بما كان منهم فيها من توبة ، وإنابة ، مما اجترحوا من السيئات فيها .

(ويجزيهم أجرهم) يقول : ويثيبهم ثوابهم (بأحسن الذي كانوا) في الدنيا (يعملون) مما يرضي الله عنهم دون أسوئها " أ.هـ.(١)

وأما الآية السادسة : وهي قوله - تعالى - (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

بينت أنه - تعالى - سيوفي كل نفس يوم القيامة جزاء عملها بالعدل التام ، والقسط العظيم لأنه جزاء صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة ، وممن هو محيط بكل شيء ، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ محيط بكل ما عملوه والحفظه الكرام الذين لا يعصون ربهم طرفة عين قد كتبوا كل ما عمله بنو آدم ، وسيجازي - سبحانه - العباد على أعمالهم بما يستحقون من الثواب والعقاب ولذلك قال - جل شأنه - (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

قال عطاء : " يريد أني عالم بأفعالهم لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد(٢) " .

وقال ابن جرير حول هذه الآية : " يقول تعالى ذكره ووفى الله حينئذ كل نفس جزاء عملها من خير وشر وهو أعلم بما يفعلون في الدنيا من طاعة ، أو معصية ولا يعزب عنه علم شيء من ذلك وهو مجازيهم عليه يوم القيامة فمثيب المحسن بإحسانه ، والمسيء بما أساء " أ.هـ.(٣)

---

(١) جامع البيان ٢٤ / ٥ .
(٢) معالم التنزيل للبغوي على حاشية تفسير الخازن ٦ / ٧١ .
(٣) جامع البيان ٢٤ / ٣٣ .

ومما قدمنا يتبين وجه دلالة السوره على وجوب الايمان بجزاء الأعمال وأنه ـ تعالى ـ سيجزى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

ولقد جاء ذكر الجزاء ، والحث على الإيمان به في كثير من الآيات القرآنيه والأحاديث النبوية ذلك لأن يوم القيامه هو اليوم الفاصل بين هذه الحياة الدنيا ، وبين الحياة الآخره ، ولأن من مقاصد البعث بعد الموت هو أن يجازي كل عامل وفق عمله في دنياه ، ولأن أعمال الخلائق تختلف اختلافا كثيرا من إنسان لآخر ومن أمة لأخرى ولذلك قال ـ جل جلاله ـ (إن سعيكم لشتى)[١] .

فالله جل وعلا ـ سيظهر أعمال كل إنسان نصب عينيه فاقتضى الحال أنه لابد أن يكون جزاء كل إنسان من جنس عمله .

قال تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئآت إلا ماكانوا يعملون)[٢] .

وقال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين)[٣] (والدين هو الجزاء ، فيقال كما تدين تدان أي : كما تجازى تجازى)[٤] .

وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون)[٥] .

وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ماكنتم تعملون)[٦] .

---

(١) سورة الليل آيه / ٤ .
(٢) سورة القصص آيه / ٨٤ .
(٣) سورة النور آيه / ٥٢
(٤) شرح الطحاوية ص ٤٦٥ .
(٥) سورة الأنعام آيه / ١٦٠ .
(٦) سورة النمل آية / ٨٩-٩٠ .

وقال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)[١] .

وقال تعالى (جزاء وفاقا)[٢] أي : موافقا لأعمالهم[٣] .

والآيات في إثبات الجزاء على الأعمال يوم القيامة كثيرة جدا ويكفينا منها هنا هذا القدر المتقدم .

وقد وردت أحاديث صحيحه في السنة المطهره دلت على إثبات جزاء الأعمال يوم القيامه .

ومن تلك الأحاديث : قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : . . . . . " ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه "[٤] .

ومن الأحاديث التي دلت على ثبوت جزاء الأعمال يوم القيامة الحديث الطويل الذي بين فيه النبي صلى الله عليه وسلم عقوبة مانعي الزكاة في الذهب والفضه والإبل ، والبقر والغنم ، وبين فيه أن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامه وفي هذا الحديث أنه " قيل يارسول الله فالحمر[٥] قال " ما أنزل عليّ في الحمر[٦] شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : (فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شرا يره)[٧] .

---

(١) سورة السجده آيه / ١٧ .
(٢) سوره النبأ آيه / ٢٦ .
(٣) تفسير النسفي ٤ / ٣٢٧ ، وانظر جامع البيان ٣٠ / ١٥ .
(٤) رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه ٤ / ١٩٩٤-١٩٩٥ .
(٥) " جمع حمار " أي : فما حكمها .
(٦) أي : لم ينزل على فيها نص بعينها .
(٧) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢ / ٦٨٢-٦٨٣ والآيتان من سورة " الزلزله " آية ٧-٨ .

وقوله صلى الله عليه وسلم " ما أنزل الله علي في الخير شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة " معنى الفاذة القليلة النظير والجامعة أي : العامة التناولة لكل خير ومعروف وفيه إشارة إلى التمسك بالعموم (١).

وفي الحديث دلالة على أن كل إنسان سيرى جزاء عمله ويوفى به ان خيرا فخير وإن شرا فشر .

ومنها ماروواه الشيخان في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره قال لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة (٢).

يقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، أو على رقبته بعير له رغاء (٣) يقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ،أو على رقبته رقاع (٤) تخفق فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك (٥).

وقال البخارى رحمه الله تعالى : " حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عروة عن أبي حميد الساعدى أنه أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عاملا فجاء العامل حيث فرغ من عمله فقال يارسول الله هذا لكم وهذا أهدي إلي فقال له : أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا ؟ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيّة بعد الصلاة فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم وهذا أهدي لي ؟ أفلا قعد في

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ٧/ ٦٧ .
(٢) جاء في النهاية لابن الأثير : الحمحمة : صوت الفرس دون الصهيل ١/ ٤٣٦ .
(٣) جاء في النهاية : الرغاء : صوت الابل ٢ / ٢٤٠ .
(٤) قال ابن الأثير : أراد بالرقاع ماعليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع. النهاية ٢ / ٢٥٢ .
(٥) صحيح البخارى مع الفتح ٦/ ١٨٥ ،صحيح مسلم ٣ / ١٤٦١-١٤٦٢ .

بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدى له أم لا ؟ فوالذي نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه إن كان بعيرا جاء به له رغاء ، وإن كان بقرة جاء بها لها خوار (١) وإن كانت شاة جاء بها تيعر (٢) فقد بلغت فقال أبوحميد ، ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده حتى إنا لننظر إلى عفرة إبطيه ، قال أبوحميد : وقد سمع ذلك معي زيد بن ثابت من النبي صلى الله عليه وسلم (٣).

هذان الحديثان فيهما بيان لخطورة الغلول ، وفيهما دلالة واضحة على أن الجزاء من جنس العمل .

وهذه العقوبة التي ذكرت في الحديثين السابقين للغال تحصل له على وجه الحقيقة كما ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم ،

قال القرطبي : " قال علماؤنا رحمهم الله في قوله تعالى (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة (٤)) أن ذلك على الحقيقة كما بينه صلى الله عليه وسلم أي : يأت به حاملا له على ظهره ورقبته معذبا بحمله وثقله ومرعوبا بصوته ، وموبخا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد (٥).

والذي نخلص إليه مما تقدم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد اعتقادا جازما بأن الله - تعالى - سيجازي المكلفين من عباده بحسب كسبهم الإرادي الإختياري الذي كسبوه في هذه الحياة الدنيا لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء كما قال تعالى : (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٦).

---

(١) الخوار : صوت البقر . النهاية ٢ / ٨٧ .
(٢) هو صوت الشاة الشديد ، ذكره الحافظ في الفتح ١٣ / ١٦٦ .
(٣) صحيح البخاري ٤ / ١٤٩ ، وانظر سنن أبي داود ٢ / ١٢١-١٢٢ .
(٤) سورة آل عمران آية / ١٦١ .
(٥) التذكرة للقرطبي ص ٢٩٦ ، وانظر " فتح الباري " ٦ / ١٨٦ .
(٦) سورة آل عمران آية / ١٨٥ .

فالعباد يتفاوتون في هذه الدنيا متفاوتين تفاوتا عظيما في الأرزاق ، والآجال ، والأعمال ، وفي السعادة والشقاوة ، فمنهم الظالم العنيد ، ومنهم المظلوم المغلوب ، ومنهم الصحيح السليم ومنهم المريض ، ومنهم الغني الثري ، ومنهم الفقير ، ومنهم العزيز ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسيء ، فاقتضت حكمة الله وعدله أنه لابد من أن يجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ولو أنهم يموتون عند انقضاء الآجال ولايبعثون لكان ذلك منافيا للحكمة ، مجانبا للعدل والرحمة ، ولذلك قضى الله ـ عز وجل ـ بالبعث والجزاء وحكم بهما فهما كائنان لا محالة ، ولذلك أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقسم على وقوعهما قال تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير)(١) .

وقال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)(٢) .

---

(١) سورة التغابن آية / ٧ .

(٢) سورة النحل آية / ٣٨ - ٤٠ .

الفصل الثّانى

((الفصل الثاني))

النـــار دار الكافريـــــن

ويشتمل على المباحث الآتيه :-

تمهيد :-

المبحث الأول : كيفية دخول أهل النار النـــــار .

المبحث الثانى : أبواب جهنـــم .

المبحث الثالث : خزنة جهنـــم .

المبحث الرابع : إحاطة النار بأهلها وشدة عذابها .

المبحث الخامس : صفات أهل النـــــــــار .

المبحث السادس : أبدية النار ودوام عذابهـــــا .

- تمهيـــــد -

إن جهنم هي دار الذل والهوان والعذاب والخذلان ، دار الشهيق والزفير ،والأنين والعبرات ،دار أهلها أهل البؤس والشقاء ، والندامة والبكاء ،الأغلال تجمع بين أيديهم وأعناقهم ،والنار تضطرم من تحتهم ومن فوقهم ،دار شرب أهلها الحميم يصهر به مافي بطونهم والجلود ، ومأكلهم من شجر الزقوم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ،يدعون على أنفسهم بالموت فلا يجابون ، ويسألون ربهم الخروج منها فيقال لهم : إخسأوا فيها ولا تكلمون ، يسحبون فيها على وجوههم وهم لا يبصرون ، صراخهم عال ، وعويلهم مرتفع أهلها من المشركين والكافرين ، يلقون فيها أمة بعد أمة جنهم وإنسهم كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اجتمعوا فيها اشتكت آخر أمة إلى الله تعالى أول أمة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، وتردّ أول أمة على آخر أمة لقد ضللتم كما ضللنا على الرغم من الحجج الكثيرة التي قامت علينا وعليكم في الدنيا على ألسنة الرسل ولو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا وعليكم أصبرنا أم جزعنا مالنا من خلاص ، وقد تناولت سورة " الزمر " عدة أمور متعلقة بالنار التي هي دار الكافرين وهي ما سنتحدث عنها في المباحث الآتية :-

ـ المبحث الأول ـ

كيفية دخول أهل النار النـــار

لقد جاء في السورة بيان الكيفية التي يدخل بها فريق الكفار دار البوار وذلك أنهم يساقون إليها سوقا عنيفا بواسطة الزبانية الغلاظ الشداد ، يسوقونهم إلى شر محبس ، وأفظع مكان وهي جهنم التي قد اجتمع فيها كل عذاب وحضرها كل شقاء وزال عنها كل سرور .

قال تعالى : ((وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكـــم وينذرونكم لقاء يومكـــم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)) .

هذه الآية من السورة بينت أن الكافرين يساقون إلى جهنم على شـــكل جماعات متفرقة كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكل سعيها، والسوق هو الدفع إلى الأمام ، وقد يكون دفعا عنيفا مصحوبا بالإهانة والتحقيـــــر حتى إذا ما وصلوا إلى دار العذاب يجدون أبوابها مغلقة ، فتفتح لهـــم ، ويدفعون إليها تعجيلا لهم بالعذاب المعد لهم فيها .

قال ابن جرير : "وقوله : ((وسيق الذين كفروا الى جهنم)) يقول : وحشر الذين كفروا بالله إلى ناره التي أعدها لهم يوم القيامة جماعات، جماعة جماعة ، وحزبا حزبا .

قال قتادة : في قوله (زمرا) قال : جماعات "أ.هـ.[1]

وقال البغوي : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم) سوقا عنيفا (زمرا) أفواجا بعضها على أثر بعض كل أمة على حدة .

---

(١) جامع البيان ٢٤ / ٣٤ .

قال أبوعبيدة والأخفش : زمرا أي : جماعات في تفرقة واحدتها زمرة (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) السبعة وكانت مغلقة قبل ذلك "أ.هـ.(١)

وقال ابن كثير عند قوله تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) " يخبر - تعالى - عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد "أ.هـ.(٢)

وجاء في " تفسير روح المعاني " والسوق يقتضي الحث على المسير بعنف وإزعاج وهو الغالب ويشعر بالإهانة وهو المراد هنا أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجا متفرقة بعضها في أثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة "أ.هـ.(٣)

وقد بين - تعالى - أن سوق الكافرين إلى جهنم مصحوب بالعنف وعدم التكريم بقوله تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا)(٤) أي : يدفعون دفعا عنيفا شديدا بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم ، وتجمع نواصيهم ، إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار ويطرحون فيها(٥).

كما أخبر - تعالى - بأنهم يساقون إليها وهم عطاش ظماء.

قال تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا)(٦).

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : "ونسوق الكافرين بالله الذين أجرموا إلى جهنم عطاشا " . . . . وساق بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) " معالم التنزيل " على حاشية تفسير الخازن ٦/ ٧١ ، وانظر زاد المسير ٧/ ١٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١١٢.

(٣) ٢٤/ ٣١-٣٢.

(٤) سورة الطور آية / ١٣.

(٥) روح المعاني ٢٧/ ٣٠ ، وانظر تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣١.

(٦) سورة مريم آية / ٨٦.

أنه قال في قوله (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) يقول : عطاشا .

وقال قتادة في قوله (إلى جهنم وردا) قال : ظماء إلى النار (١).

وقال البغوي رحمه الله تعالى : (ونسوق المجرمين) الكافرين الكاذبين (الى جهنم وردا) يعني : مشاة وقيل : عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش ، والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد الماء إلا بعد عطش " أ.هـ. (٢)

وقد بين - تعالى - أن الأمم الداخلة في جهنم يلعن بعضها بعضا وأن الأتباع يلقون باللائمة على المتبوعين وقد صور هذا المشهد قوله تعالى : (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى ، اذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) (٣) .

فقد بين تعالى في هاتين الآيتين ؛ أنه كلما دخلت أمة من الأمم تابعة ، أو متبوعه في النار فإنها تلعن أختها بمعنى : تدعو على نظيرتها في الدين ، فتلعن التابعة المتبوعة التي أضلتها ، وتلعن المتبوعة التابعة التي زادت في ضلالها .

قال أبو مسلم : يلعن الأتباع القادة يقولون : أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله - تعالى - .

---

(١) جامع البيان ٢٦ / ١٢٧ .

(٢) " معالم التنزيل " على حاشية تفسير الخازن ٤ / ٢١١ .

(٣) سورة الأعراف آية / ٣٨ - ٣٩ .

وقوله : (حتى إذا اداركوا فيها جميعا) غاية لما قبله أي : يدخلون فوجا فوجا لاعنا بعضهم بعضا إلى انتهاء تلاحقهم باجتماعهم في النار وعند ذلك تقول : أخراهم منزلة وهم الأتباع والسفلة لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء ،أو تقول : أخراهم دخولا لأولاهم كذلك (ربنا هؤلاء أضلونا) أي : دعونا إلى الضلال وأمرونا به حيث سنوه فاقتدينا بهم (فآتهم عذابا ضعفا) أي : مضاعفا .

قال تعالى رادا عليهم (لكل) منكم ومنهم عذاب (ضعف) من النار .

أما القادة فضلالهم وإضلالهم ،وذلك بسبب الدعاء السابق .

وأما كونهم ضالين فلأن اتخاذهم إياهم رؤساء يصدرون عن أمرهم يزيد في طغيانهم كما قال تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا)[1] .

وقد أخبر تعالى أن أهل النار يلقون فيها أفواجا : كما قال تعالى (تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير)[2] .

فقد بين -تعالى- أنه كلما ألقي في جهنم جماعة سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير يعني : سأل الفوج خزنة جهنم فقالوا لهم ألم يأتكم في الدنيا نذير ينذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه ؟ فيجيبونهم بأن النذير

---

(١) روح المعاني للألوسي ٨/١١٦ والآية رقم(٦) من سورة الجن .

(٢) سورة الملك آية / ٩ - ١١ .

جاءهم وأنذرهم هذا العذاب ولكنهم كذبوه وزعموا بأنه في ذهاب عن الحق بعيد (١).

وأخبر -تعالى- أن الكافرين يحشرون إلى جهنم صما وبكما وعميا ومنهم من يمشي على وجهه .

وقال تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصمّا مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) (٢).

وقال تعالى (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) (٣).

روى البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا قال : يانبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة " . قال قتادة بلى وعزة ربنا " (٤).

وروى الترمذي بإسناده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يارسول الله ؟ كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : ان الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل جدب وشوكة " . قال الترمذي هذا حديث حسن (٥).

---

(١) جامع البيان ٢٩/٥ .
(٢) سورة الاسراء آية / ٩٧ .
(٣) سورة الفرقان آية / ٣٤ .
(٤) صحيح البخارى ٣/١٦٩ ، صحيح مسلم ٤/٢١٦١ .
(٥) السنن ٤/٣٦٧ ، ورواه أحمد فى المسند ٢/٣٥٤ وفي لفظه " أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك " .

فتبين مما تقدم كيفية دخول أهل النار النار ، وأنها حالة موغلة تقشعر منها الجلود ، وتضطرب منها القلوب وأنها صورة مخيفة حيث يساقون إليها سوقا عنيفا مقرونا بالإهانة والإذلال والتحقير ، تكاد حلوقهم تتقطع من العطش والظمأ ، يلعن بعضهم بعضا ، ويحشرون إليها صما ، وبكما ، وعميا ، وبعضهم يمشون إليها على وجوههم وأولئك شر مكانا وأضل سبيلا .

- المبحث الثاني -

أبـــواب جهنـــــــــم

لقد جاء في السورة ذكر أبواب جهنم مجملة ، دون تحديد لعددها كما دلت على أن أبوابها تكون مغلقة ، وأنها لا تفتح إلا عند مجيء أهلها إليها يوم القيامة .

قال تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) . فالمراد بالأبواب المذكورة في هذه الآية هي أبواب جهنم السبعة .

قال تعالى : (وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم)[1] .

قال ابن جرير : " يقول تعالى ذكره لإبليس : وإن جهنم لموعد من تبعك أجمعين (لها سبعة أبواب) يقول : لجهنم سبعة أطباق ، لكل طبق منهم بعض من أتباع إبليس جزء ، يعني قسما ونصيبا مقسوما "أ.هـ[2] .

وقال ابن كثير : وقوله (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أي : جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده)[3] ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب (لكل باب منهم جزء مقسوم) أي : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه ، أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بقدر عمله "أ.هـ[4] .

---

(١) سورة الحجر آية / ٤٣ - ٤٤ .
(٢) جامع البيان ١٤/ ٣٥ (٣) سورة هود آية / ١٧ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٢ - ١٦٣ .

وقال أبو عبد الله القرطبي : قوله تعالى (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) يعني ابليس ومن اتبعه (لها سبعة أبواب) أي : أطباق ، طبق فوق طبق (لكل باب) أي : لكل طبقة (منهم جزء مقسوم) أي : حظ معلوم" أ.هـ.(١)

وكما جاء في الكتاب العزيز أن لجهنم سبعة أبواب ، كذلك ورد في السنة المطهرة أن أبوابها سبعة كذلك روى الترمذي بإسناده إلى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لجهنم سبعة أبواب ، باب منها لمن سل السيف على أمتي - أو قال على أمة محمد - " ثم قال الترمذي رحمه الله تعالى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك ابن مغول".(٢)

وقد فسر السلف الصالح قوله تعالى : (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم)(٣) بأن أبواب جهنم طبقات بعضها فوق بعض .

فقد أخرج ابن جرير بسنده إلى علي رضي الله عنه أنه قال : هل تدرون كيف أبواب النار؟ قالوا : كنحو هذه الأبواب قال : لا ، ولكن هكذا ووصف بعضها فوق بعض .

وقال أيضا رضي الله عنه : أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيمتلئ الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم تمتلئ كلها " .

وقال عكرمة : في قوله (لها سبعة أبواب) قال : لها سبعة أطباق وقال ابن جريج : في قوله (لها سبعة أبواب) قال : أولها جهنم ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، والجحيم فيها أبو جهل " .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٣٠ .

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٣) سورة الحجر آية / ٤٤ .

وقال قتادة : في قوله (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) هي : والله منازل بأعمالهم (١) .

وقد جاء في بعض الآيات القرآنية أن أبواب جهنم تكون مغلقة على أهل النار .

قال تعالى (إنها عليهم مؤصدة (٢)) أي : مطبقة مغلقة .

وقال تعالى (عليهم نار مؤصدة (٣)) .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : مغلقة الأبواب.

وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش أي : أغلقه (٤) .

وقال قتادة : (عليهم نار مؤصدة) أي : مطبقة ،أطبقها الله عليهم فلا ضوء فيها ولا فرج ، ولا خروج منها آخر الأبد .

وقال الضحاك : (مؤصدة) مغلقة عليهم (٥) .

وقال مقاتل : في قوله تعالى (مؤصدة) يعني : أبوابها مطبقة عليهم فلا يفتح لها باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح آخر الأبد (٦) .

وقد بين ابن رجب رحمه الله ـ تعالى ـ : أن هذا الأطباق نوعان :ـ

---

(١) جامع البيان ١٤/ ٣٥ - ٣٦ ،وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٣ .

(٢) سورة الهمزة آية / ٨ .

(٣) سورة البلد آية / ٢٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٩٨ ،وانظر الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٨٥ .

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٠/ ٢٠٧ .

(٦) ذكره ابن رجب في كتابه " التخويف من النار " ص ٦٠ .

أحدهما :-

إطباق خاص وهو لمن يدخل في النار ، أو من يريد الله التضييق عليه أجارنا الله من ذلك .

الثاني :-

إطباق عام وهو إطباق النار على أهلها المخلدين فيها وقد قال سفيان وغيره في قوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر)(١) قالوا : هو إطباق النار على أهلها)(٢) اهـ .

وقد قلنا فيما تقدم أن الآية التي صدرنا بها هذا المبحث وهي قوله تعالى (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها) فيها دلالة على أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند مجيء أهلها إليها يوم القيامة ، وذلك ليفجأهم عذابها ، وليكون ذلك أعظم في نكايتهم ، وزيادة في حسرتهم وندامتهم .

وقد ورد حديث صحيح دل على أن أبواب جهنم مفتوحة وأنها تغلق في رمضان .

روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ومردة الجن"(٣) .

قال القاضي عياض حول هذا الحديث : " يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته ، وأن تفتح أبواب الجنة وتغليق أبواب جهنم وتصفيد الشياطين علامة لدخول الشهر وتعظيم لحرمته ويكون التصفيد ليمتنعوا من إيذاء المؤمنين

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٣ . (٢) "التخويف من النار" ص ٦١ .
(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٢٥ ، صحيح مسلم ٢ / ٧٥٨ واللفظ له .

والتهويش عليهم .

قال : ويحتمل أن يكون المراد المجاز ويكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو وأن الشياطين يقل إغواؤهم إذا أوثقوا بالصفد بين ويكون تصفيدهم عن أشياء دون أشياء ولناس دون ناس .

قال : ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنة عبارة : عما يفتحه الله -تعالى- لعباده من الطاعات في هذا الشهر التي لا تقع في غيره عموما كالصيام والقيام وفعل الخيرات والإنكفاف عن كثير من المخالفات ، وهذه أسباب لدخول الجنة ، وأبواب لها وكذلك تغليق أبواب النار وتصفيد الشياطين عبارة عما ينكفون عنه من المخالفات " أ.هـ. (١)

والأولى حمل الحديث على الحقيقة ، ولا ضرورة تدعو إلى صرف الحديث عن ظاهره ، ولا منافاة بين الآية والحديث ، فقد تكون أبواب الجنة والنار مفتوحة في بعض الأحيان ، وتكون مغلقة في أوقات أخرى ، فمن هنا لا تعارض بين الآية والحديث وينبغي الإبتعاد عن تأويل الحديث بالتأويلات والإحتمالات التي ليس لها آية دلالة من اللفظ النبوي الشريف تؤيدها .

والذي نخلص إليه مما تقدم من الآيات وبعض الأحاديث أنه يجب على كل مسلم الإيمان بأن لجهنم سبعة أبواب كما نطق بذلك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن تلك الأبواب سيدخل منها أهل الكفر والشرك والجحود والنفاق على حسب أعمالهم وذنوبهم التي تلبسوا بها واقترفوها في الحياة الدنيا .

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٧/ ١٨٨ ، وانظر " الفتح " ٤/ ١١٤ .

ـ المبحث الثالث ـ

خزنـــــة جهنـــــم

الخزنة : جمع خازن مثل حفظة وحافظ وهو المؤتمن على الشـــيء الذي قد استحفظه "(١).

ولقد بينت السورة أن لجهنم خزنة من الملائكة يقومون عليها . قـــال تعالى (وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) .

فهذه الآية من السورة بين الله ـ تعالى ـ فيها أن خزنة جهنـــــم يوبخون أصناف الكفار الداخلين جهنم من جميع الأمم على الأعمال التي أوصلتهم إلى دار البوار بقولهم (ألم يأتكم رسل منكم) يعني : من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم ، وتتمكنون من التلقي عنهم عند ما يتلون عليكم آيات ربكـــم التي أرسلهم الله بها إليكم ، والتي دلت على الحق المبين بأوضح الأدلـــة والبراهين (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) وهو يوم القيامة ، وهذا مما يوجب عليكم أتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم باستعمال تقواه ، ولكـــن كانـــت حالكم بخلاف هذه الحال ، وعند ما يسمع الكفار كلام خزنة جهنم يجيبون مقرين بذنبهم وأن حجة الله قامت عليهم بقولهم (بلى) قد جاءتنا رسل ربنـــــا بالبينات والآيات الواضحات وحذرونا من هذا اليوم (ولكن حقت كلمة العـذاب على الكافرين) بسبب كفرهم حقت عليهم كلمة العذاب التي هي لكل من كفـــر بآيات ربه وجحد ما جاءت به رسل الله ، فأقروا بذنبهم وقيام حجة الله عليهم ،

---

(١) حادي الأرواح ص ٧٥ ، وانظر " بصائر ذوي التمييز " ٢ / ٥٣٥ ، والمفردات في غريب القرآن " ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

وعند ما يسمع الخزنة اعترافهم وإقرارهم بذنبهم يقولون لهم ؛ على وجه الإهانة والاذلال (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) فيخبرونهم بأن لهم الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي الذى لا يظعنون منه ولا يفتر عنهم ساعة ولا ينظرون لأنهم تكبروا عن الحق فجازاهم الله من جنس عملهم بالإهانة والذل والخزي والندامة (١).

وهذا الحوار يجرى بين خزنة جهنم ،وبين الكفار عند ما يساقون إليها أفواجا وجماعات متفرقة بعضها في أثر بعض وقد بين الله ـ تعالى ـ أن عدد خزنة جهنم تسعة عشر .

قال تعالى : (سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر (٢)) وقد استهان بعض المشركين بهذا العدد ، فقد روى ابن جرير بسنده إلى ابن عباس لما نزل قوله تعالى (عليها تسعة عشر) إلى قوله (ويزداد الذين آمنوا إيمانا (٣)) أن أبا جهل لما سمع ذلك قال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدهم (٤) أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم (٥) فرد الله عليه وعلى أمثاله بأن خزنة جهنم ليسوا رجالا وإنما هم من الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون بقوله ـ عز شأنه ـ (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) .

قال ابن زيد : ما جعلناهم رجالا فيأخذ كل رجل رجلا كما قال هذا يعني ـ أبا جهل ـ وإنما جعل الله الخبر عن عدة خزنة جهنم فتنة للذين كفروا لتكذ بيهم بذلك وقول بعضهم أنا أكفيكموهم .

---

(١) انظر جامع البيان ٢٤ / ٣٤ ،تفسير البغوى على حاشية " تفسير الخازن " ٦ / ٧١-٧٢ ،تفسير ابن كثير ٦ / ١١٢ ،وانظر " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان " ٧ / ٤٥-٤٦ .

(٢) سورة المدثر آية ٢٦ ـ ٣٠ . (٣) سورة المدثر آيه ٣٠-٣١ .

(٤) الدهم : العدد الكثير . النهاية ٢ / ١٤٥ .

(٥) جامع البيان ٢٩ / ١٥٩ .

قال مجاهد : قوله (تسعة عشر) قال : جعلوا فتنة .

قال أبو الأشد بن الجمحي : لا يبلغون رتوتي حتى أجهضهم عن جهنم)[١] .

وكما جعل الله ذلك العدد فتنة للذين كفروا بالله من قريش جعله استيقانا لأهل الكتاب وليزداد الذين آمنوا إيمانا .

قال تعالى : (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا)[٢] فقد أخبر - تعالى - أن عدة خزنة جهنم ليستيقن به أهل التوراة والإنجيل حقيقة ما في كتبهم من الخبر عن عدة خزنة ، جهنم ، إذا وافق ذلك ما أنزل الله في كتابه على محمد صلى الله عليه وسلم .

قال قتادة (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) قال : يصدق القرآن الكتب التي كانت قبله فيها كلها ، التوراة والإنجيل أن خزنة النار تسعة عشر .

وقال الضحاك بن مزاحم : عدة خزنة جهنم تسعة عشر في التوراة والإنجيل[٣] .

وروى الترمذي بإسناده إلى جابر رضي الله عنه قال : " قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هل يعلم نبيكم كم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا لا ندري حتى نسأله ، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد غلب أصحابك اليوم قال وبما غلبوا ؟ قال : سألهم يهود هل يعلم نبيكم كم عدد خزنة جهنم قال فما قالوا ؟ قال : قالوا لا ندري

---

(١) المصدر السابق ٢٩ / ١٦٠ .

(٢) سورة المدثر آية / ٣١ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٩ / ١٦١ .

حتى نسأل نبينا قال أفغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا ؛ أرنا الله جهرة علي بأعداء الله إني سائلهم عن تربة الجنة وهي الدرمك فلما جاءوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم ؟ قال : هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسعة قالوا : نعم " . . الحديث .(١)

فعدد خزنة جهنم تسعة عشر كما نص الله ـ تعالى ـ على ذلك في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل وفي الكتب السابقة التوراة والإنجيل .

وقد وصف الله ـ تعالى ـ هؤلاء الخزنة بأنهم غلاظ شداد .

قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)(٢) أي : بعزمهم ونيتهم لا يريدون أن يخالفوه في شيء أبدا (ويفعلون ما يؤمرون) أي : ولهم قوة على إبراز ما أمروا به من العزم إلى الفعل فلهم عزم صادق وأفعال عظيمة وقوة بليغة وشدة باهرة(٣) .

وقد سمى الله ـ تعالى ـ كبير هؤلاء الخزنة " مالكا " وهو اسم مشتق من الملك وهو القوة والشدة حيث تصرفت حروفه(٤) .

قال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون)(٥) أي : مقيمون في العذاب(٦) .

وقد أخبر ـ تعالى ـ أن أدوات التعذيب من سلاسل وأغلال بأيدي هؤلاء الخزنة يقودون بها أهل النار إلى النار قال تعالى (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه)(٧) .

---

(١) سنن الترمذي ٤/١٠٢ .
(٢) سورة التحريم آية / ٦ .
(٣) النهاية لابن كثير ٢/١٥٩ .
(٤) حادي الأرواح ص ٧٦ .
(٥) سورة الزخرف آية / ٧٧ .
(٦) تفسير الخازن ٦/١١٨ .
(٧) سورة الحاقة آية / ٣٠ .

وقال تعالى : (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر)[١] .

كما أخبر -تعالى- أن هؤلاء الخزنة هم الذين يقدمون لأهل النار الشراب والطعام الجهنمي .

قال تعالى (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا)[٢] .

وقال تعالى (إن لدينا أنكالا[٣] وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما)[٤] .

فالذي يقدم ذلك الشراب والطعام الجهنمي هم خزنة جهنم الذين يقومون عليها ، وكل ما تقدم من الآيات والأحاديث يدل على وجوب الإيمان بهؤلاء الخزنة الذين أسند الله إليهم القيام بتعذيب أهل النار ، ومن أنكرهم ، أو كذب بهم فقد وقع في ذلك أبوجهل وأشباهه من مشركي قريش .

---

(١) سورة القمر آية / ٤٨ .

(٢) سورة الكهف آية / ٢٩ .

(٣) الأنكال : قيود سوداء من نار جهنم ، جامع البيان ٢٩ / ١٣٥ .

(٤) سورة المزمل آية / ١٢-١٣ .

- المبحث الرابع -

إحاطة النار بأهلها وشدة عذابها

لقد دلت السورة على شدة عذاب جهنم وهوله ، وأن عذابها يحيط بالكافرين من كل الجهات وجميع الجوانب .

قال تعالى : (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون) .

وقال تعالى (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

وقال تعالى (ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئآت ماكسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) .

هذه الآيات من السورة فيها بيان لشدة عذاب جهنم الذي أعده الله للخاسرين الذين كفروا بربهم وظلموا أنفسهم بتكذيبهم رسله ، وإشراكهم مع الله غيره في العبادة ولم يخضعوا له بالعبادة ، والطاعة وحسن الإنقياد ، والإذعان لما أمرهم الله به ، والإبتعاد عما نهاهم عنه ، فآثروا المعاصي وارتكاب المآثم على طاعة الله - تعالى - فكان جزاؤهم أن يحيط بهم عذاب جهنم من جميع الجهات ، كما صرحت بذلك الآيات المتقدمة .

فالآية الأولى : من تلك الآيات هي قوله - تعالى - (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون)

هذه الآيـــة فيها بيان أن عذاب جهنم يحيط بالكافرين من فوقهم، ومن تحت أرجلهم ،فيكون العذاب فوقهم ،كهيئة الظلل المبنية من النار، ومن تحتهم من النار ما يعلوهم حتى يصير ما يعلوهم منها عن تحتهم ظللا(١) .

جاء في تفسير البغوي حول هذه الآية (لهم من فوقهم ظلل من النار) أي : أطباق وسرادقات من النار ودخانها (ومن تحتهم ظلل) فراش ومهاد من نار إلى أن ينتهي إلى القعر سمي الأسفل ظللا لأنها ظلل لمن تحتهم اهـ.(٢)

وأما الآية الثانية والثالثة : من مجموعة الآيات المتقدمة وهما قولـــه تعالى (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

فهاتان الآيتان : فيهما بيان أن الأمم السابقة كذبت الرسل الذيـــن أرسلهم الله إليهم كما فعل الكافرون من قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله بهم ألوانا من العذاب في الحياة الدنيا من الخسف والمسخ والإغراق ،والتدمير ،وجاءهم ذلك العذاب من جهة ما كانت تخطر علـــى بالهم ،وبسبب لم يكونوا يتوقعون أن يصل بهم إلى تلك النتيجة المؤلمة.(٣)

ثم فصل الله ذلك العذاب الذي أنزله الله بهم في الدنيا ،وما سيحل بهم من العذاب الشديد في الأخرى .

فقال تعالى (فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا) بما أنزله بهـــم من العذاب والنكال والذل والهوان وتشفي المؤمنين منهم . وفي هذا تحذير شديد لمن كذب خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام .

---

(١) جامع البيان ٢٣ / ٢٠٥ .

(٢) معالم التنزيل على حاشية "تفسير الخازن" ٦ / ٥٩ ، وانظـــر زاد المسير لابن الجوزي ٧ / ١٦٤ ، وانظر روح المعاني للألوســـي ٢٣ / ٢٥١ .

(٣) تفسير البيضاوي ص ٦١٠

وأما العذاب الذي سيلحقهم في الأخرى فقد بينه بقوله تعالى : (ولعذاب الآخرة أكبر) أي ؛ ولعقاب الله لهم في الدار الثانية الباقية أكبر وأشد وأنكى وأدهى وأبقى .

قال ابن جرير عند قوله تعالى (فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

يقول تعالى ذكره : (فعجل الله لهؤلاء الأمم الذين كذبوا رسلهم الهوان في الدنيا ، والعذاب قبل الآخرة ولم ينظرهم إذ عتوا عن أمر ربهم (ولعذاب الآخرة أكبر) .

يقول : ولعذاب الله إياهم في الآخرة إذا أدخلهم النار فعذبهم بها أكبر من العذاب الذي عذبهم به في الدنيا لوكانوا يعلمون يقول : لو علم هؤلاء المشركون من قريش ذلك (١) .

وأما الآية الرابعة والخامسة ؛ من مجموعة الآيات المتقدمة قريبا ، وهما قوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعا ومثله معه لا فتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ماكسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) .

فقد بين ـ تعالى ـ فيهما أن للمشركين والكافرين يوم القيامة ـ سوء العذاب ـ وهو أشده وأفظعه لأنهم أصروا على الكفر الذي ليس بعده ذنب وأنهم على الفرض والتقدير لو كان لهم مافي الأرض جميعا من ذهبها وفضتها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها ، ومثله معه ، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب ، وينجوا منه ، ماقبل منهم ولا أغنى عنهم

---

(١) جامع البيان ٢٣ / ٢١٢ .

من عذاب الله شيئا ، وحينئذ يظهر لهم من سخط الله وغضبه وانتقامه وبطشه مالم يعر لهم على بال ، أو يدور بخلد .

وهناك يتضح لهم قبائح أعمالهم ، وتحيط بهم خطيئاتهم ويحدق بهم العذاب الذى كانوا يسخرون من ذكره أو الإنذار به[1] . (وبدا لهم سيئآت ماكسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) .

وببيان معانى الآيات الخمس المتقدمة من السورة تبين وجه دلالة السورة على شدة عذاب جهنم وهوله وأن عذابها لا يقادر قدره ، ولا يخطر على بال .

وقد وردت آيات كثيرة في معنى تلك الآيات التي تقدم ذكرها وكلها تبين شدة عذاب جهنم وإحاطته بالكافرين من جميع الجهات والجوانب .

قال تعالى (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين)[2] .

قال محمد بن كعب القرظي : (لهم من جهنم مهاد) ، قال : الفراش (ومن فوقهم غواش) قال : اللحف . وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي .

وقال ابن جرير : وأما قوله (وكذلك نجزي الظالمين) فإنه يقول : وكذلك نثيب من ظلم نفسه فأكسبها من غضب الله مالا قبل لها به بكفره بربه وتكذيبه أنبياءه[3] .

---

(١) مستفاد من جامع البيان ٢٤ / ١١-١٢ ، وتفسير القرآن العظيم ٦ / ٩٨-٩٩ ، ومعالم التنزيل للبغوي على حاشية تفسير الخازن ٦ / ٦٦ .

(٢) سورة الأعراف آية / ٤١ .

(٣) جامع البيان ٨ / ١٨٢ .

وقال البغوي رحمه الله : (لهم من جهنم مهاد) أي : فراش (ومن فوقهم غواش) أي : لحف وهي جمع غاشية يعني ماغشاهم وغطّاهم يريد إحاطة النار بهم من كل جانب "أ. هـ (١).

وقال تعالى (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ماكنتم تعملون) (٢).

وفي هاتين الآيتين : يبين الله ـ تعالى ـ أن عذاب جهنم محيط بالكافرين ويغشاهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول الله لهم : ذوقوا ماكنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله وما يسخطه فيها .

وقال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون) (٣)

ومعنى هاتين الآيتين : "لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم ماذا لهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون فلا يكفون عن وجوههم النار التي تلفحها ،ولا عن ظهورهم فيدفعونها عنها بأنفسهم (ولا هم ينصرون) يقول :ولا لهم ناصر ينصرهم ،فيستنقذهم حينئذ من عذاب الله لما أقاموا على ماهم عليه مقيمون من الكفر بالله ، ولسارعوا إلى التوبة منه ،والإيمان بالله ،ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء" أ. هـ (٤).

---

(١) معالم التنزيل على حاشية "تفسير الخازن" ٢ / ١٨٩ .
(٢) سورة العنكبوت آية / ٥٤ - ٥٥ .
(٣) سورة الأنبياء آية / ٣٨ - ٣٩ .
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٧ / ٢٨ .

وقال تعالى مبينا شدة النار التي أعدها للظالمين (إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها)[١].

قال ابن عباس: (أحاط بهم سرادقها) قال : حائط من نار[٢].

وقال تعالى (لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق)[٣].

قال ابن كثير حول هذه الآية " ذكر - تعالى - عقاب الكفار وثواب الأبرار فقال : بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك (لهم عذاب في الحياة الدنيا) أي : بأيدي المؤمنين - قتلا وأسرا - (ولعذاب الآخرة أشق) أي : المدخر مع هذا الخزي في الدنيا (أشق) أي : من هذا بكثير كما قال صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين " إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة)[٤]. وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه فإن عذاب الدنيا له انقضاء وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته "[٥].

ما أصحاب الشمال

وقال تعالى (وأصحاب الشمال/في سموم وحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم)[٦].

قال ابن عباس : ظل من دخان .

وقال مجاهد : ظل من دخان جهنم وهو السموم .

وقال أبو مالك : اليحموم ظل من دخان جهنم .

---

(١) سورة الكهف آية / ٢٩ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٣٨٤ .
(٣) سورة الرعد آية / ٣٤ .
(٤) رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ٢ / ١١٣١ والدارمي في سننه ٢ / ١٥١ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٩٧-٩٨ .
(٦) سورة الواقعة آية / ٤١ - ٤٤ .

وقال الحسن وقتادة : في قوله (لا بارد ولا كريم)[١] لا بارد المدخل ولا كريم المنظر .

والسموم : هو الريح الحارة قاله قتادة وغيره .

وهذه الآية : تضمنت ذكر ما يتبرد به في الدنيا من الكرب والحر وهو ثلاثة : الماء ،والهواء ،والظل .

فهواء جهنم : السموم وهو الريح الحارة الشديدة الحر .

وماؤها الحميم : الذي قد اشتد حره ، وظلها : اليحموم وهو قطع دخانها أجارنا الله من ذلك كله بكرمه ومنه[٢] .

وقال تعالى : (وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرّا لو كانوا يفقهون)[٣] .

هذه الآية بين الله -تعالى- فيها أن حرارة جهنم لا يمكن أن تقاس بالمقاييس التي يعرفها البشر بالنسبة لدرجات الحراره لأنها نار اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق ،وهي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة . فلا يستطيع أحد أن يقيسها بنار الدنيا .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم شدة ارتفاع حرارة جهنم بقوله : " ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم " .

قالوا : والله إن كانت لكافية يارسول الله قال : " فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها[٤] " .

---

(١) سورة الواقعة آية / ٤٤ .
(٢) التخويف من النار" لابن رجب " ص ٨٢ .
(٣) سورة التوبة آية / ٨٢ .
(٤) رواه البخاري ومسلم صحيح البخاري ٢ / ٢١٩ ،صحيح مسلم٤ / ٢١٨٤ ، واللفظ له وكلاهما من حديث أبي هريرة .

وقوله عليه الصلاة والسلام " ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم يعني أنه لو جمع كل ما في الوجود من النار التي يوقد ها ابن آدم لكانت جزءا من أجزاء جهنم المذكور ، وبيانه أنه لو جمع حطب الدنيا فأوقد كله حتى صار نارا لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءا أشد من حر نار الدنيا كما بينه في آخر الحديث .

وقوله " وإن كانت لكافية " إن هنا مخففة من الثقيلة عند البصريين نظيره (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله)(١) أي : انها كانت كافية فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنها كما فضلت عليها في المقدار والعدد بتسعة وستين فضلت عليها أيضا : في شدة الحر بتسعة وستين ضعفا "(٢) .

وروى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اشتكت النار إلى ربها فقالت : رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ، فأشد ما تجدون من الحر ، وأشد ما تجدون من الزمهرير "(٣) .

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن شدة الحرارة في الصيف وشدة البرد في الشتاء إنما ذلك بسبب تنفس جهنم أعاذنا الله منها .

وروى مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة . فيصبغ في النار صبغة(٤) ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣/ (٢) التذكرة للقرطبي ص ٣٩٥ .
(٣) صحيح البخاري ٢ / ٢١٩ .
(٤) " فيصبغ في النار صبغة " أي : يغمس غمسة .

فيقول : لا والله يارب وبؤتي بأشد الناس بؤسا[1] في الدنيا من أهل الجنه فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مرّ بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مر بي بؤس قط . ولا رأيت شدة قط[2] .

وروى البخارى من حديث النعمان بن بشير قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه كما يغلي المرجل[3] والقمقم[4] "[5] .

وهذان الحديثان فيهما بيان لشدة عذاب جهنم ، وأن عذابها أليم ، لا يقادر قدره ، ويجب الفرار منه بطاعة الله - عز وجل - .

ثم من المتعارف عليه عند الناس في هذه الحياة الدنيا أنهم يوقدون لما يحتاجون إليه من طعام وغيره بالحطب من الأشجار ، وبما استجد من الغازات في عصرنا هذا وغير ذلك مما هو صالح استعماله للوقود .

أما وقود جهنم فإنه الناس والحجارة . كما قال تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[6] .

قال ابن جرير : " فإن قال قائل : وكيف خصت الحجارة فقرنت بالناس حتى جعلت لنار جهنم حطبا ؟ قيل : إنها حجارة الكبريت وهي أشد الحجارة فيما بلغنا حرّا إذا أحميت .

---

(١) " بؤسا " البؤس : هو الشدة . (٢) صحيح مسلم ٤/٢١٦٢ .
(٣) المرجل : قدر من نحاس ، ويقال : لكل إناء يغلي فيه الماء من أي صنف كان " الفتح ١١/٤٣١ .
(٤) القمقم : إناء من آنية العطار ، ويقال : هو إناء ضيق الرأس يسخن فيه الماء يكون من نحاس وغيره " الفتح ١١/٤٣١ .
(٥) صحيح البخارى ٤/١٣٨ .
(٦) سورة البقرة آيه /٢٤ .

وروى بإسناده إلى ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : (وقودها الناس والحجارة) قال : هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين " .

وفي رواية ثانية عنه أنه قال في قوله : (وقودها الناس والحجارة) قال : حجارة الكبريت جعلها الله كما شاء " .

وقال ابن عباس وغيره : في قوله (اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار "(١)

قال القرطبي : في شأن هذه الحجارة : "وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الحجارة بخمسة أنواع من العذاب .

١) سرعة الإيقاد .

٢) ونتن الرائحة .

٣) وكثرة الدخان .

٤) وشدة الإلتصاق بالأبدان .

٥) وقوة حرها إذا حميت .

وقيل : المراد بالحجارة الأصنام لقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)(٢) أي : حطب وهو ما يلقى في النار مما تذكى به "أ.هـ."(٣)

---

(١) أنظر هذه الروايات في جامع البيان ١/١٦٨-١٦٩ .
(٢) سورة الأنبياء آية / ٩٨ .
(٣) التذكرة ص ٤٠٧ .

ـ المبحث الخامس ـ

صفات أهـــل النـــار

لقد ذكر في السورة بعض صفات أهل النار ، وكما هو معلوم أنه ينبغي للمسلم أن يكون على علم ومعرفة لصفاتهم حتى يجتنبها ويبتعد عن التخلق بها حتى لا يقع فيها دون أن يدري ومن صفات أهل النار التي ذكرت في السورة :

أ ـ شدة ظلمهم واختلاقهم الكذب على الله والإفتراء عليه بنسبة الولد اليه ، أو يجعلون له الأنداد ، والشركاء ، أو يعبدون معه غيره من المخلوقين بدعوى أنه يقربهم إلى الله زلفى .

قال تعالى : (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين) .

فهذه الآية من السورة إلى جانب أنها بينت صفات يتخلق بها أهل النار إلا أنها أيضا : تضمنت التحذير والإخبار بأنه لا أظلم ممن كذب على ربه بنسبته إلى مالا يليق بجلاله ، أو بادعاء النبوة أو الإخبار بأنه ـ تعالى ـ قال كذا : أو أخبر بكذا : وهو كاذب فهذا يدخل في عموم قوله ـ تعالى ـ (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)[1] إن كان جاهلا أما إن كان عالما فهو أشنع وأفظع .

كما بينت أن من يرد الحق المؤيد بالبينات بتكذيبه فإنه ظلم عليم لأنه رد للحق بعد تبينه ، والذي يجمع بين الكذب على الله والتكذيب بالصدق كان ظلما على ظلم ، وجزاء من يتسم بذلك جهنم ولذلك ختم الله الآية بقوله (أليس في جهنم مثوى للكافرين) فهي مقام ومستقر كل ظالم وكافر ينال جزاءه على عمله بها .

---

(١) سورة الاعراف آية / ٣٣ .

وجاء في زاد المسير : قوله تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله) بأن ادعى له ولدا وشريكا (وكذب بالصدق اذ جاءه) وهو التوحيد والقرآن (أليس في جهنم مثوى للكافرين) أى : مقام للجاحدين وهذا استفهام بمعنى التقرير يعني إنه كذلك " أ.هـ.(١)

وقال ابن كثير : حول قوله -تعالى- (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه) .

" يقول -عز وجل- مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات الله وجعلوا لله ولدا -تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولهذا قال -عز وجل- (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه) أي لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله وكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : الباطل وردوا الحق ولهذا قال جل عظمته متوعدا لهم (أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟) وهم الجاحدون المكذبون " أ.هـ.(٢)

ب - ومن صفات أهل النار القبيحة التي ورد ذكرها في السورة .

أنهم حينما يذكر -الباري جل وعلا- تشمئز قلوبهم ، وتتقزز نفوسهم وتنقبض صدورهم ، وينفرون من التذكير لأنهم لا يؤمنون بالمعاد ولا يخافون سوء الحساب .

قال تعالى مبينا هذه الصفة الذميمة : (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) .

---

(١) ٧/١٨٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/٩٢ - ٩٣ .

فهذه الآية الكريمة من السورة أوضحت أن أهل النار حينما يذكر عندهم الباطل وأهله من الأصنام والطواغيت فإنهم يبتهجون ويفرحون وتطفح وجوههم بالبشر والسرور والبهجة ،وتجدهم يغضبون على من يتنقصها وينتقمون منه بأنواع الإيذاء .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى حول هذه الآية :

" يقول تعالى ذكره : وإذا أفرد الله جل ثناؤه بالذكر ،فدعي وحده وقيل " لا إله إلا الله " اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالمعاد والبعث بعد الممات وعنى بقوله (اشمأزت) : نفرت من توحيد الله (وإذا ذكر الذين من دونه) يقول : وإذا ذكر الآلهة التي يدعونها من دون الله مع الله فقيل : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتها لترتجى إذا الذين لا يؤمنون بالآخرة يستبشرون بذلك ويفرحون "أ.هـ.(١)

ج :ومن صفات أهل النار التي ذكرت في السورة الإستكبار عن الإيمان بآيات الله والترفع عنها ،وعدم الإذعان والانقياد لها .

قال تعالى : (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ، ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) .

وهاتان الآيتان من السورة بين الله ـ تعالى ـ فيهما أن الإستكبار عن الحق ،والتكبر على الخلق من موجبات النار .

قال ابن رجب رحمه الله ـ تعالى ـ : "وأما المستكبر فهو الذي يتعاظى الكبر على الناس والتعاظم عليهم وقد قال تعالى (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) "أ.هـ.(٢)

---

(١) جامع البيان ٢٤ / ١٠ .
(٢) التخويف في النار ص ١٩٨ .

فقوله ـ تعالى ـ (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) تضمنت ثلاث صفات كلما بلغت النهاية في القبح ، وتدل على شناعة الإستكبار ، فالمستكبر يقع بين أقبح الجرائم على الإطلاق ، وهما التكذيب بآيات الله وهو كفر ، ثم الكفر الصريح دل على ذلك قوله تعالى (وكنت من الكافرين) .

وأما قوله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) .

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة (ترى الذين كذبوا على الله) كلمة شاملة يدخل فيها من كذب على الله بادعاء الولد ، أو الشريك ، أو الصاحبة ، أو المعبود الذي يقرب إلى الله أو يشفع عنده ، أو يزعم أن الله يزعمون أنه حرم شيئا ، أو أحل شيئا ـ خلاف ما جاء به دينه الحنيف كتحريم البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامي التي كان يقربها المشركون على الله بغير علم .

قال أبو عبد الله القرطبي : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) أي : مما أحاط بهم من غضب الله ونقمته (١) .

فوجوه أهل النار يوم القيامة تسود وتكون مغطاة بالسواد كما قال تعالى في موضع آخر (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) (٢) .

وكقوله تعالى (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٧٥ .
(٢) سورة آل عمران آية / ١٠٦ .
(٣) سورة يونس آية / ٢٧ .

وقوله تعالى : (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) بين ـ سبحانه ـ أن الكبر من أقبح الصفات الذميمه التي تجعل من جهنم مثوى ومستقرا لمن تخلق به وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم معني الكبر : بقوله " الكبر : بطر الحق وغمط الناس " (١) .

قال النووي : بطر الحق : دفعه ورده على قائله ، وغمط الناس : احتقارهم " أ . هـ (٢) .

وصفات أهل النار التي تقدم ذكرها كما قلنا سابقا إنما هي بعض صفاتهم التي وردت في السوره ، وإلا فلهم صفات أخرى ذكرت في غيرها من سور القرآن وفي السنة المطهره . مثل النفاق فإنه صفة من صفات أهل النار .

قال تعالى (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) (٣) .

ومثل ترك الصلاة وعدم إطعام المساكين والتكذيب بالرجوع إلى الله ـ تعالى ـ ولقد أخبر ـ تعالى ـ أن أهل الجنة يسألون أهل النار عن السبب الذي دخلوا به النار بقوله تعالى (ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين) (٤) .

ومثل الطغيان ، وحب الدنيا وإيثارها على الآخره ، فإن ذلك من صفات أهل النار .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ١/٩٣ من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .
(٢) رياض الصالحين ص ٢٨٥ .
(٣) سورة النساء آيه / ١٤٥ .
(٤) سورة المدثر آية / ٤٢ - ٤٦ .

قال تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى)[١] . إلى غير ذلك من السمات الذميمة الكثيرة التي يصعب حصرها هنا ، وكما بين القرآن صفات أهل النار كذلك بين النبي صلى الله عليه وسلم صفاتهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام " وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له ، الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا ، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك " وذكر البخل أو الكذب " والشنظير الفحاش "[٢] .

ففي هذا الحديث قسم النبي صلى الله عليه وسلم أهل النار خمسة أصناف :

الصنف الأول :-

الضعيف الذي لا زبر له ، ويعني بالزبر القوة والحرص على ما ينتفع به صاحبه في الآخرة من التقوى والعمل الصالح .

الصنف الثاني :-

الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ، أي يعني لا يقدر على خيانة ولو كانت حقيرة يسيرة إلا بادر اليها واغتنمها ، ويدخل في ذلك التطفيف في المكيال والميزان وكذلك الخيانة في الأمانات القليلة كالودائع وأموال اليتامى وغير ذلك وهو خصلة من خصال النفاق ، ويدخل في الخيانة من خان الله ورسوله في ارتكاب المحارم سرا مع إظهار اجتنابها .

الصنف الثالث :-

المخادع الذي دأبه صباحا ومساءا مخادعة الناس على أهليهم وأموالهم ، والخداع من أوصاف المنافقين كما وصفهم الله - تعالى - بذلك ، والخداع معناه إظهار الخير وإضمار الشر لقصد التوصل إلى أموال الناس وأهاليهم والانتفاع

---

(١) سورة النازعات آية / ٣٧ - ٣٩ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي ٤/ ٢١٩٨ - ٢١٩٩ .

بذلك ،وهو من جملة المكر والحيل المحرمة ، بنص الشارع .

الصنف الرابع :-

الكذب والبخل ،ولم يحفظ الراوي ما قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا حفظا جيدا ،والكذب والبخل خصلتان .

والكذب والبخل كلاهما ينشأ عن الشح ،والشح هو شدة حرص الإنسان على ماليس له من الوجوه المحرمة ، وينشأ عنه البخل وهو إمساك الإنسان ما في يده والإمتناع عن إخراجه في وجوهه التي أمر بها ، فالمخادع الذي سبق ذكره هو الشحيح وهذا الصنف هو البخيل ،فالشحيح أخذ المال بغير حقه والبخيل منعه من حقه ، وينشأ عن الشح أيضا : الكذب والمخادعة ،والتحيل على مالا يستحقه الإنسان بالطرق الباطلة المحرمة قال صلى الله عليه وسلم "إن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار"(١) .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم "ماعمل أهل النار ؟ قال : "الكذب ، إذا كذب العبد فجر ،وإذا فجر كفر ، وإذا كفر دخل النار"(٢) .

الصنف الخامس :-

الشنظير : وقد فسر بالسيء الخلق ، والفحاش هو الفاحش المتفحش وفي حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه"(٣) .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤/ ٦٥ ،ورواه مسلم أيضا في صحيحه ٤/ ٢٠١٣ ، كلاهما من حديث ابن مسعود .

(٢) ٢/ ١٧٦ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ٤/ ٧٠ ،ومسلم ٤/ ٢٠٠٢ ، كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنهما .

وروى الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله ليبغض الفاحش البذي"(١) والبذيء الذي يجري لسانه بالسفه ونحوه من لغو الكلام .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "حسب الرجل أن يكون فاحشا بذيئا بخيلا جبانا"(٢) فالفاحش هو الذي يفحش في منطقة ويستقبل الرجال بقبيح الكلام من السب ونحوه ،ويأتي في كلامه بالسخف وما يفحش ذكره "أ.هـ"(٣).

ومن صفات أهل النار التي وضحها النبي صلى الله عليه وسلم مخالفتهم الحق بعد معرفتهم له ،وقد يأمرون به ولا يفعلونه ،ويرتكبون المنكر وهم يعرفون أنه منكر ، وقد ينهون عنه مراءاة للناس وتعمية لأفعالهم روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله -تعالى- عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يجاء برجل فيطرح في النار فيطحن فيها كما يطحن الحمار برحا ، فيطيف به أهل النار فيقولون : أي فلان ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمر بالمعروف ولا أفعله ، وأنهى عن المنكر وأفعله"(٤).

وفيهما من حديث حارثة بن وهب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر"(٥).

قال النووي : العتل : الغليظ الجافي ، والجواظ : هو الجموع المنوع وقيل : الضخم المختال في مشيته ، وقيل : القصير البطين "أ.هـ"(٦).

---

(١) السنن ٣/٢٤٤ .
(٢) ٤/١٤٥ من حديث عقبة بن عامر رضي الله -تعالى عنه- .
(٣) التخويف من النار لابن رجب ص ٢٠٤ .
(٤) صحيح البخاري مع الفتح ١٣/٤٨ ، ومسلم ٤/٢٢٩٠-٢٢٩١ .
(٥) صحيح البخاري مع الفتح ٨/٦٦٢ ، ومسلم ٤/٢١٩٠ .
(٦) رياض الصالحين ص : ١٣١ .

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال الله - عز وجل - العز إزاره والكبرياء ردائه فمن ينازعني عذبته "(١) .

فالمستكبر يعرض نفسه للذل والهوان فالذي يتعالى على الناس ويتعاظم عليهم فعاقبة عمله ذلك أنه يذل ويهان بسبب تعاظمه وتعاليه على الناس ، ومنازعته ربه فيها يختص به من الصفات كما قال تعالى : (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)(٢) .

هذه عقوبة المتكبر الشنيعة التي يجازى بها بعد الرجوع إلى الله - جل وعلا - ومن صفات

ومن صفات أهل النار التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم اتباعهم الشهوات روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حجبت الجنة بالمكاره وحجبت النار بالشهوات "(٣) .

وعند مسلم " حفت الجنة بالمكاره وحجبت النار بالشهوات "(٤) .

" المكاره كل ما يشق على النفس فعله ويصعب عليها عمله كالطهارة في السبرات وغيرها من أعمال الطاعات ، والصبر على المصائب وجميع المكروهات .

---

(١) ٤/٢٠٢٣ . (٢) سورة الأحقاف آية / ٢٠ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ١١/٣٢٠ .

(٤) ٤/٢١٧٤

والشهوات كل ما يوافق النفس ويلائمها وتدعو إليه ويوافقها وأصل الحفاف الدائر بالشيء المحيط به الذي لا يتوصل اليه الا بعد أن يتخطى فشبّه صلى الله عليه وسلم المكاره والشهوات بذلك ، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره ، والصبر عليها ، والنار لا ينجو منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها(١) .

وروى الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم(٢) .

قال الله -عز وجل- للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها " .

وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع عليها رجله فتقول : قط ، قط(٣) ، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم من خلقه أحدا ، وأما الجنة فان الله ينشئ لها خلقا(٤) .

---

(١) التذكرة للقرطبي ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢) سقطهم : أي ضعفاؤهم والمحتقرون منهم .
شرح النووي ١٧/ ١٨١ .

(٣) قط قط : بمعنى : حسب وتكرارها للتأكيد .
النهاية لابن الأثير ٤/ ٧٨ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ١٣/ ٤٣٤ ، صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٦ ، واللفظ له .

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صنفان من أهل النار لم أرهما :
قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات
مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت[1] العائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن
ريحها وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا[2] .

وأعمال أهل النار وصفاتهم كثيرة جدا وقد استوفى الكثير منها شيخ
الاسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى[3] .

---

(١) معناه : أنهن يعظمن رؤوسهن بالخمر والعمائم وغيرها مما يلف على
الرأس حتى تشبه أسنمة الإبل البخت " . شرح النووي ١٧/ ١٩١ .

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢١٩٢ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٢٣ - ٤٢٤ .

- المبحث السادس -

أبدية النار ودوام عذابها

لقد دلت السورة على أبدية النار ودوام عذابها في قوله -تعالى- (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون . من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) ،

وقال تعالى ج (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) .

هذه الآيات من السورة فيها دلالة واضحة على أن عذاب جهنم دائم ومستمر لا انقطاع له ، وأن أهلها خالدون مخلدون فيها .

فالآية الأولى : من هذه الآيات وهي قوله -تعالى- (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون) فيها أمر من الله -تعالى- لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يهدد المشركين ويتوعدهم بالعذاب إن هم استمروا على شركهم وكفرهم بالله تعالى .

ويخبرهم بأنه ثابت ومستمر على طريقته وملته ودينه وأنه لن يحيد عن التوحيد والإيمان بالله -تعالى- وأن المستقبل سيكشف لهم عمن ينزل به عذاب الله في الدنيا فيخزيه ، ثم في الآخرة يحل به العذاب الدائم الذي لا انقطاع له وهو عذاب جهنم .

قال ابن جرير عند قوله تعالى : (من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) .

وقوله (من يأتيه عذاب) يقول تعالى ذكره : من يأتيه عذاب يخزيه ، ما أتاه من ذلك العذاب ، يعني يذله ويهينه (ويحل عليه عذاب مقيم) يقول : ينزل عليه عذاب دائم لا يفارقه "أ. هـ. (١)

وقال العلامة ابن كثير : (من يأتيه عذاب يخزيه) أي : في الدنيا (ويحل عليه عذاب مقيم) أي : دائم مستمر لا محيد له عنه وذلك يوم القيامة". أ. هـ. (٢)

وجاء في تفسير روح المعاني : قوله تعالى : (من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) فإن الأول إشارة إلى العذاب الأخروي فإن العذاب المقيم عذاب النار "أ. هـ. (٣)

وجاء في فتح القدير : (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) أي : يهينه ويذله في الدنيا فيظهر عند ذلك أنه المبطل وخصمه المحق ، والمراد بهذا العذاب عذاب الدنيا وما حل بهم من القتل والأسر والقهر والذلة .

ثم ذكر عذاب الآخرة فقال : (ويحل عليه عذاب مقيم) أي : دائم مستمر في الدار الآخرة وهو عذاب النار "أ. هـ. (٤)

وأما قوله تعالى : (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) .

فقد قال ابن جرير حول هذه الآية : "يقول تعالى ذكره : (فتقول خزنة جهنم للذين كفروا حينئذ : (أدخلوا أبواب جهنم) السبعة على قدر

---

(١) جامع البيان ٢٤ / ٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٩٥ .
(٣) ٢٤ / ٧ .
(٤) ٤ / ٤٦٥ .

منازلكم فيها (خالد بن فيها) يقول : ماكثين فيها لا ينظون إلى غيرهـا (فبئس مثوى المتكبرين) يقول : فبئس مسكن المتكبرين على الله في الدنيا ، أن يوحدوه ويفردوا له الألوهـة جهنم يوم القيامة " أ.هـ.(١)

وقال ابن كثير : " وقوله تبـارك وتعالى هـهنا (قيل ادخلوا أبـواب جهـنم خالد بن فيها) أي : كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهـم مستحقون للعذاب ولهـذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقـه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهـم يستحقون ماهم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ولهـذا قال ـ جل وعلا ـ (قيل ادخلوا أبواب جهـنم خالد بن فيها) أي : ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها (فبئس مثوى المتكبرين) أي : فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيـا وإبائكم عن اتباع الحق فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه فبئس الحال وبئـس المآل " أ. هـ.(٢)

ومن أقوال العلماء التي سقناها حول الآيات الثلاث المتقدمة مـن السورة يتبين وجه دلالة السورة على أبدية النار ودوامها وعدم فنائهـا وخلود أهلها فيها وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تدل على أبدية النـار ودوام عذاب الكفار فيها .

قال تعالى (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا)(٣) .

وقال تعالى : (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيهـا أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا)(٤) .

(١) جامع البيان ٢٤ / ٣٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦ / ١١٢ .
(٣) سورة النساء آية / ١٦٨ - ١٦٩ .
(٤) سورة الأحزاب آية = ٦٤ .

وقال تعالى : (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون)[١]

قال عبد الله بن عمرو : أهل النار يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يقول : إنكم ماكثون ، ثم يدعون ربهم فيقولون : ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فلا يجيبهم مثل الدنيا ثم يقول : إخسأوا فيها ولا تكلمون ثم ييأس القوم فما هو إلا الزفير والشهيق تشبه أصواتهم أصوات الحمير أولها شهيق وآخرها زفير[٢] .

وقال تعالى : (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[٣] .

وقال تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا)[٤] .

فهذه الآيات القرآنية دلت على أن عذاب جهنم لا انقطاع له ، وأن أهلها من الكفار والمشركين والجاحدين خالدون مخلدون فيها " أي : لا يخرجون منها ولا هي تفنى بهم ، فيزولوا بزوالها ، وإنما هي حياة أبدية لا نهاية لها[٥] .

" فإذا جاء " مع لفظ خلود الكفار في النار وصف بتأبيده كان ذلك تأكيدا للخلود الذي لا نهاية له ولا أمد لا نقضائه[٦] .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل النار خالدون فيها أبدا .

---

(١) سورة الزخرف آية / ٧٧ .
(٢) أنظر مجمع الزوائد ١٠ / ٣٩٦ ، وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .
(٣) سورة الأعراف آية / ٣٦ .
(٤) سورة الجن آية / ٢٣ .
(٥) انظر تفسير المنار ١ / ٢٣٤ .
(٦) انظر كتاب " الإنسان في القرآن الكريم لعبد الكريم الخطيب ص ٤٧٠ " .

فقد روى الامام مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وصار أهل النار إلى النار ، أتي بالموت حتى يجعل بين الجنه ، والنار ثم يذبح و ثم ينادى مناد : يا أهل الجنه لا موت ، ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم"(١).

"فهذا الحديث نص صريح في خلود أهل النار فيها ، لا إلى غاية ولا إلى أمد ، مقيمين على الدوام والسرمد من غير موت ولا حياة ، ولا راحة ، ولا نجاة ، بل كما قال تعالى في كتابه الكريم وأوضح فيه عن عذاب الكافرين (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور)(٢) . . . فمن قال إن أهل النار يخرجون منها وأن النار تبقى خالية بجملتها خاوية على عروشها ، وأنها تفنى ، وتزول فهو خارج عن مقتضى المعقول ، ومخالف لما جاء به الرسول ، وما أجمع عليه أهل السنة ، والأئمة العدول .

قال تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا)(٣) ، وانما تخلى جهنم وهي الطبقة العليا التي فيها العصاة من أهل التوحيد(٤).

والخلاصة مما تقدم أنه يجب على المسلم أن يؤمن بما دل عليه كتاب الله وسنه رسوله بأن أهل الكفر والشرك والالحاد خالدون في النار خلودا مؤبدا ، دائما بلا انقطاع ، ولا فتور وعلى هذا أجمع علماء الاسلام ، وأئمته العدول .

---

(١) ٤/٢١٨٩ .
(٢) سورة فاطر آية / ٣٦ - ٣٧ .
(٣) سورة النساء آية / ٥٦ .
(٤) انظر التذكرة للقرطبي ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

قال أبو الحسن الأشعري :

" قال أهل الاسلام جميعا ليس للجنة والنار آخر ، وأنهما لا تزالان باقيتين ، وكذلك أهل الجنة لا يزالون في الجنة يتنعمون وأهل النار لا يزالون في النار يعذبون وليس لذلك آخر ولا لمعلوماته ومقدوراته غاية ولا نهاية "(١).

وقال ابن حزم في معرض حكايته الأمور التي أجمع عليها المسلمون :

" وأن النار حق وأنها دار عذاب أبدا لا تفنى ، ولا يفنى أهلها أبدا بلا نهاية وأنها أعدت لكل كافر مخالف لدين الإسلام ولمن خالف الأنبياء السالفين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم الصلاة والتسليم وبلوغ خبره إليه "(٢).

وقال العلامة السيوطي مصرحا بعدم فنائها :-

ثمانية حكم البقاء يعمها ... من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسي ونار وجنة ... وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم (٣)

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله : " وأما النار فإنها دار الخبث في الأقوال والأعمال والمآكل والمشارب ودار الخبيثين ، فالله - تعالى - يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشيء لتراكب بعضه على بعض ثم يجعله في جهنم مع أهله فليس فيها إلا خبيث ، ولما كان الناس على ثلاث طبقات ، طيب لا يشوبه خبث ، وخبيث لا طيب فيه

---

(١) أنظر المقالات ١/ ٢٤٤ .

(٢) مراتب الإجماع ص ١٧٣ .

(٣) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الامام ابن القيم ١/ ٩٦ .

وآخرون فيهم خبث وطيب كانت دورهم ثلاثة :-

دار الطيب المحض .

ودار الخبث المحض .

وهاتان الداران لا تفنيان ؛

ودار لمن معه خبث وطيب وهي الدار التي تفني وهي دار العصاة ، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد ، فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض[1] .

وقال الطحاوي :-

" والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان ولا تبيدان "[2] .

وقال السفاريني : بعد أن ساق كثيرا من الأدلة الدالة على أبدية الجنة والنار " فثبت بما ذكرنا من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الدارين خلودا مؤبدا كل بما هو فيه من نعيم وعذاب أليم وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة ، فأجمعوا على أن عذاب الكفار لا ينقطع كما أن نعيم أهل الجنة لا ينقطع ودليل ذلك الكتاب والسنة ، وزعمت الجهمية أن الجنة والنار تفنيان ، وقال هذا إمامهم جهم بن صفوان امام المعطلة ، وليس له في ذلك سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين ولا أحد من أهل أئمة الدين ، ولا قال به أحد من أهل السنة"[3] .

---

(١) الوابل الصيب ص ١٨ .

(٢) العقيدة الطحاوية مع شرحها ص ٤٧٦ .

(٣) لوامع الأنوار البهية ٢ / ٢٣٤ .

هذا ما يجب على المسلم أن يعتقده في الجنة والنار وهو أنهما مخلوقتان لا يتطرق إليهما الفناء ولا الإبادة وأن أهلهما كل خالد فيما هو فيه من نعيم ،وعذاب ،فأهل الجنة منعمون فيها ، وأهل النار معذبون بلا فتور ولا انقطاع وهذا هو معتقد الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة (١) جعلنا الله منهم .

---

(١) وقد عد بعض العلماء الأقوال في أبدية النار إلى سبعة أقوال .
انظر : "حادي الأرواح " ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ،شرح الطحاوية ص ٤٨٣ ، فتح الباري ١١/ ٤٢١ - ٤٢٢ ،لوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥ ، يقظة أولي الإعتبار لصديق خان ص ٤١ ، جلاء العينين ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

الفصل الثالث

ـ الفصل الثالث ـ

الجنـــة دار المتقـــين

ويشتمل على المباحث الآتيـه :ـ

تمهيـــد :ـ

المبحث الأول : كيفية دخول أهل الجنة الجنـــه .

المبحث الثانى : أبواب الجنـــه .

المبحث الثالث : خزنـة الجنـــة .

المبحث الرابع : أرض الجنـــة .

المبحث الخامس : صفات أهـل الجنـة .

المبحث السادس : غرف الجنـة ،وقصورها ،وأنهارهـا .

المبحث السابع : أبدية الجنـة ودوام نعيمهـــــــا .

المبحث الثامـن : وجوب الإيمان بالعرش وهو سقف الجنه .

تمهيد :-

إن الجنة هي دار الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهي دار جنانها تجري من تحتها الأنهار قصورها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها[1] المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وتربتها الزعفران وخيامها اللؤلؤ المجوف ، وهي نور يتلألأ ، وريحانه تهتز ، ونهر مطرد وفاكهة وخضرة وزوجات حسان فيها السدر المخضود ، والطلح المنضود ، والظل الممدود والماء المسكوب ، أهلها يأكلون فيها ويتنعمون ، ولا يتغوطون ، ولا يبولون بل مسك يرشح ، ويحيون ولا يموتون وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة فيها الجمال المبين فيها الأزواج من الحور العين ، كل نعيمها دائم ، وكل شيء فيها باسم ، فيها يرفع الحجاب ، وينظرون إلى وجه العزيز الوهاب ، ومهما عبرنا عن صفاتها فإن تعبيرنا لا يحيط بما هي عليه ، ولا يمكن أن يصفها أحد كما هي عليه حقيقة إلا شخص واحد ذلكم هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تلقى صفاتها عن الباري جل وعلا - وأيضا جاءت الأحاديث الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام رآها مرتين ، مرة في اليقظة[2] ، ومرة مناما[3] فنستمع إليه وهو يصفها .

---

(١) أي : طينها .

(٢) أنظر الحديث الطويل الذي جاء في صلاة الكسوف وفيه أنه صلى الله عليه وسلم رأى الجنة وهمّ أن يتناول منها عنقودا وهذه الرؤية كانت يقظة الحديث في صحيح البخاري ١ / ١٨٧ ، صحيح مسلم ٢ / ٦١٩ .

(٣) رؤيته لها مناما جاء ذلك في صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة " بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر فقالوا : لعمر . . . الحديث صحيح البخاري ٢ / ٢١٦ ، صحيح مسلم ٤ / ١٨٦٣ .

روى البخارى ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله - عز وجل - أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) "[1].

فهذا الحديث القدسي بين الله - تعالى - فيه أنه أعد لعباده الصالحين من النعيم في الجنة ماتقصر عقول البشر عن الإحاطة به . وقد ورد في سورة " الزمر " آيات تضمنت ذكر مباحث تتعلق بالجنة وهي ما سنتحدث عنها فيما يأتي :-

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٢١٧ ، صحيح مسلم ٤ / ٢١٧٤ ، والآية رقم (١٧) من سورة السجدة .

- المبحث الأول -

كيفية دخول أهل الجنة الجنة

لقد بين الله في سورة " الزمر " الكيفية التي يدخل بها المتقون الجنة بقوله - تعالى - (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنه زمرا)[١] فقد بين تعالى أن دخولهم الجنة يكون على هيئة جماعات متتابعة ، وأفواج متتالية كما يفهم ذلك من قوله - عز وجل - (زمرا) ودخولهم الجنة على هذا النحو يجعلهم فرحين مستأنسين بعضهم ببعض .

ولقد بين النبي صلى الله عليه وسلم صفة كل زمرة على حده .

جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون فيها . آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم من الألوة[٢] ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا "[٣] .

---

(١) جاء في اللسان : " والزمرة الفوج من الناس والجماعة من الناس وقيل : الجماعة في تفرقة ، والزمر الجماعات " أ . هـ ٤/٣٢٨ .

(٢) الألوة : في النهاية : هو العود الذي يتبخر به " ١/٦٣ .

(٣) صحيح البخاري ٢/٢١٧ ، صحيح مسلم ٤/٢١٨٠ .

وهذه الصفات في هذا الحديث هي صفات السابقين الذين كانوا في دنياهم سبّاقين إلى فعل الخيرات فكان جزاؤهم في الآخرة أن سبقوا إلى الجنات ، إذ سبقهم في الآخرة كان على قدر سبقهم إلى الطاعات في هذه الحياة الدنيا .

وأما صفة الزمرة التي تلي أولئك المقربين في دخول الجنة فقد جاء أن أحدهم يرى كأشد الكواكب إضاءة في السماء .

روى الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد . على صورة أبيهم آدم . ستون ذراعا في السماء "(١).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول زمرة تدخل الجنه من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل . . . الحديث "(٢).

---

(١) صحيح البخاري ٢ / ٢١٧ ، صحيح مسلم ٤ / ٢١٧٩ .

(٢) صحيح مسلم ٤ / ٢١٧٩ .

وروى الشيخان أيضا من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا ، أو سبعمائة ألف - لا يدري أبو حازم أيتهما قال : متماسكون ، آخذ بعضهم بعضا لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر"(١) !

فلله ما أعظم هذا النعيم ، وما أجل هذا التكريم الذي يناله أولئك المتقون المؤمنون ، وياذلة من حرمه ولم يظفر به وذلك هو الخسران المبين .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ١١/٤١٦ ، صحيح مسلم ١/١٩٨ - ١٩٩ .

ـ المبحث الثاني ـ

أبـــــواب الجنـــــه

ورد ذكر أبواب الجنة في السورة من غير نص على عددها ،أو تسميتها قال تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى اذا جاءوهـا وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

قال العلامة ابن القيم بعد أن ذكر هذه الآية مبينا أسرارها العجيبة ومعانيها الدقيقة .

قال رحمه الله : " وقال في صفة النار (حتى إذا جاءوها فتحـــت أبوابها) بغير واو فقالت طائفة : هذه واو الثمانية دخلت في أبـــــواب الجنه لكونها ثمانية وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو ، وهذا قول ضعيف لا دليل عليه ،ولا تعرفه العرب ،وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين .

وقالت طائفة أخرى : الواو زائده والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآيه الثانية ، وهذا أيضا ضعيف فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة .

وقالت طائفة ثالثة : الجواب محذوف ، وقوله (وفتحت أبوابها) عطف على قوله (جاءوها) وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد[1] والزجاج وغيرهم . قال المبرد : وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم ، قال أبو الفتح ابن جني[2] وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ويرون أن الجواب محذوف للعلم به .

---

(١) هو : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس المعروف بالمبرد إمام العربيه ببغداد في زمنه . ولد سنة عشر ومائتين وتوفـــي سنة ست وثمانين ومائتين هجرية .
بغية الوعاة ١/ ٢٦٩ ،وفيات الأعيان ٤/ ٤٦٥ ،تاريخ بغداد ٣/ ٣٨٠ .

(٢) هو : عثمان بن جني الموصلي أبو الفتح من أئمة الأدب والنحو . توفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة .
أنظر ترجمته في : " وفيات الأعيان ٣/ ٣١٣ ،بغية الوعاة ٢/ ١٣٢ ، شـــذرات الذهب ٣/ ١٤٠ ".

قال ابن القيم : "بقي أن يقال : فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة ، وذكره في آية "أهل النار" ؟ فيقال : هذا أبلغ في الموضعين فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة ، فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه فإنها دار الإهانة والخزي فلم يستأذن لهم في دخولها ، ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول .

وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته ، ومحل خواصه وأوليائه فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله ، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم ، وأفضلهم فيقول أنا لها فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدا لربه فيدعه ماشاء أن يدعه ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته فيشفع إليه - سبحانه - في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيما لخطرها ، وإظهارا لمنزلة رسوله وكرامته عليه ، وإن مثل هذه الدار التي هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل اليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين مقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى اليها ، وما ركبه من الأطباق طبقا بعد طبق وقاساه من الشدائد بشدة بعد شدة حتى أذن الله - تعالى - لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم ، وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء ، فجنة الله عالية غالية ، بين الناس وبينها من العقبات

والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذه الدار فليعد عنها إلى ماهو أولي به ، وقد خلق له وهيئ له ،وتأمل مافي سوق الفريقين إلى الدارين زمرا من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير ، كذلك يؤنس بعضهم بعضا ويفرح بعضهم ببعض ،وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرا يلعن بعضهم بعضا ،ويتأذى بعضهم ببعض وذلك أبلغ في الخزى والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدا واحدا فلا تهمل تدبر قوله (زمرا) . وقال خزنة الجنة لأهلها (سلام عليكم) فبدءوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه أي : سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ماتكرهون ،ثم قالوا : لهم طبتم فادخلوها خالدين ،أي سلامتكم ، ودخولها بطيبكم فإن الله حرمها إلا على الطيبين فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود ، .

وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيد وا على ماهم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم(ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) فاعترفوا ،وقالوا : بلى فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثوى لهم ،وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها (ادخلوها) وقول خزنة النار لأهلها (ادخلوا أبواب جهنم) تجد تحته سرا لطيفا ومعنى بديعا لا يخفى على المتأمل وهو أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء وأشده حرا وأعظمه مما يستقبل فيها الداخل من العذاب ماهو

أشد منها وبدنو من الغم والخزي والحزن والكرب بدخول الأبواب فقيل : ادخلوا أبوابها صغارا لهم وإذلالا وخزيا ، ثم قيل : لهم لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار ، وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه فبشر وأمن أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها ، وتأمل قوله - سبحانه - (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب)(١) كيف تجد تحته معنى بديعا وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي ، وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها كما قال تعالى (إنها عليهم مؤصدة)(٢) أي مطبقة مغلقة ومنه سمي الباب " وصيدا " وهي (مؤصدة في عمد ممددة) قد جعلت العمد مسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب .

قال مقاتل : يعني أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح آخر الأبد " .

وأيضا : فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنة حيث شاءوا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت وأيضا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا " أ . هـ (٣) .

ولقد اقتبست هذا النص بطوله من كلام ابن القيم لما فيه من تجلية وبيان لمعاني الآية المتقدمة ذلك أن هذا التنقيب لإخراج تلك المعاني الدقيقة والأسرار العجيبة في تلك الآية لم أجده بهذه الصورة البديعة عند

---

(١) سورة (ص) آية / ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة الهمزة آية / ٨ .
(٣) حادي الأرواح ص ٣٨-٤٠ .

غير ابن القيم رحمه الله ـ تعالى ـ عليه ثم إني قلت قريبا إن ذكر أبواب الجنة في السورة قد ورد مطلقا من غير نص على عددها ، أو تسميتها ، وكذلك غيرها من سور القرآن التي ورد فيها ذكر أبواب الجنة فانه لم يرد فيها التنصيص على العدد أو التسمية لتلك الأبواب .

قال تعالى : (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب)(١) .

وقال عز وجل ـ (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب)(٢) .

أما السنة النبوية الشريفة فقد بينت أن عدد أبواب الجنة ثمانية ، كما بينت أسماء بعضها ، وأن أعلا تلك الأبواب هو باب الجهاد ، ولها باب يقال له الريان لا يدخل منه إلا الصائمون ، فإذا دخلوا أغلق ، فلا يدخل منه أحد غيرهم ولكل نوع من الأعمال الصالحة باب يدخل منه أهله المبرزون فيه وقد يدعى العبد من تلك الأبواب الثمانية جميعها اذا قام بجميع شعب الايمان ، ووفى بجميع شرائع الاسلام ، ومن هذا النوع صديق هذه الأمة وأفضل الناس جميعا بعد النبيين أبوبكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضي الله عنه وأرضاه .

روى الشيخان بإسنادهما من حديث سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن في الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم يقال : أين الصائمون ؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد"(٣) .

---

(١) سورة الرعد آية / ٢٣ .
(٢) سورة (ص) آية / ٥٠ .
(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٢٤ ، صحيح مسلم ٢/ ٨٠٨ .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام فقال أبوبكر : بأبي أنت وأمي يارسول الله ماعلى من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ؟ فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ فقال نعم وأرجو أن تكون منهم "(١).

" لما سمتهمه الصديق إلى تكميل مراتب الإيمان ، وطمعت نفسه أن يدعى من تلك الأبواب كلها سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يحصل ذلك لأحد من الناس ليسعى في العمل الذي ينال به ذلك فخبره بحصوله ، وبشره بأنه من أهله ، وكأنه قال : هل تكمل لأحد هذه المراتب فيدعى يوم القيامة من أبوابها كلها ؟ فلله ما أعلى وأكبر هذه النفس "(٢).

وقال الحافظ ابن حجر " في الحديث اشعار بقلة من يدعى من تلك الأبواب كلها وفيه اشارة الى أن المراد ما يتطوع به من الأعمال المذكورة لا واجباتها لكثرة من يجتمع له العمل بالواجبات كلها بخلاف التطوعات فقل من يجتمع له العمل بجميع أنواعها ، ثم من يجتمع له ذلك انما يدعى من جميع الأبواب على سبيل التكريم له ، وإلا فدخوله إنما يكون من باب واحد ولعله باب العمل الذي يكون أغلب عليه . . والله أعلم "أ.هـ."(٣)

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٢٥ ، صحيح مسلم ٢/ ٧١٢ .
(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٧٥-٧٦ .
(٣) الفتح ٧/ ٢٨ - ٢٩ .

وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما منكم من أحد يتوضأ فيبالغ ،أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : " أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانيه يدخل من أيّها شاء "(١).

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث لقيط ابن عامر عندما خرج وافدا الى النبي صلى الله عليه وفيه " وإن للجنه لثمانية أبواب ما منهما بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما "(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام " ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنه الثمانية من أيّها شاء دخل "(٣).

وهكذا نرى أن السنه المطهره أوضحت أن أبواب الجنة ثمانية كما عينت بعض أبوابها بأسمائها .

وأما سعة أبوابها وهي المسافة التي تكون بين مصراعي الباب فقد وردت بشأنها أحاديث عده منها :

حديث الشفاعة الطويل المتفق على صحته وهو المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بلحم فرفع إليه الذراع ،وكانت تعجبه فنهس(٤) منه نهسة فقال " أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر . . . . إلى أن قال عليه الصلاة والسلام " فأنطلق فأتى

---

(١) ١/٢١٠ . (٢) ٤/١٤ .

(٣) رواه ابن ماجة من حديث عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه السنن ٢/٥١٢ .

(٥) النهس : أخذ اللحم بأطراف الأسنان ، النهاية ٥/١٣٦ .

تحت العرش فأقع ساجدا لربي ،ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلي ،ثم يقال : يامحمد ، إرفع رأسك سل تعطه ،إشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول : يارب . أمتي . أمتي . فيقال : يامحمد . أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ،وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب والذي نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ،أو كما بين مكة وبصرى " .

وفي لفظ آخر " والذي نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنه إلى عضادتي الباب[1] لكما بين مكة وهجر ، أو هجر ومكة . هذا لفظ مسلم ،ولفظ البخاري " ان مابين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير ، أو كما بين مكة وبصرى "[2].

وروى الامام أحمد من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أنتم توفون سبعين أمة " أنتم خيرها وأكرمها على الله ، ومابين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاما ،وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ "[3].

وأما مقدار المسافة التي تكون بين كل بابين :-

فقد قدرت بمسيرة سبعين عاما . روى الطبراني[4] في معجمه

---

(١) عضادتا الباب : هما خشبتاه من جانبيه ، شرح النووي على مسلم ٣/ ٧٠.

(٢) صحيح مسلم ١/ ١٨٥-١٨٦ ، صحيح البخاري ٣/ ١٥٠.

(٣) المسند ٥/ ٣ ، وانظر خطبة بن غزوان في صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧٨-٢٢٧٩ ،ومسند أحمد ٤/ ١٧٤.

(٤) هو : سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي ،أبوالقاسم من كبار المحدثين أصله من طبرية الشام وإليها نسبته . ولد " بعكا " سنة ستين ومائتين ،وتوفي سنة ستين وثلاثمائة هجرية . أنظر ترجمته في : " وفيات الأعيان ١/ ٢١٥ ،النجوم الزاهرة ٤/ ٥٩ ، تهذيب دمشق لابن عساكر ٦/ ٢٤٠.

والا مام أحمد في مسنده من حديث لقيط بن عامر رضي الله عنه أنه خـــرج وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قلت يارسول الله فما الجنة والنار ؟ قال : "لعمر إلهك أن للنار سبعة أبواب ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما ، وأن للجنة ثمانية أبواب ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما . . . . الحديث "(١).

وهذا الحديث الظاهر منه أن هذه المسافة بين الباب ، والبـــاب لأن مابين مكة وبصرى لا يحتمل التقدير بسبعين عاما ،ولا يمكن حمله على باب معين لقوله " ما منهن بابان " والله أعلم (٢).

وبعد أن ذكرنا أبواب الجنة وما يتعلق بها من حيث سعتها والمسافة التي تكون بين كل بابين من أبوابها يحسن بنا أن نتبع ذلك بالمفتاح الـــذي تفتح به تلك الأبواب.

فنقول : إن تلك الأبواب لا تفتح إلا لمن يملك مفتاحها ولا بد لهـــذا المفتاح من أسنان حتى يكون صالحا للفتح ،ومفتاح تلك الأبواب هي كلمـــة التوحيد ،وشهادة الاخلاص التي هي "لا اله الا الله " . وأما أسنان هذا المفتاح فهي شرائع الإسلام كلها ، من الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة والجهاد وبر الوالدين وأداء الأمانة والإحسان إلى الجار وغير ذلك مما حض عليه دين الإسلام الحنيف والمفتاح لا يكمل إلا بأسنانه أما بدونها فلا فقـــد ذكر البخاري في صحيحه عن وهب (٣) بن منبه أنه قيل له أليس مفتاح الجنـــة لا إله الا الله ؟ قال : بلى . ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان فإن جئت بمفتـــاح

(١) الحديث بطوله في "معجم الطبراني الكبير ١٩/ ٢١١-٢١٤ ،المسنـــد ٤/ ١٤ .
(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٩٦ .
(٣) هو : وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني روى عن أبي هريـــرة وأبي سعيد وابن عباس وابن عمر وغيرهم . قال العجلي : تابعي ثقة وكان على قضاء صنعاء ووثقه أيضا : أبوزرعة والنسائي وابن حبان كان مولده سنة أربع وثلاثين وتوفي سنة عشر ومائة هجريه .
أنظر ترجمته في "تهذيب التهذيب ١١/ ١٦٦-١٦٨".

له أسنان فتح لك والا لم يفتح لك "[1].

وجاء في عمدة القاري أن أبا نعيم الأصبهاني قال : في كتابه " أحوال الموحدين " ان أسنان هذا المفتاح هي الطاعات الواجبة من القيام بطاعة الله ـ تعالى ـ وتأديتها والمفارقة لمعاصي الله ومجانبتها "[2] اهـ .

وفي الحقيقة أن هذا المثال الذي ضربه وهب بن منبه يجب اعتباره اذ أنه متضمن الإشارة إلى حل الإستشكال في بعض أحاديث الوعد التي علق فيها دخول الجنة على قول " لا إله الا الله " أو الموت على التوحيد ، فالواجب أن لا يفهم من تلك الأحاديث أن مجرد النطق بقول : " لا إله إلا الله " كاف في دخول الجنة والنجاة من النار ، بل لابد من القيام معها بحقوقها التي هي شرائع الاسلام والحرص قولا وعملا " على تكميل مراتب الإيمان " فكلمة لا إله إلا الله ، سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ، ومقتضى لذلك ، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه ، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه ، أو لوجود مانع .

قال الحسن للفرزدق[3] وهو يدفن امرأته : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا اله إلا الله منذ سبعين سنه . قال الحسن : نعم العدة لكن لـ " لا إله إلا الله " شروط فإياك وقذف المحصنه ، وقيل : للحسن إن ناسا يقولون من قال : لا إله إلا الله " دخل الجنة ؟ فقال : من قال : لا إله الا الله ، فأدى حقها وفرضها دخل الجنة "[4].

(١) ١/٢١٥ . (٢) عمدة القاري ٨/٣ .

(٣) هو : همام بن غالب التميمي الدارمي أبو فراس الشهير بالفرزدق شاعر بليغ من أهل البصره عظيم الأثر في اللغه من الطبقة الأولى في الإسلاميين كانت وفاته في بادية البصرة سنة عشر ومائة هجريه ، وكلمة الحسن له تعريض بما كان الفرزدق يقوله في شعره من هجر القول .
أنظر ترجمته في : " خزانة الأدب للبغدادي ١/١٠٥-١٠٨ ، وفيات الأعيان ٢/١٩٦ ، الأعلام ٩/٩٣-٩٧ .

(٤) كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب ص ١٣-١٤ .

ـ المبحث الثالث ـ

خزنـــــة الجنـــــة

قال تعالى : (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوهـــــا خالدين) .

والخزنة : جمع خازن مثل حفظة وحافظ وهو المؤتمن على الشيء الذي الذي قد استحفظه (١) .

ففي هذه الآية الكريمة من السورة بين ـ جل وعلا ـ بأن للجنة خزنة ، وهم القائمون عليها من الملائكة ، وأنهم يقولون : لأهل الجنة وهم المتقـــون إذا انتهوا إليها (سلام عليكم طبتم) .

فيهنئون الكلام معهم بالسلام الذي هو متضمن للسلامة من كل مكـــروه وشر ، وكأنهم يقولون لهم : سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ماتكرهون ، ثم يقولون لهم : ادخولكم الجنة كان بطيبكم اذ الجنة حرمها الله على غير الطيبين ، فبشروهم بالسلامة ، والطيب والدخول والخلود فيها أبدا ، وهذه النتيجة النهائية لأهل الإيمان روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما بإسنادهما من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع أبا هريرة يقول : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنـة باب : أي فل (٢) هلم " فقال أبوبكر : يارسول الله ذلك الـــذي ـ ـ ؛

---

(١) حادي الأرواح ص ٧٥ .

(٢) فل : معناه : أي فلان فرخم ونقل اعراب الكلمة على احدى اللغتيـــن في الترخيم ، وقيل : فل : لغة في فلان في غير النداء والترخيم كـذا نقله النووي عن القاضي عياض شرح النووي ٧/ ١١٧ .

لا توى طيبة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إني لأرجو أن تكـــون منهم (٢)".

وروى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخـازن : من أنت فأقول محمد . فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك (٣)".

قال ابن القيم : "قد سمى الله سبحانه وتعالى كبير هذه الخزنة رضوان وهو اسم مشتق من الرضا" أ.هـ (٤).

---

(١) لا توى عليه : أي : لا ضياع ولا خسارة وهو من التوى : الهلاك . النهاية ١/ ٢٠١ ، هدى الساري ص ٩٤ .

(٢) البخاري ٢/ ٢١٢ ، صحيح مسلم ٢/ ٧١٢ ، ومسند أحمد ٢/ ٣٦٦ .

(٣) ١/ ١٨٨ .

(٤) حادي الأرواح ص ٧٦ ، وانظر : البداية : ١/ ٥٣ .

- المبحث الرابع -

أرض الجنـــــــــــة

لقد بينت السورة أن المتقين هم الذين يرثون أرض الجنة ، وأنهم ينزلون منها حيث يشاءون ويسكنون منها منازل حيث يحبون ويشتهون وأنهم عند ما يشاهدون الجنه وما فيها من النعيم يحمدون ربهم ويثنون عليـــه ، وينوهون بصدق وعده لهم .

قال تعالى (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) .

فالمراد بالأرض في قوله (وأورثنا الأرض) هي : أرض الجنّة .

قال مجاهد في قوله تعالى (وأورثنا الأرض) قال : أرض الجنة وبهذا قال السدى وابن زيد وقتادة وأبو العالية وأبو صالح (٢) .

وقال البغوى : وأورثنا الأرض) أى : أرض الجنة وهو قوله - عز وجل - (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (٣) .

وقال ابن قتيبـــة (٤) : (وأورثنا الأرض) أي : أرض الجنة (٥) .

---

(١) أبو العالية : رفيع بن مهران الرياحي البصري عالم بالقرآن توفي سنة إحدى عشرة ومائة هجريه .
انظر ترجمته في : " طبقات الحفاظ للسيوطي ص٢٩ ، تذكرة الحفـــاظ للذهبي ١/ ٦١ ، تهذيب التهذيب ٣/ ٢٨٤ " .

(٢) جامع البيان ٢٤/ ٣٧ ، تفسير القرآن العظيم ٦/ ١١٦ ، والآية رقـــم (١٠٥) الأنبياء .

(٤) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد من أئمة الأدب ، ومن المصنفين المكثرين .
ولد ببغداد وسكن الكوفة ، ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها .
ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين وتوفي سنة ست وسبعين ومائتين هجرية .
أنظر ترجمته في : " وفيات الأعيان ١/ ٢٥١ ، الميزان ٢/ ٥٠٣ ، الأعلام ٤/ ٢٨٠ .

(٥) تفسير غريب القرآن ص ٣٨٤ .

وقال القرطبي : (وأورثنا الأرض) أي : أرض الجنة "(١) .

ومعنى أهل العلم يرى أن المراد بالأرض أرض الجنة التي كانت لأهل النار لو دخلوها .

قال ابن جرير (وأورثنا الأرض) يقول : وجعل أرض الجنة التي كانت لأهل النار لو كانوا أطاعوا الله في الدنيا فدخلوها ميراثا لنا(٢) .

ولعل مستندهم في حمل الآية على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد الا له منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله تعالى : (أولئك هم الوارثون)(٣) .

قال الحافظ : بعد أن ذكر هذا الحديث" وقال جمهور المفسرين : في قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض) الآية المراد بـ أرض الجنة التي كانت لأهل النار لو دخلوا الجنة وهو موافق لهذا الحديث "أ.هـ(٤) .

أقول :

كون الحديث دل على أن لكل أحد منزلا في الجنه ومنزلا في النار هذا مما لا نزاع فيه بل يجب على كل امرئ الايمان بذلك الا أن حمل الآية عليه غير صواب لأن أهل الجنة يرثون من الجنة منازلهم المعدة لهم بسبب أعمالهم وتقواهم كما قال ـ عز وجل ـ (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)(٥) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/٢٨٧ .
(٢) جامع البيان ١٤/٣٧ .
(٣) رواه ابن ماجة فن حديث أبي هريرة رضى الله عنه ٢/١٤٥٣ .
(٤) الفتح ١١/٤٤٢ .
(٥) سورة الأعراف آية / ٤٣ .

وعلى سبيل الفرض أن أهل الجنة يرثون منازل أهل النار وأن قصر الآية على ذلك يوهم أنهم ليس لهم في الجنة إلا ما أورثوا من منازل أهل النار والواقع من خلال النصوص يخالف ذلك . قال تعالى : (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا)[١] .

وقال تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)[٢] .

فهذه صفات وشروط الإرث للفردوس الأعلى فمن أحرز هذه الصفات وتمثل بها كان من سكانها بعد رحمة الله تعالى .

وقال تعالى (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون)[٣] .

فهذه الآيات وأشباهها بينت أن سبب إرث أهل الجنة للجنة هو تقواهم لربهم وما قدموا من الأعمال الصالحة في دنياهم ومما ينبغي أن يعلم أن العمل لا يكفي مستقلا في دخول الجنة بل لا بد من رحمة الله تعالى بعد ذلك .

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة " قالوا : ولا أنت يا رسول الله . قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضله ورحمته " .

---

(١) سورة مريم آية / ٦٣ . (٢) سورة المؤمنون آية ١ - ١٠ .

(٣) سورة الزخرف آية ٧٢ .

وفيه أيضا : من حديث عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يدخل الجنة أحدا عمله " قالوا : ولا أنت ؟ يارسول الله . قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة ،واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل " .

ومن حديث جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يدخل أحدا منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة من الله "(١) .

فهذه الأحاديث تدل على أن العمل لا يكفي وحده لدخول الجنة بل الدخول فيها يكون برحمة الله -تعالى- وفضله مع مراعاة جانب العمل .

قال النووي : " وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعة وأما قوله -تعالى- (أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون)(٢) (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون)(٣) ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارض هذه الأحاديث بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ،ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله -تعالى- وفضله فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث ، ويصح أنه دخل بالأعمال أي : بسببها وهي من الرحمة والله أعلم " أ.هـ(٤) .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله -تعالى- " الأعمال أسباب لا أعواض وأثمان والذي نفاه النبي صلى الله عليه وسلم في الدخول بالعمل هو نفي استحقاق

---

(١) أنظر هذه الأحاديث الثلاثة في " صحيح مسلم " ٤/ ٢١٧٠-٢١٧١ .
(٢) سورة النحل آية / ٣٢ . (٣) سورة الاعراف آية / ٤٣ .
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٦٠-١٦١ .

العوض ببذل عوضه فالمثبت باء السببية والمنفي باء المعاوضة والمقابلة وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة " أ.هـ "(١).

وهكذا جمع أهل العلم بين الآيات القرآنية التي ظاهرها أن الانسان يدخل الجنة بعمله وبين الأحاديث التي دلت على أن الجنه لا يدخلها أحد أهلها الا برحمة الله وبمعرفة هذا الجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة يتضح الرد على القدرية النفاة الذين يثبتون الأحكام بالعقل، ويوجبون على الله ثواب الأعمال، كما يوجبون أن يفعل الأصلح للعباد، ويمنعون خلاف هذا، وقولهم هذا صادر عن اختراعاتهم الباطلة التي ضمونها نبذ نصوص الشرع وراء ظهورهم وتحكيمهم عقولهم الفاسدة(٢).

كما يتضح من الجمع السابق الرد على القدرية الجبرية الذين يلغون دور العمل في دخول الجنة ويذكرون أن يكون سببا في النجاة من النار وكلا القولين باطلان بشهادة النقل والعقل والفطرة وقول كل من الطائفتين مشتمل على خطأ وصواب.

فالقدرية النفاة: أصابوا في إثبات السببية وخالفهم الخطأ في إثبات المعاوضة.

وأما القدرية الجبرية: فقد أصابوا في نفي المعاوضة ولازمهم الخطأ في نفي السببية والحق في هذه المسألة بين ذلك وهو أن المثبت في الآيات باء السببية والمنفي في الأحاديث باء المعاوضة والمقابلة كما تقدم في كلام ابن القيم رحمه الله - تعالى - فقد وفق الله أهل السنة لما اختلف فيه من الحق

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/٩٢، وانظر هادي الأرواح ص ٦١.

(٢) انظر: المغني لعبد الجبار بن أحمد ١٤/٢٧٢ وما بعدها، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/١٦٠، وانظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/٩٢.

باذنه حيث جمعوا ما مع الطائفتين من الحق والصواب فكانوا أسعد بالحق منهما وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (١) .

وبعد هذا الإستطراد اليسير الذي تحتم الإتيان به هنا ليتناسب مع الآيات والأحاديث التي تقدم ذكرها نعود إلى ما نحن بصدد البحث حوله من بيان صفة أرض الجنة التي يرثها عباد الله المتقون فنقول : إنه لا يستطيع أحد أن يصفها لنا كما هي عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنستمع إلى ما جاء عنه في ذلك .

روى الشيخان في صحيحيهما من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ..... قال في حديث الاسراء "ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي قال : ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ (٢) وإذا ترابها المسك (٣) .

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ابن صياد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة؟ فقال : " در مكه بيضاء مسك خالص " (٤) .

قال النووي : " قوله في تربة الجنة " هي در مكه بيضاء مسك خالص " قال العلماء : معناه أنها في البياض در مكة وفي الطيب مسك والدرمك هو الدقيق الحواري الخالص البياض " أ.هـ (٥) .

---

(١) مستفاد من كتاب مفتاح دار السعادة ٢ / ٩٢ .
(٢) جنابذ اللؤلؤ : قباب اللؤلؤ شرح النووي ٢ / ٢٢٢ ، فتح الباري ١ / ٤٦٣ - ٤٦٤ .
(٣) صحيح البخاري ٢ / ٢٣٢ ، صحيح مسلم ١ / ١٤٩ .
(٤) ٤ / ٢٢٤٣ .
(٥) شرح النووي ١٨ / ٥٢ .

وروى الامام أحمد وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبنة ذهب ، ولبنة فضه ، وملاطها[1] المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه[2] .

وفي المصنف لابن أبي شيبة[3] أن ابن عمر قال : قيل يارسول الله كيف بناء الجنة ؟ " قال لبنة من فضة ولبنة من ذهب ملاطها مسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران[4] .

وفي سنن الترمذي من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لناس من اليهود " ما تربة الجنة ؟ قال فسكتوا هنيهة ثم قالوا : خبزة يا أبا القاسم فقال النبي صلى الله عليه وسلم الخبز من الدرمك[5] " .

---

(١) الملاط : الطين الذي يجعل بين سافي البناء يلط به الحائط : أي يخلط " أ.هـ.
النهاية لابن الأثير ٤/٣٥٧ .

(٢) المسند ٢/٣٠٥ ، سنن الترمذي ٤/٧٩-٨٠ .

(٣) هو : عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي مولاهم ، الكوفي أبوبكر حافظ للحديث له فيه كتب منها : " المصنف " .

أنظر ترجمته في : " تذكرة الحفاظ ٢/٤٣٢ ، تهذيب التهذيب ٦/٢ ، تاريخ بغداد ١٠/٦٦ .

(٤) المصنف ١٣/٩٥-٩٦ .

(٥) ٥/١٠٢ ، قال في مجمع الزوائد : " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير مجالد ووثقه غير واحد ١٠/٣٩٩ .

والحاصل من الأحاديث المتقدمة في صفة أرض الجنة وتربتها أن بعضها أفاد أن ترابها الزعفران ، والمعنى الآخر أفاد أن ترابها المسك ولا تعارض بينها اذ يجوز أن تكون تربتها متضمنة للنوعين ، ويجوز أن يكون التراب من زعفران فإذا عجن بالماء صار مسكا ، والطين يسمى ترابا ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم " ملاطها المسك "(١) والملاط الطين .

ويحتمل أن يكون زعفرانا باعتبار اللون ومسكا باعتبار الرائحة وهذا من أحسن شيء يكون البهجة والإشراق لون الزعفران ، والرائحة رائحة المسك ، وكذلك ورد تشبيهها بالدرمكة ، وهي الخبزة الصافية التي يضرب لونها إلى الصفرة مع لينها ونعومتها "(٢) والله أعلم .

---

(١) تقدم تخريجه قريبا .

(٢) أنظر حادي الأرواح ص ٩٤ .

ـ المبحث الخامس ـ

صفات أهـــــل الجنـــة

إن للمتقين الذين يدخلون دار السلام ويتبوءون منها منازل حيث يشاءون صفات يتميزون بها عن غيرهم ، وصفاتهم كثيرة جدا ، وقد ذكر في سورة " الزمر " بعضها في عدد من آياتها .

قال تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) .

وقال تعالى (ألله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . .) الآيه .

وقال تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) .

وقال تعالى (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون)

وقال تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

هذه المجموعة من الآيات من سورة " الزمر " تضمنت صفات عدة للمتقين الذين يساقون إلى الجنه " سرا " وتلك الصفات هي :ـ

١) أنهم يسمعون كلام الله سماع قبول وإجابة وفهم وإدراك فيمتثلون بأوامره ، ويبتعدون عن نواهيه التي نهي عنها .

٢) أنهم عندما يسمعون القرآن يتلى تقشعر جلودهم خوفا من الله ـ جل وعلا ـ لما يفهمون من الوعيد الذي توعد به الكفار والمشركين .

٣) أنهم عند سماعهم كلام الله تلين جلودهم وقلوبهم إلى العمل بما فـــي كتاب الله والتصديق به .

٤) التصديق لما جاءهم من الحق .

قال مجاهد : (والذى جاء بالصدق وصدق به) قال : أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا (١) .

٥) تقواهم لربهم - جل وعلا - بامتثال الأوامر واجتناب النواهي وفي مقدمة ذلك إخلاصهم - العبادة لله وحده لا شريك له ، فلم يشركوا بعبادة ربهم أحدا .

٦) الصفة السادسة : أنهم طيبوا أعمالهم في الدنيا فلم يدنسوها بشرك ولا معصية ، فطاب مأواهم في الدار الآخرة ، وهو أنهم صاروا من سكان الجنة التي عرضها السموات والأرض ونجاهم الله من جهنم ، وأمنهم من عذابها .

قال ابن كثير : عند قوله تعالى (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أي : هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه :

أحدها :-

أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/٩٣ .

الثاني :-

أنهم اذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم . كما قال تعالى : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا)(١) أي : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعطون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل وتابعة لغيرهم .

الثالث :-

أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله لم يكونوا يتضارخون ولا يتكلفون مالیس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . . .

وقال قتادة (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) قال هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله ـ عز وجل ـ بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع وهذا من الشيطان أ.هـ.(٢)

وقال ابن جرير عند قوله تعالى (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) يقول تعالى ذكره : وينجي الله من جهنم وعذابها الذين اتقوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه في الدنيا (بمفازتهم) يعني : بفوزهم .

(١) سورة الفرقان آية / ٧٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٨٨ - ٨٩ .

قال السدى : في قوله تعالى (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) قال : بفضائلهم .

وقال ابن زيد : (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) قال : بأعمالهم وقوله : (لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) يقول تعالى ذكره : لا يمس المتقين من أذى جهنم شيء وهو السوء الذي أخبر جل ثناؤه أنه لن يمسهم ، ولا هم يحزنون : يقول : ولا هم يحزنون على ما فاتهم من آراب الدنيا اذا صاروا إلى كرامة الله ونعيم الجنان" أ.هـ.(١)

قال البغوى : (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) قرأ حمزة والكسائي وأبوبكر (بمفازاتهم) بالألف على الجمع أي : بالطرق التي توصلهم إلى الفوز والنجاة .

وقرأ الآخرون : (بمفازتهم) على الواحد لأن المفازة بمعنى الفوز أي : ينجيهم بفوزهم من النار بأعمالهم الحسنة" أ.هـ.(٢)

وجاء في زاد المسير حول قوله تعالى (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) فيها للمفسرين ثلاثة أقوال :-

أحدها : بفضائلهم قاله السدى .

والثاني : بأعمالهم قاله ابن السائب .

والثالث : بفوزهم من النار .

قال ابن قتيبة : المفازة مفعلة من الفوز وإن جمع فحسن كقولك السعادة ، والسعادات ، والمعنى : ينجيهم الله بفوزهم أي : بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة" أ.هـ.(٣)

---

(١) جامع البيان ٢٤ / ٢٢-٢٣ .
(٢) معالم التنزيل على حاشية تفسير الخازن ٦ / ٦٩ .
(٣) ٧ / ١٩٤ .

وقال ابن كثير : (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) أي : بما سبق لهم من السعادة ، والفوز عند الله (لا يمسهم السوء) أي : يوم القيامة ، (ولا هم يحزنون) أي : لا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر ناظرون كل خير " أ.هـ.(١)

وأما قوله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

فقد قال ابن جرير : حول هذه الآية " يقول تعالى ذكره : وحشر الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه في الدنيا ، وأخلصوا له فيها الألوهة ، وأفردوا له العبادة ، فلم يشركوا في عبادتهم إياه شيئا إلى الجنة زمرا يعني : جماعات " أ.هـ.(٢)

وقال العلامة ابن القيم : بعد سياقه لهذه الآية : " عقب دخولها على الطيب بحرف الفاء الذي يؤذن بأنه سبب للدخول ، أي بسبب طيبكم قيل لكم: ادخلوها - فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيب " أ.هـ.(٣)

وقال ابن كثير : (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا) " وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة زمرا أي : جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم ؛ الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف كل زمرة يناسب بعضها بعضا (حتى إذا جاءوها) أي : وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦ / ١٠٥ .
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٤ / ٣٤ .
(٣) الوابل الصيب ص ١٨ .

كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة[1].

ثم إن المراد بسوق المتقين في قوله تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) سوق مصحوب بالتكريم والتشريف والإعزاز مشيعين بما يشرح الصدور ويسر النفوس كتشييع المحبوب إلى أمر محبوب[2] ، وهو سوق يغاير سوق الإهانة والذل الذى تقدم ذكره في حق الكافرين ، وصفات المتقين الطيبة في القرآن كثيرة ، وخصالهم الحميدة وفيرة .

قال تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)[3] .

وقال تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين)[4] .

ففي هذه الآيات أخبر تعالى أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم ، ثم ذكر أوصاف المتقين فذكر بذلهم للإحسان في حالة العسر واليسر ، والشدة والرخاء ، فان من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء ، ولا يبذل في حال العسر والشدة ، ثم ذكر كف أذاهم عن الناس بحبس الغيظ بالكظم ، وحبس

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/١١٣ .
(٢) انظر فتح البارى ١١/ ٣٨١ .
(٣) سورة البقرة آية = ١-٤ . (٤) سورة آل عمران آية ١٣٣-١٣٦ .

الانتقام بالعفو ، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم، وأنها إذا صدرت منهم قابلوها بذكر الله والتوبه والإستغفار ،وترك الإصرار فهذا حالهم مع الله ، وذاك حالهم مع خلقه "(١).

فينبغي للمسلم أن يتدبر كتاب الله ،وأن يتميز عن غيره من أهل المعاصي بصفات المتقين الذين يحبون لقاء الله ويطلبون الفوز برضاه .

أما صفاتهم في السنة فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم عنها الشيء الكثير .

فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : "لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : فلان شهيد ، فلان شهيد حتى مرّوا على رجل فقالوا : فلان شهيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلا اني رأيته في النار في بردة(٢) غلّها(٣) أو عباءة " ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا ابن الخطاب . اذهب فناد في الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون " . قال : فخرجت فناديت ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون "(٤).

فبين عليه الصلاة والسلام أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإيمان الذين قاموا بشرائع الإسلام كلها ،وأنه لا حظ فيها لغيرهم .

وروى أيضا بإسناده في حديث طويل من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . . . . "وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ،ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال . . ." الحديث(٥).

(١) حادي الأرواح ص ٨٢ .
(٢) البردة : الشملة المخططه ،وقيل : كساء أسود مربّع فيه صغر تلبسه الأعراب، النهاية ١/١١٦ .
(٣) غلّها : أي سرقها خفية . الاغلال : الخيانة أو السرقة الخفية ، النهاية ٣/٣٨٠.
(٤) ١/١٠٧-١٠٨ . (٥) ٤/٢١٩٨ .

قال القرطبي مبينا معنى هذا الحديث : " فضل " قوله ذو سلطان مقسط وما بعده مرفوع على أنها صفات "لذو" وهي بمعنى صاحب ،والمقسط العادل ،والمتصدق المعطي الصدقات والموفق : المسدد لفعل الخيرات، ورقيق القلب : ليّنه عند التذكر والموعظة ويصلح أن يكون بمعنى الشفيق " أ. هـ.(١)

وفي صحيح مسلم أيضا : من حديث حارثة ابن وهب الخزاعي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره(٢) .

" وقوله : ضعيف متضعف " يعني : ضعيف في أمور الدنيا قوى في أمر دينه كما قال عليه الصلاة والسلام (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير(٣) . . .

فإن كان ضعيفا في أمور دينه لا يعني بها فمذموم ،وذلك من صفات أهل النار كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ " وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له(٤) " أي لا عقل ومن لا عقل له ينقطع به عن المفاسد ،ولا ينزجر عنها فحسبك به ضعفا وخسارة في الدين(٥) .

وروى الشيخان في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مرّ بجنازة فأثني عليها خيرا فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم" وجبت وجبت وجبت " ومرّ بجنازة فأثني عليها شرا فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم" وجبت وجبت وجبت " قال عمر : فدى لك أبي وأمي . مرّ بجنازة فأثني عليها خيرا فقلت : " وجبت وجبت وجبت " ، ومرّ بجنازة فأثني عليها شرا فقلت : وجبت

---

(١) التذكرة ص ٣٦٢-٣٦٣ . (٢) ٤/٢١٩٠ .
(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٤/٢٠٥٢ .
(٤) رواه مسلم من حديث عياض بن حماد المجاشعي ٤/٢١٩٨ .
(٥) التذكرة ص ٣٦٣ .

وجبت وجبت " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض " أنتم شهداء الله في الأرض . أنتم شهداء الله في الأرض "(١).

وقال عليه الصلاة والسلام " يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار قالوا : بم ذاك يارسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيء أنتم شهداء الله بعضكم على بعض "(٢).

وبالجملة فأهل الجنة أربعة أصناف تضمنهم قوله تعالى (ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)(٣) جعلنا الله منهم بفضله ومنه وكرمه إنه أرحم الراحمين(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٢ / ٢٣٧ ، صحيح مسلم ٢ / ٦٥٥ ، واللفظ له .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه ٢ / ١٤١١ ، وأحمد في مسنده ٣ / ٤١٦ ، من حديث أبي زهير الثقفي .

(٣) سورة النساء آية / ٦٩ .

(٤) للزيادة في معرفة صفات أهل الجنة راجع " مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية فإنه أوجز الكثير منها ١٠ / ٤٢٢ - ٤٢٣ .

ـ المبحث السادس ـ

غرف الجنة ،وقصورها وأنهارهـا

قال تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنيـة تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد) .

هذه الآية الكريمة من السورة بين الله ـ تعالى ـ فيها ما أعده للمتقين من عوالي الغرف في الجنة .

والمتقون الذين ينالون هذه الغرف هم الذين اتقوا سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي ، وإخلاص العبادة لله باتباع ما أمر به واجتنـاب مانهى عنه .

فهو لاء لهم محال إقامة رفيعة ، مستعلية بعضها فوق بعض درجات ثابته ثبات البناء المستقر ، والأنهار تجري من تحت تلك الغرف والقصـور العالية ،وأنهار الجنه ليس بينها وبين أنهار الدنيا تشابه إلا في الإسـم فقط ، وجريان الأنهار من تحت تلك الغرف والقصور مما يزيدها بهجـة وجمالا ،وهي حاصلة ، ومتحققة لعباد الله المؤمنين لأن الله وعدهم بتلك الغرف العالية التي تجرى من تحتها الأنهار وعدا صادقا لا يتخلف لأنـه من الله الذي لا يخلف وعده .

قال ابن جرير : وقوله (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقهـا غرف مبنية يقول تعالى ذكره : لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه ،واجتناب محارمه ،لهم في الجنه غرف من فوقها غرف مبنية علالي بعضها فوق بعـض (تجرى من تحتها الأنهار) .

يقول تعالى ذكره : تجرى من تحت أشجار جناتها الأنهار وقوله : (وعد الله) يقول جل ثناؤه : وعدنا هذه الغرف التي من فوقها غرف مبنية في الجنة هؤلاء المتقين . (لا يخلف الله الميعاد) يقول جل ثناؤه : والله لا يخلفهم وعده ولكنه يوفى وعده " أ.هـ.(١)

وقال البغوي : (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنيّة) أي : منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها (تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد) أي : وعدهم الله تلك الغرف والمنازل وعدا لا يخلفه " أ.هـ.(٢)

وقال العلامة ابن القيم : قال الله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية) .

فأخبر أنها غرف فوق غرف ، وأنها مبنية بناء حقيقة لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل ، وأنه ليس هناك بناء بل تتصور النفوس غرفا مبنيّة كالعلالي بعضها فوق بعض حتى كأنها ينظر إليها عيانا ، ومبنيّة صفة للغرف الأولى والثانية أي : لهم منازل مرتفعة ، وفوقها منازل أرفع منها " أ.هـ.(٣)

وقال العلامة ابن كثير : " أخبر -عز وجل- عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة وهي القصور أي : الشاهقة (من فوقها غرف مبنيّة) طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات " أ.هـ.(٤)

---

(١) جامع البيان ٢٣/٢٠٨ .
(٢) " معالم التنزيل " على حاشية تفسير الخازن ٦/٦٠ .
(٣) حادي الأرواح ص ٩٦ . (٤) تفسير ابن كثير ٦/٨٥ .

وقد بين الله ـ تعالى ـ في كتابه وصف غرف الجنة في مواضع كثيرة .

قال تعالى بعد أن بين الكثير من صفات عباد الرحمن منوها بجزائهم الذي ينتظرهم (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما)[١] .

قال ابن القيم :

" والغرفة جنس كالجنة ، وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والإستكانة لله الغرفة ، والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم فبذلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم " أ . هـ .[٢]

وقال تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين)[٣] .

وقال تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون)[٤] .

فهاتان الآيتان بين الله ـ تعالى ـ فيهما أن غرف الجنات لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح وذلك هو الذي يقرب العبد إلى الله زلفى . أما كثرة الأقوال والأولاد عند الإنسان فانها لا تدل على أن الله يحب صاحبها ، لا . ليس الأمر كذلك ، وليست بمقياس عند الله ـ تعالى ـ وإنما المقياس الحقيقي هو الإيمان والعمل الصالح فمن حقق الإيمان وعمل صالحا يكون من

---

(١) سورة الفرقان آية / ٧٥ .
(٢) حادي الأرواح ص ٩٦ ، وقد فسرت " الغرفة " بالجنة . انظر : المصنف لابن أبي شيبة ١٣ / ١٢٦ .
(٣) سورة العنكبوت آية / ٥٨ .
(٤) سورة سبأ آية / ٣٧ .

الذين تضاعف حسناتهم ومن الذين هم في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شيء يحذر منه .

هذه أوصاف غرف الجنة في القرآن الكريم .

أما ماجاء في شأن وصفها في السنة النبوية فقد وردت أحاديث توضح صفة هذه الغرف وعلوها .

فقد روى الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرّي (١) الغابر من الأفق من المشرق ، أو المغرب لتفاضل مابينهم " قالوا : يارسول الله . تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٢) .

قال أبو عبد الله القرطبي : " وقوله والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " ولم يذكر عملا ولا شيئا سوى الإيمان والتصديق للمرسلين ذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج ، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة ، ولو كان كذلك كان جميع الموحدين في أعالي الغرفات ، وأرفع الدرجات وهذا محال ، وقد قال الله تعالى (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) (٣) .

---

(١) قيل سمي دريا لبياضه ، وقيل لإضاءته ، وقيل لشبهه بالدر في كونه أرفع من باقي النجوم كالدر أرفع الجواهر ، شرح النووي على مسلم ١٧/١٦٨ ،
أما الغابر : فهو الذاهب الماشي الذي تدلى للغروب ، وبعد عن العيون شرح النووي ١٧/١٦٩ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٢١٨ ، صحيح مسلم ٤/٢١٧٧ .

(٣) سورة الفرقان آية / ٧٥ .

والصبر بذل النفس والثبات له وقوفا بين يديه بالقلوب عبودية وهذه صفة المقربين .

وقال في آية أخرى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون)(١) .

فذكر شأن الغرفة وأنها لا تنال بالأموال والأولاد وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح ، ثم بين لهم جزاء الضعف وأن محلهم الغرفات ، يعلمك أن هذا إيمان طمأنينة وتعلق قلب به مطمئنا به في كل ما نابه وبجميع أموره وأحكامه ، فإذا عمل عملا صالحا فلا يخلطه بضده وهو الفاسد ، فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلا مع إيمان بالغ مطمئن صاحبه بمن آمن وبجميع أموره وأحكامه ، والمخلط ليس إيمانه وعمله هكذا : فلهذا كانت منزلته دون غيره " أ.هـ.(٢)

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ان أهل الجنة يتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء "(٣) .

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أهل الجنة يتراءون في الجنة كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق والطالع في تفاضل الدرجات قالوا : يارسول الله أولئك النبيون قال بلى ، والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا المرسلين(٤) .

---

(١) سورة سبأ آية / ٣٧ .
(٢) التذكرة للقرطبي ص : ٤٦١ - ٤٦٢ .
(٣) صحيح مسلم ٤ / ٢١٧٧ ، المسند ٥ / ٣٤٠ .
(٤) ٢ / ٣٣٩ قال ابن كثير : قال الضياء : " وهذا على شرط البخاري . النهاية ٢ / ٢٣٥ .

وروى أيضا باسناده الى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن المتحابين ليتراءى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي فيقال من هؤلاء ؟ فيقال هؤلاء المتحابون في الله - عز وجل -" (١)

وروى الإمام أحمد وابن أبي شيبة باسنادهما إلى علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها ،وبطونها من ظهورها قال : فقام أعرابي فقال : هي لمن يارسول الله ؟ فقال : هي لمن طيب الكلام ،وأطعم الطعام ،وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام" (٢)

فهذا الحديث بين فيه النبي صلى الله عليه وسلم صفة غرف الجنة كما بين فيه بعض صفات سكان أهل تلك الغرف ،وهو أنهم طيبوا الكلام ، ويطعمون الطعام ،ويفشون السلام ،ويقومون في ليلهم يصلون الله - تعالى - والناس نيام .

وما تقدم من اختلاف غرف الجنة في العلو والصفة إنما هو بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال وتفاوتهم فيها ،وكما تقدم في الأحاديث من أن بعض غرف الجنة أعلى من بعض وأرفع .

وأما عن قصور الجنة فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في وصفها أحاديث كثيرة .

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله - تعالى - عنه قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال بينا

---

(١) المسند ٣/٨٧ .

(٢) المسند ١/١٥٦ ، والمصنف لابن أبي شيبة ١٣/١٠١ ، ورواه الترمذي في سننه ٤/٨٠ .

أنا نائم رأيتني في الجنة فاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر فقلت لمن هـذا القصر ؟ فقالوا لعمر بن الخطاب فذكرت غيرته فوليت مدبرا فبكى عمر وقال : أعليك أغار يارسول الله ؟ "(١) .

وروى الترمذي بإسناده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى اللهعليه وسلم قال : " دخلت الجنةفإذا أنا بقصر من ذهب فقلت لمن هـذا القصر ؟ قالوا : لشاب من قريش فظننت أني أنا هو فقلت ومن هو ؟قالوا : عمر بن الخطاب " قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح "(٢) .

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى جبريـل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله . خديجة قد أتتكمعها إناء ، فيهإدام ،أو طعام ،أو شراب فإذا هيأتتك فاقرأ عليها السلام من ربهـا -عز وجل - ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب "(٣) .

قال العلامة ابن القيم : " والقصب ههنا قصب اللؤلؤ المجـوف "(٤) .

وقال الحافظ : " قوله من قصب " . . . قال ابن التين : " المراد بـه لؤلؤه مجوفةواسعه كالقصر المنيف " . . . إلى أن قال : وعند الطبرانـي في " الأوسط " من حديث فاطمه قالت : قلت يارسول الله أين أمي خديجة؟ قال : في بيت من قصب ، قلت أمن هذا القصب ؟ قال : لا . من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت "(٥) .

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٢١٦ ، صحيح مسلم ٤ / ١٨٦٣ .
(٢) سنن الترمذى ٥ / ٢٨٢ .
(٣) صحيح البخارى ٢ / ٣١٥ - ٣١٦ ،صحيح مسلم٤ / ١٨٨٧ .
(٤) حادى الأرواح ص ٩٧ .
(٥) فتح البارى ٦ / ١٣٨ .

أما صفة بناء قصور الجنة :-

فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلنا : يارسول الله حدثنا عن الجنة : بناؤها ؟ قال : لبنة ذهب ،ولبنة فضة وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ،من يدخلها ينعم ولا يبأس ويخلد ولا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه (١) .

وروى ابن أبي شيبة بإسناده إلى ابن عمر قال : قيل يارسول الله كيف بناء الجنة قال : لبنة من فضة ،ولبنة من ذهب ملاطها مسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران (٢) .

هذا وصف قصور الجنة وبناؤها التي ينبغي المسابقة والمسارعة إلى الأعمال التي تكون سببا في الحصول على ذلك بعد رحمة الله -تعالى- قال ابن كثير بعد أن ذكر كثيرا من الأحاديث الوارده في وصف قصور الجنة وغرفها .

" وقد ورد في بعض الأحاديث أن القصر يكون من لؤلؤة واحدة أبوابه ومصارعه ،وسقفه ،، وفي حديث آخر أن بعض سقوف الجنة نور يتلألأ كالبرق اللامع لولا أن الله يثبت أبصارهم لأوشك أن يخطفها " أ.هـ. (٣)

---

(١) رواه أحمد والترمذي المسند ٢ / ٣٠٥ ، سنن الترمذي ٤ / ٧٩-٨٠ ، ثم قال : هذا حديث ليس إسناده بذلك القوي ، وليس هو عندي بمتصل وقد روى هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي هريرة .

(٢) المصنف ١٣ / ٩٥-٩٦ .

(٣) النهاية ٢ / ٢٤٠ .

وأما أنهار الجنه فقد جاء وصفها في السورة بأنها تجرى من تحت غرف الجنه وقصورها كما هو ظاهر الآية التي صدرنا بها هذا المبحث وهي قوله تعالى : (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار) فهذه الآيه من السورة وصفت أنهار الجنة بأنها تجرى من تحت تلك الغرف التى بعضها فوق بعض درجات .

قال ابن كثير : (تجرى من تحتها الأنهار) أي : تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما شاءوا وأين أرادوا(١) .

ولقد تكرر ذكر أنهار الجنة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وكلها مقترنة بحرف " من " ماعدا موضعا واحدا من كتاب الله فإنه جاء بدون حرف " من " وهو قوله تعالى (وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار)(٢) .

قال مسروق رحمه الله تعالى : " أنهار الجنه في غير أخدود "(٣) .

وقال ابن جرير الطبرى : عند قوله تعالى (وماء مسكوب)(٤) " يعنى : مصبوب سائل في غير أخدود كما حدثنا ابن حميد قال حدثنا مهران عن سفيان (وماء مسكوب) قال يجرى في غير أخدود "أ.هـ(٥) .

وقال العلامة ابن القيم : بعد أن ذكر آيات من القرآن الكريم التي تصف أنهار الجنه بأنها جارية :

" وهذا يدل على أمور " :-

أحدها : وجود الأنهار فيها حقيقة .

الثاني : أنها جارية لا واقفة .

الثالث : أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٨٦ .
(٢) سورة التوبه آيه / ١٠٠ .
(٣) المصنف لابن أبي شيبة ١٣/ ٩٧
(٤) سورة الواقعة آيه/ ٣١ .
(٥) جامع البيان ٢٧ / ١٨٤ .

الدنيا ، وقد ظهين بعض المفسرين أن معني ذلك جريانها بأمرهم وتصريفهم لها كيف شاءوا ، وكأن الذي حطهم على ذلك أنهم لما سمعوا أن أنهارها تجرى في غير أخدود فهي جارية على وجه الأرض حطوا قوله (تجرى من تحتها الأنهار) على أنها تجرى بأمرهم إذ لا يكون فوق المكان تحته وهؤلاء أوتوا من ضعف الفهم ، فإن أنهار الجنة وإن جرت في غير أخدود فهي تحت القصور والمنازل والغرف وتحت الأشجار وهو - سبحانه - لم يقل من تحت أرضها .

وقد أخبر - سبحانه - عن جريان الأنهار تحت الناس في الدنيا فقال : (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم)(١) . فهذا على ماهو المعهود المتعارف وكذلك ماحكاه من قول فرعون (وهذه الأنهار تجرى من تحتي)(٢) .

وقال تعالى مبينا أنواع أنهار الجنة (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى)(٣) .

قال ابن جرير : موضحا معني الآية " يقول تعالى ذكره : صفة الجنة التي وعدها المتقون وهم الذين اتقوا في الدنيا عقابه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه (فيها أنهار من ماء غير آسن) يقول تعالى ذكره : في هذه الجنة التي ذكرها : أنهار من ماء غير متغير الريح ، يقال منه " قد أسن ماء هذه

---

(١) سورة الأنعام آية / ٦ .
(٢) هادى الأرواح ص ١٢١ والآية رقم (٥١) من سورة الزخرف.
(٣) سورة محمد آية / ١٥ .

البئر اذا تغيرت ريح مائها فأنتنت . . .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله (فيها أنهار من ماء غير آسن) يقول : غير متغير .

وقال قتادة : في قوله (أنهار من ماء غير آسن) من ماء غير منتن . . . وقوله (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) . يقول تعالى ذكره : وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه لأنه لم يحلب من حيوان فيتغير طعمه بالخروج من الضرع ولكنه خلقه الله ابتداء في الأنهار فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه عليه . . . . وقوله (وأنهار من عسل مصفى) يقول : وفيها أنهار من عسل قد صفي من القذى وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية ، وإنما أعلم - تعالى - ذكره عباده بوصفه ذلك العسل بأنه مصفي أنه خلق في الأنهار ابتداء سائلا جاريا سبلى الماء واللبن المخلوقين فيها فهو من أجل ذلك مصفي ، قد صفاه الله من الأقذاء التي تكون في عسل أهل الدنيا الذي لا يصفو من الأقذاء إلا بعد التصفية لأنه كان في شمع فصفي منه " أ . هـ . (١)

وقال العلامة ابن القيم : بعد أن ذكر الآية السابقة " فذكر - سبحانه - هذه الأجناس الأربعة ، ونفي عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا فآفة الماء أن يأسن ، ويأجن من طول مكثه ، وآفة اللبن أن يتغير طعمه الى الحموضة ، وأن يصير قارصا ، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها ، وآفة العسل عدم تصفيته وهذا من آيات الرب تعالى - أن تجرى أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا

---

(١) جامع البيان ٢٦ / ٤٩ - ٥٠ .

باجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول ، واللغو والإنزاف وعدم اللذة فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا فتفتال العقل ويكثر اللغو على شربها بل لا يطيب لشاربها ذلك إلا باللغو وتنزف في نفسها ، وتنزف المال وتصدع الرأس وهي كريهة المذاق وهي رجس من عمل الشيطان توقع العداوة والبغضاء بين الناس وتصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة وتدعو إلى الزنا ، وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم ، وتذهب الغيرة ، وتورث الخزي والندامة ، والفضيحة ، وتلحق شاربها بأنقص نوع الإنسان ، وهم المجانين ، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات وتكسوه أقبح الأسماء والصفات ، وتسهل قتل النفس ، وإفشاء السر الذي في إفشائه مضرته ، أو هلاكه ومواخاة الشياطين في تهذير المال الذي جعله الله قياما له ولم يلزمه مؤنته ، وتهتك الأستار ، وتظهر الأسرار ، وتدل على العورات ، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم وتخرج من القلب تعظيم المحارم ، وعد منها كعابد وثن ، وكم أهاجت من حرب وأفقرت من غني ، وأذلت من عزيز ، ووضعت من شريف وسلبت من نعمة وجلبت من نقمة ، وفسخت مودة ، ونسجت عداوة ، وكم فرقت بين رجل وزوجته ، فذهبت بطيبه وراحت بلبه ، وكم أورثت من حسرة ، وأجرت من عبرة وكم أطلقت في وجه شاربها بابا من الخير ، وفتحت له بابا من الشر ، وكم أوقعت في لبيبة وعجلت من منية وكم أورثت من خزية وجرت على شاربها من محنة وجرت طيبه من سقطة فهي جماع الاثم ، ومفتاح الشر وسلابة النعم وجالبة النقم ، ولو لم يكن من ذاتها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة[1] لكفي وآفة الخمر أضعاف

---

(١) رواه ابن ماجة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ٢ / ١١١٩ ، ورواه أبو داود ٢ / ٢٩٣ ، ورواه النسائي في سننه (٨ / ٣١٨) ، ورواه أحمد في المسند ٢ / ٢٢ ، كلهم من حديث ابن عمر .

أضعاف ماذكرنا وكلها منتفية عن خمر الجنة ،فإن قيل فقد وصف ـ سبحانه ـ الأنهار بأنها جارية ومعلوم أن الماء الجاري لا يأسن فما فائدة قوله (غير آسن) (١) .

قيل الماء الجاري وإن كان لا يأسن فإنه إذا أخذ منه شيء وطال مكثه أسن ،وماء الجنة لا يعرض له ذلك ولو طال مكثه ماطال ، وتأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة الناس فهذا لتشر بهم وطهورهم ، وهذا لقوتهم وغذائهم ،وهذا للذتهم وسرورهم ، وهذا لشفائهم ومنفعتهم والله أعلم " أ.هـ. (٢)

وما تقدم من الآيات كلها تصف أنهار الجنة وهي تجري من تحت غرفها وقصورها وبساتينها وجريان الأنهار من تحت تلك الغرف والقصور والبساتين مما يزيدها بهجة وجمالا وكل ذلك حاصل وتحقق لعباد الله المتقين لأن ـ الباري سبحانه ـ وعدهم بذلك ووعده ـ سبحانه ـ حق لا يخلف .

ولنستمع بعد وصف القرآن لأنهار الجنة ،إلى بعض ماجاء في وصفها في السنة المطهرة :ـ

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا : يارسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله مابين الدرجتين

---

(١) سورة محمد آية / ١٥ .

(٢) حادي الأرواح ص ١٢٢ - ١٢٣ .

كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ،وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة "(١).

فلقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر أنهار الجنة بأنها تتفجر من أعلا درجة في الجنة ،ثم تنحدر نازلة إلى أقصى درجة فيها فيالله من منظر رائع ،ويالله من تكريم لمن نزل تلك الدرجات العلى .

وروى أيضا من حديث أنس رضي الله عنه قال :

لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال : أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا فقلت ماهذا ياجبريل قال هذا الكوثر(٢).

وفي لفظ آخر : " فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : ماهذا النهران ياجبريل ؟ قال هذا النيل والفرات عنصرهما ،ثم مضى به في السماء ،فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب يده فإذا هو مسك أذفر قال : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك"(٣).

ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج"(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٢/١٣٦٠ (٢) المصدر السابق ٣/٢٢١٠
(٣) صحيح البخاري مع الفتح ١٣/٤٧٨٠
(٤) رواه الترمذي في سننه وقال : " هذا حديث حسن صحيح ٥/١١٩-١٢٠ .

فالكوثر هو أحد أنهار الجنه المشهورة ،وهو أعظمها وأحلاها ، وأحسنها وهو كرامة وهدية من الله ـ عز وجل ـ أكرم به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم خصوصيه له من بين سائر الأنبياء ،وهو دليل على علو قدره صلى الله عليه وسلم ،وارتفاع منزلته عند الله ـ تعالى ـ وليس في وسعنا أن نصف هذه المنزلة غير أنه يكفينا أن نقول : إنه خير البشر وأفضلهم على الإطلاق كيف وقد قال عليه الصلاة والسلام : "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة"(١) .

وظاهر الأحاديث التي تقدم ذكرها في بيان صفة الكوثر تدل دلالة واضحه على أن الكوثر غير الحوض المورود الذي يكون في عرصات القيامة وقبل الصراط .

ذلك هو وصف أنهار الجنة ،كما هو واضح من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتقدمة .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٤/١٧٨٢ .

ـ المبحث السابع ـ

أبدية الجنة ودوام نعيمها

لقد دلت السورة على أبدية الجنة وخلود أهلها فيها ودوام نعيمها في قوله ـ تعالى ـ (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

فقوله ـ تعالى ـ في هذه الآية (فادخلوها خالدين) فيه دلالة واضحة على أن أهل الجنة خالدون فيها بلا انقطاع .

قال ابن كثير : (فادخلوها خالدين) أي : ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا " أ.هـ.(١)

وقد أكد ـ تعالى ـ خلود أهل الجنة وأبديتها ودوام نعيمها في مواضع أخرى كثيرة في القرآن الكريم .

قال تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا)(٢) .

قال ابن كثير بعد هذه الآية : " هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ، ومحالها وأرجائها حيث شاءوا ، وأين أرادوا وهم خالدون فيها أبدا لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولا " أ.هـ.(٣)

وقال تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا)(٤) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/١١٦ (٢) سورة النساء آية / ٥٧ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٣١٩ .
(٤) سورة الكهف آية / ١٠٨ .

أخبر -تعالى- في هاتين الآيتين : بأنه أعد لعباده السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات -جنات الفردوس نزلا - "والنزل : هو ما يهيأ من الإكرام للضيف أو القادم ومعنى قوله -تعالى- (خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) أي : خالدين في جنات الفردوس لا يبغون عنها حولا أي : تحولا الى منزل آخر ، لأنها لا يوجد منزل أحسن منها يرغب في التحول إليه عنها بل هم خالدون فيها دائما من غير تحول ولا انتقال"(١).

قال ابن كثير : "وفي قوله (لا يبغون عنها حولا) تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يترهم فيمن هو مقيم في المكان دائما أنه قد يسأمه ، أو يمله ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ولا ظعنا ولا رحلة ولا بدلا"(٢).

وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا)(٣).

هذه الآية بين الله فيها أن الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا له بالوحدانية ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، وأدوا مع ذلك فرائض الله التي فرضها عليهم ، فإن جزاءهم أن يدخلهم يوم القيامة إذا صاروا الى الله جنات يعني : بساتين تجري من تحتها الأنهار (خالدين فيها أبدا) أي : باقين في هذه الجنات التي هذا وصفها أبدا دائما"(٤).

---

(١) أضواء البيان ٤/ ١٩٧ . (٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣١ .
(٣) سورة النساء آية / ١٢٢ . (٣) جامع البيان ٥/ ٢٨٧ .

وقال تعالى : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجـــرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم)[١] .

وقال تعالى (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ،أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم)[٢] .

بشّر الله -تعالى- عباده المؤمنين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيله برحمة منه لهم ، وأنه قد رحمهم من أن يعذبهم ،وبرضوان منه لهم، بأنه قد رضي عنهم بطاعتهم إياه ،وأدائهم ما كلفهم ،وجنات يعني :بساتين لهم فيها نعيم مقيم لا يزول ولا يبيد ، ثابت دائم أبدا لهم لا نهاية لذلك ولا حد[٣] .

وقال تعالى : (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين)[٤] .

بين الله -تعالى- في هاتين الآيتين أنه يُخرج ما في صدور المتقيـــن من عداوة وبغضاء وحقد من بعضهم لبعض ، ويجعلهم إخوانا على ســـرر متقابلين ،وأنه لا يمسهم في الجنة تعب ،ولا يخرجون من الجنة ونعيمهـا وما أعطاهم الله فيها من النعيم بل ذلك دائم أبدا .

---

(١) سورة المائدة آية / ١١٩ . (٢) سورة التوبة آية/ ٢٠-٢٢ .

(٣) جامع البيان ١٠/ ٩٧ . (٤) سورة الحجر آية/ ٤٧ ، ٤٨ .

وقال تعالى (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود ،وظل ممدود وماء مسكوب ،وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة)(١) .

هذه الآيات نوه الله ـ تعالى ـ فيها بأصحاب اليمين ،وأن شأنهم عظيم وحالهم جسيم ،كما نوه بما يؤولون إليه من النعيم من فواكه لذيذه ، وظل ظليل ،وكثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة ، ثم بين ـ تعالى ـ أن فاكهة الآخرة ليست كفاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات وتكون ممتنعة متعسرة على مبتغيها بل هي على الدوام موجودة وجناها قريب يتناوله العبد على أي حال كان .

وقال تعالى : (إن المتقين في مقام أمين ،في جنات وعيون ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم)(٢) .

وهذه الآيات بين الله ـ تعالى ـ فيها أن المتقين في الجنة خالدون ، لا يذوقون فيها الموت أبدا ،ولا يخرجون من الجنة أبدا .

ويكفينا من الآيات ماتقدم في الإستدلال على أبدية الجنة ودوامها ، وأما الأدلة من السنة على ذلك فكثيرة جدا .

---

(١) سورة الواقعة آيه / ٢٧ ـ ٣٤ .

(٢) سورة الدخان آية/ ٥١ ـ ٥٦ .

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " من يدخل الجنة ينعم لا يبأس[1] لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه[2] ".

ومنها حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ينادي منادٍ إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدا فذلك قوله - عز وجل - (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)[3] .

ومنها ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح[4] فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم . هذا الموت قال ويقال : يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم . هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح قال ثم يقال : يا أهل الجنه . خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت قال : ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفله وهم لا يؤمنون)[5] .

---

(١) البأس : هو شدة الحال والبأس ، والبؤس ، والبأساء ، والبؤساء بمعنى شرح النووي ١٧/ ١٧٤ .

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٤/ ٢١٨١-٢١٨٢ .

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٢ ، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة معا والآية رقم (٤٣) من سورة الأعراف .

(٤) الأملح : من الكباش الذي يكون فيه بياض وسواد والبياض أكثر ، التذكره ص ٤٣٨ .

(٥) صحيح البخاري ٣/ ١٥٧ ، صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٨ ، واللفظ له والآية رقم (٣٩) من سورة مريم .

وفيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يدخل الله أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه "(١).

والأحاديث الواردة في أبدية الجنة ودوام نعيمها كثيرة جدا ، وكلها دلت على أن نعيم الجنة لا يفنى ولا ينقطع ، وأنه نعيم أبدي سرمدي ، وهذا هو اعتقاد أهل السنة وعامة المسلمين .

قال النووي : " مذهب أهل السنة وعامة المسلمين أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، يتنعمون بذلك وبغيره من ملاذ وأنواع نعيمها تنعما دائما لا آخر له ولا انقطاع أبدا ، وأن تنعمهم بذلك على هيئة تنعم أهل الدنيا إلا ما بينهما من التفاضل في اللذة والنفاسة التي لا يشارك نعيم الدنيا إلا في التسمية وأصل الهيئة ، وإلا في أنهم لا يبولون ، ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبصقون ، وقد دلت دلائل القرآن والسنة .. أن نعيم الجنة دائم لا انقطاع له أبدا "أ.هـ.(٢)

---

(١) صحيح البخاري ٤/١٣٦ ، صحيح مسلم ٤/٢١٨٩ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/١٧٣ - ١٧٤ وانظر " مراتب الإجماع لابن حزم ص ١٧٣ .

والذى نخلص اليه مما تقدم من الآيات والأحاديث التى سقناهـــا للاستدلال على أبدية الجنة ودوام نعيمها أنه يجب على كل إنسان أن يصدق التصديق الجازم بوجود الجنة وأنها مخلوقة الآن وأنها باقية بإبقاء الله لهـا لا تفنى أبدا ، ويدخل في ذلك كل ما اشتملت عليه من النعيم (١).

---

(١) ولم يخالف في هذا الإعتقاد الحق الا " الجهم بن صفوان " فإنه زعـم " أن الجنة والنار تفنى وليس له سلف ألبته في هذا الإعتقاد الباطـــل وتبعه على هذا الإعتقاد " أبو الهذيل العلاف " فإنه زعم : أن حركـات أهل الجنة تفنى ويصيرون في سكون دائم " .

أنظر : مذهب الجهم في " حادى الأرواح " ص٢٤٤-٢٤٥ ، شـرح الطحاوية ص. ٤٨-٤٨١ ، لوامع الأنوار البهية ٢ / ٢٣٤ .

وانظر " مقالات الإسلاميين ١ / ٢٤٣ ، وانظر الفرق بين الفرق ص ٢١١ ، ١٢٢ ، وانظر " الملل والنحل " ١ / ٥١ ، وانظر مذهب " محمد بن الهذيل العلاف " في " الملل والنحل " ، ١ / ٥١ ، التبصير في الدين ص ١٠٨ ، ص. ٧٠ ، ولقد كفر السلف الصالح من قال بفناء الجنة لأن ذلك تكذيـب للقرآن وكفر به .

أنظر كتاب " السنة " لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٢٠ .

ـ المبحث الثامن ـ

وجوب الإيمان بالعرش ، وهو سقف الجنه

لقد دلت السورة على وجوب الإيمان بالعرش ، وهو من الأمور الغيبية التي يجب الايمان بها ، وهو أعظم المخلوقات ، ـ خلقه ـ الرب جل وعلا ـ قبل أن يخلق السموات والأرض ، واختصه بالعلو والارتفاع ، ثم استوى عليه .

وقد جاء ذكر العرش في آخر آية من سورة " الزمر " وذلك في قوله تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) .

فهذه الآية من السورة أوضحت لنا مشهدا رائعا لعباد الله المكرمين وهم محدقون حول هذا المخلوق العظيم ـ العرش ـ يسبحون بحمد ربهم ، ويعظمونه وينزهونه عن النقائص ويثنون عليه الثناء الطيب الذي يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، فإذا ما تم القضاء بين الخلائق بالعدل ، والقول الفصل على أتم وجه وأكمله ، نطق العالم كله بالثناء والتحميد لله الحكم العدل الذي لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى (وقيل الحمد لله رب العالمين) .

قال العلامة ابن القيم : " فحذف فاعل القول ، لأنه غير معين بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم به ، فيحمده أهل السموات ، وأهل الأرض ، الأبرار والفجار ، والإنس والجن ، حتى أهل النار .

قال الحسن وغيره : لقد دخلوا النار ، وإن حمده لفي قلوبهم ، وما وجدوا لهم عليه سبيلا ، وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله (قيل ادخلوا أبواب جهنم) . وفي قوله (وقيل ادخلا النار

مع الداخلين[1]) كأن الكون كله نطق بذلك ، وقال لهم ذلك والله أعلم بالصواب[2] .

وقال البغوي رحمه الله تعالى : (وترى الملائكة حافين من حول العرش) أي : محدقين محيطين بحافته وجوانبه " أ.هـ.[3]

وقال ابن كثير حول قوله تعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش) الآيه " لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلا في المحل الذي يليق به ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون حول العرش المجيد يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ، ويعظمونه ويقدسونه ، وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضي الأمر وحكم بالعدل (وقيل الحمد لله رب العالمين) أي : نطق الكون أجمعه ناطقة وبهيمه لله - رب العالمين - بالحمد في حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد في قوله (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض)[4] . واختتم بالحمد في قوله - تبارك وتعالى - (وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين)[5] .

وبعد بيان معنى الآية نقول : إنها دلت على وجوب الإيمان بالعرش وهو مقصودنا الذي نريد التوصل إليه ، وذكرناه هنا عقب ذكر الجنة لأمرين :-

١) الأمر الأول : أن هذه الآية التي نصت على وجوب الإيمان بالعرش جاءت عقب الآيات الدالة على الايمان بالجنة .

---

(١) سورة التحريم آية / ١٢ . (٢) روضة المحبين ص ٦٥ .
(٣) تفسير البغوي على حاشية الخازن ٦/ ٧٢ .
(٤) سورة الانعام آية / ١ .
(٥) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١١٨ .

٢) الأمر الثاني : ثبت في السنة الصحيحة أن العرش سقف الجنة . فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلا الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة" (١) .

ولا بد لنا هنا من بيان معنى العرش في اللغة ،ومفهومه عند العرب الذين بلغتهم نزل القرآن وخاطبنا الله بها فنقول :

(٢) العرش في اللغة :-

هو عبارة : عن سرير الملك ومنه قوله تعالى (ولها عرش عظيم) (٢) وعرش البيت سقفه ،ومنه قوله تعالى (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) (٣) أي : على سقوفها ،. ويأتي لمعنى الملك يقال : ثل عرشه على ما لم يسم فاعله أي : زال ملكه وذهب عزه .

قال زهير :

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها ... وذبيان إذ زلت بأحلامها النعل (٤)

والمراد بالعرش في الآيات والأحاديث النبوية هو المعنى الأول وهو : السرير وهذا المعنى معروف عند العرب .

جاء في تهذيب اللغة : "العرش في كلام العرب ، سرير الملك يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ سماه الله ـ جل وعز ـ عرشا فقال (ولها عرش عظيم) (٥) .

---

(١) ٢/١٣٦ . (٢) سورة النمل آية / ٢٣ .
(٣) سورة البقرة آية / ٢٥٩ .
(٤) الصحاح ٣/١٠١٠ ، لسان العرب ٦/٣١٣ ، القاموس ٢/٢٨٨ .
(٥) تهذيب اللغة ١/٤١٤ ، والآية رقم (٢٣) من سورة النمل .

وماجاء في كلام بعض أهل اللغة من أن المراد بالعرش الملك لا يعني أن الملك يكون بدون عرش ، فالملك تبع للعرش فإذا ذهب العرش ذهب الملك .

وقال في القاموس : " العرش عرش الله ولا يحد "[1] ، ولعل قصد صاحب القاموس بقوله " لا يحد " أي : لا يوصف بغير ماوصفه الله به في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأما عرش الله تعالى :-

فهو سرير ذو قوائم خلقه الله واستوى عليه وأمر الملائكة بحمله وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات ، ومنه قول : أمية بن أبي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ∴ ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء العالي الذي سبق النا ∴ س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا لا يناله بصر العي ∴ ن ترى دونه الملائك صورا[2]

وثبوت العرش من أوضح الأمور عند جميع الأمم ، وفي جميع الأديان .

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي : "باب الإيمان بالعرش وهو أحد ما أنكرته المعطلة ثم قال : " وما ظننا أن نضطر إلى الإحتجاج على أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والايمان به حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا "[3] .

قال أحمد بن الحسين البيهقي في كتابه " الأسماء والصفات " بعد أن ذكر آيات العرش : " اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وفي أكثر هذه الآيات دلالة على صحة

---

(١) القاموس ٢ / ٢٨٨ .
(٢) الإختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص ٢٤٠ ضمن عقائد السلف .
(٣) الرد على الجهمية ص ١٢ .

ماذهبوا اليه وفي الأخبار والآثار الواردة في معناه دليل على صحة ذلك اهـ[1].

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة الدالة على اثبات العرش كثيرة جدا فقد أخبر - البارئ جل وعلا - عن نفسه بأنه استوى على عرشه في مواضع سبعة من كتابه وقد تقدم ذكرها .

وقال تعالى : (ذو العرش المجيد فعال لما يريد)[2] .

وقال تعالى : (رفيع الدرجات ذو العرش)[3]

وقال تعالى : (لا اله الا هو رب العرش العظيم)[4] .

وقال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا)[5] .

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)[6] .

وقال تعالى (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم)[7] .

وأما الأحاديث والآثار التي دلت على ثبوت العرش ووجوب الإيمان به فكثيره جدا ومنها مايلي :-

١ - فقد روى الشيخان في صحيحيهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند الكرب لا إله الا الله العليم الحليم

---

(١) ص ٤٩٧ .
(٢) سورة البروج آية/ ١٥-١٦ .
(٣) سورة غافر آية / ١٥ .
(٤) سورة النمل آية / ٢٦ .
(٥) سورة غافر آية / ٧ .
(٦) سورة الحاقة آية / ١٧ .
(٧) سورة التوبة آية / ١٢٩ .

لا اله الا الله رب العرش العظيم ،لا اله الا الله رب السماوات ،ورب الأرض ورب العرش الكريم "(١).

٢ - ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

"إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه ، وعرشه على الماء ،وبيده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض"(٢).

قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى - "فالقرآن مشحون بذكر العرش، وكذلك الآثار بما يمنع أن يكون المراد به الملك، فدع المكابرة والمراء فإن المراء في القرآن كفر ،وما أنا قلت : بل المصطفى صلى الله عليه وسلم قاله"(٣).

أما الجهمية وأفراخهم المعتزلة ،وطائفة من الخوارج وبعض الأشاعرة فقد أنكروا العرش بطريقة التأويل الفاسد ، فقد زعموا : أن المراد بالعرش في الآيات والأحاديث هو عبارة عن سعة الملك والسلطان ،وليس العرش الذي هو سقف المخلوقات وزعم بعضهم أن عرشه سماواته وأرضه ،وجميع خلقه وهذا هو عين التحريف لنصوص الكتاب والسنة"(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٤/٢٨٢ ،صحيح مسلم ٤/٢٠٩٢ - ٢٠٩٣ .

(٢) صحيح البخاري ٤/٢٨١ .

(٣) كتاب "العلو" للذهبي ص ٥٨ .

(٤) أنظر : التنبيه والرد على أهل الأهواء ص ٩٥ ، التوحيد للمعتزلي ص ٥٩٩ ، الإختلاف في اللفظ ص ٢٤٢ ، الرد على الجهمية للدرامي ص ١٣ ، العلو للعلي الغفار ص ٥٨ ، مختصر الصواعق المرسلة ٢/١٤٠ ، شرح الطحاوية ص ٣١٢ .

وقد بين محمد بن عثمان[١] بن أبي شيبة مذهب الجهمية في العرش فقال : " ذكروا أن الجهمية يقولون : أن ليس بين الله - عز وجل - وبين خلقه حجاب وأنكروا العرش ،وأن يكون هو فوقه وفوق السموات وقالوا : ان الله في كل مكان وأنه لا يتخلص من خلقه شيء ولا يتخلص الخلق منه الا أن يفنيهم أجمع فلا يبقى من خلقه شيء - تبارك وتعالى - عما يقولون علوا كبيرا "أ.هـ.[٢]

وقد عبر عبد الجبار بن أحمد عن مذهب إخوانه المعتزلة في العرش فقال بعد أن ذكر آيات الإستواء على العرش : "إن العرش ههنا بمعنى الملك وذلك ،ظاهر في اللغة يقال : ثل عرش بني فلان أي : إذا زال ملكهم ،ثم استدل على هذا بقول الشاعر :

إذا ما بنوا مروان ثلت عروشهم ∴ وأودت كما أودت إياد وحمير[٣]

وأما الأشاعرة أفراخ المعتزلة فقد عبر عن مذهبهم في العرش أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي حيث قال : "والصحيح عندنا تأويل العرش في هذه الآية (الرحمن على العرش استوى)[٤] على معنى الملك كأنه أراد أن الملك ما استوى لأحد غيره ،وهذا التأويل مأخوذ من قول العرب "ثل عرش بني فلان " إذا ذهب ملكه ،وقال متمم بن نويره في هذا المعنى :

عروش تغانوا بعد عز وأمنة ∴ هو وابعد ما نالوا السلامة والبقاء.

وأراد بالعروش ملوكا انقرضوا ، وقال سعيد بن زائدة الخزاعي في النعمان بن المنذر :

---

(١) هو محمد بن عثمان بن محمد بن أبي شيبة العبسي من عبس غطفان أبوجعفر الكوفي مؤرخ لرجال الحديث من الحفاظ ، توفي سنة سبع ومائتين هجرية .
انظر ترجمته في : "الميزان ٢/٦٤ ،تاريخ بغداد ٢/٤ ،الاعلام ٧/١٤٢ .

(٢) كتاب العرش (٥١) ق" مخطوط" .
(٣) شرح الأصول الخمسة ص ٢٢٧ .
(٤) سورة "طه "آية / ٥ .

قد نال عرشا لهينله خائـــل .·. جن ولا إنس ولا د يـــــار

وأراد بالعرش الملك والســـلطان .·. وقال النابغة :-

بعد ابن جفنة وابن هاتك عرشـــه .·. والحارثيين يؤملون فلاحـــا

وأراد بهاتك عرش ابن جفنة سالب ملكه فصح بهذا التأويل العرش على الملك في آية الاستواء على ما بيناه والله الموفق للصواب " أ.هـ.(١)

وهذه التأويلات الفاسدة التي انتحلها الجهمية والمعتزلة والأشاعرة للعرش الذي استوى عليه الرب جل جلاله استواءا يليق بجلاله يقصدون منها التوصل إلى نفي صفة العلو والفوقيـة ولكنهم باءوا بالفشل فـي مسعاهم ذلك لأن الأدلـة الكثيرة من الكتاب والسنة تكذبهم فيما قالـوا وتثبت لله -تعالى- صفة العلو والفوقية ،وأن المراد من العرش المخلوق العظيم الذي هو سقو المخلوقات وأنه ذو قوائم ويحمله ثمانية من الملائكة الكرام البرره .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : " فمن أنكر عرشه ،وأنكـر استواءه أو أنكـر تدبيره فقد قدح في ملكه " أ.هـ.(٢)

وقال شارح الطحاوية : ردا على المعطلة " وأما من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك كيف يصنع بقوله تعالى (ويحمل عرش ربـك فوقهم يومئذ ثمانية)(٣) وقوله (وكان عرشه على الماء)(٤) أيقول : " ويحمل ملكـه يومئذ ثمانية ؟ وكان ملكه على الماء ؟ ويكون موسى عليه السلام آخذا بقائمة من قوائم الملك ؟ هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول ؟ " أ.هـ.(٥)

---

(١) أصول الدين ص ١١٣-١١٤ (٢) مختصر الصواعق المرسلة ٢ / ١٤٠

(٣) سورة الحاقة آية / ١٧ . (٤) سورة هود آية / ٧ .

(٥) شرح الطحاوية ص ٣١٢ .

والذي نخلص اليه مما تقدم من الآيات والأحاديث النبوية السابقة أن العرش من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها كما أخبر الله ورسوله بذلك ، وأن العرش أعظم مخلوقات الله خلقه قبل خلقه للسموات والأرض ، واختصه - سبحانه - بالعلو والارتفاع على سائر المخلوقات ، ثم استوى عليه استواء يليق بجلاله - سبحانه - وتعالى وهذا ما يجب على الإنسان أن يعتقده في العرش ، كما يجب عليه أن ينأى بنفسه من الإعتقادات المنحرفة المخالفة للكتاب والسنة في عرش الرحمن ، وقد تقدم ذكر بعضها (١) .

---

(١) وهناك طائفة من الفلاسفة والمتكلمين ذهبوا إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة وهو عندهم الفلك التاسع " .

جاء في رسائل إخوان الصفا " وأما الفلك التاسع المحيط بهذه الأفلاك الثمانية فهو العرش العظيم الذي يحمله فوقهم يومئذ ثمانية كما قال الله - عز وجل - " .

أنظر : رسائل إخوان الصفا ٢ / ٢٦ ، تفسير روح المعاني ١١ / ٥٣ ، شرح الطحاوية ص ٣١ ، " وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية قولهم هذا ورد عليه وبين بأنه قول لم يثبت بدليل عقلي ولا شرعي " .

أنظر الرسالة العرشية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ١ / ٢٦١-٢٦٤ .

الخاتمة

((الخاتمـــــــة))

وأوجز في هذه الخاتمة النتائج التي اشتمل عليها هذا البحث المتعلق بمباحث العقيدة في " سورة الزمر " وذلك فيما يلي :

١) الايمان بالله يتضمن : الاعتقاد الجازم بأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وأنـــه الخالق الرازق المحيي المميت ، وأنه - وحده - الذي يستحق أن يفرده العبـــاد بالعبودية والطاعة ، والذل والخضوع وغير ذلك من أنواع العبادة ، وأنه - تعالى المتصف بصفات الكمال المنزه من كل عيب ونقصان ، وهذا ما يجب على كل انسان أن يعتقده في الله - عز وجل - حتى يحقق عبوديته للخالق - سبحانه وتعالى - .

٢) الايمان بأن الله - تعالى - عال على جميع المخلوقات ستو على عرشه بائن من خلقه ، وأنه لا يحل بشيء ولا يتحد به .

٣) القرآن كلام الله منزل غير مخلوق في جميع أحواله سواء كان مقروءا ، أو مسموعا ، أو مكتوبا فهو كلامه - تعالى - على كل حال لان الكلام ينسب الى من قاله مبتدئا لا الى من قاله مبلغا ، ومن ثم لا يكون مخلوقا .

٤) ثبوت صفة العزة - للبارى جل وعلا - بنص الكتاب والسنة فلا عزة لاحد الا والله مالكها ، ومن يريد العزة فليطلبها منه - جل وعلا - ولا سبيل الى نيلها الا بطاعته والخضوع له - وحده لا شريك له .

٥) ان صفة الحكمة من الصفات التي أثبتها لنفسه - سبحانه - فله حكمة تتعلق بـــه يحبها ويرضاها ، ويفعل لاجلها فهو - تعالى - يفعل ما يفعل لحكمة يعلمها ، والنافون للحكمة والتعليل مخالفون للكتاب والسنة والاجماع والعقل الصحيـــــح والفطرة المستقيمة التي فطر الله الناس عليها .

٦) بطلان زعم اليهود والنصارى ومشركي العرب فيما ادعوه من نسبتهم الولد الـــى الله - تعالى - فقد نفى - سبحانه - عن نفسه الولادة ، ونفى اتخاذ الولد جميعا فهو المنزه - جل وعلا - من كل نقص وعيب - تعالى الله - عما يقول الظالمـــون علوا كبيرا .

٧) اتصاف الباري ـ سبحانه وتعالى ـ بصفتي الرحمة والمغفرة حقيقة لا مجازا ، وأن صفة الرحمة تنقسم الى قسمين رحمة عامة يشترك فيها كما قال تعالى ((ورحمتي وسعت كل شيء)) [1] ورحمة خاصة بالانبياء والرسل وعباده المؤمنين كما قال تعالى ((وكان بالمؤمنين رحيما)) [2] فهما صفتان حقيقيتان ثابتتان لله ـ عز وجل ـ حقيقة على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

٨) صفة الغنى من صفات الكمال التي أثبتها الباري ـ سبحانه ـ لنفسه فلا يحتاج الى شيء ، والخلائق جميعهم محتاجون اليه وفقراء اليه في كل أمر من أمورهم فلا قوام لهم الا به تعالى ـ في كل حركاتهم وسكناتهم وفي كل لحظة من لحظاتهم ، وفي كل نفس من أنفاسهم فلا غنى لهم عنه طرفة عين .

٩) ان صفة الرضا من الصفات الفعلية التي أثبتها ـ الباري سبحانه ـ لنفسه على ما يليق بجلاله يفعلها متى شاء وكيف شاء وأن الارادة نوعان ارادة قدرية كونية ، وارادة شرعية دينية ، والشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا والقدرية الكونية هي الشاملة لجميع الموجودات فما شاءه ـ سبحانه ـ كان وما لم يشأه لم يكن ، والامر الشرعي انما تلازمه الارادة الشرعية الدينية ، ولا تلازم بينه وبين الارادة الكونية القدرية ، فالكافر أمره الله بالايمان ، وأراده منه شرعا ودينا ولم يرد منه كونا وقدرا ، ولو أراده كونا لحصل لان الارادة الكونية القدرية لا يتخلف عنها المراد بخلاف الارادة الشرعية قد يتخلف المراد بها .

١٠) صفة العلم من صفات الكمال التي أثبتها ـ الباري سبحانه ـ لنفسه فقد علم ـ جل وعلا ـ أزلا ما يكون من عباده المختار من سعادة وشقاوة ، وما يحصل له من الغنى والفقر ، ومن ناحية تحديد عمره وانقضاء أجله ، ثم كتب ما يعلمه في اللوح المحفوظ فهو ـ سبحانه ـ كتب لا ليجبر أحدا من عباده على حسب ما كتب ، في الازل ما يكون من العبد بمحض اختياره ، وارادته فعلمه ـ تعالى صفة انكشاف للماضي والحاضر والمستقبل وهو معنى قول أهل العلم علم ما كان وعلم ما يكون ،

---

١) سورة الاعراف آية / ١٥٦ ٢) سورة الاحزاب آية / ٤٣

وعلم ما لم يكن ان لو كان كيف كان يكون .

١١) لله تعالى يدان حقيقيتان وهما من صفات الكمال التي اتصف بها - سبحانه - وأنهما كما يليق بجلاله ، وما ورد في شأنهما من الامساك والطي ، والقبض والبسط والحثيات والخلق باليدين وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ، وكينونة المقسطين عن يمينه وتخيير آدم بين ما في يديه ، وأخذ الصدقة بيمينه يربيها لصاحبها ، وأنه مسح ظهر آدم بيده الى غير ذلك مما ورد في شأنها مما يدل دلالة واضحة على أنها يد حقيقية كما أخبر بذلك - جل وعلا - وأن تأويلها بالقدرة أو النعمة أو القوة تأويل ظاهر البطلان .

١٢) لا يستحق العبادة بجميع أنواعها الاعتقادية والقولية والعملية الا الله - جل وعلا - فأنواع العبادة مثل الدعاء والخوف والرجاء والانابة ، والتوكل والخشية وغيرها من أنواع العبادة لا يستحق أى أحد كائنا من كان أى شيء منها .

١٣) الاخلاص روح العبادة وعمودها الذى تقوم عليه ، وأى عبادة بدون اخلاص عبادة مردودة على صاحبها لانها لم توجه الى الله - وحده لا شريك له - ومتى شاب العبادة قصد غير الله - تعالى - اعتبرت لاغية لا قيمة لها ولا فائدة منها سوى التعب لصاحبها لان الله - تعالى - لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا لوجهه ، وقد تضافرت الادلة من كتاب وسنة ، وأقوال الائمة في اشتراط الاخلاص للاعمال والاقوال الدينية ، وأن الله لا يقبل منها الا ما كان خالصا له وابتغي به وجهه .

١٤) العبودية : تنقسم الى عامة ، وخاصة ، والعامة هي عبودية أهل السموات والارض جميعهم عبيده - تعالى - برهم وفاجرهم ، ومؤمنهم وكافرهم ، وهذه العبودية هي عبودية القهر والملك ، وأما العبودية الخاصة فهي عبودية الطاعة والمحبة واتباع الاوامر والبعد عن النواهي فعلى العبد أن يتحلى بتحقيق العبودية الخاصة اذ السعادة في الدارين لا تنال الا بها .

١٥) الاسلام دين الاولين والاخرين من بني آدم ، وأن أول المسلمين في جميع الشرائع الالهية هم الرسل لانهم أول من يعرف الشرائع فالخير كل الخير بالالتزام

بدين الاسلام الذى رضيه الله دينا لعباده المؤمنين .

١٦) الطاغوت اسم عام يشمل كل ما عبد من دون الله وكل رأس ضلال يدعو الى الباطل ويزينه لمتبعيه ، كما أنه يشمل كل من نصبه الناس للحكم بينهم فحكم بأحكام الجاهلية المنتنة المضادة لحكم رب العالمين وحكم رسوله الامين صلى الله عليه وسلم ، فالحاكم بغير ما أنزل الله طاغوت لانه نصب نفسه منصب الاله المشرع ، وهنا يظهر معنى مجاوزة الحد في معنى الطاغوت ، فان الحاكم ملزم بأن يتقيد بأحكام الرب - سبحانه - التي أنزلها لعبيده وأوضحها لهم ، بل ان معنى الطاغوت يتناول كل ما صرف الناس عن عبادة ربهم كالاوثان والاشجار والقباب التي تعبد من دون الله لانها تصرف من يعبدها عن عبادة الاله الحق - سبحانه وتعالى - .

١٧) المطلوب من الانسان أن يجمع في حياته بين الخوف والرجاء ولا ينبغي له أن يغلب أحدهما على الاخر ، فانه لو غلب جانب الرجاء وانهمك في العصيان لربه - تبارك وتعالى - فان ذلك قد يؤدى به الى أن يمكر الله به ، واذا غلب عليه جانب الخوف ربما جرّه ذلك الى اليأس فالفرض من الرجاء أن الانسان لو وقع في تقصير فعليه أن يحسن الظن بالله - تعالى - ويرجو منه أن يغفر له ذنبه ، وكذلك اذا وفقه الله - تعالى - للاتيان بالطاعة يرجو من الله أن يقبلها منه ، ويخاف أن لا تقبل .

١٨) التوكل على الله لا ينافي اتخاذ الاسباب ، بل ان التوكل لا يتم الا اذا اتخذ الانسان لكل عمل يريده الاسباب التي توصله الى تحقيقه - فالله تعالى - ربط الاسباب بمسبباتها ، والتوكل من أعظم الاسباب وأنفعها في دفع الضار ، وجلب المنافع ، فلا بد من الاخذ بالاسباب التي توصل الانسان الى تحقيق حاجاته والحصول على مطالبه ، ومن قال بنفي الاسباب فتوكله مشوب ومدخول .

١٩) أرسل الله الرسل من أجل توحيد العبادة ، وهو التوحيد المطلوب الذى أمر الله عباده أن يفردوه به دون سواه ولذلك كان أساس دعوة الرسل جميعا وهو المطلوب في فاتحة دعوة كل نبي من الانبياء من لدن نوح عليه السلام الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

٢٠) الشفاعة نوعان منفية ، ومثبتة ، فالمنفية هي التي ادعاها المشركون لالهتهم والمثبتة هي التي أثبتها الله ورسوله بشرطيها الاذن ، والرضا ، والشفاعة لاهل الكبائر ثابتة بنص الكتاب والسنة خلافا لاهل البدع النافين لها ، والممنوع منها انما هو الشفاعة لاهل الكفر والشرك .

٢١) الاقرار بالرب - جل وعلا - أمر فطري مركوز في كل نفس ولهذا كانت دعوة الرسل انما كانت الى عبادة الله - وحده لا شريك له - وللتذكير بالربوبية لان عامة الخلق مقرون به - سبحانه - حيث كان المشركون يقرون بأنه - تعالى - الخالق الرازق النافع الضار المحيي المميت ، ولكن هذا الاقرار لم يجد شيئا ، ولم ينقذهم من النار .

٢٢) تظهر أهمية الاقرار بتوحيد الربوبية في أنه مقدمة لنتيجة ، فاذا أقر العبد بأن الله - تعالى - هو الرب المتفرد بالربوبية وخصائصها استلزم ذلك حتما أن ينتج عن اقراره هذا اقرار بتفرد الرب - جل وعلا - بالعبادة فيفرده بها وحده لا شريك له ولا يصرف منها شيئا لغير الله - تعالى - اذ أنه لا يصلح أن يعبد الا من كان ربا سيدا خالقا بارئا مصورا ، مالكا رازقا ، معطيا نافعا ، محييا مميتا مدبرا لامر الكون كله وذلك كله لا يثبت الا لله - وحده - لا شريك له فوجب أن يكون هو المعبود وحده دون سواه .

٢٣) أصل الشرك في بني الانسان والدافع اليه عند جميع فرق المشركين قديما وحديثا انما هو تعلقهم بأذيال الشفاعة الباطلة وزعمهم اتخاذ الاولياء والشفعاء انما هو لاجل يقربوهم اليه زلفى ، والا فهم يعتقدون أنها لا تخلق ولا ترزق ، ولا تملك من الامر شيئا ، وهذا من أقبح الاعذار لاقدامهم على أشد الذنوب وأقبحها حرمة عند الله تعالى .

٢٤) الشرك بالله أظلم الظلم وهو أشد ذنب عصي الله به ولذلك رتب الله عليه من العقوبات الدنيوية والاخروية ما لم يرتبه على ذنب سواه من اباحة دماء أهله وأموالهم وسبي ذراريهم ونسائهم وعدم مغفرته من بين الذنوب الا بالتوبة منه ،

واذا وقع فيه الانسان أحبط عمله وصار من الخاسرين .

٢٥) الايمان بالملائكة يتضمن التصديق والاعتقاد الجازم بأن لله - تعالى - ملائكة موجودون ، مخلوقون من نور ، وأنهم كما وصفهم - البارى سبحانه - عباد مكرمون يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أسندها الله اليهم ، ويجب الايمان بمن ورد تعيينه باسمه الخاص به كهاروت وماروت ، وجبريل وميكائيل على التفصيل ، أما من لم يرد تعيينه باسمه الخاص ، أو لم يشتهر بعمل معين ، فيجب الايمان بهم أجمالا ، ولا يعلم عددهم الا الله - سبحانه وتعالى - .

٢٦) الايمان بالكتب يتضمن التصديق الجازم بأن للبارى - سبحانه - كتبا أنزلها على أنبيائه ، وهي كلامه حقيقة وأنها نور وهدى وأن ما تضمنته حق وصدق وعدل ، ولا يعلم عددها الا هو - سبحانه - ، وأنه يجب الايمان بها جملة الا ما سمي منها وهي التوراة والانجيل والزبور والقرآن وصحف ابراهيم وموسى فهذه يجب الايمان بها تفصيلا .

٢٧) الايمان بالرسل يتضمن التصديق الجازم بأن - الرب جل وعلا - أرسل رسلا وأنبياء ليرشدوا الخلق في معاشهم ومعادهم ، وقد اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لا يترك خلقه سدى ، ولا هملا بل أرسل اليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، فيجب الايمان بمن سمى الله منهم في كتابه على التفصيل ، والايمان اجمالا بأن له - تعالى - رسلا غيرهم وأنبياء لا يحصيهم الا هو - سبحانه وتعالى - ويختص آخرهم وسيدهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم باعتقاد عموم رسالته وشمولها لكل أحد وكما لها دون تطرق النقص اليها وبقائها الى أن يرث الله الارض ومن عليها .

٢٩) الايمان بالقدر يتضمن التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله تعالى وقدره ، وأنه - جل وعلا - الفعال لما يريد لا يكون شيء في هذا الكون الا - بارادته ، ولا يخرج عن مشيئته وليس في العالم شيء يخرج عن تدبيره ، ولا

محيد لا حد عن قدره ، ولا يتجاوز الانسان ما خط له في اللوح المحفوظ ، وهو الذى خلق العباد وأفعالهم من طاعات ومعاصي ، ومع ذلك أمرهم ونهاهم وجعلهم مختارين لجميع أفعالهم وليسوا مجبورين عليها ، بل تقع بقدرتهم وارادتهم يهدى من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون .

٢٩) الايمان باليوم الاخر يتضمن التصديق الجازم بكل ما أخبر الله به عن هذا اليوم الذى تجوفى فيه كل نفس ما كسبت ، وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به مما يكون بعد الموت من الحشر والنشر والصحف والميزان والحساب والجزاء والصراط والحوض والشفاعة ، وفتنة القبر وعذابه ونعيمه ، والجنة والنار ، وما أعد الله لاهلهما فيهما .

٣٠) القول الراجح أن عدد النفخات ثلاث : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث ، كما صرح بذلك القرآن ، فيجب الايمان بالنفخ في الصور الذى جعله الله سبب الفزع ، والصعق والقيام من القبور ، كما يجب الاعتقاد الجازم بأن الذى يعيده الله عند البعث هو هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى ، فينعمه ويعذبه ، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها ، ويعذب التي كفرت بعينها لا أنه - سبحانه - يخلق روحا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قال من لم يعرف المعاد الذى أخبرت به الرسل حيث زعم أن الله - سبحانه - يخلق بدنا غير هذا البدن من كل وجه عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن فيخلق روحا غير هذه الروح وبدنا غير هذا البدن وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ، ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى "[1] .

٣١) الجنة والنار مخلوقتان أبديتان لا تفنيان ولا تبيدان ومن زعم انهما يفنيان فقد خالف الكتاب والسنة واجماع الامة . تلك هي نتائج البحث والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

١) الفوائد لابن القيم ص ٨

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس الاعلام المترجم لهم

المسلسل	الاسم	الصفحة
١	ابراهيم بن أحمد بن عمر - بن شاقلا البزار الحنبلي -	٥٩٥
٢	ابراهيم بن السرى بن سهل الزجاج	٨٩
٣	أبي بن كعب - الصحابي الجليل	٤٥١
٤	أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية	٤٢
٥	أحمد بن علي بن محمد الكناني - ابن حجر العسقلاني	٤٢
٦	أحمد بن علي الرازى الحنفي - المعروف بالجصاص	٤٤٩
٧	أحمد بن عمر بن ابراهيم - أبو العباس القرطبي	٥٩٤
٨	أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازى	٦٢٦
٩	أحمد بن محمد بن حنبل بن هلا بن أسد الشيباني	٢٥
١٠	اسماعيل بن عبد الرحمن الشهير بأبي عثمان الصابوني	٢٠
١١	اسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدى	١٥٥
١٢	اسماعيل بن عمر بن كثير - عماد الدين -	٥٠
١٣	بشر بن غياث المريسي	١٦٢
١٤	الجعد بن درهم	٦٠
١٥	جمال الدين القاسمي	٤٣٤
١٦	الحسن بن يسار البصرى	٥٢
١٧	الحسن بن عبد الله بن سهل - أبو هلال العسكرى	٦٠٤
١٨	الحسين بن محمد بن عبد الله بن شرف الدين الطيبي	٤٢٥
١٩	الحسين بن مسعود الفراء البغوى	٤٣٨
٢٠	حمد بن محمد أبو سليمان الخطابي	٣٩٩
٢١	رفيع بن مهران الرياحي البصرى - أبو العالية -	٧١٩
٢٢	سعيد بن جبير الاسدى	٣٧١
٢٣	سليمان بن الاشعث - أبو داود السجستاني	٨٦
٢٤	سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب	٢٢٣
٢٥	سهل بن عبد الله التستترى	٢٠٣
٢٦	شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندى	٣٧٣
٢٧	عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي	٥٧
٢٨	عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي	١٣١

المسلسل	الاســـــم	الصفحة
٢٩	عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ	٢٧٥
٣٠	عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوى	١٣٣
٣١	عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي	٣٢
٣٢	عبد الجبار بن أحمد الهمذاني	١٨٥
٣٣	عبد الحق بن غالب - الشهير بابن عطية المحاربي	٣٣١
٣٤	عبد العزيز بن يحيى الكناني	١٦٢
٣٥	عبد الكريم بن هوازن القشيرى	٢٠٢
٣٦	عبد الله بن سبأ	٤١٥
٣٧	عبد الله بن عمر بن علي الشيرازى	١١٠
٣٨	عبد الله بن عدى بن عبد الله بن محمد الجرجاني	٢٣٠
٣٩	عبد الله بن محمد بن أبي شيبة	٧٢٥
٤٠	عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى	٣١٩
٤١	عبد الله بن سعيد بن كلاب	٩٨
٤٢	عثمان بن جني الموصلي - أبو الفتح -	٧٠٧
٤٣	عثمان بن سعيد الدارمي	٢١
٤٤	عطاء بن أبي رباح أسلم القرشي	١٣٢
٤٥	علي بن أحمد الواحدى	٢٧٣
٤٦	علي بن اسماعيل بن اسحاق - أبو موسى الاشعرى -	٤٨
٤٧	علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادى	٧٠
٤٨	عامر بن شراحيل الشعبي	١٣٣
٤٩	عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي	٣٣١
٥٠	غيلان بن سلم الدمشقي	٥٣٦
٥١	قتادة بن دعامة السدوسي	٢٨
٥٢	المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزرى	١٢٣
٥٣	مجاهد بن جبر - أبو الحجاج المخزومي	١٣٢
٥٤	محمد بن ابراهيم آل الشيخ	٢٧٩
٥٥	محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشق-ابن القيم	٣٧
٥٦	محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الانصارى القرطبي	١٩٦
٥٧	محمد بن أحمد بن قايماز - الشهير بالذهبي -	٤٦
٥٨	محمد بن أحمد بن رشد الاندلسي	١٤٨
٥٩	محمد بن أحمد بن سالم السفاريني	١٦٣

المسلسل	الاســـــم	الصفحة
٦٠	محمد بن أحمد بن عبد الملك بن أبي جمرة الاسوى	٦٢٦
٦١	محمد بن ادريس الشـــافعـــــي	٤٥
٦٢	محمد بن اسـحاق بن خزيمـــــة	٣٠
٦٣	محمد بن اسحاق الامير الصنعانـــــي	٣٢٦
٦٤	محمد بن جرير الطـــــبرى	٢٩
٦٥	محمد بن الحسن بن محمـد النقـــاش	٣٣١
٦٦	محمد بن الحسين بن عبد الله أبو بكر الاجـرى	٥٨
٦٧	محمد بن المسائب بن بشر بن عمرو الكلبـــي	١٠٩
٦٨	محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى - ابو بكر بن العربي	٥٩١
٦٩	محمـد بن عبـد الوهـــــاب	٢٧٥
٧٠	محمد بن عثمان بن محمد بن أبي شـــيبة	٧٦٤
٧١	محمد بن علي بن محمـد الشـوكانـــي	٢٦١
٧٢	محمد بن عيسى بن سـورة الترمـــذى	٥٢
٧٣	محمد بن يزيـد بن عبد الاكبر الثمالي - الشهير بالمبرد	٧٠٧
٧٤	محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم الفيروزى آبـادى	١٣٠
٧٥	معبد بن عبد الله بن عويم الجهـــني	٥٣٦
٧٦	معمـر بن المثـنى - أبو عبيـــــده -	٤٣٨
٧٧	مقاتـل بن سـليمان بن كثـير الازدى	٤٥١
٧٨	مالـك بن أنـس بن مالـــــك	٤٤
٧٩	منصور بن العزيز بالله - المعروف بالحاكم العبيدى -	٤١٥
٨٠	النعمان بن ثابت التيمي أبو حنيفـــــة	٤٣
٨١	هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى - اللالكائي -	٤٤
٨٢	هشام بن محمد بن أبي النضر بن السائب الكلبي	٤٤٤
٨٣	وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعانـــي	٧١٥
٨٤	همـام بن غالب التميمي - الشهير بالفرزدق	٧١٦
٨٥	يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف - أبو الحجاج المزى -	٥٩٩

فهرس الأعلام

ثبت المصادر والمراجع

(آ)

- القـــرآن الكـــريـــم .

١ - الابانة عن أصول الديانـــة .
أبو الحسن الاشعرى ت (٣٣٠) ط: الجامعة الاسلامية ١٩٧٥ م

٢ - اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية .
أبوعبد الله محمد بن أبي بكر - بن قيم الجوزية ت(٧٥١) هـ - دار المعرفة - بلا تاريخ .

٣ - الاحتجاج بالقـدر .
لشيخ الاسلام - أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية - ت(٧٢٨) هـ - المكتب الاسلامي .

٤ - أحكـام القـرآن .
أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف - بابن العربي - ت(٥٤٣) هـ - دار المعرفة - بيروت لبنـان -

٥ - أحكـام القـرآن .
أبو بكر أحمد بن علي الرازى - المعروف بالجصاص - ت(٣٧٠) هـ - دار الكتاب العربي بيروت - لبنـان -

٦ - احيـاء علـوم الديـن .
أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ت (٥٠٥) هـ - دار المعرفة بيروت - لبنان ١٣٨٣ هـ .

٧ - الاختلاف في اللفظ .
عبد الله بن مسلم الدينورى - ابن قتيبة - ت (٢٧٦) هـ - منشأة المعارف بالاسكندريـة ١٩٧١ م .

٨ - ارشاد الثقات الى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات .
محمد بن علي الشوكاني ت(١٢٥٠) هـ - ط: ١ - دار المكتب العلمية - بيروت - لبنـان ١٤٠٤ هـ .

٩ - أساس البلاغة .
محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمي ت(٥٣٨) - دار صادر بيروت - ١٣٩٩ هـ .

١٠ ـ أساس التقديس في علم الكلام .
محمد بن عمر بن الحسن الرازى ت (٦٠٦) ـ القاهرة مطبعة الحلبي ١٣٥٤ هـ .

١١ ـ أسباب النزول .
علي بن أحمد الواحدى ت (٤٦٨) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

١٢ ـ الاسماء والصفات .
أحمد بن الحسين البيهقي ـ ت(٤٥٨) هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت بيروت .

١٣ ـ الاشارات والتنبيهات .
أبوعلي الحسين بن عبد الله ـ المعروف بابن سينا ـ ت(٤٢٧) تحقيق سليما دنيا القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٥٠ م .

١٤ ـ الاصابة في تمييز الصحابة ١٠
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت(٨٥٢) هـ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان .

١٥ ـ الاصنام .
أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ت(٢٠٤) هـ تحقيق أحمد زكي ـ الدار القومية القاهرة ـ ١٣٤٣ هـ .

١٦ ـ أصول الدين .
عبد القاهر البغدادى ت (٤٢٩) هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

١٧ ـ أصول الدين .
محمد بن عبد الكريم البزدوى ت(٤٩٣) هـ تحقيق ـ هانز بيترلنس ـ دار احياء الكتب العربية ١٣٨٣ هـ .

١٨ ـ الاصول الثلاثة .
الشيخ محمد بن عبد الوهاب ت(١٢٠٦) هـ ـ المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة .

١٩ ـ أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن .
محمد الامين بن محمد المختار ـ ط : ١ ـ مطبعة المدني ـ ١٣٨٤ هـ .

٢٠ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين .
محمد بن عمر بن الحسن الرازى ت(٦٠٦) هـ تحقيق علي سامي النشار ـ دار الكتب العلمية ـ

٢١ ـ الاعتقاد الى سبيل الرشاد .
أحمد بن الحسين البيهقي ت (٤٥٨) هـ تصحيح أحمد مرسي ـ المطبعة العربية باكستان ـ

٢٢ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين .
أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ت (٧٥١) هـ ـ مكتبة الكليات الازهرية القاهرة ـ ١٣٨٨ هـ .

٢٣ ـ اعلام النبوة .
أبو الحسن علي بن محمد الماوردي ت(٤٥٠) هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان

٢٤ ـ الاعلام . قاموس ترجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين
خير الدين الزركلي ط : ٣ ـ بيروت ـ ١٣٨٩ هـ .

٢٥ ـ اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان .
أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير ـ بابن قيم الجوزية ـ (٧٥١) تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان .

٢٦ ـ الاقتصاد في الاعتقاد .
أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ت(٥٠٥) هـ مكتبة الجندي ـ القاهرة ـ تحقيق محمد مصطفى أبي العلاء .

٢٧ ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ـ ت(٧٢٨) هـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ ط : ٢ مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩ هـ .

٢٨ ـ الاكليل في استنباط التنزيل .
عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت (٩١١) هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط : ١ سنة ١٤٠١ هـ .

٢٩ ـ الامثال في القرآن الكريم .
محمد بن أبي بكر ـ الشهير بابن قيم الجوزية ـ ت (٧٥١) هـ ـ ط ٢ ـ دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ .

٣٠ ـ املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن .

أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى ت(٦١٦) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٣١ - الام - للشافعي -
محمد بن ادريس الشافعي ت(٢٠٤) هـ المطبعة الاميرية القاهرة - ١٣٢١ هـ .

٣٢ - الانسان في القرآن الكريم من البداية الى النهاية .
عبد الكريم الخطيب ط: ١ - دار الفكر العربي - ١٩٧٩ م .

٣٣ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل " المسمى تفسير البيضاوى " .
عبد الله بن عمر الشيرازى البيضاوى ت(٦٨٥) هـ - دار الفكر - ١٤٠٢ هـ .

٣٤ - ايثار الحق على الخلق .
أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الوزير ت(٨٤٠) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

٣٥ - الايمان .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت (٧٢٨) هـ ط: ٢ - المكتب الاسلامي .

(ب)

٣٦ - البحر المحيط .
محمد بن يوسف الشهير - بأبي حيان - الاندلسي الغرناطي ت(٧٥٤) هـ - دار الفكر للطباعة - ١٤٠٣ هـ .

٣٧ - بدائع الفوائد .
محمد بن أبي بكر - الشهير بابن القيم - ت (٧٥١) هـ - المطبعة المنيرية .

٣٨ - البدر الطالع بمحاسن القرن التاسع .
محمد بن علي الشوكاني ت(١٢٥٠) هـ ط: ١ - مطبعة السعادة مصر - ١٣٤٨ هـ

٣٩ - البداية والنهاية .
أبو الفداء - اسماعيل بن عمر الشهير بابن كثير - ت(٧٧٤) هـ ط: ٢ - مكتبة المعارف - بيروت - ١٩٧٧ م .

٤٠ - بذل المجهود في حل أبي داود .
الشيخ خليل أحمد السهارى نفورى ت(١٣٤٦) هـ - شركة الطباعة العربية - الرياض

٤١ - بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز .
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى ت(٨١٧) هـ - المكتبة العلمية - بيروت - لبنان .

٤٢ - بغية الوعاه في طبقات اللغويين والنحاة .
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت(٩١١) هـ - مطبعة البابي الحلبي - ١٣٨٤ هـ

٤٣ - بين الفلاسفة والكلاميين .
محمد عبده - تحقيق سليمان دنيا - دار احياء الكتاب العربي -

(ت)

٤٤ - تأويل مختلف الحديث .
عبد الله بن مسلم الدينوري - الشهير بابن قتيبة ت(٢٧٦) هـ - دار الكتاب العربي بيروت .

٤٥ تاج العروس من جواهر القاموس .
محمد مرتضى الزبيدى ت(١٢٠٥) هـ - منشورات دار الافاق الجديدة - بيروت لبنان .

٤٦ - تاريخ الامم والملوك .
أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ت(٣١٠) هـ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم - دار سويدان بيروت - لبنان .

٤٧ - تاريخ بغداد .
أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ت(٤٦٣) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٤٨ - تاريخ ابن خلدون .
عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ت (٨٠٨) هـ - مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت -

٤٩ - تاريخ الجهمية والمعتزلة .
محمد جمال الدين القاسمي ت (١٣٣٢) هـ ط: ١ - مؤسسة الرسالة - بيروت لبنان

٥٠ - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين .
أبو المظفر الاسفراييني ت(٤٧١) هـ ط: ١ تحقيق كمال يوسف الحوت - عالم الكتب بيروت - ١٤٠٣ هـ .

٥١ - التبيـان في أقسـام القرآن .
للعلامة ابن القيم ت(٧٥١) هـ - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنـان .

٥٢ - تبيـين كذب المفـترى .
علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ت(٥٧١) هـ - دمشق مطبعة التوفيق ١٣٤٧هـ

٥٣ - تجريد التوحيد المفيـد .
أحمد بن علي المقريزى ت(٨٥٤) هـ - المطبعة المنيرية ١٣٧٣ هـ .

٥٤ - تحفة الاحوذى شرح جامع الترمذى .
محمد عبد الرحيم بن عبد الرحيم المباركفورى ت(١٢٥٣)هـ القاهرة مطبعة الفجالة .

٥٥ - تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد .
ابراهيم بن محمد البيجورى ت(١٢٧٧) هـ ط: ١ - دار الكتب العربية - بيروت لبنـان - ١٤٠٣هـ .

٥٦ - التحفة المهدية شرح التدمرية .
الشيخ فالح بن مهدى آل مهدى - مطابع القصيم - الرياض ط: ١ سنة ١٣٨٥ هـ .

٥٧ - تحكيم القوانين .
الشيخ محمد بن ابراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ت(١٣٨٩) هـ - مطابع الجامعة الاسلامية ١٤٠٤هـ .

٥٨ - التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار .
عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ت (٧٩٥) هـ - مكتبة دار البيان ط: ١ سنة ١٣٩٩ هـ .

٥٩ - تذكرة الحفـاظ .
أبوعبد الله محمد بن أحمد الذهبي ت(٧٤٨) هـ - دار احياء التراث العربي بلاتاريخ

٦٠ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الاخرة .
أبوعبد الله محمد بن أحمد فرح الانصارى القرطبي ت(٦٧١) هـ - دار الفكر بلاتاريخ

٦١ - التسهيل لعلوم التنزيل .
محمد بن أحمد بن جزى الكلبي ت (٧٤١) هـ ط: ٤ - دار الكتاب العربي - بيروت لبنـان .

٦٢ - تطهير الاعتقاد عن أدران الالحاد .
محمد بن اسماعيل الامير الصنعاني ت(١١٨٢) هـ - مطبعة دار نشر الثقافة بالاسكندرية ١٣٩٧ هـ .

٦٣ - التعريفات " للجرجاني " .
علي بن محمد الجرجاني ت(٨١٦) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٦٤ - تفسير أبي السعود .
محمد بن محمد العمادي ت(٩٥١) هـ - مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد - القاهرة .

٦٥ - تفسير أسماء الله الحسنى .
أبو اسحاق ابراهيم بن السرى الزجاج ت (٣١١) هـ تحقيق أحمد يوسف الدقاق .

٦٦ - تفسير غريب القرآن .
أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت(٢٧٦) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - تحقيق أحمد صقر .

٦٧ - تفسير القرآن العظيم .
عماد الدين ابن كثير ت(٧٧٤) هـ ط: ٢ - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - لبنان ١٣٨٩ هـ .

٦٨ - تفسير القرآن الحكيم - الشهير بتفسير المنار .
محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت

٦٩ - التفسير القيم .
للامام ابن القيم - جمعه محمد أويس الندوى - تحقيق محمد حامد الفقي - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

٧٠ - التفسير الكبير .
للفخر الرازى ت(٦٠٦) هـ دار احياء التراث العربي .

٧١ - تفسير النسفي .
عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ت(٧١٠) هـ - دار الكتاب العربي - بيروت لبنان

٧٢ - تقريب التهذيب .
للحافظ - ابن حجر العسقلاني - ت(٨٥٢) هـ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - مطابع دار الكتاب العربي مصر .

٧٣ - تكملة شرح الصدور في ذكر أحوال البعث والنشور .
محمد بن محمد البرديسي (مخطوط) في مكتبة - محمد نمر الخطيب- برقم(١٤٠٢)

٧٤ - تلبيس ابليس .
عبد الرحمن بن الجوزى ت(٥٩٧) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٧٥ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد .
أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ت(٤٦٣) هـ تحقيق سعيد أحمد أعراب - الشئون الاسلامية المغرب ١٤٠١ هـ .

٧٦ - التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع .
محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي ت(٣٧٧) هـ ط: القاهرة ١٣٦٨هـ .

٧٧ - التوحيد للنيسابورى .
سعيد محمد النيسابورى - مطبعة دار الكتب والوثائق القومية - ١٩٦٨م .

٧٨ - التوسل أنواعه وأحكامه .
محمد ناصر الدين الالباني ط: ٢ - المكتب الاسلامي ١٣٩٧هـ .

٧٩ - التوصل الى حقيقة التوسل .
محمد نسيب الرفاعي ط: ٢ - دار البيان للطباعة والنشر - ١٣٩٩هـ .

٨٠ - توضيح المقاصد وتصحيح القواعد . شرح قصيدة ابن القيم .
أحمد بن ابراهيم بن عيسى ط: ٢ المكتب الاسلامي ١٣٩٢هـ .

٨١ - تهذيب تاريخ دمشق .
للحافظ علي بن الحسن بن هبة الله - المعروف بابن عساكر - ت(٥٧١) هـ - دار المسيرة - بيروت - بلا تاريخ .

٨٢ - تهذيب التهذيب .
للحافظ ابن حجر العسقلاني ت(٨٥٢) هـ - طبع مجلس دائرة المعارف - الهند حيدر آباد الدكن ١٣٢٥هـ .

٨٣ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال .
للحافظ أبي الحجاج المزى ت(٧٧٢)هـ تحقيق بشار عواد - مؤسسة الرسالة ط: ٢ سنة ١٤٠٣ هـ .

٨٤ - تهذيب اللغة .
أبو منصور الازهرى محمد بن أحمد ت(٣٧٠)هـ - الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٨٥ - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد .
الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ت(١٢٣٣)هـ - مكتب الرياض الحديثة .

٨٦ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان .
للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى ت(١٣٧٦)هـ مطبوعات الجامعة الاسلامية .

(ج)

٨٧ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن .
أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ت(٣١٠) هـ ط: ٢ - البابي الحلبي - ١٣٨٨ هـ

٨٨ - جامع العلوم والحكم .
ابن رجب الحنبلي ت(٧٩٥) هـ مكتبة الرياض الحديثة .

٨٩ - الجامع لاحكام القرآن .
محمد بن أحمد الانصارى القرطبي ت(٦٧١) هـ .

٩٠ - الجرح والتعديل .
للحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازى ت(٣٢٧)هـ - ط: ١ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٩١ - جلاء العينين في محاكمة الاحمدين .
نعمان خير الدين الشهير بابن الالوسي - ت(١٣١٧) هـ - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

٩٢ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي .
للعلامة ابن القيم ت(٧٥١) هـ ط: ٣ - دار المطبعة السلفية - ١٤٠٠ هـ .

(ح)

٩٣ - حادى الارواح الى بلاد الافراح .
للعلامة ابن القيم ت(٧٥١) هـ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٩٤ - الحسنة والسيئة .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت(٧٢٨) هـ تحقيق محمد جميل غازى - مكتبة المدني ومطبعتها -

٩٥ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة .
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت(٩١١) هـ - عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٧م

٩٦ - حلية الاولياء وطبقات الاصفياء .
أبو نعيم أحمد بن عبد الله الاصفهاني ت(٤٣٠) هـ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٩٧ - عدة الصيد .
عبد العزيز الكناني ت(٢٤٠) تعليق اسماعيل الانصارى - نشر ادارة البحوث العلمية بالرياض .

(خ)

٩٨ - خلق أفعال العباد .
للامام محمد بن اسماعيل البخارى ت(٢٥٦) هـ - مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة بمكة

(د)

٩٩ - درء تعارض العقل والنقل .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت (٧٢٨) هـ تحقيق محمد رشاد سالم - ط: ١ - جامعة الامام محمد بن سعود ١٤٠٢هـ .

١٠٠ - الدرر السنية في الاجوبة النجدية .
جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ط: ٢ سنة ١٣٨٥ هـ دار الافتاء الرياض .

١٠١ - دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب .
الشيخ محمد الامين بن محمد المختار - مطبعة المدني - مصر - وهو مطبوع مع الجزء التاسع من أضواء البيان .

١٠٢ - دقائق التفسير - لابن تيمية -
جمع وتحقيق محمد السيد الجليند ط: ١ سنة ١٣٩٨ هـ - دار الانصار بالقاهرة

١٠٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت(٨٥٢) هـ ط: ٢ مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند ١٣٧٣ هـ .

١٠٤ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور .
جلال الدين السيوطي ت (٩١١) هـ

١٠٥ - دلائل النبوة .
أحمد بن الحسين البيهقي ت(٤٥٨) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

١٠٦ - الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب .
ابراهيم بن علي بن محمد بن فرحون ت(٧٩٩)هـ دار الكتب العلمية - بيروت لبنان

١٠٧ الدين الخالص .
محمد صديق حسن القنوجي ت(١٣٠٧) هـ - مطبعة المدني - مصر - ١٣٧٩ هـ

١٠٨ - ديوان أبي العتاهية .
تأليف كرم البستاني - دار صادر .

١٠٩ - ديوان ذى الرمه .
كارليل هيس مكارتني - طبع كمبردج ١٩١٩م .

١١٠ - ديوان جرير بن عطية الخطفي .
كرم البستاني - دار صادر .

١١١ - ديوان عنترة .
تأليف كرم البستاني - دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨ هـ .

(ذ)

١١٢ - ذيل تذكرة الحفاظ .
أبو المحاسن محمد بن علي الدمشقي البغدادى (٧٦٥) هـ - دار احياء التراث العربي - بيروت - لبنان .

(ر)

١١٣ - الرد على الجهمية .
عثمان بن سعيد الدارمي ت(٢٨٠)هـ ط: ٣ تحقيق زهير الشاويش - المكتب الاسلامي

١١٤ - الرد على الجهمية والزنادقة .
الامام أحمد بن حنبل ت(٢٤١)هـ تحقيق عبد الرحمن عميره - دار اللواء الرياض .

١١٥- الرد على المنطقيين .
لشيخ الاسلام ابن تيمية - ت(٧٢٨)هـ دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان

١١٦ - رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء - دار صادر - بيروت .

١١٧ - رسالة أبي الحسن الاشعرى الى أهل الثغر - مصور الجامعة الاسلامية رقم ٢٠١٨)

١١٨ - رسالة في الاعتقاد
لمحمد بن عبد الله بن أبي زمنين ت(٣٧٨) هـ مصور الجامعة الاسلامية رقم ٩٣٨)

١١٩ - الروح لابن القيم ت(٧٥١) هـ تحقيق محمد اسكندر يلدا - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

١٢٠ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم .
محمود الالوسي البغدادى ت(١٢٧٠) هـ - دار احياء التراث العربي - بيروت لبنان .

١٢١ - روضة المحبين لابن القيم ت(٧٥١) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

١٢٢ - الرسالة القشيرية .
أبو القاسم القشيرى ت(٤٦٥) هـ مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح - القاهرة .

١٢٣ - الرسالة المرشية .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت(٧٢٨) هـ ضمن مجموعة الرسائل الكبرى - دار احياء التراث العربي .

١٢٤ - الرسالة المستطرفة .
محمد بن جعفر الكتاني ت(١٣٤٥) هـ - دار الفكر - بيروت - لبنان - ١٤٠٠ هـ .

١٢٥ - رياض الصالحين .
أبو زكريا يحيى بن شرف النووى (٦٧٦) هـ تحقيق عبد العزيز رباح - دار المأمون للتراث ١٤٠٢ هـ .

(ز)

١٢٦ - زاد المسير في علم التفسير .
عبد الرحمن بن الجوزى ت(٥٩٦) هـ ط: ١ المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ

١٢٧ - زاد المعاد في هدى خير العباد .
للامام ابن القيم - ت(٧٥١) هـ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر - ١٣٩٠ هـ

(س)

١٢٨ - سنن أبي داود .
سليمان بن الاشعث السجستاني ت(٢٧٥) هـ ط: ١ سنة ١٣٧١ هـ .

١٢٩ - سنن الترمذى .
أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ت(٢٧٩) هـ - مطبعة المدني - مصر .

١٣٠ - سنن الدارمي .
أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ت(٢٥٥) هـ - دار احياء السنة النبوية

١٣١ - سنن ابن ماجة .
أبوعبد الله محمد بن يزيد القزويني ت(٢٧٥)هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار احياء التراث العربي ١٣٩٥ هـ .

١٣٢ - سنن النسائي .
أحمد بن شعيب بن علي النسائي ت(٣٠٣) هـ - دار احياء التراث العربي - بيروت - لبنان .

١٣٣ - السنة - لعبد الله بن الامام أحمد ت(٢٩٠) هـ .
تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

١٣٤ - السيرة النبوية .
أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى ت(٢١٨) هـ تحقيق جماعة من العلماء - دار الكتب المصرية .

١٣٥ - سير أعلام النبلاء .
محمد بن أحمد الذهبي ت(٧٤٨) هـ تحقيق شعيب الارنؤوط وحسين الاسدى طبعة مؤسسة الرسالة - ١٤٠١ هـ .

(ش)

١٣٦ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية .
محمد بن محمد مخلوف - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان .

١٣٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

١٣٨ - شذرات البلاتين من طيبات كلمات سلفنا الصالحين .
تحقيق محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٣٧٥ هـ .

١٣٩ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة .
أبو القاسم : هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ت(٤١٨) هـ - دار طيبة الرياض .

١٤٠ - شرح الاصول الخمسة .
عبد الجبار بن أحمد الهمذاني ت(٤١٥) هـ ط:١ مطبعة الاستقلال الكبرى القاهرة ١٣٨٤ هـ .

١٤١ - شرح حديث النزول .
لشيخ الاسلام ابن تيمية - ت(٧٢٨) هـ المكتب الاسلامي ط:٥ سنة ١٣٩٧ هـ .

١٤٢ - شرح الطحاوية .
للعلامة ابن أبي العز الحنفي ت(٧٩٢) هـ المكتب الاسلامي ط:٤ سنة ١٣٩١ هـ

١٤٣ - شرح العقيدة الاصفهانية .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت(٧٢٨) هـ ط:١ القاهرة دار الكتب الحديثه ١٣٨٥ هـ

١٤٤ - شرح العقائد النسفية .
سعد الدين التفتازاني ت(٧٩٣) هـ - المطبعة الخيرية بمصر - بلا تاريخ .

١٤٥ - شرح الفقه الاكبر .
لملا علي القاري - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط:١ سنة ١٤٠٤ هـ .

١٤٦ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر .
للعلامة ابن القيم - ت(٧٥١) هـ - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان

١٤٧ - شرح المواقف .
علي بن محمد الجرجاني ت(٨١٦) هـ طبع دار السعادة بجوار محافظة - مصر ١٣٢٥ هـ

١٤٨ - شرح سنن أبي داود .
للعلامة ابن القيم ت (٧٥١) هـ وهو مطبوع على حاشية عون المعبود ط: ٢ سنة ١٣٨٨ هـ - الناشر عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية .

١٤٩ - شرح النووي على صحيح مسلم .
يحيى بن شرف النووي ت(٦٧٦) هـ - دار الفكر - بيروت - لبنان .

١٥٠ - الشريعة .
لابي بكر محمد بن الحسين الاجري ت(٣٦٠) هـ ط: دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

(ص)

١٥١ - صحيح البخاري .
أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ت(٢٥٦) هـ دار احياء الكتب العربية البابي الحلبي وشركاه .

١٥٢ - صحيح مسلم .
أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت(٢٦١) هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبع البابي الحلبي ١٣٧٤ هـ .

١٥٣ - صحيح ابن خزيمة .
محمد بن اسحاق بن خزيمة السلمي ت(٣١١) هـ تحقيق محمد مصطفى الاعظمي طبع المكتب الاسلامي - الطبعة الاولى - ١٣٩٥ هـ .

١٥٤ - صحيح الجامع الصغير .
محمد ناصر الدين الالباني - المكتب الاسلامي - ١٣٩٢ هـ .

١٥٥ - الصحاح للجوهري .
اسماعيل بن حماد الجوهري ت(٣٩٣) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ط: ٢ سنة ١٣٩٩ هـ - طبع على نفقة حسن عباس الشربتلي .

١٥٦ - صفة الصفوة .
أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ت(٥٩٧) هـ - ط: ١ تحقيق محمد فاخر - محمد قلعه جي - مطبعة النهضة الحديثة - القاهرة سنة ١٣٩٠ هـ .

١٥٧ ـ صيانة الانسان عن وسوسة الشيخ دحلان .
محمد بشير الشهسواني الهندى ت(١٣٢٦) هـ ط: ٣ ـ المطبعة السلفية ومكتبتها سنة ١٣٧٨ هـ .

(ض)

١٥٨ ـ الضوء اللامع لاهل القرن التاسع .
محمد عبد الرحمن السخاوى ت(٩٠٢)هـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان .

(ط)

١٥٩ ـ طبقات الحفاظ للسيوطي .
عبد الرحمن بن أبي بكر ت(٩١١) هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

١٦٠ ـ طبقات الحنابلة .
محمد بن أبي يعلى ت(٥٢٦) هـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان .

١٦١ ـ طبقات الشافعية الكبرى .
عبد الوهاب بن عبد الكافي السبكي ت(٧٧١) هـ ط: ١ تحقيق محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٨٤ هـ .

١٦٢ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد .
محمد بن سعد ت(٢٣٠) هـ ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ بدون تاريخ .

١٦٣ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين .
للعلامة ابن القيم ت(٧٥١) هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

(ع)

١٦٤ ـ عارضة الاحوذى بشرح الترمذى .
للعلامة ابن العربي المالكي ت(٥٤٣) هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان

١٦٥ ـ العبودية .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ـ ت(٧٢٨) هـ ـ المكتب الاسلامي للطباعة والنشر .

١٦٦ ـ العقيدة الواسطية ـ
لشيخ الاسلام ابن تيمية مع شرحها لمحمد خليل هراس ـ طبع الجامعة الاسلامية .

١٦٧ - عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة .
للشيخ محمد بن عبد الوهاب ت(١٢٠٦) هـ - المكتب الاسلامي - ط: ٢ سنة ١٣٩١ هـ

١٦٨ - عقيدة السلف وأصحاب الحديث .
أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني ت(٤٤٩)هـ " ضمن مجموعة الرسائل المنيرية " - الناشر محمد أمين دمج - بيروت - لبنان - بدون تاريخ .

١٦٩ - العقائد الاسلامية ،
السيد سابق - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .

١٧٠ - العلو للعلي الغفار ،
للامام الذهبي ت(٧٤٨) هـ - مطبعة العاصمة بالقاهرة - بدون تاريخ .

١٧١ - علماء نجد خلال ستة قرون .
عبد الله بن عبد الرحمن البسام ط: ١ سنة ١٣٩٨ هـ - مكتبة النهضة الحديثة مكة المكرمة .

١٧٢ - عمدة القارى شرح صحيح البخارى .
أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى العيني ت(٨٥٥) هـ - دار الفكر - سنة ١٣٩٩ هـ

١٧٣ - عمل اليوم والليلة .
أبو بكر بن السني ت(٣٦٤) هـ - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان ١٣٩٩ هـ

١٧٤ - عنوان المجد في تاريخ نجد .
تأليف عثمان بن بشر النجدى الحنبلي ت(١٢٨٨)هـ - مكتبة الرياض الحديثه .

١٧٥ - عون المعبود شرح سنن أبي داود .
أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادى ط: ٢ سنة ١٣٨٨ هـ - الناشر محمد عبد المحسن الكتبي .

(غ)

١٧٦ - غاية المدام في علم الكلام .
تأليف سيف الدين الامدى ت(٦٣١)هـ تحقيق حسن محمد عبد اللطيف - مطابع الاهرام التجارية القاهرة - ١٣٩١ هـ .

١٧٧ - فتح (ف)

١٧٧ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري .
لابن حجر العسقلاني ت(٨٥٢) هـ - المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة ١٣٨٠هـ

١٧٨ - الفتح الرباني مع شرحه بلوغ الاماني .
أحمد عبد الرحمن البناء - دار الشهاب - القاهرة - بدون تاريخ .

١٧٩ - فتح القدير .
محمد بن علي الشوكاني ت (١٢٥٠) هـ - دار المعرفة - بيروت - لبنان .

١٨٠ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد .
عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ت(١٢٨٥) هـ - طبع ادارات البحوث العلمية بالرياض ١٤٠٣ هـ .

١٨١ - الفرق بين الفرق .
عبد القاهر البغدادي ت(٤٢٩)هـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مكتبة محمد علي صبيح القاهرة .

١٨٢ - الفروق في اللغة .
الحسن بن عبد الله بن سهل - المعروف بأبي هلال العسكري ت(بعد ٣٩٥) هـ
ط: ١ سنة ١٣٩٣ هـ منشورات دار الافاق - بيروت - لبنان .

١٨٣ - الفتوى الحموية الكبرى .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت(٧٢٨) هـ ط: ٣ سنة ١٣٩٨ هـ - المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة .

١٨٤ - الفصل افي الملل والاهواء والنحل .
أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ت(٤٥٦) هـ ط: ٢ - دار المعرفة - بيروت - لبنان .

١٨٥ - الفوائد .
للعلامة ابن القيم ت(٧٥١) هـ - المكتبة القيمة - بدون تاريخ .

١٨٦ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية .
محمد عبد الحي اللكنوي الهندي - دار المعرفة - بيروت - لبنان .

١٨٧ - فوات الوفيات والذيل عليها .
محمد بن شاكر الكتبي ت(٧٦٤) هـ تحقيق د .احسان عباس - دار صادر - بدون تاريخ

١٨٨ - الفهرست .
لابن النديم ت(٣٨٥) هـ - دار المعرفة - بيروت - لبنان .

(ق)

١٨٩ - قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الانبياء والمرسلين .
الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ت(١٢٨٥) هـ - مكتبة الرياض الحديثه .

١٩٠ - القاموس المحيط .
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ت(٨١٧) هـ - دار الجيل - بيروت لبنان

١٩١ - قواعد الاحكام في مصالح الانام .
للعلامة العز بن عبد السلام ت(٦٦٠) هـ - مكتبة الكليات الازهرية - ١٣٨٨ هـ .

(ك)

١٩٢ - الكبائر .
للامام الذهبي ت(٧٤٨) هـ - مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٣٨١ هـ .

١٩٣ - كتاب التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل .
لابن خزيمة ت(٣١١) هـ تحقيق محمد خليل هراس - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

١٩٤ - كتاب الزهد .
للامام أحمد بن محمد بن حنبل ت(٢٤١) هـ - مكتبة وهبه ١٤٠٠ هـ

١٩٥ - كتاب العرش وما ورد فيه .
محمد بن عثمان بن أبي شيبة ت(٢٩٧) هـ - مصور الجامعة الاسلامية رقم (٥٥٩) مجموع ١

١٩٦ - الكشاف عن حقائق التنزيل .
محمود بن عمر الزمخشرى ت(٥٣٨) هـ - البابي الحلبي - الطبعة الاخيرة ١٣٩٢ هـ

١٩٧ - كشف الشبهات (ضمن مجموعة التوحيد) .
للشيخ محمد بن عبد الوهاب ت(١٢٠٦ هـ) - مكتبة الرياض الحديثة .

١٩٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .
مصطفى عبد الله الشهير بحاجي خليفة - مكتبة المثنى - بيروت .

١٩٩ - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية .
للعلامة ابن القيم ت(٧٥١) هـ - مطبعة التقدم العلمية - مصر - ١٣٤٤ هـ

٢٠٠ - كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار - المشهور بالخطط المقريزية .
أحمد بن علي المقريزى ت(٨٤٥) هـ - دار صادر - بيروت - بدون تاريخ .

٢٠١ - كلمة الاخلاص - لابن رجب - ت(٧٩٥) هـ ط: ٤ - المكتب الاسلامي .

٢٠٢ - الكتاب المقدس المتضمن كتب العهد القديم والجديد .
دار الكتاب المقدس - القاهرة .

٢٠٣ - الكامل في ضعفاء الرجال .
عبد الله بن عدى الجرجاني ت(٣٦٥) هـ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٠٤ - الكامل في التاريخ .
أبو الحسن علي بن محمد - الشهير بابن الاثير - ت(٦٣٠) هـ - دار صادر بيروت

٢٠٥ - الكواشف الجلية عن معاني الواسطية .
عبد العزيز المحمد السلمان ط: ٤ - بدون تاريخ .

٢٠٦ - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة .
نجم الدين الغزى ت(١٠٦١) هـ تحقيق جبرائيل سليما جبور - منشورات دار الافاق الجديدة ط: ٢ سنة ١٩٧٩م .

(ل)

٢٠٧ - اللباب في تهذيب الانساب .
أبو الحسن علي بن محمد - الشهير بابن الاثير - ت(٦٣٠) هـ - دار صادر بيروت

٢٠٨ - لباب التأويل في معاني التنزيل - المشتهر بتفسير الخازن .
علي بن محمد بن ابراهيم البغدادى ت(٧٢٥) هـ - المكتبة التجارية بمصر .

٢٠٩ - لباب النقول في أسباب النزول .
جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت(٩١١) هـ - دار احياء العلوم بيروت

٢١٠ - لسان العرب .
جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ت(٧١١) هـ - دار صادر بيروت .

٢١١ - لسان الميزان .
للعلامة ابن حجر العسقلاني ت(٨٥٢) هـ منشورات مؤسسة الاعلمي - بيروت لبنان

٢١٢ - لمعة الاعتقاد الهادى الى سبيل الرشاد .
أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠) هـ - المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة - ١٣٧٠ هـ .

٢١٣ - لوامع الانوار البهية .
محمد بن أحمد السفاريني ت(١١٨٨) هـ طبع المنار - ١٣٢٥ هـ .

(م)

٢١٤ - مبادئ الاسلام .
أبو الاعلى المودودى - مؤسسة الرسالة - ١٣٩٧ هـ .

٢١٥ - متشابه القرآن .
عبد الجبار بن أحمد ت(٤١٥) هـ تحقيق عدنان زرزور - القاهرة - دار التراث ١٩٦٩م

٢١٦ - مجاز القرآن .
أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ت(٢١٠) هـ ط: ٢ مكتبة الخانجي - دار الفكر .

٢١٧ - مجموعة التوحيد - لابن تيمية - والشيخ محمد بن عبد الوهاب - المكتبة السلفية

٢١٨ - مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ت(١٢٠٦) هـ مكتبة الرياض الحديثة

٢١٩ - مجموعة الرسائل الكبرى .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت(٧٢٨) هـ - دار احياء التراث العربي .

٢٢٠ - مجموعة الرسائل المنيرية .
ادارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٣ هـ الناشر محمد أمين دمج - بيروت .

٢٢١ - مجموعة الرسائل والمسائل .
لشيخ الاسلام ابن تيمية - مطبعة المنار - مصر - الطبعة الاولى - ١٣٤١ هـ

٢٢٢ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .
علي بن أبي بكر الهيثمي ت(٨٠٧) هـ ط٣ دار الكتاب العربي - بيروت لبنان ١٤٠٢ هـ

٢٢٣ - محاسن التأويل .
محمد جمال الدين القاسمي ت(١٣٣٢) هـ - دار الفكر - بيروت .

٢٢٤ - محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين .
محمد بن عمر الرازي ت(٦٠٦) هـ - مكتبة الكليات الازهرية - القاهرة - مراجعة طه عبد الرؤوف .

٢٢٥ - مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .
عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ط: ٢ القاهرة المطبعة السلفية ١٣٩٦ هـ .

٢٢٦ - مختصر الصواعق المرسلة .
للعلامة ابن القيم - ت(٧٥١)هـ - مكتبة الرياض الحديثة .

٢٢٧ - مختصر منهاج السنة .
أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي ت(٧٤٨) هـ مكتبة دار البيان تحقيق محب الدين الخطيب .

٢٢٨ - مختار الصحاح .
محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت(٦٦٦) هـ دار الكتاب العربي - بيروت لبنا

٢٢٩ - المخصص لابن سيده .
أبو الحسين علي بن اسماعيل النحوي ت(٤٥٨) هـ - مطبعة دار الكتاب المصرية - القا

٢٣٠ - مدارج السالكين .
للعلامة ابن القيم ت(٧٥١) هـ - دار الفكر - تحقيق محمد حامد الفقي .

٢٣١ هـ مراتب الاجماع .
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ت(٤٥٦) هـ دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

٢٣٢ - المستدرك على الصحيحين .
أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ت (٤٠٥) هـ .

٢٣٣ - المصباح المنير .
أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت(٧٧٠) هـ المكتبة العلمية - بيروت لبنان

٢٣٤ - المصنف .
عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ت(٢٣٥) هـ - الدار السلفية بومباى - الهند - ط: ١ سنة ١٤٠٣ هـ .

٢٣٥ - معجم البلدان .
شهاب الدين - ياقوت بن عبد الله الحموى الرومي ت(١٢٢٩) هـ - دار صادر - بيروت

٢٣٦ - معجم الادباء .
أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومي - دار احياء التراث العربي بيروت لبنان

٢٣٧ - المعجم الصغير للطبراني .
سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ت(٣٦٠) هـ - المكتبة السلفية - ط: ١

٢٣٨ - المعجم الكبير .
سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ت(٣٦٠) هـ - مطبعة الامة بغداد - تحقيق عبد المجيد السلفي .

٢٣٩ - المعجم الوسيط .
اخراج ابراهيم أنيس وآخرين ط: ٢ - القاهرة الهيئة العامة للكتاب - ١٣٩١ هـ

٢٤٠ - معجم مقاييس اللغة .
أبو الحسين أحمد بن فارس ت(٣٩٥) هـ ط: ٢ - البابي الحلبي - ١٣٩٠ هـ

٢٤١ - معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية .
عمر رضا كحالة - دار احياء التراث العربي - لبنان بيروت .

٢٤٢ - معارج الالباب في مناهيج الحق والصواب .
حسين بن مهدى النعمي ت(١١٨٧) هـ - مكتبة المعارف الرياض .

٢٤٣ - معارج القبول .
الشيخ حافظ بن أحمد حكيم ت( ) - المطبعة السلفية ومكتبتها .

٢٤٤ - معالم التنزيل " المسمى تفسير البغوى " .
أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعي ت(٥١٦) - المكتبة التجارية الكبرى مصر .

٢٤٥ - معالم السنن .
للخطابي حمد بن محمد بن ابراهيم الخطاب ت(٣٨٨) هـ - دار الحديث للطباعة بيروت - لبنان ١٣٨٨ هـ .

٢٤٦ - المعلقات السبع مع شرحها .
الحسين بن أحمد الزوزني - دار صادر - بيروت - لبنان .

٢٤٧ - المغني في أبواب التوحيد والعدل .
عبد الجبار بن أحمد ت(٤١٥) هـ - طبع المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة بلاتاريخ

٢٤٨ - المفردات في غريب القرآن .
الحسين بن محمد - المعروف بالراغب الاصفهاني ت(٥٠٢) هـ - مصطفى البابي الحلبي

٢٤٩ - مفتاح دار السعادة .
للعلامة ابن القيم ت(٧٥١) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٢٥٠ - مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين .
أبو الحسن الاشعرى ت(٣٣٠) هـ - مكتبة النهضة المصرية .

٢٥١ - المنتظم في أخبار الملوك والامم .
لابي الفرج بن الجوزى ت(٥٩٧) دار الثقافة بيروت - لبنان .

٢٥٢ - منهاج السنة النبوية .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت(٧٢٨) هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٢٥٣ - المنجد في اللغة والاعلام . دار المشرق بيروت - ط : ٢٦ تاريخ ١٩٧٣ م

٢٥٤ - المنهاج في شعب الايمان .
أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي ت(٤٠٣) هـ ط : ١ سنة ١٣٩٩ هـ

٢٥٥ - موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان .
نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٢٥٦ - الموطأ للامام مالك بن أنس ت(١٧٩) هـ - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٥ هـ

٢٥٧ - المواقف في علم الكلام .
عبد الرحمن الايجي ت(٧٥٦) هـ - عالم الكتب بيروت .

٢٥٨ - ميزان الاعتدال .
محمد بن أحمد الذهبي ت(٧٤٨) هـ تحقيق علي محمد البجاوى - دار المعرفة بيروت - لبنان .

(ن)

٢٥٩ - النبوات .
لشيخ الاسلام ابن تيمية ت(٧٢٨) هـ - دار القلم بيروت - لبنان .

٢٦٠ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ت(١١٧٤) هـ - دار الكتب - ١٣٩١ هـ

٢٦١ - نقض تأسيس الجهمية لابن تيمية ت(٧٢٨) هـ ط: ١ مطبعة الحكومة بمكة ١٣٩١هـ

٢٦٢ - نقض المنطق لشيخ الاسلام ابن تيمية .
مكتبة السنة المحمدية - تصحيح - محمد حامد الفقي .

٢٦٣ - نهاية الارب في فنون الادب .
أحمد بن عبد الوهاب النويرى ت(٧٣٣) هـ - دار الكتب المصرية - ١٣٤٢ هـ .

٢٦٤ - النهاية في غريب الحديث والاثر .
لابن الاثير الجزى ت(٦٠٦) هـ - المكتبة الاسلامية .

٢٦٥ - النهاية لابن كثير ت(٧٧٤) هـ ط: ١ مؤسسة النور - الرياض - ١٣٨٨ هـ

٢٦٦ - نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر .
محمد بن محمد زبارة - المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة - ١٣٤٢ هـ .

(هـ)

٢٦٧ - هدى الساري مقدمة فتح الباري .
للحافظ بن حجر العسقلاني ت(٨٥٢) هـ - المطبعة السلفية ومكتبتها .

٢٦٨ - الهدية السنية التحفة الوهابية النجدية
جمع وترتيب " الشيخ سليمان بن سحمان النجدى - مكتبة التوفيق .

٢٦٩ - هدية العارفين ،
اسماعيل باشا البغدادي - منشورات مكتبة المثنى - بيروت .

(و)

٢٧٠ - الوابل الصيب من الكلم الطيب .
للعلامة ابن القيم ت (٧٥١) هـ - ط : ٤ - المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٩٨ هـ

٢٧١ - وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان .
أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت(٦٨١) هـ - البابي الحلبي سنة ١٣١٠هـ .

٢٧٢ - الوفاء بأحوال المصطفى .
عبد الرحمن بن الجوزي ت (٥٩٧) هـ تحقيق مصطفى عبد الواحد - مطبعة السعادة مصر - ١٣٨٦هـ .

(ى)

٢٧٣ - يقظة أولي الاعتبار .
صديق حسن خان ت (١٣٠٧) هـ - مطبعة الامتياز ط: ١ سنة ١٣٩٨هـ .

فهرس الموضوعات

فهـــرس الموضـــوعـــات

الموضـــــــــــــــوع	الصفحـــة
المقـــدمـــــــــــة	١
سـبب اختيـار البحـــــــث	٨
منـهج البحـــــــــــث	٩
خطـــة البحـــــــــــث	١٢
البـــاب الاول	
دلالة السورة على الايمان بالله تعالـى	
الفصـل الاول : دلالة السورة على توحيد الاسماء والصفـات	١٨
المبحث الاول : تعريف توحيـد الاسماء والصفات	١٩
أربعة أمور ينبغي أن تعلم نحو أسماء الرب جل وعلا	٢٢
المبحث الثاني : اثبات صفة العلو والفوقية بنص القرآن والسنة والاجماع	٢٧
الدليل الفطرى على علو الله تعالى وفوقيته على جميع اخلقه	٤٦
الدليل العقلي على علو الله تعالى وفوقيته على جميع المخلوقات	٤٨
ذكر بعض شبه الجهمية في نفي صفة العلو وابطالها .	٤٩
المبحث الثالث : القرآن كلام الله منزل غير مخلـوق	٥٦
أول من أحدث القول بخلق القرآن	٦٠
مذهب السلف في صفة الكـــلام	٦١
مذهب الفلاسفة والمتكلمين والرد عليهم	٦٢
مذهب الجهمية في صفة الكـــلام	٦٤
مذهب المعتزلة في صفة الكلام وبيان بطلانـه	٦٥
مذهب الكلابيـة	٧٣
مذهب الاشاعـــــرة	٧٤
مذهب الكراميـــــة	٧٦
مذهب السالميـــــة	٧٧
مذهب الاتحاديـة والحلولية	٧٨
الواجب على المسلم اعتقاده في صفة الكـلام	٧٨
المبحث الرابع : اثبات صفة العـزة	٨٠
صفة العزة لهـا ثلاثة معـان	٨٤
صفة العزة تنقسم الى قسمين من حيث اضافتها الى الله ـ عز وجل ـ	٨٥

الموضـــــوع	الصفحة
دلالة السنة على اثبات صفة العزة	٨٥
المبحث الخامس : اثبات صفة الحكمة ـ للبارى جل وعلا ـ	٨٩
الحكمة نوعـــان	٩٠
اجماع المسلمين على أن الله تعالى موصوف بالحكمة	٩٣
آراء الناس في صفة الحكمة وبيان الراجح منهـــا	٩٥
المبحث السادس : تنزيه الله تعالى من نسبة الولد اليه	١٠٢
قول بعض مشركي العرب أن الملائكة بنات الله وبيان بطلانه	١٠٥
رد دعوى اليهود في أن عزيرا ابن اللـه	١٠٨
ابطال دعوى النصارى في أن عيسى ابن اللـه	١١٢
المبحث السابع : اثبات صفتي الوحدانية والقهر ـ لله جل وعلا ـ	١٢٣
المبحث الثامن : اثبات صفتي الرحمة والمغفرة ـ للبارى تعالى ـ	١٣٠
الرحمة قسمان : عامة ، وخاصـة	١٣٨
الرحمة المضافة الى الله تعالى نوعان	١٣٩
شبهة الجهمية والمعتزلة في تفهيم صفة الرحمة وابطالها من وجوه	١٤٠
تأويل الاشعرية لصفة الرحمة بارادة الاحسان والرد عليه	١٤١
المبحث التاسع : اثبات صفة الغنى للـه تعالى	١٤٣
ابطال قول الفلاسفة في أن علة افتقار الخلائق اليه ـ سبحانه ـ في حال الاحداث فقط .	١٤٧
ذكر بعض الاحاديث الدالة على أن الله تعالى متصف بصفة الغنى	١٤٩
المبحث العاشر : اثبات صفة الرضا	١٥١
الرد على أبي علي الجبائي في استدلاله بقوله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر) على أن العبد يخلق أفعالـه	١٥٥
الرد على المؤولين بصفة الرضا بالارادة	١٥٨
المبحث الحادى عشر : اثبات صفة العلـم	١٥٩
رد الامام عبد العزيز الكناني المكي على بشر المريسي في نفيه صفـة العلـم .	١٦٢
مذهب الفلاسفة في صفة العلم وبيان بطلانـه	١٦٣
دلالة السنة والعقل على اثبات صفة العلم ـ للبارى جلا وعلا ـ	١٦٣
المبحث الثاني عشر : بيان معنى اسمه تعالى " الوكيل "	١٦٦
اختلاف المعتزلة في هل يقال انه تعالى "وكيل" على قولين والرد عليهم	١٧١
المبحث الثالث عشر : اثبات صفة اليدين للبارى ـ جلا وعلا ـ	١٧٣

الموضوع	الصفحة
ابن عبد البر ينقل اجماع أهل السنة على الاقرار بصفات الله -عز وجل الواردة في الكتاب والسنة على وجه الحقيقة ومنها صفة اليدين ...	١٨٢
مذهب المشبهة في صفة اليدين وبيان بطلانه شرعا وعقلا	١٨٣
مذهب المعتزلة والاشعرية في صفة اليدين وبيان بطلانه من وجوه سبعة .	١٨٥
الفصل الثاني : الفصل الثاني	
دلالة السورة على توحيد العبادة	١٩٠
المبحث الاول : تعريف توحيد العبادة .	١٩١
العبادة لابد أن يتحقق فيها أمران	١٩٢
المبحث الثاني : وجوب افراد الله تعالى بتوحيد العبادة	١٩٤
المبحث الثالث : أهمية الاخلاص في توحيد العبادة	٢٠٠
معنى الاخلاص في اللغة	٢٠١
حقيقة الاخلاص في الشرع	٢٠٢
تأكيد السنة على أهمية الاخلاص	٢٠٦
كيف يستطيع الانسان تحقيق الاخلاص	٢٠٨
المبحث الرابع : عبودية الدعاء وتعريفه لغة وشرعا	٢١٠
يجب على الانسان أن يعلم أن كل مابه من نعمة فمن الله	٢١٣
اسناد الانسان نعم الله الى نفسه من علامة الخذلان	٢١٤
الدعاء في القرآن الكريم نوعان دعاء عبادة ، ودعاء مسألة	٢١٦
تزيين الشيطان لبعض المسلمين دعاء أهل القبور والاستغاثة بهم	٢٢٢
المقصود بالزيارة الشرعية للمقابر أمران	٢٢٢
دلالة السنة على أن الدعاء عبادة لا يستحقها الا الله تعالى	٢٢٤
السبب الذي جعل بعض المسلمين يدعون من لا يملك لهم ضرا ولانفعا من الاموات وغيرهم	٢٢٦
الدعاء من أوضح صور العبادة فلايجوز صرفه لغير الله تعالى كائنا من كان	٢٣٢
المبحث الخامس : عبودية الخوف وتعريفه لغة وشرعا	٢٣٤
الفرق بين الوجل والخوف والخشية والرهبة	٢٣٨
أنواع الخوف	٢٣٩
دلالة السنة على أن الخوف لا يكون الا من الله ولا يصرف لاحد سواه	٢٤٤
المبحث السادس : عبودية الرجاء وبيان حقيقته لغة واصطلاحا	٢٤٨
اختلاف العلماء في أي يكون الغالب على العبد الخوف أم الرجاء	٢٥٢

الموضـــوع	الصفحة
حث الله جميع عباده في أن يتعبدوه بالرجاء وحده لا شريك له	٢٥٣
من أحب مخلوقا مثل محبة الله تعالى فهو مشرك	٢٥٦
دلالة السنة على عبودية الرجـــــــــاء	٢٥٧
رد العلامة ابن القيم على بعض الصوفية القائلين بأن الرجاء وقوع في الرعونة	٢٥٩
المطلوب من العبد أن يمضي حياته بين الخوف والرجاء	٢٦١
المبحث السابع : انقسام العبودية الى عامة ، وخاصـــة	٢٦٢
المبحث الثامن : الاسلام دين جميع الانبياء والرسـل	٢٦٥
المبحث التاسع : بيان الطاغوت الذى أوجب الله على عباده أن يجتنبوه	٢٧٠
معنى الطاغوت لغة واصطـــلاحا	٢٧٢
رؤوس الطواغيت خمســـــــــة	٢٧٦
الصور التي ان فعلها الحاكم في حكمه آخرجته من الملة	٢٧٩
المبحث العاشر : عبودية الانابة وتعريفها لغة وشـرعـا	٢٨٤
الانابة نوعـــان	٢٨٨
انابة الموحدين المخلصين تتضمن أربعة أمور	٢٨٨
مراتب الناس في الانابـــة	٢٩١
المبحث الحادى عشر : عبودية التوكل وتعريفه لغة واصطلاحا	٢٩٤
الايات الدالة على عبودية التوكـــــــل	٢٩٦
التوكل على الله نوعـــــــــــان	٣٠٢
فضل التوكل على الله تعالى	٣٠٤
التوكل لا يتحقق الا بأمريـــن	٣١٠
التوكل والاســـــــباب	٣١١
المبحث الثاني عشر : الشفاعة نوعان ، منفية ، ومثبته	٣١٦
السبب الذى جعل عباد الاصنام وعباد القبور أن يطلبوا الشفاعة من غير الله تعالى .	٣٢٢
الفرق بين الشفاعة عند المخلوقين والشفاعة عند الله تعالى	٣٢٣
حقيقة الشـــفاعة المثبتـــة	٣٢٨
مذهب المعتزلة في نفي الشفاعة لاهل الكبائر والرد عليهم	٣٢٩
أنواع الشـــفاعة المثبتـــــــــة	٣٣١
دلالة السنة على ثبوت الشفاعة لاهل الكبائر	٣٣٧
الشفاعة لا تنال الا بتجريد التوحيد لله رب العالمين	٣٤٠

الموضـــــوع	الصفحـة
الرسل بعثوا جميعا للدعوة الى توحيد الله بتوحيد العبادة	٣٤١
الفصل الثالث :	
دلالة السورة على توحيد الربوبيـة	٣٤٥
المبحث الاول : تعريف توحيد الربوبيـــة	٣٤٦
معنى الرب في اللغـــة	٣٤٦
التعريف الاصطلاحي لتوحيد الربوبيـــة	٣٤٧
المبحث الثاني : دلائل توحيد الربوبية من السورة	٣٥٠
١ - خلق السموات والارض	٣٥٠
٢ - تعاقب الليل والنهار	٣٥٦
٣ - تسخير الشمس والقمر لتهيئة مصالح العباد ومنافعهم	٣٥٨
٤ - خلقه تعالى بني آدم من نفس واحدة	٣٦٢
٥ - تذكير العباد بمرحلة التكوين في الارحام	٣٦٣
٦ - الاستدلال بخلق الازواج الثمانية من الانعام على ربوبيته تعالى	٣٧٠
٧ - انزال المطر وانبات النبات	٣٧٤
٨ - تصرفه تعالى في شئون خلقه	٣٧٩
٩ - بسطه تعالى الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء	٣٨٣
١٠ - مقاليد السموات والارض بيده - سبحانه -	٣٨٦
المبحث الثالث : اقرار المشركين الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم بوجود الله تعالى	٣٨٩
بيان ضعف معبودات المشركين وعجزها	٣٩٤
المبحث الرابع : الاقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الاقرار بتوحية الالوهية	٤٠٣
الفصل الرابع :	
ما جاء في السورة بشأن الشـــرك	٤٠٨
المبحث الاول : تعريف الشـــــرك	٤٠٩
المبحث الثاني : أنواع الشرك الذى هو أعظم ذنب عصي الله به	٤١٣
الشرك الاكبر نوعان شرك في الالوهية ، وشرك في الربوبية	٤١٥
شرك الاولين أخف من مشركي زمننا بأمرين	٤١٨
تعريف الشرك الاصغـــــر	٤٢١
الفرق بين الشرك الاكبر والاصغر من وجوه أربعـــة	٤٢٢
تعريف الشرك الخفي الذى لا يسلم منه الا من سلمه الله تعالى	٤٢٣
كفارة الشرك الخفي اذا وقع فيه الانسـان	٤٢٦

الموضـــوع	الصفحة
الكفر نوعان أكبر ، وأصغر	٤٢٧
تعريف النفاق في اللغة	٤٢٩
النفاق اعتقادى ، وعملي	٤٣٠
المبحث الثالث : أصل الشرك في بني الانسان وبيان سببه	٤٣٢
المبحث الرابع : ذم الانسان على جعله أندادا لله تعالى	٤٣٧
معنى الند	٤٣٨
ذكر بعض أنواع المعبودات التي عبدت من دون الله تعالى	٤٤٠
الاصنام والاوثان وسبب عبادتها من دون الله تعالى عند مشركي العرب	٤٤١
عبادة الهوى	٤٤٧
عبادة الاجرام السماوية	٤٤٨
عبادة الملائكة	٤٥٠
المعبود من دون الله تعالى اما عاقل ، أو غير عاقل	٤٥١
المبحث الخامس : الفرق بين الشرك والتوحيد	٤٥٦
المبحث السادس : التحذير من الشرك وبيان أنه محبط للعمل	٤٦٤
الدواوين عند الله تعالى ثلاثة	٤٦٥
بيان التشبيه للمشرك في قوله تعالى (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء)	٤٦٦
أجناس الظلم الثلاثة	٤٦٩
لماذا كان الشرك بالله أظلم الظلم وأقبح القبيح	٤٧٠
الباب الثاني	
دلالة السورة على وجوب الايمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر	٤٧٢
الفصل الاول : دلالة السورة على وجوب الايمان بالملائكة	٤٧٣
المبحث الاول : تعريف الملائكة ومن أى شيء خلقوا . . . ؟	٤٧٤
الملائكة أقدرهم الله على التشكل بأشكال مختلفة	٤٧٥
كيفية الايمان بالملائكة	٤٧٧
المبحث الثاني : ذكر بعض أعمال الملائكة التي أنيطت بهم	٤٧٨
الفصل الثاني : دلالة السورة على وجوب الايمان بالكتب	٤٨٥
المبحث الاول : كيفية الايمان بالكتب السابقة	٤٨٦
دلالة السنة على وجوب الايمان بالكتب	٤٩١
المبحث الثاني : كيفية الايمان بالقرآن	٤٩٤

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث	
دلالة السورة على وجوب الايمان باليوم الاخر	٥٨٤
الفصل الاول : مباحث في اليوم الاخر قبل دخول الجنة والنار	٥٨٥
تمهيد	٥٨٦
المبحث الاول : النفخ في الصور ومعناه في اللغة والاصطلاح	٥٨٨
معنى الصور	٥٨٩
عدد النفخات في الصور ثلاث	٥٩١
النفخة الاولى : نفخة الفزع	٥٩١
النفخة الثانية : نفخة الصعق	٥٩٤
النفخة الثالثة : نفخة البعث	٦٠١
المبحث الثاني : بعث الموتى من قبورهم	٦٠٣
اختلاف الناس في هل المبعوث هو الجسد الاول بعينه أو غيره	٦٠٦
الايات القرآنية والاحاديث النبوية تقرر أن المبعوث هو الجسد الاول بعينه	٦٠٨
المبحث الثالث : عناية القرآن باثبات البعث وذكر بعض المسالك التي سلكها لاثباته	٦١٤
المبحث الرابع : أرض المحشر	٦٢٣
صفة هذه الارض	٦٢٥
بيان خلاف العلماء في أرض المحشر	٦٢٨
المبحث الخامس : كتاب الاعمال واهتمام القرآن به	٦٣٤
كيفية أخذ كتاب الاعمال يوم القيامة	٦٣٩
المبحث السادس : جزاء الاعمال يوم القيامة	٦٤٣
عمل الانسان له ثلاث حالات اما أسوأ ، أو أحسن ، أو لا أسوأ ولا أحسن	٦٤٦
الفصل الثاني : النار دار الكافرين	٦٥٤
تمهيد	٦٥٥
المبحث الاول : كيفية دخول أهل النار النار	٦٥٦
المبحث الثاني : أبواب جهنم وعددها وأنها طبقات بعضها فوق بعض	٦٦٢
المبحث الثالث : خزنة جهنم وعدتهم	٦٦٧
المبحث الرابع : احاطة النار بأهلها وشدة عذابها	٦٧٢
المبحث الخامس : صفات أهل النار وبيان أصنافهم أعاذنا الله منهم	٦٨٢
المبحث السادس : أبدية النار ودوام عذابها	٦٩٣

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الثالث : الجنـــة دار المتقـــــين	٧٠١
تمهيـــــــــد	٧٠٢
المبحث الاول : كيفية دخول أهل الجنة الجنـــة	٧٠٤
المبحث الثاني : أبـواب الجنـة وعددها ، وذكر أسماء بعضها	٧٠٧
ســـعـــة أبوابهـــــــــا	٧١٣
مقدار المسافة التي تكون بين كل بابـــين	٧١٤
مفتاح الجنـــة " لا اله الا الله "	٧١٥
المبحث الثالث : خزنـــة الجنـــــــة	٧١٧
المبحث الرابع : أرض الجنـــــــــة	٧١٩
الاعـمال أسباب في دخول الجنة لا أثمان وأعـواض	٧٢٢
صفة أرض الجنـــــــــــة	٧٢٤
المبحث الخامس :صفات أهل الجنة التي يتميزون بها عن غيرهم في الدنيا	٧٢٧
المبحث السادس : غرف الجنـة ، وقصورهـا ، وأنهارهـا	٧٣٦
غـرف الجنـــة وصفتـــــــا	٧٣٦
قصـــور الجنـــــــــة	٧٤١
أنهـــــار الجنـــــــــة	٧٤٤
المبحث السابع : أبديـة الجنـة ودوام نعيمهـــا	٧٥١
المبحث الثامن : وجوب الايمان بالعرش وأنـه سقف الجنـــة	٧٥٨
الخاتمـــة	٧٦٧
الفهـــارس	
فهـرس الاعلام المترجـم لهـــــم	٧٧٤
فهـرس المصادر والمراجـــــــع	٧٧٧
فهـرس الموضـوعـــــــــات	٨٠٣